

RAR-410

V.3

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

1871

068.569

M 23mA

V. 3

C. 1
مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



محاضرات

المجمع العلمي العربي

الجزء الثالث

دمشق

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م

الكتاب في بيان ما في القرآن من المعاني



شاهنشا

الكتاب في بيان ما في القرآن من المعاني

في التفسير

حقوق الطبع محفوظة للجمع العالمي العربي

1977

القسم الأول

في ثلاث عشرة محاضرة

المتوفين من أعضاء المجمع العلمي العربي

« رحمهم الله »

دائرة المسقاة

تحت إشراف
مديرها العام

بغداد

أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العكبرية

للأستاذ محمد كرد علي

علم المشرقيات ومقاصد الغربيين :

كان اول احتكاك وقع بين العرب وأهل الغرب من الاوربيين ، يوم فتح العرب الشام ومصر وما اليهما من بلاد الروم . ولما فتحت الاندلس أو اسبانيا والبرتغال الا قليلاً زاد هذا الاختلاط ، ثم أصبح على آتمة لما توطن ملك بني أمية في الاندلس في القرن الثاني والثالث والرابع ، واتسعت رقعة هذا الاختلاط بفتح العرب جزيرة صقلية ، وتبسطهم في جنوبي ايطاليا في القرن الثالث . ومنشأ هذا الاختلاط في الاكثر الحاجة الى الاتجار ودواعي الجوار . وكان تسامح الدولتين الأموية في الشرق ثم في الغرب ، والدولة العباسية في الشرق والغرب ، من أهم الدواعي الى هذا التمازج . وكان ذلك كان يومئذ من حكومات العرب من باب تفضل الكبير على الصغير ، والعالم على الجاهل ، ولا غرابة في صنيعهم فالاسلام عرف بالتسامح ، والعرب من أهله خاصة أكثر الأمم ممارسة له كما ثبت بنصوص التاريخ الصحيح .

زاد هذا التمازج في الحروب الصليبية ، فاستفاد الصليبيون من العرب فوائد علمية واجتماعية حمة ، وقد رأوا مدينة أرقى من مدينتهم إذ ذاك ، وعلماً وصناعات لا عهد لهم بها ، وأخلاقاً ووفاءً وعهداً ندرت في غيرهم ، فاستعاضوا بما حملوا معهم من الأوضاع عما خسروه من الرجال والمال ،

واغتنبوا بما كسبوا ، وتعزوا عما لقوا من الشدائد . وكان تعلم كثير من الصليبيين اللغة العربية ، واشتهر بذلك بعض أمراءهم وقوادهم وأذكياءهم وأهل الفكر منهم ، بل كان بعض الاوربيين قبل الحروب الصليبية يمتثلون الى الأندلس ويأخذون العلم عن علماءها ، ومنهم البابا سلفستر الثاني الذي جلس على كرسي البابوية سنة ٩٩٩ م وهو من أصل افرنجي درس في قرطبة واشيائية على علماء العرب الرياضيات والفلك ورسم الأرض ، كما تعلم سانجه (Sanche) ملك ليون واستوريا الملقب بالسجين الطب على علماء قرطبة .

وكان جميع ملوك الافرنج على ماروي فولتير يستخدمون أطباء من العرب واليهود ، كما كان كثير من أذكياء الجلالة والقشطلين والليونيين والنافاريين ومن كان في البلاد الأندلسية تحت أحكام المسلمين من المسيحيين يتعلمون العربية للتوظيف في الأندلس والاتجار مع أهلها الى غير ذلك من المرامي .

ولما بدا للباباوات أن ينشئوا الرهبانات في القرون الوسطى لبث الدعوة الدينية بين أبناء الشرق في آسيا وافريقية وفي الأندلس وصقلية من قارة أوروبا ، ثبت لهم انه لا سبيل الى النجاح في هذا المشروع إلا بتعلم لغات المشاركة ولا سيما العربية . ففضى بجمع فينا سنة ١٣١١ م برئاسة البابا اكلنتس الخامس أن تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وصلنكة ، أي في عواصم العلم في فرنسا وانكلترا وإيطاليا واسبانيا على ذلك العهد دروس عربية وعبرانية وكلدانية وسريانية يتخرج بها الوعاظ والدعاة . وكانت المدرسة الطبية في مونبليه في فرنسا أنشئت سنة ١٢٢٠ وجعلت جل اعتمادها في التدريس على علماء الأندلس فكانت تقرأ فيها اللغة العربية لتفهم العلوم المكتوبة بها . ثم كثر إنشاء الجامعات في الغرب وكان تأسيس أول جامعة في أوروبا الوسطى في كراكو من مدن بولندا سنة ١٣٦١ وبعد أربع سنين أنشئت جامعة فينا وهي أول جامعة ألمانية

وقيل ان جامعة بولون الايطالية أسسها تيودوس امبراطور الشرق في سنة ٤٢٥ م .

ولما كثرت الجامعات في الغرب أنشأ بعضها يعني بتعلم اللغات السامية ، والعربية من جملتها ، ولكن بشيء من الضعف . وكلما كان يشتد غرام أهل الغرب بدرس فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازي وابن زهر وغيرهم يحاذر رجال الدين كل الحذر أن تكون الفلسفة الاسلامية مقدمة الى ضعف الايمان وفشو الاحاد في المؤمنين من أبنائهم . ومع هذا أولع بعض أمراء ايطاليا بالعربية وتكلموا بها ، وعدوها لغة الأدب العالي ، واعتمد بعضهم في قصورهم وبيوتهم على علماء من أبناء المسلمين .

ومن عرف باتقان العربية من ملوك ايطاليا رجار الثاني ملك صقلية وانكبرية وقولورية الذي قدم له الشريف الادريسي كرة من الفضة فيها صورة العالم بمدنه وجباله وبحاره وألف باسمه كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ومدحه بأنه دان في ملته بدين العدل وانه خير من ملك الروم . وقال الصفدي في الوافي بالوفيات ان رجال قال للشريف الادريسي لما استقدمه من المدوة : أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فوقع اختياره على أناس ألباء فطنا أذكيا وجهزم رجار الى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفروا معهم مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصي والاستيعاب لما لا بد من معرفته . وكان اذا حضر أحد منهم بشكل أئبته الشريف الادريسي حتى تسكمل ما أراد (توفي رجار سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٤ م) .

وذكر الصفدي كيف بالغ رجار في تعظيم الشريف الادريسي وكيف رتب له كفاية لا تكون إلا للملوك بعد أن أعطاه مئة ألف درهم ، وفضة كثيرة زادت من عمل الكرة . قال : وكان يجيء راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأتي فيجلسان مآ .

وممن كان يحسن العربية من ملوك ايطاليا غليام ، وكان كثير الثقة بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم أمراء دولته ، وهو ابن رجار . وكذلك كان فريديريك الثاني صاحب صقلية وبوليه وانكبرديه وزعيم الحملة الصليبية السادسة فانه كان يجيد العربية كل الاجادة . ولم يلبث بعض أمراء ايطاليا كأسرة ميديسيس المشهورة بخدمة الآداب أن أسست عقيب اختراع الطباعة مطابع بلغات الشرق .

وأول مطبعة أنشئت في مدينة فانو في جون البنادقة (بحر الادرياتيک) سنة ١٥١٤ طبع عقبها القرآن الشريف ثم كتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية . وقيل كان كثير من مدرسي جامعة يادو أو سالرنا في أرجاء ايطاليا من علماء العرب . وقد عرفت ايطاليا قبل غيرها قدر علوم العرب بما ترجم لها المتنصرون من اليهود من فلسفة ابقراط وأرسطو وغيرها . وبما نقله الى اللاتينية من العربية أحد أبنائها جرردو دكريمونا المتوفى سنة ١١٨٧ م في مدينة طليطلة من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة . ويقال انه ترجم أكثر من سبعين كتاباً ومنها ما فقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته اللاتينية ، على نحو ما فقدت تآليف فلاسفة اليونان ولم تصل الى أوروبا إلا بواسطة ترجمات العرب عنها .

وكانت ايطاليا أيضاً ، وهي مهد النهضة الجديدة في أوروبا ومن بلادها انتشرت في أقطار الغرب ، أول أمة غربية عُنيت عناية خاصة باللغة العربية ، وهبت لطبع كتب العلم فيها لمقصد ديني أولاً ثم لمقصد علمي ساق اليه حب الاطلاع والتفقه . وهذا الخلق على أتمه في أجيال الغربيين أكثر مما هو في الشرقيين على ما رأينا .

وتقدمت ايطاليا في الدروس العربية لأنها أقرب بلاد الغرب من أرض الشرق ، واحتكاكها بالمشاركة قديم جداً ، ولأن مقام البابوية كان في رومية عاصمة تلك البلاد ، والباباوات كانوا مسيطرين على كل شيء

في الغرب الى الزمن الذي قام فيه لوثيروس في ألمانيا في الربع الأول من القرن السادس عشر .

وقد أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر في رومية سنة ١٥٨٤ مدرسة للموارة ساعدت على نشر العربية وتخرج فيها ثلاثة لبنانيين اشتهروا بحمل لواء العربية في أوروبا وهم جبرائيل الصهيوني و ابراهيم الحاقلاي و سمعان السمعاني وجاء بعدهم غيرهم ولا سيما من أسرة السمعاني نقلوا كثيراً من كتب العرب الى اللاتينية في القرن السابع عشر وبعده وتخرج بهم بعض علماء المشرقيات من أمم الغرب .

وكان المأمول أن تكون اسبانيا والبرتغال أول الممالك الاوربية التي تبادر الى اتقان العربية لامتزاج أهلها في الأندلس بالمسلمين نحو ثمانية قرون ولأن الخاصة من أعيان الاسبان كانت ترى تعلم العربية من أدوات التفوق في الأدب وشارات الظرف واللطف حتى كادت تنسى لغتها الاسبانية على عهد العرب . وقد أنشئت في مدينة طليطلة أول مدرسة عربية في اسبانيا أوائل القرن الحادي عشر وفي سنة ١٢٥٤ أنشئت في اشبيلية مدرسة عربية لاتينية لمزج الحضارتين العربية والاسبانية . أما البرتغاليون فخافوا متأخرين جداً في هذا المضمار ، وبقي أفراد منهم يولعون بدرس العربية ولا سيما من الرهبان لغرض الدعاية المذهبية ولم يجدوا منشطاً من أمتهم ولا من حكومتهم ، أي ان المشرقيات العربية في البرتغال ما كانت في وقت من الأوقات محل عناية أمة ظل العرب ملاسين إياها قروناً .

وبينما كانت أكثر بلاد أوروبا تحرص جداً الحرص على آثار العرب وترفع منزلة من ينقل اليها علومهم - وكان لليهود من أهل الأندلس يد طولى في هذا الشأن - كان رجال الدين في اسبانيا عقبى جلاء العرب عنها يحرقون الكتب العربية حيث صادفوها ، وظلوا خمسين سنة أي منذ أصدر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ م أمره باحراق عشرات الألف من كتب العرب في ساحات غرناطة ، يحرقون الأسفار العربية حتى كادت

تبيد مدينة العرب من تلك البلاد لولا المترجمات الى اللاتينية والعبرية .
 وذكر كونداه المؤرخ المستشرق الاسباني (١٨٢٠) ان مسيحي اسبانيا
 لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت اليه أيديهم من مصنفات المسلمين
 وعددها مليون وخمسون الف مجلد جعلوها زينة وشعلة في يوم واحد ،
 ثم رجعوا على سبعين خزانة كبرى من خزائن الأندلس وأنشأوا يتلفون
 كل ما عثروا عليه في بلاد الأقاليم من مؤلفات العرب .

ومنذ القرن الخامس عشر ، وربما من قرن قبله ، أخذت أكثر الأثم
 الأوروبية تبتاع بواسطة وكلائها وقناصلها وتجارها في الشرق مخطوطات عربية
 تزين بها قصور ملوكها وديرتها وبيعها ودور العلم فيها . وكان سان لوي
 أو لويز التاسع أحد ملوك فرنسا أول الشارعين بتأسيس خزائن الكتب
 وذلك انه بلغه لما كان في الشرق على عهد الحروب الصليبية ان بعض أمراء
 المسلمين جعلوا لأنفسهم خزائن كتب يطالعونها ساعات فراغهم فخرى هو
 على مثالهم ، كان هذا في القرن الثالث عشر . أما لويز الرابع عشر في
 القرن الثامن عشر فقد أرسل أحد علماء النمسا الى بلاد الاسلام لينتاع له
 الكتب العربية والعبرية والسريانية واليونانية .

وهكذا لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى تُقدر عدد المخطوطات العربية
 في أوربا نحو مائتين وخمسين الف مجلد .

وأهم الخزائن العربية في أوربا وأميركا : في لينينغراد وبرلين
 وباريز ولندرا وغوتنغن وليبسيك ومونيخ وفيينا وايدن واكسفورد وادمبرج
 ودبلين وكمبردج وخزانة ريلندس في منشستر والجمعية الآسيوية في لندرا
 وفي باريز والاسكوريال وميلانو ورومية وبرنستون . وفي كل من هلسنغفوس
 وموسكو واوبسالا وكوبنهاغن وفرنكفورت وصونك وبوفه ودرسدن
 وجيسين وغوتا وتوبنغ وغريسوالد وستراسبورغ وكراكو وبراغ ومجريط
 وفلورنسه وتورينو وبارم وخزانة وزارة الهند في لندرا ونيويورك وشيكاغو
 ويال وكليفورنيا وغيرها خزائن عربية تختلف بمددها ونفاستها باختلاف
 غنى الأمة التي نشأت بينها وبزمان نهوضها لاقتناء كتبنا .

ولكل خزنة من هذه الخزائن فهرس بل فهارس منظمة وصفت فيه مخطوطاتها العربية وصفاً مدققاً وذكرت تراجم مؤلفيها وكل ماله علاقة بها وذلك بارقام متسلسلة ونظام لم نستطع حتى الآن أن نحذو حذوه في إنشاء الفهارس وتصنيف الجزرات (فيش) بحيث يحيط المستعرب اليوم بجميع النسخ المحفوظة في مكاتب الغرب من الكتب النادرة وغيرها متى أراد طبع الكتاب أو الرجوع اليه في أبحاثه .

وما زالت هذه الخزائن على نمو مستمر لأن الجامعات والحكومات تنشط الى تنشيطها ، والأفراد ينفجونها مجاميعهم في حياتهم أو بعد مماتهم ، فقد أعطى مؤخراً صديقي الأمير كايثاني من أعظم المستعربين في ايطاليا خزنته العظمى للمجمع العلمي في رومية في حياته ، وأعطى غريفييني المستعرب الايطالي خزنته لجامعة ميلانو في ايطاليا بعد مماته ، وباعت أسرة غولد صهير المجري خزنة كتبه المهمة من الجامعة الاسرائيلية في القدس .

ولما انفثت الثورة الدينية في الغرب وقامت مكانها الثورة الاستعمارية اشتدت الحاجة أكثر من قبل للاطلاع على آداب العرب وغيرهم من أمم الشرق ، ودخل علم المشرقيات منذ أواخر القرن الثامن عشر في طور العلوم المنظمة فأنشأت النمسا سنة ١٧٥٣ مدرسة لتعليم اللغات الشرقية لقناصلها وتجارها ، وأنشأت فرنسا في سنة ١٧٩٥ مدرسة اللغات الشرقية الحية لمثل هذه الغاية ، وشادت ألمانيا مثلها سنة ١٨٨٧ ثم تبعتها روسيا وانكلترا وايطاليا فأستت كل منها مدارس للاخصاء بهذه اللغات . على أن أهم جامعات الغرب لم تخل أبداً منذ القرن السادس عشر من دروس عربية ولا سيما جامعات ألمانيا وانكلترا وهولاندة . والعناية بدراسة هذه اللغة بالغة حدها من الجد والهمة .

ورأى علماء المشرقيات سهولة في تلقف لغات الشرق ، ومنهم من كان يعرف خمساً وعشرين لغة شرقية وغربية مثل لودلف الالماني ومنهم نحو عشرين لغة مثل دي ساسي الفرنسي وفان برشم السويسري وهوميل

الالمانى . ولا تقل اللغات التي يعرفها أحدهم عن خمس أو ست ، ومن أغربهم دوزي الهولاندي الذي كتب في سبع لغات كأنه أحد أبناءها فكتب باللاتينية والهولاندية والالمانية والفرنسية والانكليزية والاسبانية والبرتغالية ، ومثله فميري المجري فانه كان يكتب بالمجرية والتركية والعبرية واللاتينية والانكليزية والالمانية والفرنسية كأنه بعض المنشئين المشهورين في كل لغة لم تدخل واحدة منها الحيف على أختها .

والمستعربين في تلقف العربية طريقة اعتمدوا عليها في تعلم اللغات الغربية عنهم ، وهو أن يأخذ طالب العلم في مدرسته أو بلده ما يمكنه أخذه من قواعد اللغة وأصولها ومفرداتها ثم يرحل للتلقي عن أهلها ، ليحصل لأذنه أنسة بسماع اللغة من أربابها ، كما كان أجدادنا يرحلون لتلقي الحديث ورواية الآثار والأشعار . فيجزي المستعرب يقضي ماشاء أن يقضي من الزمن في بلاد عربية ، وقد يفضلون مصر ثم الشام ، ومنهم من أتقن علمه العربي في الأزهر وآخرون تعلموا في مدارس المرسلين في بيروت أو قرأوا على مشايخ دمشق وحلب وبغداد وتونس وفاس ومنهم من تظاهروا بالاسلام وتطالت أنفسهم ليدرسوا علوم الاسلام في مكة المكرمة مثل سنوكهروغرون الهولاندي .

ولما كانت الأعمال الكبرى لا تظهر فائدتها الا باجتماع القوى المنفرقة وتوحيد المقاصد ، وكان للجمعيات والجامع اثر كبير في خدمة العلم والمدنية ، أنشئ للبحث في المشرقيات في بانافيا في جاوة أول مجمع للعلوم والفنون سنة ١٧٧٨ . والهولانديون من أول الأمم التي حملت علم العلم والمدنية في الغرب ، ثم أنشئت الجمعية الآسيوية في البنغال في الهند في سنة ١٧٨٤ والجمعية الآسيوية في بومباي سنة ١٨٠٥ ، وأنشئ في القاهرة المجمع العلمي المصري سنة ١٨٩٨ ، وأسست الجمعية الآسيوية في باريز سنة ١٨٢٢ وكان من أعظم مؤسسيها أكبر مستعرب نشأ في فرنسا وأخذ عنه أئمة المستعربين من علماء المشرقيات من الألمان والهولانديين والسويديين

والإيطاليين ، ونعني به العلامة سلفستر دي سابي ، والمشرقيات العربية في القرن التاسع عشر في أوروبا مدينة لهذا الرجل كثيراً لأنه سهل على المشتغلين بالعربية طرق تعلمها وتلقفها .

يقول هومبولد ان من أجمل نتائج المدينة الحديثة أن تؤلف جميع الأئمة المستنيرة أسرة واحدة عندما تمس الحاجة لخدمة العلم والآداب والفنون وكل ما ينشأ من تقرير حقيقة وينبعث عن فكر وحس ويرتفع به الإنسان الى ما فوق الحاجات العادية في المجتمع . ولذلك رأينا بين المشتغلين بلغات الشرق من الغربيين شيئاً من التضامن الأدبي يشد بعضهم أزر بعض ، فلم يكتب المستعربون بمجامعهم وجمعياتهم وجامعاتهم ومجلاتهم التي تنشر أبحاثهم ، بل سمى همهم الى عقد مؤتمرات يختلف اليها جميع علماء المشرقيات من الأئمة والمستعربون في مجلتهم ، فعقدوا أول مؤتمر لهم في باريس ثم في لندرا ثم في لينينغراد ففلورنسه فبرلين فليدن فقينا فاستكهولم فلندرا ثانية فجنيف فباريز ثانية فرومية فهامبورغ فالجزائر فكوبنهاغ فأثينة .

ثم عقد مؤتمر بعد الحرب العامة في ليبسيك لم تحضره أم الخلفاء (فرنسا وانكلترا وإيطاليا وأميركا) وعقد آخر في باريس لم تشارك فيه أمم الوفاق في أوروبا الوسطى وشرقها (كألمان والنمساويين والمجر ولا أمم الصقالبية أي السلافيين) .

وقد اعتاد علماء المشرقيات أن ينشروا بهذه المناسبة مجلدات ضخمة في أعمال مؤتمراتهم وما يقدمه بعضهم من الرسائل القديمة أو يكتبه من الأبحاث الطريفة في الفرع الذي اختص به . وكان للعربية من بين اللغات الشرقية التي يتدارسها علماء المشرقيات المقام الممتاز فنشرت بذلك رسائل قديمة مهمة كما نشرت رسائل نادرة من كتب العرب في الأسفار التي يؤلفونها عندما يريد علماء المشرقيات الاحتفاء بأحد اخواتهم الذين خدموا العلوم الشرقية عند بلوغه سنناً معينة .

هذا ما قام به الغربيون لخدمة الدروس العربية ، وقل أن تجد في بلادهم جامعة مهمة الآن الا وفيها منبر لتدريس لغتنا ، مها بلغ من قلة عدد أبناء تلك الأمة ، وبعدها عن الاستعمار وانصرافها عن الفتوح والغزوات ، بل يتعلمونها للتجارة والتثقيف .

وقد نبغ في كل أمة رجال يتكلمون العربية ويكتبونها كأبنائها ، ومنهم من اكتفوا بفهم النصوص في الكتب ، ولم يساعدهم الزمن ليتمكنوا من أدب العرب أو يرحلوا الى البلاد العربية يدرسون لغتها ويمارسون التكلم بها مع أبنائها مدة .

ومن عرفناهم يكتبون العربية كتابةً جيدة جويدي ونالينو وماسنيون ومارسيه ومرجليوث وبرون وكرنكوف وبروكمان وهارتمان ومورتس وكراثشوفسكي وكوفالسكي وغريفييني وغولد صهير .

ومعظم من عنونا بلغتنا من علماء المشرقيات نشروا كتباً ورسائل مهمة من آثار السلف الصالح ، ويكفي أن يقال في هذه المهمم الشفاء ان الطبع باللغة العربية الذي انتشر منذ القرن الخامس عشر في ايطاليا ومنذ أوائل القرن السابع عشر في هولاندة ، ثم شاع بعد حين في سائر عواصم الغرب ، لم يصل الاستانة الا في القرن الثامن عشر ، ولم يهبط مصر إلا في اوائل القرن التاسع عشر وكان على ضعف في الشام في القرن الثامن عشر . وهذا أكبر دليل على اتباه الغربيين وتفوقهم علينا في ورود مناهل العلم والتذرع بأسباب نشره وتجييبه الى الناس .

سادتي : يحتاج الوقوف على ما نتج للغرب من تلك النهضة في الاخذ من علوم العرب الى بحث مستفيض خاص ، وبهنا الآن معرفة أثر تلك النهضة فينا وفي لغتنا ، أي أن نعرض للجهة التي تخصصنا من ذلك الجهاد العظيم الذي جهده في إحياء العربية فقط ، وذلك للتنبه بمن نشروا كتبنا فأسدوا الى لغتنا المحبوبة أيادهم البيضاء ، وعلمونا بما أحيوه دروساً في تاريخ أمتنا ومدنية أجدادنا كنا نجعلها ، مع أن أعمالهم هذه وصلتنا

بالعرض إذ لم يكن علماء المشرقيات أو جمعياتهم ومجامعهم يقصدون خدمتنا ، بل خدمة العلم أو الأفكار التي يريدون بثها ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير رأينا فيه أو غير ذلك من المقاصد . ولكن مها كانت النيات فقد استفادت العرب والعربية من هذه المهمة التي انبعثت من ديار الغرب ولذلك تقضي علينا أخلاقنا أن نعرف الفضل لصاحبه .

المشرقيات العربية في فرنسا وسويسرا وبحر الجب :

اهتمّ المستعربون من علماء المشرقيات في فرنسا بالنقل والاحتذاء من كتب العرب أكثر من اهتمامهم بنشر أصول تلك الكتب ، ومع ذلك فإن في الذي نشره من الكتب العربية دليلاً على ما بذله أفراد هذه الأمم في خدمة آدابنا . فقد نشر (سلفستر دي ساسي) إمام المستعربين في الغريبين كتاب كلية ودمنة وألفية ابن مالك وكتاب الاعتبار لعبد اللطيف البغدادي في وصف مصر ومقامات الحريري ومعلقة ليبيد .

ونشر (كآرمير) مقدمة ابن خلدون والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة وسر الخليفة بلنتيوس الحكيم والقصائد السبع المعلقة والبرق الياباني ومطالع النيرين والتيجان وبلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام . ونشر (كوسين دي برسفال) المعلقة السبع وأمثال لقمان الحكيم . ونشر (رينو ودي سلان) تقويم البلدان لأبي الفدا . ونشر (دي سلان) ديوان امرئ القيس والجزء الأول من وفيات الأعيان لابن خلكان والجزء السادس من أخبار البربر في تاريخ ابن خلدون والزيج الحاكي .

و (فريميري) رحلة ابن بطوطة .

ونشر (دوغا) بمعاونة (دوزي) الهولاندي و (ريت) الانكليزي نفع الطيب للمقري .

- و (باربيه دي منار) مروج الذهب للمسمودي .
 و (هارتويغ درنبورغ) كتاب سيديويه والاعتبار لابن منقذ واربع رسائل لملك غرناطة أبي الحسن علي الى دون دياغو القسطلبي وابنه والنكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية لعارة اليمني وديوان التابعة الديباني وطبع (أبوه) الرياض المزهرة في صرف اللغة العبرانية ونحوها لمؤلفه أبي الوليد مروان بن جناح القرطبي وتاريخ آتابكية الموصل .
 و (بوشه) ديواني عروة بن الورد والفرزدق .
 و (هوداس) زهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي عشر للوفرائي وتاريخ السودان لعبد الرحمن التومبوكتي وتذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان وتاريخ جلال الدين المنكبرتي وتاريخ الفتاش نشره مع (دلافوس) .
 ونشر (باسيه) الخزرجية في العروض وتاريخ فتح الحبشة لعرب فقيه .
 ونشر (بل) تاريخ بني عبد الواد ملوك تلمسان لأبي زكريا يحيى وكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار بمعاونة ابن أبي شنب .
 و (رافيس) زبدة كشف المالك للظاهري .
 و (سيلفسوهن) ديوان طرفة بن العبد .
 و (ماسنيوت) الطواسين للحلاج والأمثال البغدادية للطالقاني والاصطلاحات الفلسفية .
 و (ماسيه) نظام ديوان المهردار لابن الصيرفي وتاريخ ابن الميسر .
 و (پريه) ثماني مقالات لاهوتية ايحي بن عدي .
 و (رو) معلقة زهير ولامية ابن الوردى ولامية المعجم للطغرائي وقصيدة بانث سعاد .
 و (زوتبرغ) تاريخ ملوك فارس للثعالي .
 و (هوار) البدء والتاريخ المطهر ابن طاهر ومقامات ابن نأقيا وديوان سلامة بن جندل .

- و (منك) دليل الحائرين لابن ميمون ومعين الحياة لابن جبرول .
 و (سيدبليو) كتاب أبي الحسن علي المراكشي المدعو جامع المبادي
 والغايات في الآلات الفلكية .
 و (شيفر) وصف الشام لأبي الحسن علي الهروي والنهج السيد
 المفضل بن أبي الفضائل .
 و (ديكرانج اينه) ذكر تملك جمهور الفرنسية مصر والشام
 لنقولا الترك .
 وطبع (دوبكه) رسالة في البراهين على مسائل الجبر والمقابلة لعمر
 ابن ابراهيم الخيامي .
 و (مسكوراتي) أخبار بني مزاب .
 و (كونهغ) كتاب الكلبي والمثانة للرازي .
 و (اكزيكا قيصر) تاريخ جزيرة جربة لمحمد بن أبي راس احمد الناصر .
 و (لوفيل) كتاب صورة الأرض لمحمد بن جابر البتاني .
 و (لانجليس) رحلات لائناس من العرب والفرس رحلوا الى الصين
 والهند في القرن الثالث للهجرة .
 و (باتورني) وشاح الكتاب .
 و (غوتيه) الدررة الفاخرة للغزالي .
 و (كولين) تذكرة أبي العلاء ابن زهر .
 و (مرسيه) حلبة الفرسان لابن هذيل الأندلسي .
 و (فران) الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد لابن ماجد .
 و (امار) مقدمة الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي .
 و (كي) كتاب الاشربة لابن قتيبة .
 و (كارادي فو) كتاب ايرن في رفع الأشياء الثقيلة نقله الى العربية
 قسطا بن لوقا البعلبكي .
 و (شوابس) السويسري ديوان أمية بن أبي الصلت .

- و (كلير) السويسري الجزء السادس من كتاب بغداد لأبي الفضل
احمد بن أبي طاهر طيفور .
و (فودجه) البلجيكي كتاب الاشارات الالهية لابن سينا .
و (غينغ) الحاوي في علم التداوي لنجم الدين محمود الشيرازي .
و (موتلنسكي) أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير .
و (ميز) السويسري حكاية أبي القاسم البغدادي .

المشرقيات العربية في جرمانيا :

أخرج علماء الألمان أمهات كتب العرب التي تساعد على فهم دينهم
وحضارتهم فقدموا المستعربين وغيرهم مادة مهمة للبحث والنظر . وأهم
ما نشره (فليشر) تفسير القاضي البيضاوي والمفصل للزخشي وكتاب
ألف ليلة وليلة ورسالة هرمس في زجر النفس .
وطبع (وستنفيلد) سيرة ابن هشام ومعجم البلدان لياقوت الحموي
ومعجم ما استعجم للبكري وطبقات الحفاظ للذهبي ووفيات الأعيان لابن خلكان
وتهذيب الأسماء واللغات للنووي والمشارك لياقوت ومعجم الخلوقات للقزويني
وآثار البلاد للقزويني أيضاً والمعارف لابن قتيبة وأسماء القبائل المتشابهة
وغير المتشابهة لمحمد بن حبيب والاشتقاق لابن دريد وأخبار قبط مصر
للمقرئبي وسيرة فخر الدين المعني وتاريخ مدينة الرسول للسهمودي وتاريخ
مكة للأزرقى والمنتقى من أخبار أم القرى وهي منتخبات من الفاكهي
والفاسي وابن ظهيرة والاعلام للنهروالي الى غير ذلك من الكتب الممتعة
التي عدّ وستنفيلد بنشرها من أعظم العاملين في تاريخ المشرقيات العربية .
ونشر (فلوغل) الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة
والمؤنس للثعالبي وتعريفات الجرجاني ونجوم الفرقان وتاج التراجم
لابن قطلوبغا .

ونشر (سخاو) الطبقات الكبير لابن سعد وكتاب ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني ونشر له أيضاً الآثار الباقية عن القرون الخالية والمغرب للجواليقي .

ونشر (فريتاغ) ديوان الحماسة لأبي تمام والافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي وولاية سعد الدولة على حلب وأمثال الميداني وفا كهة الخلفاء لابن عربشاه ووصف فلسطين والشام الادريسي .

ونشر (آلورد) دواوين الشعراء الستة النابتة وعمترة وطرفة وزهير وعلامة وامريء القيس والاصميات وديواني الأراجيز للعجاج والزيفان وديوان رؤبة بن العجاج (١) وديوان خلف الأحمر والفخري في الآداب السلطانية والجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجهول .

و (ليرت) تاريخ الحكماء للقفطي .

و (وابتك) رسالة الخيامي في الجبر والمقابلة وكتاب الفخري للكرخي وتفسير مقالة اقليدس العاشرة لأبي عثمان الدمشقي .

و (وكسستن) مقدمة الأدب لجار الله الزمخشري .

و (فولرس) معلقتي الحارث بن حنزة وطرفة بشرح الزوزني وتاريخ مصر لابن دقاق .

و (كريمر) النمسوي الاستبصار في عجائب الأمصار والمغازي للواقدي والأحكام السلطانية للماوردي والقصيدة الحميرية .

و (فولف) المعلقات وشيئاً من ديوان البيغاء ورسالة في أحوال القيامة .

و (ايفيلد) فتوح الجزيرة المنسوب للواقدي .

و (سيبولد) الشماريخ في التاريخ للسيوطي وأسرار العربية لابن الأنباري والمثني في الكنى له والمرصع لابن الأثير ورواية سول وشول وكتاب النقط والدوائر مع رسالتين في التوحيد .

(١) حرص المستعربون على نشر دواوين العرب ولا سيما العرباء منهم لأن الشعر مرآة الأمم وقد يقع الباحث فيه على مواضع وعادات لا تخطر له على بال .

و (سبرنغر) اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق السمرقندي وتاريخ
الغزنوية للعتي والاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر والاتقان للسيوطي
وكتاب حدود الفاكهي .

و (بارت) فصيح ثعلب وديوان القطامي .

و (مولر) النمسوي صفة جزيرة العرب للهمداني والفرق الاصمعي .

و (مولر) الألماني طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

و (يوسف مولر) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر وكتاب

محمد بن كثير الفرغاني في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم .

و (بنس) اتعاظ الخنفا للمقريزي .

و (هوروثيس) الهاشميات للكثير .

وطبع (آبل) المملقات السبع .

و (سوسين) ديوان علقمة الفحل .

و (ومسيكة) تاريخ أبي الفدا .

و (نولدكه) ديوان عروة بن الورد .

و (موجيك) النمسوي كتاب الوزراء والكتاب للجيشياري وصفة

الأرض للخوارزمي وعجائب الأقاليم لزهرا ب ورسم المعمور من البلاد

لمحمد بن موسى بن شاكر احد الأخوة الثلاثة المعروفين ببني موسى .

ونشر (بروكلان) تلييح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار

لابن الجوزي وعيون الأخبار لابن قتيبة وديوان لييد وكتاب ما تلحن فيه

العوام للكسائي .

وطبع (فيلمار) الأرجوزة المزدوجة لوجيه الدين البهنسي ومثلثات قطرب .

و (جورج يعقوب) طيف الخيال لابن دانيال الطبيب الكحال .

ونشر (كرايتشك) النمسوي النصوص التي تعين على جمع تاريخ بني مزيد .

و (باردنهاور) كتاب الأنساب المنسوب لأرسطاطاليس .

- و (موريتس) التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية لابن الجيعان وتاريخ
القيوم لأبي عثمان النابلسي الصفدي .
- و (شمولدرس) أرجوزة في المنطق لابن سينا .
- و (بارتز) كتاب الشرائع لشالومون بن يوسف بن أيوب .
- ونشر (هفتر) النمسوي عدة رسائل لغوية وهي القلب والابدال لابن السكيت
وكتاب الابل للاصمعي وكتاب خلق الانسان له وثلاثة كتب في الاضداد
للاصمعي والسجستاني وابن السكيت وذييل للصغاني . ونشر الدارات والنبات
والشجر والنخل والكرم للاصمعي .
- ونشر (ناعلبرغ) كتاب الشجر لابن خالويه .
- ونشر (غرونز) أدب الكاتب لابن قتيبة .
- ونشر (هيل) تذكرة الكحالين لهلي بن عيسى وطبقات الشعراء للجمحي
وديوان الفرزدق .
- و (هـ خيام) الكافي في الحساب للكرخي .
- و (وايل) الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لابن انباري .
- و (شوالي) المحاسن والمساوي للبيهقي .
- و (شولتس) ديوان حاتم الطائي .
- و (ديتريسي) بعض رسائل الفارابي وحكمة أرسطاطاليس وتوجيهه ورسائل
اخوان الصفا .
- و (بزولد) سيرة أحمد بن طولون لابن سعيد المغربي وقصيدة عمرو بن كلثوم
بشرح ابن كيسان .
- و (برونله) كتاب المقصور والممدود لابن ولاد وأعد للنشر الازمنة لقطرب
والاضداد له وكتاب خلق الانسان للزجاج والعشرات لابن خالويه والمنزلة
لابن الهنائي والتنبيهات على أغاليط الرواة ونشر نظام الغريب للربيعي
وشرح السيرة النبوية لابن ذر الحشني .

- و (مان) تحفة ذوي الارب لابن خطيب الدهشة ومشكل الانساب .
 و (فيز) الفرج بعد الشدة للتنوشي .
 و (جاهن) شرح المفصل لابن يعيش .
 و (ريشر) معلقة عنتره وعليها شرح ابن الانباري والمعجم في بقايا الاسماء
 لأبي هلال العسكري وشرح معلقة زهير للانباري والمذكر والمؤنث
 لابن جني .
 و (هوسهير) شرح معلقة زهير .
 و (بارمان) قول الحسن بن الحسين بن المهيم في الضوء .
 و (توربكه) كتاب النحو للصباغ .
 و (هوجنسن) النمسوي بعية المستفيد في أخبار زيد .
 و (شورتس) ديوان عمر بن أبي ربيعة .
 ونشر في بلاد ألمانيا والنمسا في عصور مختلفة كتب ورسائل كثيرة
 منها أخبار الدول المنقطعة الازدي وديوان لييد وديوان طرفه بن العبد
 وتذكرة الكحالين لعيسى بن علي وتاريخ الدولة الاتابكية لابن الحسن
 عز الدين وطبع لجابر بن حيان مصنف في أسرار الكيمياء ، وعدة رسائل
 لجمفر الصادق في هذا الفن نشرت في ستراسبورغ سنة ١٥٣٠ وطبع
 في هذا العصر كتاب الكيمياء في باسل .

المشرقيات العربية في هولاندره :

لم يقل الهولانديون عن الالمان في خدمة الآداب العربية ، فقد نشر
 مستعربوهم من الأمهات المعتبرة أيضاً ما كشف القناع عن وجه المدنية
 الاسلامية فقام (اربنديوس) سنة ١٦١٥ ونشر تاريخ الشيخ المكين
 جرجس بن العميد وحكايات لقمان ، وأنشأ مطبعة ليدين وجهازها بالحروف
 العربية التي ما زالت الى اليوم تطبع بأكثر من عشرين لغة من لغات الشرق .

ونشر (غوليوس) كتاب الفلك للفرغاني وعجائب المفدور في أخبار تيمور
لابن عربشاه .

و (شولتس) سيرة صلاح الدين لابن شداد .

و (دوزي) المعجب لعبد الواحد المراكشي والبيان المغرب لابن عذارى
وقسماً من جغرافية الادريسي بمعاونة (دي خويه) ومنقبات من مصنف
المقرزي والحلة السراء لابن الابار .

ونشر شيخ المشرقيات العربية (دي حويه) من الكتب في التاريخ
والجغرافية أجلها حتى عدّ سيد المستعربين من الهولانديين بل لا يفوقه
بكثر ما طبع من جميع المستعربين في الأمم إلا (وستفيلد) ويزيد عليه
(دي خوي) في التحقيق والضبط وجميل الذوق في فهم كلام العرب .
فما نشره تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري وصلة تاريخ الطبري
اعرب بن سعد ونشر أمهات من كتب الجغرافية سماها المكتبة الجغرافية
العربية وهي مؤلفة من المسالك والممالك للبلاخي والمسالك والممالك لابن حوقل
وأحسن التقاسيم المقدسي البشاري وكتاب البلدان لابن الفقيه والمسالك
والممالك لابن خردادبة مع نبذة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
والاعلاق النفيسة لابن رسته وكتاب البلدان لليعقوبي والتنبيه والاشراف
المسعودي وجزءاً مهماً من تجارب الأمم لابن مسكويه والعيون والحدايق
وخلافة عمر الثاني ويزيد الثاني وهشام وشرح قصيدة ابن عبدون
لابن بدرون وديوان صريع الغواني والشعر والشعراء لابن قتيبة .

ونشر (يونغ) المشتبه في أسماء الرجال للذهبي والانساب لابي الفضل
المقدسي واطائف المعارف للثعالبي والخراج ليحيى بن آدم وفتوح البلدان
للبلاذري وصحيح البخاري .

ونشر (جوينبول) مرصد الاطلاع لعبد المؤمن بن عبد الحق والجبال
والامكنة والمياه للزختمري والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
وقصائد المتنبي وشعراء عصره في مدح سيف الدولة .

- ونشر ابنه (وليم) التنبيه في الفقه الشافعي للشيرازي وكتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي .
 و (هوتما) زبدة النصره للامام الاصفهاني وتاريخ اليعقوبي والاضداد لابن الانباري .
 و (بيت) اب اللباب للسيوطي .
 و (مورسنج) طبقات المفسرين للسيوطي .
 و (فيرس) درة الاسلاك في دولة الاتراك لابن حبيب .
 و (فان فلوتن) مفاتيح العلوم للخوارزمي والبخلاء للجاحظ والمحسن والاضداد له وثلاث رسائل للجاحظ أيضاً .
 و (آبل) ديوان أبي محجن الثقفي .
 و (فان دانبرغ) فتح القريب لابن القاسم الغزي .
 و (جر هاردوس) النزاع والتخاصم للمقريري .
 و (كونغ) المائة والحصبة وثلاث رسائل في التشريح للرازي .
 و (فان ديرليت) عجائب الهند لبزرك بن شهريار الرام هرمزي .
 و (انغلان) ديوان الحادرة .
 و (باتنادلاندور) الامانات والاعتقاد لسعديا بن يوسف الفيومي .
 و (بير) تاريخ ازندية لابن عبد الكريم علي رضا الشيرازي .
 و (بيرام) المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين .
 ونشر في هولاندة الامام بما في أرض الحبشة من ملوك الاسلام ومفحات الاقران في مبهات القرآن للسيوطي وغير ذلك من الكتب النفيسة .

المشرقيات العربية في انكلترا والولايات المتحدة

- من أول ما نشر الانكليز من الكتب كتاب التصريف لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي .
 ونشر (بوكوك) مختصر الدول لابي الفرج الماطي ونظام الجوهر لسعيد ابن بطريق .

- و (كورتون) الملل والنحل للشهرستاني وعقيدة أهل السنة للحافظ
النسفي ورحلة البطريك مكاريوس .
- و (لومسدون) مقامات الحريري ونفحة اليمن لاحمد الشرواني وشرح المعلقات
ومختصر المعاني للقزويني وقاموس المحيط للفيروزابادي .
- و (ناسو) الكشف للزخشي وتاريخ الخلفاء للسيوطي ونوادير القليوبي
وفتوح الشام للواقدي وفتوح الشام للبصري وكشاف اصطلاحات الفنون
للتهانوي ونخبة الفكر لابن حجر العسقلاني .
- ونشر (هاريس خوت) ذكر فتح الاندلس لابن عبد الحكم .
- و (همر) شوق المستهام في حل رموز الاقلام لابن وحشية .
- و (بلمر) ديوان زهير المصري ؛
- و (صموئيل لاي) الاشارات في معرفة الزيارات للراوي .
- و (ربت) الكامل المبرد ورحلة ابن جبير وبمجموعة سماها جُرْزَة الحاطب
وتحفة الطالب فيها ديوان طهان بن عمر الكلابي تأليف ابي الحسن السكري
وتلقيب القوافي لابن كيسان وصفة السرج واللجام لابن دريد والسحاب
والغيث وأخبار الروادلة .
- و (أميدروس) تاريخ الوزراء للصابي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي .
- و (برونو) كتاب الموشى للوشاء والاتباع والمزاوجة لابن فارس .
- و (كارلايل) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة لابن تغري بردي .
- و (مرجليوث) معجم الادباء لياقوت الحموي والانساب للسمعاني ونشوار
المحاضرة للتونخي ورسائل المري وديوان التعاويذي .
- و (فنسكل) ثلاث رسائل للجاحظ فيها الرد على النصارى وذم أخلاق
الكتاب ورسالة القيان .
- و (ارنولد) كتاب المنية والامل المرتضى في ذكر المعتزلة .
- و (كاسل كاي) مجموعة في تاريخ اليمن اعمارة والمختصر من العبر
لابن خلدون وأخبار القرامطة في اليمن للجندي .
- و (هرشفيلد) ديوان حسان بن ثابت .

- و (كركنوف) قصيدتين لازاحم العقيلي وديوان عمرو بن كلثوم التغلبي
والحارث بن حنزة اليشكري والطرماح والصحاح للجوهري وكتاب للعقيلي .
و (مهران) معيد النعم ومبيد النقم للتاج السبكي .
و (لايل) دواوين عامر بن الطفيل وعبيد بن الأبرص وعمرو بن قبيصة
والمفضليات للضيبي مع شرح أبي محمد القاسم الأنباري والمعلقات العشر
بشرح التبريزي .
و (نيكلسون) كتاب اللع .
و (بنفن) نقائض جرير والفرزدق .
و (مرجايوث) مع (جير) الألماني حماسة البحترى .
و (ستوري) الفاخر للمفضل بن سلامة .
و (مكارتي) ديوان ذي الرمة بشرح الأنباري .
و (منغانه) الدين والدولة لابن رُبَّان .
و (سترونج) فتوح الحبشة لأحمد ابن عبد القادر بن سالم بن عثمان .
و (روس) ظفر الواله في تاريخ كجرات الألفجاني .
و (كوست) تاريخ مصر وولاتها للكندي .
و (غويت) كتاب عبد الطيف البغدادي .
ونشر (پوبر) الأميركاني النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة
لابن تغري بردي .
و (كوتهيل) الأميركاني تاريخ قضاة مصر للكندي وكتاب المطر
لابي زيد .
و (كرنيلوس فاندريك) الأميركاني رسالة في مرض الجدري والحصبة للرازي .
و (طوري) الأميركاني فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكيم .
و (جرث) الأميركاني الجزء الثامن من تاريخ مرآة الزمان لسبط
ابن الجوزي .
و (كونيچ) الأميركاني تاريخ حكام مصر للكندي .
و (جاسترو) الأميركاني كتاب ابي زكريا يحيى بن داود هيئوج .

المترقيات العربية في إيطاليا واسبانيا والبرتغال :

كانت إيطاليا أول الأمم الغربية التي ذهبت بفضل السبق في نشر الكتب العربية ، فقد أحيا علماءها المستعربون في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ تآليف يحيى بن مسويه الأصغر الحراني في الطب والفلسفة وطبعوا قانون ابن سينا في الطب مع كتاب النجاة في سنة ١٥٩٣ وبمدها نشروا رسائل أخرى في المنطق والطبيعة والكلام للرازي وطبعوا تحرير أصول أقليدس للطوسي . ونشر (آماري) المكتبة العربية الصقلية وفيها جميع ما ورد في كتب العرب عن جزيرة صقلية وطبع الشروط والعقود السياسية بين جمهوريات إيطاليا وسلاطين مصر وغيرهم وكتاب الاشارات للهروي . و (لانزوني) القول المستظرف في سفر مولانا المالك الأشرف وكتاب النخلة للسجستاني .

و (روبيزو) كتاب الأرصاد الكلية .
و (كاتاني) تجارب الأمم لابن مسكويه .
و (جويدي) شرح بانت سعاد لابن هشام وكتاب الأفعال لابن قوطية والاستدراك لأبي بكر الزبيدي .
و (كيسب فللا) كتاب ديوان مصر وزاد المسافر ورسالة لقسطا بن لوقا .
و (سكيابارالي) ديوان ابن حمديس الصقلي وجزءاً من أنس المهج وروض الفرج ومرشدة الطالب في أسمى المطالب لابن بسام وعلم الشعر لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب .

و (نالينو) زيغ البتاني في الفلك والبيان لابن رشد .
و (غريفيني) فقه زيد بن علي وديوان الاخطل والطبقات لأبي بكر الزبيدي ونصوصاً عربية في صقلية وقصيدة منسوبة لامري القيس وقصيدة قدم بن قادم وقصيدة الأعشى « ما البكاء » وأعد للطبع مع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية للأمير عثمان بن ابراهيم التابلي .

- والآنسة (كودتي) آ كام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان
 لاسحق بن حسين المنجم .
 و (بويجي) مقامات أبي طاهر التميمي .
 و (روميو) كتاب الفرغاني في الطب .
 و (برتولوميو) كتاب النحل للسجستاني .
 و (كوزالوشي) و (لاغومينا) الصكوك المعينة على تاريخ استيلاء العرب
 على جزيرة صقلية ملحقاً للمكتبة الصقلية التي نشرها آماري .
 وأنت ترى ان ماسما الايطاليون الى نشره أولاً كتب العلوم المادية فتداركوا
 من الضياع بعض ما أبقته الايام من الكتب ، ولقد وضع السويسري سوتر
 من علماء المشرقيات كتاباً فيمن اشتغلوا من العرب بالعلوم الرياضية والفلك
 فقط فكان عدد من وصل الى تراجمهم نيفاً وخمسمائة رجل فقدت الآن
 أكثر كتبهم .
 ونشر (بانكري) الاسباني كتاب الزراعة لابن العوام .
 و (كازللا) لغز قابس .
 وأهم ما نشره علماء المشرقيات الاسبان المكتبة الاندلسية . نشرها (كوديرا) .
 و (ريبيرا) وهي الصلة لابن بشكوال وبغية الملتمس في تاريخ رجال
 الاندلس والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار أيضاً
 وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وفهرس مارواه عن شيوخه أبو بكر
 ابن خليفة الاشبيلي .
 و (اميليو لافونت) أخبار فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب
 الواقعة بينهم .
 و (كيروس) علم ما بعد الطبيعة لابن رشد .
 و (آسين) المدخل لصناعة المنطق لابن طموس .
 و (كنسالميس) تقويم الذهن للداني .
 و (ريبهه طرغوه) القضاة بقرطبة للحشني القروي .

- و (شانجاس) اختصار الجبر والمقابلة لابن بدر .
 و (غسبار) ريحانة الكتاب لسان الدين ابن الخطيب والجزء الثاني والعشرين
 من نهاية الأرب للنويري .
 و (هويتي) كتاب التواريخ لابن بسام .
 و (كلارزا) فلسفة الاسلام والغربيين .
 ونشر (لويس) البرتقالي كتاب أحوال البرتغاليين في مالابار الهندية للشيخ
 زين الدين وكتابات عربية متعلقة بالبرتقال .
 و (صوصه) الصكوك العربية المتعلقة بتاريخ البرتقال .

- المشرفيات العربية في روسيا وبولونيا وفنلندا وهنغاريا ونسكو وسافوفا كبا
 أولع الروسيون بنشر خلاصات من كتب العرب فكانوا أشبه بالفرنسيين
 في هذا المعنى ، ومع هذا نشر من أبنائهم (كركاس) الأخبار الطوال
 لأبي حنيفة الدينوري .
 و (غوتولد) تاريخ سني ملوك الأرض والانبياء لمحنة الاصفهاني ومعجماً
 للقرآن والملقات .
 و (كولسون) الأعلام النفيسة لابن رسته .
 و (خانيكوف) ميزان الحكمة للخازني .
 و (بتروف) طوق الحمامة لابن حزم .
 و (روزن) تاريخ الذيل الذي صنفه يحيى بن سعيد بن يحيى الانطاكى
 ومصنفاً في الجبر لأبي جعفر الخوارزمي .
 و (كراتشوفسكي) ديوان الواواء الدمشقي .
 ونشروا رحلة ابن فضلان والصور السائية لعبد الرحمن بن عمر الصوفي
 ويمرف بكتاب الكواكب الثابتة .
 ونشر (كوفالسكي) البولوني ديوان قيس بن الخطيم .
 و (رودلف دفوراك) ديوان أبي فراس الحمداني .

ونشر (ولين) الفنلاندي حائية ابن الفارض « أوميض برق بالأبريق لاحا »
مع شرح عبد الغني النابلسي عليها .
ونشر (تلكويست) الفنلاندي المغرب في حلى المغرب لابن سعيد .
ونشر (غولدصهير) المجري كتاب المعمرين للسجستاني وفضائح الباطنية
للغزالي وكتاب مهدي الموحدين محمد بن تومرت وديوان الخطيئة جروول بن
أوس ومعماني النفس ومقالة لسكاتب اسرائيلي في أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى .

الدانيمرك والسويد ونرويج :

نشر (مهرن) الدانيمركي عجائب البر والبحر لشيخ الربوة وعدة تآليف
لابن سينا منها رسالة حي بن يقظان ورسالة في أسرار الحكمة المشرقية .
ونشر (تورنبرغ) السويدي تاريخ الكامل لابن الاثير والاثيس المطرب
لابن أبي زرع القاسي .
و (كرولندبرغ) السويدي الفتح القسي في الفتح القدسي لعلماد الدين
الاصفهاني وديوان زهير بن أبي سلمى للاعلم الشنمري .
ونشر (موبرج) السويدي درج الغرر ودُرج الدرر للميكالي .
و (نيبرغ) ثلاث رسائل لابن عربي وهي انشاء الدوائر وعقلة المستوفز
والتدييرات الالهية وكتاب البهجة لابراهيم الشبستري والانتصار في الرد
على ابن الراوندي .
ونشر (بروخ) المفصل للزخشري .
و (سترسين) السويدي تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس
وأمرائها لابراهيم مغلطي وقطمة من كتاب تهذيب اللغة للأزهري .

الخلاصة :

هذا بعض ما أحياه علماء المشرقيات في الغرب من أسفار أجدادنا ،
وهذه الجريدة أدنى الى أن تكون قائمة غير مستوفاة لأن بلاد الغرب

كبيرة ، والاستقصاء متعذر بعد عمل القوم هناك قرولاً طويلاً . وما زالت هذه اللغة كما قلنا مرة من لطف الله بها يخدمها الأعاجم ، ويغار عليها من ليسوا من أبنائها ، وقد يحسن الدخيل خدمتها أكثر من الأصيل . خدم الأعاجم حضارة العرب كثيراً في العهد القديم ، والأعاجم في العهد الحديث ما خرجوا عن هذه السنة معها ، وبعد فلولم يشرع الغربيون بنشر كتبنا منذ القرن الخامس عشر الميلاد لتأخر النور عنا مدة ، وكان ضاع جانب من ثروتنا العلمية ، ولو حدث الانتباه في الغرب للحصول على كتب العرب في القرن العاشر الميلاد مثلاً لحفظت كنوز كثيرة تبعثت بالحروب الصليبية في الشام ومصر ونكبة هولاء كو في بغداد وفجائع البربر والاسبانيين في الأندلس ، وغير ذلك من الخطوب المدطمة التي أصيبت بها كتب العرب من إحراق وإغراق وتمزيق وتفريق . ومع هذا فان هذه المادة الصالحة التي تلقفها الغربيون من أسفارنا بعد زمن نهضتهم ، قد أحييت معالم حضارتنا ، ولولا عنايتهم البالغة لضاع أكثر ما أبقته الايام لنا ، لأن ما حفظ من كتبنا في بلاد الغرب الأقصى والأدنى ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن والهند وفارس وبخارى والاسطوانة وغيرها هو بقايا ضئيلة من تلك التركة العظيمة .

توفر المستعربون على طبع ما ظفروا به من كتبنا ورأوا مصلحة للعلم والآداب أو للسياسة والاستعمار غرضاً في إحيائه قبل غيره ، وقلماً طبعوا كتاباً أو رسالة إلا عن فكر ولقصد ، موفرين العناية بمعارضة النسخ بنسخ مثلها ، والرجوع الى المظان المنقول عنها ، يجعلون ذلك في الهوامش ، ويحشونها بالفوائد والاستدراكات والملاحظات وحل المشاكل والمفردات . وكانوا يكتبونها لأول الأمر باللاتينية لغة العلم عندهم ، ثم أخذ كل واحد يكتبها بلغته أي لغة الناشر ، ويفردون لكل كتاب فهرساً بل فهارس للاعلام من البلدان والجبال والأنهار والطرق والجسور والجوامع والمدارس والشوارع والدروب والأبواب والأسواق والأشخاص والقبائل والأمم

وأسماء الكتب التي وردت في متن الكتاب ، ويشفعونها بفهرس القوافي والأمثال وأيام العرب ان كان السفر من كتب الشعر والأدب ، وبفهرس المفردات ان كان الكتاب في اللغة والطب والهندسة والطبيعة والحكمة والجغرافية والفلك والحيوان والنبات الى غير ذلك مما يجزل الانتفاع من مطبوعاتهم ويقرب منها على الطاب . وقد ينشرون الأصل من كتاب وينقلونه الى لغة من لغاتهم أو يقدمون له مقدمة فيها مزايا الكتاب وما يمكن أن يستفيد منه العلم الآن وكم من مقدمة حملت روح الكتاب وأرواحاً جديدة مع روحه .

وكل ما طبعه أولئك الأعلام ينم عن صبر طبيعي فيهم ، ودؤوب غريب ، وأمانة يصفق لها ، وتحرر للحق ، وتخرج من التلفيق ، حتى غدت مطبوعاتهم إلا ما ندر منها مثال النظر البليغ ، والطبع الجميل ، وأكبر معوان على المراجعة والمطالعة والانتفاع بالكتاب حق الانتفاع . وكم من كتاب عظيم ظهر في الشرق غفلاً من الفهارس التي تقرب مثاله فما هو ان نقل الى الغرب حتى تصدى بعض علمائه ووضعوا له الفهارس ليتم الانتفاع به ، كما فعلوا بكتاب الأغانى وأمالي اقلي وغيرهما . وعلى العكس رأينا بعض الطابعين في الشرق ممن استحلوا طبعا علماء المشرقيات من الغربيين ، فأعادوا طبعا في شناعة صورة معراة من حواشيا وفهارسها ، ولم يذكرها كلمة واحدة في نسبة الكتاب الى طابعه الأول ، بل محييه من العدم وصاحب الفضل الأكبر في إخراجه للناس .

نعم يصدر المستشرقون الكتب العربية على عجمتهم سليمة من الشوائب في الجملة ، ونحن على عربيتنا قد نرتكب في إحياء كتبنا أغلاطاً فظيعة ، ذلك لأننا نحاول أن نعمل عمل شهر في يوم ، وأن لا نتعب أنفسنا في البحث والتفكير ، فيأتي عملنا خيداجاً قبل أوانه ، ويأتي عملهم تام التراكيب ، مشبعاً بالتحقيق والتمحيص ، فنحن نخدج وهم ينضجون .

ومع هذا نرى بعض المتحذلقين منا يرمون المستعربين بعدم الفهم ، اذا ظفروا لهم بغلطات معدودة في كتاب طبعوه . وهم لو أتق اليهم الأصل الذي طبع عنه المستعربون لارتكبوا أضعاف أغلاطهم ، وربما تعذر عليهم الاهتمام الى وجه الصواب في النقل والنشر ، ويقال لمن يعاجز هؤلاء الأعاجم ، ويدكر لهم هنات قليلة غاضاً الطرف عن سلسلة حسناتهم : هيا اثنتا بتأليف كتآيفهم التي يحيونها ، ونحن نتسامح بك في عدد الهفوات التي تسقط فيها . الانتقاد سهل ولكن الصعوبة في الابداع والايجاد .

وينتقد بعض من نظروا في الكتب التي طبعها المستعربون أن حروفها العربية ليست من جمال الهندام على مثال حروف المطابع في مصر والشام والاسنانه ، ولهم بمض الحق في ذلك لأن الطابعين هناك اعتمدوا على هذه الحروف التي هي أشبه بالقاعدة الغربية ، وبها طبعوا معظم ما طبعوه منذ القرن السادس عشر ، على أن بعض مطابع انكرا وفرنسا وألمانيا وايطاليا والسويد أخذت في العهد الأخير تبدل الأمهات القديمة بأمهات من الحروف الجديدة على القاعدة الاسلامبولية وغيرها ، فأخذت مطبوعاتهم تخرج علينا بهذا الضرب من الحروف المشرقة . وكيف كان الحال فالسعيد في نظرنا من يتهماً له اقتناء خزانه من هذه المطبوعات العربية في الديار الغربية ، لأنها نادرة لقله ما يطبع منها ، وبعد الزمن الذي قضى بنفادها ، وما نخال المستعربين ارتقوا في عدد ما يخرجون منها عن بضع مئات ، ولعلمهم يجمعون بعد الآن الى هذا المقصد العلمي المقصد التجاري أيضاً ، فيكثرون من عدد النسخ المطبوعة ليشارك العربي في اقتناء كتب أجداده ، وتعم الفائدة وينجو المستعربون بعض الشيء من استحلال بعض الطابعين سرقة كتبهم وطبعاتهم في بعض بلاد الشرق .

وبعد فما برح العارفون منا يقدرون عمل المستعربين قدره ، بل يعجبون به ويمجدونه ، قال لي أستاذي علامة الشام الشيخ طاهر الجزائري : أليس من الغريب أن يكون تفسير القاضي البيضاوي المطبوع في ألمانيا

أصح من الطبعة التي طبعت في الاستانة؟ وسمعت أستاذي الشيخ محمد المبارك يقول: لاحظت مع الجماعة الذين نجتمع وإياهم على قراءة سيرة ابن هشام ان الطابع الافرنجي عني بطبعها وخدمها أكثر من عناية المصححين لها في المطبعة الاميرية في مصر اه .

وهذا من عجيب تدقيق علماء المشرقيات وسلامة نظرهم ، يحسنون طبع تفسير قرآننا وسيرة رسولنا أكثر مما نحسنها ، على حين نحن لم نحرص في كل عصر على شيء حرصنا على علوم الدين ومقوماته ، وأغفلنا ما عداها من العلوم إلا قليلاً . لا جرم أننا لم نصل الى اليوم في مصر والشام الى محاكاة الغربيين في باب العناية بطبع كتبنا ونشرها سليمة مقبولة ترتاح النفس اليها ويعول المحققون في تآليفهم عليها .

لولا عناية المستعربين باحياء آثارنا لما انتهت اليها تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة وطبقات الحفاظ ومعجم البلدان ومعجم الأدباء ومعجم ما استعجم وفتوح البلدان وفهرست ابن النديم ومفاتيح العلوم وطبقات الأطباء وأخبار الحكماء والمقدسي والاصطخري وابن حوقل والممداني وشيخ الربوة وابن جبير وابن بطوطة الى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي وبها وقفنا على درجة حضارتها . لولا إحيائهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفدا واليمقوبي والدينوري والمسعودي وأبي شامة وابن الطقطقي وحمزة الاصفهاني وأمثالهم لجهلنا تاريخنا الصحيح وأصبحنا في عمية من أمرنا . ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر وكتب الأدب والعلم التي أحيوها لاطال بنا المطال ففي الذي أوردناه من أسمائها فيما سلف غنية ، والمقصود بيان تلك المزايا ، والاشادة بالأيادي البيضاء التي أسداها القوم لآدابنا .

أعلى دي ساسي ودي سلان ورينو وفليشر ووستنفلد وفلوغل وفريتاغ ومولر وسخاو وآلورد ودوزي ودي خوي وجوينبول وهوتسا وفان فلوتن وريس ورينت واميدروز ومرجليوث وبوبر وبفن ولايل ومكراتي وجويدي

ونلينو وكودرا ورييرا وغولد صهير وكر كاس وروزن وغوتولد وتورنبرغ ومن تبهم ومشي على أثرهم ممن طبعوا الأبحاث أو طبعت تحت نظرهم وتحقيقهم — هؤلاء الرجال أعلوا مقام المشرقيات في الغرب . فان فضل كل واحد منهم بما نشر كفضل المؤلف في تأليفه وقد لا يكون التأليف من الصعوبة بالمكان الذي يقع فيه من يحاول إحياء تأليفه بعد أن تعاورته النساخ بالمسح والتحريف . ومصيبة الأخذ من المخطوطات القديمة لا يشعر بها كل الشعور إلا من أصيب بها ، فان منها المهمل الذي لا إعجاب في حروفه ومنها المشبك ومنها المحشى المهمش بأشياء تزيد البلاء في استنبات ما قاله المؤلف الأصلي . وأعظم الخطوب في ذلك أن ينسخ الناسخ ما لا يفهم معناه ولا مبناه وهناك البلية كل البلية .

فاحياء الأسفار على هذه الصورة فيما نرى تأليف وزيادة . ووستنفيلد وفليشر وفلوغل ودوزي ودي خوي وريت ومرجليوث وتورنبرغ وسخاو مثلاً باحياهم عشرات من كتبنا هم من أعظم المحسنين لآدابنا . ولسنا نذكرهم ونذكر رفاقهم مها قد عملهم في نظر المتشدين إلا بالرحمة والاعظام ، ونعدهم أساتذتنا في نشر الكتب والتأليف والنقد . فعلى الأموات منهم الرحمة وعلى الأحياء السلام .

* * *

هذه أسماء المصادر التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا الفصل :

- (١) تاريخ علماء المشرقيات في أوروبا من القرن الثاني عشر الى القرن التاسع عشر لدوكا (بالفرنسية) .
- (٢) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو .
- (٣) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع للدكتور ادوار فنديك .
- (٤) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان .
- (٥) غرائب الغرب لمحمد كرد علي .
- (٦) مجلة المشرق .
- (٧) مجلة المقتبس .
- (٨) مجلة المجمع العلمي العربي .
- (٩) المجلة الآسيوية الباريزية .
- (١٠) مجلة العالم الاسلامي الباريزية .
- (١١) مجلة الدروس الشرقية الايطالية .

دمشق : سنة ١٩٢٧

نهضة العرب العلمية في القرن الأخير

للأستاذ شبيب أرسلان

تمهيد:

لقد تكلمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم اقتداءً بغيرهم من الأئمة الأثني كني مفككات مبعثات ، فما زان يسعين في الانضمام الى أن أصبحن كتلة واحدة . ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية كما اخترنا النادي العربي منبراً للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه ، وإنما كان الفرق بين الباحثين أن الواحد منها سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه إلا بالمقدار الذي تسمح به المصلحة ، وأن الآخر علمي بحث بقدر أن يستقصي فيه الباحث ماشاء دون أن يتعرض لمحدور أو يعرض أمته لضرر ، وبهذه المناسبة أعلن أي آسف بل جد آسف من أن أرى بعض اخواننا معتقدين ان الانسان إذا حضر في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها ، وأن يجهر بكل ما يدور في خلدك كما لو حضر في باب العلم ، فهذا لا شك مذهب من يسميه الافرنج « بالولد الهائل » ومن ليس في الواقع جديراً بان يطرق باب السياسة أصلاً بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب ، فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال الهائلين ولا من الذين لا يعرفون الى أين يذهب الكلام ، بل نحن ولله الحمد من أمة اشتهرت بالبرونة والدهاء وسرعة اللحظ وقد جاء في أمثالها : اللبيب من

الإشارة يفهم ، ولقد كان هادياً الأعظم (ﷺ) إذا أراد غزوة ورى
بغيرها ، ومنا الذي يقول :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنم
وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيدنا عمر رضي الله عنه أنه
أشعر العرب لقوله : ومن ومن ، ثم أبدأ بالكلام عن نهضة العرب
العلمية فأقول :

مند عشر سنوات (أي سنة ١٩٢٧) اقترح علي الطيب الذكر الأستاذ
يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف الذي انتهت اليه رئاسة المجلات العلمية
أن أكتب الي المقتطف شيئاً في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين
سنة الأخيرة ، فكتبت يومئذ فصلاً ظهر في أجزاء المقتطف من تلك
السنة وراق العلامة المشار اليه كثيراً وقد بدأته بما يلي :

لا حاجة بنا الي القول بأن أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم ،
وعندي انه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية فاذا وجدت هذه جاءت
سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية الخ ... آخذاً
بعضها برقاب بعض . فاذا قلنا إن الشرق الأدنى نهض نهضة علمية كفيينا
تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارض رقيه ، لأن العلم وحده هو المفتاح
وبه وحده الدخول إلى داخل البناء ، وكل نهضة لا يكون ظهريها العلم
فماهي إلا ساعة وتضمحل ؛ وقد يقال ان نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحق
أن تذكر باقياس الي معالي الأمم الراقية ، واننا لا نبرح متخلفين بمساوف
شاسعة عن أمد أوربية وأميركة واليابان ، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل
حيزاً في التاريخ العام ؟ وعلى هذا نجواب أنه ليس العلم متعلقاً بالكمال
وحده ، ولا البحث موقوفاً دائماً على ما بهر النهى وبلغ سدره المنتهى ،
وإنما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى ، والبحث هو
الذي به توزن مقادير الأشياء ، وتحدد نسبة بعضها الي بعض ونسبتها الي
الوقت ، ثم اننا اذا تحريينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في

هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة مالم يتها لا أوربة أن تجتازه قبلاً في أطول جداً من هذا الرده من الدهر ، وذلك أنه من الطبيعي أن يسهل على المتأخر مالا يسهل على المتقدم ، لأن المتقدم قد يضطر أن يهد الطريق ويسير ، وأما المتأخر فما عليه إلا أن يلحقه ويسير على طريق مدلل أمامه .

محمد علي الكبير مؤسس النهضة :

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية إخراجاً لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الأدنى بمحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر فهو أول من لحظ الخطر الحائق على جراء جموده على أساليب العمران القديمة وجعل نصب عينه حديثاً الغرب في أساليبه الجديدة حتى يتأني للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقل بنفسه ، إذ كانت سنة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كلما تقوى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلة والمسكنة .

فمحمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سورية ، وأول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة إنما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاة ولده إبراهيم باشا للشام ، ثم انكفاً إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدد ، وجدد السوريون لاسيما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدينة الغربية لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول الذي استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق الى يومنا هذا . ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والاطليان والروس)

ان أرض سورية قابلة جداً لبذور المعارف فبثوا فيها المدارس والكتاتيب وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام ، ففي بيروت والحق يقال ابترغ زرع العلم المصري وأخرج شطأه ثم أنبت في جميع الشامات ثم فيما جاورها واستغلظ واستوى على سوقه يعجب حتى الزراع الأوربيين أنفسهم ، واضطرت الدولة العثمانية أن تفتح المسكاتب الرشدية والاعدادية في سورية ، وان تقبل كثيرين من شبانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرج فيها ألوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية او عدلية ، ومنهم أطباء وصيادلة ، ومنهم ضباط نبغوا في الفنون العسكرية وامنازوا بين الأقران . ان ضباط العرب في العراق وسورية واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب (بانغاتي) في الاستانة ، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال .

ومع أن النهضة العلمية في مصر لم يكن الأصل فيها لا الكلية الأمريكية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة في الاستانة ، لا ينكر أن مصر كانت ميداناً لجياد القرائح السورية ، وأن أنبغ الذين تخرجوا في بيروت إما ظهوروا واشتهروا وتملقت قناديلهم بمصر ؛ هذا كما أن لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشريعة بالجامع الأزهر وتخرج عدد كبير من أطباء سورية بالقصر العيني ، فما زال كل من القطرين المصري والشامي يشد الواحد منها الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي العقلي ، وقلماً جدياً في أحدهما شيء إلا سمعت رجع صده في الآخر . على أن النهضة الشرقية العربية وان كان قد ذرّ قرنهما منذ قرن فأكثر لم تسر هذا السير الخيبي إلا في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدتها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأنني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العلمية في سيرها منذ ٢٥ سنة متوالية ، فلي الحق إذاً بأن أدعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخل فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زاول عمله في مكافئة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يتخلف يوماً واحداً .

الصحافة :

لا نزاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض الى أهل الشرق النائم ، وقد كان بحسب معلوماتي ، وربما أكون مخطئاً في بعضها ، أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الوقائع المصرية بعهد محمد علي ، ولكن بقيت سورية مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة ، ويقال ان أول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة « حديقة الأخبار » أنشأها خليل افندي الخوري من شعراء لبنان في وقته وذلك سنة ١٧٦٠ ، ثم أصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد ، ولم يلبث أن نشر جريدة أسبوعية باسم الجنة ، ثم جريدة يومية باسم الجنة ثم مجلة شهرية باسم الجنان ، وقد التزم هذه المادة في التسمية لمناسبتها مع اسمه « البستاني » وكان اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية ، ثم أصدر القس لويس الصابونجي جريدة النحلة ، وأصدر غيره جريدة اسمها النجاح ، وأصدر الأمريكيون جريدة اسمها النشرة الأسبوعية ، ثم تحرك المسلمون فأصدروا جريدة سموها ثمرات الفنون ، وكانت تصدر بإدارة الشيخ عبد القادر القباني ، وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الأسير ثم خلفه عليها العلامة الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسي ، وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و ١٨٨٠ أي في مدة عشرين سنة ، فوجدت في بيروت في ذلك العهد عدة مطابع ، وصارت تطبع الكتب العربية بعد أن كان طبع الكتب العربية منحصراً في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر ، وكانت قد صدرت في الأستانة في أثناء الحرب القرم سنة ١٨٥٥ جريدة مرآة الأحوال وذلك بأمر الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب الشهير ، وقد وقعت إليّ عدة نسخ كانت باقية عندنا من تلك

الجريدة فيها أخبار حرب القريم وغيرها من الأخبار ، ومما أتذكره أنه كان عند ذكرك خديوي مصر يلقيه بسعادة عزيز مصر ، وأظن ان جريدة مرآة الاحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية ، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات الى أن فر رزق الله حسون من الاستانة الى اوربة على اثر حادثة جرت معه ، وقيل فيها انه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار ، وكان فارس أحمد فارس الشدياق في باريس فقدم الى الاستانة وأنشأ جريدة « الجوائب » المشهورة فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم ، وكان لها مشتركون في جميع الاقطار الاسلامية ، نظراً لبراعة كاتبها أحمد فارس الممدود من أكبر كتاب القرون الاخيرة ؛ وأما رزق الله حسون فبعد أن فر الى أوربة نشر كتاباً تحت عنوان « النفثات » نال فيه من الدولة العثمانية ، ومن صاحب الجوائب ، فأشار هذا الى كتاب النفثات بقوله : « كان حسون لصاً وله سرقات ، فانقلب صلاً وله نفثات » وأظني غير مخطئ اذا قلت انه انذاك العهد أو بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها « الرائد التونسي » وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم وادي النيل ، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها ، ولست محاولاً في هذه المقالة الاحاطة باسما جميع الجرائد العربية التي صدرت وتوارى بخ صدورها ، إنما أنا أذكر الآن أشهرها على سبيل التمثيل وأقول : انه لما انتشرت جريدة الجوائب بمكان احمد فارس من علم اللغة وبراعة الانشاء وسعة المدارك كانت عاملاً قوياً من عوامل النهضة العربية الادبية ، وصار صاحبها يطبع في الاستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة ، والتي اطلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية ما أعجب به العالم العربي كله لاسيما انه نشرها بالطبع الجميل ، وربما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق ، واني قد أدركت ، وانا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، عهد احمد فارس في أواخر عمره

وكان لا يزال ، وقد بلغ من العمر عتياً ، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من أعلامها ، ومن شاء أن يعلم مدى براعة أحمد فارس ومبلغ بلائته في سبيل اللغة العربية والوطن العربي ، فليراجع مجموعة كثر الرغائب في منتخبات الجوائب فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ - ١٨٨٠ .

الحركة العلمية :

ولنعد إلى سير الحركة العلمية في سورية فنقول : انه إلى حد سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعداها إلى غيرها من مدن سورية ، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية للولاية باسم (سورية) وبعد ذلك بكثير أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها (الشام) ، وبعده أصدر الاستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها (المقتبس) ، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باسم (الفرات) ، وكل من جريدتي سورية والفرات كان نصفها بالعربي والنصف الآخر بالعربي وقلما كانت تنشر شيئاً خارجاً عن الاخبار الرسمية . وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها (الزوراء) على هذا النمط أيضاً . وأما بيروت فكانت لا تزال على تقدمها في طريق العلم والعرفان ، وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني ثم أخذت كل طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سورية تؤسس مدرسة داخلية في بيروت ، فكانت للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها (البطيركية) والموارنة مدرسة يقال لها (الحكمة) والمسلمين مدرسة يقال لها المدرسة (السلطانية) تولى إدارتها مدة من الزمن العلامة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي صاحب الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين ، وكان اليهود أيضاً أسسوا مدرسة داخلية باسم المدرسة (الاسرائيلية) كان يديرها زاكي كوهين .

وكان اليسوعيون قد أنشأوا الكلية (اليسوعية) مناظرة للكلية الامريكية؛ وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان يقال لها: (مدرسة عينطورة) انتفع منها كثير ممن اشتهروا في اتقان اللغة الفرنسية، ثم شرع أساقفة الموارنة يؤسسوا مدارس لآبناء طائفهم فكانت مدرسة (قرنة شوان) ومدرسة (غزير) لبني زوين ومدارس أخرى متعددة، وقد كان الموارنة من قبل هذا مدارس قديمة أكليريكية مثل مدرسة عين ورقة ومدرسة مار عبدا هريريا ومدرسة مار يوحنا مارون، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير، وقد اطلعت على مطبوعات قديمة ترجع إلى مئة سنة أو أكثر جرى طبعها في كسروان بمطابع الموارنة منها مطبعة دير سيدة طاميش، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية.

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بإنشائها الامير ملحم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوف لطائفة الدروز في قرية عبية، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٦٢.

وكانت تقبل الطلبة مجانياً لاعتمادها في نفقاتها على الاوقاف التي ألحقها بها الامير المشار إليه، ولما تولى قائممقامية الشوف ابن عمه الامير مصطفى زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الاساتذة مثل العلامة الشيخ أحمد عباس البيروتي وأمثاله، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على ادارتها الآن الاستاذ عارف النكدي مدير العدلية في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراية والامانة وعلو الهمة.

ثم نقول: إنه كان ازدياد عدد الجرائد متساوياً مع ازدياد عدد المدارس فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدم ذكرها جريدة اسان الحال لصاحبها خليل سركيس وجريدة التقدم التي كان يتولى تحريرها أديب اسحق الكاتب المشهور في وقته، وجريدة المصباح التي أنشأها المطران يوسف اللبس مؤسس مدرسة الحكمة، وعهد بادارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقاش من أعضاء مجلس الامة العثماني، وإلى بولس زين من أدباء الموارنة، وكانت

مجلة المقتطف قد صدرت في بيروت لصاحبها العلمتين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر ومن أول نشأتها كانت مجلة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية .

ومما لا جدال فيه أن للمقتطف أثراً بليغاً في عموم النهضة العربية ولا ينكره إلا كل مكابر - ومن مساعي العلمتين الشهيرين صروف ونمر تأسيس مجمع علمي في بيروت سموه المجمع العلمي الشرقي قد ضم نخبة العلماء والادباء الذين كان يشار إليهم بالبنان ، ولم يكن هذا المجمع أول مجمع علمي في بيروت بل قد سبقه جمعية علمية تأسست قبل ذلك بنحو من عشرين سنة ، كان رئيسها الامير محمد الامين أرسلان ، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الاسير والشيخ ابراهيم الاحدب والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف والسيد حسين بيهم وسليم أفندي رمضان وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه .

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أنذكر كان الشيخ عبد المجيد الخاني الاديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت فذكر ما رآه فيها من الرقي الفكري وسرد أسماء جرائدها نظماً فقال :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها بلسان مصباح التقدم قائل^١
 ظل المعارف وارف في أرض بيروت ورهط الفضل فيها قائل^٢ (١)
 ثم أنشأ علي بك ناصر الدين مجلة اسمها الصفاء صارت فيما بعد جريدة سياسية ولا تزال إلى هذا اليوم قائمة حق القيام بخدمة العلم والادب ، وقد كان لي فيها أول مقالة صدرت من قلبي وذلك سنة ١٨٨٥ ، وأصدر عبد القادر أفندي الدنا جريدة باسم بيروت كان يكتب فيها الاستاذ البليغ السيد مرئضي الجزائري ابن أخي المغفور له الامير عبد القادر .

(١) الاولى من القول والثانية من القيلولة .

ثمانون جريدة في سورية :

ولكن عدد الجرائد لم يزد هذا الازدیاد الرائع إلا بعد إعلان الدستور العثماني ، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر ، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية إلا أنه لما أعلن الدستور العثماني وتقررت حرية الصحافة أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة فلما نشبت الحرب الكبرى كان ينشر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر في هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لا تقل عن بضعة عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات . وهذا أول دليل على سرعة الرقي العلمي في سورية ، وليس في الكلام أفصح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس ، نعم إنه لا يزال عدد الاميين كثيراً في هذه البلاد وربما بلغ مع الاسف ٦٠ بالمائة ، ولكن المظنون بحسب ما نراه من إقبال الاهلين على تعليم أبنائهم أنه لا يمضي عشر سنوات حتى ينزل عدد الاميين إلى ٢٠ بالمائة . وقد كان في بيروت بضعة عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرتين وثلاثاً ، وتأسست مطابع كثيرة في سائر المدن السورية ، وليس عمل هذه المطابع كله منحصرأ في طبع الجرائد بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تطبع إلا إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عدداً كافياً من المشترين . وان مكانة الصحافة الآن في سورية ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقل عن مكانة الصحافة في أوربة ، فأما في مصر فما لا شك فيه أن الصحافة أرقى منها في سورية لان ثروة مصر أعظم من ثروة سورية بكثير ، وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا أي سنة ١٨٨٢ يصدر في مصر بضعة جرائد لا غير منها الاهرام واللطائف والمفيد وغيرها ، فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن

تضاعف مراراً ، وأن بعض جرائدها اليومية تصدر بثماني صفحات أو ست عشرة صفحة . ومنها جرائد مصورة كثيرة وربما تطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف نسخة وقد أكد لي أحد الاخباريين الاوربيين الذين يرسلون الاهرام من أمهات الجرائد المصرية أن هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الاتقان وسعة النفقات وكثرة القراء لكانت معادلة لاحسنها .

ولما كانت الامثال أحسن مظهر لحقائق الاشياء وأبلغ مؤثر في النفوس رأيت الآن ايراد مثال وقع معي ، وكنت قد ذكرته في مجلة المقتطف ، ومنه يتبين الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة وحالتها منذ عشرين سنة .

قلت في المقتطف : اني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠ ، وكنا نجتمع في مجلس الامام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما كنا نسمر عند سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد أفندي زغلول وكان من المحامين المشهورين بمصر ، وكان يئتاب تلك الحلقة شيخ شخت الحلقة اسمه الشيخ علي يوسف ، إذا أتى جلس في آخر المجلس ساكناً ولبث أكثر المجلس مستمعاً تكاد ترثي له لضعفه ولسكنته ، وكان قد بدأ بإصدار جريدة اسمها المؤيد كانت تظهر مرتين بالاسبوع وهو يمجز أن يجعلها يومية إلا أن هذا الرجل على ضؤولة جسمه كانت بادية عليه سيء الهمة والعزم فزرتة مرة في مطبعة المؤيد فرأيته جالساً على مقعد رث لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض ، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الخبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذ ، ولا يعرف كيف يصوغها وكانت بجانب الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة ، وبين الغرفتين باب مفتوح وأنا من مكان جلوسي أرى منضدي الحروف من خلال ذلك الباب يصفون الحروف ، ثم اني رأيت الشيخ علياً في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول

الجديد ، وهو يكتب ويطلب ويمحو قلات له : لو قلت كذا وكذا ... فأجابني : بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية فكتبتها أمامه ، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر .

المؤيد تطبع ٣٠ ألف عدد :

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت ؟ وجدت جريدة المؤيد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع في كل يوم من ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسخة ، ووجدت إدارة المؤيد تكاد تكون قصرأ من قصور الامراء فيها الزرابي المبتوثة والطنافس الحربية الفاخرة بدلاً من ذلك المقعد الحقير ، عليه ذلك الغطاء القديم من الشيت بدون حشوة ، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيد اشتراها بخمسة آلاف جنيه ، مع أن تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه .

ثم وجدت الشيخ علي يوسف نفسه من أكتب كتاب مصر وأسيلهم قلماً ، فضلاً عن اني وجدته عيناً من أعيان مصر وأشهرهم ذكراً ، ولم يغفل الشيخ عن أن يذكرني بزيارتي الاولى عندما كان على تلك الحالة الرثة ، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيتها عليها يوم زيارتي الثانية ، فهذا المثل البارز كافٍ لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق (١) .

انتشار الصحافة في العالم الاسلامي :

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي فصارت الآن منبثة في جميع الأقطار العربية ، ففي العراق بضع عشرة جريدة ومجلة منها ما هو في البصرة ، وكذلك ظهرت جرائد في

(١) لا حاجة بنا الآن إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين ولا إلى ذكر المجلات الشهيرة كالقنطرة والحلال والرسالة وأمثالها ، فان الإعلام الشهيرة لا تعرف ولا تحتاج الى تعريف .

الحجاز قد كان أولها جريدة القبلة في زمن الملك حسين ، ولما استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها أم القرى ، ثم ظهرت جريدة اسمها صوت الحجاز في مكة وجريدة ومجلة في المدينة المنورة ، وصدرت جريدة الايمان للحكومة اليمانية في صنعاء ، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة حضرموت في جاوة ، كما انه يوجد في الهند مجلة عربية اسمها الضياء للاستاذ مسعود الندوي .

أما في المهجر فان للعرب نحواً من ٣٠ جريدة ومجلة : منها ما هو في أمريكا الشمالية وما هو في أمريكا الجنوبية ، وفي المهاجر العربية هناك من الكتاب والشعراء والأدباء والأطباء والفلاسفة تفر تفخر بهم أوطانهم ، وهم جزء متمم للعالم العربي الأدبي لا يتم إلا بهم ، واني اشبه الجاليات العربية في وسط هاتيك الأمم الأجنبية التي تحصى بمئات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العجمة لا نهاية له ، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعا ومشاربها ، وهذا لعمرى برهان الأصالة والنبالة وعلو الهمة ، فان الذي ينجل بوطنه وقومه ليس بانسان ، وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تجدد فيه على أبواب المخازن العناوين العربية فوق الانكليزية ، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوعة ما يكون قد درس بتأهه في البلاد العربية الأصلية .

وانك لتسمع الموسيقى ثمة العربية كيفما توجهت سواء من المغنين أو من الآلات الحاكية ، وإذا نظرت إلى النوافذ وجدت فيها الأخص من الفخار فيها الرياحين وأكثرها من الحبق الذي يقال له الريحان في دمشق وفي لبنان الحبق ، ويظهر أن العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض ، فاني قد وجدتها بكثرة في اسبانية وهي حافظة اسمها العربي فيقول لها الاسبانيول « هبة » أي حبة ، ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السورتيين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أن كثيرين منهم يسكنون

في حارات على حدة ، وربما بنوا قرى منفردة لأنفسهم ، وذلك ليكونوا أحراراً في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الأصلية ، فإذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سورية بما فيها من الأغاريد والأناشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان « التراويد » ، وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة ، وقد اجتمع فيه أبناء العرب نخلت نفسي في زحلة أو في أية بلدة من لبنان وكذلك قيل لي انهم في الأماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالتمام فتندب النساء من جهة حول الميت ويندب الرجال من جهة أخرى ، وهم يذهبون ويحيئون وبأيديهم المناديل يهزونها في الهواء وهي ما كان العرب يقولون له المآلي واحدها مثلاة ، إلا أن بقاء هذه الحالة عند السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر ، لأن أعقابهم مع الأسف ذائبون إلا ندر في الجنسية الأمريكية ، وقلماً رأينا من ذرايعهم المولودين في أمريكا من يعرف اللغة العربية لا سيما الذين أمهاتهم من هناك ، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أمريكا من أبنائهم ، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغن ، وحدثوني عن غيرها ولكن هذا العوز لا ينسد مع الأسف ببضعة كتاتيب ، فالسوريون الذين في أمريكا الشمالية يزيدون على ٢٠٠ ألف نسمة ، وهم في الأمريكتين جميعاً أكثر من نصف مليون .

وقد قيل لي : إن أعلى المهاجرين العرب همياً من جهة الاحتفاظ بلغتهم هم مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلات راقية وجرائد مفيدة كما يوجد مثل ذلك في نيويورك ، ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة بآبائهم ، بل أسسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية ، يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلم بها أهل البرازيل ، أما إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة

على العرب في أمريكا الشامية فلا يمضي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتى ينقرض منها مع الأُسف كل شيء أصله عربي ، ويصير وجود العرب في تلك القارة خيراً من الأخبار التاريخية .

الصحافة العربية في شمالي أفريقيا :

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنا في صده فنقول : إن شمالي افريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة ، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعول عليها كل أمة ناهضة ، ولم يكن في بادئ الأمر بغير تونس جرائد عربية مغربية ، وقد تقدم ذكرنا لجريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر فيما أذكر من قبل احتلال فرنسا لتونس أي منذ ستين سنة وبعد ذلك صدرت في تونس جرائد أخرى ، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدة جرائد ومجلات راقية كالزهرة والنهضة والصواب والمجلة الزيتونية وغيرها وأما الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها المبشر ، وأظنها كانت الجريدة الرسمية للحكومة إلا أن الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعددة في مدينة الجزائر وفي قسنطينة أتذكر منها « البلاغ » « ووادي تراب » ، وأما اليوم فمن أشهرها جريدة البصائر ومجلة الشهاب ، ولم يقتصر اخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها ، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيين المحتلين لبلادهم والمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية عربية اسلامية باللغة الفرنسية وذلك على نسق مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج « لاناسيون آراب » (١) ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتا ، خلافاً للاجانب فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك ، بل كان محظوراً إدخال الجرائد العربية الصادرة في

(1) La nation arabe.

البلاد الاخرى إلى المغرب ، وربما عوقب من وجد قارئاً لجريدة كهذه ، إلا أن الاهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من اجل هذا الضغط الشديد على حرية القراءة في بلادهم حتى سمحت من سنوات لبعض الادباء باصدار مجلة علمية في الرباط اسمها المغرب أذنت لها في الظهور على شرط أن تكون موالية للحكومة فاضطر الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلة فرنسية في نفس باريز باسم المغرب Magreb جعلوا إدارتها بيد ضيف سورية الحالي روبر جان لونغة (١) الذي جاهد هو وأبوه كثيراً في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا وفي منحهم جميع الحريات التي لهم الحق فيها ، فلما ظهرت مجلة مغرب ، وأقبل شبان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الافرنسية من المقالات القيمة والآراء السديدة ما أحدث تأثيراً عظيماً في نفس باريس ، انتقمت السلطة من تلك المجلة بمنعها من دخول المغرب نفسه ، فأصبحت في المقام المتقدم مع الوطنيين الذين كانت ترأسهم عصابة العمل القومي ، ومنذ سنتين تمكن السيد محمد ابن الحسن الوزاني من زعماء النهضة الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سماها عمل الشعب (٢) وجعل مديرها افرنسياً حتى لا تتمكن السلطة بتعطيلها ، فلما ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدة الصحف الفرنسية الصادرة هناك ، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافاً للقانون ، فبقي أهل المغرب ينتنون من هذا الضغط إلى أن توات فرنسا ولله الحمد الوزارة الشعبية في السنة الماضية فراجعتها عصابة العمل القومي في موضوع حرية الاجتماع والكتابة وما زالت المراجعات مستمرة باصرار إلى أن أذنت السلطة لعصابة العمل القومي باصدار جريدتين إحداهما بالعربية اسمها الاطلس يتولى تحريرها السيد محمد اليزيدي ، وأخرى بالافرنسية اسمها العمل الشعبي (٣) محررها السيدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية ، وصدرت

(1) Robert Jean Longuet.

(2) L'action du peuple.

(3) L'action populaire.

أيضاً جريدة عمل الشعب للسيد محمد بن الحسن الوزاني ، وجريدة أخرى بالعربية يقال لها الوداد كما أنه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلها الاسبانيول جريدة الحياة للسيد عبد الخالق الطوريس ومجلة السلاح للسيد محمد داود ، وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي ، ولكن الطرابلسيين يقرؤون الجرائد العربية التي ترد إليهم من الشرق والغرب بلذة زائدة ولا عجب فان علاقتهم من جهة الشرق مع مصر والشام ومن جهة الغرب مع تونس هي علاقات أقطار شقيقة وفي زنجبار من شرقي افريقية مطبعة سلطانية من قديم الزمن ، اطلعنا على كتب مطبوعة فيها ، ومؤخراً وصلت إلينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه .

فهذه هي لمحة دالة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الاخيرة لانزعم فيها الاحاطة وإنما نجتزئ بالاشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث وبالجملة فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدم الى الامام .

المدارس في العالم العربي :

ان الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لاجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقي ، بل المقياس الأكبر هو المدارس ، فمدينة بيروت مثلاً وعدد سكانها نحو من ٢٠٠ الف نسمة فيها من المدارس والجامعات ما لو قرنته بجامعات أوروبا ومدارسها لم تكن قاصرة عنها ، وربما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكان . وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ الف نسمة ، فبحثت عن عدد المتعلمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الاحداث في المكاتب الاميرية ، وأحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الاستانة فبلغوا مائة شاب ، فاذا

فاذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاب العلم من أهلها لا يقل عما يجب أن يكون في أية بلاد راقية ، وليس هذا المثال وحيداً في بابه ، بل له أمثلة كثيرة في سورية وان كنت لا أزال أتأسف من بقاء الأمية في البلاد الى هذا الوقت أكثر مما كنت أظن وذلك بفعلية البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم ، ولم يكن هذا كله من تقصير الحكومة وفقد ارادة العمل ، وانما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عما يجب أن تكون ، ومن الغريب ان الأمية في مصر لا تزال أكثر منها في سورية بالرغم من ان بين القطرين بوناً شاسعاً في درجة الثروة ، أما تقدم التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز منه للعيان بمدة قصيرة هو في المملكة العراقية لاسيما بعد أن حصلت على استقلالها ، فانه في وقت قصير أنشئت في العراق عدة مدارس عالية كدار المعلمين في بغداد والموصل ومدرسة الطب والثانوية المركزية وعدة مدارس ثانوية متوسطة ، وعدد لا يحصى من المدارس الابتدائية ، وفي العراق المدارس المسماة (رياض الاطفال) كثيرة وهي أرقى من أمثالها في سورية ، والفضل يرجع في اتقان هذه الرياض الى المرابي العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري ، ثم قد بلغني أن الكتبية من القاهرة وغيرها يصدرن كل سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية الى العراق وان هذا يزداد عاماً فعاماً .

أما في سورية فخامتها العلمية تتألف من كلية الطب وكلية الحقوق والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين ، ومن فروعها دار المعلمين الابتدائية والعالية ، ومدرسة تجهيزية أخرى للبنات وفيها دار للمعلمات أيضاً ، ومدارس ابتدائية كثيرة ، وفي حلب مدرسة تجهيزية ومثلها في دير الزور في حماة وأخرى في حمص ، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سورية في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم ، وهذا ما نأمل الوصول اليه في غير بعيد من الزمن ولا سيما بعد أن نالت البلاد استقلالها فانه لا يرجي نهضة علمية إلا بنهضة سياسية فإنان توأمان دائماً ، وقد بلغني من وزير

المعارف الدكتور الكيالي أنه لما ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الأولاد الذين يريد أهلهم إدخالهم فيها ، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها ، كما أوصى مديري الكتاتيب الأهلية الحرة بأن يقبلوا كل من يأتيهم على أن تؤدي إليهم الحكومة النفقات اللازمة ، فيقظة الأئمة ولا سيما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة إلى استدلال .

المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن نذم ذكر مجعنا العلمي هذا الذي كان أول مجمع على نسق أكاديميات أوروبا في الاقطار الشرقية ، فانه يضم نيفاً ومائة عالم شرقي ومستشرق كلهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق ، والمجمع مجلة علمية من أرقى ما صدر من المجلات في العربية وأدقها بحثاً وأحسنها أسلوباً وأجمعها للنوادر وأحفلها بالفوائد ، ولا يستغني متخصص في العربية إذا أراد جد الاطلاع عليها عن اقتناء مجموعة هذه المجلة منذ صدورها ، وقد سبقت سورية مصر في تأسيس هذا المجمع ، ولكن مصر عادت فسدت هذا العوز بتأسيس مجعها الحالي ، فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكل ما أوتي من قوة ووسائل ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معاً إلى الأمام خطوات واسعة ، وان حكومتي القطرين تشد أزرها بالمال إلى الحد الذي يمكنها من القيام بخدمات جلي للعربية والعروبة كما هو الشأن في أكاديميات الممالك الأوروبية ، فان أمام العرب مهات عظيمة في إثارة دفتان عقولهم وكشف دارس مدنيتهم والتنقيب عن دقائق تاريخهم لا يقوم بها إلا هذه المجمع العلمية التي هي أيضاً لا تقوم إلا بتوفير أفساطها من الميزانية المالية ، ولست متعرضاً الآن إلى الكلام عما قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بايجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر ، وإحياء ما وجد منها

في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له ، فان من شاء أن يعرف طائلاً من هذا الامر يقدر أن يراجع مجلات هذين المجمعين .

وإننا نكون غفلنا عن الحق وأهملائه جانباً إذا كنا لا نقول إنه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والاموي والزيتونة والقرويين لم يكن بقي أثر من آثار اللغة العربية فضلاً عن الشريعة الإسلامية ، فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الأولى قد وقت هذه اللغة من الدثور ، وهذه الشريعة من البوار ، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان إلا بقايا تلوح كبقايا الوشم في ظاهر اليد ، وتساط على هذه الأقطار ولاية أتوا على الحرث والنسل ، وهدموا كل شيء وطمسوا كل رسم ، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعة بنوع خاص مع مساجد أخرى كانت تجري مجراها تقيم العربية على أركان ، وتصد غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الامكان ، فكيف تثبت هذه الشريعة وهذه العربية في وسط هذا الزوال وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الاسلامي فيها الانهيار من كل جانب ، ان هذا العجب عجاب ! ولا شك أن ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولها ورسوخ قواعدها وغزارة القوة الحيوية التي فيها . وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم مثل الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة مما لا يتيسر لي استقصاؤه الآن ، وإنما أشير إلى نتائجه الباهرة فانه لا يكابر مكابر في أن الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي وانتهت باستقلالها بالرغم من معارضة الانكليز تحت مختلف العلل إنما كانت ثمرة هذه المدارس ، لأن الذين تولوا هذا الامر هم العشرة آلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل

الواحد وتنجزوا الاستقلال التام لوطنهم تنجز المستميت بأذلين من دونه
دماءهم بذل السخري ماله .

أثر الزيتونة والقرويين والاموي :

وكما قام الأزهري بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة
العالية التي كانت تتكسر عليها أمواج الجهل والفوضى كذلك كان جامع
الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق ،
ومنها ومن المساجد الأخرى خرج العلماء الأعلام والمصاييح الذين أناروا
الإسلام في دياجى ذلك الظلام ، ومن هؤلاء أيضاً خرج أولئك العلماء
الوطنيون الذين أرادوا إدخال العلوم العصرية في البلاد والتحقق بمعارف
الأوروبيين حتى لا يبقى الشرق مقصراً عن الغرب فكانت الجامعات
والمدارس العصرية الكثيرة وكان إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا من
أيام محمد علي إلى اليوم .

النهضة العلمية والدعوة الوهابية :

ولا يظن ظان أن الحركة التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما
كانت عليه قبل ، فأما في نجد والحجاز فلا يخفى أن الدعوة الوهابية
توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء ، وهو عندهم بمقام
الجهاد فترى المعلمين والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتابات
للأحداث وربما شرقت قبائل من العرب وغربت والمعلمون معها حتى لا
ينقطع التعليم بالرحيل ، فالأمية في البلدان الخاضعة لسلطان ابن سعود
ستكون نادرة ، ولكن يعترض بعضهم قائلاً :

ان هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقي المدني بل هو من النمط
القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر ، وهذا
القول مردود من وجوه ؛ أولاً أن النجديين يلتزمون تعميم القراءة

والكتابة في البدو والحضر فزوال الأمية هو بنفسه درجة عالية من العلم ، ثم انهم يحفظون الأحداث القرآن الكريم ويفسرونه لهم بعد رشدهم ، وأي كتاب حث على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن ، وأي كتاب قدس العلم والعلماء ونوه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن .

الإصلاح والعمران في المملكة السعودية

ثم ان منزع النجديين في الدين منزع إصلاح وترقية وتنقية ، ومشربه بعيد بالمرّة عن الخرافات فهو مشرب إصلاحي مستحب جداً في العصر الحاضر ، وإذا سألت الأوربيين أنفسهم قالوا لك : ان مثل هذا المشرب هو الذي فك قيود الأفكار وحل عقال العقول في أوربة . وكان فاتحة عهد الارتقاء ، وكثيراً ما أطلق الأوربيون على الوهابيين لقب (بروتستان الاسلام) ، ثم ان هذا الملك عبد العزيز بن سعود امام الوهابيين القائم بتنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيد ؛ فهو يجهز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة ، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده ، وعنده التليفون والراديو ، وعنده السيارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها حتى صارت تلك الأرض الشاسعة تطوى طي السجل للكتاب ، ومن أعمال ابن سعود اعتناؤه بالصحة العمومية وتعويله فيها على الوسائل المصرية الحديثة ، وقد بدأ يستخدم الطائرات في الجيش ، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الاتفاق كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق ، ولما كانت الأدوات المصرية في جيشه لا تقل عن مثلها في أي جيش أوروبي ، ولكن المال قوام الأعمال ، ثم إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الأمانة في السوابل فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود لأن الأمان العام ضارب أطنابه في بلاده كلها وواصل إلى الدرجة التي يتحدث عنها المؤرخون في الكتب بعد أن كانت تلك الصحارى أشبه بمسبعة تزأرفها

الضواري من كل فيج ، وبالاختصار فالوهايون يقبلون كل إصلاح ما لم يصادم الدين ، والعلم والدين لا يتصادمان في الحقيقة إلا عند من لم يحسن فهم كل منهما .

النهضة العلمية في اليمن

أما في اليمن فانه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين : عموم التعليم والامن الشامل ، فقد بلغني أنه لا يكاد يوجد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلم الأحداث القراءة والكتابة ، وأنه لا توجد مدينة ولا قسبة في اليمن إلا فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشريعة ، فلائمة في اليمن نادرة ، نعم لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم العصرية إلا نادراً وهي علة قد تزاح قريباً ، لأن العلوم الأدبية لا بد تثير حركة في الأفكار وتجعل نهضة في النفوس ، وهذه من شأنها أن تهتف بنشدان العلوم الطبيعية وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرها . هذا وإمام اليمن يحيى بن محمد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحر سيال القلم لا يغرب عن باله شيء مما يجب لترقية بلاده ، لذلك نراه مهتماً بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء ، وعنده معمل سلاح صغير شاهدهت بعيني أنا وزميلاي هاشم بك الاتاسي رئيس الجمهورية السورية والحاج أمين الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وعلمنا أن هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في أوروبا ، ورأينا مصنوعات هذا المعمل عياناً ، ولنا الأمل بان تتسع دائرة هذا المعمل ، وأن يتأسس في البلدان العربية معامل أساحة كثيرة تكون وافية بحاجات أهلها ، ولا ننسى أن العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدمة الأقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل ، لان على العرب واجباً لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين ، وهو أن لا يكونوا عيالاً على أوروبا في التسليح

فانه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم وخير للأرض أن تستغني بماؤها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها .

الشعر والشعراء

أما اللغة العربية من حيث هي ، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بجناحين وصارت إلى جلالها الماضي وعنجبيتها القديمة فكثرت في السنين الأخيرة سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يحصون بالآلاف إن لم يكن بالآلاف ، ونبغ منهم فحول يقدر الانسان أن يلزم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى الاسلام عندما كانت اللغة في ابان سورتها فلا تنظر في جريدة إلا تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق لشبان لم تسمع في عمرك باسمائهم ، هذا عدا المفلقين والعباقرة الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام ، ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل ، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله ، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدون بال عشرات ، وإن كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة ، لا ترتفع به إلى صفوف المبقرين وإنما تجعله في صف المجيدين ، وقد كنا في سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة ، وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنبي البيروتي يقرأ الانسان شعره بلذة وكان قبل الأنبي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولهما

قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم ، ولو أنها عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما ، وعلو طبقتما ، وقد سأل الأمير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامة قائلاً له : ما نسبة المعلم بطرس إليك في الشعر ؟ فاجابه : نسبة التملب إلى الأسد ، ولم يكن هذا الجواب صحيحاً لأن لبطرس كرامة من الشعر لا سيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندي ، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت اسمائهم في بلادنا مثل عبد الباقي العمري وصالح التميمي وعبد الحميد الموصلی وعبد الغفار الأخرس ، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلی هنا بسبب مراسلاتها مع نصيف اليازجي كما أن شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة ، وهذه الطبقة وإن كانت تعد من العالية في الأدب ، فإن الذين جاءوا بعدها ردها إلى الوراء فبعد أن كانت من الجليلين صارت من المصاين ، اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الأرزبي الذي لا يزل هؤلاء في قوته ، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأوائل . وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلا بنبوغ محمود صفوت وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى ، وقد أجمع مؤرخو الأدب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر ، وأنه الذي أعاد إليه ديباجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئاً ، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر إلا مبعوثين في عالم الأدب بأنفسهم محمود سامي العالية ، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجيدين من شعراء مصر وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الإجابة عن شعراء الأقطار العربية الأخرى ، وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشاير (أفاطم لو شهدت بطن خبت) الذي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الأصل ، والذي له قصائد أخرى جياذ ، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحداً بلغ مداه ، وقد

هبت ريح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الأقصى ،
 وظهر شعراء ومتروكون يمكن أن يضعهم القارىء في صعيد واحد مع
 شعراء الشرق ، ومهما قيل في ترقى الشعراء في هذا العصر الأخير فأعظم
 منه قد كان ترقى الكتابة التي لم تتقدم في فصاحة الالفاظ وتنقيح الجمل
 فقط بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها
 الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان بالمسحة
 العلمية والانشاء المرسل الملائن ، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب
 أنواعها لمن أراد أن يسمى كاتباً ، ولا نزاع في أن ترقى كل من ففي
 الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي
 حملت المتأديين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه في زوايا
 المكاتب فسمت المهتم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي
 لا تزال مجهولة ، أو مما ينحصر اقتناؤه في بيوت الأعمراء والكبراء
 فصارت هذه الكتب من مثل ترسل ابن المقفع والجاحظ وأمثالها مشاعراً
 بين جميع عشاق الأدب ، وكانوا كلما قرأوا كتب الأوربيين شعروا
 بحاجة إلى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبداع ومجال
 أوسع فكأن اللغات الأجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الأعظم على
 إتقان العرب المحدثين لغتهم وارتوائهم من معينها ، ولا عجب في ذلك
 فالعلم يزيد بمضه بعضاً سنة الله في خلقه .

الفقه الاسلامي وعلماؤه الذين :

هذا ما كان من جهة الأدب العربي ، وأما من جهة الفقه الاسلامي
 فلا نقدر أن نقول أنه تقدم إلى الأئمة بل رجوع في الحقيقة إلى الوراء
 وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ ترجمت الدولة العثمانية هذا العلم
 عن قوانين أوربة إلى التركية والعربية ، ومن عادة الناس أن
 يكون أكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم ، وليس كل العلم طراز مجالس

نحن أولاء قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل السيد محمود الحزواوي والشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار والشيخ سعيد الاسطواني والشيخ الطنطاوي والشيخ علاء الدين عابدين والشيخ محمد البيطار وأخيه الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الغني الميداني والشيخ محمد الخاني والشيخ جمال الدين الفاسمي وغيرهم ، وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعولون على آرائهم في الدين والدنيا ، فلما انتشرت العلوم العصرية ومنها القوانين الأوربية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره ، وما زال الأمر كذلك إلى أن كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرّة ، وكذلك كان في بيروت الشيخ محي الدين اليافي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدث ، وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشاة فمات كل هؤلاء ولم يخلفهم أحد ، وصار النبوغ المحامين الذين تخرجوا في المدارس الأوربية أو في مكاتب الدولة العثمانية ، والحامون بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران .

إلا أنه نظراً لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بقي حملة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سورية ، وكان الواجب على هذه الأمة في كل قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية فضلاً عن المسائل الاعتقادية .

الطب والاطباء والصيادلة :

وأما الطب فهو من العلوم التي يقوم عليها المشاركة أكثر من غيرهم ويوقفون فيها ، ومن الاطباء الشرقيين من يقيمون الآن في أوربة ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها ، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية

في علم الطب حتى يقال أنها في الدرجة الخامسة بالنسبة إلى الدول الأخرى ، وقد نبغ فيها عدد كبير من الأطباء الجراحين يعدون في الطبقة العليا بالنسبة إلى أطباء أوربة وجراحيا أنفسهم منهم أتراك ومنهم عرب ومنهم أروام ومنهم أرمن ، ولا تقدر أن تقول ان سورية متأخرة في حلبة الطب هذه عن غيرها بل اني أتذكر أنه لما نشبت الحرب العامة واحتاجت الدولة إلى أطباء لجيشها ساقته إلى الجيش ٣٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده وبقي عدد كبير منهم في البلاد . واليوم قد ازداد هذا المدد على ما كان عليه قبل ، وبلغني أن في دمشق وحدها اليوم (١٥٠) طبيباً ، وانا نرى خريجي مدارس الطب من السوريين يتعاطون صنعهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها ، وما يقال في الطب يقال في الصيدلة التي لها ممثلون كثيرون من أبناء سورية ، وكذلك بدأ كثير من الشبان يدرسون في أوربة علم الجراثيم (البكتريولوجية) .

منافسة سورية للبلاد العربية :

وما من علم يجدد في أوربة إلا أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب ، فالباراة إذاً جارية بكل ما يمكن من الهمة ، على أن سورية في علم الطب وتوابعه هي ذات المركز الاول في البلدان العربية ، وذلك لسبقها غيرها إلى ورود حياض العلوم الكونية فلا مصر ولا العراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تضارع سورية في هذا الموضوع ، ولكن نحن على ثقة أن جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقي العلمي .

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب ، ولا سيما السوريين منهم ، العلوم العديدة وقد نبغ الكثيرون ممن لا تقدر على احصاء اسمائهم نذكر منهم

على سبيل التمثيل الشيخ محمد الطيبي في دمشق والمعلم بطرس البستاني والمعلم أسعد الشدودي في بيروت وغيرهم .

ولما كان السورويون من أقوى أمم الأرض على التجارة كان علم الحساب من العلوم التي يتخصصون بها بطبيعة الحال ، وكذلك في مصر لا ينكر ترقى العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها بل تقدر أن نقول أن المهندسين فيها أكثر منهم عدداً في سورية نظراً لأن الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سورية .

بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الأئمة العربية في المستقبل من جهة الثقافة ! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها وامتدادها إلى النهاية أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً أم تأخذ من الثقافتين معاً وتجمل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية ! هذا سؤال يرد كثيراً على خواطر الباحثين وكل منهم يذهب في الجواب مذهباً ، وأظن أن ثقافة العرب المستقبلية ستكون عصرية آخذة من التجدد بأوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي ، وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العباس وفي زمن بني أمية بالاندلس حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطلعوا على علوم فارس والهند فخلعوا من هذه الثقافات الثلاث ومن الثقافة العربية الأصلية ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في الترون الوسطى ، لكنها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الأحوال ، وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدين وجوب التعديل فيه والإضافة إليه ، ولن تكون منسلخة من القديم جاهدة في التبرؤ منه على النحو الذي نحاه الإنزك الكاليون الغالبون على تركية اليوم ، ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كل شيء أحسنه مع بقاء الصبغة العربية التامة غير المفارقة للعرب ، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم

الأوربيين ولم يغب عنهم منها شيء ولا فانهم من صناعات أوربة دقيق ولا جليل ، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم وشرابهم وجميع مناحي حياتهم ، وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً للاحتذاء هذه الأمة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشد منها رجوعاً إلى قديم ولا أخذاً منها بحديث .

والآمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الأدنى نهضة عربية علمية تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى .

لماذا تأخر الشرق الأدنى عن الشرق الأقصى :

وإن كان الشرق الأدنى قد تأخر عن الأقصى في درجة الرقي المصري فلم يكن ذلك كما يتوهم بعضهم من جمود الأمم الشرقية العربية وتفوق اليابانيين عليهم في حب العلم ونشدان وسائل القوة ، وإنما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرضها من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية لما لم يتعرض له اليابانيون بسبب تقاصي ديارهم وبعد مزارعهم بحيث خلا لهم الجو وتمكنوا من أن يتعلموا ويتهدبوا آمنين على حوزتهم ، وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطنوا لخطورته ، فعملوا بسبب غفلتهم عنه على الشريعة الإسلامية وجعلوها ظملاً وعدواناً هي المسؤولة عن هذا التأخر ، والمسؤول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسر في الشرق الأدنى ما لا يتيسر في الشرق الأقصى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دمشق : سنة ١٩٣٧

اللف العربيت وخراسنا الأديبة

فتديماً وحديثاً^(١)

للأستاذ خليل طران

أيها السادة

قد شرفني الجهادة الأجلاء عماد هذا المجمع العلمي الجليل بادناه مكاني من مكانهم . وأين أنا من أولئك الذين تملأ الأفق أنوارهم وتعمر الشرق آثارهم . أين أنا منهم لولا نظرة تطف من معالي رئيسهم البجاعة العلامة الذي بعث في زمنه أشنات مفاخر وطنه ، فقلد العربية قلادة من المنن لا تقوم بثمن ، ولولا حسن استجابة من زملائه الفضلاء لدعائه الكريم في شأن صديقه القديم . فلهم فضل أول بما أولوني من نخر الانتخاب ، أعقبه فضل ثان بما أناحوا لي اليوم من حظ المشول لدى صفوة من شيوخ تباهي بهم الحاضرة الأموية سائر الحواضر ، ونخبة من فتيان أرى فيهم تباشير صبح جديد لسعادة الدولة السورية ورقبها الحي والمعنوي إلى الغاية التي تجدر ببلوغها أمة عظيمة كهذه الأمة الكريمة .

قد سمعتم المعجب والمطرب من ذلك البيان الخلاب الرائع الذي خصني به صديقي الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربي وأخذتكم بلا شك في بسطه الجميل قوة فصاحته ، فهل ترك لي ذريعة وأنا أتكلم بعده لاء كون عندما أقر في نفوسكم من حسن الظن بي على أنه إذا فاني فيما أزجيه من البضاعة أن أبلغ ما أراد ابلاغني من عالي رأيكم فلي شفيع لا يجيب في رحابكم ، اني اضيفكم واني لجاركم وأنتم خير من أكرم الضيف وأعز الجار .

أثيرت في أخريات هذه السنين حركة عمد مثيروها إلى إحداث ريب في النفوس من جهة صلاح اللغة العربية الفصحى أو كفايتها لمجاراة العصر

(١) ألقاها الأستاذ خليل طران في ايلول سنة ١٩٣٠ بمناسبة انتخابه عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي .

في مقتضياته حتى الإيديّة منها ويهيني أنه إذا كان هنا قصور فهو منّا وليس منها ، فلذلك بدا لي أن كُلمات القِيَمِيا من على هذا المنبر في إثبات ما أعتقده اعتقاداً راسخاً من صلاح لغتنا أو كفايتها للإبانة بسلامة وقوة وجمال عن أنواع الأَغراض الحديثة وخصوصاً ما يتصل منها بالأدب - نكون أخلق بأن نستعري لها أسماكم . وقد توخيت لهذه الكلمات من طريق موافقتكم عليها - إن فازت بشرف هذه الموافقة - أن تصدر عن ندوتكم هذه درساً يجني منه شبابنا في مختلف الأقطار العربية فائدتين جليلتين : أولاهما أن يعرفوا ما وسائل اغتهم الفصحى وأدواتها المتوافرة ومناجم مفاخرها . وثانيتهما أن يتبينوا ما تسومهم الرغبة في معرفتها وإجادتها من المطالعات على ما يحول بينهم وبين استيفائها في الحالة الراهنة من المشاق التي نرجو أن تقل تدريجاً على يد هذا المجمع الجليل وسائر المعاهد الرسمية وغير الرسمية التي تخو نحوه في الأئمم المناطقة بالاضاد .

لم تخلق اللغة العربية من أصل جامد فيقضي عليها بالجود ولم ترسم لها من بدء أمرها دائرة ضيقة فيحظر على المجتهدين أن يتعدوها وقد نبه على ذلك أئمة من المتقدمين فقالوا ان اللغة تقع متلاحقة متتابعة ، فهي إذن تنمو بنمو حضارة أهلها وتتسع وتشعب باتساع حاجتهم وتشعبها . على أن نفي المشاركة في أصول اللغة أية كانت أو في الفروع التي تستنبتها الدهور على تلك الأصول لا يستطاع ، ونفي الاثر الذي تحدثه كل لغة في الأخرى بحكم الجوار أو الفتح الحربي أو الغلبة السلمية من فكرية واقتصادية لا يستطاع أيضاً . ولكن كل ذلك لا ينبغي أن يغير طابع اللغة ولا أن يعدل ذاتيتها أو يمس جوهرها إذا رد إلى حدود المقومات التي تفرق بينها وبين سواها كما تختلف الوجوه وتمايز الشخوص .

تألفت لغتنا العربية في منشئها من لغات تقدمتها ومن مواضع حجة أعارتها إياها لغات طاصرتها . حسبنا في الدلالة القاطعة عليها ما ورد من ألفاظها في أفصح كتاب عربي فهي أي اللغة لم تكن وحيّاً ولا توقيفاً .

كذلك المشاركة في المعاني واتجاهاتها وأشتات المذاهب التي يذهبها الكتاب في طرائق ابرازها للناس لتقع مواقعها في نفوسهم تبعاً لاتساع الحضارة وضروب التأنيق في العيش وتهيو الأذهان حيناً بعد حين لا يثار خبطة في الإنشاء على خبطة أخرى لا سبيل للارتباب فيها وحكمها في لغتنا حكمها في كل لغة عتيده أو عهيدة .

غير أن هذه المشاركة معها تعددت ما تبها شيء وذاتية اللغة شيء آخر .

عناصر الجسم مما تشترك فيه الطبيعة كلها ولكنه بها يصبح جسماً حياً له قوامه الخاص وبها يعيش عيشة تختلف بمفاعيلها عن عيشة كل جسم سواه .

إذا تقرر هذا فلنسرح الطرف من مشرف عالٍ مارين بمخلفات الأحقاب مروراً سريعاً لتنتبين هل من محل الارتباب في أن اللغة العربية الفصحى تكفي حديثاً كما كفت قديماً لتجاري بأدبها الخاص أدب أية لغة سواها . ولعل أحسن ما يتأتى لنا به حصر هذا البحث وتضييق دائرته على قدر ، هو أن يقع التفاهم بيننا على تعريف الأديب ، فمن هو الأديب ؟

هو الذي يحسن التعبير بالاصطلاحات المتواضع عليها في كل لغة عما يوحيه إليه عقله أو تجيش به نوازه وأهواؤه أو يقع عليها حسه ، مصوغاً في ألفاظ فصيحة ، مفرغاً في قالب أصيل خالص ، والسر كل السر في إحسانه الابانة أن يملك لغته فيصرفها في الأداء تصرف المتضلع منها المستبحر في فنونها ، البصير بمفرداتها ، الخبير بتراكيبها ، المتشبع بروحانيتها - ولكل لغة روحانيتها - الواسم بوسمها كل مادة يجري بها قلمه وكل سائحة صادرة عنه أو طارئة عليه ، المجدد تبعاً لزمانه ومكانه ما تلقاه عن أئمتها وثقاتها في الصورة التي ينوعها كل زمان وكل مكان

وكل مكان . المضيف اليها من ابتكاره أو ابتداعه طرائف لا تعقل معها صحة طابعها ولا تلمس بها جواهرها ولا مقوماتها .

فيما قدمناه نظرنا إلى الأديب ولم نشرك معه الفيلسوف والرياضي والكيميائي فان المقصود في بحثنا إنما هو الأديب المحض لا ننفي عنه أن يضرب بسهام في اشئنا العلوم ولا أن يلم بكل فرع وفن مما يستكمل به وسائل التفكير ليتسنى له التعبير عن مختلف الأغراض الحادثة مع لزوم الحد الذي يرسمه الأدب اللباب ويتأني معه حسن النسيج ولطف اختيار الاساليب لجلاء المدلولات فان كان الأديب ما عرفنا وكان الميدان الذي يجول فيه لسانه وقلمه ما وصفنا فقد ثبت بالبداهة أن كل لغة مستكملة الوضع واضحة الأعلام قائمة النجوم راسخة القواعد مانعة للشروء والبلبله صالحة لتكوين الأديب . وتكوين الأديب له شرطان : أحدهما حصوله على ملكة اللسان وثانيهما وجدانه في لغته من ضروب النماذج ما يفتق ذهنه ويمين قريحته على الابتكار ويتيح له مجارة الفكر في تحولاته المستمرة ، ففي يقيني أن لغتنا العربية الفصحى تكفي كل الكفاية لتكوين الأديب وفي قديمها وحديثها لمن أكب على المطالعة وتوفر على المدارس ما يستطيع به أن يعبر عن ضروب المقاصد ما دق منها وما جل ، فان أوجز : فما اجتمع الكثير من المعاني في القليل من الكلام كما اجتمع في مقاطر أقلام الناطقين بالضاد ، وان أسهب : فلينظر كيف جرت الهجاء العذبة من راع الهجاءة المسهبين جري السلسيل من الينايبع بلا رفق ولا تفكك ولا انقطاع وأي مطلوب لحسن التشبيه وجمال الاستعارة أدنى إلى التناول في لغة منه في لغتنا .

وأي لغة قديمة أو مولدة فيها بذاتها ما في لغتنا من الغناء بالاشتقاق وبابه فيها أوسع باب لوالجيه عن حصافة واستقامة سجية .

غير أن الأديب بالمعنى الاشراف والامثل ليس الذي يحاكي غيره حكاية الصدى ويجري وراء سايقه جري التطريس بالاقدام ، بل هو

الذي يستعين بما بين يديه على الابداء والخلق . شأنه شأن المصور الذي يتوفر على استكشاف خبايا الفن في المقاييس والملاءمات وسائر ما توصل به المبرزون من متقدميه إلى الاتقان العظيم ثم يحيل ريشته في اللوح ليبرز أنواراً وظلالاً ووجوهاً ومناظر على النحو الذي استجبه بتقديره الخاص وآثره بحكم فكره الذاتي ، شأنه كذلك شأن الموسيقى بتقيد بقيود الأصول العامة لصناعته ولكنه يتخير بين آلاف الأجزاء المشتركة في الضروب ما يؤلف منه نغمه الخاص ، نغمه الذي لم يكن فيه ماسخاً صنع غيره أو أخذاً اخذه حدوك النمل بالنمل بل مفتناً مخترعاً .

أتيسح لنا في لغتنا العربية مثل أعلى لا نظير له فلتنخذه نبراساً لمطالعنا هذه . العرب في الجاهلية قالوا الشعر فما امتد النفس في جيده إلى أطول من المعلقات ، وقالوا النثر فما يوشك المتخلف منه أن يملاً صحائف كراس صغير على الشتات بين الماعاني والأغراض فلما أراد الله أن يبدي للعالمين آية من آياته قدرته أنزل كتابه المبين كتاباً عربياً .

وعم اتخذ مادته ؟ من أدوات تلك اللغة ، لم يخلق معجماً جديداً ولم يقض قضاءً على السنن المتعارفة . بل أخرج من مأثور ما ألفوه واصطلحوا عليه وتفاهموا به تلك المثاني والمثالث التي حيرت الألباب وملاّت النفوس بالعجب العجاب . أنزلها من كلامهم وأين منها كلامهم . أزمها حدود لسانهم ومعانيها وراء كل حد . وهذا هو سر الانشاء وسحر الابداء . أخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية ، لغة استقل بها فلم تجار ما قبلها وهيئات أن تشبه بها محاسن الشعر أو عيون النثر في الجاهلية ولم يجارها ما بعدها في البلاغة والفصاحة لمكانها من الإعجاز .

ثم جاءت روائع الحديث معقبة من مكان دان على ما هبط به الوحي ، ونور الوحي متحدر إليها كتحدّر شعاع الشمس من قمم الجبال الشاه إلى رؤوس الهضاب المنتظمة بجانبها فاتصلت به أسباب التاصيل والتفريع ، واتسعت وتشعبت ذرائع التحويل والتوسيع .

لغة جديدة تدفقت إليها جداول الفصاحة القديمة من نواحيها المتعددة
فاذا الحوض الذي أفضت إليه بحر عذب يهيم الري والغذاء للحدائق
الفيحاء التي ازدهى بها الأدب العربي وازدهر في ذلك العصر الكبير
وفي سائر ما تلاه من العصور .

من هذه اللغة الجديدة يومئذ استعار الخلفاء الراشدون — وناهيك
منهم بالامام علي — جمال بيانهم وجلال تبيينهم . تكلموا بكلام هو من
صميم مادة العربية لكنهم جاؤوا بمعان بديمة في صور شائقة غير مسبوقة .
فكانت هنيئة من الدهر سنوات ممدودة تم فيها الانقلاب الأول
والتحول الأعظم في لغة الضاد . فاذا رجعت إلى الكتاب على رأس
مخلفاتها تحرته حق حرائته وإذا تقفيت بمسده خطب الخلفاء الراشدين
وأسفارهم متدبراً أساليبها جد التدبر فما تجد من شيء تريد الكتابة فيه
إلا وله مثال قل أو أكثر طال أو قصر تسترشد به وتهتدي بهديه فيما
أنت منه بسبيل . وهناك حصل التصرف العجيب في الحاق معان حديثة
بالألفاظ القديمة على ما اقتضاه التحول الديني والتصوير الطاريء في مجالات
الحياة . ذلك البيان الذي اجتمعت فيه طرائف اللغة العربية ، وانتفت
منه العنجهية والحوشية . ونفحت فيه المفردات والجل بنفحات قدسية
صالحة للمعاش والمعاد . قد أطلع فجرأ جديداً على البيان العربي في الحقبة
التي تلت ظهور الاسلام إلى ماناهز خمسة قرون .

وفي الضوء الساطع الذي أضاء ذلك الفجر به أمم الشرق أخرجت
القرائح أعاجيبها عقلاً ونقلاً ، فقها وسياسة ، وأبدت السجايا في مختلف
تلك الأمم ضروب زيناتها باللهجات الفصحى كما أبرزت الألباب كوامن
قواها في استصلاح تلك اللهجات لكل شأن من الشؤون العامة والخاصة
نظماً وترسلاً . فكانت بجملتها وتفصيلها لغة عربية خالصة ولكنها
لغة حقبتها .

تبنت أذهان العالم الشرقي العربي والعالم الغربي العربي ايما تنبه

للتجبير والتحرير على السنة الجديدة فأوجد النابهون منهم ما لم تسبق به
الظنون مما يشتمل عليه الأدب من الفنون ذهب كل مذهبه وأني عجباً
فجري السهل الممتنع على قلم عبد الله بن المقفع وصنوه عبد الحميد واندفعت
خواطر الجاحظ في كل ما وصل إليه ذهنه من منظور ومحسوس ترسل
أشعتها إلى أغوار السرائر ، وتقل الطبري إلى تاريخه ذخائر معرفته باخبار
الايام في أسلوب رشيق شائق واستفاض أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه
بما تقف لديه اكباراً وقوفك تجاه البحر الزاخر وجاء بديع الزمان في
ترسله وتعمله بما لا يزال نسيج وحده . وجمع الحريري من مكنونات
اللغة في مقاماته ما لا تحصيه الخيلة . وآتى الثعالبي في يتيمة الدهر بما
طبق اسمها على مسماها أحسن تطبيق . وصاغ ابن خلكان سير الأعيان
في قلائد من الجمان . ناهيك بأحمد بن أبي طاهر في كتابه المنثور والمنظور
وبالعتبي في مغازي السلطان محمود بن سبكتكين . إلى كثير غير
أوائك من النوابغ الذين لا تنفسح لتعدد أسمائهم الدقائق المودودة .

وأما في قرض الشعر فهل أذكر لكم بعد المعلقات المجهرات والمشوبات
والمذهبات والمفضليات والأصمعيات وروائع بشار بن برد ومسلم بن الوليد
وأبي نواس ومروان بن أبي حفصة وأبي الشيص ودعبل . ثم هل أذكر
المتني في ابتكاره والبحتري في رفته وأبا تمام في جزائته والمعري في حكمته
وسمو فكره وسباحة فطرته والشريف الرضي في إفاضته المدهشة وابن
الرومي ومهياراً في أساليبها المشتملة على ما شاء الابداع من دقائق الوصف
مع امتداد النفس وراء ما كان مألوفاً من صناعة السابقين .

بقي أن نشير بكلمة إلى ما جاء به أهل الأندلس والمغرب فقد حفظوا
البليغ والمأثور من كلام عرب الشرق أحسن حفظ وقوموا ملكاتهم على
الأساليب الفصيحة الميينة ولكنهم أدخلوا في صياغتها ومحسناتها ما شاءته
طبيعة بلادهم وما آثرته سجايا أهلها . فاذا قرأت منشورهم فكله وضاء
زاهر رقيق متجاف مواطن الوحشية متساوق اللفظ والمعنى في شوط الجلاء

على ما تراه في تصفحك المقدمة لابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفح الطيب للمقري والإحاطة للسان الدين بن الخطيب وقلائد العقيان ومطامح الأنفس للفتح بن خاقان ، والمشرق والمغرب لابن سعيد وأولاده وإذا قرأت منظومهم فقل ما شئت في عبقرية ابن هانيء الملقب بمتنبي الغرب وطلاوة بن خفاجة ورقة بن حمديس وسهولة بن سهل . والابتكارات واللطائف التي لا تنافسها عقود الدرر ولا قطرات الندى ولا زهجات الرياض في الموشحات وتفايريمها وزهرياتها وخمرياتها وفراقياتها بين جد ودعابة .

أولئك المتقدمون شرقاً وغرباً ممن أوردت أسماءهم أو لم أوردتها قد اتحفونا بلغة ذات أجهزة وافية ، وآلات متنوعة نهاية التنوع ، يستخدمها فكر الأديب الأريب في التعبير عن الكليات مهما كبرت ، والجزئيات مهما صغرت ، باتقى ديباجة وأبداع وشي ، وألطف ما يصل به اثر القلب الموحى ، إلى أبعد طوايا القلب الذي يتلق ذلك الوحي مطالعة أو سماعاً .

غير أن مناجم تلك الجواهر ومنابت هاتيك الآليء دفينه في بطون أسفار حمة ضخمة ، وهي فيها متباعدة المظنات مفقودة الأعلام مبهمة الصوى لا يبلغنا إليها إلا التنقيب عنها واعنات الروية وكدّ الذهن في تعرف أما كتبها واستخراج نفائسها . علة للفصيح لم يتلاف إلى الآن القوام على اللغة إلا بعضها ، ولكن الأديب لا يكون أديباً إلا وقد تجشم هذه الشقة وبذل ذلك الجهد وأصبح بالمواضع التي يصيب منها سداداً لحاجته ووفاءً بفرضه عليمياً بصيراً . وإن يكون على هذا بالأديب التام فما تلك إلا مرحلة بجهاده واجتهاده توصله إلى تقويم لسانه وتمحيضه وابعاده عن مزلات الرطانة واللكنة والعجمة وتعرفه كيف يحسن الاقتداء بالسلف ليدع في غير بدعة تهديم بها تخوم لغته وتنقصم عرى عروبه .

هي الأولى من مرحلتين وهي أشقها مطلباً وأبعدها غاية . أما الثانية فهي الاطلاع على ما حدث في البيان العربي بعد تلك الحقبة الكبرى أي

من بدء زمن الانحطاط الطويل إلى مستهل البعثة العتيدة إلى نهاية ما وصلت إليه في هذه الأيام .

أمرٌ مروراً عاجلاً بحقبة الانحطاط التي لم تخل من مجيدين في النظم ان لم يبلغوا المتقدمين صفاء ديباجة ولا فتق ذهن فقد أسلسوا من مقادة الغريب في الألفاظ والأساليب وأحدثوا طرائق خاصة لتسهيل ما صعب من ضروب التصرف في مخلفات الأئمة الأولى إلى صورة حال جديدة وفي مقدمة هؤلاء صفي الدين الحلي وابن النبيه وابن معتوق والابوردي وابن العفيف التلمساني والبهاء زهير وابن الفارض وابن مطروح وابن نباتة كذلك لم تخل تلك الحقبة من المجيدين في النثر كابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والقلقشندي في صبح الأعشى والمقريزي في الخطط وشهاب الدين النويري في نهاية الأرب وابن الأثير الكاتب في الترتل أما جمهرة الناثرين فكانوا من كتاب الدواوين وفي برهتهم هذه كان الاشتغال بالبديع آية احلال التحليات اللفظية محل المعاني .

بعد هذه النظرة أفضي بكم إلى عصرنا هذا لا تبين معكم بمثل لمح الطائر ما صار إليه اللسان العربي وما يستطيع المتأدب أن يستفيدة منه ليستكمل عدة أدبه على النحو الذي يوافق حضارة الزمن ومتباينات مطالبه .

بدئت البعثة الأدبية في مصر منذ عهد محمد علي وكانت العجمة والركاكة العامية المتشعبة بخليط لا وصف له من الرطانات والكلمات المنحرفة عن أصل مدلولاتها هي الأداة الغربية التي يتفاهم بها القوم نطقاً وكتابة .

بدئت النهضة والأزهر مصدرها غير أنها كانت مما يمت إلى عهد الانحطاط بسبب ولوع أصحابها بتقليد البديعيين ولكنها كانت هبة من سبات الجهل والخبول وحفرة إلى غاية من العرفان والنباهة . وفي طليعة أرباب الأقلام يومئذ بمصر الشيخ حسن العطار ، الشيخ حسن قويدر ، محمد سيد أحمد باشا ، رفاة بك ، رجال مدرسة الألسن . ثم أعقبها على الأثر وقفة لم تجاوز مدتها مدة عباس الأول وسعيد . فلما تولى

اسماعيل استأنفت نشاطها وأظهر من ظهر في مبادئها الشيخ محمد شهاب الدين شاعراً وناثراً على رأس سلسلة ينتظم الاستقراء فيها أسماء :
عبد الله فكري باشا ، علي مبارك باشا ، السيد علي الدريش ،
ابراهيم بك مرزوق ، محمد في ، محمود صفوت الساعاتي ، ابي السعود
سلامة ، النجاري ، الشيخ أحمد عبد الرحيم ، الشيخ علي الليثي ، الشيخ علي
ابي النصر ، عبد الخالق الزرقاني ، بين ناثرين وشعراء . بعض هؤلاء
أدرك زمن توفيق وفي عهده قويت النهضة بارزة بها أسماء :
شفيق منصور ، عبد الله نديم ، الشيخ حمزة فتح الله ، محمود
واصف ، الشيخ احمد مفتاح ، احمد سمير ، حسن حسني الطويراني
الخ الخ .

من خلفات هؤلاء جانب ضاع ولكن جانباً منها وامله أغلاها قيمة نجما
بفضل الله ، على أن الروح التي صدرت عنها تلك الحركة ما عتمت أن
أبدت في سماء البيان كوكبين من كواكب الأقدار الكبرى هما محمود
سامي باشا البارودي شاعراً ، والامام الشيخ محمد عبده ناثراً .
ثم أخذت سماء ذلك البيان تزدان بالنجم تلو النجم في نظام سأذكر من
رجالكم الذين استأنرت بهم رحمة الله ، وادع ذكر الأحياء مد الله
في آجالهم لانكم تعرفونهم . فن الشعراء .

اسماعيل صبري ، محمد حفي ناصيف . ومن الكتاب عدا الشيخ
محمد عبده :

ابراهيم اللقاني ، ابراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي ، الشيخ
عبد الكريم سلمان ، مصطفى نجيب ، الشيخ علي يوسف ، قاسم امين ، محمد
فتحي زغلول ، الشيخ المهدي ، مصطفى كامل ، الشيخ المنفلوطي ، الشيخ
الخضري ، أمين الرافعي ، سعد زغلول هذا في مصر .

وأما في الشام ولبنان ونهضتها متصلة منذ الساعة الأولى بنهضة مصر

وكتب الفريقين متداولة بين البلادين فقد برّز كتّاب وشعراء . اذكر منهم الذين توفاهم الله ولهم بقايا أدبية يرجع إليها وهم :

محمد بن حسين الحلبي العطار ، كمال الدين الصمادي الجراحي ، حسن جينه ، بطريك الروم الكاثوليك مكسيموس مظلوم ، جبرائيل بن يوسف الخلع ، كمال الدين الغزي ، محمد عابدين صاحب الحاشية الشهيرة في الفقه ، عبد الغني الميداني ، الأمير عبد القادر الحسيني ، محمد نور الترماني واخوه احمد ، رزق الله حسون ، امين الجندي ، فرنسيس المراس ، أديب اسحق محمود الجزائري مفتي دمشق ، الشهاب احمد المنبني ، ابراهيم الحوراني ، ميخائيل مشاقة ، الشيخ طاهر الجزائري ، الشيخ محمد مبارك ، السيد محمد مرتضى ، الشيخ عبد الرزاق البيطار ، الشيخ جمال القاسمي ، السيد عبد الرحمن الكواكبي وشقيقه الشيخ مسعود ، الشيخ بشير الغزي ، رفيق العظم .

وأما العراق فبجانب جماعة من السادة الاوسية فتحت سلسلتهم بابي الثناء وتمت إلى عهد قريب بالسيد محمود شكري الاوسي ، يذكر من الشعراء والكتاب الذين انتقلوا إلى اكرم جوار :

كاظم ورضا الأزيان ، عبد الحميد الأترقجي ، عمر رمضان ، صالح التميمي ، عبد الغفار الأخرس ، عبد الباقي العمري ، أحمد عزت باشا العمري ، السيد حيدر الحلبي ، حسين العشاري ، محمد الغلامي ، احمد الجساني ، عبد الفتاح الشواف ، حسن الأضم ، حسن البزار ، السيد ابراهيم الطباطبائي ، السيد حسن الداودي ، السيد أحمد الفخري وأخوه أحمد ، السيد محمد سعيد جبوبي الحسيني ، السيد جعفر الحلبي .

وأما في لبنان فقد برّز من الشعراء والأدباء الذين لقوا ربهم : ناصيف اليازجي ونجله ابراهيم خليل ، بطرس كرامة ، ابراهيم الأحذب يوسف الأسير ، قاسم أبو الحسن الكسبي ، عمر الأنسي ، احمد البربير ، عمر اليافي ، احمد فارس الشدياق ، مارون النقاش ، خليل الخوري ،

البستانيون بطرس وسليم وسليمان وعبد الله ، نجيب وأمين الحداد ، الياس صالح ، امين وشبلي الشميل ، بشارة ززل ، يعقوب صروف ، اسكندر وداود عمون ، فرح انطون ، اسكندر شاهين ، نعوم لبكي ، جرجس همام ، نصيف المعلوف الخ .

عددت أعلام النهضة الحديثة في الأقطار العربية الثلاثة بلا تدقيق في الترتيب الزمني لما فاتني في رحلتي من وسائل المراجعة واستغفر الله إلى ذكرى الذين انساني ضيق الوقت والاسراع في اعداد هذه الكلمات اسماءهم ففاتني على غير عمد .

ماذا أهدي إلى الأدب العربي أولئك الأدباء والشعراء ؟ أضافوا إلى الذخائر القديمة ذخائر مما أوحى إليهم أيامهم . ألانوا أعواد اللغة من جفاف وأنسوا أوابدها من نفار . عدلوا شيئاً كثيراً من السبك العام للمواضيع في الأسلوب العام للكتابة . ادنوا قطوفاً لم تكن دانية . زادوا على المفردات طائفة مما دعت إليه الحاجات . وسهلوا التحصيل وفتحوا أبواباً واسعة للتفكير .

صنعوا عظيماً ، ولكن ما بقي عمله أعظم .

وهنا كان ولا يزال محل اتهام اللغة بالتقصير في رأي الذين قابلوا بينها وبين سواها فيما يتعلق بالتعبير عن أغراض هذا الزمن وطريقة الأخذ به كأنهم يريدون الطفرة والطفرة محال . أجل بقي علينا عمل أعظم مما عمل ليتسنى القرب بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ولكن التبعة في التقصير هي علينا وليست على اللغة .

وفي وسع أدبائنا استكمال ما نقص في الاسماء ، واتهاج النهج الذي يريدونه في تصوير الخيال ، والذهاب في المذاهب التي يثرونها لاداء معانيهم مع صحة اللغة وصيانة الاساليب الخالصة . وان تكوين الاديب على أي حال أريد ، ليسور بالمادة التي بين يديه من قديم الكتب العربية وحديثها على انه مطلب شاق ومرمى بعيد . لكن الصعوبات تسهل والعقبات تذلل

لدى مديم النظر ومدمن المطالعة ومصرف الفكر في وسائل الخلق والتجديد .
 لقد كان بودي لو أضرب لكم الامثال فانها أدنى متناولاً وأبلغ في
 استيفاء التبيين بيد ان الوقت لا يتسع في هذه المرة فليكن ما ذكرته
 مقدمة اجمالية موجزة ليستأنف هذا البحث من هو أقدر عليه مني ويسهب
 فيه بالقدر الذي يرغبكم من ثمين الوقت ما اضاءه سابقوكم من المعاصرين
 في التماس المسادة الكافية بين قديم الادب العربي وحديثه الموفاء بكل
 ما تقضيه مطالب هذا الزمن من الانواع الشعرية والنثرية المتعددة .
 واختمت كلماتي بالثناء عليكم لحسن استماعكم وبالرغبة إلى الله أن يقبض
 من فتيان الاقطار العربية للغة الفصحى ادباء يحكمون المباني ويبتكرون
 الماني . ويخرجون في الاغراض البيانية الحديثة كتباً تنفسح لها صدور
 الاندية في العالم بجانب اقوم الكتب التي اخرجها ادباء الغرب .

دمشق : سنة ١٩٣٠

(١) فِي مَهْرَجَانِ الْمَتْنِيِّ

المتنبي وسيف الدولة
للدكتور أحمد أمين

- ١ -

كان لسيف الدولة ناحية فنية قوية ، لا تقل شأنًا عن ناحيته السياسية والحربية ، فهو يحب الفن ويولع به ، ويتذوقه ويساهم فيه . وقد وردت في ذلك أخبار متفرقة تدل عليه . فهو مولع بالتصوير ، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك في كراهيته ، فيروي صاحب اليتيمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير للصيلاب في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبي الفرج البيهقي بعشرة منها ، فقال :

نحن بجود الأمير في حرم
أبدع من هذه الدنانير لم
نرتع بين السعود والنعم
يجر قديماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته
في دهرنا عوذة من العدم

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم . وأدل على ذلك ما ذكره المتنبي في صفة خيمة سيف الدولة ، تدلنا

(١) أقام المجمع العلمي العربي مهرجان المتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ أحمد أمين .

على ذوقه وحبه للفن حقاً ، فقد ذكر المتني أن هذه الخيمة أو القبسة التي كانت تضرب على سيف الدولة ، كانت قطعة فنية رائعة .
ففيها صورة روضة بديعة لم يحكها السحاب وإنما حاكها الشساج ، وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلا بالغناء . وفيها صور وحوش يحارب كل جنس عدوه ، ولكنها سلبت الروح فتسالت .

وإذا ضربتها الريحُ ماج بعضها في بعض فكان صور خيل تجول ، وكان صور الأسود تختلُ صور الأطباء لتصيدها وتدركها .
وفي ناحية من الخيمة صورة ملك الروم ، وصورة سيف الدولة ، وملك الروم يسجد لسيف الدولة ، ويخضع له ويتذلل ، ويقبل بساطه ، إذ لا يقدر على تقبيل كفه ويده لارتفاع مكانه .

وبين يدي سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيئته . وفي حواشي الخيمة لآلي من النسيج تكاد لا تختلف عن الآلي الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تثقب . ففي ذلك يقول المتني :

عليها رياضٌ لم تحكها سحابةٌ	وأغصانٌ دوحٌ لم تُغنِ حمانمهُ
وفوق حواشي كل ثوبٍ موجهُ	من الدرِّ سمطٌ لم يشقِّبه ناظمهُ
ترى حيوان البرِّ مصطليحاً بها	يحارب ضدُّه وِدسالمهُ
إذا ضربته الريحُ ماج كأنه	تجولٌ مذاكيه وتدأى ضراغمهُ
وفي صورة الرومي ذي التاج ذئبه	لا بلجٌ لا تيجانٌ إلا عمائمهُ
تقبَّلُ أفواهُ الملوكِ بساطه	ويكبُرُ عنها كُعمه وبراجمهُ
قياماً لمن يشفى من الداء كيشه	ومن بين أذني كلِّ قرمٍ مواسمهُ
قباعها تحت المرافيقِ هيبةٌ	وأنفدٌ ممّا في الجفونِ عزائمهُ

وهي صورة بديعة ، تشهد بحب سيف الدولة للتصوير والفن .

ثم أولع بالموسيقى ، فكان في قصوره الجوارى المغنيات ، ويرون أن الفارابي لما زاره عرض عليه سيف الدولة قيانه فأسمعنه ، فأسمعنه الفارابي من قانونه خيراً مما سمع .

وأنهى من هذا وأظهر ناحية سيف الدولة الأدبية ، ولم يذكر المؤرخون لنا كيف ثقف وكيف عثم ، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبوذر الشاعر وبن خالويه اللغوي النحوي ، وأنه درس دواوين الشعر القديم ، وكانت تغذي عواطفه العربية ، من تمدح بالشجاعة والكرم كما كان يعرف أيام قبيلته (تغلب) ومفاخرها .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الأدبي وذوقه الفني . يقول

فيه المتنبي :

علمٌ بأسرار الديانات واللغى له خطرات تفضح الناس والكُتُبا

فهل نستدل بهذا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضاً ؟ أظن ذلك ؛ فإن خلدكان يروي في ترجمة الفارابي أنه كان لسيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يتحدثهم به .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كان كثيراً ما يتمثل بأبيات قديمة ، وتعجبه أبيات يرددها ، أو قافية يستملحها ، أو معنى يستجيده ؛ فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها . فمرة - مثلا - ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف :

أميني تخاف انتشار الحديث وحظي في سستره أوفر

ولو لم أصنّه لبقيت عليك نظرت لنفسي كما تنظر

واستحسن المعنى ، فأرسل رسولا مستعجلا لأبي الطيب ومعه رقعة

فيها البيتان يسأله اجازتهما ، فقال المتنبي أبياته المشهورة :

رضاك رضاي الذي أوتر وشرك سيري فما أظهر الخ

وديوان المتنبي وغيره من الشعراء مملوء بهذه الأمثال .

ثم مجلسه الأدبي الحافل في حلب ، والذي قل أن يكون له نظير ؛
 فالشعراء والأدباء في مجلسه يثرون الموضوعات المتنوعة ، ويساهم فيها
 سيف الدولة ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، ويجزل العطاء لمن أجاد ؛
 فأحياناً يستذكرون الشعر القديم ، وأحياناً يسألهم اجزاة شعر ، وأحياناً
 مسألة نحوية . واخرى مسألة لغوية ، حسبما اتفق ؛ فمثلاً مرة ينثني
 سيف الدولة هذا البيت :

لَكَ جِسْمِي نُعِلِّهُ فِدَمِي لِمُ تَحْلِيهِ

ويطلب من أبي فراس أن يجيزه فيقول :

أَنَا إِنْ كُنْتُ مَالِكًا فَلِيَّ الْأَمْرُ كُلُّهُ

ومرة يسأل المتنبي أن يعيد انشاد قصيدته :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَامُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَسْكَرُمُ

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها ، فلما وصل الى قوله :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكُّ لَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

تمربك الأبطال كلهم هزيمةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَعْرُكٌ بِاسْمِ

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، لأن الشطرين

لا يلتزمان ، وكان خيراً أن تخالف بينهما فتقول :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكُّ لَوَاقِفِ وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَعْرُكٌ بِاسْمِ

تمربك الأبطال كلهم هزيمةً كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

وهو نقد دقيق ، وإن كان المتنبي قد رد عليه فقال : « إن الثوب

لا يعرفه البراز معرفة الحائك » .

وسأل سيف الدولة مرة من في مجلسه : هل تعلمون اسماً ممدوداً

وجمعه مقصور ؟ فلم يحيروا جواباً الا ابن خالويه فقال عذراء وعذارى ،

وصحراء وصحارى . وهكذا كان مجلسه حافلاً بالأدب والنقد .

وهو مع ذلك شاعر غير انه مقل ، فقد رويت له في كتب الأدب

أشعار ، وان كان كثير منها قد نسب لغيره في بعض دواوين الشعراء .
فلعله كان يتغنى بها فيظن بعض الناس انها له ، ولكن بعضها يكاد
يجمع الرواة على أنه لسيف الدولة ، كقوله في جارية رومية له كان
يهواها ويختبئ عليها من حظاياها ، فأودعها قلعة وقال :

راقبني العيون فيك فأشفق
ورأيت العذول يحسدني في
فتمنيت أن تكوني بعيداً
رب هجر يكون من خوف هجر
ت ولم أخل قط من إشفاق
ك مجيداً يا أنفوس الأغلاق
والذي بيننا من الود باق
وفراق يكون خوف فراق
وقال :

تجسني عليّ الذنب والذنب ذنبه
وأعرض لما صار قلبي بكفه
إذا برم المولى بخدمة عبده
وعاتبني ظمأ وفي شقه العتب
فها جفائي حين كان لي القلب
تجسني له ذنباً وإن لم يكن ذنب

سيف الدولة هذا الفنان الناقد الشاعر الملك ، هو الذي اتصل

به المتنبي .

كان المتنبي بعد خروجه من سجنه لدعواه النبوة ، أو لما قيل من
دعواه النبوة بائساً فقيراً ناقماً على الزمان وأهله ، يشعر بعظمته وعلو نفسه ؛
ثم لا يجد لهذه العظمة منفذاً ؛ فهو يتردد على من يسميهم الناس عظماء ،
فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لنفسه ولا لشاعريته ، حتى رووا انه مدح
علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غوارباً
فأعطاه عليها ديناراً واحداً فسميت القصيدة الدينارية .

وقالوا إن أكثر ما نال على شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة
دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة .
فكان اتصاله بسيف الدولة صفحة جديدة في أدبه ، و صفحة جديدة
في رخاء عيشه .

كان أبو الطيب ينتقل في ربوع الشام مادحاً من يخاله كريماً محسناً ،
حتى نزل على أبي العشائر ، عم سيف الدولة ، وعامل أنطاكية ، ومدحه
بقصائد كثيرة ، يقول فيها :

شاعِرُ المجدِ خيدٌ نُهُ شاعرُ الألفِ ظِ كَلاناً ربُّ المعاني الدُقاقِ
لم تزلُ تسمعُ المديحَ ولكِ نٌ صهيلُ الجيادِ غيرُ النِهاقِ
وسار مع أبي العشائر سيرة مصغرة للسيرة التي سارها بعد مع
سيف الدولة .

ففي شهر جمادى الآخرة من سنة ٣٣٧ هـ زار سيف الدولة انطاكية ،
وكان بها أبو الطيب . وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره ، ورأى
أن يزين به بلاطه ، فقدمه إليه أبو العشائر ، وعرض عليه أن يكون
شاعره .

كان غير أبي الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هذا العرض
يطير فرحاً ، ويرى أن ذلك أمنية الأمانى وسعادة الدهر . ولكن
أبا الطيب تردد طويلاً ، وأداه تردده أن يشترط . لم يشترط مالا يعطاه ،
ولا جائزة ينالها ، وهو لهذا ضامن . ولكنه اشترط ألا يعامل معاملة
سائر الشعراء ، لأنه ليس شاعراً خصب ، بل شاعراً وعظيماً . وقد
سمع أن الشعراء يذلون لسيف الدولة ذلة لا يرضاها لنفسه ؛ سمع أنهم
يقبلون الأرض بين يديه ، وأنهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه ؛
فاشترط ألا يكون شيء من ذلك ، إنما يكون « ملك الشعراء بمدح ملك
الناس » ؛ فإذا كان سيف الدولة راكباً مدحه المتنبي وهو راكب ،
إذا كان جالساً مدحه وهو جالس ، ثم لا يظهر بمظهر الخضوع من تقبيل
الأرض ونحوه .

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته ، وأنه سيكون صوتاً مدوياً في
العالم العربي يشيد بذكره فقبل شروطه .

لبث المتنبي مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ أعليها في حلب ، وقال فيها نحو ثلث شعره كما ، وأجود شعره كيفاً .

لم يجد شعر المتنبي في زمن جودته أيام سيف الدولة لأسباب : أهمها أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما وجدها في هذه الأيام ، فالمتنبي عربي يمتاز كل الاعتزاز بعريته ؛ فكان يحتقر كافوراً لأعجميته ، ويسب ابن خالويه لأعجميته ، ويقول في أبياته :
 تهاب سبيوف الهندوهي حدائدُ فكيف إذا كانت نزارية عرُبا
 وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل ، فسأل سيف الدولة المتنبي ما تقول ؟ فقال :

إن كنتَ عن خير الأنام سائلاً فخيرهم أكثرهم قضاة
 من كنتَ منهم يا همام وائلاً الطاعنين في الوغى أوائل
 والعاذلين في الندى العواذلاً قد فضلوا بفضلك القبائل

فكان - لهذا - إذا مدح كافوراً وغيره لم يخلص ولم يواته طبعه ، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضة في مدحه ، وانثالت عليه المعاني العربية انثيالا .

وكان المتنبي وسيف الدولة لدين ، شاء الله أن يولدا في سنة واحدة سنة ٣٠٣ ، واصطحبا وسنها أعز أيام الشباب ، فقضيا معاً من سن ٣٤ إلى ٤٤ ، والعواطف تمازج وتنحاح ؛ إذا تقاربت في السن وانفقت في الشباب .

وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس ، كلاهما يعشق الخيل والضرب والطعان ، فان خرج سيف الدولة فارساً خرج المتنبي فارساً ، وقد صحبه في عدة غزوات إلى بلاد الروم ، ومنها غزوة قالوا إنه لم ينج منها إلا سيف الدولة وستة نفر من صحبه أحدهم المتنبي ، فاذا شعر المتنبي في الغزوات

والقتال والشجاعة والحرب فانما يستمد ذلك من نفسه . ومن شعوره ،
لا من ألفاظ حشاها في رأسه ينظمها ولا تتصل بقلبه .
ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يحلّم به ولم تره عينه
من قبل ؛ وكان المتنبي محباً للمال حباً لا يتناسب وطلبه المجد وعلو همته ،
وقد عاله هو بأن ذلك يرجع الى أيام صباه يوم كان لا يجد قوت يومه ،
فعلّمه ذلك قيمة المال والشهوة اليه والحرص عليه ، ويعبر عما في نفسه
من ذلك فيقول :

فلا يَبْجَلُ في المجد ما نك كلّه فينحلّ مجدّ كان بالمال عقدهُ
ودبّرهُ تدير الذي المجد كفهُ إذا حارب الأعداء والمال زندهُ
فلا مجدّ في الدنيا لمن قلّ مالهُ ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجدهُ

فغذاء سيف الدولة من هذه الناحية حتى أنعمه ، وكان في سيف الدولة
الأريحية العربية والكرم العربي فتقابلت هذه الصفة مع شرة المتنبي
وطمعه ، فكان يعطيه في كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ، غير الهدايا
من أفراس وجوار وسيوف ، وأقطعه مرة إقطاعاً بناحية معرة النعمان
كان يخرج اليها المتنبي أحياناً ، فزاد العطاء في فصاحة المتنبي وحمله على
العمق في استخراج المعاني ، والاشبهى تفتح اللها .

وفوق هذا وذاك فقد كان كل الوسط الذي حول المتنبي أيام
سيف الدولة يتطلب منه الاجادة . فلقد كان حوله شعراء عديدون نابهون
كأبي فراس والنامي والبيضاء وابن ثبابة وغيرهم ، ونقاد ونحاة ولغويون ،
والملك على رأسهم يشعرون وينقدون ويقدر ، ويأتي من أعمال الفروسية
والبطولة ما ينطق العبي .

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنبي مع سيف الدولة خبير
عصوره وأحسنها انتاجاً . وقد سئل هو نفسه في ذلك : لم تراجع
شعره بعد مفارقة آل حمدان فقال : قد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي ،

واغتنمت الراحة ، منذ فارقت آل حمدان . وفيهم من يقول (تسائلي من أنت وهي عليمه) يعني أبا فراس ، وفيهم من يقول :

وقد علمت بما لافته منّا قبائل يعرب وبني نزار
لقيناهم بأرماع طوال نبشّيرهم بأعمار قيصار
يعني أبا زهير بن مهلهل الحمداني .

وفيهم من يقول :

أأخا الفوارس لو رأيت موافقي والخييل من تحت الفوارس تتحيط
لقرات منها ما تخط يد الوغى والبيض تشكّل والأسنة تنقط
يعني أبا العشائر . ا ه .

وهكذا اجتمعت كل هذه الأسباب على إحسان المتنبي في هذه الفترة كل الاحسان . وان كان ذلك الخوف من الناقدين ، والعمق في أعمال الفكر ، أخرجته أحيانا إلى ما يسميه النقاد بالخيال الواهم ، ويمنون به في الخيال إلى حد الوهم .

- ٢ -

اتصل المتنبي بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول ، فأخذ يسجل أحداثه الحربية والمدنية تسجيلاً أدبياً . فان سجل المؤرخون الحقائق صرفة فالمتنبي يسجلها ممزوجة بعواطفه ومشاعره .

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متوالية من سيف الدولة الروم وللخارجين عليه من أقاربه وغيرهم ، فأخذ المتنبي يقول قصيدة لكل موقعة ، فقد ظفر بحصن بروزويه سنة ٣٣٧ فقال المتنبي قصيدته :

وفاؤك كالرُبْع أشجَاهُ طامِمْهُ بأنْ تُسْعِدِا والدمعُ أشْفَاهُ ساجِمْهُ

وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام ، واستقد منهم عمه أبا وائل ،

فقال المتنبي قصيدته :

إِلَامَ طَمَاعِيَّةِ الْعَاذِلِ وَلَا رَأْيِي فِي الْحُبِّ لِلتَّعَاقِلِ
 وخرج هذا العام لنصرة أخيه ناصر الدولة على معز الدولة الديلمي ،
 فاضطر معز الدولة الى الصلح ، فقال المتنبي قصيدته :

أَعْلَى الْمَالِكِ مَا يُبْنَى عَلَى الْأَسَلِ وَالطَّمَعُ عِنْدَ مَجْبِئِنِ كَالْقَبْلِ
 واستعد لغزو الروم سنة ٣٣٩ وأعد جيشه فقال المتنبي قصيدته :
 لَهَذَا الْيَوْمِ بَعْدَ غَدِ أَرْبِجٍ وَنَارُ فِي الْعَدُوِّ لَهَا أُجِيجُ
 فلما انهزم سيف الدولة في هذه الواقعة قال قصيدته :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا
 وقال : إن سبب الهزيمة ما لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجنباء ،
 وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فلسيف الدولة النصر . لأن جنوده قد
 تقيت من الأندال ، ولم يبق فيهم الا الأبطال .

وبنى سيف الدولة صرعى سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي قصيدته :
 فِدَيْتُنَاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبًا فَانْكَ كُنْتَ الشَّمْسَ لِلشَّرْقِ وَالغَرْبَا
 وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء سنة ٣٤١ ،
 فقال المتنبي :

لَقَيْتَ الْعَفَاةَ بِأَمَلِهَا وَزُرْتَ الْعُدَاةَ بِأَجَالِهَا

وبنى سيف الدولة ثغر الحدث سنة ٣٤٣ ، فقال فيه المتنبي
 القصيدة المشهورة :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وهكذا كان كل عمل حربي يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه
 ويؤدبه ، ويخرجه قصيدة رائعة .

وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية ، فتموت أم سيف
 الدولة فيريثها بقوله :

نُعِدُّهُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قتال
 ويموت ابن سيف الدولة فيريثيه بقصيدته :
 بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يُضني كذاك الذي يُبلي
 ويموت غلام سيف الدولة « يَمَاك » فيريثيه بقصيدته :
 لا يُحزَنُ اللهُ الأَمِيرَ فَائِئِي لآ حُزْنٌ مِنْ حَالَاتِهِ بِتَصِيبِ
 ويموت أخت سيف الدولة فيريثها بقصيدته :
 إن يكن صبرُ ذي الرزينة فضلاً تكن الأفضل الأعرز الأجل
 ويمرض سيف الدولة فيقول المتنبي :
 إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض وَمَنْ فَوْقَهَا وَالْبَاسُ وَالكَرَمُ الْمُحْضُ
 ويخرج لسيف الدولة دمل فيقول المتنبي :
 أيدري ما أرابك من ريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب
 ويشقى سيف الدولة فيقول المتنبي :
 المجد عوفي إذ عوفيت والكرم و زال عنك إلى أعدائك الأئم
 ويأتي عيد الفطر فيهنئه ، وعيد الاضحى فيهنئه .
 وبذلك أصبح شعر المتنبي في هذه الفترة سجلاً لكل أعمال سيف
 الدولة وأحداثه كبيرها وصغيرها ، ساهها وحررها ، أحزانها وأفراحها ،
 جدها وهزلها ،
 والمتتبع المديوان يرى أن شعر المتنبي في وصف حروب سيف الدولة ،
 وشعره في الحزن ؛ أرقى من شعره في المديح وشعر السرور . وسبب
 ذلك - على ما يظهر - أن نوع الشعر الذي يشتد اتصاله بنفس المتنبي ،
 يجود ويغزر - وقد كان المتنبي فارساً تمجبه الفروسية والبطولة ، فاذا قال
 في ذلك يستخرجه من أعماق قلبه - وكانت نفسه حزينة لأنه لم ينل
 المجد الذي يصبو اليه ، فيحزن حزناً عميقاً على الميت ، وهو في الحقيقة
 يحزن على ليله . أما السرور وأما المديح في غير البطولة فصياغته لا تلمس
 إلا السطح الظاهري من قلبه .

وكما سجل المتنبي أحداث سيف الدولة ، سجل نفسه في مشاعرها المختلفة ، وانقباضها وانبساطها ، وأمنها واضطرابها . وكان المتنبي حاد الذكاء ، حاد المزاج ، صريحاً ، لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه ، وقد توالى عليه أوقات شدة ورخاء ، وتناوبت عليه ساعات أمن وساعات قلق . وكان مضطرباً بين الرضا والغضب ، والبؤس والنعيم . وبما زاد الأمر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه سريع الرضا ، سريع الغضب ، سمح إلى آخر حدود السماحة ، منتقم إلى آخر حدود الانتقام ، يفعل أحياناً لقصيدة واحدة للمتنبي انفعالات متعاكسة ، فيعجبه البيت في مدحه فيطرب له أشد الطرب ، ويفخر المتنبي عليه بنفسه فيهبج أشد الهياج — وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودها الصفاء التام ولا الجفاء التام ، فاذا ساد الصفاء فسرعان ما يعتكر ، وإذا اعتكر فسرعان ما يصفو . وهكذا كان حالهما دائماً ، فنرى سيف الدولة يعطي المتنبي الاثوف في لحظة ، ويرضى عن قتله في لحظة ، ونرى المتنبي له عينان ، عين في المجد وعين في المال ، يأخذ المال فيرضى ، وينظر المجد فيثور ، والمجد في نظره أن يسود هو ، ولا يكون مسوداً لأحد ، حتى ولو كان سيف الدولة .

وبجانب ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحاً تمثل فيه دسائس كثيرة المتنبي ؛ فقد كان فيه شعراء كثيرون ، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبي وأيامه ، وكانوا ذوي حظوة كبرى عند سيف الدولة ، فكسفهم المتنبي ، وعلامهم بنفسه وبشعره ؛ فكان من الطبيعي أن يحقدوا عليه ويدسوا له ، وغير الشعراء من الأدباء والعلماء كذلك ، يرون المتنبي يأخذ أكثر مما يأخذون ، وينال القرب من سيف الدولة أكثر مما يتناولون ، فكيف لا يفضون ؟

وربما كان أشد من هؤلاء عداوة له أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس وابن خالويه النحوي اللغوي .

كان سيف الدولة يميل الى النامي قبل المتنبي ، فلما جاء المتنبي مال عنه ، ففاظ ذلك النامي ، وخلا يوماً بسيف الدولة وعاقبه وقال له : لم تُفَضِّلْ عليّ ابن عبيدان السقا ؟ (يعني المتنبي) فأمسك سيف الدولة عن الجواب . فلما ألح قال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :
يعودُ من كل فتشح غير مفتخر وقد أعنذ اليه غير محتفيل
فنهض مغضباً ، واعتزم ألا يمدحه أبداً !

وأبو فراس يقول لسيف الدولة : « إن هذا المتشدد كثير الادلال عليك ، وانت تمطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره . »
ويأخذ دائماً المسالك على المتنبي ، فاذا قال بيتاً جميلاً قال أبو فراس إنك سرقتة من قول بشار ، أو من قول دعبل .

ويتجادل المتنبي وابن خالويه في مسألة لغوية ، فيغضب ابن خالويه (وهو أستاذ سيف الدولة) فيخرج من كفه مفتاحاً حديداً ليبيحكم به المتنبي .

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حرباً علنية وخفية على المتنبي . ولم يخلص المتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج البغاء . فقد كان المتنبي يأنس به ويثبته شكواه من سيف الدولة ومن حوله ، ويأتمنه على سره ؛ وقد ساعدت طباع أبي الطيب على نجاح هذه الدسائس فهو يتعاطف فيغضب الشعراء ، بل ويتعاطف فيغضب الأمير ، وهو دائم الاعلان عن نفسه والفخر بها ؛ ويجفو سيف الدولة فيجفو المتنبي ، ويتكلم سيف الدولة فيجيبه المتنبي ، ونأتي المناسبات ليقول الشعراء وتنتظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول فلا يقول ، والمتنبي حار النفس بين المجد والمال ، يجفو مجداً ، فلا يعمن في الجفاء مالا ، ويصدر لأنفته ، ويخضع لطمعه ، وهي حال تريك النفس وتعدد الحياة .

هذا كله قد سجله المتني أيضاً في شعره في سيف الدولة ، فمن السنة

الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول :

فأبلغ حاسديّ عليّ أني كبا برقٌ يحاولُ بي لحاقا
 وهل تُغني الرسائلُ في عدوِّ إذا ما لم يكن ظبيّ رفاقا
 إذا ما الناسُ جرّ بهم لبيبٌ فاني قد أكلتهم وذاقا
 فلم أرَ ودّهمُ الا خداعاً ولم أرَ دينهمُ إلا نفاقا
 ويتعنى لو تعطي الملوكة على أقدار الناس ، فلم يكن ينال الخسيس شيئاً
 ليت الملوكة على الأقدار مُعطيةٌ فلم يكن لديّ عندّها طمعٌ
 ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيدته التي مطلعها :

وأحرّ قلباه بمن قلبه شبيهمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمٌ
 فهي تصور هياج نفسه أشد هيساج ، فهو لا يعبأ بسيف الدولة
 إلا مداراة ، ولا يعبأ بمن حوله من الناس ومن الشعراء ، ويمدح سيف
 الدولة ليمدح نفسه ، ويعرض بأبي فراس وغيره من الشعراء :

يا أعدلَ الناس إلا في معامليتي فيك الخصامُ وانت الخصم والحكمُ
 أعيدّها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ
 وما انتفاع أخى الدنيا بناظيره إذا استوت عنده الأنوار والظلمُ
 سيعلمُ الجمعُ ممن ضم مجلسنا بأني خيرٌ من تسعى به قدمُ
 أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلامي من به صممُ

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ما كان أخلقنا منكم بشكرمةٍ لو أن أمركم من أمرنا أمم

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأنون والكرم
 ما بعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ثم يهدد بالرحيل :

إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قدروا
شر البلاد مكانٌ لا صديق به
ألا تُفارقهمُ فالراجلون همُ
وشر ما يكسبُ الانسانُ ما يصمُ
ثم يطعن الشعراء حوله فيقول :

بأي لفظ تقول الشعر زعيفةٌ
هذا عتابكُ إلا أنه ميقنةٌ
تجوزُ عندك لا عرْبٌ ولا عجمُ
قد ضُمنَ الدرُّ إلا أنه كلمُ

قصيدة - من غير شك - من أقوى شعر المتنبي ، مكب فيها نفسه ، ولم يعبأ بمقام أحد ، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شرطردة ، ولكن - كما قد قلت قبل - ان سيف الدولة من جنس المتنبي ، فلئن كانت القصيدة أغضبته أشد الغضب فقد جاء فيها :

إن كان سرِّكم ما قال خاسدنا
فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألمُ

وهذا أطرب سيف الدولة أيما طرب .

وانتهت المعركة بأن أعطى سيف الدولة المتنبي ألفاً وألفاً ، فقال المتنبي :

جاءت دنائرك مخرومة
عاجلةً ألفاً على ألف
أشبهها فعلك في فيلق
قلبتَه صفاً على صف

ولكن إن انتهت هذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلاً ما دام سيف الدولة والمتنبي على ما هما والبلاط على ما هو .

وظل المتنبي يتعاطم في شعره ويعرض بغيره من الشعراء ، ويقول لسيف الدولة :

إن هذا الشِّعرَ في الشِّعرِ ملك
سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه بيتنا
ففضى باللفظ لي والحمد لك
فاذا صار بأذني خاسد
صار ممن كان حياً فهلك

وشاء القدر أن يكون آخر شعر في سيف الدولة من هذا القبيل وعلى هذه النغمة وهو :

لا تطلبين كريمةً بعد رؤيته إن الكرام بأسخام يداً خُتِموا
ولا تبال بشعر بعد شاعيره قد أفسد القول حتى أحمد الصَّممُ
وظلت السعائيات تعمل ، فابن خالويه وغيره يلح في الايقاع بالمتنبى ،
والمتنبى يعمن في تعاليه حتى فاض الالباء ، فمل سيف الدولة كثرة القول في
المتنبى ، ومل المتنبى كثرة الغضب والعتاب ، فتلاقت رغبة المتنبى في الخروج
من حلب برغبة سيف الدولة في الراحة مما ينظر ويسمع ، فرحل المتنبى
الى مصر ، وأسدل الستار عن فصل من رواية المتنبى ، وان كانت
الرواية لم تتم فصولاً .

وفي الحق ان الزمان أخطأ فوضع المتنبى في غير موضعه ، اعطاه
نفس ملك ولسان شاعر ، ووقفه يدف على أبواب الأمرء يمدحهم ، وهو
إذ يمدحهم يرى منزلته — حقاً أو باطلاً — فوق منزلتهم ؛ فكان شأنه
شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسياتهم ومنصبهم ، نفس رئيس ومنصب
مرؤوس ، أو نفس حرب ونضال ومنصب ذلة وهوان ؛ وهذان
العنصران اذا اجتمعا سببا شقاء صاحبها ؛ لذلك كانت نفس المتنبى ثائرة
دائماً . ومن يدري ؟ لعل ما منحننا من شعر جزل جميل كان نتيجة
هذا العناء ، ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد الى الراحة ؛ فكم كان
الشقاء والبؤس والفقر والاضطهاد والعذاب نعمة على الانسانية بما أخرجت
من شعور نبيل وفن جميل .

وبعد ، فمع هذا كله لم يجد المتنبى عوضاً عن سيف الدولة في علو
شأنه وكرمه وعريته وذوقه وفروسيته ؛ وخرج ينشُد الملك في مصر
وغير مصر فلم ينل ملكاً ولم يجد ممدوحاً ينطقه بالمعاني كما أنطقه سيف الدولة ،
وعرض في أول أمره بمصر بسيف الدولة ، ولكنه أدرك الحقيقة المرة
بعد ، فتاب وأتاب وندم على ما كان ، وحن الى سيف الدولة وحن
سيف الدولة اليه ، فيقول من قصيدة في غير ديوانه :

عثرتُ بسيري نحو مصرٍ فالألمأ بها ولعمراً بالسَّير عنها ولا عَشْرًا
وفارقتُ خير الناس قاصدشرهم وأكرمهم طُراً لا لهم طرا
فعاقبتني المحصي بالغددر جازياً لأن رحيلي كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأي لم أعن بحزم ولا استصحبت في وجهتي حجرا

لقد كان المتني حين فارق سيف الدولة يعتقد أنه غددر به فيقول :

حَبَبْتُكَ قَلِي قَبْلَ حُبِّيكَ مِنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

ولكن مرور الزمان ، وتكشف الحوادث وخيبة الأمل في غيره جعلته يرى غير رأيه الأول ، وان المتني لاسيف الدولة كان هو الغادر ، إذ يقول : « لأن رحيلي كان عن حلب غدرا » .

وحن سيف الدولة إلى المتني ، فبعث إليه ابنه من حلب إلى الكوفة ، بعد أن خرج من مصر ، وبعث إليه مع ابنه هدية ، فكتب إليه المتني قصيدته التي يقول فيها :

ليس إلاك يا عليُّ همَّامٌ سيفُهُ دونَ عِرْضِهِ مَسْأُولُ

* * *

أنتَ طولَ الحياةِ الرُّومَ غازِمٌ فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفُولُ

* * *

ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار السَّمُولُ

* * *

من عبيدي إن عشت لي الف كافو رِ ولي من نداك ريفٌ ونيلٌ

ما أبالي إذا أتقتك الليالي من دهتهُ جبوؤها والخبول

ثم بعث إليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله المسير إليه فاعتذر بالوشايات .

وما عاقني غير خوف الوشاة وإن الوشايات طرقت الكذب

كان ذلك في سنة ٣٥٣ ، ولم تطل مدة المتني بعد ، فقد قتل في

السنة التي تليها ، وهي سنة ٣٥٤ ، كلاهما يحمل نفساً حبيباً إلى صاحبه .

فلسفة القوة في شعر المتنبي

للدكتور أحمد أمين

يخطيء من يظن أن أبا الطيب عمد إلى ما أثر من الحكيم عن أفلاطون وأرسطو وأبيقور وأمثالهم من فلاسفة اليونان فأخذها ونظمها ، ولم يكن له في ذلك إلا أن حول النثر شعراً ، كما رأى ذلك من تتبعوا سرقات المتنبي وأفرطوا في اتهامه ، فأخذوا يبحثون في كل حكمة نطق بها ويردونها إلى قائلها من هؤلاء الفلاسفة . فلسنا نرى هذا الرأي ، فإن كان قد وصل إلى أبي الطيب قليل من حكم اليونان فإن أكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه ، لا الفلسفة اليونانية وحكمها ، ذلك لأن الحكيم ليست وفقاً على الفلاسفة ولا على من تبجروا في العلوم والمعارف ، إنما هي قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة ، ونحن نرى فيما بيننا أن بعض العامة ومن لم يأخذوا بمحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الأمثال والنطق بالحكم الصائبة ما لا يستطيعه الفيلسوف والعالم المتبحر ، وهذا الذي بين أيدينا من أمثال إمامنا هو من نتاج عامة الشعب أكثر مما هو من نتاج الفلاسفة . وكلنا رأى بعض عجائز النساء ممن لم تقرأ في كتاب أو تخط بيدهن حرفاً تنطق بالحكمة ولو الحكمة ، فيقف أمامها الفيلسوف حائراً دهشاً يمجز عن مثلها ويحار في تفسيرها . ومرجع ذلك إلى ينبوعين وهما التجربة والإلهام ، فإذا اجتمعا في امرئ ففجرت منه الحكمة ولو لم يتعلم ويتفلسف ، فكيف إذا اجتمعا لامرئ كأبي الطيب مليء قلبه شعوراً وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان وملك الفصاحة ؟

فنحن إذا التمسنا له مثالا في حكمة فلسنا نجده في أفلاطون وأرسطو وأبيقور ، وإنما نجده في زهير بن أبي سُلمي وقد نطق في الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلته عليه تجاربه وأوحى اليها إلهامه ، كما نجده في شعر أبي العتاهية وقد ملاء عاله حكما وأمثالا خالدة على الدهر . وكل ما بين أبي الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع إلى أشياء : المحيط الذي يحيط بكل شاعر ، وقدرة نفس الشاعر على تشرب محيطه ، والقدرة البيانية على أداء مشاعره . لقد ألمّ زهير من الحرب ورأى ويلاتها فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة يصف شرورها ومصائبها ، وفشل أبو العتاهية في الحياة فزهد وملك الزهد عليه نفسه فملاّ به ديوانه وكان لأبي الطيب موقف غير هذين فاختلفت حكمه عنها وإن نبتت من منبعها .

ودلينا على ذلك أن أبا الطيب - فيما نعلم - لم يتقف ثقافة فلسفية إنما تتقف ثقافة عربية خالصة ، قرأ بعض دواوين الشعراء وانقضى كثيرا من علماء الأدب واللغة كالزجاج وابن السراج والآنخفش وابن دريد ، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها .

وما لنا ولهذا كله ، فاننا لو رجعنا إلى حكمه لوجدناها منطبقة تمام الانطباق على محيطه ونفسه ليس فيها أثر من تقليد ولا شية من تصنع ، فهو ينظم ما يجول في نفسه وما دلت عليه تجاربه لا ما نقل اليه من حكم غيره إلا في القليل النادر .

ونحن إذا أردنا أن نجمل نفسه ومحيطه قلنا : إنه بدأ حياته حياة فتوة وفروسية ، تعرفه الخيل والليل والبيداء ، ويجب الحرب والنزال ، ويشتهي الطعن والقتال . قيل له وهو في المكتب ما أحسن وفرتك ؟ فقال :

لا تحسنُ الوقرةُ حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على نقيّ معتقيلٍ صعّدةً يَعْلُثُهَا من كلِّ وافي السبيل^(١)
 كما نشأ طموحاً إلى أقصى حد في الطموح ، يعتد بنفسه كل الاعتداد ،
 ولا يرى له في الوجود ندّاً ولا مثيلاً . قال في صباه :

أَمِيطُ عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي
 يقول إن قومه من خير العرب بيتاً ومع هذا يجب أن يعتز قومه به
 لا أن يعتز هو بقومه وبيته :

لا بقومي شُرفتُ بل شُرفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجسدودي
 وبهم فخر كل من نطق الضا د وعدوُّ الجاني وعدوُّ الطريد
 إلى جانب هذا الاعتزاز بالنفس استصغار للناس ونفوسهم وشؤونهم :
 ودهرٌ ناسه ناس صِغار وإن كانت لهم جثثٌ ضيخامٌ
 وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغامُ
 امتلأت نفسه بهذه العقيدة حتى في صباه ، فوضع لنفسه هذا المنطق
 الساذج البسيط . « إذا كنت خير الناس فلم لا أكون نبيهم أو على الأقل
 ملكهم » فبدأ ينفذ برأيه في سهولة ويسر ظاناً — وهو قتي غرير — أن
 الدنيا تُحكّمُ بمثل هذا المنطق البسيط . ولم يعلم بعد أن منطق الدنيا
 أعقد من منطقته . نعم إنه سيلاقي في هذا شداداً وصعاباً ولكن لا بأس
 فهو مسلح بكل ما يحتاج إليه ذلك من سلاح :

أيُّ محلٍّ أرتقي ؟ أيُّ عظيمٍ أتقي ؟
 وكلُّ ما قد خلق الله وما لم يخلق
 محقّرةٌ في همّي كسّعةٍ في مقفري

(١) الوفرة الشعر المجتمع على الرأس ، وكان من عادة العرب نشر ضفائرهم
 يوم الحرب تهويلاً لها ، والصعدة الرمح القصير ، واعتقل الرمح حمله ،
 ويملأ يسقيها مرة بعد مرة ، والسبال الشوارب أو ما استرسل من
 مقدم العربة .

ولكن حوادث الدهر علمته شيئاً فشيئاً أن الزمان أكبر من همته ،
وأنه لا يكفي أن يكون خير الناس في زعمه ليكون نبي الناس أو ملك
الناس . ومن أجل هذا تدرجت مطالعته وأخذت في النقصان ؛ فقد
بدأ يطلب النبوة ، فلما فشل فيها بدأ يطلب الملك ، فلما فشل فيه بدأ
يطلب ولاية أو إقليماً في مصر ففشل في ذلك أيضاً ، فأخذ يعتب على
الزمان ويذمه ويلعنه .

بدأ النبوة فقال :

ما مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا كَمُقَامِ « الْمَسِيحِ » بَيْنَ الْيَهُودِ
أَنَا تَرَبُّ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسَامُ الْعَدَى وَغِيظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ غَرِيبٌ « كَصَالِحٍ » فِي ثَمُودِ
ثم صدمه الزمان بالأسر والحبس فعدل عن النبوة الى طلب الملك ،
فأخذ في شعره يحقر ملوك زمانه وقيسهم بنفسه فلا يرى لهم فضلاً عليه
وله عليهم كل الفضل . ويضع خطة أن العرب يجب أن يحكمها العرب
لا العجم فيقول :

وإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا تَفْلَحُ عَرَبٌ مَلُوكَهَا عَجْمٌ

ويقول :

سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نَفُوسِهِمْ وَسَادَةُ الْمُسْلِمِينَ الْأَعْبَادُ الْقُرْمُ
إِذَنْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُلُوكُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَإِذَنْ فَلْيَكُنْ هُوَ مَلِكًا ،
وَقَدْ طَوَّفَ بِالْبِلَادِ يَنْلِسُ السَّبِيلَ لِتَحْقِيقِ مَأْرَبِهِ وَنِيلِ مَطْلَبِهِ ، وَيَقُولُ فِي
ذَلِكَ تَلِيحًا لَا تَصْرِيحًا :

يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلًّا أَنْ يُسْمِيَ
إِذَا قُلْتُ عَزَمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بُعْدِهِ فَأَبْعُدُ شَيْءٌ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزَمًا
وَأِنِّي لِمَنْ قَوْمٌ كَأَنْتَ نَفُوسِهِمْ بِهَا أَنْتَ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعِظَامَ
رَقْدَ حَلَمٍ أَنْ سَيَكُونُ لَهُ جَيْشٌ كَبِيرٌ يَقُودُهُ بِنَفْسِهِ فَيَجُوبُ الْبِلَادَ
وَيَفْتَحُ الْأَمْصَارَ وَيَخْلَعُ الْمُلُوكَ وَيَسْتَوْلِي عَلَى عُرُوشِهِمْ فَيَقُولُ :

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مَنِي مِثْلَ مَضْرِبِهِ وَيَنْجَلِي خَبْرِي مِنْ صِمَّةِ الصَّمَمِ (١)
 لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَاتٍ مِصْطَبِرٍ فَالآنَ أَفْجَحَمُ حَقِّي لَاتٍ مَقْتَحَمِ
 لَا تُرْكَنُ وَجْوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقَوْمٌ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
 وَالطَّعْنُ يُحْرِقُهَا وَالزُّجْرُ يُثْقَلِيهَا حَتَّى كَأَنَّ بِهَا ضَرْباً مِنَ اللَّئِمِّ (٢)

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَانْفَسُ وَاتْرِكِي حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
 إِنْ لَمْ أَذْرِكْ عَلَى الْأَمْرِمَا حِ سَائِلَةً فَلَا دُعَيْتُ بِنِ أُمَّ الْمَجْدِ وَالكَرَمِ
 أَيْمَلِكُ الْمَلِكِ - وَالْأَسْيَافُ ظَامِمَةٌ وَالطَّيْرُ جَائِمَةٌ - لِحِمِّ عَلَى وَضَمِّ ؟
 مِنْ لَوْ رَأَيْتِي مَاءً مَاتَ مِنْ ظَمًا وَلَوْ عُرِّضْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنِمِ
 مِيْعَادُ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ غَدًا وَمَنْ عَصَى مِنْ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ (٣)
 فَانْ أَجَابُوا فَمَا قَصَصْتِي بِهَا لَهْمُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمْ (٤)

ثم رأى أن الزمان لا يسمفه إلى ما طلب ولا يعينه على ما أمل ، فرحل
 إلى مصر وطلب من كافور أن ينيله ولاية فأعقد عليه ذهباً فقال :
 وما رغبتني في عَسَجِدِ أَسْتَفِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرِ أَسْتَجِيدُهُ
 وقال :

فَارَمَ بِي مَا أُرِدْتُ مَنِي فَاثِي أَسَدُ الْقَلْبِ آدَمِي الرِّوَاءِ
 وَفَوَّادِي مِنَ الْمَلُوكِ وَإِنْ كَا نِ لِسَانِي يُرِي مِنَ الشُّعْرَاءِ

(١) صمة الصمم : اشجع الشجيمان .

(٢) اللئيم : الجنون .

(٣) رقيق الشفرتين : السيف حاد الجانبين .

(٤) اي إن أجابوا دعوتي ونزلوا على حكمي فليست أقصدم بسيوتي ، وإنما أقصد
 من عصاني ، وإن أعرضوا عن طاعتي فليست أقدم بقتلهم وخدم بل واقتل كل من
 رأى رأيهم .

ثم صرح بعد الكناية فقال :

إِذَا لَمْ تَنْطَبِ ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فِجُودُكَ يَكْسُونِي وَشَغْلُكَ يَسْلُبُ
حَتَّى وَلَا هَذِهِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنَالَهَا ، وَصَدَمَتَهُ الْحَقِيقَةُ فَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ
« يُوَدُّ مِنَ الْإِيَّامِ مَا لَا تُودُهُ » وَقَدْ كَانَ فِي صِبَاهِ يَقُولُ :

وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصًا لَخَضَّبَ شَعْرَ مِيقَرِقِهِ حَسَامِي
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِي وَلَا سَارَتْ فِي يَدِهَا زَمَامِي
إِذَا امْتَلَأَتْ عَيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي فَوَيْلٌ فِي التِّيْقِظِ وَالْمَنَامِ

عذبتة الدنيا فجعلت نفسه نفس ملك ، وهمته همه ملك ، وشعره ملك الشعر أو على الأقل فيما يمتد هو ، ثم جعلته فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً ، ولا يرث من آباءه مالاً ولا ملكاً ولا جاهاً ، وكان يأمل في صباه أن تتحقق نبوته ، فالنبوة لا تحتاج إلى مال ، فلما يئس طلب الملك والملك يحتاج إلى مال ، فطلبه بشعره ولكن لم تذلل نفسه كما ذلت الشعراء فكان يرى أنه يعطي لمدوحيه أكثر مما يأخذ منهم ، فهو يمنحهم شعراً خالداً وهم يمنحونه عرضاً زائلاً . وكان يتجلى ذلك في عنايه وهجائه يوم يعتب على مدوحه أو يهجو .

فتباً لهذا الزمان الذي وضعه هذا الوضع ، منحه طموح الملوك ولم يجعله ملكاً ، وحرمه المال ولم يحرمه النفس ، فلم يوائم بين نفسه وحاله — يرى أن الناس لو عقلوا لثاروا ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء ولتسكوا عليهم خيارهم — ولعله يعني نفسه — ولكنهم خاضعون مستسلمون يقيمون على الذل ولا يأنفون من عار .

أما في هذه الدنيا كريمٌ تزول به عن القلب الممومٌ
أما في هذه الدنيا مكانٌ يُسَرُّ بأهله الجارُّ المقيمٌ
تشابهت اليهائمُ والعيديُّ علينَا ، والموالي والصميمُ
وما أدري إذا داءٌ حديثٌ أصاب الناسَ ، أم داءٌ قديمٌ ؟

عجا (٧)

اعتداد بالنفس لا حد له ، وطموح ليس بعده طموح ، ونقمة على الزمان لأنه لم يسعفه ، ونقمة على الناس لأنهم لم يحققوا أمله - هذا كله روح فلسفة المتنبي - وكل ما قاله من حيكّم وكل ما شرّحه من حالة نفسية فهو صدى لهذا الوضع ، وترجمة لهذه الأحداث ، وتعبير عن شعوره بها .

أوضح ما تدّجّه هذه الحال في نفس كنفس المتنبي « فلسفة القوة » وكذلك كان ، فالمتنبي قوة في الحملة على الناس وعلى الزمان . تتجلى القوة في كل أقواله وفي جميع حالاته ، وهذه القوة أكثر ما تكون في سنيه الأولى أيام كان يتنقل في البلاد ويدبر خطته ليحقق أمله . وقد ظل على هذه الحال إلى أن بلغ الرابعة والثلاثين ؛ ثم ضعفت بعض الشيء يوم اتصل بسيف الدولة يتبعه حيثما كان ويمدحه في الحل والترحال . وأثر في نفسه فشله عنده فرحل إلى مصر وبها كافر ، وشتان بن سيف الدولة في عريته وفروسيته وكافور في عجمته وعبوديته . ولكنه الزمان الغادر رماه بأقصى ما لديه حتى جعله مادحاً كافوراً ، فهو في مدحه يقالب نفسه ويلعب في كثير من المواقف بالألفاظ ليصوغ مدحاً يشبه الذم ، فاذا تحرر من ذلك وأحذ في هجائه عادت إليه قوته وكأنه استرد حريته . فهو قوي في نفسه لا يهاب الدهر ولا يكثر لأحداثه :

إن رمي نكبات الدهر عن كسب
 ترم امرءاً غير عديد ولا نكس
 وهو قوي في احتقاره اللذات الوضيعة وطموحه إلى أعلى غايات المجد :
 وإذا كانت النفوس كباراً
 تعبت في مرادها الأجسام
 يأبى أن يضعف نفسه بالغزل والحجر فانها يحولان دون المجد :

تمرسست بالآفاق حتى تركتها
 تقول : أمات الموت أم دُعر الذعر؟
 ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
 فمفترق جارات دارهما العمر

ولا تحسبنَّ المجدَّ زِفَاءً وَقِيئَةً فما المجدُّ إلا السيفُ والفِئَكَةُ البِكرُ
وترككَ في الدنيا دويِّئاً كأنما تداولَ سمعَ المرءِ أمَلُهُ العَشْرُ
وهو قوي في مجائه ، فهو إذا رمى أصمى ، وإذا مس أدمى ، يطوق
من يناله الدم . ويقلده الخزي ويُلزِمه عاراً لا تمحوه الأيام .

وهو قوي في دعوته للناس أن يثوروا ويؤسسوا مملكتهم على

حد السيف :

أعلى الممالك ما يُبنى على الأَسَلِ والطعنُ عند محييين كالقبَلِ
وما تَقَرُّ سيوفُ في ممالكها حتى تَقْدِفَل دهرًا أقبل في القُدَلِ (١)
وهو قوي في احتقار الناس إذ لم تعمل هممتهم كهمته ، ولم يرتفعوا عن
السفاسف رفعته :

إذا ما الناسُ جرَّهمُ لبيب فاني قد أكلتهمُ وذاقاً
فلم أرَ ودعهمُ إلا خداعاً ولم أرَ دينهمُ إلا نفاقاً
كل شيء في سبيل المجد لذيد محب إليه ؛ فالقتل والموت والعذاب
وقطع الفيافي عذب المذاق :

فوتي في الوغى عيشٌ لاني رأيتُ العيش في أرب النفوس

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم

* * *

وهانَ فما أبالي بالرزايا لاني ما انتفعت بأن أبالي
وأخيراً ترى القوة تشيع في جوانب أساليمة وقوافيه ، فاذا اشترك
المتني وغيره من الشعراء في معنى من المعاني رأيت أبيات المتني غالباً
أرصن أسلوباً وأجزل لفظاً وأقوى قافية وأمتن تركيباً ، لانه يسبغ عليها

(١) تنقل : تنحرك ، والنقل : الرؤوس مأخوذ من قلة الجبل رأسه

من قوته ويزيد في شدتها من شدته وحدته — حتى لقد يقول المؤلف والفكر الشائع الذي توارد عليه الشعراء في كل المصور فيخلع عليه بعض نفسه ، ولوناً من حسه ، فكأنما هو جديد وكأنه لم يسبق إليه .

لعل موضع الضعف عنده أنه أنفق حياته في مدح الولاة والامراء والملوك يصوغ الثناء لهم ، وينظم عقود المدح فيهم ، ويجهد عقله وخياله في اختراع معاني الكرم والبأس ونسبتها اليهم ، ويرحل من بلد إلى بلد طلباً لعطاياهم ، ويقف على أبوابهم انتظاراً لمنحهم ، ويتربص الفرص للقول فيهم ، فاذا أقبل العيد هنأهم ، وإذا مرضوا عوَّذهم ، وإذا انتصروا في حرب شاد بفعالهم ، وإذا انهزموا لطف من هزيمتهم ، وإذا مات لهم ميت عزاهم ، وإذا ولد لهم مولود بادر بتهنئتهم . وذلك ما لا يتفق كثيراً ونفسه الكبيرة وهمته العالية التي يتحدث عنها — لو أنه ترفع عن هذا كله وقنع بأن يتغنى بشعره في وصف شعوره لواءم بين نفسه وشعره ، ولكنه — على ما يظهر — لم يشأ عيشة الزهد وإنما شاء عيشة الرفعة والشهرة بالملك أو بالولاية فرأى أن يتصل بالملوك للاستفادة منهم والاستمانة على تحقيق غرضه بهم وبمنحهم وبايجاد الصلة بينه وبينهم ، ولكنه من حين لآخر يشعر بلذعة في أعماق نفسه من هذا الموقف فيفلسف التهنئة ويقول :

إنما التهنئات للاء كفاء ولمن يدني من البُعْداء
وأنا منك لا يهني عَضْوُ بالمسرات سائر الأَعْضاء

ثم هو لا يتنزل إلى مدح غير العطاء ، وإذا أنشد شعره أنشده في علو وكبرياء ، فاذا لم يتحقق غرضه أو أحس بتيه ممدوحه عليه ثار ثورة من جرحت عزته ونيل من كبريائه ، وكأنما تجلت له الحقيقة وهي صعوبة الجمع بين نفس تمتليء عزة وشاعر يقف شعره على المديح

— وهكذا كلما جذبته شؤون الحياة الى الضعة والضعف أتت عليه نفسه ،
وحولته من ضعف إلى قوة ومن ضعة إلى رفعة :

ما كنت أحسبني أحيأ إلى زمن يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمود

* * *

ويأتمها خطةً ويؤتمُّ قابلها مثلها خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القودُ
وعندها لذ طعمُ الموتِ شاربه إن المنيَّةَ عند الذلِّ قِنْدِيدٌ (١)

وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة كما فلسف أبو العتاهية الحياة
فلسفة زهد — فويل للضعيف ، وويل للجبان ، وويل لمن يخاف الحوادث
وويل لمن يهاب الموت :

ولا قضي حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

(١) القنديد : عمل قصب السكر والحجر

المتنبي رسول العروبة (١)

لدكتور أمين الريحاني

أيها السادة والسيدات .

في العقد الأخير من السنة الأخيرة من القرن العاشر ، شاع في البلاد الأوروبية إشاعة خطيرة خبيثة ، روّعت الناس وقلقهم في بحر من اليأس والجزع ، إشاعة جسمتها الأوهام ، والأوهام كانت كالأوبئة في انتشارها ، وفي هول أخبارها ، نفخ الناس بالصور ، ودعوا بالويل والثبور ، ووعظ الواعظون في الكنائس ، ونادى المنادون في المدن والقرى أن استعدوا ليوم الدينونة فقد دنا ، ستخرب الدنيا وتنهي الحياة ، في انتهاء السنة الأخيرة من الألف .

صدق الناس ذلك ، صدقوه جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، فتركوا أعمالهم ، ونبذوا آمالهم ، وهجروا بيوتهم وعيالهم ، وراحوا يصلون في الكنائس ، ويهيمون في البراري متورعين متضرعين ، تابوا إلى الله ، وشرعوا يتأهبون للموت ، ولليوم الآخر يوم الدينونة دقت السنة المخوفة وذر قرن شمسها الأولى ، فارتعشت له فرائص اولئك الآدميين المتعبدين ، ومرت السنة الألف بكاملها ، وغابت شمس يومها الأخير ، فتنفس الناس الصعداء ، وشكروا رب الأرض والسماء ، لأنه رحمة بهم واستجابة لطلبات كهانهم كما زعموا ، اجتد سبجانه وتعالى ، يوم الفناء ألف سنة أخرى !

وفي تلك الحقبة السوداء الهائلة بيننا كان الأوروبيون يتخبطون في دياجى الجهل ، مثقلة نفوسهم بالخرافات والأوهام ، كان العرب في الشرق والغرب

(١) ألفت في مهرجان المتنبي الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق في تموز سنة ١٩٣٦ .

في بلاد الشام وبلاد الأندلس ، يشملون للعلم والفلسفة مصابيح وهماجة جديدة ، ويرفمون للأدب والشعر أعلاماً وضاحةً مجيدة ، بينما كان الأوروبيون يستعدون لنهاية العالم ، كان العرب يجدون في بدايته ، وهم آخذون بنواحي الحياة ، يوردونها الموارد الكافية ويمزونها بالأعمال والآمال ؛ بينما كان أبناء أوربة يخططون الأ كفان ، كان أبناء يرب يشيدون صروح الرقي البشري وال عمران .

مرت السنون ، المئة منها تلو المئة ، والعرب في القرون الثمانية للهجرة حاملون مشاعيل المدينة شرقاً وغرباً ، من الهند والسند إلى الأندلس وما وراء البيرانيس ، وكانت تلك المدينة في انتقال مصابيحها منا إلى الفرنجة تزداد نوراً عندهم وتقل نوراً عندنا ، فأنقلبت الآية ، وصرنا نحن ، بعد خمسة قرون مظلمة ، نخطط الأ كفان بينما هم يجدون في تشيد صروح العلم ، وتعزيز أسباب عمران .

ولكن الأثم التي كان لها في نشر المدينة أيد بيضاء لا تضيع بل هي خالدة في مآثرها ، وحية فنية على الدوام في يقظاتها ووثباتها ، وانها يوم تستيقظ تحمل مصابيح الرسالة ، كما حملتها في الماضي ، ويلحق المتأخر فيها بالمتقدم ، فتستعيد منزلتها العالية ، وتصبح من عوامل الخير الكبرى في العالم .

إن العرب لمن هذه الأثم الخالدة ، وإننا والأثم الأوربية اليوم مشتركون بالعقيدة الواحدة ، عقيدة النشوء الدائم والارتقاء المستمر ، عقيدة عمران المؤسسة على العلم والعمل ، وعلى الثقافة الجامعة العالية المقربة الأثم بعضها من بعض .

وهذه الألف الثانية من دورة الزمان الحديث ندنو منها ثابتين في عقيدتنا ، واثقين بالذ وبأنفسنا ، آمنين شر الأوهام والخرافات ، وعاملين في مكافحة شرور الجهل كلها ، فالأوروبيون على عكس ما كانت عليه جدودهم في السنوات الأخيرة من القرن العاشرة ، يبنون اليوم باسم العلم

فتزداد الاختراعات والاكتشافات ، والفتوحات العالمية والاقتصادية ، ونحن العرب نستيقظ من سباتنا الطويل الأجل ، فنذكر ما كانت عليه جدودنا من علم وثقافة ، ومن شريف السجايا ، فنسعى لتكون جديرين بذلك الأثر المحيّد ، فتزداد في مساعينا همه ونشاطاً ، وتزداد طموحاً وثباتاً وأملًا .

أما اننا نعود إلى الماضي فلا لنقلده بحذافيره ، بل لنستنير بأنواره ، ونكمل الرسالة التي حملت الحدود أعلامها ، رسالة العلم والثقافة والرفق البشري ، وإننا اليوم في عودتنا إلى الماضي نقتدي بالأوروبيين وقد سلكوا مسلكاً جديداً في العود إلى الماضي ليمجدوا الخالدين منه فيحتفلون بذكراهم الطيبة ويطعمون لها المهرجانات المثوية والألفية .

وقد كانت باكورة هذه الاحتفالات الذكرى الستمائة للشاعر الإيطالي العظيم دانته ، وتلاها منذ بضع سنوات الاحتفال بذكرى الألف سنة للشاعر الروماني المجيد فرجيل .

وفي السنة الماضية حذونا حذوهم ، فاحتفلنا في هذا الشرق الأدنى في إيران بمرور الألف سنة على وفاة الشاعر الفارسي الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، فكان مهرجانه الألفي في طهران وطوس ومهرجاناً عظيماً .
وها نحن في هذا العام ، بعد مرور ألف سنة على عهد في تاريخنا المجيد ، نحتفل بالاحتفال الأول الاحتفال الألفي بشاعر العرب العظيم الخالد أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي .

ان في هذه الاحتفالات بأرباب الشعر والأدب دليلاً على أننا في تقدم مستمر . فمن خياطة الأكفان إلى تشييد صروح الأدب والعمران مرحلة كبيرة . وان فيها الدليل الآخر على أن سنة العمران واحدة ، ولحلقها ، وان تقطعت في حقبة من الدهر اتصال بعضها ببعض . يكفيننا شر الحاضر أيها السادة والسيدات ، ولا يكفيننا خيره . فيجب علينا أن

نضيف إليه خير الماضي ، وإن في هذا العمل الدليل الأكبر على أننا
مدركون السر في سنة الرقي البشري ومنتفعون به .

أجل ، أنا لفي تقدم . وإنني أرى في عالم الغيب ، بعد ألف سنة
أخرى من دورة الزمان ، أمة من سلالتنا العربية ، تبني على ما بنيناها ،
وتزيد ما أحرزته في عشرة قرون من العلوم الطبيعية والاقتصادية ، ومن
الثقافات القومية والعالمية ، ومن الفلسفات الأدبية والروحية ، ومن الفنون
الجميلة والصناعات كلها .

وسوف لا تضي تلك الأمة وهي من لحمنا ودمنا ، من تقدموها ،
وكانوا في مآثرهم مشرقين لها ممهدين سبيلها . سوف تقيم الحفلات الألفية
والمئوية للمستحقين في أبنائها الأقدمين ، أرباب الفنون والعلوم ، وبينهم
شاعرنا العربي العظيم أبو الطيب المتنبي .

نعم ، سيذكر أبو الطيب بعد ألف سنة كما نذكره اليوم ، فيقيم له
عرب القرن الثلاثين ، المهرجان الألفي الثاني ، كما أقام أمس العالم الغربي
مهرجان الألفين للشاعر الروماني فرجيل .

قلت : الشاعر العربي ، فقلت : الأمة العربية ، ذلك لأنني ، على شدة
إعجابي بالمتنبي ، لا أرى في شعره غير القليل مما يؤهله لأن يكون
شاعراً عالمياً . إن شاعرنا العربي العالمي هو سوري المولد وقد جاء بعد
أبي الطيب — ولد بعد وفاته بنحو عشر سنوات — وكان من أول
المعجبين بشعره .

فشرحه فيما أسماه معجز أحمد ، وبالغ في مدحه ، نعم ، نعم إن شاعرنا
العربي العالمي إنما هو المعري أبو العلاء ، وستحتفل الأمة بذكره
الألفية في وقتها إن شاء الله ، وسيجيء العلماء والأدباء من أوروبا وأميركا
وبلاد المشرق ، ليشاركوا بذلك الاحتفال .

عذراً على هذه الكلمة الاعتراضية ، التي أوجبها الاستدراك وقبل
أن أدخل ، موضوعي « المتنبي رسول العروبة » ، يجب عليّ أن أمر

— وسأمر مسرعاً — ببعض ما أراه من مواطن الضعف والنقص ، ليس في شعره فقط ، بل في عبقريته أيضاً . على أنني لا أقف عندما عابه عليه الماقدون قديماً أو حديثاً من الشواذات اللغوية ، اذ ليس ذلك من اختصاصي .

عندما بدأت أطلع ديوان المتنبي ، منذ ربع قرن ويزيد ، أخذت أعلق على الهامش ما كان يعنني من خواطر الاعجاب أو الانتقاد . وأول ما قرأته في تلك النسخة ، كما عدت أمس إليها ، كلمة جاءت في إحدى الصفحات الأولى تقول : « هذا شاعر شاب في صباه ، أو أنه في صبا جعل الشيب مما اتخذ حلية لصبابته » . وفي تلك القصيدة التي مطلعها :

« كم قتيلٍ كما قتلتُ شهيدٍ »

المنظومة في صباه ، ومن الاعجاب بنفسه ، والكذب لها ، ما هو أعجب من الشيب المصطنع في رأسه ، ومع ذلك فإن فيها من سحر بيانه ، وجيل معانيه ، ما يستسمعون فيما بعد بعضها .

أقف الآن عند المبالغة في شعره ، بل الاغراق ، بل الغلو ، وقد اهتم أدباء العرب لعظم تقديرهم هذا النوع من البديع اهتماماً خاصاً به ، فخللوه ، ودققوا فيه ، وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، الممكن عادةً ، والممكن عقلاً لا عادةً ، وغير الممكن لا في الماديات ولا في المعقولات ، وهذا الاخير المقصود الآن ، فإن في ديوان المتنبي ، بل في الشعر العربي على الاطلاق بجرأ منه هل أدركني روح الغلو فاستعرت « بحر » الشعراء لاعتبر عن رأيي ؟

والكي وأنا مع المتنبي ومدوحيه ، أمسك تورعاً ، فلا أتجاوز دور المستعرض المستعجب ، فما هؤلاء المددوحون من الناس ، بل هم من الأرباب ، وكل واحد منهم يستطيع ، إذا أراد الشاعر أن ينقل الجبال

ويحمل النجوم في الرحال ، ويفدق منها على الأسد والأشبال ، ويقول
حتى للبحر هال هال !

هو ذا سيف الدولة ، والبحر عبد من عبده ، أو صاهل من خيله ،
فقد تجاوز المتني المبذل في مدحه ، فما قال إنه البحر ، بل قال إن
البحر أطراف أنامله ، وما قال إنه طود من الأطواد ، بل أشار إلى
أن تربل (جبل في آسيا الصغرى) يليق أن يكون حجراً ثميناً في
خاتم نصره .

فهل تعجب بعد هذا لقوله :

« إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض »

وهل يغالي الشاعر في خوفه على النجوم إذا حاربت سيف الدولة :
وقد زعموا أن النجوم خوالدٌ ولو حاربتة نأح فيها الثواكلُ
وما كان أدناها له لو أرادها وألطفها لو أنه المتناول
ان هي إلا خيالات صيبانية . وليس كافور في ساعة الوغى أقل
صولة واقتداراً من الرب العربي . فهو كذلك يركب الأهوال ، ويضرب
الجماجم بالبيض الطوال ، ويهب الهبات الغواليا ، ولا يفعل الفعلات
الاعذاريا . ولا تظنه لسواده يخفى على الشمس ، أو يتوارى رحمة بها .
فقد قال المتني فيه وفيها :

تفضح الشمس كما ذرت الشمسُ شمسُ بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ

بل قال أكثر من ذلك . قال أن تلك الشمس شمسنا لا تغيب إلا

بإذن منه ، أي من كافور !

هو ذا المتني في شيء من غلوه . وقد يكون من أمره أن تصوره
الجبارة ، واختياره إياهم لمديحه ، هو من باب الرغبة بالأضداد ، فقد
كان هو في جسمه صغيراً نحيلاً على ما يظهر من قوله :

كفي بجسمي نحولاً أتني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وقد سبقه الشاعر بشار إلى هذا الخيال فذرنا في جسمه الهزيل قائلاً

« لو تو كأت عليه لانهدم »

ان في الشعر العربي من هذا الغلو شيئاً كثيراً . ولا تجوز اضاءة الوقت في احصاء الامثال منه . كفى أن نذكر الحدود التي تجرحها خطرات النسيم ، والبنان الذي يدميه لمس الحريز ، وتلك الفتانة التي اذا كملت ميتاً يقوم من اللحد .

ان لمثل هذا الغلو مسارح في الغرب تمثل عليها الروايات الهزلية ، فيجيء فيها وفي أغانيها ونكاتهما ، ما يضاهيه من مضحكات التشابيه والكنائيات . وهي تندر في شعر الفرنجة الا ان يكون من باب المجون . على أن المتنبي لم يكن ماجناً في حياته الشعرية . فانك لا تسمع في ديوانه ضحكة واحدة ، وقلما ترى للابتسام خيالاً ، الغفو قد استعجلت في الاطلاق فقد اضحككتي - ومن لا تضحكه ؟ - الشمس السوداء شمس كافور ، التي كانت تفضح شمسنا المسكينة كلما أشرقت .

ما سوى ذلك ، فالمتنبي قطب مجد وقوة ، وطود هول وجلال . بل هو في الجلال والمجد روح عابس قمطير . وإننا إذا قارنا بينه وبين شعراء العالم الكبار كشكسبير وهوغو وغوته وهوميروس تراه بينهم ، ساعة يضحكون ، اعجوبة من اعاجيب العبقرية . فان لكل من أولئك الشعراء العالميين ناحية من مناحي العبقرية لا لآلة ، يخفف نور ابتسامها من اعباء الحياة ، أو يزيدنا نشاطاً وصبراً وأملًا في احتمالها . ان هذه الناحية مفقودة في المتنبي ، ناقصة في عبقريته .

أما اذا كانت الناحية المضحكة من الحياة دون اهتمامه ، فان في عالمه العالي المجيد الذي يدور على محور الفروسية والملك والشعر والكرم ، ما يستوجب في تدوين أخباره وتمجيد اعلامه مراعاة القاعدة الأساسية في كل فن وصناعة ، أي قاعدة التناسب والانسجام .

ليس المتنبي الشاعر العربي الوحيد الذي لا يعنى دائماً هذه القاعدة فالانسجام في الشعر العربي يكاد ينحصر في الالفاظ وفي الصيغ اللغوية . اما في المعاني فهو نادر وكثيراً ما تجيء المعاني مستقلة بعضها عن بعض ،

ومتقلقلة في قصائد اكثر الشعراء . فتقرأ القصيدة عكساً أو طرداً ،
او تبدأ في الوسط منها دون أن تدرك أو تشعر ان معنى الشاعر اختل
او اعتل او جاء مبتوراً ، هذا فضلاً عن التفاوت في الفكر والخيال في
القصيدة الواحدة ، وهي كثيراً ما تشبه قلادة يتخلل لؤلؤها كثير من
الحشلب (اللفظة المتنبي) .

فالشاعر في لامية العرب مثلاً يفخر ببطولته ، ويفاخر بها الابطال
ثم ينتقل فوراً من ساحة الوغى الى السباط فيقول :
وان مدت الايدي الى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
فأين الصلة أو شبه الصلة ، وأين التناسب والانسجام بين الموقفين
والمعنيين ؟

وما هذا الخلل المعنوي بقليل في ديوان المتنبي . فقد فتحت ذات يوم
خيرة ، فكان في ما قرأت من أول قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ،
قوله في وصف البطل الحبيب :

ويضحى غبار الخيل أدنى ستوره وأخرها نشر الكباء الملازمة

فما هي يا ترى الستور الاخرى بين غبار الخيل ودخان البخور؟ إنها
لصورة شعرية جميلة ، ولكنها في الغلو مضللة . ساعة البخور في خيمة
الاعرابي أو في ديوانه ، وساعة خيله في ساحات الوغى ، لا تتصلان
ولا تتناسبان . فضلاً عن ان الحقيقة هي خلاف ما تصوره الشاعر .
فالامير العربي ، ولا فرق بين من عرف في رحلاتي العربية ، وبين من
كان في أيام سيف الدولة ، لا يحمل بخوره الى الحرب ، راذا حمله فلا يستتر
بستر دخانه .

وأشبه بهذا التنافر في البيت الواحد ما نجده بينه وبين البيت الذي
يليه . فان الصلة مفقودة بين معناه ومعنى البيت السابق . ولا أثر لاشارة
الانتقال من أمير كثير الستور الى قوله :

وما استعربت عيني فراقاً رأته ولا علمتني غير ما القلب عالمه

على أن في هذه القصيدة وصفاً للجيش يقصر دونه هوميروس في
الياذته ، وقد لا نجد في شعر العالم مثل هذه الصورة في إيجازها وبلاغتها
وهول حقيقتها . فقد وصف المتني جيش سيف الدولة يصحبه الى ساحة
الوغي جيش من العقبان فقال :

سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب ، اذا استسقت سقتها صوارمه
اي اذا استسقت العقبان الجيش سقاها بصوارمه من دم الاعداء .
هي ذي ذروة عالية رائحة من ذرى البلاغة ، وصورة هائلة من صور
الحرب ، ولكن الشاعر يقف عندها تعباً كليلاً ، بل يقف كليل البصر ،
كليل النفس ، كليل الخيال ، وباليته وقف بكله عندها ، فهو يصطدم
هناك بنفسه ، ويهبط واياها ، يتدهور - الكلمة الوضعية يسف - ثم
يسف إسفافاً مفاجئاً فيقول :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
فيدخل على فخامة المشهد وروعته ، بل على حوله وهوله صورة
الشاعر ، وقد ركب من عزمه جواداً قوي القوائم ، وجاء ينشد سيف
الدولة ويشدو به ، فوقف في أروع مجالي المديح ليقول انه هو كذلك
عظيم الشأن رفيع الجنب .

ومن التقلقل في معانيه وخلو سبكها الفني والمنطقي من الانسجام ،
ما جاء في أول القصيدة التي يرثي فيها أخت سيف الدولة :

أجل قدرك أن تسمي مؤبنة ومن يصفك فقد سمك للعرب
هذا مفهوم مقبول :

غدرت يا موت كم أفنيت من عدد بمن أصبت وكم اسكت من لجب
وهذا مفهوم مقبول معقول

أما البيت الذي يجيء بينها فهو يعترض المعنى اعتراض الشاعر لسياق
القصيدة في أما كن شتى من ديوانه ، ويقطع الصلة المنطقية والفنية
قطعاً جازماً :

لا يملك الطربُ الحزونُ منطقهُ ودمعهُ وهما في قبضة الطربِ
ليت شعري هل تفقد القصيدة شيئاً كثيراً أو قليلاً من قيمتها لو لم
يكن هذا البيت ، وفيه ما فيه من تفسير الماء بالماء ، وفيه كذلك لفظة
معناها المؤلف أي الطرب هو غير ما يريد الشاعر ، إذ أنه يريد
بالطرب الحزن فيلبس المعنى على القارئ غير المتضلع من اللغة .

أما وقفات الشاعر الشخصية في قصائده ليلفت النظر إلى نفسه بل
ليهنّها ، ويفخر ويفاخر بها ، فهي تقطع على القارئ لذته العقلية والفنية ،
وتكدر مشربه مما سبق من حلاوة المعاني والألفاظ . وفي القصيدة السيفية
التي تقدم ذكرها يمترض الشاعر سياقها المنطقي والفني ثلاث مرات ؛ ولو
ترفق بنا أو فضّل الفن على الانانية لخمّمها بذلك البيت الفريد في بلاغته :
سحابٌ من العقبان يزحف تحمها سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمه

على أن لهذه الوقفات الشخصية قيمتها العالية في رسالة العروبة وستذكر
في محلها . إنما من العدل أن أقول الآن إنه في بعض هذه المواقف التي
يعرض فيها عن ممدوحه ليمدح نفسه ، يريحنا من ضرب الجماجم وركوب
الأهوال في سبيل الفناء والمحال .

قلت إني لا أعنى بما في شعر المتنبي من الشوارد والشواذات اللغوية ،
ومن التعقد والارتباك في الصيغ البيانية ، ومن الاغراب والاعجاب
والغموض والابهام ، فإن لها من الاختصاصيين من يعنون بها . وقد عنوا
بها ، قديماً وحديثاً ، ووفوها حقها .

إنما أريد أن أشير هنا إلى حسنة من محاسن شعره غير الصافية ،
وإن نوه بها جميع من كتبوا عن المتنبي مدحاً وانتقاداً .

أريد بهذه الحسنة إشارته اللطيفة في معانيه ، فهي حيناً لطيفة مفهومة
وحيناً ترهق منك اللطف والفهم ، فتعجز كل العجز وتحتمي بالكلمة
المأثورة المعنى في قلب الشاعر .

فيا قلب شاعرنا ، ما قول صاحبك :

« قتي ألف جزء رأيه في زمانه .

وما معناه في البيت الحسابي الآخر :

« أحادٌ أم سداسٌ في أحاد »

وماذا تريد يا قلب في قول صاحبك :

« وقتلن دفرأً والدهيم لما ترى »

وما معنى قوله كشف الله عنك وعنه :

وكل شريك في السرور بمصباحي أرى بعده من لا يرى مثله بعدي

هذه الألفاظ الحسابية ، والأسرار اللغوية ، والإشارات البعيدة عن الأفهام العربية يجيئنا الشاعر بها حباً بالابداع ورغبةً بالاغراب ، فيختلف في تفسيرها وشرحها جهاذة اللغة ، بل تتضارب فيها آراؤهم ، ولا يبلغون بعد كد القرينة وإجهاد النفس ، وبعد التحكيم في الاجتهاد والتحمل في الاستنباط لا يبلغون اقول ، الفاء والماء من فهمنا ، فتظل الألفاظ أغازاً ، ولا يستقيم في تلك « الإشارات اللطيفة » غير الغموض .

لا وقت لنا أيها السادة والسيدات ، لمثل هذه الترهات الشعرية في هذا الزمان ، زمان العمل والسرعة . لا وقت لدينا نضيمه في درس معميات شاعر مهما عظم شأنه ، وعلا قدره وقد نلبسها بعد إضاعة الوقت في درسها ، أثواباً من التأويل والتفسير لم تخطر للشاعر في بال أعيد بهذه المناسبة ما قلته مراراً في القوالب الشعرية القاسية ، قوالبنا العربية التي تحكم غالباً على الشاعر بما في شعره وقوافيه لفظاً ومعنى ، من الخزعبلات والركاكات ، وان للقوالب الشعرية شركاء في هذه الذنوب اللغوية والبيانية والفنية . منها الكسل الفكري ، وعدم الاكتراث ، والعجب بالنفس ، وعجزها ، وتعتمد الاغراب والابداع .

اما الشعر الصافي ، الشعر العالي الممتاز في معانيه وصيغته وفي صورته وقوافيه ، فهو لا يحتاج الى تفسير وتأويل . هذه دواوين الشعر العالي في الشرق وفي الغرب فانك لا تجد فيها بيتاً من الشعر يحتاج الى حاشية

ذات سطر واحد لتفسير أو اشرح معناه .

إن الشعر الصافي العالي لمثل نور الشمس في صفائه وبهائه . وإنه
لمثل ماء السواقي في جريه وفي خريه ، وإنه في جمال فنه لمثل الورد
كله ندى الصباح . تقرأ هذا الشعر فتدخل معانيه القلب والعقل منك
بسهولة النور والماء ، وبسهولة عرف الطيب والهواء ، وبسهولة لفظ الحبيب
للحاء والباء .

إن المتنبي مقدره فائقة في تصريف الكلام وتشقيقه . وإن له تفنناً
عجيباً في تقديمه وتأخيره وفي اقتضاب حذافيره . ولكنه لا يبالي بما
يلحق بالمعنى من غموض وتشويه ، وهو يتوسع بالمعنى السخيف في بعض
الأحايين فيزيده سخافة . مثال ذلك أبياته الجوفاء في تقبيل رسوم الروم
لكم سيف الدولة . وهي من أسخف مجاملاته .

وان له في التناقض الفكري ما يزري بالمعقول البسيط ولا يبالي
بالذوق السليم فهو في نفس واحد ، في بيتين متحاذيين ، زينة لسيف
الدولة ، ورب للشعر والكائنات .

وما أنا إلا سميري حملته . . .

وما الدهر إلا من رواة قصائدي . . .

فلو جاء الشطر الأول في اول القصيدة مثلاً ، والشطر الثاني في
آخرها ، لما ضج التناقض على القارئ هذه الضجة المنكرة .
وكثيراً ما يلبس المعاني السخيفة ثوباً من الألفاظ الفخمة الطنانة ،
فيسترها فلا تفضح . خذ قوله في عفافه :

ويمنع ثغره من كل صبٍ ويمنحه البشامة والأراكا

فهل تظن ان البشامة والأراك اسمي ملكين من ملائكة الفردوس ،
أو حوريتين من حور الجنان ؟ البشامة : واحدة البشام وهو مثل الأراك
شجر يستاك بعيدانه .

أي إن هذا الرجل العظيم ، الذي قلما ينزل من علياء الفخامة الشعرية يقول إنه يمنع ثغره من تقبيل كل صب ، ويمنح هذه اللذة المسواك !

قلت ليس في الديوان ضحكة واحدة فأخطأت . ان لني المسواك الضحكة الكبرى .

قبل ان انتقل من هذه الناحية من الموضوع ، يجب أن أقول كلمة في صور المتني الشعرية ، كلمة لا بد منها ، ما زلنا في مواطن الضعف والنقص من شعره . إن صورته الشعرية محدودة ، وهي في الغالب صناعية تقليدية لا علاقة فيها ولا أثر للعقل المفرون بالروح ، أي للخيال الذي تغذيه الرؤيا ، فالغيث عنده للجود ، والامسد للشجاعة ، والشمس للمجد ، والبحر للعظمة ، والجبل للقوة ، والبدر والنجوم للسمو والعلو . ولكن له في هذه الاستعارات والكنائيات ، التي كانت مبتذلة حتى في زمانه تفتناً عجبياً هو ركن من أركان عبقريته .

وان مواضعه مثل استعاراته محدودة ، ذلك لأنه استوحى بيته فقط ، بل استوحى ما يرى في الحياة ، وما مد بصره وبصيرته الى ما لا يرى . وانه في ما يرى ما رأى غير اصحاب السيادة والجاه . ولا عجب فما صاحب هذا العربي العظيم غير الأمراء والأعيان من الناس ، فزينت له أحوالهم ناحية من الحياة ، نعب عنها اليوم بالارستقراطية .

وليس في شعر المتني ، اذا استثنينا غزله وبعض المناحي الشخصية التي يلين فيها عنفوانه ، وتنكشف جوانب كبريائه ليس فيه شيء من رقة العواطف ووداعة الشعور ؛ ليس فيه انفاع الفيلسوف ، وليس فيه ورع الرجل الصالح التقي . وقد تستغربون قولي إنني لم اجد في كل الديوان ذكراً للرحمة اللهم الا في بيت واحد .

مرة واحدة يجيء ذكر الرحمة في ديوان هذا العبقرى العربي ،

فكانه كون على الشكل الذي تصوره الفيلسوف الالماني « نيتشه » بعده بتسعمائة سنة . كأنه كون على شكل السوبرمان ، إنعسا الحق للقوة ، وإنما الدنيا للقوة ، أما الشفقة فإن هي إلا ضعف وضلال ! السوبرمان المتنبي . مرة واحدة يذكر الرحمة ، وقد يكون ذلك عرضاً .

أحزم ذي لبٍ وأكرم ذي يدٍ وأشجع ذي قلبٍ وأرحم ذي كبدٍ
هو المهدي الذي يشبه ابن العميد به . ولا بد المهدي من الرحمة تكلمة لفضائله ، على أنه من الممكن أن تكون اللفظة قد جاءت زينة وزيادة — أكرم أحزم أرحم — في الطباق البياني .

بالرغم عما تقدم اقول ما قال الهمذاني : « المتنبي ابن عصرنا » فهو لا يزال اليوم كما كان في ذلك الزمان ابن عصرنا ، بل اقول ما قاله فيه الثعالبي مع تصحيح صغير في ظاهره ، كبير في حقيقته . قال الثعالبي « المتنبي واسطة عقد الدهر » (وان كانت العبارة لا تحتمل التدقيق) إنه واسطة عقد الدهر في العروبة وفي الشعر .

بهذا التصحيح أدخل الموضوع الذي يظهر لي في أعلى منزلة من الأهمية ، فلولا العروبة في المتنبي ، العروبة الممتازة بنطقها ، وبروحها ، وبطولها ، لما اهتمنا اليوم بشعره وعبقريته هذا الاهتمام .

أما ما رمي به من سفالة الأخلاق فقال بعض أبناء زمانه ، ورددتها الناقدون : إنه كان جباناً ومحبا المال وبخيلاً ، فقد أمست ولا قيمة لها في تقديرنا عبقريته ، حتى وإن اعتقدنا أن من رموه بها زيهون صادقون . ولكننا ننساها كما نسي شوارد اللغوية والشعرية ، وكما نسي شواذاته ومعمياته الصناعية ، وكما سبى الناس في المستقبل ما سيفقد قيمته الدائمة من وصفه للمعارك ، وتمجيده للحروب .

ما الذي يبقى بعد ذلك من المتنبي ؟ يبقى من المتنبي شعره الصافي ، وتبقى الرسالة العربية . وقد اصير هذه الرسالة عالمية إنسانية ، إذا جردت مما يثقلها من أسباب السیادات القديمة ، ومثلها العليا الآخذة بالتضاؤل

والزوال ، نعم ، يا سادتي صيحب المستقبل الحرب شجياً حاسماً عاماً ،
وسينقل الى المتاحف المدرس والاعتبار كل ما في الآداب والفنون الراقية
من آثار الحروب وأخبارها

أما الشعر الصافي في المتنبي ، فانه في المنزلة الأولى شعر عربي ،
سحره في ألفاظه وفي صيغه ، وفي لهجته ودباجته ، وفي مزيمته الموسيقية
الطرية ، إننا لنسحر بشعر المتنبي ، قبل أن ندرك معانيه . إن رنات
الألغاز وجلجلة القوافي ، اندخلان القلوب في انسجام ألحانها ، قبل أن
يدخل معناها العقول .

أجل ، اننا لنسحر بشعر المتنبي ونحن نردد ونشدن . وترنم
بقوافيه . ثم نسحر في هذا الشعر الصافي بالخالد من معانيه . ولكننا
ونحن نترنم بقوافيه تعلق رناتها وغمغمت اصواتها ، في الاذن وفي النفس ،
فترسب في العقل الباطن فتصبي قسماً غنائياً منه ، يردده صده على الدوام
دون ان يشترك بهذا العمل العقل والادراك .

فكم مرة سمعت أذني صوت النفس يردد ابياً المتنبي من بعض
قصائده المشهورة . وكم من مرة في عهد التنازع العقلي الروحي العاطفي ،
سمعت صوت المتنبي ، وقد تموج في بحر الزمان والفضاء إلي فأدركني في
نيويورك كما أدركني في البادية ، وأنا أردد صدى قوافيه الخالدة .

أريد من زمي ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

* * *

ما كل ما يتمي المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشهي السفن

* * *

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

* * *

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

* * *

إذا أردتُ كَميتَ اللونِ صافيةً وجدتها وحبيب النفس مفقودُ
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا شاكٍ منه محسودُ

* * *

هو ذا يا سادتي شيء من الحياة البشرية خالد ، وقد صوره الشاعر
صورة صادقة بلغة خالدة .

إن هذه الناحية من شعر المتنبي تدوم في جدتها وقوة فعلها في النفس
ما دام في العالم ناطق بالضاد ، وسيردها العربي بعد ألف سنة ، كما
رددتها هذا العربي في هجرته بأمر بركة ، وفي عزلته بلبنان .

هي ذي إحدى الناحيتين الخالدين من شعره ، وسيظن غيري في
معالجتها فيستجلون بدائعها ورائعها ، إن كان في الغزل أو الوصف
أو التباريح .

أما الناحية الأخرى الخالدة . فهي التي تنحصر بالعروبة ورسالتها
الثقافية ، الروحية والسياسية . ومن الغريب أن تجيء هذه الرسالة في
ما أمس عندنا من مبتذل الشعر ، أي في المديح . على أنها في نظري
أعطت مديح المتنبي تلك الصفة التي تشترك والصناعة الشعرية في خلوده ،
وقد تكون العامل الأكبر فيه . إن هذه الصفة ظاهرة في مديحه كله ،
منذ صباه في بوادي الشام وحواضرها ، إلى أيامه الأخيرة في كنف ابن
العميد وعضد الدولة ببلاد فارس ، فقد بدأ بمدح عربي :

« خير قريش أباً وأمجدها ... »

وانتهى بمدح من كان عربي اللسان والثقافة في الأقل ، أي عضد الدولة .

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحلّ به سواكا

وكان الشعر في هذا القول أصدق الصادقين . فقد لقي حتفه على يد
ذلك الفاتك الغير الأسدي بعد بضعة عشر يوماً من نظم قصيدته هذه
الأخيرة ، فما حل في فؤاده حب بعد حبه لعضد الدولة . وكذلك كان
عربياً أول من مدح ، وعربي اللسان والثقافة آخرهم .

وما هي هذه العروبة التي تغنى بها المتنبي ، ومجدها ، ونشر أعلامها في كل بلد حله من هذا الشرق الأدنى ؟ قد يدهشكم قولي إنها لم تكن كلها في من مدحهم المتنبي . بل قد كانت بأجمعها ، وبأبهى مظاهرها ، في المتنبي نفسه . وقد يستغرب قولي إنه في مدحه سيف الدولة مثلاً أو أبي العشائر ، أو ابن العميد ، كان يمدح ذلك العربي الذي يدعي المتنبي ، كان يتغنى بتلك الصفات الشريفة العالية التي يشعر أنها صفاته ، أو يشتهي ان تكون صفاته ، فتنعكس على قلمه وفي قوافيه مدحاً يخص به من عرفوا قدره وأكبروا عبقريته العربية .

أقول إن المتنبي في مدحه سيف الدولة مثلاً كان يمدح نفسه . ولا أقول إنه كان يفعل ذلك بادراك منه ، أو بحس ظاهر فيه . إنما عقله الباطن العربي كان يميل عليه ويسخره لنشر اعلام المثل العليا العربية في الناس بواسطة أفراد كبار من الناس .

وقد عاش المتنبي ، كما لا يخفى على من له اقل الملم بحياته وعصره ، يوم كانت الشعوبية ضاربة أطنابها شرقاً وغرباً ، وعاملة لانفساد العروبة وهدم أركانها . بيد أن الدولة الحمدانية في تلك الايام كانت حصن العروبة الا حصن ، وعلمها الا علم ، ونورها الا نور الاملع ، وعندما نقول الدولة الحمدانية نقول سيف الدولة ، وعندما نقول سيف الدولة ، نقول المتنبي . المتنبي ذلك الروح العبقرى الذي أحيا كل ما لمس بنظره وقوله - البادية ومن فيها ، المعارك وقواضبها وعواليها ، الخيل وفرسانها ، المجالس الشعرية وأنوارها التي كانت تترجح حوله ترجرج النجوم حول القمر ، والربيع في شعب بوان ، والأسد والغزلان ، أحيائها كلها في شعره كما أحيا كل من مدح وهجا ، وكل من قال فيه ولو قافية حافية .

المتنبي ذلك الروح العربي المشتعل حماساً ، المتوهج شعراً ، المتلاطئ ذكاءً ، المتعوج حباً وحنيناً ، المتعالي عظمةً ومجداً ، ذلك الروح القلق الثائر الحائر المضطرب المشرق المغرب في البوادي والحواضر ، الحامل

بين جنبيه ناراً قدسية ، وأنواراً سماوية يشعلها ويضرمها في كل مكان ،
باسم ربعة وتميم وتنوخ ، بل باسم قحطان وعدنان ، بل باسم العروبة
الباسطة أجنحتها فوق القبائل والعواصم جمعاء .
هاكم المتنبي في العواصم العربية ، وفي العواصم التي كان يشعل فيها
روحاً عربية .

هاكم المتنبي بشممه بسموه ، بعظمته بطموحه ، بكل ما ورثه من
أجداده الفاتحين ، ومن أرباب الشعر الخالدين ، وهو دائماً يريد من زمانه
ما ليس يبلغه في نفسه الزمان .

هاكم المتنبي في العواصم العربية وغير العربية - في حمص وحلب
وانطاكية ، في لبنان وبلبك والشام ، في طبريه ، في مصر ، في شيراز .
وقد كان في تشريقه وتعريبه ، وفي حله وترحاله ، كالبرق الخاطف
تارة ، وطوراً كالرعد القاصف ، وقد كان كنور الشمس في الشروق
في المهجيرة . وقد كان حيناً كالعرف الطيب في ساعات المساء الساكنة ،
وحيناً كالأعصار في البحار ، وكالسموم في البادية . وقد كان قبل ذلك
وبعد ذلك صوتاً عالياً خالداً رده الدهر قبلنا ، وسيرده الدهر بعدنا ،
كما زرده نحن الآن .

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحت وإذا نطقت فاني الجوزاء

* * *

تحقيرٌ عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتناول

* * *

وأني إذا بشرت أمراً أريده تدانت أقاصيه وهان أشدته

* * *

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

هو ذا المتنبي في جوله وصوله ، وفي عظمته ومجده . هو ذا العربي
الذي يقول في العربي إنه :

رجلٌ طينه من العنبر الورد وطين العباد من صلصال
ويقول :

لشمس فيه وللسحاب وللبحا ر وللأسود والرياح شمائلٌ
هو ذا الروح العربي الصميم الذي كان يصيح بالعرب المذبذبين بين
العروبة والشعوبية :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عجمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذممٌ
هو ذا الروح العبقرى العربي الذي جاب البلاد شرقاً وغرباً فبشر
بالعروبة ، وحث عليها ، ورفع عاليًا أعلامها .

وما كان المتنبي في تجواله ، على جدة ما شاهد من التكريم ،
ووفرة ما لاقى من التعظيم ، ما كان لينسى بلاد العرب بلاده فما عاب على
« افصح الناس طراً » ابي ابن العميد الا انه في بلاد غير عربية . وما
جمع بينها في أرجان غير العروبة والثقافة العربية العالية . وعندما خرج
وعضد الدولة للصيد بدشت لارزن ، ذكرته وحوشها بفزلان
نجد وأنعامها .

إن في ضواحي شيراز مكاناً هو من أجمل ما في الدنيا ، اسمه « شعب
بَوَّان » وصفه المتنبي وصفاً بليغاً ، ثم قال ، وقد حمله الحنين الى
مراتع صباه :

أحب حمصاً الى خناصرةٍ وكلُّ نفسٍ تحب مياها
لقد حمل المتنبي بلاده في قلبه حينما قذفت به أنواء الزمان ، فتغزل
وهو في شيراز بحسان دمشق . وقال وهو مأخوذ بمفاني شعب بَوَّان .
ولكنّ الفتي العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
وقد ذكر في تلك الجنان تفاح لبنان ، وحن وهو في أرجان إلى

من ودعهم في العراق . ولفرط شوقه الى دمشق ومنازلها ، كان يرى خيالها مصاحباً له ، حتى في أجمل مشاهد العجم الطبيعية والاجتماعية .
 ايها السادة - ان لكل شاعر بلادين ، بلاد خياله ، وبلاد مولده وأجداده ، وهو يقيم حيناً في هذه ، وحيناً في تلك . تارة يكون مثل إخوته في مراتعهم ومنازلهم ، وطوراً يصعد الى دنيا خياله ، فيبعد منهم ويملو عليهم ، ويظل مع ذلك بذكرهم بكل ما في دنياه العليا من محسنات الوجود ، ومكملات للحياة . وإن له بين البلادين موطئ قدم لاستراحة أشواقه وآماله ، هو قسمته من الحياة الدنيا . ولكن همه الأكبر حتى ها هنا هو أن ينتقل شيئاً من دنيا الخيال إلى دنيا الجدود . وان أحزانه وأفراحه تقاس بما يستحيل ، وبما يمكن أن ينقله لنا من عالمه الأعلى .

كذلك كان العنتبي وطنان يتنازعان فؤاده . والتنازع في قلب الشاعر شديد على قدر خياله أو وحيه ، وقل على قدر سكراته الشعرية . فان له سكرات هي النعيم ؛ تلوها يقظات هي الجحيم . اذ يرى نفسه في عالم أجداده ، ولا يرى غير القليل مما يريد لآخوانه من عالمه الأعلى ولكنه يجد بعض التسلية بمدحهم ، بل هو يفدق عليهم من فيض روحه دواء لأشجانه ، وبلسماً لجروحه . ومع ذلك فلا مهرب له من اليأس ؛ ولا ملجأ من السأم والملل غير النظم ، ثم النظم ثم النظم . فهل يلام إذا افتخر بنفسه ليعيد إليها نشاطها وأملها ؟

مفرثي صهوة الحصان ولك
 من قميصي مسرودة من حديد

أبدأ أقطع البلاد ونجمي
 في نحوس وهمتي في سعود

وإذا ما اشتد اليأس عليه وكان أشده بأسه في قومه يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
 وبنفسي فخرت لا بمجدودي

ولكنه هو العربي الأبر ، يستدرك فيذكر في البيت التالي قائلاً :

وهم فخر كل من نطق الضا
 دوعوذ الجاني وغوث الطريد

إن جدود المتنبي جدودنا . وإن عروبتة عروبتنا . وإن كل ما في
ممدوحيه وكل ما في نفسه من الفضائل عملاً وقوة هي من معونة تلك
العروبة ، الكرم والشعم ، والشجاعة والاقدام والفروسية والأريحية ،
والمروءة والعفاف ، والصبر والصدق والوفاء ، كل هذه الفضائل يراها
المتنبي في عالمه الاعلى وينقلها على لسان شعره الى عالم مولده وأجداده ،
فيراها مجسمة في ممدوحيه ، ويرى نفسه كامنةً فيها . لولا ذلك لما
استرعت عظيم إعجابه ، واستحقت خوالد قوافيه .

جميلة هي المعالي في شعره ، ولكنها في أعمال من يسعون لها ويدركونها
أجمل وأعلى .

وقد كانت تلك الفضائل تلج في صدره كلما مدح عربياً أياً كان .
فتراه يلين حتى لاعداء سيف الدولة لبني كلاب وبني كعب ، ويسأله الرفق
بهم لأنهم من العرب .

إذا لم يُرْعَ سيدهم عليهم فمن يُرْعِي عليهم أو يغارُ
تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه النجار
ثم قال يخاطب سيف الدولة :

لهم حق بشركك في نزارٍ وأدنى الشرك في أصل جوارٍ
ويوم كان معتقلاً في حمص قال في جدود الأمير واليهما :
سعوا المعالي وهم صبيةٌ وسادوا وجدوا وهم في المهود

هو العقل الباطن . وما حمل من رسالة العروبة ، فجدود الأمير هم
جدود المتنبي ، كما أن جدود المتنبي جدودنا ، وإذا رابك من الأمر
شيء ، أو انحل فيك جبل الثقة بربك وبنفسك ، فاسمع المتنبي يناديك
قائلاً :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ بين طمن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
هذا ما كان يقوله لسيف الدولة ممدوحه ولنفسه ، هذا ما كان

يمليه عليه العقل الباطن ، ليبدد من أمامه غيوم الياس ويقيه العثار والهوان
أو ليس هو القائل :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إبلام
قلت ان المتنبي كان زين ممدوحيه بتلك الشمائل التي حمل معدنها في
نفسه ، أو بالحري وجدته في عالمه الأعلى . وان بين هذا العالم الاعلى وأعماق
النفس حلة خفية قد تكون بعيدة كما هي في عامة الناس ، وقد تكون على قيد
شعرة كما هي في الشاعر الكبير ، شاعر قومه وشاعر الانسانية .
وليس المتنبي منفرداً في هذا التمجيد القومي . فان له في سائر الأمم
المتعدنة زملاء وإخواناً حتى من الشعراء العالمين الكبار ، يكفي أن أذكر
منهم شكسبير الذي يمجد الانكليز في أبطاله التاريخية ، وهوغو ممجد
الفرنسيس في شخص نابليون الأول ، ودنته ممجد اللاتين في رجال حزبه
السياسي .

ولا يفوتكم ان في كل من هؤلاء العباقره يعمل العقل الباطن عمله
فيحلي عليهم في مجموع ما يرسم فيه من تراث الاجداد ، وثقافة الاجيال
وقد يضيف اليها العبقري ما يتجلى له في تحليقه الشعري أو ساعة الفيض
والتنزيل من المثل العليا في شتى مناحي الحياة .

كذلك كان المتنبي في سكراته الشعرية مسيراً بعوامل العقل الباطن
أي العوامل الداخلية ، وبالفيض الشعري والخيال اي العوامل الخارجية .
وهو فيها كلها عربي قح ، لا يلبس من مدحهم ، أبطاله ، غير الفضائل
التي ذكرت ، الفضائل العربية ، وفي المنزلة الأولى منها : الشجاعة
والكرم .

وإن من الفضائل ما لا ينفصل عن الشجاعة . فالشجاع قوي ،
والقوي صادق ، والصادق شريف صريح أبي . فهل من ينكر على العرب
الشجاعة والصراحة في القوم ، والمجاهة في العدا ؟
إذا تولوا عداوة كشفوا وإن تولوا صنيعاً كتموا

والشجاعة تمنع من البخل ، لأن فيه خوف الفقر ، وهو ضرب من
الجبانة ، والجود يمنع من الجبن ، لأن فيه الحرص على الروح وهو ضرب
من البخل ! هذا ما يعنيه المتنبي في قوله الوجيز البليغ في سيف الدولة :
هو الشجاع يعد البخل من جبن وهو الجواد يعد الجبن من بخل
فالشجاع في نظره كريم ، والكريم شجاع . وقلما كان يرى السجية
الواحدة دون الأخرى . هما سجيتان عريبتان متلازمتان . وإن المثل
الأعلى في الاثنين ليتحلى في ممدوحيه العرب ، بل في ممدوحيه جميعاً ،
من الأمراء كانوا ، أو من العلماء ، أو من أهل البر والتقوى .
خذ مثلاً قصيدته في ابن أبي الأصبع ، وإحدى قصائده في ابن
اسحق التنوخي ، فلولا الاسم في القصيدة لظننت ان المتنبي يمدح
سيف الدولة .

كأنك في الاعطاء للمال مبغض
وفي كل حربٍ المنية عاشقٌ

هذا ابن اسحق التنوخي .

ترك الصنائع كالفواطع بارقا
ت والمالي كالعوالي شمرعا
وهذا ابن أبي الأصبع الذي لم يكن في القوارىء بل كان كاتباً ،
وقد قال في ابن زريق الطرسوسي ما لم يقل هو ميروس مثله في رب
أرباب الاغريق .

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه
لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه
في يوم معركة لأعيا عيسى
لو كان حج البحر مثل يمينه
ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه
ُعبيدت فكان العالمون مجوسا
لما سمعت به سمعت بواحد
ورأيتُ فرأيت منه خميسا
ولحظتُ أمه فسان مواهباً
ولستُ منصكده فسال نفوسا

فهل تجاوز هذا الغلو والملو في كل ما قاله في سيف الدولة ؟

هو العقل الباطن يعي على المتنبي فيمدح في ممدوحيه خير ما في عالمه

الأعلى وخير ما في أعماق نفسه ، بل هو يعجّد العرب والعروبة في
مدوحيه جميعاً . كأنني به كان يقول قبل ان يباشر النظم : هذا الرجل
من سادات العرب ، فيجب أن يكون له من شمائل العرب أشرفها وأعلاها
أو أنه يقول : هؤلاء هم العرب وأنا منهم ، فكيف لا تكون العظمة من
سجايهم ، وكيف لا اكون أنا عظيماً ؟ اني لا أرى في الوجهين
حقيقة رائعة .

ولنا أن نقول دون أن نتوغل في درس العوامل النفسية والباطنية ،
إن المتنبي في مدحه الكرم والشجاعة ، والمروءة والوفاء ، وحب القوة
والمجد ، أصاب ما في نفس كل عربي في زمانه وبعده ، كما يصيب ما في
انفسنا اليوم وغداً .

إنما تنجح المقالة في المر ، إذا وافقت هوى في الفؤاد
وكيف لا يكبر العربي ، ويمتد بعرويته عندما يقرأ في أحد ملوك
العرب قول شاعر العرب :

أرى كل ذي ملك اليك مصيرُهُ كأنك بحرٌ والملوكُ جداولُ
إذا مطرت منهم ومنك سحائبُ فوابلهم طلٌّ وطلك وابل
أيها السادة والسيدات ؛

لا تظنوني أسلي نفسي بالحال ، واحاول أن أسليكم بمذّب الأقوال ، إن
الشمائل التي حمل المتنبي أعلامها ، وجعلها المثل الأعلى في سيادة الناس ،
بل في الناس أجمعين ، لجديرة بأن يتحلى بها ، ويتخذها سنة في أعماله
كل من كان سيداً في الناس ، وإذا ما اجتمعت هذه الفضائل كلها لأمير
من الأمراء ، أو لحاكم من الحكام ، وكان لها في شعبه اصوات
وأصداء ، وكان لها في شعبه الاعمال المعززة ، فذلك الإمير الحاكم
مدرك لا محالة أعلى ذرى القوة والمجد والاحسان .

وإن للعرب كما قلت في مقدمة خطابي يقظات . وإن لهم وثبات .
وإن لهم عودات ونهضات . أفلسنا اليوم في يقظة جديدة ؟ إن دلائل

هذه اليقظة كثيرة أعد منها ولا أعددها . بل أكتفي الآن من « منها »
بهذا المعرض الدليل الأَكْبَر ، وهذا المهرجان الدليل الأَبْهَر . فهل
تهض أمة بلا ثقافة قومية عالمية ؟ وهل يقوم وطن في هذا الزمان بلا
معدات النهضة الاقتصادية ؟

أجل إن العرب اليوم لفي يقظة جديدة ، وإن لليقظة هذه كل عوامل
النهضة الكبرى ، أي العوامل الوطنية والاقتصادية والسياسية والأدبية .
أقول العرب ، واستوقفكم عندها . أنتم يا رجالات سورية ، وأنتم
يا رجالات لبنان ، وأنتم يا فتیان البلدين ، استوقفكم عند هذه الكلمة ؛
لأننا وإياكم عرب ، وإن في ذلك نخرنا الأَكْبَر ، إنا لعرب وكفى ،
فقد كانت العرب قبل الاسلام وقبل المسيحيين ، وستبقى العرب بعد
المسيحية وبعد الاسلام .

إني أعد الزمان في تاريخ الامم بالقرون لا بالسنين . فنحن اليوم
نحتفل بذكرى الف سنة مرت على وفاة المتنبي . وبعد مئة سنة يحتفل
أبناء البلاد العربية بذكراه الطيبة في هذا البلد الطيب ، في دمشق القديمة
الجديدة . وقد رفع حول علمها الأعلى علم العروبة الخالد ، أعلام العواصم
كلها ، من القاهرة الى بغداد ، ومن حلب الى صنعاء اليمن . ويومئذ
يقف الشاعر فيخاطب رب ذلك الملك ، شخصاً فرداً كان او برلماناً
جامعاً ، فيمجده ويمجد المتنبي معاً مما قاله المتنبي في سيف الدولة .

تشرف عدنان به لاربيعة* وتفتخر الدنيا به لا العواصم*

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

سيفيات المتنبي

نثر الشعر ، قول في أبي الطيب

للمستاذ محمد سامان الناصبي

قال ابن أبي الحديد صاحب الشرح الكبير (للذهج) في كتابه :
(الفلك الدائر على المثل السائر^(١)) : « كنت شرعت في حل (سيفيات
المتنبي) لشهرتها وغلبتها على ألسنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً
أقرب به الى الخزانة الشريفة^(٢) — عمرها الله تعالى — فخرج بعضه ،
وصدف عن إتمامه عوائق الوقت وشواغله » .

فهل أكمل ابن أبي الحديد هذا الكتاب ؟ وأين هو ؟

إن كان الزمان — وقد كان — قد أضاعه فإنه أبقى بقية منه .
وفيها الدليل عليه ، وأنا مورد اليوم منتقاها طرفة أدب لآدباء العرب ،
وإعلاماً أن احمد بن الحسين قد شغل حكماً وعالماً متكلماً مثل (ابن أبي
الحديد) كما شغل الآدباء واللغويين وغيرهم : فأديب نقده ، وانغوي
شرحه ، ومؤرخ كتب سيرته ، وعالم نثر شعره او حل نظمه ، وآخر
جمع حكيمته . وانها لسعادة ما نال مثلها شاعر ، وما أسعد (احمد) الا
عبقريته ، والعبقري في الدنيا شقي وسعيد ،

وحل النظم من أفانين الأدب في القديم ، وقد دُفع اليه الكتاب
حين اتسع مجال الإنشاء . « وأول من فكّ رقاب الشعر وسرّح مقيدته إلى
النثر عبد الحميد الأء كبر كاتب بني أمية إلى انقضاء خلافتهم^(٣) » والجاحظ
من أوائل من نثروا الشعر ، واستعانوا في كلامهم بقريض القارضين . روى
عبدالقاهر في (دلائل الأعجاز) هذه الرسالة للجاحظ الى ابن الزيات
وقال : إنه نثر قول نصيب :

(١) مطبوع في الهند . (٢) خزانة الكتب للخلافة العباسية في بغداد .

(٣) ورد ذلك في صبح الأعشى نقلاً عن كتاب (اريحان والريمان) .

فماجوا فأنثوا بالذي انت أهله ولو سكتوا أنثت عليك الحقائق
قال الجاحظ : « نحن (أعزك الله) نسحر بالبيان ، ونعوه بالقول ،
والناس ينظرون الى الحال ، ويقضون بالعيان . فأثر في أمرنا أثراً ينطق
إذا سكتنا ، فان المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب .
وروى بعضهم : « نظر أبو تمام الى سليمان بن وهب وقد كتب
كتاباً فقال كلامك ذوب شعري . »

وفي (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري : « سمع بعض
الكتاب قول نصيب (فماجوا البيت) فكتب : لو أمسك لساني عن شكرك
لنطق علي أثرك . وفي فصل آخر : ولو جمدتك احسانك لأكذبتني
أثاره ، ونمت علي شواهدة . وقريب من ذلك قولهم : شهادات الأحوال
أعظم من شهادات الرجال . »

وفي (كتاب الصناعتين) « قال بعضهم : الكتابة نقض الشعر . وقيل
لعتابي : بم قدرت على البلاغة ؟ قال : بحل معقود الكلام . »

ولأبي منصور الثعالبي كتاب سماه (نثر النظم ، وحل العقد^(١))
نثر الكتاب المترجم بـ (مؤنس الأدباء) وهو مختار صغير من الشعر
وقد تقدم اليه في حله (أبو العباس خوارزم شاه) كما ذكر الثعالبي ذلك
في ديباجة الكتاب .

ولضياء الدين بن الأثير صاحب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)
كتاب في هذا المعنى اسمه (الوشي المرقوم في حل المنظوم^(٢)) وفيه أيضاً
حل لآيات قرآنية وأخبار نبوية . قال ابن خلكان : « وهو مع وجازته
في غاية الحسن والافادة » قال ابن الأثير في هذا الكتاب : « وكنت

(١) منه مخطوطة في (الخزانة الظاهرية) في دمشق ، وقد طبع في مصر .

(٢) منه مخطوطة في دار الكتب المصرية .

حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ثم اقتضرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن اوس ، وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي . فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني ، وصار الادمان لي خلقاً وطبعاً . واما ذكرت هذا الفصل في معرض أن المنشيء ينبغي أن يجعل دأبه في الترسل حل المنظوم ، ويعتمد عليه في هذه الصناعة .

والتعويل كل التعويل على ما يقول ابن الاثير ، فيه — عندي — من الضرر ما فيه ، وشرح هذه المضرة — ان اردناه — يطول ، ولسنا الآن في مقام تبينها . واستظهار الاشعار وكلام العرب انما هو للظفر بالملكة والاهتداء الى الاسلوب العربي ثم السكاتب وبراعته في التوليد والاختراع والابداع ، واين الحر المبدع في القديم والحديث اين ؟

وحل الايات الشعرية ينقسم عند ابن الاثير الى ثلاثة اقسام ذكرها في (مثله السائر) :

(الاول) منها وهو أدناها مرتبة ان يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن اخذ عقداً قد اتقن نظمه ، واحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده . وأيضاً فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال : هذا شعر فلان بعينه لكون الفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

واما (القسم الثاني) فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ، ويعبر عن البعض بالفاظ آخر . وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة .

وأما (القسم الثالث) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه وشم يتبين حذق الصانع في صياغته ، فان استطاع الزيادة على ذلك المعنى فتلك الدرجة العالية . وإلا أحسن التصرف واتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الاول .

وقال (ضياء الدين) في التدريب على الحل :

« من أحب أن يكون كاتباً أو كان عنده طبع مجيب فعليه بحفظ
الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نثر الشعر
من محفوظاته . وطريقه أن يبتدىء بأخذ قصيدة من القصائد فينثر بيتاً
بيتاً على التوالي ، ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بالفاظه أو بأكثرها
فانه لا يستطيع الا ذلك ، واذا مررت نفسه ، وتدرج خاطره ارتفع عن
هذه الدرجة وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن
ذلك حتى يكسوه ضروباً من العبارات المختلفة . وحينئذ يحصل لخاطره
بمباشرة المعاني لفاح فيستنجز منها معاني غير تلك المعاني ، وسيله أن
يكثر الادمان ليلاً ونهاراً . ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له
ملكة . فاذا كتب كتاباً ، أو خطب خطبة تدفقت المعاني في اثناء كلامه
وجاءت الفاظه معسولة لا مفسولة ، وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص
رقصاً . »

* * *

سيفيات المتنبي ، هل أبيات منها لابن أبي الحديد :

فصل في الرهننة بعير :

لا زالت المواسم تفشاك وأغصانها وريقة وحدائقها أنيقة ، والأعياد
تلقاك وأنت عيدها على الحقيقة ، ولا برحت تهتصر الشباب لدناً رطيباً ،
وتنضو من الاعياد سماً وتلبس قشيباً . فهذا اليوم الشريف في الايام ، مثلك
في الانام لكنه أوحدهم محصور ، وأنت أوحدهم الأعوام والدهور . ولا أحيل
ذلك على محض الجد الذي ميز بين اليومين ، وفضل لإحدى العينين ، بل
على الجد الذي أسهرك وحاسدك راقداً ، وشانتك قاعداً .
هذا محلول قوله :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيدہ
ولا زالت الأعياد تُبسك بعده
فذا اليوم في الأيام مثلك في الوري
هو الجدة حتى تفضل العين أختها
وعيد لمن سمى وضحي وعيدا .
تسلم مخروفاً وتعطي مجددا .
كما كنت فيهم أو حداً كان أو حدا .
وحتى يكون اليوم لليوم سيدا .
وقد زدت عليه بأن جعلت توحيدہ بالاستحقاق لا بالجد والاتفاق ،
وفيه زيادة أخرى وهي عموم توحيدہ وخصوص توحيد العيد في أيام العام .

* * *

فصل في ذكر المراسلة :

وتوات منهن رسائل جملوها عليهم أدراعاً ، وقصدوا بها تزجيةً
للوقت ودفاعاً ، فظاهرها الاعظام لنا والاجلال ، وباطنها الارحاء لهم
والامهال .

هذا محلول قوله :

دروع لملك الروم هذي الرسائل
هي الزرد الضافي عليه ، ولفظها
يرد بها عن نفسه ويشاغل .
عليك ثناءً سابغاً وفضائل .

* * *

فصل

بإبه المعمور كعبة الحيا ، ومغناطيس الشفا ، فالملك تقبل بساط ديوانه
وتقصر عن تقبيل كعبه وبنانه .

هذا محلول قوله :

تقبل أفواه الملك بساطه
ويكبر عنها كعبه وبراحه . (١)

* * *

(١) البرجة المفصل الظاهر او الباطن من الأصابع ، الجمع : براجه .

فصل

أنا أستعديك عليك ، فالخصومة فيك ومنك واليك واستميتك عدل
قضاءك الذي عمّ الخلق وعداني ، وشمل الناس وتخطاني ، وأعيد مرآة
فكرك وهو الجوهر الشريف ، والشفاف اللطيف أن يظهر فيها تلبيس
الحاسد وبهتان الكاشح المماند ، وأخلاقك التي تظلم إذا قيدت في اللطافة
بالسلافة ، وفي الصفاء بالصهبا ، أن تحمل قذى الغش الصّراح ، وهي
ألطف من أن تمزج بالماء القراح .

هذا محلول قوله :

يا أعدل الناس الا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
وقول غيره :

أخلاقك الغرّ الصفايا ما لها حملت قذى الواشين وهي سلاف ؟
واللبس في مكنون رأيك ماله يخني ، وأنت الجوهر الشفاف ؟

فصل

العادة طبيعة غالبية ، وسجية الى فعل المعتاد جاذبة ، وعاداتك الطعن
في الأحداق وضرب الأعناق ، فاجر منها على اعراقك ، ومعهود عوائدك
وأخلاقك ؛ فان الملك لا تثبت دعائم حتى تخضب بالدم صوارمه .

هذا محلول قوله :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى .
وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم .

فصل في صفة السبوف

فنهدينا اليهم وفي أيدينا النار الموقدة في الرؤوس ، المعبودة قبل ملة
المجوس التي لا يفسدها الماء ، ولا يطفئها الهواء ، ولا تحرق الاغماد ،
ولا خمدت ليلة الميلاد . ترمي بالدم لا بالشرر ، وتوقد بالناس لا بالحجر ،
تحكم تارةً بالتعظيم وتارةً بالتصغير ، وتجمع قوماً جمع السلامة وقوماً
جمع التكسير .

هذا محلول قوله :

وفي أ كفههم النار التي عبتت قبل المجوس ، الى ذا اليوم تضطرم .
هنديّة* ، إن تصغر معشراً صغروا بحدها أو تعظم معشراً عظموا .
وقد زدت عليها زيادات كثيرة ، ورمزت الى الخبر الوارد في أن
نار فارس خمدت ليلة ميلاد نبينا وخرجت الى قوله تعالى (إنها ترمي
بشرر كالفصر) وقوله سبحانه (وقودها الناس والحجارة) ثم خرجت
الى نكتة نحوية وهي جمع السلامة وجمع التكسير .

فصل

السيف بالضارب لا بمضاء المضارب ، والحسام في يد الجبان كهام ،
والكهام في يد الشجاع حسام ، ولذلك قال عمرو لعمر : لا لوم عليّ
ولا حيف ، فاني لم أملك الساعد وانما نحلكتك السيف .

هذا محلول قوله :

إن السيوف مع الذين قلوبهم كقلوبهن* اذا التقى الجمعان .
تلقى الحسام على جراءة حده مثل الجبان بكف كل جبان .

إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه .

القتيل المتشحط في نجيمه كالماشق المستخرط (١) في دموعه ، وكلا الماءين دم الا أن هذا سال على أصل الخلقة ، وهذا صعدته (٢) حرقة الفرقة .

القتيل الذي قطعت شرايين نجيمه أروح من القتيل الذي قطعت شرايين دموعه ، فذاك قد فارق الدنيا فأمن شرها وخيرها ، وهذا كلما نضجت جلوده بدل جلوداً غيرها .

الدمع دم أحالت لونه نار الهوى فايض ، وقطعت سلكه يد النوى فتبدد وارفرض ، ولا فرق بينها عند النصر والبصيرة الا أن هذا يسيل من عضو واحد ، وذاك من أعضاء كثيرة .

فصل

عذر الخيمة واضح في السقوط ، لأنها علت على مولانا فتأدبت له في الهبوط ، وعامت عجزها عن أن تشمل من يشمل الزمان ، وأن تعلق على من يعلق على بهرام وكيوان (٣) ، فأرجاؤها في السعة بحيث يركض في كل قطر منها جحفل ، ولكنها تضيق عن العالم المجموع في الواحد الأجل وتقتصر عنه وتطول على القنا الذبل ، وأظنها لما أشرفت بأنواره ، وتاهت لما غدت من جملة دياره — لم تملك نفسها نغرت وضعفت ، ورب نفس أفرط عليها الفرغ فزهقت ، ولورزق الناس ما رزقت من الشرف الباذخ البنيان نخالتهم الأرجل وخرقوا سجوداً للجباه والأذقان ، وما سقطت

(١) في (السان والفاموس) : « استخرط الرجل في البكاء : لج فيه واشتد » .

(٢) في (السان) : التصعيد الاذابة ومنه قبل : حل مصعد وشراب مصعد اذا عواج بالنار حتى يحول عما هو عليه طمهاً ولوناً .

(٣) بهرام اسم المربخ ، كيوان يزحل .

عبثاً وانما اشارت بالرحيل ، كما أن القصواء ما خلأت (١) وانما حبسها
حابس الفيل .

هذا محلول قوله :

ايقدح في الخيمة العذل	وتشمل من دهرها يشمل ؟!
وتعلو الذي ، زحل تحته	محال لعمر ك ما تسأل .
تضيق بشخصك ارجاؤها	ويركض في الواحد الجحفل .
وتقصر ما كنت في جوفها	ويركز فيها القنا الذبل .
رات لون نورك في لونها	كلون الغزالة لا يفسل .
وان لها شرفا باذخا	وان الخيام بها تخجل .
فلا تنكرن لها صرعة	فمن فرح النفس ما يقتل .
ولو بلغ الناس ما بلغت	خاناتهم حولك الارجل .
ولما أمرت بتطينيها	اشيع بانك لا ترحل .
فما اعتمد الله تقويضها	ولكن أشار بما تفعل .

وزدت على ذلك ، الخبر المشهور وهو أن رسول الله ركب ناقته
القصواء في عام الحديبية متوجها الى مكة فلم تنبث تحته فزجرها مرارا ،
وزجرها أصحابه فلم تنبث . فقالوا . خلأت القصواء . فقال النبي :
ما خلأت وانما حبسها حابس الفيل ، وجري من توقفه عن مكة وصلحه
قريشا ما هو مشهور .

فصل

قصار رماحك اطول من ظلالها ، وطول رماح اعدائك اقصر من
زجاجها ونصالها ، وكم من رمح قصر فأطلته بخطاك ، وكم من بلد بعد

(١) خلأت الناقة : حرنت . قالوا : يقال : خلأت الناقة ، والح اجل ، وحرنت الفرس .

فقربه بسراك . وقطرك في الندى والردى سيول وبجار ، وعزمك في
الخصوم والمدى نصول وشفار ، وأناملك راجحة ولكن خلقت سيوفك
من عجل ، فكما نهيتها عن ولوغ الدماء قالت : سبق السيف العذل .
وقد ينسب الجاهل حكمك أحياناً الى تدير او خداع ، ولا يعلم ان الليث
لا يأكل الجيفة ولا يفترس الضباع .

هذا محلول قوله :

طوال قنا تطاعنها قصار	وقطرك في ندى ووغى بجار .
وفيك اذا جنى الجاني اناة	تظن كرامة وهي احتقار .
وقول السموع :	
اذا قصرت اسيافنا كان وصلها	خطانا الى اعدائنا فتطول .

فصل :

الآراء الصائبة والشجاعة الثابتة تستعبد الصوارم وتستخدم الخادم .
فالتدبير أمير والشجاعة جنده ، والرأي حسام والصرامة (١) غمده ، ولو
لم يلحظ هذا المعنى ويعتبر لكانت السباع أفضل من البشر ، وطالما
نكست الاعلام بالاقلام ، وملكت الاصقاع بالرقاع ، ونفذت المكاييد قبل
نفوذ الحدائد ، فاذا اجتمع لنفس سعيدة هذان الامران نالت أقصى
الامكان ، وبلغت من العلية كل مكان .

هذا محلول قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجمان	هو أول وهي المحل الثاني .
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة	بلغت من العلية كل مكان .

(١) في (الاساس) : رجل صارم ماضٍ في الأمور ، وقد صرم صرامة . وفي (تهذيب
الالفاظ) : العريضة قطع الامر والمزية .

ولربما طعن الفقى اقرانه بالرأى قبل تطاعن الاقران .
لولا العقول لكان ادنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان .

* * *

وما الحسن في وجه الفقى شرفاله اذا لم يكن في فعله والخلائق .
شرف الفقى بافعاله ، لا بحسنه وجماله . كالسيف يقطع بجوهره ، لا
بحسن منظره . لو كان الفخر بما بدا في الصورة وظهر ، لا بما بطن
من المعنى واستتر ، لكانت صورة النارق أشرف من الحيوان الناطق .

* * *

فصل

حسام لولا ترقرق الماء في جوانبه لتلمست النار الموقدة من مضاربه .
فقد أضر به حب الجماجم والاعناق ، حتى عاد نضوا كالهلال ، وودت
سباع الطير والوحش انها تقديه بالمخالب والانياب اذا فدي غيره بالانفس
والاموال ، فاحسن ما خضب به الدم الممار ، لا المسجد والنضار .
والحسنة حسنة وهي في الاسمال والاطار ، واذا كان الحلي لاتمام النقص
يعمل فقشف الافضل انبل ، وعطل الاكمل أجمل .
هذا محلول قوله :

أحسن ما يخضب الحديد به وخاضيه النجيع والغضب .

* * *

فصل

فلو كشف لك عن قلوبنا لرأيت الشوق قد فعل فيها ببرحائه فعل قنا
الامير في صدور أعدائه . فانه جعلهم هللكي ، يطعنون مخلوجة وسلكي
فالفضاء الرحب لديهم اخرج من التابوت ، ونسج داود عليهم أو هن من
بيت العنكبوت .

هذا محلول قوله :

نودعهم والبين فينا كأنه قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق .
قواض مواض ، نسج داود عندها اذا وقعت فيه كنسج الخدرنق (١)
وفيه أيضاً حل قول امرئ القيس :

نطعنهم سلكى ومخلة حة كرك لأمين على نابل (٢)

* * *

فصل في وصف منهرزم

اجفل اجفال النعام ، واقشع اقشاع الغمام . يتوهم كل حفيف يسمعه
رشق نابل ، ويرى الارض في عينيه كفة حابل . وقد كان آلى الا
ينكص له قدم ، ولا يعقب يمين الجنان حث ولا ندم . واذا تزلزلات الاقدام
لم تزد اليمين في الاقدام . والحرب تحسن الهزائم ، وتغير العزائم ، وتجعل
أهون شيء ما تقول اللوائم .

هذا محلول قوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في اقدمك القسم ؟!
وقوله :

والعيان الجلي يحدث للظن زوالا والمراد انتقالا .
وقول بعض شعراء الحماسة :

ملاأت عليه الارض حتى كأنها من الضيق في عينيه كفة حابل
وقول القائل :

(١) الخدرنق : المنكبوت

(٢) السلكى بضم السين الطعنة للمستقيمة ، (المخلوطة) للموجة عن يمين وشمال . (كرك
لأمين) أي ردك لأمين وهما السهان على من يرمي . يقال اذا القيتها لم يقما
مستويين ، وربما استوى احدهما وتموج الآخر . ويقال : سهم لأم اذا كان
عليه ريشه .

إذا هبت النكباء بيني وبينكم فأهون شيء ما تقول العواذل .

* * *

فصل في الصفح عن الجرائم

سيف الاحسان والاجمال اقتل من سيف القتل والاستئصال . وطالما غلّ يداً مطلقها ، واسترق رقبة معتقها ، الا أن اللئيم يفسده الاحسان ، ويصلحه الهوان .

هذا محلول قوله :

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ؟ .
إذا أنت اكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا .

* * *

فصل

إذا كان الهوى من القلب في الشغاف والصميم ، واللوم يحوم حول ذلك الحمى والحريم ، وكلما شاهد الحر فر ، وكلما عاين النار استطار — لا جرم أنه يستحيل جوهره هباء ، ويذهب زبده جفاء ، ويثبت في محله ذلك الهوى ، ويلقي عصاه وتستقر به النوى .

هذا محلول قوله :

عذل العواذل حول قلبي التائه وهوى الاحبة منه في سودائه .
يشكو الملام الى اللوائم حره ويصد حين يلمن عن برحائه .

* * *

لا تعذل المشتاق في اشواقه حتى يكون حشاك من احشائه .
لو ذقت ما يذوق العاشق اتركت عذله وعرفت عذره ، ومن يضع يده في الماء يجد برده ويعرف حره .

تباري نجوم القذف في كل ليلة نجوم له ، ممنه ورد وأدم .
فما زلنا نقطع الادم الواقف بالدم السائرات ، ونباري الشهب النيرات
بالشهب الطائرات . الا أن تلك نجوم القذف والرجوم ، وهذه نجوم
الغارة والهجوم .

* * *

فصل

عزائمك لا تفل ، وآراؤك لا تضل ، ومدائمك لا تميل ، وأحكامك
لا تميل ، وسيفك شريك المنايا في قبض النفوس ، فهذه لاختطاف
الارواح وهذا لاختطاف الرؤس . وكل دم لم تصنه طباك أصبح مطولوا ،
وكل ممت لم تشارك فيه عد خيانة وغلولا .
هذا محلول قوله :

شريك المنايا والنفوس غنيمة فكل ممت لم يمته غلول .

* * *

وقد حل ابن الاثير أبياتا كثيرة من شعر المتنبي اوردها في (رسائله)
و (وشيه المرقوم) و (مثله السائر) وهذا نموذج منها :
إذا اختلفت العينان في النظر فالعذل ضرب من الهذر (أو) لا
تعذل المحب فيما يهواه حتى تطوي القلب على ما طواه
هذا حل قوله :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه .

* * *

القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون ، غير أن ذلك لا مجرد
من غمده ، ولا يقاد صاحبه بعمده (أو) دمع المحب ودم القليل متفقان
في التشبيه والتمثيل ولا تجد بينها بونا ، الا انها يختلفان لونا .

هذا حل قوله :

ان القتييل مضرجا بدموعه مثل القتييل مضرجا بدمائه .

لما التقى الجمعان اصطفت يمين وشمال ، وزحفت جبال الى جبال ،
وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفي بالآجال . وقدمت الخيل
اقدام فرسانها ، واظلم النقع فلا تبصر الا بأذانها .
هذا حل قوله :

في جحفل ستر العيون غباره فكانما يبصرن بالآذان .

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جث القتلى عليها تمام .
سرى الى حصن كذا مستعيدا منه سبية نزعها العدو اختلاسا ،
وأخذها مخادعة لا افتراسا . فما نازلها حتى استقادها . ولا نزلها حتى
استعادها ، وكأنا كان بها جنون فبعث لها من عزائم عزائم ، وعلق
عليها من رهوس القتلى تمام .

وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به فمن شاء أن ينثر شعرا فليثر
هكذا وإلا فليترك . . . ! وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر وذاك اني
أضفت الى هذا البيت ، البيت الذي قبله وهو :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم .

ولما نثرت هذين البيتين قلت :

بناها والأسنة في بنائها متخاصمة ، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين
متلاطمة . وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد ،
وأصيبت بمثل الجنون فعلمت عليها تمام من رهوس والاجساد ، ولا شك ان
الحرب تعرد (١) عن عز جانبه ، وتقول : ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه !

(١) تمرب .

وقد تصرفت في هذا الموضوع بزيادة في معناه ونثرته على اسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت :

بناها ودون ذاك البناء شوكة الاسل ، وطوفان المنايا الذي لا يقال
سأوي منه الى جبل . ولم يكن بناؤها الا بعد أن هدمت رموس عن
أعناق ، وكأنا أصيبت بجنون فعلمت القتلى عليها مكان التمام او شينت
بعطل فعلمت مكان الاطواق .

قول صوبهز في المتنبي

في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي : « قال في العبر : ليس
في العالم أشعر من المتنبي أبداً ، وأما مثله فقليل . »
ولقد جاء أحمد بن الحسين بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك
الوزن في سجن . ولولا هذان لجودت الايام أيما تجويد تسطير ما أملي
فلم يقل :

ولم تحسن الايام تكتب ما أملي

رب ما لا يعبر (الشعر) عنه والذي يضم الفؤاد اعتقاده .
والقافية في أكثر الأحيين هي القائلة لا القائل ، والوزن هو الوازن
لا شعور الشاعر ، فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية ،
انه بما وجد ، ليس هو مما قصد .
ولولا أن عبقرية منتخبة قوية عند أبي الطيب قد انكرت الجري
على أساليب القوم

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متمم !!
فاحتطت له تلك الخطاة — لاقام دهره من تباع (أبي تمام)
بأخذ بأخذه فلا يجاريه ، ويكدروجه في أن يصوغ فلا يساويه ،

وحبيب في صوغه وغوصه لا يلحق ، وقلماً ضارع مقلد عظيماً مقلداً .
ولم يستطع المتنبي - على تبريزه وارتقائه - أن يزحزح (حبيباً)
عن مكانته ، وما قدر الا أن يقعد في عرش الشعر معه ، وليس بقليل
أن يفتطع من ملك حبيب ورعيته ما اقتطع .

وقد قالوا : أبو تمام عند الخاصة أشعر ، والمتنبي أشعر عند العامة ،
وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون ، ولئن كان لأبي تمام عشر قصائد علا
بهن علواً كبيراً إن للمتني قدامها مئة (١) قصيدة .

وكان شيوخ ابن خلدون يرون - كما قال - أن نظم المتنبي والمعري
ليس هو من الشعر في شيء - الله أكبر ! - لأنها لم يجريا على
أساليب العرب .

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله) ليس بشيء الا شيئاً لا يعبا به .
وتنكب المتنبي عما تنكب عنه ، وسلوكه السبيل الذي سلكه ،
ما ضاراه بل ظاهراه في ابداعه ونبوغه ، فرأت العربية أكبر شاعر ،
وظهر في العرب شاعرهم .

فدع كل صوت غير صوتي فاتي أنا الطائر المحكي والآخر الصدي

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

(١) قال ابن قتيبة في (أدب الكتاب) في باب ما زيد في الكتاب : « ومائة زادوا فيها ألفاً
ليفصلوا بينها وبين منه ألا ترى انك تقول : أخذت مائة وأخذت منه . فلو لم تكن الألف
لانتبس على الفارسي . فلت ، زيدت الألف في مئة أيام لا اعجاب وواجب في هذا
الزمان حذفها حتى لا يضل الفارسي . اللانظ وكم أضكت هذه الألف ففتح الميم لانظ
المئة ومد .

الشعر

للسيد محمد الأمين الحسيني

ما جاء في زعم الشعر

قال : الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون
وانهم يقولون ما لا يفعلون) وقال تعالى في حق النبي ﷺ وما هو بشاعر
فيقال لو كان الشعر صفة مدح لما نفاه عنه وقال ﷺ : لأن يمتليء قلب
الرجل قبحاً خيراً من أن يمتليء شعراً . وكتب جعفر بن الحسن بن سعيد
الهدلي الحلبي المعروف بالحقن فقيه الإمامية المتوفى سنة ٦٧٦ هـ الى والده
بهذه الأبيات :

ألم تر أنني كل يوم إلى العلاء أقدم رجلاً لا تزل بها النعل
وغير بعيد أن تراني مقدماً على الناس حتى قيل ليس له مثل
تطاوعني بكر المعاني وعونها وتنقاد لي حتى كأني لها بمل
ويشهد لي بالفضل كل مبرز ولا فاضل الاولي فوقه فضل

قال فكتب اليّ فوق هذه الأبيات : لئن أحسنت في شعرك لقد
أسأت في حق نفسك أما علمت أن الشعر صناعة من خلع العفة ولبس
الحرفة والشاعر ملعون وان أصاب ، ومنقوص ولو أتى بالثبيء العجائب ، وكأني
بك قد دهمك الشعر بفضيلته فجعلت تنفق منه ما تنفق بين جماعة لا يرون
لك فضلاً غيره فسموك به وكان ذلك وصمة عليك آخر الدهر أما تسمع :
ولست أرضى أن يقال شاعر تباً لها من عدد الفضائل
قال فوقف عند ذلك خاطري حتى كأني لم أفرع له باباً ولم أرفع
له حجاباً .

ما جاء في مدح الشعر

قال : رسول الله ﷺ ان من الشعر لحكمة وقال ﷺ ان من البيان لسحراً لما أعجبه كلام عمرو بن الاثم . وعنه ﷺ روّوا أولادكم لامية الشنفرى ولا ترووهم مقاطعة آل غسان كما يأتي . وقد استنشد رسول الله ﷺ الشعر واستحسنه ومدح قائله وأجاز عليه وعفا بسببه عمن يستحق العقاب وقبل وسيلة من توسل به وشفع من استشفع به ، والصحابة كان فيهم الشعراء ومن يستنشد الشعر ويجز عليه ، والنبي ﷺ كان له منهم شعراء يهجون المشركين عبدة الاوثان وشعراء هم ويحييونهم ويحامون عن النبي ﷺ منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وغيرهم . وكذلك التابعون وتابعو التابعين والعلماء في كل عصر وجيل . وكفى ذلك دليلاً على فضيلة الشعر ومدحه .

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده : روه الشعر روه الشعر يمجدوا وينجدوا . وقال الزبير بن بكار : رووا أولادكم الشعر فانه يحل عقدة اللسان ويشجع قلب الجبان ويطلق يد البخيل ويحض على الخلق الجميل . ومما قيل في مدح الشعر من الشعر قول القائل :

ومستخف بقدر الشعر قلت له لا ينفق العطر الا عند عطار
وقول الآخر :

وفي الناس من لا يحسب الشعر رتبة وما الناس لولا الشعر إلا بهائم

وقال أبو اسحق ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ :

ان يكرهوا نظم القريض فعذرهم باد كاشية الرداء المعلم

هم محرمون عن المناقب والاعلا والشعر طيب لا يحل لمحرم

وقال أيضاً :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة باب الدواعي والبواعث معلق

محا (١٠)

لم يبق في الدنيا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشتري ويخان فيه مع الكساد ويسرق
وقال الامير أبو فراس الحرث بن سعيد الحمداني من أبيات

الشعر ديوان العرب أبدأ وعنوان الأدب

أما ما جاء في ذم الشعر مما مر فمحمول على اتخاذه للهو واللعب والغناء
به كما كانت تستعمله الملوك والامراء وعلى استعماله فيما لا يرضي الله تعالى
من مدح من يستحق الذم وذم من يستحق المدح والكذب فيه وتلب أعراض
الناس بالهجاء أو الاشتغال به عما أوجبه الله تعالى أو غير ذلك وامتلاء
القلب منه المشار اليه في الحديث الشريف يشير الى الاكثار منه والاشتغال
به عن كل شيء ، والشعراء الذين ذمهم الله تعالى في الآية السابقة قد بين
صفتهم فالدمومون هم أصحاب تلك الصفة . وأما آية «وما هو بشاعر» فهي رد
على قريش الذين قالوا عنه ^{مؤلف} انه شاعر ولا دخل لها بزم الشعر ولا بمدحه
ان لم تدل على عظم قدر الشعر عند العرب . وأما قول بعض العلماء
المتقدم ان الشعر صناعة من خلع العفة وليس الحرفة وجعله ملعوناً ومنقوصاً
فالمراد به اتخاذ الشعر حرفة يستجدي بها الناس ويمدح به من لا يستحق
المدح أو يمدح الشخص بما ليس فيه ويهجي به الناس وتلب أعراضهم
وتقذف به المحصنات ويتعاطى فيه الفحش ونحو ذلك ولهذا جعله صناعة
من خلع العفة ووصمة يعاب بها الرجل طول عمره . وهذا العالم خاف على ابنه
أن يتعاطى صناعة الشعر ويشتهر به ويشغله ذلك عما كان يتوسمه فيه من
الارتقاء في درجات العلوم وكل هذا ليس ذماً للشعر من حيث أنه شعر
بل ذم لما يعرض بسبب تعاطيه واتخاذه صنعة كما كان يقع من الشعراء
الذين يتخذونه للمدح والهجاء من الانشغال به عن الكليات والاتسام به على
النحو المذكور .

مزينة الشعر

ان للشعر من بين أنواع الكلام مزايا ليست لغيره قال أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي في كتابه العقد الفريد : الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لايمها والشاهد على حكامها حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القبطاطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة، فمنه يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير ويقال لها :
« الملقات »

لامرئ القيس (قفا نيك) ، زهير (أمن أم أوفى) ، لطفة (نخولة أطلال) ، لعنرة (يا دار عبلة) ، عمرو بن كلثوم (الاهي) ، للبيد (عفت الديار) ، للحارث بن حلزة (آذنتنا بينها أسماء) .

ومن كلف العرب بالشعر وسمو منزلته عندها انها كانت اذا أرادت انشاد قصيدة المهمل لا تنشدها حتى تغتسل اعظاماً لها واعجاباً بها .
فمن مزايا الشعر التي ليست لغيره من أنواع الكلام انه لكونه مقفى وعلى أوزان خاصة يسهل حفظه ويروق انشاده فيطرب النفوس ويكون أشد تأثيراً فيها وكانت العرب تحذوا بها ابها في سيرها فترى انه يؤثر فيها ويحملها على الاسراع .

(ومنها) انه يوجب بحفظه وانشاده تهذيب الاخلاق والحث على محاسن الافعال بما فيه من حكم وآداب وحماسة ونحو ذلك وقد يحمل على ضد ذلك بحسب ما يشتمل عليه ولذلك قال النبي ﷺ فيما روي عنه : رووا اولادكم لامية الشنفرى فانها تعلمهم مكارم الاخلاق ولا ترووهم مقاطعة آل غسان - وذلك لما في لامية الشنفرى من الحث على اباة الضيم

ومفارقة من لا خير فيه والصبر والجلد وتحمل المشاق انيل المآرب الجليلة
والتباعد عن منة الخلق وغير ذلك . وما في مقاطعة آل غسان من الحث على
الانتقام وترك العفو والصفح ، فمن لامية الشنفرى المعروفة بلامية العرب
قوله يحث على اباء الضيم ومفارقة من لا خير فيه وان كان حمياً قريباً
وترك البلاد التي ينال المرء فيها الأذى إلى غيرها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
يقول فيها :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ اجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل عليهم وكان الأفضل المتفضل
ثم يقول في مفارقة من لا خير فيه :

واني كفاني فقد من ليس جازياً بنعمي ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع (١) وأبيض إصليت وصفراء عيطل (٢)
ثم يقول في تجنب ما لا يحمد من الصفات :

ولست بمهياف (٣) يمشي سوامه (٤) مجدعة (٥) سقبانها (٦) وهي بهل (٧)
ولا جيباً (٨) أكمى (٩) مرِب (١٠) لعرسه
ولا خرق (١١) هينق (١٢) كان فؤاده
يطلعها في أمره كيف يفعل
يظل به المسكاه (١٣) يعلو ويسفل

- (١) شجاع جريء .
(٢) عيطل طويلة وهي القوس .
(٣) المهياف السريم العطش .
(٤) سوامه الغداء .
(٥) سقبانها ثلثا يرضعها ولدها .
(٦) اولادها .
(٧) جبان .
(٨) جبان ضعيف .
(٩) ملزم .
(١٠) دهش من الخوف .
(١١) رقيق طويل .
(١٢) طائر .

ولا خالف (١) دارية (٢) متغزل يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولست بمعل (٣) شره دون خيره الف (٤) اذا ما هجته اهتاج أعزل (٥)
ولست بمحيار الظلام إذا انتحت هدى الهوجل (٦) العسيف (٧) بهاء هو جل (٨)

ثم وصف جلده وصبره على المتاعب وإقدامه وقوته فقال :

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قاذح ومفلل
أديم ميطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
ثم وصف إباءه عن تحمل منة الناس ولو كان في أشد الحاجة وقادراً
على الكسب الدنيء فقال :

واستف ترب الأرض كيلا يرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب يعاش به الى لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّل
وأطوي على الخمص (٩) الحوايا (١٠) كما انطوت خيوطه ماري (١١) لغار (١٢) وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ازل (١٣) هاداه التوائف أطحل (١٤)

ثم وصف سيره ليلاً وتبكيه فقال :

وتشرب اساري^{١٥} القضا الكدر (١٦) بعدما سرت قبراً (١٧) أحنأؤها (١٨) تتصلصل (١٩)

(٢) لا يفارق البيوت .

(٤) طاجز .

(٦) الطويل الذي فيه ثمرع وحمق .

(٨) فلاة لا أعلام بها .

(١٠) الأعماء .

(١٢) يحكم قتلها .

(١٣) من الضمير والذئب .

(١٥) جم سؤر وهو بقية الماء .

(١٧) القرب سير الليل لورود الغد .

(١٩) تصوت .

(١) لا خير فيه .

(٣) العل للسن الصغير الجثة .

(٥) لا سلاح معه .

(٧) الآخذ على غير الطريق .

(٩) ضور البطن .

(١١) اسم رجل أو كساء .

(١٣) خفيف الوركين والمراد الذئب يتولد من الضمير والذئب .

(١٤) لونه بين الغبرة والبياض .

(١٦) الكدرة الغبرة .

(١٨) جوانبها .

ثم ذكر انه لا يتغير في حالي عدمه وغناه فقال :
 وأعدم أحياناً وأغنى وإنما ينال الغنى ذو البعدة (١) المتبذ (٢)
 فلا جزع من خلة (٣) متكشف (٤) ولا مرح (٥) تحت الغنى أنجيل (٦)
 ثم وصف صبره على المناعب والشدائد وشظف العيش فقال :
 ويوم من الشعرى (٧) يذوب لعابه (٨) أفاعيه في رمضائه تتململ
 نصبت له وجهي ولا كن (٩) دونه ولاسترا لا الاتحمي (١٠) المرعب (١١)
 وضاف (١٢) اذا هبت له الريح طيرت لبائده عن أعطافه ما ترجل (١٣)
 بعيد بمس الدهن والفلي عهده له عبس (١٤) عاف (١٥) من الغسل محول (١٦)

* * *

ومن مقاطعة آل غسان قوله :
 ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ولا يسوغه المقدر ما رغبنا
 لا تقطعن ذنب الا فعى وتركها ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا
 هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً وأضرموا النار فاجعلهم لها حطبنا

* * *

- | | |
|----------------------------|---|
| (١) اسم للبعد . | (٢) الذي لا يصون نفسه . |
| (٣) حاجة وفقر . | (٤) مظهر حاجته وفقره للناس . |
| (٥) ذو مرح وبطره . | (٦) اتكبر . |
| (٧) نجم يظلم في شدة الحر . | (٨) ما يرى متدياً عن المهاجرة كالحيوط . |
| (٩) لا ستر . | (١٠) نوع من البرود . |
| (١١) المتخرق . | (١٢) شعر كثير طويل . |
| (١٣) ما تسرح . | (١٤) وسخ . |
| (١٥) متروك . | (١٦) اتى عليه حول . |

(ومنها) انه يخلد لصاحبه ذكراً على ممر الدهور والاعوام ولولا الشعر لسكان جماعة كثيرون من المشهورين في عداد المنسيين لا يذكروهم ذاكر ولا يعرفهم أحد وانما عرفوا واشتهروا وخلد ذكروهم على الألسن وفي بطون الدفاتر بما أثر عنهم من الشعر وإلا فمن الذي كان يعرف رعاة العرب ولصوصهم وصعاليكهم وكثيراً من أهل الجاهلية لولا الشعر وجماعة من أهل الفضل لم يعرفوا إلا بشعرهم .

(ومنها) ان الشعر تقيد به الحوادث التاريخية وتحفظ وجملتها منها قد عرفت من الأشعار أكثر مما عرفت من كتب التاريخ .
(ومنها) ان الشعر تعرف منه نفسية الشاعر ويكون أبلغ مترجم عنها وتقيد المؤرخ والمترجم ما لا تفيداه كتب التاريخ .

(ومنها) انه يصير في عنق من قيل فيه كطوق الحمامة مدحاً وذمماً فتناقله الألسن وتحفظه الناس حتى الصبيان والعواتق في خدورها ولذلك كان الملوك والأئمة يتقون ألسنة الشعراء ويحتملون منهم ما لا يحتملون من أحد ويجزلون لهم العطايا والمواهب وفي ذلك يقول ابن الرومي :

لا تقبلن المدح ثم تعقه وتنام والشعراء غير نيام

واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا حكموا لأنفسهم على الحكم

وظلامة العادي عليهم تنقضي وعقابهم يبقى على الأئام

وكان الشعراء في تلك الأعصار أشبه بأهل الجرائد اليوم وكان بنو أمية يكرمون الفرزدق وكثير عزة ويميزونها ويحتملون منها وكلاهما علوي الرأي طمعاً في المدح وخشية من القدح وكذلك بنو العباس كانوا يكرمون السيد الحميري ويميزونه وهو علوي الرأي

(ومنها) تهيبجه النفوس وتأثيره فيها تأثيراً متفاوت بحسب مزيته في الفصاحة والبلاغة ورقة اللفظ وحسن سبكه وانسجامه واشتماله على النكات المستملحة والخصائص البديعة والألفاظ المستعذبة والأمور المهيجة للنفس بحسب المقامات كالرقة في الغزل والتهويل في الحماسة ووصف الحرب وحسن الأسلوب في الاعتذار والشفاعة والحث على الحلم والصفح والتفجع في الرثاء وغير ذلك .

فالشعر بشدة تأثيره في النفوس يرقق القلوب ويعطفها ويحمل على العفو
عن المذنبين . وكم جاد به البخيل وبخن الجواد وشجع الجبان وجبن
الشجاع وأبغض الحبيب وحب البغض واستملح القبيح واستقبح المليح
واطفئت نائرة الغضب وقبلت الشفاعات فيمن استحق أشد العقاب وصفح
عمن استحق القتل وشاهده وقتل من نال العفو وعوقب من لا يستحق
العقاب وفرج عمن هو في ضيق وأثار الفتن بين القبائل ولانت القلوب
القاسية وقست اللينة وتعلم الجاهل واتعظ المتأدي وفرح الحزين وحزن
الفرح وسلي الشجي وشجي الخلي واستغنى الفقير وافتقر الغني ونبه
الخامل وخمل النابه واتضع الرفيع وارتفع الوضع وقهر العدو وسر الولي
وأدرك الثأر وفتحت البلاد الى غير ذلك مما يجده المطلع على أخبار
الماضين من الشعراء والملوك والامراء وغيرهم .

فمن ترقيق الشعر للقلوب ان النبي ﷺ بعد ما قتل النضر بن الحارث
ابن كلدة عقب أسره يوم بدر لشره وشدة أذاه لما سمع أبيات بنته
أو أخته قتيلة التي تقول فيها :

أحمد ولا أنت ضنء نجبية في قومها والفجل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من القتي وهو المغيظ المحنق

رق لها وبكى وقال : لو بلغني شعرها قبل قتله ما قتلته .

(ومن) الشعر الذي صار في عنق من قيل فيه كطوق الحمامة واتضع
به الرفيع أن بني نعيم كانوا جمة من جمرات العرب وكانوا إذا سئل
أحدهم عن الرجل خفم لفظه ومد صوته وقال من بني نعيم ! فلما قال فيهم
جرير من قصيدة يهجو بها الراعي

ففض الطرف انك من نعيم فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

جملوا اذا سئلوا عن نسبهم لا ينتسبون إلى نعيم ويتجاوزونه إلى أبيه

عاصر بن صعصعة . ولما قال هذيل الأشجعي في عبد الملك بن عمير قاضي الكوفة من أبيات :

إذا كلمته ذات دل لحاجة ورام بأن يقضي تنحنح أو سعل
روي واشتهر حتى قال عبد الملك ربما جاءتني السعلة والنحنحة وأنا في المتوضأ فأردهما لما شاع من شعره .

وكان في العرب قبيلة تسمى (بني أنف الناقة) وذلك أن جدهم قريع ابن عوف بن مالك نحر ناقة وقسمها على أولاده ونسي ولده جعفر فأرسلته أمه إليه ولم يبق غير الرأس فأعطاه إياه فأدخل أصابعه في الأنف وجعل يجره فلقب أنف الناقة فكان بنوه إذا سئلوا ممن يقولون من بني قريع فيتجاوزون جعفر أنف الناقة إلى أبيه فرقاً من هذا الاسم إلى أن نقل أحدهم ، وهو بغض بن عامر بن لؤي بن شماس بن جعفر أنف الناقة ، الخطيئة الشاعر من ضيافة الزبرقان بن بدر إلى ضيافته وأحسن إليه فقال الخطيئة :

سيرى أمام فان الأ' كثيرين حصى والأ' كرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا ؟
فصاروا يفخرون بهذا النسب بعد ما كانوا يفرقون منه
ولما بذل عرابة الأوسي وسق بعير تمرأ للشماخ بن ضرار في سنة شديدة قال فيه الشماخ :

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين
صار ذلك مثلاً سائراً وأثراً باقياً .

(ومن) رفع الشعر الوضع أن الأعثى قدم مكة وكان المحلق امرأة أو أم عاقلة فقالت له أن الأعثى قدم وهو رجل مفوه مجدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه ولا هجا أحداً إلا وضعه وأنت رجل فقير خامل

الذكر ذو بنات فلو سبقت الناس اليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له
واحتلت لك فيما تشتري به شراباً لرجوت لك حسن العاقبة فسبق اليه
المخلق فأنزله ونحرت له وخبرت المرأة وأخرجت نحيماً فيه سمن وجاءت
بوطب ابن فلما أكل الأعشى وأصحابه قدم الشراب واشتوى له من كبده
الناقة وأطعمه من أطايبها فسأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه
وذكر البنات فقال الأعشى كفيت أمرهن وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشوق
إلى أن قال :

نفى الدم عن آل المخلوق جفنة بكابية الشيخ العراقي تفهوق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلوق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا بأسحهم داج عوض لا تفرق
تري الجودي مجري ظاهر أفوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس يتسللون إلى المخلوق يهنتونه والاشراف من
كل قبيلة يتسابقون إليه يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى .

(ومن) استملاح القبيح بسبب الشعر ما يحكى أن رجلاً قدم المدينة
بجشم سود فبارت عليه فوعد بعض الشعراء بشيء من المال لينظم له شعراً
في مدح الجمار الأسود فقال :

قل للمليحة في الجمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد
قد كان شمراً للصلاة إزاره حتى قعدت له بيباب المسجد
فتسابقت الناس على شراء تلك الجمر .

ومن تمليح الشعر ما ليس بملح إنه لا أبشع ولا أقدر من حالة اعرابي
وسخ الثياب والبدن قد كثر القمل في ثيابه وانتشر فوق اهابه وتغلغل

في شعره فجلس في الشمس يفلي ثيابه ويقتل منها القمل وقد صبغت
أظافره بدمائها فلما وصف الشاعر العربي حاله وأجاد في وصفها بحسن
أسلوبه كان ذلك من جملة مختارات أبي تمام في ديوان الحماسة ومما يتلى
في المجامع وتلذه القلوب والمسامع وتشرح العلماء الفاظه وتمجب ببلاغته
ويخلد ذكر من قاله وقيل فيه في بطون الكتب، والا فهاذا يتصور المنصور
ان يفعل من يريد وصف اعرابي جلس في الشمس يفلي ثيابه ويقتل
منها القمل وماذا يستطيع أن يأتي به في هذا الموضوع قال أبو تمام في
الحماسة وقال آخر ومر بأبي العلاء العقيلي يفلي ثيابه :

واذا مررت به مررت بقانص متمسك في شرقه مقرر
للقمل حول أبي العلاء مصارع من بين مقتول وبين عقير
وكأنهن لدى زور قميصه فذ وتوأم سمسم مقشور
ضرج الا نامل من دماء قتيلا حنق على أخرى العدو مغير

(ومن) تبغيض الشعر للحبيب وتحبيبه للبغيض أنه صرف رأي النعمان
ابن المنذر عن نديمه وجليسه المقدم عنده حين وفد على النعمان العبسيون
والعامريون بنو أم البنين وكان الربيع بن زياد العبسي ينادم النعمان
فطعن على العامريين لعداوتهم لهم وصرف قلب النعمان عنهم فأوأ منه جفاء
بعد ما كان يكرمهم وكان معهم ليبيد الشاعر المشهور الذي قال فيه
رسول الله ﷺ : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة ليبيد وهي :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وهو غلام يرعى إبلهم ويحفظ أمتعتهم فرآهم يتناجون فسألهم فزجروه
فقال والله لا احفظ لكم متاعاً ولا أسرح لكم بعيراً أو تخبروني وكانت
أمه عبسية فقالوا له خالك خالك غلبنا على الملك فقال اجعوا بيني وبينه غداً
عند الملك فامتحنوه ببقله فذمها أبلغ ذم فقال لهم رئيسهم عامر بن جعفر

ملاعب الأسننة انظروه فإن رأيتوه نائماً فليس أمره بشيء وإن رأيتوه
ساهرأ فهو صاحبكم فرقبوه فوجدوه قد ركب رحلاً يكدم وسطه حتى أصبح
فألبسوه حلة ودخلوا به على النعمان فوجدوه يتغدى ومعه الربيع فأشد
ليد يقول :

يارب هيجاهي خير من دعه إذ لا تزال هامتي مقزعه
نحن بني أم البنين الأربعة ونحن خير عامر بن صعصعه
الضاربون الهام تحت الخيضة والمطعمون الجفنة المددعه
مهلاً أبيت اللعن لاتأ كل معه إن استه من رص مامعه
يدخل فيها كل يوم أصبعه يدخلها حتى يوارى اشجعه
كأنه يطلب شيئاً ضيعه

فقال النعمان الربيع أكذلك أنت؟ فقال كذب ابن الحمق اللئيم فقال
النعمان أف لهذا الطعام لقد خبت علي طعامي وأمر الربيع بالانصراف
إلى أهله فطلب أن يبعث له من يجرده ليعلم أنه ليس كذلك فقال النعمان:
قد قيل ذلك إن حقاً وإن كذباً فما اعتذارك من قول إذا قيلاً

ومن تسبب الشعر العفو عمن استحق العقوبة إن النبي ﷺ عفا
عن كعب بن زهير بن أبي سلمى بعد ما أهدر دمه وجباه وأكرمه لما
أنشده قصيدته المشهورة المعروفة ببانت سعاد .

وعفا رسول الله ﷺ عن أسرى حنين من هوازن بشعر أبي جرول
الجشمي وكان رئيس قومه قال أسرنا النبي ﷺ يوم حنين فوفقت بين
يديه وأنشدته :

أمن علينا رسول في حرم فانك المرء نرجوه ومنتظر
أمن على نسوة قد كنت ترضعها يا أرجح الناس حلاً حين نخبر
أنا لنشكر للنعمى التي كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فقال **عليه السلام** أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم فقات
الانصار وما كان لنا فهو لله ولرسوله .

وعفا المعتصم عن تميم بن جميل من الاوس بن تغلب بشعر قاله حيث
خرج عليه فقدم الى السيف والنطع ليقتل فقال .

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي وأي امرئ مما قضى الله يقات
ومن ذا الذي بدلي بعذر ووجهة وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز علي الاوس بن تغلب موقف يسلم علي السيف فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموت وانتي لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنني أراهم حين أنعى إليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لا أبعث الله داره وآخر جذلان يسر ويشمت

ومن تسبب الشعر العقوبة بعد العفو ان أبيات العبدى التي أنشدها
عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بفسطين وأولها (وقف المقيم في
رسوم ديار) كانت سبياً في قتل من عنده من بني أمية ، وأبيات سديف
بن ميمون التي أنشدها السفاح وأولها :

أصبح الملك ثابت الأساس بالهايل من بني العباس

كانت سبياً في قتل من عنده من بني أمية .

ومن قبول شفاعة المتشفع بسبب الشعر أن امرأة عاذت بقبر غالب
أبي الفرزدق وضربت عليه فسطاطاً وكان الفرزدق لا يعوذ بقبر أبيه عائد
إلا قضى حاجته فسأل الفرزدق عما نزل بها فقالت ان ابناً لي اسمه حبيش
أغزي إلى السند مع تميم بن زيد وهو واحدي فكتب اليه الفرزدق :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يخني عليّ جوابها

وهب لي حبيشاً واتخذ فيه منة لحمة أم ما يسوغ شرابها
 أتتني فعازت يا تميم بغالب وبالحفرة السافي عليها تراها
 فلم يعرف التميم أن اسمه حبيش أو حنيش (لان النقط لم تكن
 معروفة) ولم يعرف ابنها بعينه فعرض جميع من معه من الجند وأطلق
 كل من اسمه حبيش أو حنيش .

وغضب مالك بن طوق على قومه بني تغلب حين أفسدوا الطرق في
 عمله فشفعوا بأبي تمام فقال يخاطبه :

ورأيت قومك - والاساءة منهم - جرحى بظفر الزمان وناب
 فمضت كهولهم ودبر أمرهم أحداثهم تدير غير صواب
 لارقة الحضر اللطيف غدتهم وتباعدوا عن فطنة الأعراب
 فاذا كشفتم وجدت لديهم كرم النفوس وقلة الآداب
 لك في رسول الله أعظم أسوة وأجلها في سنة وكتاب
 أعطى المؤلفنة القلوب رضاه كرماً ورد أخاند الأحراب
 فقبل شفاعته فيهم .

وغضب سيف الدولة بن حمدان على بني كلاب فأغار عليهم فغنم الأموال
 وسبي الحرير فأتي بعضهم أبا الطيب يسأله أن يذكرهم له في شعره ويشفع
 فيهم فقال من قصيدة :

ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب
 فأنهم عبيدك حيث كانوا اذا تدعو لنايبة أجابوا
 وعين الخطئين هم وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا
 وما جهلت أياديك البوادي ولكن ربما خفي الصواب
 وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جرمه العذاب

ومن تسبب الشعر تشجيع الجبان أن أبيات عمرو بن الأظنابة التي
 يقول فيها :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
كانت سبباً في توقف معاوية عن الحرب يوم صفين بعدما وضع رجله
في الركاب ليهرب .

ومن تسبب الشعر انارة الحمية وايقاع الفتن بين القبائل ان قول
البسوس لما ضرب كليب ضرع ناقتها بسهم :

لو انني أصبحت في دار منعة لما ضم زيد وهو جار لا ياتي

ولكنني أصبحت في دار غربة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي

هاجت حرباً بين بكر وتغلب بن وائل دامت أربعين سنة .

ومن تسبب الشعر عقاب من لا يستحق العقاب ان بيتين قالتها امرأة
مدنية كانا سبباً في حلق رأس نصر بن حجاج ونفي الخليفة اياه إلى
البصرة وهما :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أو من سبيل إلى نصر بن حجاج

إلى فتي طيب الأعراف مقبيل سهل المحيا كريم غير ملجج

ومن تسببه الفرج عمن هو في ضيق أن عمر سمع وهو يتجسس في

الليل امرأة تقول :

لقد طال هذا الليل وازور جانبه وليس إلى جنبي خليل الأعبه

فوالله لولا الله تخشى عواقبه لززع من هذا السرير جوانبه

فأرسل اليها فقالت ان زوجها في البعث فأمر برده وأن لا يبقى الرجل

في البعث أكثر من أربعة أشهر .

دمشق : سنة ١٩٤٥

بماذا يكون انشطار المجتمع الإنساني

للأستاذ سيد الكري

أيها السادة الكرام والاعزاء والأبناء البررة !
قيض لي حسن الحظ أن أقف هذا الموقف بينكم مذكراً لا مرشداً
إذ فيكم من رئيس المجمع الفاضل وزملائي الأفاضل من لا أستغني عن
الاقْتِباس من أنوار علمه فأضرع إلى آدابكم ومكارمكم أن تسبلوا ذيل
الصفح عما سترونه من هفوات دعا إليها تشعب مسائل الموضوع الذي
توخيته (وما تشعب تصعب) واستدعاؤه بحثاً أكثر ووقتاً أوسع والله
أسأل وبنبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم أتوسل أن يأخذ بيدنا جميعاً
لانهاض هذا الوطن من كبوته وما ذلك على الله بعزيز إن صدقت النيات
واتحدت القلوب وعرفنا الحق لأهله ووضعنا كل شيء في محله .

ان الله تعالى خلق الخلق محتاجين وفطرم عاجزين ليكون منفرداً
بالغنى مختصاً بالقدرة وجعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن
من الحيوانات ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار
إلى جنسه واستعانتة به صفة قائمة في جوهره قال تعالى (وخلق الانسان
ضعيفاً) يعني عن الصبر عما هو مفتقر إليه واحتمال ما هو عنه عاجز .

ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لاحتياجه إلى أشياء
استغنى عنها غيره وهي الملبس والمسكن اللذان استغنى عنها أكثر الحيوانات
إن لم نقل كلها والمطعم الذي لا يتناوله الانسان إلا بعد اجهاد عدة صناع
فيه أنفسهم ومزاولة عدة صناعات ، قيل الانسان مدني بالطبع أي أنه لا يقوم
باجيائه بنفسه بل يحتاج إلى مدينة أي مجتمع تتوفر فيه حاجياته وقد

جعل الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز مانعين له من طغيان الغنى وبغى القدرة لأن الطغيان مركزوز في طبعه إذا استغنى والبغى مستول عليه إذا قدر قال تعالى (إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى) وقال عنه (إنه كان ظلوماً جهولاً) (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) .

ثم إنه جل وعلا جعل لنيل الانسان حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بما وهبه من نعمة العقل وأرشده إليها بالفطنة وأنعم الله على الناس بما أودعه في الأرض من الخيرات حيث قال خلق لكم ما في الأرض جميعاً فوجب أن يكون سكانها على حالة رضية من الانصاف وحسن العشرة والمودة والمعاونة واسداء المعروف واحتمال الأذى فانهم إن لم يكونوا كذلك ضاع ما أودعوه من تلك الخيرات أو اختص به بعضهم دون الآخر فضاع العدل والانصاف وفقدت الالفة والانتظام وهما زينة المجتمع الانساني .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ثم أودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم المحافظة عليها مثل الغيرة والاباء وحب الاثرة وهي مراكب جماحة إن لم تلجم وتروض فشرع عز وجل الشرائع على لسان رسله الكرام لمحافظة هذا المجتمع من الفساد والاختلال فكانت زبدة ما أمرت به من أساسيات الانتظام المحافظة على خمسة أشياء واصلاحها وهي (١) الدين (٢) النفوس (٣) العقول (٤) الانساب (٥) الأموال فإفساد الدين بالكفر والبدع والائهاواء المضلة . وإفساد النفوس بالقتل أو قطع أو تعطيل بعض الأعضاء أو منافعها . وإفساد العقول بشرب المسكرات أو تضليل الغير على ارتكاب ما يمس دينه أو شرفه . وإفساد الأنساب بالاقدام على الزنا فانه يضيعها ، أو بعقوق الوالدين وقطع الأرحام فانها يضيعان ثمرتها من التناصر والتواد . وإفساد الأموال بالغضب

والسرقة والرشوة وكذا أخذها بالغش وأصناف الخيل وكل وجه غير مشروع . ويدخل في ذلك اغتصاب المنفعة كأشكال السخرة وعدم تأدية الاجير أجره فان المنفعة متقومة .

ومن قارن بين قول التوراة (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء مما تحت الأرض ولا تسجد لمن ولا تعبدن لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد شهادة زور لا كشته بيت قريبك الخ) . وبين قوله تعالى في القرآن (قل تعالوا أتدل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن وأوفوا الكيل والميزان بالقسط وإذا نلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

علم أن أساس الأديان في تنظيم الهيئة الاجتماعية واحد بدليل قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فكما علم أن للهيئة الاجتماعية حقوقاً ونظاماً ينبغي أن يعلم أن لكل فرد منها كذلك حقوقاً ونظاماً ولنبيين ذلك إجمالاً لأن تفصيله يحتاج إلى مجلدات إذ هو زبدة الشرائع والمقصود بالذات منها اما إصلاح المجتمع وانتظامه بأسره فلدى الاستقراء وجد في ستة أشياء (١) دين متبع (٢) سلطان قاهر

(٣) عدل شامل (٤) أمن عام (٥) خصب دائم (٦) أمل فسيح أولها الدين الحقيقي لأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويمطف القلوب عن إرادتها حتى يصير زاجراً للضمار رقيباً على النفوس . وهذه الصفات لا يتوصل إليها بغير الدين ولا تعيش أمة عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل ولا يمكن أن تبني الفضائل على غير قواعد الدين فالدين هو مقلد الشرور وأقوى روابط الاجتماع التي قيل أنها الدين واللغة والوطن والنسب وأنا أزيد عليها المشاكلة في الطباع فلا يصحب الانسان إلا شبيهه وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد لكن تلك الروابط لا تنتظم بدونه وهو أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدي الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينفادون لحكمه حتى لا تختلف بهم الآراء وتتصرف بهم الأهواء ومن هنا قيل وهو الصحيح ان الحسن ما حسنته الشرائع والتقيح ما قبخته خلافاً لمن حكّم العقل في التحسين والتقيح .

نعم ان العقول قد تفضي بأشياء حسنة غير انها لا تهتدي لمعرفة الحسن حقيقة بدون شريعة الا مصادفة والغالب أن ما يأتي به من عندها لا يجمع عليه نظراً لتفاوت العقول واعجاب كل امرئ برأيه فقد روى التاريخ أن شون أحد ملوك الصين الذي كان في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وضع لأئمه خمس قواعد تتضمن الواجبات المتعمية على كل من الآباء والأبناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه ولم يبين لنا التاريخ تفصيل ذلك وكيفما كان الحال فلا بد أن يكون في بعضها مخالفة للشرائع فان من المعمول به عندهم الآن أنه إذا مات أحد الزوجين ألحق به الآخر حرقاً حتى لا يفترقا . ثم وجد في تلك الأئمة كونفوشيوس الحكيم سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد فجعل النواميس الأساسية ثلاثة وقال انها التي تقوم عليها الصلات بين الحاكم والرعية

والأب والابن والرجل والمرأة وقال ان الفضائل الاصلية خمس وهي محبة الانسان لابناء جنسه بدون تمييز بينهم والعدل أي إعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لأحد على آخر والمحافظة على العادات التي رسخت والاديان التي أمرنا بها حتى لا تكون للأمة إلا حالة معاشية واحدة يستوي الناس في التمتع بحسناتها ويتشاطرون سيئاتها ونكدها والاستقامة وفسرها بطلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع والصدق وفسره بالاستقامة في السلوك والخطاب اه .

فانت ترى أن حكمه بأن تكون للأمة حالة معاشية واحدة مع خروجه عن دائرة الامكان مخالف لكل الشرائع فان اختلاف المعيشة أمر لا بد منه بمقتضى نظام الكون إذ هو من أدل الدلائل على قدرة الخالق الحكيم وقد ورد في القرآن (نحن قسمنا بينهم معيشتهم وفضل بعضكم على بعض في الرزق) ولم تزل تعاليم هذا الحكيم إلى الآن حية بين قومه وعليها مدار نظمات الصين لا بد لكل طالب علم عندهم أن يستظهرها لينال في الامتحان الشهادة التي تخوله حق الدخول في الوظائف فياحبذوا لو تقتدي بهم الآن في جعل الاخلاق علماً وعملاً من شروط نيل الوظائف . ثم انظروا حفظكم الله الى شرائع مانو الهندي الذي يعتقد فيه الهنود انه الأب العام للبشر وهي منظومة في ٥٣٧٠ بيتاً من الشعر تنقسم إلى ١٧ باباً تحتوي على عدة أشياء منها المباديء التي يجب أن يجري عليها الفرد والأسرة والمدينة وواجبات الأئمة وأهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري ونلخص ذلك كله بقاعدتين احدهما تقضي على الأمة بخضوع طبقاتها بعضها لبعض وثانيتهما تقضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية ، وجعل الأمة أربع طبقات الكهان والعسكر والفلاحون مع التجار والمحترفون مع الأسرى والمغلوبين وجعل السيادة للطبقات الثلاث

الاولى فيحظر عليها مصاهرة الطبقة الرابعة ثم وجد في القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى سا كيموني ويلقب بيوزا فنقض هذا الاساس وجاهر بأن الناس أمام الشرائع الأدبية متساوون وأن الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية وأن كل امرئ من أي طبقة كانت يحصل بتقواه وفضله على النجاة وأن للانسان مكملات ستأ وهي العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهمارة وحب الناس والصبر والبر . اهـ . فانظروا كيف خالف هذا من قبله لتفاوت عقل الرجلين أما الشرع فلكونه وضعاً إلهياً يكون نظامه مطرداً مقبولاً والدليل أيضاً على ما قدمناه ما كان عليه الفلاسفة الأقدمون الذين زعموا أن الرياضة توصل إلى درجة النبوة وأن النبوة مكتسبة من الأخلاق السافلة التي ينفر منها الطبع السليم فان منهم طائفة تسمى السكيبية رئيسها انتشيونس ثم تلميذة ديوجانس كانت ترى حب أقاربها وإخواتها وبغض غيرهم من سائر الناس وترى التغوط في الطرقات بلا ستار فلقبهم الناس بالسكيبين لأن خلقهم خلق الكلاب . ومن آراء ديوجانس انه إذا احتاج الانسان إلى شيء وأخذ فلا تثريب عليه وكان يرى أن الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح الأشياء أمام الناس .

هذه الامم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي لم تستند إلى شرع سماوي ولو أردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدنية من طريق الدين نضاق بنا المجال ويكفي أن منهم الدهريين الذين لم تهدم عقولهم الى معرفة الصانع ووجوده فجحدوه والطبيعيين الذين بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فحصل من هذا أن العقل وحده غير كاف في الوصول الى معرفة الحسن والقبيح بل لا بد له من دين يعدل

سيره أما كيفية تعليم الدين الصحيح الذي لباسه الأخلاق الفاضلة فهي عقدة العقد وبها صلح ما صلح ، وفسد ما فسد إذ هي الأساس لما نحن بصدده فإن كثيراً ممن تصدى لذلك أفسد أكثر مما أصلح وذلك لسببين أولهما أنه ادخل في الدين ما ليس منه مما لا يثبت على محك الانتقاد من خرافات لا يقبلها العقل ولا يؤيدها صحيح النقل فكانت في دماغ مبتدعها ذرة صغيرة ولما انتقلت الى فضاء أرض المتعلم الساذج باضت وفرخت وهكذا يزداد نتاجها كلما زرعت في محل فيه قابلية لنمو الترهات ثم انه موه على العامة بتخضع كاذب وورع مصنوع حتى اعتقدت حججته قوله وهيات من أوتي سحر هاروت وماروت أن يزيل ما علق بأذهانهم من خزعبلاته وهنا يجب أن نبين بقليل من الايضاح فساد حال من هذه حاله ، ان من ظن الزهد التمتع عن أكل المشتمى اللذيذ الحلال فقد تنطع لأن الله تعالى خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) والطيبات هي الحلال . وأصرح من ذلك قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) فمن فعل ذلك معتقداً أنه من الدين فقد ضل وأضل وبعضهم يلبس لباساً ذرياً نقشفاً ويتخضع في مشيته لصنعاً مع أن النبي ﷺ كان يمشي كمن ينحط من صلب (أي علو) ورأت عائشة رجلاً متصفاً بهذه الصفة فقالت ما هذا استهجاناً لحالته فقيل لها هذا زاهد فقالت سبحان الله أهو أزهده من عمر وكان إذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع .

والسبب الثاني عدم تمكنه في العلم فيتصدي للتعليم الذي يحتاجه هو ويتزيا بزى من تزويق لباسه وإتقان هندامه ظناً منه ان العلم عبارة عن ذلك ولم يعلم أن العلم الناقص شر من الجهل التام لأنه يدعو صاحبه

إلى أن يفتي بغير علم حذراً من أن يقال عنه أنه جاهل وربما حابي
الأمراء أو الأغنياء فافتاهم بما يشتهون مما لا يعرفه الدين إذ لم يكن عالماً
حقاً حتى يردعه علمه عن زخرف القول ومنكره وهناك سبب آخر وهو
عدم العمل بمقتضيات الدين فالعمل في المعلم من موجبات تأثير العلم في
المتعلم وقد قيل الواعظ من يمظ بفعله لا بقوله فمضى انتفت هذه الأسباب حصلت
ثمره التعليم وهي الأخلاق الفاضلة وتتأصل في النفس فتكون زاجراً قوياً
لها عن ارتكاب ما لا يليق وهذا الزاجر هو المراد بقول من قال :

لا ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

وإنما كان التلقين بهذه المثابة من الأهمية لأنه الأكسير الذي
تنقلب به الأعيان وتتحول به الأحوال لأن الأفعال دائماً آثار الأفكار
والأفكار دائماً آثار الكلام فالكلام الواصل إلى النفوس إن كان خيراً
كانت الأفكار خيراً فكانت الأفعال خيراً وبالعكس ، فالكلام هو الأصل
في الأشياء ومبدؤها وهو الذي يأخذ القلوب يميناً وشمالاً . وإني لأعجب
ممن قال أن الأخلاق لا تتغير والواقع يدل على خلافه لأننا نشاهد
الحيوان الوحشي يخرج عن طبيعه بالتهذيب فهذا البازي يصير طوع الإنسان
بأمره فيؤتمر وينهاه فينتهي وهكذا الفرس الجوح أو الحرون تتبدل
صفاتهما بالمعالجة ولولا أن ذلك حاصل لما أرسل الله الرسل بالشرائع فيها
الأمر بالحسن والنهي عن القبيح وترتيب الثواب والعقاب على الأخلاق
حسناً وقبيحاً .

ويا حبذا لو اعتنى أولوا الأمر بمنع دجالي هذه الصنعة أشد من
اهتمامهم بمنع الطارقة من دجالي الطب فالضرر هنا أشد لأن طبيب الأجسام
الجاهل ربما ساعده المصادفة على شفاء من يطيبه أما طبيب العقول
فلا شبهة في أنه يودي بحياة مريضه الأدبية ويوصله إلى شقاء دائم
في الآخرة .

والثاني من الستة التي بها صلاح المجتمع الانساني سلطان أو ذو سلطة قاهر تتألف من خوفه الأهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبية وتمتنع من خوفه النفوس العادية لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما أحبوه والقهر لمن عاندوه ما لا ينفكون عنه إلا بما نفع قوي وراذع ذي سطوة وهو الذي يحمي الدين والعلم ويدعو بسطوته إلى اتباعها ولذلك قيل ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وقال تعالى (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله) فهو القائم على صون الأخلاق أن تفسد والمحافظة على صلاحها .

والثالث من الستة عدل شامل يدعو إلى الالفة ويبعث على الطاعة وتمو به الأموال ويكثر به النسل ويمع به الأمن المالك والمملوك فقد قال الهرمزان لعمر بن الخطاب لما رآه نائماً في المسجد بلا غطاء ولا وطاء فضلاً عن الحرس والحجاب : عدلت فأمنت فمنت . وأمهاث العدل ثلاث عدل الرئيس مع من في حوزته ويكون بعدم إعانتهم وترك التسلط عليهم بالقوة وعدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع حاكمها والمرؤوس مع رئيسه وهو يكون باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء وعدل الانسان مع أ كفائه ويكون بترك الاستطالة عنهم ومجانبة الادلال وكف الأذى فهذه الأمور إن لم تكن في الأ كفاء تقاطعوا تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا والعدل لازم للانسان أيضاً في نفسه بأن يحافظ على صحته بعدم تعاطي ما يضعفها ويمعمل صالحاً حتى لا يكون معذباً في الآخرة ومن حملها شيئاً من الجرائم فقد ظلمها إذ سبب لها العذاب في الآخرة وفي عائته بأن يقوم لها بما كلفته به الشرائع من سد حاجاتها وأن يسوي بين أفرادها في المعاملة ، ألا ترون قول النبي ﷺ (إن الله يأمركم أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل) بل العدل لازم في كل أسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة والامارة الذي منه الرفق

بالحيوان الأعجم ولو أردنا بيان كيفية العدل فيها لما اتسع له الوقت وأجمع شيء في تعريف العدل هو أن ينصف الناس من نفسه فلا يفعل معهم إلا ما يجب أن يفعلوا معه ومن العدل أيضاً معرفة الحق لأهله فان دعوى كل انسان ما ليس فيه يفسد نظام المجتمع أعظم فساد ومن تعاطى صنعة لا يتقنها أو تقلد وظيفة لا يحسن القيام بها أو لم يعرف لذي الفضل فضله ولم يحله في المنزلة التي يستحقها وأخذ في انتقاصه أو ادعى انه أحق بشيء من صاحبه كان جاهلاً أو حاسداً أو غاشياً وكلها من دواعي الفساد . وفي الحديث (اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قيل وكيف اضاعها قال بتوسيد الأمر إلى غير أهله . وسأل رجل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لم انتقضت الأمانة عليك ولم تنتقض على أبي بكر وعمر فقال له لا كنت أنا من رعيتهم انتظم الأمر ولما صرت أنت وأمثالك من رعيتي صار الأمر إلى ما تقول أي ان علياً ومن كان معه زمن إمارة الخليفين كانوا يعرفون حق العمرين أما رعية علي فكان فيهم من لم يعترف له بالحق فلهذا انتقض أمر الأئمة ووقع ذلك البلاء العظيم ويتعلق بالعدل أيضاً أمور خاصة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتها التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوزه فهو خروج عن العدل وذلك كما في الفضائل فانها هيئات بين خلتين ناقصتين وأفعال الخير توسط بين رذيلتين كالشجاعة فانها بين التهور والجبن والحلم فانه بين إفراط الغضب وعدمه كما أوضح ذلك علماء تربية النفس بما ليس هذا موضعه .

والرابع من الستة أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء ويأنس به الضعيف .

والخامس خصب تسع به النفوس ويشترك فيه الغني والفقير فيقل فيهم الحسد وينتفي عنهم التباغض وتكثر المراساة والتواصل لأن الخصب يؤول

إلى الغنى والغنى يورث الأمانة والسخاء ان اقترن بعلم يهذب صاحبه ويعرف به مضار المال الذي لم يكتسب من حله ولم يؤد منه حق الله هكذا عد هذين الاثنين أعني الأمن والخصب بانفرادهما من أسباب صلاح المجتمع من تكلم في نظام المجتمع وأنا أرى أنها ثمرة العدل ونتيجته فلا لزوم لعدهما سببين .

والسادس أمل فسيح يدعو الانسان إلى اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه فلو لا أن الأخير ينتفع بما أنشأه الأول حتى يستغني به لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وغيرها من أراضي الحرث وأشجار الثمر وذلك لا تتسع له أعمارهم فلذلك من الله على خلقه باتساع الآمال فعمرت به الدنيا وعم صلاحها وصارت تنتقل بعمارها إلى قرن بعد قرن فيتمم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها ويرمى الثالث ما أحدثه الثاني من شعها لتكون أحوالها مدى الأعصار ملتئمة وأمورها منتظمة ولو كانت الآمال قصيرة ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى الضروري لوقته ولكانت تنتقل إلى من بعده بأسوء حال حتى لا ينمو فيها نبت ولا يمكن فيها لبث فعلى الناس جميعاً أن يتساندوا في نفع بعضهم بعضاً والسمي في استجلاب الخيرات ودفع المضرات كل على مقدار طاقته فالخلق عيال الله وأحب خلقه اليه أنفعهم لعباده وخير الناس أنفعهم للناس وقد ظن بعض من ران على قلبه الجهل أن الانزواء عن الخلق أسلم لدينه مع كونه قادراً على الاختلاط بهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وحسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزيل ومن كان كذلك فهو كمثل على الهيئة الاجتماعية وعضو أشل فيها أظن هذا وأمثاله ان عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلاة فقط كلابد العمل الصالح أعم من ذلك يبتديء بالمأطاة الأذى عن الطريق وسقي الماء

ولو على الماء ونظارة البساتين ورعي المواشي ويترقى إلى فك الأسير وإغاثة الملهوف والاعانة بالنفس والمال وكل عمل تعدى نفعه فهو أفضل من عمل المرء لنفسه ودليل هذا ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذكر عند النبي ﷺ رجل فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجاً فكننا إذا نزلنا منزلاً لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى نزل فقال ﷺ فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال كلكم خير منه .

والخلاصة ان كل من عرف شيئاً فيه نفع للهيئة الاجتماعية مادياً أو أدياً وجب عليه استعماله في ذلك بنصح وإخلاص ومن لم يفعل فقد خان النوع الانساني بل الدنيا بأسرها لأنه انتفع بالمأكل والملبس والمسكن ولم يؤد عن ذلك عوضاً .

على أن التوغل في العبادة وترك التعرض للتجارب يورثان البله كما قال الجاحظ فقد كان عامر بن عبدالله بن الزبير من المتوغلين فيها فأتاه يوماً عطاؤه وهو في المسجد فقام إلى منزله ونسيه فلما صار إلى منزله وذكره بعث رسولاً ليأتيه به فقال له وأبن نجد ذلك المال بعد أن تركته فقال سبحان الله أو يأخذ أحدا ما ليس له . وسرقت مرة نعله فلم يتخذ نعلاً حتى مات وقال أكره أن أتخذ نعلاً ففعل رجلاً يسرقها فيأثم وقال الجاحظ ان الخلفاء والائمة أفضل من الرعية وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم لأنهم أقوم بالحقوق وأرد على الناس وعلمهم بهذا أفضل من عبادة العباد لان نفع هؤلاء لا يعدو قمع رؤوسهم ونفع اولئك يخص ويم والعبادة لا تورث البله إلا لمن أكثر الوحدة وترك معاملة الناس ومجالسة أهل المعرفة فمن هناك صاروا بلهياً حتى صار لا يجيء من أعبدكم حاكم ولا إمام .

وأما ما يصلح به حال الانسان وحده فثلاثة أشياء (١) نفس مطيعة

تأتمر بالرشد وتنتهي عن الغي" (٢) والفة جامعة تمنعظ عليها القلوب
ويندفع بها المكروه وكفاهيه من العيش تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم
اوده بها . فأما الأولى وهي النفس المطيعة فانها إذا أطاعته ملكها واذا
عصته ملكته فأهلكته لانها كما قال تعالى (أمارة بالسوء) ولسنا الآن
بصدد بيان وصول النفس إلى تلك الرتبة العلية فانه علم تكلفت ببيانه
الشرائع وأفرد بالتأليف .

وأما الثانية وهي الالفة الجامعة فلأن الانسان مقصود بالأذية محسود
بالنعمة فاذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطفه أيدي الحاسدين وتحكمت فيه أهواء
الأعداء وإذا كان مألوفاً انتصر بالالفة على أعاديه وامتنع من حاسديه
ولذلك قيل المرء كثير بأخيه وقال قيس بن عاصم :

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيّد

عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

ولهذا قيل ان الله مع الجماعة أو يد الله أو قدرته مع الجماعة ومن
كان الله معه فلا يعجزه شيء ألم تروا أن جماعة تضامنت بالمعاونة فقاومت
الجبال الشم بهممها وجعلت البحر برأ مع بعد غوره وطوت السنين في أيام
معدودة وأفهمت من في المشرق كلام من في المغرب فكلم في الجماعة من
نفق ففتح وجدول أسيل وسدّ نصب وطريق حديد مدّ وخط برقي سحب
كل ذلك بفضل الجماعة التي دربها العلم فعلمها الجد في خدمة المجتمع
الانساني ولو كان علم الشرقيين ناماً لما تركوا غيرهم يسبقهم إلى تلك
الخدمة الجليلة التي غزرت منافعها الأدبية والمادية والانسف كل الانسف
على هذه الحال فان مثلنا كرجل خزائنه مملوءة بالثقود ولا ينتفع بها
ويرى غيره يفتحها ويصرف منها وهو ساكن ساكت وإذا كانت الالفة
تجمع الشمم وتمنع الذل اقتضى الحال ذكر أسبابها وهي خمسة (١) الدين
(٢) النسب أي القرابة (٣) المصاهرة (٤) المودة (٥) البر . أما الدين
وهو الأول من أسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع

والتدابير . واما النسب ثانياً فلا تباطأ من الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقياً من تسلطهم عليهم وللنسب درجات متفاوت الحمية فيها فدرجة الابوة اشد عطفاً من درجة البنوة والعصبات اعظم انفة وخيرة من ذوي الارحام والتوسع في بيان ذلك يخرجنا عن الايجاز المطلوب . واما المصاهرة ثالثاً فلانها مواصلة صدرت عن رغبة واختيار وانعقدت على خير واثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المناصرة . واما المؤاخاة بالمودة رابعاً فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصاً ومصافة فيحدث بذلك وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين اصحابه ليزيد الفهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم وهنا كان يجب ان تنبه على شروط الاخاء وحقوقه لو كان في الوقت متسع . واما البر خامساً فلانه يوصل الى القلوب محبة ويشفيها انعطافاً فكم من عدو صار بالاحسان اليه صديقاً ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون عليه وقرنه بتقواه فقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) لان في التقوى رضاء الله تعالى وفي البر رضاء الناس ومن جمع بينهما فقد تمت سعادته وعمت نعمته . ثم ان البر نوعان جود ومعروف فالجود بذل المال في الجهات المحموده لغير غرض مطلوب والباعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها وابطؤها وخذ السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة . واما قول من قال الجود بذل الموجود فجهد بمحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف وجود ولا للتبذير موضع وقد ورد الكتاب بزمها واذا كان السخاء محدوداً كما ذكرنا فمن وقف على حده سمي كريماً ومن قصر عنه كان بخيلاً .

واما المعروف فنوعان ايضاً قول وعمل اما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول قال عمر بن الخطاب يخاطب احد بنيته : بني ان البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . ويجب ايضاً ان يكون محدوداً كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقاً مذموماً وان توسط

فيه كان معروفاً وبراً محموداً واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمال بالمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس واثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد .

واما الكفاية وهي في آخر القواعد فلأن حاجة الانسان لا يعرى منها بشر واذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر عليه شيء منها لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تمذر عليه منها لان كل قائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله . ثم لما كانت مادة الكفاية مطلوبة لاحتياج الكل اليها فقدت من غير طلب وهدمت من غير سبب واسباب المحبة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف في تحصيلها وتشعب جهاتها توسعة لاطلابها حتى لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يأثفون ويشتركوها في جهة واحدة فلا يكتفون . ثم هدام اليها بعقولهم وامياهم حتى لا يتكفوا الائتلاف في المعاش المختلفة فيعجزوا . ثم ان الله تعالى جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين : بمادة وكسب . اما المادة فهي حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهي شيطان : نبت نام وحيوان متناسل واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدي الى الحاجة وذلك من وجهين تقلب في تجارة وتصرف في صناعة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة فمن خرج عنها كان كلاً على اربابها .

اما الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والاستمداد فيها اعم نفعاً ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة) وقال ﷺ : (التمسوا الرزق في خبايا الارض) وقال كسري للموبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان . واختلف الناس في تفضيل الزرع او الشجر بما

لا يتسع الوقت لذكره . والثاني من اسباب الكفاية نتاج الحيوان وهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظمن والرحلة فاقتنوا ما يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوقة برعيه وهو الحيوان ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلته مؤنته وتسهيل الكلفة به وجدواه عليهم اكثر بنسله ورسله الهاماً من الله تعالى خلقة في تعديل المصالح فيهم وارشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم . واما التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج وهي نوعان تطلب في الحضرم من غير نقلة ولا سفر والثاني تطلب بالمال في الاسفار والاول قناعة واختصار والثاني اعم جدوى غير انه اعظم خطراً واما الصناعة فقد تتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم الى ثلاثة اقسام : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين الفكر والعمل . اما صناعة الفكر فتتقسم الى قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وهي الامارة والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وهذه هي الوظائف التي يقوم بها اولوا العلم كالتقضاة والاطباء وغيرهم . واما صناعة العمل فتتقسم قسمين ايضاً عمل صناعي وعمل بهيمي والعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاناة في تعلمه وتصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية . والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة كذوي صنعة الحماله واستخراج الحجارة . واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فتتقسم قسمين ايضاً احدهما ما تكون صناعة الفكر فيه اغلب والعمل تبعاً كالكتابة . والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعاً كالبناء فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في ارتياد مواردكم ووكلمهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين همهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لالفتهم فسبحان من تفرد بلطيف حكمته واظهر فطنتنا بعزائم قدرته هذا واني وان اطلت فقد بقي من مميزات هذا البحث شيء كثير ربما اعود اليه اذا عادت لي النوبة في هذا الموقف والسلام عليكم .
دمشق : تموز سنة ١٩٢١ .

إعراس الخليفة المأمون

« بيوران بنت الحسن سنة ٢١٠ هـ »

للدستاز قطاكي الحمصي

أيها السادة :

نستأذنكم في بيان لا بد منه . نجعله تمهيداً للوصول الى ليلة العرس وهو ينطوي على التعريف بالعريس ، وقد لا يوجد بيننا من يجهد صاحب هذا الاسم العظيم ، الا ان في تعريفنا فائدةً وفسكاهةً غير خارجتين عن موضوع محاضرتنا .

وفي علمكم ان الدخول على العظاء من السلاطين والامراء ، لم يكن مباحاً الا بعد الاستئذان ، وانتظار الايام الطوال . لصدور الاوامر الملوكية ، ثم لا يتم ذلك الا بعد المرور في الساباطات والاقباء . ودخول القصور والتقدم في متعدد الأفنية والرداء والأبهاء ، الى ان يُبشّر بالوصول الى بهو السُدّة ، ومعاينة صاحب السرير ، ونحن سنسير على هذا النحو ، فننتقل من تعريف الى تعريف ، حتى نصل الى وصف ذلك العرس الشريف .

اما المدة او المسافة التي بيننا وبين ليلة العرس فهي الف سنة ومئة واحدى وثلاثون سنة وهي مسافة شاسعة لا يمكن قطعها في ليلة واحدة ، بل لا بد لنا من تجاوز هذه المدة ايضاً الى ما قبلها بمئتين واربع عشرة سنة ، فتكون جملة المسافة التي نجتازها للوصول

الى بدء تاريخنا ، الفأ وثلاثمائة واحدى وستين سنة .
ولا يهولنكم قطع هذه المسافة الشاسعة ، فاننا في عصر الكهرباء ،
وسنجاري الكهرباء بسرعتها ، فنقطع كل سنة بثانيتين .
للأمم وملوكها ودولها تواريخ مجهولة ، وتواريخ معلومة ، اما المجهولة
فهي المدد التي عاشت فيها تلك الامة دون دول وملوك ، وكانت في حالة الممجية
واما تواريخها المعلومة ، فالقديمة منها ما وصلت اليها أخبارها وشاهدنا بعض
آثارها ، كالدول المصرية القديمة . واليهودية . والكلدان . والآشوريين
والحيثيين . وفارس . واليونان . والرومان . وكثير غيرها ، وكلها قد باد
ملكها وزالت دولها ، وتشعبت شعوبها او انقرضت وضاعت لغات اكثرها
حتى لم يبق على وجه الارض فرد ينطق بها أو يقرأ كتاباتها او يحل
رموزها ، ولا يُستثنى من مئات تلك الامم ، الامة واحدة ، هي الامة
العربية ، أمتكم .

« الامة العربية »

هذه الامة أقدم الامم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة وأشدهم
قوة . وآثاراً في الارض ، واول أجيال العرب من الخليقة ، وكان لهم
ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم الى الشام ومصر وقيل ان
فراعنة مصر منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما
زاحمهم فيها بنو حام ، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وحصون وقصور
وابنية مرتفعة ، وكانت مواطنهم بين اليمن وعمان الى حضر موت
والشحر ، وقوم منهم العماليق اختلطوا يثرب ، ومن العرب بنو عمود
وكانت ديارهم بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ،
وهؤلاء كلهم يسمون العرب العاربة او العرب البائدة لطموس اخبارهم
وُبدت تواريخهم وهم الطبقة الاولى من هذه الامة .
عما (١٢)

اما الطبقة الثانية منها وتسمى العرب المستعربة ، فأشهر ملوكها يعرب
ابن قحطان واشهر شعوبها حمير وكهلان .

واما الطبقة الثالثة فتسمى العرب التابعة للعرب وهم من البادية اهل
الخيام لم يزالوا من أعظم أمم العالم واكثر أجيال الخليفة ، ينتهي اليهم
العز والغلبة بالكثرة ، فيظفرون بالملك ، ويفلبون على الاقاليم والامصار
ثم يهلكهم الترفه والتنعم فيُغلبون . وهذا كله ملخص عن ابن خلدون
وهو من ثقات المؤرخين .

ولقب العرب بعد الاسلام من كان قبلهم على أمتهم بالجاهلية ، اختصوا
بذلك عبدة الاصنام والمشركين ، اذ انهم كانوا يعلمون ان قبائل خيبر
يهود عرب مثلهم ، وعرب الشام نصارى وكان لهم قبل ذلك ملك الحجاز
وكلاهما اهل كتاب .

ولكن هذا اللقب لا يصدق ايضاً على عبدة الاصنام والمشركين من
العرب اللهم الا من قبل تمسكهم بعبادتهم بعد الاسلام ، او جهلهم
الكتب المنزلة ، قال في كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسية
ما تعريبه : ان هذا النعت لا يطابق الحقيقة ، اذ للبدو معرفة واسعة
بالانساب وكل ما يتعلق بالتاريخ ، وكانوا يعرفون مراقبة سير النجوم ،
بل فوق ذلك كله كانوا يقرضون الشعر المنتحل اللطيف ، وهو ما لا
يتفق مع الخشونة التي ألصقوها بهم ، ثم انه وان كان الكلام عن عامة
العرب ، فيجب أن لا يفوتنا ان العرب كانوا قسمين ، قسماً ظاعناً ،
وقسماً مقبياً ، فالقميمون منهم كانت لهم مدن في الامصار العربية ، وهؤلاء
أدرکوا شوطاً بعيداً من المعارف . انتهى كلام الموسوعات .

وان أمة بنت سد مأرب ، وقصر غمدان ، وضربت السكة ، ونقشت
عليها صور ملوكها ، واخترعت الحروف الحميرية ، وكتبت وحفرت
كتاباتها على الحجر وغيره ، وهي بين أيدينا بعد عشرين قرناً ، تقول ان

أمة كهذه قد اتقنت ولا ريب فن الهندسة وما يتعلق بها ، ورصدت النجوم ، وقرضت محاسن الأشعار ، وبرعت في غير ذلك من العلوم والصناعات ، لا تنكر عليها المدنية كما انكرها عليهم بعض علماء المشرقيات في الغرب ، ومنهم العلامة (پرو Preux) ، الا انه لم ينكر مدنية الشرق الاسلامي كما تغالى بعض متعصي الفرنجة ، فأنكر الهندسة العربية ، والعربية الاسلامية وآثارها ماثلة للعيان في الاندلس وغيرها ، ولكن لا عبرة بقول من يجحد المنظورات والله در القائل :

ويظار الجهل بي وأعرفه والدر در برغم من جهله

هذه أيها السادة مقدمة إجمالية ، في اولى الامة العربية ، ولما كانت جميع الدول العربية السابقة الاسلام ، كالعيون بالنسبة الى الاوقيانوس ، او كالبروق في ظلمات الليالي ، بجانب الشمس المنيرة يجمل بنا ان ننظر في اولى الدول العربية ومنشئها :

خذ ما نظرت ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يفنيك عن زحل

« دولة الخلفاء الراشدين »

اول عظيم قام في العرب ، هو ولا ريب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الى عبد مناف فما فوقه . ثم خلفه بمعد وفاته ابو بكر الصديق ، ثم خلفه عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم علي ابن ابي طالب وهذه هي الدولة العربية الاولى في التاريخ الاسلامي ، بدؤها منذ اعلان محمد نبوته ، وذلك لستائة وعشرين سنة مسيحية اي بعد مولده الشريف باننتين واربعين او احدى واربعين سنة الى وفاة الامام علي مقتولاً وذلك سنة ٦٦٧ فتكون مدتها نحو سبع واربعين سنة . فتحت بها هذه الدولة البدوية ، اليمن والعراق والشام (اي سورية) بفلسطينها ، وممالك فارس وارمينية ومصر وطرابلس الغرب وبلاد اذربيجان وافريقية والاندلس وقبرس والافغان .

« بدء الدولة العربية الثانية دولة بني أمية »

في السنة الاربعين من الهجرة وهي السنة السابعة والستون بعد
الستمائة للمسيح ، بويج بالخلافة في بيت المقدس اول من أسس دولة بني
أمية وجعل سرير الخلافة في دمشق .

ومعاوية هو السلطان العظيم داهية رجال العرب معاوية بن ابي سفيان
صخر بن حرب بن أمية الذي ينسب اليه الأمويون ، ملك ثمانني عشرة
سنة ، وكان في الحلم غاية لا تدرك ، ومما يؤثر من كلامه قوله : اني
لأرفع نفسي من ان يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكبر من
حلمي ، وعورة لا أوارىها بستري ، وإساءة أكثر من احساني ،
وأغلظ له القول رجل ، فقيل له : أتحم عن هذا ؟ فقال اني لا احول
بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

وهو اول خليفة في الاسلام ، بايع ولده واكره الناس على مبايعته
واول من استعمل الحجاب على بابه من ملوك العرب ، واول من اتخذ
منهم ديوان الخاتم وحزم الكتب اي ختمها .

ومن ملح التاريخ ان عامله على مصر عمرو بن العاص أول ما قدم
عليه في جماعة من اكابر مصر قال لهم عمرو قبل دخولهم على معاوية :
لا تسلموا عليه بالخلافة — اي لا تقولوا له السلام على أمير المؤمنين —
ذلك أهيب لكم في قلبه وصغروا ما استطعتم وبلغ ذلك معاوية فأوصى حجابيه
ان يتنعوهم اشد ما يكون قبل دخولهم عليه ، أي أن يسترهبوهم ويستترزوا
الرعب والخوف على قلوبهم فينتعمون ، اي يستولي عليهم الي والحصر
فيترددون في كلامهم ، فقال اولهم عند دخولهم السلام عليك يا رسول الله
وتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمرو لعنكم الله نهيتكم
ان تسلموا عليه بالإمارة فسلمتم عليه بالنبوة .

وخلفه بعده ابنه يزيد ملك ثلاث سنين وتسعة اشهر واياماً . ثم ملك بعده
ابنه معاوية الثاني أقام أربعين يوماً ومات . وتولى الخلافة بعده مروان
ابن الحكم بن أمية وأقام عشرة اشهر وتوفي . ثم خلفه في الملك بعده

ابنه عبد الملك ، وكان من اعظم بني أمية بطشاً ، واوفرهم دهاءً ، واكثرهم حروباً ، واشدهم شجاعة وحزماً ، واغزرهم علماً وعقلاً ، وهو اول من ضرب الدنانير والدرهم في الدول العربية بعد الاسلام ، واول من نقل الديوان ، اي حسابات الدولة من الفارسية الى العربية ، واول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وخمسة اشهر ودفن بدمشق .

ثم خلفه ابنه الوليد ، وكانت مدة ملكه تسع سنين واربعة اشهر وایاماً . ثم خلفه اخوه سليمان وملك سنتين وسبعة اشهر . ثم خلفه ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان ، ظل سنتين واربعة اشهر ، ودفن بدير سمعان ، وبه وبعمر ابن الخطاب جرى المثل بعدل العمرين . ثم خلفه يزيد بن عبد الملك وأقام اربع سنين . ثم خلفه اخوه هشام وأقام تسعة عشرة سنة وایاماً ودفن بالرصافة . ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك أقام سنة وشهرين ونيفاً وقتل بدمشق . ثم تولى يزيد بن الوليد أقام خمسة اشهر وایاماً . ثم خلفه ابراهيم بن الوليد أقام سبعين يوماً وخلع نفسه . خلفه مروان الثاني أقام خمس سنين الا عشرين يوماً وكان شجاعاً حازماً ، الا ان ايامه كانت ايام فتن وحروب ، قتل بآخرها في كنيسة من بوصير بصعيد مصر ، وكان هارباً من وجه العباسيين ، وهو آخر خلفاء هذه الدولة ، وعدتهم اربعة عشر خليفة . بنوا المدن ، ومدنوا القبائل وغزوا وفتحوا ، وعمروا بلاداً عديدة ، ومدوا ملكهم الى الهند بآسيا ، والى صقلية اي سيسيليا باوربا ، والى اقاصي المعمور من افريقية في مدة تسعين سنة فقط .

« الدولة الثالثة وهي دولة العباسيين »

بدأت بابي العباس الملقب بالسفاح لكثرة من قتل في اول دولته وسميت بالعباسية نسبة الى جد هذا البيت ، العباس من بني هاشم ، وبنو هاشم

وبنو أمية ينتمون جميعاً الى عبد مناف ، وكلهم من قبائل قريش ، ويدعي الهاشميون الرئاسة وتعترف لهم بها قريش كلها الا ان بني أمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم ، والعزة بالاكثر ، ولهم قبيل الاسلام شرف معروف فوصل معاوية الى الخلافة بذلك ، وأسس قواعد الدولة الأموية ، فكان بين العباسيين وبين الأمويين منذ تبوأ معاوية الخلافة ، ما يكون بين بيوت الملك في الدول ، من التحاسد والتضامن ، وكان العباسيون لا يفترقون هم وقومهم من بني هاشم ، عن نصب المكائد ، وتسمير الفتن وإيقار الصدور ، والطمع على اعمال الأمويين وعمالهم ، والادعاء عليهم باغتصاب الخلافة من بيتهم . وكان الأمويون يشددون على بني العباس وشيقتهم ، بين سجن وتعذيب وقتل كلما رايهم منهم مريب ، وكان بين البيتين من الوشاة والحساد والمفسدين ، ما يكون مثله في قصور الملوك ودور الامراء ، سنة في الخلق وخليفة من طبائع العمران .

ولم تعدم دولة الأمويين خلفاء يعدون من أعظم ملوك الارض دهاءً وتديراً وحزماً وعدلاً ، كعبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وهشام وعمر بن عبد العزيز ، كما انها لم تخل من خلفاء أبطروهم الملك فأفسدوا وأساؤا كالوليد بن يزيد ، وكانت اتسعت فتوح الدولة الأموية وامتدَّت ملكها امتداداً لا يصونه ، الا العدل والقوة والتدبير ودهاء السياسة . وكان دعاة بني العباس منذ زمن طويل قد انتشروا في الحجاز والعراق وبلاد فارس ، يثنون الدعوة للعباسيين ، ويفسدون على الأمويين اعمالهم ، ويطعنون فيهم وفي عمالهم حتى انحرفت عنهم اكثر قلوب الامة .

ولما استوثق السفاح من شيعته ، جاهر بدعوة الخلافة لنفسه ، فبايعه الناس بالكوفة وغيرها في السنة الثانية والثلاثين بعد المئة للهجرة ، وهي تقع في الحسنيين بعد السبعين للمسيح ، وظلت خلاقهم في بغداد خمسمائة واربعاً وعشرين سنة ، تولاهما سبعة وثلاثون منهم ، ثم انتقلت الى مصر وتولاهما فيها ثلاثة عشر خليفة منهم ، خلافة لم يكن لهم منها غير الاسم .

أقام السفاح اربع سنوات وأشهرأ وتوفي سنة ١٣٦ ثم خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، كان مهيباً شجاعاً يقظاً مدبراً عالماً فصيحاً ، داهيةً ظالماً بخيلاً ، بنى مدينة بغداد ومهد اطراف ملكه الشاسع وترك عند موته خزينة الملك مملوءة من أموال الخراج والمظالم ما يكفي خلفه عشر سنين ، بعد أن أقام في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وتوفي للثامنة والخمسين بعد المئة . ثم خلفه ابنه المهدي ملك تسع سنين وعشرة اشهر ، وكان حليماً كثير العفو عن المذنبين ، باهر الجمال ، توفي مسموماً على اصح الروايات للتاسعة والستين بعد المئة .

ثم خلفه ابنه موسى الهادي ملك سنة وثلاثة اشهر ، وكان جواداً فصيحاً عالماً مهيباً ، مات مسموماً في السبعين بعد المئة .

اما هرون الرشيد فهو ابعد ملوك الارض صيتاً ، وأعظمهم همةً ، وأكثرهم غزواً ، وأوفرهم حباً للأدب والشعر ، وأشدهم كرمًا ، كان داهيةً باحوال السياسة ، شديد البطش ، عالماً ناصراً للفنون ، شاعراً محباً للممران والحضارة ، زين بغداد بالقصور المتعددة ، والمباني الفخمة ، والمصانع النافعة ، والمدارس والمساجد ، وبنى مدينتي الرقة والحارونية ، ولم تزل أطلال قصره وبعض جدرانها قائمة الى اليوم في الرقة . وقد شاهدها وعدت عنها حزيناً .

ولم يسبقه احد من ملوك الارض بفرط تكريم العلماء والشعراء ولم يحاكيه احد بوفور الانعام عليهم ، وكان موقفاً محظوظاً .

فقد ازدان ملكه بوزرائه بني برمك الذين كانوا من محاسن الدنيا عقلاً وحكمة ، وادباً وجوداً ، ثم نكبهم نكبة تناقلتها القرون ، لاستبدالهم بالملك والملك عقيم .

الا ان بعض مؤرخي الفرنج - متأخرهم ينقل عن متقدمهم ما يروونه

عن العرب دون تمحيص - لم ينصفوا الرشيد فأكثرهم يصفه انه كان
أثراً ظالماً عتياً ، يستشهدون بإيقاعه بالبرامكة وبما حكاه القصاص من العرب
عن نكبتهم ، وما تكهنوه لها من الاسباب التي تخالف كل قياس منطقي ،
وذلك نقلاً عن السنة العامة بعد وقوعها بزمن طويل . اذ اننا لم نجد
مؤرخاً ثقةً نقل حقيقة السبب الذي حدا الرشيد الى ذلك القصاص
الشديد بعد علو القدر وجلالة المنزلة التي كانت ليجي البرمكي واولاده
عنده ، وأحسن ما قرأته عن ذلك وأحسبه أقرب الى الحقيقة من كل ما
روى ، ما ورد عن سعيد بن سالم وقد سئل عن جناية البرامكة فقال ما
تحصيله : ان الرشيد رأى كثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه ،
والموكل تتنافس بأقل من هذا ، الى ان قال ووقع منهم بعض الادلال خاصة
جعفر والفضل دون يحيى : فانه كان أحكم خبرةً وأكثر ممارسةً للامور
ولاذ بالرشيد ، من اعدائهم كالفضل بن الربيع فستروا المحاسن وأظهروا
القبايح .

هذا ما ظهر لهذا الرجل ، وما يدرينا ما ثبت عليهم عند الرشيد من
الذنوب والجنايات ، كما صدر امره او نهى باسم الخليفة دون مشورته ،
او استخفاف بأوامره ونواهيته ، ولعل هذا كل السبب في ذلك كما يفهم
من اطلاق جعفر ليحيى بن الحسين وكان خارجاً على الخلافة ، ولما سأله
عند الرشيد أقسم له برأسه انه لم يزل محبوباً ، وكما يفهم من الايات
التي رفعت الى الخليفة وهي :

قل لأمين الله في ارضه	وَمَنْ اِيَّه الحُلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا	مثلك ما بينك كما حد
امرك مردوداً الى امره	وامره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى	فرس لها مثلاً ولا الهند
ونحن نخشى انه وارث	ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه	الا اذا ما بطير العبد

ونحن نرى في هذه الحكاية ووراء هذا اللفظ يداً بل أيدياً عباسية
 وصدوراً مُملتت حقداً على جعفر وغيره منه ، ونفساً هاشمياً ، والناقد
 البصير يرى في صلب جعفر وحبس ابيه وأخيه وسائر قرابتهم ، ما يؤكد
 ان ذلك القصاص الشديد كان قماً لفتنة كامنة ، وقطعاً لالسنة طاعنة ،
 وردعاً لكل استخفاف بسلطان الخلافة ، وقد حُظر على الناس التحدث
 بذلك يومئذ كما يفهم من قول الشاعر الرقاشي في رثاء البرامكة :

فلم ار قبل قتلك يا ابن محبي حساماً فله السيف الحسام
 اما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
 لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للباس بالحجر استلام

ووقع أمثال هذه الحادثة بعدها في كثير من دول الغرب ، ورأى
 غير واحد من مؤرخيهم عدالة ذلك القصاص في شرع السياسة . على ان
 أدق من نظر من المؤرخين في هذه الحادثة نظراً سياسياً مطابقاً لعادات
 ذلك العصر وشؤونه ، ودحض هذر القصاص ، هو الفيلسوف ابن خلدون
 وبهذا كفاية للرد على أقوال بعض المؤرخين من الفرنجة وغيرهم .

ولنعمد الى تنمة الكلام على هارون الرشيد فقد تحلى بلاطه بَعْظَاء
 الرجال من كل فن ، فمن أطبائه آل بختيشوع ، ومن شعرائه ، ابو نواس
 وابو العتاهية . ومسلم ابن الوليد . والعباس بن الاحنف وأضرابهم ، ومن
 القُصَّاص الخليل بن احمد واضع العروض . والاصمعي ، ومن الندماء
 ابراهيم الموصلية . وزلزلة . وابن جامع . وابن الزف وأضرابهم ، وقضاته
 ابو يوسف يعقوب الانصاري وابنه يوسف ، وابو البحتري وهب القرشي
 وأمثالهم ، ومن العلماء سيبويه . وابن يونس ، ومن الأئمة ابو حنيفة .
 والشافعي . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنتين وعشرين سنة وسبعة
 اشهر شمسية وتوفي للسنة الثالثة والتسعين بعد المئة للهجرة في
 طوس ودفن بها . وأجمع المؤرخون على ان الرشيد ترك في بيت المال

تسعمائة الف الف دينار ، والدينار يساوي مثقالاً ذهباً او نحو ليرة فرنسوية
ولعل الاصل تسعون الف الف اي تسعين مليوناً .

وقال ابن خلدون وهو ثقة : رأيت في بعض تواريخ الرشيد ان
المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل
سنة انتهى قوله . والقنطار فيما ذهب اليه المحققون اربعة آلاف دينار ،
فتكون جملة ذلك ثلاثين مليوناً من الدينار ، وهو مبلغ لا يستكره من وقف
على سلطان الدولة العباسية . وقد كانت الدولتان العربيتان قبلها مهدتا لها
الملك الشاسع ، فاستباحتا لها ملك فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين
في العالم لذلك العهد ، والترک بالمشرق حتى الصين ، والفرنجية والبربر
بالمغرب ، والقووط (الكوت) بالاندلس ، وخطت جنود العرب من
الحجاز الى السوس الاقصى ، ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولت
على الاقاليم السبعة . وكانت لعهد الرشيد تحمل المكوس والضرائب والجزية
والخراج الى بيت المال من الهند والصين ومصر وفارس وسورية وغيرها .

ثم خلفه ابنه محمد الامين اقام في الملك اربع سنين وخمسة اشهر او
تزيد ، وكان شجاعاً اديباً شاعراً ، محباً للهو ناقص التدبير ، فاخذ الملك
وسعى الوشاة بينه وبين اخيه المأمون ، ففسد ما بينها ، وكثرت الفتن وقامت
الحرب بينها ، وقتل في آخرها الامين وذلك سنة ١٩٨ .

ثم قام في الملك بعده بطل محاضرتنا امير المؤمنين ابو العباس عبد الله
المأمون السابع من بني العباس . واذ وصل بنا الحديث الى خلافة المأمون
فيجدد بنا ان نلقي نظرة إجمالية على بسيط ملكه الممتد الاطراف ، البعيد
الاكناف ، ثم على دخل خزينته ، ليكون السامع على ثقة بما زويه
عن نفقات ذلك العرس ، وهو بما لم يرو له شبهه في تاريخ أمة من الامم
ثم نلمح بغداد مقر الخلافة العباسية لمحة سريعة لنعلم كيف كانت لعهد
ذلك العرس ، ثم نلم بشيء من صفات المأمون واخلاقه وعلومه وغزواته ،
ثم نتعرف بحمي الخليفة وهو الحسن بن سهل ، ثم ببوران ابنته عرس المأمون

« المملكة العباسية »

كانت المملكة العباسية لعهد المأمون ممتدة في آسيا من بغداد وسائر العراق الى الحجاز واليمن وفلسطين والشام (أي سورية) وارمينية ومملكة فارس (إيران) وأفغانستان وقسم من الهند والصين ، ثم مصر في افرريقية وأكثر المعمور منها أيضاً ، قال ابن خلدون : وجد بخط أحمد بن محمد ابن عبد الحميد عمل (أي حساب) بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (أي دفتر) وعدد الغلات بلداً بلداً ومملكة مملكة ، فبلغت ثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعة عشر الف دينار ومائتي مليون وسبعة وستين مليوناً وثمانمائة وخمسة وعشرين الفاً وثمانية دراهم . اهـ . فاذا حسب الدرهم عشر الدينار حسب رواية ابن خلدون وغيره ، كان مجموع الدخل في تلك السنة ثلاثين مليوناً من الدنانير ، ما خلا ألوفاً من سبائك الفضة ، وألوفاً من الحيوان كالخيل والبغال والبرازين والبقر والغنم ، والرقيق والثياب والاكسية الحريرية والزيت والعسل والعود الهندي والفرش والبسط والتمر وعطر الورد والسكر وغيره ، وذلك كما كان لعهد أبيه هرون الرشيد حسبما بيناه بل ربما زاد عنه ، وهذه الأموال كانت تحمل إلى بيت المال من العمال والولاة في تلك الأقطار ، وكان الخليفة يولي عليها كبار الرجال والقواد من أهل بيته ، أو ممن لهم سابقة خدمة في الدولة من أهل الكفاية والتدبير ، وهؤلاء يولون من هم دونهم من ذويهم وصنائعهم على جباية الخراج ، وكانوا في الغالب يحملون الجباية إقطاعاً أي إلزاماً أو مزايمة ، كالتعشير ليومنا هذا ، ولما كان الظلم من الاخلاق الانسانية ، والامانة عزيزة في الطباع البشرية ، وكانت الفتوح في ذلك العهد وقبلة كثيرة ، وطرق الكسب والغنائم سهلة متوفرة ، فكان كسب الولاة وعمالهم يومئذ مما

لا يكاد يصدق لولا ما لدينا من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها .
 وكان للدولة العباسية خزائن أخرى تسمى بيت مال المظالم ، وهي
 الاموال التي كان يستصفىها الخليفة من وزراءه وعماله ، او التي كان
 يعتصرها الولاة والعمال ممن هم دونهم عند الارتياح بأمانتهم ، أو الطمع
 بثروتهم ، فينزولون عن مراتبهم ويسجنون ، وعاقبة ذلك في الغالب القتل
 صلباً أو خنقاً ، وتُستصفى أموالهم من صامت وناطق ، وأملاكهم جميعها
 وتحمل إلى بيت مال المظالم . وأما ما كان هنالك من كنوز الاموال
 والدرر النادرة ، والجواهر الفريدة ، وغرائب التحف الثمينة ، وعجائب
 المصنوعات فُحِث عن البحر ولا حرج ، ومثل هذا كان جارياً لذلك العهد
 وبعده ، في سائر الدول ، دون بيت مال يسمى مال المظالم ، وليس عهد
 ذلك يبعيد في الدولة التركية ، فاذا علم هذا كان تمهيداً لما يأتي عن
 ثروة الحسن بن سهل ختن المأمون وكرمه الجم .

« مدينة بغداد »

أمر ببنائها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين . وأتم بناء
 قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لمهد ليلة العرس ،
 فسطاط العالم ، وأكبر مدينة على وجه الارض ، وقد بلغت من العظمة
 والابهة والسعادة ، ما لم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ،
 والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس
 تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق
 والبساتين ، والأسواق الكبيرة وألوف الحمامات ، وأنشأ المأمون فيها
 مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي
 اجتلب من أطراف الممالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والامتعة الثمينة ،
 والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نواذر التحف وغريب
 المعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها

أهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجمفرية ،
 والهارونية ، والمهديّة ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم
 وقوادم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع
 والقري والمصانع ، مما يمجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذٍ
 في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين انها بلغت المليونين .
 كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو
 بما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسطة ولا عجب في
 ذلك ، فان أحوال هذه الأمة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة
 والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : ان مدينة
 الأمة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها
 مثيل إلى الأبد ، اذ أن هؤلاء البدو الذين حين فتحهم بمالك فارس
 والروم ، حسبوا الخبز المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي
 وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجينهم ، هؤلاء البدو
 قد بلغت حضارتهم في مدة قرنين ، ما لم تبلغه أمة من الأمم في قرون
 متطاولة ، فقد أتقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، وتقلوها إلى
 لسانهم ، وعلموها الأمم الأوربية ، فأوربامدينة لهم اليوم بأكثر علومها
 وتأتقوا في المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات
 الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الأندلس وغيرها من آثار
 حضارتهم ، ما يُدّيم لهم فخراً لا يلبيه تقادم الزمان ، وتبدل الحدّثان .
 وقال أرنست رينان سيبويه علماء المشرقيات ما تعريبه باللغة العربية :
 خرجت اللغات السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجينة بها إلى ذلك
 الحين ، وصلت إلى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر
 فتوحاً ، أوفر اتساعاً واعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الأرض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمناها شرف الانتشار ، وتعدّان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد أنها لسان دعوة دينية ، أو فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية . لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرين حتى جبال الاطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقلية (سيسيليا) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة .

وأن هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وأفريقية حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوة وروسيا حتى قازان .

وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيون والبرتغاليون قد أخذوا إلى لغتهم ألفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوث جميع اللغات الرومانية — اللاتينية — عدداً كبيراً من الالفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أمم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل .

أولئك أقوامي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجمع

« فتوح المأمون وغزواته وأضراره وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على اثر اختلافه مع أخيه الأمين وحروبها ، وطمع بالخلافة غير واحد من بني العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع

ذاك ، وكادت تتضعضع أركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، إذ وقع الفتن ، ومهد الأمن ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤدداً ومجداً ، وعزماً وسماحة ، وحاملاً وشجاعة ، وعالماً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لو عرف الناس حبي للعفو لتقرّبوا إليّ بالجرائم ، وكان عارفاً باليونانية والعبرية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محبباً للعمران والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالآداب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على أن يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرس كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوزة دولته .

فأمر المترجمين كنين بن اسحق وثابت بن قرة ويعقوب الكندي ويوحنا البطريق وغيرهم بتعريب ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والموسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من المنجمين فجمع علماء عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشماسية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

ومن أعماله الخلة في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً وأخويه احمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الاقدمون يرون أن كل درجة من درجة

الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح الأرض ، فلما مسحوا الأراضي المتساوية وحرروها وجدوا أن حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وجمل القيم على خزانه ككتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو أول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ثم أمر بإنشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في أيامه أيضاً ونفقت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرة في كل اسبوع ، وهو اول مجمع علمي عقده سلطان في قصره ، وكان يوزع جوائز ونعماً على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .

« وزراءه وقواده وعماله وسعراؤه واطباؤه وعلماؤه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أفتَ خلافة وأزلتَ أخرى جليلٌ ما أفتَ وما أزلتَا

ومن عماله الحسن بن سهل وهو أخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتب به إلى ابنه عبدالله عندما ولاه المأمون مصر ، ولما وقف عليه المأمون قال ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، إلا وقد أحكم وأوصى به ، وأمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال .

أما ابنه عبدالله هذا فكان أيضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب إليه
الآيات المشهورة .

نحن قومٌ تليقنا الحدق النجـ — على أننا نئين الحديد
طوع أيدي الأطباء تقنادنا العيـ — ن ونقتاد بالطمان الاسودا

وكان شعراء المأمون أبا العتاهية وصريع الغواني وعلي بن الجهم والصولي
والخليع بن يلسر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبادي وجرجس
ابن بختيشوع ويمقوب الكندي وأبو بكر الرازي وجبرائيل وقسطا ابنا
لوقا البلبكي وأمثالهم ، ومن منجميه الفرغاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى
الخوارزمي وأخواه وماشالله اليهودي وابن منصور والجوهري وأضرابهم ،
ومن القصاص الأضمي وأبو عبيدة ، وأما العلماء والنحاة الذين كانوا
يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء والكسائي واليزيدي
وقطرب والجاحظ والأخفش وأضرابهم ، ومن قضاته يحيى بن أكرم
وأبو عبدالله الواقدي واحمد بن أبي دؤاد ، ومن الفقهاء الامام الشافعي
والامام أحمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه
من المجد والمفاخر ، ولو قصدنا إلى تصوير نفسه العالمة الشريفة ، وتفصيل
همته الصاعدة المنيفة لاحتجنا من الوقت إلى شهر ومن اللفظ إلى
معادن الدر .

كان المأمون ربةً أبيض جميلاً ، طويل اللحية رقيقها قد وخطها
الشب . فان فاخرت الأمم بقديمتها وهي تفاخر دون شك ، فهذا
قديمكم أيها السادة .

شرف ينطح النجوم بروقيه وعزٌ يقلقل الأجيالا

« الحسن بن سهل صمو الخليفة »

كان كريماً عالي الهمة ولاء المأمون جميع البلاد التي افتتحها طاهر من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن ، ومن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك العهد وكان حائزاً ثقة المأمون ورضاه لا عجب إذا كان أغنى غني في تلك الدولة ، وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البيان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

اسمها خديجة وبوران لقب لها أو هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت سنة ١٩٢ هـ وعقد عليها للمأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكان عرسها في العاشرة بعد المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ، تلك ان المأمون تزوجها لسكان أبيها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كان في آل العباس من هم أعلى قدراً في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رَحماً من المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكني الحسن بذلك شرفاً ، فلا بد من أن يكون اختيار المأمون بوران لجمالها أو لعقلها وعلمها أو لسكبتها معاً . وقد كان العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج إلا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناقد ، فقد كانت العرب — وجره بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة فما فوقها ويرون كمال فتوتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والأمراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة أم لسبب آخر ؟ لقد أغفل المؤرخون

الأولون ذكر كثير من امثال هذه الأحداث الهامة وأسبابها ، بيد أن لها شأنًا عظيمًا في أعين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن وأخلاق أهله وسائر احوالهم ومدنيتهم ، وبات الفوز بذلك بعد تطاول القرون وتقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول اليه أو الحصول عليه من مظانّه في كتب التاريخ فحسبنا أن نشير إلى ذلك هذه الاشارة حتى إذا اتفق لاحد الاُدباء العثور عليه في تضاعيف القيصص أو في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة للعلم .

«ليلة العرس»

كان الحسن بن سهل مع أهل بيته في معسكره بقم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثمانين مرحلة عن بغداد ، فنهض المأمون إليها لثمان ليال مضت من رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين يتقدمه المسكر والقواد والندماء والمننون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء ، وكبار العباسيين من أهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والاتباع وسائر بطانته على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرّ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والجمالون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بعسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون أمر عسكره بالمسير أمام عسكره ، وترجل حتى أقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلها ، فقابله الخليفة بأنسه وبشاشته ثم أمره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا إلى قم الصلح خرجت المدينة بأجمعها لملاقاة المأمون وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله الراؤون فنزل الخليفة عن جواده تكتنفه العظمة والجلال وتبسم له ثغور الأمانى والإقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له

الخيام والسرادقات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشى ، فدخل قبة فرشت أرضها بالبسط والزرابي الخسروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرته عطاء الدولة وأكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعاظفون وقام الحسن بن سهل يخدم بين يديه ، ثم مُدَّت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت ألوان الطعام في الأواني الذهبية وأنشد المنشدون وتبارى المغنون ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُوِّت إليه (بوران) فلما دخل قبتها كان عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أخته لأبيه و (زبيدة) امرأة هارون الرشيد أم أخيه الأمين وجدة (بوران) أم أبيها ، وكان قد أوقد عندها شمعة عنبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مئة من ، وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حليياً ، وفرشت أرض القبة بحصير منسوج بالذهب ، ولما اقتربت بوران من المأمون تهنئه بقدمه نثرت جرتها عليها الف درة من أنفس ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلئ على قدميه قال قاتل الله أبانواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبرى من فواقها حصباء در على أرض من الذهب

ثم أمر بجمعها فجمعت وأعطاهها بوران وقال سلي ما ترغيبين ، فلم تنطق بحرف ، فقالت لها جدتها (كلبي سيدك فقد أمرك) فقالت : أسأل سيدي الرضاء عن عمه الامير (ابراهيم بن المهدي) - وكان ذنبه عظيماً - فقال قد فعلت ، فقالت : وأسأل سيدي الاذن لسيدتي أم جعفر في الحجج - وهي زبيدة زوج هرون الرشيد - فقال أذنت ، ثم ألبستها البدلة اللؤلؤية الائمة المشهورة ، ولعلها مما استولى عليه العباسيون في جملة ما استولوا عليه من خزائن الامويين .

وبينما كانت أم الحسن بن سهل تنثر اللآلئ على المأمون وبوران ،

كان والد بوران ينثر على الهاشميين والقواد وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة أو دار أو مزرعة أو جارية أو فرس أو غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي إلى وكيل أُرصد لذلك فيدفع إليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعة أو ملكاً أو جارية أو غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادي وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدينانير إلى عشرة آلاف ، ثم انتقل إلى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر .

وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يُعدُّ له فيها ولجميع من معه كل يوم من الاطعمة الملوكية والمشروب وسائر أسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكارين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه أو لدوابه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم أو خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً . ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينته المأمونية وكان بعث فأمر النواتية بتجهيز الحراقات (السفن) لاجازة خواص الناس بدجلة من بغداد إلى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولاة ، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً تسير في دجلة ، وقد تأنقوا في تزيينها بالالوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلاً بمختلف الالوان ، فكانت كالسهام تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلماء كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها إلا أصوات المغنين والمغنيات والعازفين والعازفات بين عود ومزمار وكاسات تُدار .

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حلاً ما وراءها لمطلع غاية ، وكان الحطب المُعدُّ للوقيد بدار الطبخ مائة وأربعمائة يوماً

عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفي الحطب ليلتين فأوقدوا القصب
يصبون عليه الزيت .

أما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز القلم
عن وصفها وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد شاسع ولا سيما
قبابها ، فمن مجصص بالجنس الأبيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطلي
نصفه السفلي بالأخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب النضار وفوقها
جلمات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة ، ثم يسدو للعيون جمال تلك
الحدائق الممتدة إلى أقاصي مدى البصر تتسرب فيها جداول الماء من برك
عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من أفواه
حيثان أو سباع أو نسور أو ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ
من الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحت غياضها واشتبكت
أشجارها وتغنت أطيارها وتماقت أغصانها وامتد ظلها ، يسير فيها
الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الاوراق ، في مجاش كأنما أرضها
خمائل سندسية ، وعلى جانبيها درابزينات لا يدرك الطرف متهاها ، قد
اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرين ، وتعمت حولها
الازهار والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصورح الشاخمة
والاروقة المرتفعة والجواسق المنمقة ذوات الساحات المترامية ، والصحون
الفساح والافنية الرحاب والاندية العظيمة طبقاتها أبواب وأبوابها حيرة
الالباب ، قد أرخيت عليها ستور الديباج والاستبرق كأنها أجنحة
الطواويس ، وفرشت أرضها بأنواع الفسيفساء تحاكي أزهار الجنان ومتعادي
الحيوان ، من أسود ونمور وغزلان برخام متعدد الالوان ، يخالطه خشب
الصنديل والعود الهندي ، وفي كل بهو بركة أو برك تنساب إليها المياه
الصفافية على ملون المرمر كاللجين الذائب ، والسمك على اختلاف الأشكال
والالوان تصعد في مائها وتنحط وتعموم كما يعوم فيها البط ، وقد رقت

حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه أزهار الربيع ، ورفعت سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على أعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد أحكم صنعها ونقشها وتكامل حسنها بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبابها على قناطر وحنايا وأضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالفلائد في أعناق الحسان ، وقد قعدت على أساطين وسوار ركزت على قواعد من الصوان ، وتقنعت بأقدهاح كالترجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه إلى إمتاع النظر بأعاليها إلا بانقلاب رأس الناظر إلى آخر المستطاع . وقد طليت تلك السقوف والقباب بألوان تحار في محاسنها الألبصار ، وبأخذ إبداع رسومها بمجامع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج أنواراً يرد عنها الطرف قليلاً .

وكانت لا تقع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد تناهت في الظرف ، وملاحة وإبداع يقصر عنها كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رفعت وراء الشرفات تنعكس عنها الانوار إلى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاكمت بحفرها ورسومها حباتك الغمام ، أو أجنحة الطيور أو غلائل الحسان أو ظهور السمك والحيتان ، أو صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجعد ومفوف ، ومسيّر ومنمّر ، ومكفوف وملفوف ، إلى أشكال وألوان يمجز وصفها ، ويضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتمثيل والتصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل ناد روضة* وغدر وغرف ومقاصير ، وسجوف ومرسلة وستور متراخية رسرر مرفوعة وأرائك مصنوعة وجمال منصوبة ومجاس مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبسوطة ، وموائد قاعة وأباريق مبنوثة وخواج مسنودة وزجسيات منسوقة ، وأوان مختلفة الأشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس

المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر الند وقمام
 ماء الورد إلى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .
 تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما
 وطئت أرضها بوران أعطاها المأمون في مهرها الف حصاة من نفيس الياقوت .
 وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور أياماً متوالية ، وكل الذي وصفناه
 ان هو إلا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يرو له
 التاريخ مثيلاً ولا بدع فالأمون فرد لم يزل الزمان بمثله بخيلاً .
 ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الاموية الثانية
 في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية
 العظيمة الزاهرة ، مما تنسرح له الصدور وتمتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع
 الرؤوس ، ويقال عنده لا عطر بعد عروس .

دمشق : ايلول سنة ١٩٢٣

عن المتنبي^(١)

للأستاذ عبد القادر المبارك

قال فيها البليغ ما قال ذو العسي وكل بوصفها منطبق^(٢)
وكذاك العدو لم يعد أن قال لجميل كما يقول الصديق^(٣)

أبو الطيب المتنبي الذي يمت بنسبه إلى قحطان من العرب العاربة ولد وترعرع في الكوفة مدينة الشعر والعروبة في الاسلام بعد أن مضى على تمصيرها في عهد ثاني الخلفاء الراشدين ثلاثة قرون ظلت فيها مقراً لأقطاب اللسان العربي ورجالات اللغة الفصحى من عرب وأعراب . فلا غرو أن يكون أبو الطيب المتنبي الذي ولد ونشأ فيها معرقاً في عروبته اللسانية إعرافه في عروبته القحطانية . على أن الكوفة التي صارت بعد الاسلام من أعظم الحواضر العربية كانت بقعتها قبل إنشاء المباني فيها بادية مأهولة بعرب الجاهلية وأعربها من سكان الوبر الذين كانت وفودهم لا تبرح غادية رائحة بين منازل ملوك العرب من اللخمين والمناذرة إذ ليس بين الحيرة عاصمة ملوك العرب في الجاهلية وبين الكوفة سوى ثلاثة أميال .

وفي جوار الكوفة الخورنق الذي ذكرته العرب في أشعارها وضربت به الأمثال في أخبارها كما قال ياقوت ونقل أيضاً عن الهيثم بن عدي^(٣) أنه لم يقدم الكوفة أحد من ولاتها إلا وأحدث في قصرها المعروف

(١) أقام المجمع العلمي العربي مهرجان المتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ عبد القادر المبارك

(٢) هذان البيتان لأبي البيداء اسعد بن عصمة الرياحي .

(٣) وهو كوفي أيضاً .

بالخورنق شيئاً من الأبنية . وقال ياقوت أما ظاهر الكوفة فانها منازل
النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدر والغريبان وما هنالك من
المتنزهات والديرة الكثيرة . اهـ ، فحق لأبي الطيب أن يكون من أعرق الشعراء
في عروبته ومعرفته بلغة أولئك الذين يقول الأسود بن يعفر فيهم :

أهلُ الخورنق والسدير وبارق والقصرذي الشرفات من سنداد

وما من بقعة في الكوفة وما جاورها إلا وهي معهد من معاهد العروبة
التي يحن أبو الطيب اليها حين الأسد إلى عرينه ولبوته ، ومن أحق من
عبارة الشعراء بحب وطنه ولغته ، فالله أعلم بما احتاج في نفس أبي الطيب
من طرب حين تغنى بقوله :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

وإن كان أبو الطيب قد حيل بينه وبين وطنه ففقد معظم سني
حياته بعيداً عنه فانه ما حيل بينه وبين لغته العربية التي لم ينزع إلى لغة
سواها ولم يهو شيئاً هواها تلقنها طفلاً وشعر بها مرهقاً وتضلع منها
ياقياً واستحوذ عليها فتىً وبذخول شعرائها مكتهبلاً . ولو أراد أبو الطيب
أن يكون كاتباً لأنسانا الصولي والجاحظ ولو أراد تدوين اللغة العربية
على مثال معاجم أئمتها لما سبقه الأزهري في تهذيبه والفارابي في ديوانه
والصاحب في محيطه وابن فارس في مجمله وابن دريد في جهرته وأبو علي
الفارسي في تذكرته وغلّام ثعلب في يواقيته وابن جني في مقتضبه وخصائصه
على أن شاعريته التي أحمل بها فحول الشعراء أفادتنا عشرات الكتب التي
ألفها علماء اللغة العربية من كبار أدبائها وسراة نوابقها بسبب ديوان شعره
شرحاً ومبحثاً وتقدماً وسيظل شعره مدعاة لرجال الأدب العربي إلى خدمة
هذه اللغة ما دام أهلها غيارى عليها .

واقدم كان لأبي الطيب من الشهرة بالنبوغ والعبقرية في حياته ما كان
للجاحظ كما يظهر بما ذكره ياقوت في معجم الأدياء من أن الخطيب أبا
الوليد بن عسال حج فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبّي واستشرف ورأى

أن لقيته فائدة يكتسبها وحلة فخر يحبسها فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً ثم قال ألا تنشدني للمسيح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأشده :

يا لؤؤاً يسبي العقول أنيقاً الخ
فلما أكمل إنشاده استعادها منه ثم صفق ثم قال يا ابن عبد ربه لقد
تأتيتك العراق حبواً .

وليس غرضي من هذا الشاهد أن أبحث عن كنهه ما أظهره المتنبي من استحسان لهذا الشعر وإنما غرضي أن الاندلسي شق عليه أن يعود إلى الأندلس دون أن يلقي عظيم أدباء الشرق .
ومن غرام أبي الطيب باللغة العربية حسن تخريجه لولده محسّد الذي أجاز هذا البيت .

زارنا في الظلام يطلب سترأ فافتضحنا بنوره في الظلام

بقوله :

فالتجأنا إلى حنادس شعري سترتنا عن أعين اللوام
وليس بمجيب على من نشأ تلك النشأة بين عرب الكوفة حضراً
وعرب كلب بادية مع ما فطر عليه من لوزعية وشاعرية أن يصبح استاذاً
في اللغة للجاحظ الثاني أبي الفضل ابن العميد الذي قرأ عليه كتاباً في
اللغة من تصنيفه وكان يدهش لما يرى من مسابقتها لإيراد الشواهد وإفاضته
في بيان أسرار القضايا اللغوية .

واستظهاره كتاباً عرض عليه في سوق الوراقين بتصفح يسير ، وجوابه
للفارسي عما جاء على فملي ، ولابن خالويه عن أمشجي في قوله :

وقاؤك كالربع أشجاء طاسمه

ولسيف الدولة لما انتقد عليه قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقف
تمر بك الأبطال كلّي هزيمة
كأنك في جفن الردى وهو نائم
ووجهك وضاح وئفرك بدم

كل ذلك من دلائل تمييزه في قوة الحافظة وامتهانك زمام اللغة التي ملكته كما ملكها وعنايته بالفوص على المعاني لا يبلغ في التعريف بفضلها معشار ما يبلغه فيه شعره الشاعر . فكأن اللغة العربية في شعره غيرها في شعر غيره . والبيان كالجمال في كونه يملك القلوب ولا يحيط بكنه أسرارها إلا علام الغيوب . فلا جرم إنه لجدير أن يسمى طوراً شعراً وتارة سحراً ، وتبارك الله أحسن الخالقين الذي خلق الانسان علمه البيان .
وأبو الطيب إنما كان نسيج وحده يبهاء بيانه وعبقري خياله إذ هو فيها كالشاعر الذي يقول :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبوءاً عني

فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

وإنك لترحم الشاعر أو الخطيب إذا أطال خوفاً عليه من أن ينهر أو يصير إلى الاسفاف ، أما أبو الطيب فكما أطال ازداد تحليقاً حتى يجعل مكان الرحمة من سامعه حسداً ، كما يحكى عن زياد بن أبيه . وهو في شاعريته الغنية بثروته اللغوية أجدر من أبي العتاهية الذي نشأ في الكوفة بأن يقال فيه : لو أراد أن يجعل كلامه كله شعراً لفعل .

فلسانه كلسان عبد الملك المنكدر الذي قال فيه ابن المعدل : كلما تذكرت أن التراب أكل لسان عبد الملك حقرت الدنيا في عيني ، وكلاهما أقام ردهاً طويلاً في البادية بين بني كلب ؛ وكان عبد الملك إذا حاور الامام الشافعي ظل من يسمعه مبهوراً من فصاحتها لأن الامام تأدب في البادية بهذيل كما أن ذلك تأدب بخؤولته من بني كلب .

وكان أبو الطيب طبياً بوضع الكلم في مواضعه أكثر مما كان عنتره الفلحاء طبياً بأخذ الفارس المستلثم ، فهو كما قال امرؤ القيس :

يدود القوافي عنه زيادا زياد غلام غوي جرادا

ومن مزاياه العربية غيرته على شعره أن ينتجع به من لا يفقه أسرار

اللغة ، وكانت هذه المزية من أشد البواعث على رغبته في إظهار سيف الدولة الذي كان يود أن لا يفارقه حتى يفارق دنياه .

ولولا ذلك لانتجع من نبع في زمن خلافتهم من ملوك بني العباس وهم المقتدر ، القاهر ، الراضي ، المتقي ، المستكفي ، المطيع ؛ لكنه رأى السلطة في بلاطهم ، بله مملكتهم لطاطم الموالي وأقزام المماليك ، فكانت بغداد عنده كسحب بوان في طمطانية المتحكمين فيها :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وكل ما قاله في مدح غير سيف الدولة ليس إلا إغراء له بطلبه ومعاينة له ، وهل يستطيع من ولد وترعرع في مدينة المنبر العلوي منجبة الألواف من خول البلقاء ، وهو بار بلغته إلا أن يكون كأبي الطيب اعتزازاً بعريته واعتزازاً لها ، وإشفاقاً عليها من آفات اللحن ، إشفاق ذلك الأعرابي الذي سمع أحد الخلفاء من العباسيين يلحن فصر أذنيه وقال : أشهد أنك ما وليت الخلافة إلا بقضاء وقدر .

وإليك مثلاً من فقه اللغة في الكوفة من محاورة بين كوفي وانين من الأعراب في القرن السادس للهجرة ، بينما كان الكوفي عمر بن إبراهيم العلوي يفرس فسيلاً في حائط له إذ مر به أعرابيان فقال أحدهما للآخر أيطمع هذا الشيخ القحل أن يأكل من جني هذا الفسيل ، فسمعه الشيخ وقال : يا بني كم من كبش في المرعى وكم من خروف في التنور ، فسمع أحدهما دون الآخر الذي سأل رفيقه عما يقول العلوي ، فقال له إنه يقول : كم من ناب تسقى في جلد حوار ، فعلم الأعرابي ما قال وأعجبه ذلك .

هذا بعد عصر المعري الذي استنبط فيه العرب ، فما بالك بالمصور الأول في عكاظ الاسلام مرشد البصرة وظاهر خد العذراء التي كانت من أكبر مدن العرب العرباء وفي مدرسة أبناء أشرافها أو كتابهم تلقى المتنبّي دروسه الأولى باللسان العربي المبين الذي جرى على لسانه الطليق الذليق شعراً

مباشراً بمبقريته وهو ابن عشر سنين وبعد فاني أقول في لغة أبي الطيب ما قاله يونس بن حبيب في ابن العلاء البصري : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو ابن العلاء كله في العربية ، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا أفصح من نطق بالضاد نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام .

وحب المتني اللغة العربية حداً به الى الامعان في تعرف أسرارها والحرص على تصفح خيرة معاجمها الكثيرة التي أولها العين الفراهيدي ، وآخرها المحيط للصاحب ، والصحاح للجوهري ، وكتاب العالم واللغة المفتوح بالفلك والمختتم بالذرة لآحمد بن أبان الأندلسي المتوفى سنة (٣٨٢) وهو مائة مجلد ، واقد بلغت كتب اللغة في القرن الرابع للهجرة من الوفارة والكثرة ما يكفي في الدلالة عليه قول الصاحب ابن عباد كما في المزهري : أحتاج الى ستين مجلداً أقل عليها كتب اللغة التي عندي . فهل يصح بعد هذا أن يقال : كل ما في كلام المتني من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجهرة وهو قوله : تطوى المجلحة العقد كما يدعى صاحب كتاب إيضاح مشكل شعر المتني ، على ما نقل صاحب الخزانة الكبرى ، وأنى يمكن الوقوف على سند صحيح يثبت أن أبا الطيب لم يطالع على كلمة المجلحة أو العقد إلا في كتاب الجهرة لابن دريد المتوفى سنة (٣٢١) ، وأبو الطيب طالما أحيا الليالي درساً حين لم يكن له سوى الكتاب سميماً رجاء أن يقف من طريق الصناعة على محاسن لغة أتقنها من طريق الطبيعة في مدرستها العالمية حضارة وبداعة .

ومثله يترفع أن يقول : إنني أطالع كتاب فلان وأدرس ديوان كذا ، وكلمة مجلحة جاءت في شعر بشر بن أبي حازم وفي شعر لبيد وفي شعر امرئ القيس وفي شعر بنت وثيمة في رثائها لايبها كما في بيان الجاحظ في الباب الذي أوله (وكانوا يمدحون شدة العارضة) . وكلمة العقد التي هي جمع الأعداء لها شواهد أوفر وأكثر من شواهد المجلحة ،

والأليق بالصواب والأقرب الى المعقول في مثل المجلحة أن يقال استفادها من لغة الأعراب الذين كان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم من أهل البوادي . والتجليح لفظاً ومعنى . بن الوبر أليق وأعلق منه بن المدر وقلما تراه في كلام أهل الحضر ، ومعناه الذي هو أن يركب المرء رأسه ويحمل حملة الحيوان الضاري قلما يستغني عنه سكان الصحاري .

وكأن صاحب كتاب إيضاح المشكل أراد الغض من أبي الطيب الذي 'قدر عليه ان يكون محسداً كما قدر عليه أن يكون أبا محسد بكونه قليل الاطلاع على كتب اللغة وأنه لم يطلع إلا على غريب أبي عبيد وعلى أقل من القليل من جمهرة ابن دريد والمتنبي يقول له بلسان الحال : حرف في قلبك خير من ألف في كتبك ، ورحم الله أبا ذؤيب إذ يقول :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمجلحة في كلام المتنبي جاءت في القصيدة التي مطلعها :

« أول فعالي بله أكثره مجد »

في هذا البيت :

وأَمْضِي كما يَمْضِي السنانُ لطيفي وأطوي كما تطوي المجلحة المقْدُ

وجاءت في التي مطلعها :

« أيدري ما أرابك من يرب »

إذ يقول :

مجلحة لها أرض الأعادي وللسمر المتأحرر والجُنوبُ

وكان الأولى بالأصهاني إذا ادعى معرفة مصادر غريب اللغة في شعر

المتنبي أن يقول : إنما أخذ المجلحة من بائنة امرئ القيس التي أولها :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسجر بالطعام وبالشراب

عصافير وذباب ودود وأجرأ من مجلحة الذئاب

لأن أبا الطيب فحل شعراء العراق من سلائل عرب اليمن حقيق أن

يحفظ شعر امرئ القيس فحل شعراء نجد من أبناء ملوك كندة من اليمن لا سيما الشعر الذي قيل بسبب معركة حمي الوطيس فيها قرب الكوفة وكان يومها عصيباً من أشد أيام العرب هولاً ، وهو يوم الكلاب الذي عم امرئ القيس شرحبيل من قتلاه ، ومثل أبي محسد من يعني بدراسة أخبار العرب لا سيما أيامها ، على ان ذلك كله تحكم ليس له مبرر ومن يستطيع ان يحكم عليه انه لم يسمها ويحفظها في منزل أسرته في كندة بين احياء الكوفة في مدرسة الحياة الأولى التي يكون التعلم فيها بالفطرة ولكن يا ابا الطيب :

بحسبك اني لا ارى لك عائباً سوى حاسد والحاسدون كثير

كما قيل في شأن معاصر كالمفضل علي بن عيسى بن داود بن الجراح وليس هذا التحكم عليك في دعوى انك لم تعرف كلمة المجلحة إلا من الجهرة بأغرب من تحكم من ادعى انك سرقت قولك :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

من قصة قصار كان يعمل على شاطئ نهر ، وكان كل يوم يرى كركياً يجيء فيلتقط من الحماة دوداً يقتصر في القوت عليه ، حتى رأى ذات يوم صقراً حلق ثم انقض على حمامة فاصطادها واكلمها . فقال الكركي مالي لا اصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وانا اكبر منه جسماً ، فارتفع في الجو واتقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحماة فنلطح رأسه وريشه ولم يمكنه ان يطير ، فأخذه الصياد ورجع الى منزله ، فقبل له ما هذا : فقال « كركي يتصقّر » ، فسمع المتنبي هذه الحكاية ، فأخذ منها معنى هذا البيت :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

قال ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون بعد هذه الحكاية : وهذا من نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود . أبو الطيب له ولع ودربة باستعمال الفصيح في شعره وثره وسائر

كلامه ، فاذا حاول العدول عن منهاج اللسان المضري القويم لم يستطع اليه سبيلا فما أصدقه في قوله :

وكلمة في طريق خفت أعربها
من قصيدته التي مطلعها :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن
يخلو من الهم أخلاص من الفطن
فالمثني يستسهل بذل نفسه في سبيل صيانة لفته التي يفديها بروحه ،
وكأنه يقول : لا بارك الله في الحياة بعد ضياع اللغة . من أجل ذلك
رأى ارتكاب ما فيه خطر على حياته أهون من ارتكاب ما فيه خطر
على لفته . وفي البيت مسألتان : (خفت أعربها) من الفعل المضارع ،
وتحريك حاء (اللحن) اتباعا للام وشاهد الاول قوله تعالى « أفغير الله
تأمروني أعبد » أي أن أعبد ، وقول طرفة ابن العبد :

الأيها ذا الزاجري احضر الوغى
وأن أشهد الذات هل أنت مخلدي

أي أن احضر الوغى ، ومن هذا القبيل قولهم : مره يحفر بئراً
أي أن يحفر ، وقولهم : خذه قبل يأخذك أي قبل أن يأخذك ، وتسمع
بالمعدي خير من أن تراه أي أن تسمع . والمثني كسائر فصحاء الكوفيين
كثيراً ما يستعمل ذلك في قوله :

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد
أشفقت تحترق العواذل بيننا
وقوله :

وما تسع الأزمان علمي بأمرها
ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي
وقوله :

أشفق عند اتقاد فكرته
عليه منها أخاف يشعل
وقوله في ثياب أهديت اليه :

أقر جلدي بها علي فلا
أقدر حتى المات أجددتها
ويسوغ ان يعود الفعل المضارع مرفوعاً مع إضمار أن قبله لأن الحرف

عامل ضعيف ، فاذا أضمّر زال أثره ولم يقو على الظهور ، كما يسوغ أن
يبقى منصوباً باعتبار ان المقدر كالثابت وعليه قول المتنبي :
توقه ومتى ما شئت تبلوه فكن معاديه أو كن له نشبا
في التي مطلعها :

دمع جري فقضى في الربيع ما وجبا

وقرىء كما في الكشف للزخشي (أعبد) مرفوعاً وقرىء منصوباً
في سورة الزمر من قوله تعالى « أفغير الله تأمروني أعبد » .
وأما تحريك هاء اللحن بالفتح اتباعاً للامها فهو من قبيل تحريك الهاء
في نهر وزهر ودهر . قال أبو النجم :

يا جبلا طال معداً فاشمخر^ه اشم^ه لا يستطيعه الناس الدهر^ه

قال ابن منظور في لسان العرب : إما أن يكون الدهر والدهر
لغتين كما ذهب اليه البصريون في هذا النحو فيقتصر على ما سمع منه ،
وإما أن يكون ذلك مكان حروف الحلق فيطرد كما ذهب اليه الكوفيون
اه ، والمراد من اللحن في بيت أبي الطيب الخطأ في الكلام والعدول
عن سنن الصواب فيه ، ولم يرد شيئاً من معانيه الاخرى كاللغة والفهم
والفظانة والالغاز والتعريض والغناء والتطريب ، وان كان لفظ اللحن
مشاركاً في ذلك كله . إن أبا الطيب في تمسكه بعريته والتزامه فصحاها
لهجة^ه وألفاظاً مطبوع يجري في ذلك على مقتضى طبعه ، فهو من أشبه
الناس بالاعرابي الذي كان الترافع اليه ليكون حكماً بين سيبويه والكسائي
فلم يستطع أن يلحن فيقول : فاذا هو اياها ولكن استطاع أن يكذب
فيقول : الحق مع الكسائي ولو اكره على التلفظ بالنص المتناقش فيه
لظهر أن الحق مع سيبويه ، لان لسانه لا يجري حينئذ الا بقوله : فاذا
هو هي ، على ما ذهب اليه سيبويه ، فكان احتمال عار الكذب عنده
أهون من احتمال عار افساد لغته الفصحى الجميلة التي بها جاء أحسن
الحديث وحيماً ، كلما زده تلاوة زادك حسنا وطلاوة . وليس أبو الطيب
بدعا في عشقه لغة مضرية تجلت له من عرائسها :

وجوه لا تزال تزيد حسنا لمثل جمالها خلق الغرام
ومن أشباهه في الشنشة ذلك الامير جبلة بن عبد الرحمن الذي كان
يكتب باللسان المبين اسماء الاطعمة التي يريدونها في رقاع يبعث بها الى
طاهيه ، وكان هذا لا يقدر على الاستقلال بفهمها لضعف عربيته فيراجع
ابن أبي إسحاق الحضرمي أو يحيى بن يعمر العدواني للاستيضاح عما كتبه
له سيده جبلة في تلك الرقاع ، فاذا عرف ما فيها من أنواع الاطعمة
أناه به ، وكان من أجل ذلك يبطيء عليه في إحضارها فقال له :
ويحك أيها الطاهي ما بالك تبطيء كأنك تريد بابطائك أن تحملني على
الصيام ، فقال له الطاهي : سهِّلْ كلامك أسهل طعامك ، فقال له سيده :
يا ابن اللخناء أفادع عريقتي من أجل عيِّك .

ولصحة الطبع في اللغة كان لفصحاء العهد الجاهلي وصدر الاسلام
أعلى مقام بين طبقات أمراء الكلام ، وهيات أن تظهر عبقرية البيان
الابسلامة الذوق وطلاقة اللسان ، ولقد أصاب الحز وطبق المفصل من قال :
نم عون الفتى اذا طلب العلم م ورام الآداب صحة طبع
فاذا الطبع خانه بطل السع ي وصار العناء في غير نفع
وقال المتنبي :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطب م وعند التعمق الزلل
لا جرم أن لهؤلاء المطبوعين في كلامهم أن يعجبوا ممن يلحن ويتهاون
بالأعراب ويحميد في كلامه عن سنن الصواب كالأعرابي الذي كان يقول :
عجبت للتجار الذين يلحنون فيستطيعون مع لحنهم أن يربحوا في متاجرهم ،
وكالذي سمع بعض الخلفاء في العهد العباسي يلحن في كلامه فقال : لولا
القضاء والقدر لما قدر أن يكون هذا خليفة ، ولكن قدر فكان ،
وليس بضائر فارس الطخروور أباحسِّد وشعره شعره قول ابن خالويه فيه : إنه
لم يكن يعرف أن البعير يستعمل بمعنى الحمار ، كأنه انفرد بمعناه ولم
يحوه سواه .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

روح الطموح في المتنبي^(١)

للأستاذ أحمد رضا

منشأ الطموح

طردُ الهم أو دفع الأثم هو كما قال ابن حزم « مذهب اتفقت الأمم كلها عليه فلا يعتمدون بسعيهم أمراً سواه » لكن للنفس نزعات ورغبات تأتيها من طريق الشعور بالحاجة أو بما يؤثر في ميولها من وراثة فتحاول طرد الهم بما يحول دونها . فالناشيء في سلف عزيز وخلف أعزة تنزع نفسه إلى العز ، والتأب في منبت شهواني أو سلف أليف الشهوات يحارب كل ما يحول بينه وبينها ليدفع عن نفسه ألم حرمانها . وما طلب آمال طالبه إلا لطردهم الفقر ، ولا رغب في الحياة راغبها إلا لدفع هم الموت ، ولا ابتغى الصيت مبتغيه إلا لطردهم الخمول ، ولا طلب المعالي من الأمور إلا من يكره أن يستعلي عليه عال .

الإنسان روح وأشد ما تكره الروح أن يستعلي عليها مستعل أو يسيطر عليها مسيطر . ولكن هذه الروح قد تستخذي للقوة القاهرة إذا ضعفت عن مقاومتها فتخضع على كره منها وهي مفعمة همماً مملوءة كرباً ، فإذا طال عليها الأمد ، وهي خاضعة ، ألفت الخضوع وعلى نسبة هذه الالفة يخف ألمها وينفرج كربها .

عزة النفس العربية

العرب أمة نشأت على عزة النفس والاباء فرأت انها أعز الأمم جارا وأمنهم ذمارا وأشرفهم محتدا وأذكاهم عنصرا ، ثم تجاوزت الحد فرأت أن كل من عدا العرب أعاجم لا يدانون العرب منزلة ولا يوازونهم كفاءة .

(١) أقام المجمع العلمي مهرجان المتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه

الأستاذ أحمد رضا .

فليس عجيباً والحال هذه أن يأنف النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على قرى اللف من تزويج ابنته من كسرى لما خطبها إليه فيقتله كسرى تحت أرجل الفيئة انتقاماً من أنفته . ولا أن ينتقم له العرب بوقعة ذي قار لأنه ذهب شهيد الكبرياء العربية وفي سبيل صيانة الدم العربي . وليس غريباً أن تعصم ليلى بنت لكير بعفتها ولا ترضى أن تكون في نساء كسرى لأنها عربية وهو أعجمي . وهي بنت الصحراء أوربية البوادي واليفة المضارب ، وهو صاحب الدور المشيدة والصروح المردة والمملك العظيم والنعيم المقيم . لكنه مع هذا كله ليس بكفٍ لها لأنها عربية وهو أعجمي .

هذه هي كبرياء العرب وطموح العرب ، فلا عجب إذاً أن نرى عربياً حقاً كأبي الطيب ارتفع بذكائه وعلا أقرانه ببيان ساحر وقلب جريء وعزم ثاقب وعلم جم تهب عليه ربح الطموح وتطفي فيه روح التعاطف وهو العربي منبأ ونسباً وأدباً .

المتنبي عربي صحيح النسب

ضربت بهرق المتنبي دوحة يمان ، فهو من حيث أبوه جعفي من سعد العشيرة من مذحج ، وهو من حيث أمه همداني ، وهمدان واسطة عقد العرب اليمانيين مجداً وشجاعة وسيد العرب بعد النبي المختار يقول فيهم :
ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنوا فتحة الباب
كالهندواني لم تقل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب
يقول أبو الحسن ابن أم شيبان : إن أبا الطيب كان جعفياً صحيح النسب ، ويقول أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي ، إن والد المتنبي كان يقول أنه من جعفي ، ثم قال وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا ، وأبو الطيب يقول على قلة اعتداده بمجد الآباء :

ومجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يماني

ويقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظام
فيدعي مثل هذه الكبيرة ويفخر هذا الفخر وبيالغ في أنفة قومه هذه
المبالغة فلا بد إذن لهذه الدعوى من أصل في شرف آباءه . أما أن
لا يكون لدعواه هذه أساس تبني عليه هذه المبالغة فإني أراه غير مقبول
في العادة ، والا فلم تركها له حساده والناعون عليه وما أكثرهم حوله
وما أحصاهم لكل دقيقة وجليلة عليه ! وإذا لم يكن له أصل من شرف
آبائه وهو مع ذلك يقول فيهم مثل هذا القول فكيف يسكتون عنه من
هذه الناحية من نخره بعد أن طلبوا وزمروا في تنقصهم له ، وكل
ما قالوه في نسبه ان أباه ويلقب ببيدان كان خامل الذكر فقيراً ومهما اشتد
الفقر لا يكون مزرباً بالأحساب والانساب ، وخمول الذكر مهما استحکم
لا يكون ميزاناً لمجد الآباء وشرف العنصر ، وأماما جاء به بعض الخرفين
عنه من أنه إنما افتخر بنفسه دون آباءه فلكي يسرّ وهناً في نسبه . فهو
دليل لا يصح الركون إليه وإذا كان المتني يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسني نخرت لا بمجودي

فإنها سنة كبار النفوس ، وهذا عامر بن الطفيل العامري وهو من
علمت مقامه في العرب حسباً ونسباً يقول :

وما سودتي عامر عن كلالته أبي الله أن أسمو بأبي أو أبي
إذا كانت نفس عصام سودت عصاماً فليس معناه أن آباءه لم يكونوا
ذوي سؤدد وسيادة بل هو على حد قول الفضل اللهي الهاشمي
الذي يقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوماً على الأحساب تتكل

تبني ونفعل مثما فعلوا
 علي أن أبا الطيب قد استدرك ما قد يتوهم من قوله بل شرفوا بي
 بقوله بعده :

وبهم خفر كل من نطق الضاد وعود الجاني وغوث الطريد
 وليس عجباً من ذي كبرياء وطموح مفرط كالمتني أن يقصد المعنى
 الذي أراده الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان
 إن المتني الكبير النفس المتجاوز حد التعاضل بمثل قوله :
 فدع عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحدٌ فوق ولا أحدٌ مثلي
 والذي يقول :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
 محتقر في همتي كشمرة في مفرقي
 يأتي أن يستند في خفه إلى مجد عظامي ، وإن كان شامخاً باذخاً ،
 ويريد أن يحقق بنفسه القاعدة المشهورة : « المرء بجده لا بجده » ، على أن
 خمول ذكر والده وعدم مساعدة الزمان له على أن ينال مقاماً يعرف به
 لم يسلبه عبقرية صالحة جعلته يتمتع بنفسه بولده بما حرمت نفسه منه من
 علم وثقافة ، فسافر به إلى الشام حيث الهواء العذبي والماء الروي ، والأدب
 ناشر أعلامه ، ومجالسه حافلة بالفحول من الشعراء وأعلام اللغة ، حيث
 منبت الطائيين الذين انتهت إليها زعامة الشعراء ، حيث موطن العتابي
 والنعمري والسلمي وابن زرعة الدمشقي وغيرهم ، « حيث رزقت الشام
 ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبنو ورقاء ، وهم بقية العرب والمشغوفون
 بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين السيف والقلم » ، حيث
 ملتقى أئمة اللغة ونحاربها وفحول العربية وأساطينها أمثال ابن
 خالويه والفارسي .

ويقول الثعالبي: «سافر به أبوه إلى الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق بالحسنى، ضوامن النجج فيه حتى ترعرع وشعر وبرع».

المتنبي بهر صوت أبيه

ما زال هم الطموح يمتلج في صدر أبي الطيب ويتقد وهو منصرف إلى مغالبة العوائق، فعكف على التحصيل، وكان كثيراً ما يغشى الوراقين يتزيد من دقاتهم علماً، ويمجد نفسه في المطالعة واستظهار ما يروقه. وهو من جودة الحافظة وحضور الذهن في منزلة لا أدل عليها مما رواه بعض الوراقين، وكان هذا في أول صباه من أنه حفظ كتاباً للأصمعي يدخل في ثلاثين ورقة بنظره فيه نظرة واحدة، فروى أيام العرب وتعمق في درس اللغة فقتض شواردها وتأنس أوابدها حتى بلغ من ذلك الغاية، وحسبك شهادة أبي علي الفارسي له لما سأله عن الجموع بوزان فعلى وأجابه أبو الطيب بلا توقف أنها مجلى وظيربي. يقول الفارسي انه قضى ثلاث ليال يراجع كتب اللغة فلم يجد لها مثلاً.

دعوته إلى نفسه وجرأها

أبو الطيب عربي خالص العروبة، نفتحت عيناه على عز العرب وما هم فيه من دولة ورأى ذوي المواهب يتسابقون فيها إلى امتلاك زمام الامر والنهي، هذا بهمته وجهوده وذلك بمصيبته وقومه، وذلك بعلمه وثقافته فليس غريباً أن تزداد روح الطموح فيه نشاطاً وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافة وأكبر هممة وأعز نفساً، فكيف لا يدفع هم استعلاءهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه.

وكأنه رأى أن أعلى مقام للسلطان هو الخلافة ، وهي فوق مقدوره
لحاجتها إلى بيعة شاملة أو ولاية عهد مؤبدة ولكنها فرع النبوة وعلى النبوة
قامت دعائمها ، والنبوة تبتدىء بالعاية الفردية ثم تنتشر فيكثر حولها
الانصار فتشتد فيعلو أمرها . رأى ذلك وعنده من قوة الجنان وسحر
البيان وفصاحة اللسان ما يخلب به أبواب الاعراب وكانت قد فشت في
ذلك العصر بدع المتنبئين ودعوات الحلول وعليها قتل ابن الساماني والحلاج
وغيرهم وفشت دعوى القرامطة المبنية على مثل هذا الأساس .

فتخيل أن الزمان يؤاتيه حيث كانت الممالك فوضى بعد أن ضعفت
الخلافة في بغداد وأصبح كل أمير مستقلاً بعمله ، ففي البصرة ابن رائق
وفي خوزستان البريدي ، وفي فارس عماد الدولة بن بويه ، وفي الري
وأصفهان والجبل ركن الدولة بن بويه وابن زيّار يتنازعان عليها ، وفي
الموصل رديار بكر وربيعة ومضر بنو حمدان ، وفي مصر والشام الاخشيديون ،
وفي المغرب وإفريقية الفاطميون ، وفي الاتدلس عبد الرحمن الناصر الأموي ،
وفي بلاد البحرين واليهامة القرامطة .

تخيّل هذا وهو من طموحه في غرور متجاوز الحد ، فحاول دعوى
النبوة أو انه أظهرها على اختلاف أمهات الروايات في ذلك ، وقد رأيت
أن ألم بها لاستجلي ما يتراءى لي من تحقيق فيها .

قال علي بن الحسن التنوخي عن أبيه عن أبي الحسن بن أم شيبان
المهاشمي الكوفي : « كان المتنبئ لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه
علوي ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد
عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهرأ طويلا وأشرف على القتل ،
ثم استتيب وأطلق^(١) وهذه الرواية تصلح بادعائه العلوية ، وأن حبسه كان
طويلا ، لاقى فيه العذاب وأشرف على القتل ولكنها لا تقول بأنه اجتمع

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤

عليه أحد وبنو كلب بأرض نخله وهي بلدة في بعلبك على ثلاثة أميال منها ،
ولعلها نخله بالحاء المهملة ، المعروفة اليوم في بعلبك ويدل على إقامته في
هذه القرية قوله :

ما مقامي بأرض نخله إلا كقسام المسيح بين اليهود
قال العكبري في شرح هذا البيت : دار نخله على ثلاثة أميال من
بعلبك وهي قرية لبني كلب .

وروى التنوخي عن أبيه عن أبي علي بن أبي حامد قال : سمعت
خلقاً بحلب يحكون - وأبو الطيب المتني بها إذ ذاك - أنه تنبأ ببادية
السموة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية
فقاتله وأنقره وشرده من كان اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرها من
قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلاً فاعتل وكاد أن يتلف حتى
سئل في أمره فاستتابه . ثم قال : وكان قد تلا على البوادي كلاماً
ذكر أنه قرآن منزل (١) .

وهذه الرواية تقول إنها سمعت بحلب وجاء بها بلفظ (ويحكون)
وانها حكيت وأبو الطيب في حلب إذ ذاك أي في زمن سيف الدولة
وبعد نيف وعشرين عاماً من خروجه وهي لا تتعرض لدعوى العلوية ، بل
تقول إنه أظهر النبوة وتبعه خلق من قبائل شتى اجتمعوا عليه وان الذي
خرج اليه وحبسه واستتابه هو لؤلؤ الاخشيدي .

وقال الثعالي « وقد بلغ من كبر نفسه وبعدهمته ، أن دعا إلى
بيعته قوماً من رائشي نبهه على الخدائفة من سنه والغضاضة من عوده ،
وحين كاد يتم له أمر دعوته ، تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع اليه
ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده (٢) »

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤ .

(٢) بئمة الدهر م ١ ص ٧٩ .

ويحكى أنه تنبأ في صباه وفتن شردمة بقوة أدبه وحسن كلامه ،
وحكى أبو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول إنما لقبت
بالمُتنبِّي لقولي :

أنا رب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في عمود^(١)

وروايتا الثعالي هاتان تدل اولاهما على أنه دعا إلى بيعته ولم تصرح
بان البيعة كانت للنبوة أو للولاية . وعلى أنه قبل أن تم دعوته حبسه
الوالي وانه كان هم بالخروج أي أنه هم ولم يفعل ، فهو اذاً على هذا
لم يخرج فعلا .

وجاء الثعالي في الثانية بلفظ (ويحكى) مما يدل على توهين أمرها
وزاد في التوهين تعقيبه لها بما رواه ابن جني عن المتنبِّي نفسه في سبب
تلقية المتنبِّي وفوق ما رواه ابن جني تنصُّل أبي الطيب من دعوى التنبؤ
والقرآن المزعوم ، فقد روى التنوخي عن أبيه أن المتنبِّي كان إذا شوغب
في مجلس سيف الدولة ونحن إذ ذاك بحلب نذكر له هذا القرآن وأمثاله
مما يحكى عنه فينكره ويمجده ويقول أنا لست أرضى أن أدعى بهذا
(أي بالمتنبِّي) وإنما يدعوني به من يريد الغض مني .

فلمتفق عليه إذاً من هذه الأحاديث أنه حاول الخروج على السلطان
وانه حبس في ذلك حبساً طويلاً حتى كاد يئلف وانه استناب واطلق ،
وهذه الروايات إنما هي عن أقرب المؤرخين اليه عصرأ فالخطيب البغدادي
ولد سنة ٣٩٢ والثعالي ولد في حياة المتنبِّي سنة ٣٥٠ والظاهر ان اعتماد
من تأخر عنها في حديث المتنبِّي كان عليها ، ويظهر من التدقيق في نص
هذه الروايات القول بأنه هم بالخروج وانه خرج في طلب إمارة هو أقرب

(١) اليتيمة ١٢ ص ٨٠

الى الصواب من أنه تنبأ واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى ومن أنه أظهر قرآناً لأن الرواية التي تقول هذا لم تخل من كلمات تحفظ مثل أسنادها الى الحكاية ومثل ان الرواية كانت بحلب وأبو الطيب إذ ذاك بها بخلاف الرواية الأولى التي أرسلت كأنها حقيقة ، وأنت تعلم أن أبا الطيب في حلب زمن سيف الدولة كان يستغيث من كيد حساده وقوة بأسهم وشدتهم في الغض منه والحط من شأنه فيقول له :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسداً

أولئك الذين أخرجوه من حلب مغاضباً سيف الدولة لأنه لم ينتصر له منهم على شدة حبه له وحنينه اليه بعد فراقه ، ويحكى عن بعضهم أنه مات حسداً لأبي الطيب وحنقاً منه .

وفي الصبح المتنبي رواية أخرى غير ما تقدم وهي أن المتنبي خرج بأرض سلمية من أعمال حمص في بني عدي وان الذي قبض عليه هو ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين وانه أمر النجار أن يجعل في رجله قرمتين من خشب الصفصاف وان المتنبي قال في ذلك :

زعم المقيم بكوتكين بانه من آل هاشم بن عبد مناف

مذصرت في أبياتهم متنبأً صارت قيودهم من الصفصاف

وانه كتب إلى الوالي من السجن يستعطفه بقوله :

ان يكن قبلاً أن رأيتك أخطأ ت فاني على يديك أتوب

عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب

وظاهر هذه الرواية أن الذي قبض عليه وحبسه ثم تاب على يديه هو

ابن علي الهاشمي ، وان خروجه كان بأرض سلمية في بني عدي .

دفاعه عن نفسه وهو في السجن

هذه هي الروايات المختلفة في ما رمي به المتنبي ، فلنرجع في التحقيق

إلى ما يقوله هو في دفاعه هذه التهمة ونستخرج من قصيدته التي أرسلها

من سجنه إلى الوالي (لأئحته الدفاعية) التي يستحق عليها اجازة كلية
(ايسانس) فهو يقول :

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود
فمالك تقبل زور الكلا موقدر الشهادة قدر الشهود
فلا تستمعن من الكاشحين ولا لعبان بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت تودعوى فعلت بشأ وبعيد
تمجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
وفي جود كفيك ماجدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

ان أبا الطيب قلب الدفاع في أبياته هذه على وجوه :

الأول : أن يقابل الدعوى بالإنكارها من أساسها بقوله فمالك تقبل
زور الكلام .

الثاني : أن يردّ شهادة الشهود بجرحه لهم لأنهم سفلة سقاط ذوو
محك كمحك اليهود بقوله : وقدر الشهادة قدر الشهود . وقوله : ولا تستمعن
من الكاشحين .

الثالث : على فرض قبول شهادتهم وعدم قبول هذا الجرح فان
شهادتهم جاءت على أنني أردت لا على أنني فعلت ، والحد والعقاب لا يبيان
على معتقد الجرم ما لم يفعله فاذا هو فعله استحق العقاب على الفعل ،
وأنا لم أفعل فلا عقاب علي . وذلك في قوله : وكن فارقاً بين
دعوى أردت .

الرابع : وعلى فرض رد ذلك كله ، فانما تجب الحدود على البالغ
وأنا صبي لم أبلغ الحلم ولم تجب علي الصلاة ، فكيف يحكم علي بالعقاب
والعقاب فرع التكليف ، وأنا لم أكلف فلا عقاب علي . وفي ذلك يقول
تمجل في وجوب الحدود .

الخامس : وعلى فرض الاعراض عن كل ما جئت به من وجوه الدفاع فإني أطلب العفو والصفح وهذا آخر ما يطلبه المحكوم عليه وهو قوله :
وفي جود كفيك ما جدت لي .

ويظهر من هذا أن التهمة وجهت إليه وهو دون سن البلوغ أي دون سن الخامسة عشرة من عمره ، وهي السن التي يقع معها التكليف ، أو كان حوالها على فرض المبالغة ، وفي تفننه في وجوه الدفاع بل في إنكاره التهمة من أساسها ما يدل على أنه ما ادعي عليه به من التنبؤ لم يكن على حد التواتر ، ولو انتشرت دعوته واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى لكانت لأجلها متواترة ، وكان مثل هذا الدفاع ومثل هذا الإنكار مكابرة ومماحكة وهراء من القول فكيف يتسنى لأبي الطيب حينئذ أن ينكرها من أساسها بل كيف يتسنى لمثل أبي العلاء المعري وهو أقرب الناس إلى زمانه وأكثرهم معرفة به واعجاباً أن يشكك فيها !

من الزي سجنه

بقي الكلام في امم الوالي الذي قبض عليه وسجنه ثم استتابه وفي هذه القصيدة من صفات الوالي ما يدل عليه ، وقد سميت مما تقدم أنه أحد الرجلين : لؤلؤ الاخشيدي أو ابن علي الهاشمي . يقول أبو الطيب :

فمن كالأمير ابن بنت الأمير أم من كآبائه والجدود
رمى حلباً بنواحي الخيول وسمر يرقن دماً في الصعيد
فولى بأشباعه الخرشني كشاء أحس بزأر الأسود

قالوا لي إذاً هو أمير ابن بنت أمير له آباء وجدود يفتخر بهم ، وليس للؤلؤ مثل هذه الصفات لا حقيقة ولا ادعاء فكونه ابن علي الهاشمي أقرب إلى التحقيق . ويدل قوله : رمى حلباً بنواحي الخيول انه قاد الجيوش إلى حلب ، ولم تكن يومئذ حرب بين حلب وحمص ، فهو إذاً قد

ساقها لنصرتها لا لحربها وذلك فيما وراء حلب لقتال الروم بدليل قوله فولى بأشباعه الخرشني ، وايس الخرشني إلا الدمستق صاحب عسكر الروم شرقي القسطنطينية وكانت له حرب مع هذه البلاد في سنة ٣١٩ وعمر أبو الطيب يومئذ ست عشرة سنة ، وأرجح أن متولي كبر الكراهية في هذه الحرب بنو حمدان أمراء الموصل لأن حفظ ثغور الروم كان مفوضاً اليهم من خليفة بغداد ، ولم يكن الاخشيدون يوماً من الايام مناصرين للحمدانيين .

بعر السجن

قال ياقوت « ولم يزل (المتني) بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى ائصل بأبي العشائر (ابن حمدان) ومدحه وعرف منزله وكان والي انطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة انطاكية قدم المتني اليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه منزله من الشعر والأدب » وسيف الدولة ملك حلب سنة ٣٣٣ وعرفه سيف الدولة منذ قدمه أبو العشائر كما هو ظاهر قول ياقوت سنة ٣٣٧ فتكون المدة بين خروجه من السجن واتصاله بسيف الدولة حوالي سبعة عشر عاماً .

وما زال أبو الطيب في ضنك عيش وسوء حال بعد خروجه من السجن يدفع هم الفقر بطرق أبواب الأمراء والولاة ، فلا يجد عندهم إلا خسيس العيش ولم ترفعه صلاتهم الى أن يستبدل بنعليه مركوباً ولا برجليه راحلة فيقول يومئذ :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدا
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

ويقول :

ومهمه جفته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل
في سعة الخاقين مضطرب وفي بلاد عن أختها بدل

ويقول في قصيدته الدينارية :

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستمطراً مطرت علي مصائبها
وحُبِّيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكباً
فكان من جملة مصائبه أن يفرغ إلى علي بن منصور الحاجب من
جور زمانه ويمدحه بمثل هذه القصيدة الغراء فيجيزه عليها ديناراً واحداً
وكأنه أراد أن يمن عليه بهذا الدينار ليشتري به بدلاً من حدائه الذي
قطعه في المشي إليه .

ويقول المتنبى في قلة الجدوى :

لم الليالي التي أختت على جدتي برقة الحال واعذرتني ولا تلم
أرى اناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم
والظاهر أن أول من اتصل به من الرؤساء هو أبو عبد الله معاذ بن
اسماعيل اللاذقي فان معاذاً يقول : انه جاء اليه في سنة ٣٢٠ ولا عذار
له وله وفرة جميلة . وارجح أن اتصاله بمعاذ إذا صح أنه كان سنة ٣٢٠
كان بعد خروجه من السجن ، لأنه لما كان في السجن بدعوى
الخروج (ولم يعلم أنه سجن قبلها أو بعدها) كان في الخامسة عشرة أو
حواليها . وأما ما جاء في حديث معاذ من أنه مخرق له وأغواه بضرب
من السحر تعلمه من اليمن ، وأن معاذ رجع عن الغواية به لما علم أن
ما جرى منه كان قد تعلمه من اليمن بعد أن سأله هل دخلت السكون ؟
فأجابه المتنبى نعم أما سمعت قولي :

أمنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيما

فهو ظاهر الوضع لأن البيت المذكور هو من قصيدة مدح بها
المتنبى علي بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٣ على أنه لم يرو أن المتنبى دخل
اليمن وما السكون وحضرموت وكندة في البيت إلا أسماء محال بالكوفة
قال ذلك شراح ديوانه .

قضى أبو الطيب ثلاث عشرة سنة بين اللاذقية ومنبج وطرابلس وطبريا
والرملة وغيرها من البلاد لا يروي ظمأه الى المعالي ولا يبلغ آماله من
المال ، وكان في تلك الحال السيئة يقول :

إذا لم تجد ما يتر القفر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يتر العمرا
هما خلتان : ثروة أو منية لعلك أن تبقى بواحدة ذكرى

وما زالت هذه حاله حتى نعم بكرم أبي العشائر ، فاستيقظت مع الرخاء
ونعمة العيش روح كبرياته ، ولما أراد سيف الدولة لصحبته لم يجبه
أبو الطيب إلا على شرط أن لا ينشده قائماً ، وأن لا يقبل الأرض بين
يديه كما كانت سنة الشعراء مع الملوك والأمراء يومئذ وقبل سيف الدولة
شرطه حرصاً على الاستئثار بفرائده وقلائده الخالدة على الدهر ، وهذه
الميزة لم يعطها سيف الدولة لأحد ممن كان في حضرته من الشعراء
غير أبي الطيب ، ولما أنشده أول قصيدة مدحه بها وقال في مطلعها
« وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » اعترضه ابن خالويه وكان حاضراً ،
فقال لأبي الطيب أتقول أشجاه وإنما هو شجاه فقال أبو الطيب له
(اسكت ليس هذا من علمك إنما هو اسم لا فعل)

وابن خالويه من أئمة العربية يجبهه أبو الطيب بمثل هذه الغلظة لأنه
انتصر عليه وهو من الاعتداد بنفسه وبعلمه بالمحل الذي علمت .

ولعل هذا التعاضم من أبي الطيب على ابن خالويه كان أساساً
للتعادي بينهما الذي انتهى أمره بأن ضربه ابن خالويه بمفتاح من حديد
على وجهه في حضرة سيف الدولة فأدماه .

توالت نعم سيف الدولة على أبي الطيب فاستبدل بالأسود الداروش أفراساً
نعلها من عسجد وترك السرى وقطع القفار لمن قل ماله وأصبح يقول :

في الشرق والغرب أقوام نجبهم فبلغناهم وكونا أبلغ الرسل
وخبراهم بأني في مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

ولكن أبا الطيب لم يجد بعد هذا كله قيد الاحسان يقيدده في ذرى
سيف الدولة كما زعم .

شهرته الطائرة في شعره وأثرها في طموحه وكبرياءه .

يقول صاحب المثل السائر : « وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت
في أشعاره الأعين وكثر الناسخ لشعره . والغائص في بحره والمقتبس
من جمانه ودره » وإنما شهرة أبي الطيب إنما نمت وعمت منذ اتصل
بسيف الدولة فأكثر هذا حساده بكثرة انعامه عليه وبما رفع من
منزلة لديه .

نشطت روح الطموح في أبي الطيب بعد أن سار ذكره في الأقطار
مسير الشمس وتناقل شعره البدو والحضر وعمرت به أندية الأدب ،
واستعان بألفاظه ومعانيه جمهور الكتاب حتى من كان شديد الكره له
عظيم النعمة عليه كالصاحب بن عباد .

ويقول ابن العميد وقد ماتت أخته : « انه ليغيطني أمر هذا المتنبي
واجتهادي في أن أحمده ذكره ، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في
التعزية ، ما منهم إلا وقد صدر كتابه بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ، وهذان البيتان من قصيدة أفندھا
أبو الطيب إلى سيف الدولة في رثاء أخته سنة ٣٥٢ وكان اتصال أبي الطيب
بإبن العميد سنة ٣٥٤ ولا ريب أن غيظ ابن العميد منه كان قبل أن يقدم عليه ،
فلا يكون إذاً بين نظم القصيدة وانتشارها بين المتأدبين والكتاب في كل
البلاد حتى استفتح بأبياتها هذا العدد الجم من أدباء الأقطار المختلفة ،
إلا عام وبعض عام ، على تباعد الأقطار وصعوبة الأسفار .

وجاء في الصبح المنبي عن بعض أئمة الأدب أن رجلاً من مدينة السلام كان كلما دخل بلداً يسمع فيه ذكر أبي الطيب يرحل عنه حتى وصل أقصى بلاد النرك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعدما ذكر أسماء الله الحسنى :

أسامياً لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها
فرجع إلى دار السلام .

فلا عجب إذا لرجل ملاً ذكره الأسماع وشغل الدنيا كما يقول أن ابن رشيق أن يزداد كبيراً وتعاظماً ويقول لسيف الدولة :

أنلي إذا أنشدت شعراً فاعلم بشعري آتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فاني أنا الصالح المحكي والآخر الصدا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قل شعراً أصبح الدهر منشداً

وأن يترفع بعد هذا عن مدح غير الملوك وأعيان الزمان ، فلم يجب دعوة الصاحب ابن عباد مع ما بذله هذا من الجهود لاستقدامه إليه . فيقول أبو الطيب فيه : « أن غليماً معطاء بالري ، يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك » علم أنه معطاء يسني الجوائز ، فلم يستمله ذلك إليه لأنه استغنى ، فلم يفعل ما كان يفعله أيام بؤسه لغلبة عزة النفس والكبرياء عليه .

وقد أثار إعراضه هذا حفيظة الصاحب ، فاتخذ غرضاً برشقه بسهام الوقعة ويتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته وهو أعرف الناس بحسناته وأكثرهم حفظاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتبته^(١) وأعرض عن الوزير المهلي وزير الدولة البويهية في بغداد حتى أغرى هذا به حساده من شعراء العراق كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي والحامدي وغيرهم ، فنالوا من عرضه وتباروا في هجائه

(١) القيمة

وتماجنوا وتنادروا عليه . ولما قيل له في ذلك لم يزد على قوله « فرغت
من اجابهم بقولي في من هم أرفع طبقة في الشعر منهم :
أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجرد مرأبه المساء الزلالا
وخشي ابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه وزعيم الحضرة والمقيم
بمصالح المملكة في أركان وهو على أشد ما يكون من الرغبة في لقاءه
واستقدامه اليه ، أن يعرض عنه كما أعرض عن زميله المهلي في بغداد ، فقري بذمه
وانتقاده ، حتى إذا جاءه أبو الطيب مراغما المهلي ، فتح له ابن العميد
صدره وأجزل ثوابه وأحسن وفادته ، وسئل ما كان في نفسه عليه من موجدة .
وأنف أبو الطيب من مدح ابن حنزابة وزير كافور والمقرب
منه ، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة ، ومن الأدب
والعلم بموضع جليل . فأفسد هذا عليه كافوراً بما كان يقبح أثره عنده ،
وبما كان يئنه على مغامرة في مديحه له حتى خرج أبو الطيب من مصر
خائفاً يترقب واتخذ الليل جملًا وهرب .

روح أبي الطيب في الإباء قوية ؛ ولكن طمعه في الولاية ولذة الامر
والنهي والاستملاء وافراطه في هذا الطمع غطى على هذا الإباء في بعض
المواقف ، فاستقاد واستذل ، وإلا فما معنى قوله في كافور بعد أن ترك
سيف الدولة :

قواصد كافور توارك غيره

وخلت سوداً خلفها ومآقيا

* * *

فأصبح فوق العالمين يرونه

وان كان يدينه التكرم نايبا

ويقول فيه :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه

فحتى يملأ الأفعال رأياً وحكمة

وان لم تشأ تلي علي فاكتب

وبادرة ابان يرضى ويغضب

يقول هذا وكثير مثله فيه وهو العبد الزنيم الذي أذنه في يد النخاس
 دامية وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه ما لم يقبله من سيف الدولة
 فيخضع للانشاد بحضرتة قائماً وهو يعلم أن الفرق بين سيف الدولة وكافور
 علماً وأدباً ونسباً وشرفاً ونوالاً ، كالفرق بين الدرّة والبصرة لا يقاس بمد ،
 وما كان كل ذلك الا طمعاً في الولاية ، ولعله طمع في خداع هـ ذا
 الأسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد في تملقه اذ يقول
 له ولم يفتأ يذكر الولاية :

اذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية	فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه	حذائي وابكي من أحب وأندب
أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم	واني من المشتاق عنقاء مغرب
فان لم يكن الا أبو المسك أدم	فانك أحلى في فؤادي وأعذب

وليس هذا ملق كاذب أن يجعل الأسود الذي مشفره نصفه أحلى
 في فؤاده وأعذب من اهله الذين يحن اليهم هذا الحنين ويهوى
 لقاءهم كما ترى .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع

للأستاذ سليم عنجوريت

أيها السادة : لقد أسمعكم هذا المنبر منذ عامين محاضرات جمة . وخطباً عديدة في الأدب واللغة وأنواعاً شتى من العلوم والفنون . فلاق بي الآن ان انتقل بكم في محاضرتي هذه الى موضوع أخلاقي عمراني . هو مزينة من مزاياكم . ومكرمة من مكارم أسلافكم . له عظيم تأثير في حالة الاجتماع الانساني شرقاً وغرباً ، بدواً وحضراً . الا وهو الكرم . وفي يقيني انكم تجدون فيه لذة وفكاهة . وارتياحاً وعبرة . فأقول :

الأغنياء يعظمون لانهم أقوى على الامداد والاحسان
فاذا تباخل ذوغنى أضحى الفقير أجلّ نفماً منه للعرمان
فعلامٌ يُكرمُ منعم ذو ثروة لم يُجد خيراً عالم الانسان
وللامُّ يرزى بأئسُّ ذو حرفة يشقى ليثعم ذو الغنى المتواني
سبحان ربي كم نرى في ذا الورى حيفاً وظلماً واضح البرهان

الكرم ، والجود ، والسخاء ، والحياء ، والسماحة ، والعرف ،
والمعروف ، والعرفان ، والنوال ، والنازل ، والرّفد ، والاحسان ،
والبذل ، والجدي ، والتندي ، والمنح ، والنفح ، والسيب ، والنفل ،
والهبة ، والصلة ، والهدية . كلمات مترادفة تدل مع بعض الفوارق على معنى
واحد . يراد به العطاء نبلاً وأريحية . او عطفاً وشفقة . او إغاثة
ومعونة بلا مقابل مادي . او موجب ديني أو قضائي .

فالكرم إذن بمقتضى هذا التحديد والتعريف لا يكون اداءً لدين او
سابق حق . ولا وفاءً لركاة . او نذر . ولا جزاءً لعقوبة . او ضماناً

اغرامة . او صلحاً عن خصومة . او قياماً بما يلزم المرء عيالته من
اليتامى والاقربين . فان هذه المعدودات وأشباهاها انما هي من قبيل ايفاء
الحقوق وبراء الذمم والنهوض بالفروض والواجب فلا تحسب من الكرم
في شيء كما تعلمون .

والكرم نوعان إما خاص وإما عام . فالخاص ما شمل شخصاً أو أسرة
او جماعة في حال من الاحوال . فيكون نفعه موقتماً ومنحصراً بالمحسن
اليهم دون سواهم . والعام ما يبذل في سبيل خيري " او علمي " . بحيث ينفع
قوماً بجملتهم او أمة بأسرها أمداً مديداً . وكلاهما مفيد ولازم للجامعة
الانسانية . وان كان الثاني أنفع وأبقى وأعم وأتم .

ولا فرق من حيث النتيجة بين ان يكون العطاء عفواً قبل الطلب .
او تلبيةً للسائل بعد الطلب . وان كان الاول منها أوضح دلالةً . وأنصح
برهاناً على علو كعب الكريم الجواد واتساع مروءته ونزاهة غايته .
قال الحسن رضي الله عنه : المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة .
فمن تعطيه بعد المسألة انما يأخذ بما بذل لك من ماء وجهه .

وكان قد دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه فرآه يتأوه لدين
عليه : ستين الف درهم لا يجد له قضاء فحملها عنه قبل السؤال ومضى .
والى فضل هذا النوع من العطاء أشار يزيد بن محمد المهلبى مادحاً
الوزير سليمان بن وهب :

وكم ملحف قد نال ما رام منكم ويمنعنا من مثل ذاك التجميل
وعودتمونا قبل ان نسأل الغنى ولا بذل للمعروف والوجه ' يبذل
وشر العطاء ما جاء بعد وعدٍ ومطل . وتسويفٍ وتأجيل . ولذلك
قيل : « خير البر عاجله » .

مدح بشار بن برد أحد الامراء فوعده بجائزة ثم مطله زماناً ، ثم
حجبه فاعترضه يوماً في الطريق بعد ان سئمت نفسه وقبض على شكيمة
فرسه وأنشد :

أظلت علينا منك يوماً سجابة* أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يصحو فيأْسُ طامع* ولا غيها يهمني فتروي عطاشها
نخجل الأمير وبذل له صلته .

وقد تعجبون يا سادتي لكثرة الكلمات الدالة على معنى الكرم . ولكن هذا العجب يزول متى عرفتم ان العرب من شأنهم اذا أحبوا شيئاً ، او خافوا شيئاً ، او تفاخروا وتنافسوا في شيء أكثروا له من اسماء الذات والصفات حتى لقد يتجاوزون في بعضها المئات : كالإبل والأسد والخيل والحية ، والسيف والرمح والمرأة ، والحجرة ، وغيرها وغيرها . تلك مزية تفردت بها هذه اللغة الشريفة فلا يضارعها بها غيرها من سائر اللغات . والكرم كما تعلمون من مميزات هذه الامة ، واسمى مفاخرها . وبه اشتهرت في كل دور من أدوارها - اي حال جاهليتها واسلامها . وفي أطوار بداوتها وحضارتها ، وفي عهد تقدمها وتأخرها - فلا عجب اذا تسكَّرت فيها اسماءه وتعددت صفاته . وهو في عرف اهلها سجية من سجايا النفس يهتز لها الجواد اهتزاز المهتد في كف الشجاع ، فتفيض يده بما تفيض إحساناً على من يريد ، فيضاً تنبسط له روح المحسن كما تسرُّ به نفس المحسن اليه على حد قول القائل :

تموّد بسط الكف حتى لو انه اراد انقباضاً لم تطعه أنامله
يفيض سروراً كلما فاض سيّبه كأنك معطيه الذي انت ناقله
فلو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتنق الله سائله

وهذه السجية موهبة من مواهب الله عزّ وجلّ يخصُّ بها من طاب عنصره . وسمت أعراقه من عباده . فلا تأتي تكلفاً ولا تطبعاً : فان البخيل اذا تظاهر بالجود حيناً من الدهر لغرض في النفس او حياءً من الناس او تطالّ لمنزلة الاجواد لا يبطيء ان يمود الى سالف حاله . وسابق حسنه . ولقد صدق من قال :

كل امرئٍ راجع يوماً لشيئته وان تخلّق اخلاقاً الى حين

وكنى بالكرم شرفاً أنه من صفات الجمال المطلق والكمال الالهي والله فيه من الاسماء الحسنى . الكريم . والاكرم . والجواد . والمعطي . والمحسن . والواهب . والوهاب . والرازق والرزاق . وما بعد ذلك من حاجة لمستزيد .

وللعرب في الكرم كما قلنا الطراز المعلم ، والحظ الاوفر ، والذكر الشائع . وان أمة نشأ فيها امثال (كعب بن مامة) الايادي الذي آثر رفيقه على نفسه بنصيبه من الماء وهو يموت من الظم ، واضراب (حاتم الطائي) الذي ذبح ايام المجاعة فرسه ليطعم ضيوفه واهل حيه ، وهو جائع لا يبقي لنفسه قوتاً . واشباه (هرم بن سنان) المرسي الذي كان يحمل الديات عن ذوي الثارات ليصلح بين القبائل حياً للدماء ، وإزالة للشحناء . وأنداد (صعصعة بن ناجية) الدارمي التميمي جد الفرزدق الشاعر المشهور محي الوئيدات اي البنات اللواتي اعتاد العرب في جاهليتهم ان يدفنوهن حيات ليأمنوا شرهم إملأهن في المجاعات وعار سبيهن في الغارات : فان (صعصعة) هذا كان يفتديهن من آباءهن بالمال استحياءً لهن حتى جاءهم الاسلام فحرم الوأد . ومنعه بعد اذ كان (صعصعة) استحيى اربعمائة فتاة وفي ذلك يقول حفيده الفرزدق :
وجدي الذي منع الوائدات واحيي الوئيد فلم يوأد

أجل ! ان أمة نبغ فيها امثال هؤلاء الاجواد في الجاهلية . ومئات بل الوف غيرهم في الاسلام ممن نضرب بمجودهم الامثال . وتفيض بذكر ماثرهم الاندية والاوودية — لجديرة بالقول انها المجلية في مضار البذل والعرفان بين أمم الأكوان . منذ خلق قحطان حتى هذا الزمان .

ولم يقتصر الكرم العربي على الرجال فقط فقد نبغ في نساءهم من حاكينهم فيه : فسفانة بنت حاتم كانت كأبيها تقري الضيوف وتهب الالوف وتكسو الفقراء الشفوف ولا تبالي .

وأم البنين بنت عبد العزيز الأموية تمتق في كل يوم رقبة وتحمل

عتيقها على فرس وتقول « لو كان البخل قميصاً ما لبسته ، ولو كان طريقاً ما سلكته » .

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : ارسل اليها عبد الله بن الزبير مئة وثمانين الف درهم فقسمتها بين الناس فما امست وعندها منها درهم واحد . ولقد روي عنها ايضاً أنها احسنت بسبعين الف درهم في يوم واحد وهي في درعٍ مرقعٍ لا ثوب لها سواه .

وسكينة بنت الحسين رضي الله عنها كان يحتكم اليها مجيدو الشعراء كالفرزدق وجريير وجميل وكثير ونصيب فتسمع ما يقولون وتحكم بينهم ثم تحسن اليهم حتى انها اعطت جميلاً العذري في يوم واحد كسوةً وطيباً وخمسمائة دينار ولكل من رصفائه مئة مئة .

وزبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد : اقيها نصيب (الصغير مولى المهدي) في طريق الحج فترجل وأنشد ابياتاً منها :

سيستبشر البيت الحرام وزمزم بأم ولي المهديين المواسم
ويعلم من وافي المحصب أنها ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم
فجادت عليه بعشرة آلاف درهم وفرس .

والعباسة بنت المهدي مدحتها جنة بنت نصيب هذا باربعة ابيات آخرها :
عليك ابنة المهدي عوزي ببابها فان محل الخير في حيث حلت
فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب .

وأم سلمة زوج السفاح سمعت كلاماً مستحسنًا قاله خالد بن صفوان لزوجها فأمرت له بخمس بدر وخمس حبل .

وفيما ذكر غني عما لم يذكر من امثال هذه النوادر الدالة على جود ربات الحجال فان المقام مقام الماع وايجاز لا مقام تفصيل وإسهاب . ولم ينته الكرم بأهله الى هذا الشأ ، ويرتفع بصاحبه الى الاوج الاسمي من المجد والسؤدد الا لأنه المرآة الصافية التي تتجلى من شعاعها عاطفة الانسان نحو اخيه الانسان . ومبلغ ما تكنه الافئدة النقية من

شواعر الرقة والرأفة والحنان . فهو كما لا تجهلون ابن الرحمة وأثرها الظاهر للعيان : فان الأريحية لا تنبعث في النفوس فتفيض على الألف فتتهلل لها الوجوه بحيث تكشف ضيماً ، وتزحزح بلاءً ، وتدفع مصيبة ؛ الا اذا مست الرحمة قلوب أصحابها ، وتسربت الشفقة الى صميم شغافها . فتحدو بها إغائنة ذي المحنة بالمال الذي يسمونه سيد الارض ، وعديل الروح وقاضي الحاجات - وما إطلاقة من الايدي بالهين السهل - لولا ذلك الشعور الفاعل بالاعصاب الحساسة فعل الكهرباء الا وهو الرحمة الباعثة على المسكارم .

ولقد جاء في الحديث النبوي الكريم : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » فالمراد من الرحمة هنا ليس التوجع والتفجع لمصائب الناس فحسب ، بل يراد بها مع ذلك ظهور آثارها بالمعونة والاعانة والامداد مالاً وجاهاً وعملاً على قدر الوسع والطاقة بلا من ولا إذاعة ولا استعلاء لان الرحمة غير المقرونة بالاحسان والاسعاف لا نفع لها ولا جدوى ما دامت مقصورة على التأوه والتألم فقط ولا تتعداه الى الاعانة والمعونة التي هي أس العمران ودعامة الحياة وركن الاجتماع .

يظن بعض الناس ان التعاون انما يراد به ان يكون احدنا مثلاً ناسجاً والآخر حراناً والآخر نجاراً . فيتبادل كل منا حاجته من الآخرين بالشراء بحيث تستغني الافراد عن تعدد الاعمال التي تقتضيها الحياة ؛ وهو ما يقال له (توزيع الاعمال) وتبادل المنافع . وعليه تجري جميع أمم الارض ، وبه تقوم الحضارة ، ويصلح شأن الجماعات في كل عصر ومصر .

أجل ان ما وصفناه هنا انما هو ضرب من ضروب التعاون الذي هو نتيجة ضرورية وطبيعية لحياة المجموع . وایس هو التعاون كله : فان له ضروراً أخرى أهمها ما كان صادراً عن عاطفة الرحمة : فان الحياة الدنيا كثيرة المعثر والصدمات والجوائح والامراض . فاذا لم يكن كل فرد عوناً لصاحبه او لمن حوله من بني نوعه حال عثاره ومحنته سقط

المجموع لتخاذل الافراد وآل امره الى التمس والشقاء المؤديين الى الضعف والبنوار والانتقراض وهيات يتوفر لامة حظ او يستقيم لها شأن الا بهذا الضرب من التعاون المجاني الطوعي الذي نسميه هنا كرمًا وإحسانًا وعاطفة ورحمة بل بمقدار ما يزداد عدادُ الرحماء الكرماء المحسنين في قوم زادت حياتهم بسطةً ومنعةً ومعيشتهم راحةً ودعةً . وظهر في أفرادهم وبمجموعهم من آثار القوة والنعمة ما ينيلهم الغبطة والسعادة والنعيم والهناء والعكس بالعكس . ولكن قل من يتفكرون .

لقد مرَّ بكم يا سادتي عن الكرم واسمائه ومعانيه وحدوده ومنزله وأنواعه وتأثيره في المجتمع الانساني ما يحتمله المقام . ولقد رأيت قبل ان أعالج تقسيمه الى اقسام تتميز فيها منافعه من مضاره ان أروي لكم لعماء من مكارم الأجواد من السلف بما فيه فكاهة وعبرة وذكرى .

فمن هؤلاء (حاتم الطائي) الذي مرَّ بكم ذكره وهو أشهر أجواد العرب ذكراً وأبعدم صيتاً . واليه ينسب الكرم في الجاهلية . فيقال (كرمٌ حاتمى) كما ينسب في الاسلام الى البرامكة وزراء الرشيد فيقال (كرم برمكي) . . .

وكان حاتم هذا مع جوده شاعراً مطبوعاً وبطلاً مغواراً وغازياً مظفراً اذا قاتل غلب ، واذا غنم أنهب ، واذا سئل وهب ، واذا ضرب بالقداح فاز ، واذا سابق سبق ، واذا أسر أطلق .

ومما تفوق به على اقرانه حتى كان سبباً لشهرته وإذاعة صيته انه كان يرسل عبده في ليالي الشتاء الباردة المظلمة فيضرمون النار على رؤوس النجاد ، وفي مفارق الطرق ، ليهتدي بها أبناء السبيل ، فيقصدونه للقيرى والمبيت . فاذا جلبت النار ولو ضعيفاً واحداً عتق موقدها من الرق سروراً بضيفه وفي ذلك يقول مخاطباً عبده :

اوقد فان الليل ليلٌ قَرٌّ عسى يري نارك من يمرُّ

ان جلبتُ ضعيفاً فأنت حر

وكان اذا أهلّ الشهر الاصم الذي تعظمه العرب في الجاهلية نحر كل يوم عشرأ من الابل . فيطعم الناس . فلما زاد إتلافه المال وهو لا يزال في حجر اوليائه ارسله ابوه وقيل جده الى المراعي لبيعه عن الناس . فمرّ به هناك ثلاثة من الشعراء وهم عبيد بن الابرص وبشر بن ابي حازم ونايفه بني ذبيان ؛ ففرق بينهم ما لاهله من الابل وقفل الى الحيّ مسروراً كمن عاد من ظفر او غنيمة . ولما سأله جده سعد عن الابل قال له « طوّقتك بها طوق الحمامة مجداً وكرماً » فقال مغتاظاً (شهد الله اني لا أساكنك بعد اليوم ابداً) ثم ترك له جاريةً وفرساً ذات فلولٍ ورحل عنه . وفي ذلك يقول حاتم من ابيات :

وما ضرّني ان سار سعدٌ باهله وافردني بالدار ايس معي اهلي
سيكفي ابتناء المجد سعد بن حشرج واحمل عنكم كل ما ضاع من نفلي
فما عثم ان جاءه جماعة من بني أسد وقيس . وقالوا له : ان لنا صاحباً فقد راحلته فقال حاتم خذوا فرسي هذه واحملوه عليها . فلما اخذوها تبعها المهر فجرت الجارية ورائه لتمسكه وتعيده فصاح حاتم بالقوم « ما تبعكم فهو لكم » فذهبوا بالجميع ابي بالفرس والمهر والجارية . وبقى وحده لا يملك شيئاً .

ومرّ في احد الاشهر الحرم بقوم من بني عنزة واذا باسير لهم يدعوه باسمه ويقول له : انقذني فقد اكلني الايسار . فقال له : وبحك ما انصفتي فقد نوهت بي واستجديتني وانا هنا غريب ولا مال لي . ثم ساوم القوم وافتداه منهم على مال معلوم . وقال لهم : خلّوا سبيله . وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أعطي الفداء ففعلوا وما برح اسير القوم يقاسي الذل والامتهان حتى تيسر له الوفاء .

وقيل نزل عليه ضيف ولم يكن عنده شيءٌ فنحر ناقة الضيف واطعمه منها . ثم قال له قد نحررت ناقتك فاحتكيم قال (راحلتين) قال حاتم لك عشرون أرضيت فال نعم قال فلك اربعون . ثم قال لمن لديه من قومه من

أتاني بناقاة الآن فله ناقتان بمد الغارة فانوه باربعين فدفعها للضيف .
وأدأها لهم ثمانين .

وكان قيس بن عاصم المنقري من سادات العرب وأجوادهم فنزل به ذات يوم ضيف فأطعمه واكرمه جرياً على عادته . واذا بقومه يتصارخون ونسائه يبكين . فسأل ما الخبر ؟ فقالوا له ان ابنه قُتل . وان القاتل هو الضيف . فقال ما لكم اليه من سبيل ، فقد دخل في ذممي وتحرم بطعامي ، ثم عزل من ماله دية القتل ودفعها الى أمه ، وما زال يرعى ضيفه ويتحارسه حتى بلغ حماه .

وكان قيس هذا اذا قدموا له طعاماً يقول التمسوا أكيلاً اي ضيفاً يأكل معي فلم يأكل مرة وحده .

وشره ننافس العرب بايواء الضيف وإطعامه كائناً من كان انما هو كونهم اهل مضارب وخيام واصحاب إبل وشاة . يدفعهم الاحتفاظ بها والقيام على تربيتها وانماها الى انتجاع منابت الكلاء وارتياح مناهل الماء فهم ابدأً متنقلون من مرتع الى مرتع ، ومن سهل الى واد ، لا يستقر بهم مكان ، ولا يقوم لهم بنيان . فلا يجد المسافرون منهم في طول تلك البوادي وعرضها نزلاً او خاناً او دسكرة للمبيت او الطعام كما يوجد في المدن والعواصم على النحو المعروف منا الآن . فيلجأون بحكم الضرورة الى استضافة بعضهم بعضاً التماساً للراحة والنوم والقوت ، وتخلصاً من وحشة الانفراد في حنادس الليل ، ووقايةً لنفوسهم مما قد يفاجئها في تلك القلوات الخالية من عدو غادر ، او اسد كاسر ، او وحش جائع نافر . فمن كان من سادتهم واثرافهم كريم النفس ، واسع النعمة ، طلاباً للشهرة رفع عماد سرادقه ، وتوسط به الحي تمييزاً له عن سواء ليقصده المسافرون فيبذل طعامه للصادرين والواردين والرائحين والغادين ، ولو كابد في ذلك عرق القيربة ومنتهى المشقة .

ولقد شاعت هذه المكرمة فيهم ، وتمكنت من خاصتهم وعامتهم . حتى

عدّ الاضراب عنها والزهد فيها عاراً وسبباً تشتم فيها الابناء عن الآباء ،
وتدم الاحفاد عن الأجداد ، ولقد يطرق الضيف ارملةً عجوراً وحيدةً
لا مال لها الا شاة او عنز تقات بدرّها وتكتسي بصوفها او شعرها
فتذبجها اكراماً لضيفها وهي طليقة الوجه مبدولة الألسن ثم تبقى الى ماشاء
الله أليفة الفقر حليفة البؤس فيحسب عملها هذا مأثرة لها يتحدث بها
فتيانهم ، ويتناقلها ركبانهم الى امد مديد .

ولا يزال ذلك شأن البدو وبعض اهل المدر حتى يومنا هذا : فكم
وكم في بلادنا هذه من شيوخ عشيرة او قرية لا تطفأ ابدأ نارهم ولا
تنزل قدورهم يبسطون كل يوم عشرات من الاسمطة للذاهبين والآيبين
ويبدلون العلف والماء لخيول المقيمين والراحلين لا يلتمسون عن ذلك بدلاً
ولا يتنغون اجراً ، الا طيب الأحدثه ونباهة الذكر . وغاية ما يتطلون
اليه من دواعي الفخر ان ينزل بهم ضيف خطير فينحرون له كبشاً ،
ويطبخون ارزاً ، ويجمعون اهل الحي او القرية على جفانهم فيأكلون
هنيئاً مريئاً ، وينقلبون حامدين شاكرين .

واذا استقرأنا يا سادة ما مرّ بكم من اخبار الكرم الجاهلي نجده
منحصر في اربعة انواع : وهي بذل الديات عن متحاربي القبائل والعشائر
كما كان يفعل هريم بن سنان ، واستحياء المؤؤودات من البنات بافتدائهن
من آباءهن بالمال كالمأثور عن صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق . وافتداء
الاسرى بالمال او بالنفس كما فعل حاتم باسير بني عنزة . وقرى الضيوف
وابواء ابناء السبيل كما هو شائع عند الجميع .

وهذه الأنواع الاربعة منبعتة بالضرورة عن الحاجة فهي والحالة هذه
متلائمة مع عادات ومعايش الوسط الناشئة فيه . موافقة كل الموافقة لاقوام
رحالين ذوي غزوات لا تنقطع ، وأسفار لا تهدأ ، وعداوات لا تزول .
وفي ذلك برهان على ان أولئك البدو أقدر من كثيرين منا على إنزال
سخائهم مواضعه . بخلاف ما فعل حاتم من توزيع مال جدّه برمته بين

ثلاثة من الشعراء سرفاً وتبذيراً . واعطائه ضيفه بدل الناقة التي نحرها
لاطعامه اربعين ثم أداء الاربعين الى قومه ثمانين . بينما هو فقير وقير لا يملك
من حطام الا ما يؤمل اغتنامه من سلب ونهب عن طريق الغزو والحرب
فان في ذلك من سفه الرأي ما لا يصدر عن عاقل مفكر بصير .

بيد ان ظهور الاسلام وانصواء متفرقي القبائل وشذاذ القوم كافة
تحت لوائه بعد ان كادت تطحنهم الاحقاد والضغائن ، وتأكلهم الحروب
والغارات . ثم دخولهم عن طريق الجهاد والفتح في بلاد الفرس والروم
وما وراءها من شواسع البلاد وأطراف الممالك وانتقال الخلافة من الحجاز
الى الشام على العهد الأموي ثم الى العراق على العهد العباسي . كل ذلك
قد وسع نطاق الكرم العربي وحوّله الى جهات أخر . فتفنن فيه أجواد
ذلك العصر الذهبي تفنناً ينطبق على حضارتهم المكتسبة وثروتهم المغنمة ،
وترقيهم الناشئة حتى صار امير كعمن بن زائدة الشيباني - وهو من
صناع المنصور ورجاله - يركب في قسيته نصالاً من الذهب فيرمي بها
العدو والصيد وفي ذلك يقول الشاعر :

يركب في القسي نصال تبري ويرمي للعدى كرمأ وجودا
فلاأسرى شفاءً من جراح وأكفان ابن سكن اللحدوا

ومعن هذا رجل عصامي ، نشأ في بني شيبان وكان أدل يد على
الخليفة المنصور بان أنقذه من تهلكة فرجع شأنه ، وأسنى مقامه ، حتى
صار أميراً ممدحاً يشار اليه بالبنان . وقد اشتهر بالحلم كما اشتهر بالكرم حتى قيل
انه لم يفضب ، ولم يغتظ قط .

ولما شاع عنه هذا الخلق وتداولته الألسن تراهن احد شعراء
الأعراب مع قوم على مئة بعير يعطاها اذا استطاع إخراجهم وإخراجهم
عن حلمه ويعطيهم مثلها اذا أخفق . ففاجأ يوماً وهو على سريره بين
أشراف قومه وخاصة اهله . وابتدره بلا تحية ولا سلام بقوله :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة وإذ نعلك من جلد البعير

فبُهِتَ الحضور من قحة الرجل وسوء أدبه وتعمده الحط من كرامة
الامير . اما معن فبقي محافظاً على سكينته وأجابه بلا حدة ولا استياء
قائلاً : نعم اذكر ذلك ولا انساه . فقال الشاعر :

(فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير)

فقال معن : سبحانه على كل حال . فقال الشاعر :

(اميرٌ يأكل الفالوذ سرّاً ويطعم ضيفه خبز الشعير)

فقال معن : الزاد زادنا . نأكل منه ما نشاء . ونطعم ما نشاء .

فقال الشاعر :

(فليست مسلماً ان عشت دهرأ على معن بتسليم الامير)

فقال معن : السلام سنة تأتي بها كيف شئت . فقال الشاعر :

(سأرحل عن بلاد انت فيها ولو جار الزمان على الفقير)

فقال معن : ان جاورتنا فمرحبا بك . وان رحلت فمصحوب بالسلامة

فقال الشاعر :

(نجد لي يا ابن فاعلة بشي فاني قد عزمت على المسير)

فقال معن : أعطوه الف درهم . فقال الشاعر :

(قليل ما أتيت به وإني لأطعم منك بالمال الكثير)

فقال معن : أعطوه الفاً أخرى . فتقدم الشاعر الى سرير معن وقد

بَسَّ من إغضابه فقبل يده وقال :

(سألت الله ان يبيدك ذخرأ فمالك في البرية من نظير)

فقال معن : أعطيناك على هجونا الفين فأعطوه على مدحنا اربعة آلاف .

ولما عرف منه قصة الرهان الباعثة له على هذا التهجم أعطاه ايضاً مئة

بعير مكان التي خسرها بالرهان . ومئة أخرى بدل التي كان يتوقع ربحها .

واحاديث معن في الكرم اكثر من ان تحصى . ومما قيل فيه رثاء

له بعد موته :

(كأن الشمس يوم أصيب معنٌ من الظماء مُلبَّسةٌ جلالاً)
 (وكان الناسُ كلهمُ لمعنٍ الى ان زار حفرتة عيالاً)
 وقيل دخل يزيد بن مزيد مسجداً باليمن فوجد في قبلته مكتوباً :
 (مضى معنٌ وخلفني بيعي على معن بن زائدة السلامُ)
 فسأل يزيد عن قائله ولما اهتدى اليه أعطاه الف دينار . فقال الرجل
 يرحم الله معناً : فقد أحسن اليَّ حياً وميتاً .
 ومن فنون السباحة عند العرب قبل الاسلام وبمده ان يقصد الرجل
 جواداً منهم يؤدي عنه مهر فتاة أحبها فخطبها ولا مال له فيحمل عنه المهر
 مها كان جسيماً ويعطيه ما ينفق في وائمة بنائه بها . كما فعل عمر بن
 ابي ربيعة الشاعر غير مرة . وهو ايضاً من أفضل أنواع الكرم وأنجعها
 كما لا يخفى .

اما صلوات الشعراء بالألوف وعشرات الألوف فهو شأنهم بدواً وحضراً
 وجاهليةً وإسلاماً . وقد فاضت باخبارها كتب التاريخ . والادب العربي
 حتى لم تبق حاجة لمستزيد .

ومن لطيف فكاهات هذه الصلوات . ان علي بن جبلة مدح ابا دؤف
 القاسم بن عيسى العجلي احد كبار قواد المأمون ثم المعتصم بقصيدة
 منها هذان البيتان :

(انما الدنيا ابو دؤف بين يديه ومحتضره)

(فاذا وائى ابو دؤف ولئت الدنيا على أثره)

فأعطاه الف دينار . ثم بينما كان بعد أعوام يسير ابو دؤف في بعض
 الأزقة مع رفيق له اذ أشرفت فتاتان من قصر فسمع احدهما تقول
 للاخرى « انظري : هذا ابو دؤف الذي يقول فيه الشاعر « انما الدنيا
 ابو دؤف الخ » فقالت الاخرى : أو هذا هو ؟ قد والله كنت أحب
 ان أراه منذ سمعت ما قال فيه ذلك الشاعر . فالتفت ابو دؤف الى رفيقه
 وقال له : ما انصفنا علي بن جبلة ولا وفينا حقه . فانه اعطانا مجداً

باقياً واعطيناه مالا زائلاً . وان ذلك لمن اكبر همي . ثم بعث الى عليّ وكان مريضاً لا يقوى على مفارقة بيته بالف دينار وما زال يبرّه ويواصل إحسانه اليه حتى مات .

ومن عجيب امر ابي دُلف هذا انه مع فرط سخائه بالمال كان بخيلاً بالطعام حتى اشتهر عنه ذلك ف قيل فيه :

(ابو دُلفٍ يجود بالف ويضرب بالحسام على الرغيف)

(ابو دُلفٍ لمطبخه قناراً ولكن دونه ضرب السيوف)

ومن أغرب نوادره في الصلوات انه لكثرة جوده قد ركبته الديون حتى لزم داره واشتهر عنه ذلك فدخل عليه بعض الشعراء وأنشد :

(أيا رب المنايا والعطايا ويا طلق الحيا واليدن)

(لقد خُبِرْتُ ان عليك ديناً فزد في رقم دينك واقض ديني)

ففضى دينه ووصله . و ابو دُلف كان مع كرمه الذي تجاوز حد الاسراف وحلمه الذي لم يتقدمه ولم يتأخر عنه من يضايه فيه ذا رأيٍ اصيل وغناٍ رخمٍ وشعرٍ جيّدٍ وبأسٍ شديد . وهي صفات ومحامد قلما اجتمعت في غيره . ومن شعره متحمساً ومفتخراً :

(أجود بنفسي دون قومي دافعاً لما ناهم قدماً واغشى الدواهيا)

(وأقتحم الامر الخوف اقتحامه لادراك مجدٍ او أعاود ناويا)

وله الايات المشهورة في الغزل الممزوج بالفخر :

(أحبك يا جنان فأنت مني مكان الروح من جسد الجبان)

(ولو اني أقول مكان نفسي خشيت عليك بادرة الزمان)

(لاقدامي اذا ما الخيل حامت وهاب كآتها حرّ الطمان)

فما مرّ بكم من اخبار معن و ابي دُلف هذين يظهر لكم مبلغ إسراف أولئك الناس وإغراقهم بالجود والبذل حتى كانوا يستدينون ويهبون ويغنّون غيرهم ويفتقرون وكلما توسعوا في العطاء على طالبي رقدمٍ ومستجدي فضلهم كان هؤلاء يتفننون في استنباط الحيل واختراع الأساليب للمبالغة باستدرار

النعم منهم واستزادة أنواع الصلوات والهبات لهم . متزافين اليهم بضروب من الوسائل لا تمر على خيال مفكر ولا تخطر على فؤاد لبيب . حتى صار الشعراء والرواة والمغنون في تلسم العصور اكثر الناس مالا ، وأعظمهم جاهاً ، وأوسعهم نفوذاً وتبسطاً وترفاً .

فالأخطى التغليبي الشاعر كان يدخل على الخلفاء والامراء من بني أمية وهو يتبختر ثملاً وعجباً وفي عنقه قلادة الذهب ثم يخرج وفي يده الصلوات الكبار والهبات الجسام ثم يشفع فيمن يريد فلا ترد شفاعته . كل ذلك لانه مداحهم المجيد القائل فيهم :

(شمس العداوة حتى يستقاد لهم
واكرم الناس أحلاماً اذا قدروا)
وجرير التميمي اخذ من عبد الملك بن مروان عشرة آلاف درهم
وعشرين راحلةً وجاريةً حسناء . لقوله في المروانيين :

(أستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح)
ومروان بن ابي حفصة كان يرفل بالحرير والحزب ويتقلب على الاستبرق
والديباج ويأخذ من المهدي العباسي ما بعده من الخلفاء حتى المتوكل مئات
الالوف من الدراهم والدنانير لانه رجح أحقية الخلافة للعباسيين على
الفاطميين من آل البيت بقوله :

(أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثة الأعمام)
قيل لما دخل على المهدي اول مرة وأنشده الشعر الذي يقول فيه
هذا البيت وصله بسبعين الف درهم . وقال له هي لك مني في كل حول
ما دمت حياً . وفي ذلك يقول مروان مفتخراً :

(بسبعين الفاً راشني من حباته
وما نالها في الخلق من شاعر قبلي)
وأبان بن عبد الحميد اللاحق اخذ من الرشيد عشرين الف درهم في
اول مرة دخل عليه لقوله ضارباً على الوتر ذاته الذي ضرب عليه مروان
بما يتعلق بإرث الخلافة :

(نشدت بحق الله من كان مساماً
أعم بما قد قلته العجم والعرب)

(أعم رسول الله اقرب زلفة)
 (وأيها اولى به وبمهدده)
 (فان كان عباس أحق بتلكم)
 (فأبناء عباس هم يرثونه)
 و ابو العتاهية مات عن سبع عشرة بدرة من المال لانه كان ملازماً
 باب الرشيد واعقابه من بعده متقرباً الى قلوبهم بما يبدو في شعره من
 آثار الزهد في الدنيا مع انه كان من أشد الناس حرصاً عليها وطمعاً بها .
 وابن الخياط الشاعر دخل يوماً على المهدي مستجدياً مادحاً فأمر له
 بخمسين الف درهم . فلما قبضها فرقاها بين الناس وانشأ يقول :
 (لمست بكفي كفه ابتغي الغنى) ولم ادر ان الجود من كفه يعدي
 (فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى) أفدت واعداني فبددت ما عندي
 فأعطاه خمسين الف دينار :
 ودخل اسحق الموصلي المغني على الرشيد يصحبه الاصمعي الراوية وكان
 الرشيد منقبضاً كثيراً . فأنشده ابياتاً مطلبها :
 (وأمرة بالبخل قلت لها اقصري) فذلك شيء ما اليه سبيل
 وختامها :
 (وكيف أخاف الفقر او احرم الغنى) ورأي امير المؤمنين جميل
 فقال له الرشيد : « لله درّ ابيات تأتيها بها ما أشدّ اصولها ، واحسن
 فصولها ، واقلّ فضولها » . ثم احسن اليه بخمسين الف درهم . فقال
 له اسحق : ان وصفك لشعري يا امير المؤمنين احسن منه فعلام آخذ
 الجائزة ؟ فضحك الرشيد . وقال اجعلوها له مئة الف درهم . فقال
 الاصمعي الآن علمت ان اسحق احذق مني بصيد الدراهم .
 ودخل يوماً ابو دلامة الشاعر على ابي العباس السفاح وكان كثير
 الادلال عليه فطلب منه كلب صيد فأعطاه ، فطلب غلاماً يقود الكلب ،
 فأعطاه ، فطلب دابة تحمل الصيد فأعطاه ، ثم طلب جارية تصلح الصيد

فأعطاه ، ثم طلب منه داراً تجمعهم فأعطاه ، ثم ملاً ثابثاً يففق عليهم من غلته فأعطاه ارضاً عامرة وارضاً عامرة ثم استبدل الغامرة بالعامرة فجعل له الاثنتين عامرتين .

فتأملوا يارعاكم الله كيف فرق ابن الخياط الدراهم ليأخذها دنانير وكيف احتال اسحق حتى جعل الخمسين الف درهم مئة الف وكيف تذرع ابو دلامة بطلب كلب للصيد حتى توصل ببعض كلمات الى نيل هذه النعم المتواليه التي تعود عليه بالخير الكامل والهناء الشامل . وفي ذلك من شدة الحرص على ابتزاز الاموال ما لا تجهلون .

وكل ما اشرت اليه من احاديث الجود على إفراطه ، وما اثر الاحسان على عظمتها ، لا يعد شيئاً في جانب ما كان يصدر عن البرامكة وزراء الهادي فالرشيد من مدهشات العطاء الذي تجاوز حد المعقول . وكاد يحسب من مبالغات اهل التاريخ : فقد كان لآل برمك في هذا الخلق القيدح المملتي والسهم الأنفذ والنصيب الأوفر حتى قيل عنهم انهم شفاء اسقام دهرهم ، وغيث اجداد عصرهم ، ومفزع ملهوفي زمانهم لا سيما احدهم الفضل الذي قال فيه ابو النضير :

(وللناس معروف وفيهم صنائع
ولن يجير الاحزان الا جدا الفضل)
(اذا ما العطايا لم تكن برمكية
فتلك العطايا ما تمر وما تحلي)

وهم ولئن لم يكونوا عرباً في الاصل بل كان جدّهم الاعلى فارسياً الا انهم نشأوا في العراق وترعرعوا في دور الخلفاء ، وخالطوا خاصة العرب وعليتهم واقتبسوا آدابهم وعاداتهم حتى اصبحوا كأنهم من صميمهم . كان البرامكة يخرجون بالليل سرّاً وهم متنكرون معهم الاموال صرراً بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف فيطرقون الأبواب من بيوت الحاويج اهل الستر والحرمت فيدفعون الى اصحابها الصرة بعد الصرة . وربما طرحوا ما معهم في عتب الابواب فكان الناس لاعتيادهم ذلك يعدون الى العتب اذا اصبحوا فيأخذون ما يجدون .

واتصل بخلف المصري ان يجبي بن معاذ في حاجة وقد ركبته من الدين ثلاثمائة الف درهم حتى أرغم على إغلاق بابه توارياً عن غرمائه . فأخبر الفضل بن يحيى . فقال له : دلتنا على مكرمة ، ثم امر له بمائة الف درهم . وحمل الى يحيى بن معاذ ثلاثمائة الف درهم قضى دينه بها . وخرج الواقدي من المدينة بعد ان ساءت حاله وركبه الدين قاصداً البرامكة وهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه . فدخل على يحيى بأسمال من الثياب تحيط به الكتابة والبؤس وقصاري ما يتناه الف درهم فدفع اليه كيساً ولم يعلم ما فيه . فلما تناوله خرج مهولاً حتى اذا انتهى الى بيته فتحه فاذا فيه اربعة آلاف دينار . فكاد يغشى عليه من السرور ثم ما ابطأ ان ابتاع اثواباً اصلح بها حاله وبكسر من الغد على يحيى ليودعه ويشكره فتوسم فيه يحيى علماً وفضلاً وادباً فقال له أقم عندنا ولك مثلها في كل عام فأقام عنده عزيزاً مكرماً موسماً عليه حتى فرقت بينهما النكبة . ونظم أبان ابن عبد الحميد كتاب كليله ودمنة شعراً ليسهل حفظه مبتدئاً بقوله :

(هذا كتاب ادب ومحنة وهو الذي يدعى كليله ودمنه)

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . واعطاه ابنه الفضل خمسة آلاف دينار . وقال جعفر سأستظهر كتابك هذا . وحسبك مني ان اكون راويتك فيه .

وما المعت عنه من مكارم البرامكة ان هو الا صباية من بحر مما يؤثر عن هذه الاسرة التي لم يقم بعدها ولا روي عن احد قبلها من يحاكيها او يتحداها بالجود الفاض والسخاء الأتم لا سيما على الحاويج من أهل النعمة وبيوتات المجد والعلم والفضل . خلافاً لسيف الدولة الحمداني صاحب حلب الذي كان يصادر أموال الناس ويبتز مواريتهم لينعل افراس شاعره ابي الطيب المتني بالمسجد . ويهب سائر من يقف ببابه . ويلتف حوله من الشعراء فأرات المسك ونوافج العنبر . ونفائس الخلع والالوف المؤلفة

من الدنانير لقاء ما يسمونه من الاطراء غير المعقول كقول ابي الطيب مخاطباً اياه :

(كأنك في ثوب وصدرك فيها على انه من ساحة الارض أوسع)

وفي ذلك وامثاله ما يخالف قواعد الاجتماع ، وسنن العطاء ، وقوانين الاقتصاد في هذا العصر الذي لكل نفقة فيه حساب ، ولكل بذل مقياس فان ابواب المثرين والتمولين في الغرب من ملوك وامراء وسوقة محجبة . وخزائنها مقللة دون امثال هؤلاء المداحين المخرقين . وانهم يبذلون الملايين في سبيل مشروع خيري او معهد علمي ويرصدون مئات الالوف لمن يكتشف مثلاً دواءً ناجماً للسل او السرطان او الطاعون . ويهبون ما هو فوق المأمول لمن يؤلف احسن كتاب في التربية او نوع من العلوم ولا يبذلون ديناراً واحداً لمستجد او مداح كاذباً كان او صادقاً بل يقولون له انصرف الى العمل ما دمت قادراً عليه فان عجزت فلك من ملاجئ العجزة ما يغنيك عن التسول المتنافي لسنة الحياة . فان الانسان المعاني خلق ليعمل . لا ليعيش كلاً على عواتق الناس .

وفي هذا القول ما ينطبق على ما اوحته الشرائع التي اجتمعت على وجوب العمل وكرهة البطالة حتى عد العمل ضرباً من العبادة . وما دام الانسان معاني في جسمه وعقله لا يجدر به ان يكون ساقط المهمة ، دنى النفس ، يبذل ماء وجهه التماساً لما في ايدي غيره من ثمرات اتعابه ليعيش على بساط الراحة والدعة والتمول متنقلاً من معصية الى كبيرة . ولا بدع ولا غرابة فان رأس البطل مخزن الشيطان . والاحسان الشخصي انما يكون للارملة واليتيم والمريض والسجين والعاجز والمشرهق . لا لرجال اشداء اقوياء يقاسمونك مالك استجداءً وتخيلاً ، ليمددوه في سبيل شهواتهم وهم وادعون .

والكرم بوجه عام يقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول ما نسميه

(الكرم العادل) ويُحق لصاحبه ان يسمى المحسن الجواد . والقسم الثاني (الكرم الجائر) ويقال لصاحبه المسرف المتلاف . والقسم الثالث (الكرم الاحق) ويدعى صاحبه المبذر السفية .

القسم الاول : الكرم العادل

هو الكرم الحق الذي يستحق وحده ان يسمى كريماً . وله شرطان الشرط الاول ان يكون من فضلة مال المحسن لا من صلبه ، لانه اذا كان من صلب المال لا يلبث المحسن مها كان مثيرياً واسع النعمة ان يفتقر فيظلم نفسه واهله وبلاده : اذ يصبح عاجزاً عن الكسب ، قاصراً عن الاحسان ، بل عالة على سواه . وهنا تتجلى حكمة الآية الكريمة (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) : الشرط الثاني ان ينزل المرء احسانه منزلته ويضعه في محله بحيث ينفع المحسن اليهم نفعاً صحيحاً ، لا يضر بمستقبلهم واخلاقهم وعاداتهم

ولنضرب لذلك مثلاً - زيد متوسط النعمة ، ريعه السنوي الف دينار ، يتفق منها بلا تبذير ولا تقتير ثلاثمائة ، ثم يقسم الباقي وهو سبعمائة ، الى شطرين احدهما يضيفه الى رأس ماله انما له ، وتحوطاً لعثرات الايام ، والآخر يرصده للاحسان . ان شاء احتسبه الى ان يمو ويتضاعف بما يليه في مستقبل الاعوام بحيث يصبح كافياً لاحسان ثابت عام ، كانشاء مدرسة او مكتبة او مأوى للايتام . تدوم فائدته ، ويم نفعه ، ويُبقي لصاحبه الذكر الخالد . وان شاء أطلقه لوجوه بعض الاحسان الخاص كامداد عائلة أخنى عليها الدهر فسلبها نعمتها حتى كاد ينكشف سترها ، ويفتضح امرها ، بحيث تصبح مضغاً في أفواه الشامتين . او إغاثة تاجر امسى على شفير الافلاس ، فينقذه من ذلّ التقاضي ووبال السجن بان يعاونه سراً على نفقاته وايفاء ما استحق اجله من ديونه الى ان يأذن الله بالفرج . او ان يتوسم باحد اولاد البؤس النباهة والذكاء

فينفق على تثقيفه وتعليمه ما يصيره نافعا لأسرته ، جلاباً للفوائد له ولوطنه فلا يبقى تعساً يمشي كالحشرات ، عالةً مفسداً ، ويموت ذميماً شقيماً غير مأسوف عليه ذلك من ضروب المكارم التي تخفف الآلام ، وتزيل المحن ، وتفرج الكرب ، وتجلب الفوائد .

هذا هو الكرم العادل الذي تتمنى عليه الأمم الراقية الآن . فيرضى عنه الصواب وتقر به عين الحكمة ، وتتوفر فيه شروط الأحكام والاتقان والانصاف . فلا يظلم المحسن بان يستهلك ماله في سبيل اريحته ، ويصبح من المملقين بل يدوم راعياً في نعمته ، مقبلاً على كسبه ، قديراً على مواصلة الاحسان ابني جلده ، مستغنياً عن استجداء من لاخلاق لهم ولا مروءة ، ولا يُظلم المحسن اليه بان يكون ميئالاً الى البطالة ، فيغريه بما يناله منه غنيمةً باردةً على الكسل وبغض العمل ، وتبديد ما يعطاه في سبيل اللهو والزهو والشهوات .

أجل ان هذا النوع من الكرم يا سادة هو المعول عليه عند بعدي النظر من متمولي الغرب . وكل ما ننظره ونسمع به ، او نقرأ عنه من المرافق الحيوية والمعاهد الادبية والعلمية ، والملاجيء الخيرية القائمة في طول البلاد وعرضها على تضارب أنواعها ، وتفاوت مراميها وغاياتها ، انما هو اثر من آثار هذا الضرب من الاحسان . وهو لسوء الطالع مفقود ، او يكاد يكون مفقوداً تحت سماء هذه البقعة التي كتب عليها منذ مئتين من السنين الغبن والحيف والجهل والحرمان .

أجل ثم أجل يا سادتي فان بهذا الكرم رُفِع منار الانسانية ، وتمنت دعائم العمران ، وتمهدت للامم الغربية سبل السعادة والغبطة والحضارة ، وخفت عنها وطأة شقاء الحياة وبؤسها . ولولاه لكان المعجزة منهم يأتون منطرحين في زوايا الطرق ومنرجات الأزقة ، شاكين آلام الامراض والجوع والمتربة يلتمسون الموت فلا يجدونه . ولان ايتامهم وناشئة التعساء منهم هائمين على وجوههم ، يكتنفهم الجهل والفساد ، ويحيط

بهم الذل والمسكنة مما نرى أمثوله بيننا كل يوم . والعين تقطر دماً ، والقلب يتفطر حزناً . فان بهذا النوع من الكرم لا بغيره أنشئت مكاتب وملاجيء للعمي والصم والحرس والمقعدين . يتعلمون بها القراءة والكتابة والحساب وضروباً من الصناعات التي تلائم أحوالهم . فيعيشون رغداً آمنين مطمئنين . فلا يكونون عبئاً ثقيلاً على عواتق الناس ، فيكرههم اهلهم ، وتنبو بهم الارض ، وتبكي عليهم السماء .

وبه لا بغيره ترقى العلوم والفنون والصناعات ، وزاد الاكتشاف والاختراع حتى سخر الانسان العناصر لخدمته ففص مسافراً في الماء ، وركب طائراً في الهواء واستنار بالكهرباء ، واستخدم البرق لنقل الاخبار والبخار لجر الاثقال وسرعة الترحال الى غير ذلك مما لو روي الى اسلافنا لعدوه خرافات وأساطير تحكى ولا تعقل ، وتروى ولا تخيّل .

هذا هو الكرم الحق الذي يعرج باصحابه الى مقام الاعلام المحمودي الاثر الخالدي الذكر لا ما افتخر به عنزة العبي بقوله :

(ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم)
(بزجاجة صفراء ذات أسرة	قرنت بأزهر بالشمال مقدم)
(فاذا شربت فاني مستهلك	مالي ، وعرضي وافر لم يكلم)
(واذا صحوت فما اقصر عن ندى	وكما علمت شمائي وتكرمي)

فان من يفتخر بسكره ويستهلك ماله كله في سبيل أريحيته عادلاً كان أو جأراً ثملاً أو صاحباً هو الى الجنون أقرب . وخليقٌ بمثله ان يحجر عليه الى ان يصبح من العاقلين .

القسم الثاني الكرم الجار

وهو الذي يجور على صاحبه المثير فيستكثر ما لديه مما تركه له أبأوه او جاءه عن طريق الصدق والاتفاق . فيأخذ بالتوسع في العطاء والاسراف في الانفاق . فان مشى أحاطت به حاشيته من اهل البطالة والهبوط ، وان

جلس طوقه فريق من اهل الحرص والطمع والنفاق ، وان ركب ، ركب في موكب يشبه مواكب الملوك . يقصده المختالون الممخرقون من كل اوب و صوب . فيغدق عليهم النوال ويكيله لهم جزافاً ليقال عنه انه جوادٌ وهاب . يُعطي بغير حساب . فلا يمر عليه حين من الدهر حتى يصبح ككثيرين من اولاد البيوتات في بلادنا خالي الجيب بادي الانفاض . متدهوراً في مهواة اليأس والبؤس ، فهو ظالم لنفسه ، لانه أقرها وأذلها ، ظالم لعائلته وذوي قرابه لانه أحوجهم وأشقاهم ، ظالم لمن أحسن اليهم لانه أغرام بالتسول والكسل ، وكرهه العمل . فأصحاب هذا القسم من الاحسان آفة الوطن الكبرى ، وبلاؤه الادم ، وشره المستطير . ولو تدبروا ووعوا لكان لهم من تراث آبائهم وتليد أموالهم وطارفها ما يقوون به على استدرار أخلاف النعمة . واستعمال ما أودعه الله في فطرتهم من مزايا البذل في موضعه مع الاعتدال والروية والرفق . فعاش كل منهم سعيداً مجيداً ، ومات فقيداً حميداً ، حافظاً له الوطن واهلوه مكارم تعود عليه بحسن الاحدوثة وآثاراً تخلد له الثواب ، ولكنهم لا يتدبرون .

القسم الثالث : الكرم الاصحو

ينشأ ابن النعمة في بيت ابيه طاعماً كاسياً مخدوماً مكفيء المؤونة لا يطالب بشيء الا ان يكون رجلاً كاسباً مقتصداً نافعاً . فيلج باب الاعمال مديراً او كاتباً في احدى الخطط الاميرية او المؤسسات التجارية براتب لو تدبر فاحتفظ به ، وحرص على انماه في الطرق المشروعة لالئف منه على تراخي الأيام ثروة يستطيع معها عند الحاجة ان يكون رب بيت ينفق عليه من سعة ثم يكون من الحسينين : فان اضافة شعرة الى شعرة تؤلف لحية كما يقول العوام . ومن لا يعبأ بالقليل لا يتسنى له الكثير .

(قليل المال تصالحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد)

فبدلاً من ان يسلك هذا السبيل الهادي الأمين الذي ينتهي به رويداً

رويداً الى منزلة أفضل الرجال العاملين ، يقول في نفسه اني لا أزال في ريق الصبوة وبيع العمر لا يطلب مني شيء ، ولا أسأل عن شيء ، فما ضرني لو بذلت راتي باسداء الجميل واصطناع الاخوان ، فيبسط صدره ومجلسه لمن يعرض له من الاتراب والأقران فيستأنسون به ويتألبون حوله فتنفضه الكبرياء كالزرق ويتوهم انه أصبح من مشاهير الاعلام المتميزين بالوجهة والفضل ، فاذا استقرضه احدهم ديناراً نفجه بدينارين ، وان استحسن لديه تحفةً أهداه تحفتين . ثم ينتهز فرصة عطلته وأوقات فراغه فيدعوم الى الولائم والمآدب ومعاهد الزهة والطرب . فلا يمضي من الشهر اسبوعان حتى ينفد راتبه فيستلف من بعض الصيارفة على راتب الشهر الآتي ولا يزال يتسدرج في هذه الطريق حتى تتراكم عليه الديون ، ويضيّق عليه الدائنون ، فيهرع بعضهم الى ابيه فيشكون ، وبعضهم الى رئيسه فيتظلمون .

هنالك تنقش الغمامة عن عيني ذلك الغرّ المسكين فتتجلى الحقيقة له كما هي فلا يشعر الا وابوه ماقتاً له ورئيسه ساخطاً عليه ، وأصحابه متفرقون عنه ، يتجنب الظهور في الأسواق لئلا يرى فيطالب أمام الناس وينقطع عن الأندية ، ومجتمعات الخلق ، كيلا يضطر الى الانفاق ولا مال لديه ، يجلس في دائرة عمله ناكس الرأس ، خائر النفس ، متوزع الفكر لا تنبسط نفسه الى عمل ، ولا تصغي أذنه الى حديث ، ولا يبرح ذلك شأنه حتى ينتهي الى احد امرين : اما يرأف به ابوه فيفي ما عليه ثم يكون مسيطراً على حركاته وسكناته الى ما شاء الله وهو ذليل واجم كظيم ، واما ان يتيسر له من غامض علم الله رزقٌ جديد أو زيادة في الراتب فيتخلص من شدته بعد ان تبلغ روحه الخلقوم ، فيتخذها عبرةً تنكّب به عن مثل هذه المهواة الى ان يوافيه الأجل المحتوم .

هذا اذا لم يدركه العزل وتتناهه الفضيحة من قبل . فيساوره النغم وتقاسمه الامراض فيلزم البيت خاسئاً مخذولاً مقهوراً ، يرى الدنيا وما

حوت من زخرف ظلمات بعضها فوق بعض . ولبئست العاقبة لمن
لا يزدجرون .

وهذا الفريق أيضاً حسك* ينشب في حلق الاجتماع الانساني فيمنعه
هناءه ويسلبه قراره ، ويجعل حياة البلاد الاقتصادية الى الاحتضار أقرب .
فالى الله المشتكى من قبل ومن بعد .

لقد طال بي يا سادة نفس الكلام حتى لم يبق سبيل المزيد على اني
أرجو ان يأتي يوم ، وهو منا قريب ، يقف فيه متمولونا وناشئتنا موقف
الاعتدال بين منزلتي التقدير والتبذير ، ويختارون من ضروب الاحسان
ما يجعله نافعا مفيداً عاماً معززاً للعلم والصناعات وملاجيء الخير والمبرات
مخففاً عن كواهل الانسانية مصابها وإحنا وأسقامها حينما يعرجون بهذا
الوطن العزيز الى المستوى الذي يستحقه اهله من الغبطة والسعادة والرغد
انه سبحانه ولي التوفيق .

دمشق : ايلول سنة ١٩٢٣ .

—••••—

القضاء عند عرب البادية

للأستاذ عبد الله درعد

فطر الأعرابي على حب العز والفخار ، تصبو نفسه الى المكارم وشريف الاعمال ، ولا يخلد الى الذل والصغار ، مها جاهته المصاعب والأقدار . وهو لا يطمح إلى المعالي إلا لينال صيتاً بعيداً وشهرةً واسعة بين أقرانه وفي عشيرته . فيغار البدوي على شرفه . ويؤثر المنون على العار والهوان ، وتنهض به عزة نفسه إلى الانتقام ، أو طلب الحق أمام القاضي البدوي ، وقد يثور ثأره لأدنى أمر يحط بقدره ويخفض من حاله .

ماهي الحقوق البدوية التي يستنصرها قضاتهم

هي قوانين تقليدية محفوظة في البادية مرسومة لتأديب المجرمين وتهذيب الأعراب ، يعرفها أرباب القضاء ويجرون عليها ، وبها يعوضون لصاحب الحق أو لأهله ما فقدوه من الشرف أو المال أو الحياة ، ومن هذه القوانين عندهم أن الاخذ بالثأر لا يعد فرية يجازى عليها المنتقم . فالانتقام عندهم من النواميس الشريفة والفرائض الضرورية المقدسة التي لا يسعهم تجنبها ولو طال عهداها ، فالضغينة تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، فتأني الريح يوماً وتكشف الرماد وتظهر الثارات والأحقاد . وكثيراً ما يرفض الأعراب حكم قاضيهم ليرووا ظمأهم بدم الأعداء ، ويثأروا للقتيل وينالوا الطوائل بأيديهم وقد يجمع الأعرابي أولاده على سرير موته ويوصيهم أن يأخذوا الثأر من احد أعدائه ، ولا يدعوا الدم يصرخ الى السماء صراخاً اليماً . فانهم يعتقدون أن دم المقتول يصرخ دائماً في الليالي الدامسة ، ويطلب من أولاده وأقاربه وعشيرته أن ينتقموا له من قاتله .

ينتظر البدوي الفرصة المناسبة لأخذ الثأر بصبر عجيب ، ويقدم على هذا الأمر بنفس هادئة وسرور عظيم ، لأنه يعلم أن القضاء لا يطالبه بهذا الدم ، إذا كان دم القاتل نفسه أو دم أولاده أو أقربائه حتى الدرجة الخامسة ، أما إذا زادت هذه القرابة على الدرجة الخامسة فيعد قتله عندئذ جرماً . على أن أرباب الحق الذين يعجزون عن الأخذ بالثأر لقلتهم أو لضعفهم تجاه بسالة عدوهم ، فانهم يلتجئون إلى أمير كبير من عشيرة أخرى يعرف بجراته ، ورباطة جأشه ، وثبات جنانه ، وهو ينتقم لهم من عدوهم . أو يطلب القاتل ويأزمه بالقيام بحق الدم .

* * *

إن من يتأمل في عادة الانتقام ، أيها السادة ، يحكم لأول وهلة أنها بربرية لا يقدم عليها إلا الأعم المتوحشة . وهذا من الصحة على جانب كبير لولا وجود هذه السنة في البادية لغدت القفار الاعرابية دار حرب دائمة ، لأن المجرمين لا يهابون قتل النفوس البريئة ، إذ لا رادع يردعهم ، ولا سيف يمنعهم . وسنة الدم بالدم تصد الأشرار ، لذلك يندر القتل في البادية . وخوفاً من العقاب لا يهدر البدوي دم المسافرين ، بل يكتفي بسلبهم ثيابهم وأموالهم . ثم إن العرب يرحلون على ظهور أباعرهم طلباً للرزق الحرام من الغزوات ، فهم مع ذلك يتجنبون القتل لئلا تنزل بهم الضربات المائلة التي تأمر بها شريعة الأخذ بالثأر . وهذه الشريعة تجعل البيداء في أمن وسلام ، يسافر فيها المرء غير خائف على نفسه وإن سلبوه ماله بخلاف القفار الاقريقية حيث يُهتل قبيل أن يسلب .

* * *

ما هو القاضي البدوي

قاضي العرب أمير من أمراءهم تسلسطه القبيلة أو العشيرة على أفرادها ،

لاظهار الحق من الباطل طبقاً للتقاليد البدوية ، والعوائد النقلية القديمة .
 على أن الأعراب قد لا يرضون بقاضٍ واحد كبير يترأسهم ، بل يوكلون القضاء إلى
 وجوه العشيرة و كهولها فيأتون اليهم ويعرضون دعواهم فيحكمون بينهم بحسب
 عادتهم الجارية . هؤلاء الرجال لا يناون كالقضاة الحقيقيين راتباً لقضائهم ،
 وإنما يعملون ذلك ، كما يقولون ، لوجه الله الكريم ، والمتخاصمون لا يلبثون
 أحراراً في الخضوع لحكمهم أو رفضه ، ورفع الدعوى إلى القاضي الكبير .
 القاضي الكبير يرث الحكم عن أبيه لأن العرب مولعون بحفظ
 الأصل والنسب . ولكنه لا يتسلط على الأعراب إلا إذا نال رضى الجميع ،
 بسبب رأيه ومعرفته للحقوق البدوية . ولهذا القاضي سلطة واسعة تفوق
 سلطة الحكام في الممالك المتمدنة والربوع العامرة . فاذا قال كلمته انقطع
 الحديث ، وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . ولهم عادة حميدة تدكر
 بالثناء عليهم ، وهي أن قاضي العشيرة إذا رفعت إليه دعوى بأحد أقاربه
 لا يحكم فيها بل يحيلها إلى قاضٍ آخر غيره من القضاة المجاورين أرباب
 العدل والانصاف ، لئلا تحوم حوله الظنون .

* * *

كيف يجري القضاء عند العرب

إذا وقعت الخصومات بين العرب على ممتلكاتهم من الحيوانات والأرضين ،
 حاج هاتجهم ، فتستفزهم في الحال نزوة الغضب ، فينتفضون من الغيظ ،
 ويرتجفون من الحنق ، فينتضون السيوف ويطلقون الرصاص ، لما طبعوا عليه
 من حدة الأخلق ، وحفظ الحقد والضغينة . فاذا حل الخصام ، وارتفعت
 الأصوات والشتائم ، وانتضيت السيوف وسمع أزيز الرصاص ، دخل
 المصلحون بين المتخاصمين ، وحلوا على الكف عن الخصام ، وحل المشكل
 بالقسم أو بحكم القاضي .

أما القسم فمن أُرهب الأُمور عند العرب وأقدسها ، ولا يقدمون عليه إلا مضطرين ، لأن الأعرابي يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً ، ويهاب اتخاذ المولى الكريم أو أحد أوليائه وأنبيائه شاهداً على صحة قوله ، ولو كان من قطاع الطرق .

والقسم عند العرب أنواع مختلفة : منه ما يسمونه القسم الجاري أو القسم الصغير ، ومنه قسم اليد ، والقسم الكبير ، ومنه قسم العُشبة ، ومنه قسم النملة والشملة .

ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط الخيمة ويقول : أقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الأمر الفلاني . فيقول والله وصلاة محمد لم أفعل . وفي حلف اليد ، يضع الحليف يده على رأس الحلف ويقول : « أناشدك الله ، بما تحوش وتنوش ، بحلّات الحليب ونسافات العسب (أي الخيل) وبالنساء وما تحيب ، داخل عليك عالمال والعيال ، من الحل والاستحلال ، اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (أي اليوم تراني وغداً تحماني على النعش) بغيبه عليّ وببئته عليك ، إن أظلمتها تضرّك وإن خبيتها تضرّك ، أما صار كذا وكذا ؟ فيجيب : إي بالله ورسوله صار كيت وكيت . أو بالله ورسوله ما صار ذلك » .

ويقولون أيضاً في أقسامهم « أنا حاضر بحضارك وبموقد نارك ، أما صار

كذا وكذا »

ويقولون في حلف العشبة : « بحق هذه العشبة الملوية والكاذب

ماله ذرية » .

أما قسم النملة والشملة فدونكم وصفه : حينما يكون العرب وكبارهم ملتئمين في شيق الرجال من الخيمة ، وقد طال الجدال بين فريقين على أرض أو فرس أو غير ذلك ، يقوم أمير البيت ويخرج بمجلسه خارج الخيمة ، ثم ينتضي سيفاً ويخط به دائرة كبيرة ، ويضع في وسط الدائرة حبة حنطة ونملة ، والحنطة تدلّ عند العرب على أكرم ما خلق الله تعالى والنملة تمتل الحكمة والفطنة والإدراك . ثم يمدّ السيف في منتصف

الدائرة . عندئذ ينزع المهتم عنه سلاحه ويدخل في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً : « والله العظيم والسيف الكريم ما فعلت الشر ولا سرقت ولا قتلت الخ » .

وكثيراً ما يمتنع لون الرجل ، وترنخي مفاصله ، وترتجف يدها ورجلاه من الرعب ، وربما رجع عن الحلف وأقر بما فعل .

والحلف بالمقامات يعدُّ عند الاعراب من الأقسام العظمى . وربما أقسم البدويُّ بالله مراراً عديدةً وأبى أن يقسم بالأولياء والمزارات المقدسة كزار النبي شعيب ، والنبي يوشع ، والشيخ عبدالله ونحو ذلك من المزارات المشهورة عند العرب .

على أن العرب يدعون غالب الأحيان القسم لهيبته ، ويلجأون إلى القاضي البدوي . وهذا ما يدعونه (بالقضوة) .

فما أجمل بيت الشعر حينما يزين بأنواع الأثاث ، ويفرش بالسجاد الفاخر ، ويملِّق على جدرانه السلاح اللامع . يجلس الأعرابي في صدره للقضاء ومن حوله وجوه العشيرة . فيسمع صوت « المهياج » يدق القهوة فتطبخ ويطاف بها على الحضور دفعات متوالية . وبعد شرب القهوة يقوم أحد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس في وسط الخيمة بين الحاضرين ويلتفت إلى القاضي ويقول : وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى : « وايش بك يا قاضينا ، يلي بحقك تراضينا ، جيتك هدي ومشيأ قدي ، أفلح وصل عالي (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظي وحظك يدخلان على اربعة وأربعين ني ، من الفوط والنوط والحق الردي ، وأنا داخل عالما والعيال من شي مبيِّن عليّ وعليك غبي ، وانا حاططها بعيونك السود وربك الفعود ، وبالامراة وما تجيب ونسافات العسيب . ثم يذكر ما جرى له بصوت جهوري بحيث يسمعه الحضور

من أطراف الخيمة ، ويوردُ البراهين في ذلك ، إلى أن ينتهي ويعود إلى مقامه الأول فيقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ، ويكرر المقدمة نفسها : (وايش بك يا قاضينا) إلى آخر الديباجة التي أتينا على نصها بألفاظهم ولغتهم المستعملة في البادية . ثم يفصح عن أدلته . ولا أحد يعارضه في شيء . والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة . وفي آخر ذلك يلتفت القاضي إلى المتخاصمين ويقول : أفلحوا وأصلحوا خير لكم . فإذا أبا إلا إظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

* * *

الرزقة

هي أجرة يدفعها أحد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة ما يخاصم عليه وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة إن تقوداً أو عروضاً كفرس مثلاً أو سيف أو بعير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم إلى أن يستحسن ما يقدم له . والرزقة أنواع كثيرة ، منها ما يسمونه رزقة المبطل ، ومنها رزقة الحق . فرزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم أو المفتري للقاضي ، ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . وإذا استأنف المحكوم عليه دعواه إلى قاضٍ أكبر وحكمه بالحق . وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يردّها له المحكوم عليه . لأن للمستأنف الكاسب حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل .

* * *

الكفارة

وبعد أن يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليها أن يقدم كل واحد كفيلاً يتعهد أمام الشهود بدفع الرزقة إذا أبى الآخر تقديمها . فيقولون :

« ترى يا شيخ فلان هذه المسألة في وجهك » وان كان الكفيل غائباً يقولون : « ترى أن هذه المسألة في وجه فلان » أي أنه يتعهد بدفعها أو يحمل المتخاصمين على دفعها . فيقول القاضي للكفيل : « عندك الشيء الغلابي » : « فيجيب عندي ما تطلب ، وحق الله ورسوله اني ما أبوق » (أي لا أخون المهد) . رأينا أن الكفيل نوعان : غائب وحاضر . فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع (الدعوى) فيختاره الحاضرون والقاضي لا ينفذ الأمر . والحاضر هو القائم بين الحضور في أثناء الدعوى . على أن لكل منها واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر : فالغائب مضطر إلى قبول الكفالة ، والحاضر له الخيار في قبولها أو رفضها . لذلك جاء في أمثالهم : « الغائب مضطر والحاضر حر » . ولا بد للكفيل من صفات ، أحصاها أن يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع . والذين يُحرمون حق الكفالة هم شاهدو الزور ، والجبناء الذين يشردون في الحروب والغزوات ، هؤلاء كلهم مردولون عند العرب ، لا يقبلون في مجالس الكرام ، ولا يشربون القهوة في خيام الأمراء ، ولا تقبل لهم شهادة . واذا جلس أحدهم في مجلس الشيوخ صب له الشيخ القهوة ، وبينما هو يرفع الفنجان إلى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ويقول له : أنت لا تستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

* * *

الشهود في الدعوى

وبعد تعيين الكفيل ، يتجه القاضي نحو المدعي ويقول له : يا فلان ، إذا كان عندك شاهد لا يكذب ولا يوجد عليه اعتراض فليقدم ويشهد . فيجيب : عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فباتت القاضي إلى أكبر الحاضرين ويقول له : وأيش تقول يا شيخ عن فلان ؟ فإن كان مقبول الشهادة يقول : « والله انه مقبول الشهادة ، ما أنا خابر عليه الذرب الذي يذره عن الشهادة » وان كان مرفوض الشهادة يقول : « والله انه غير مقبول » .

وقد تقع الخصومات في اختيار الشاهد فمنهم من يرفضه ومنهم من يقبله ، ويطول الكلام بينهم إلى حدٍّ يسأم منه الحاضرون ، إلى أن يقرّ رأيهم على شاهدين . فيقفان ويقسمان القسم البدوي ، يقول كل واحد على حدة : « والله العظيم ، والربّ الكريم ، وحياة العود ، والربّ المعبود ، والكاذب ما له مولود ، لا غيظ شافيه ، ولا طمع راجيه ، (إي إنه لا يحلف لاخذ ثأر ولا لأجل مال) إلا حق الله من رقبتي مؤدّيه ، ان هذا الرجل قد فعل كذا وكذا » .

وللشاهد حقٌّ في طلب هدية ما إذ لا بد له من القسم ، والعرب كما أوضحت يرهبون القسم ولو كانوا صادقين . لذلك هم يقدمون للشاهد هدية بدوية كسيف أو عباءة أو نحو ذلك . والنساء في جميع العشائر لا تُقبلُ لهم شهادة إلا عند عشائر النصارى في الصلت والكرك ومادبا وغيرها في شرق الاردن ، وشهادتهن ثابتة قوية .

* * *

الحكم

وبعد أن تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بأمثال يبين فيها أحكام القضاة من قبله في أمور جرت في عهد قديم . فيروي حكايات واقعة أو خيالية يذكر فيها الحكم بجمهم الكلام ، وربما أتى بأمثال حيوانات تنطبق على الأمر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل أن ينطق به . وأخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : « أنا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند أجاويد الله مثاكم ، إن فلاناً هو المجرم ، وفلاناً هو البريء » ويورد في ذلك الأدلة والبراهين والاسناد كي لا يبقى في الأمر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم جمهور الحاضرين وينصرفون إلى بيوتهم وهم يرددون الحكم المبرم .

* * *

العقوبات

والعرب يدعونها الحق . فمنها حق الشتائم ، وحق البيت ، وحق الوجه ، وحق الدخيل ، وحق الدم ، وحق الطنيب ، وحق القصير ، وحق العرض ، وغير ذلك .

وقبل أن نذكر شيئاً من هذه العقوبات عند البدو ، يجعل بنا أن نأتي على ذكر عواطف الشفقة والحلم التي تغلب عند عرب البادية مرات على حب الانتقام ، وتحملهم على الصفح . سمعنا حوادث كثيرة تدل على عفو العرب عن أعدائهم ودونكم النادرة الآتية :

كانت النار تضرم ذات ليلة في مضارب بني صخر ، والكلاب تنبح فتدعو المسافرين إلى خيمة الشيخ ، وإذا بشاب لطيف قد نزل عن فرسه وحيا الضيوف قائلاً : السلام عليكم . فقالوا وعليكم السلام . قال حيا الله الرجال ، قالوا حيا الله الرجل . قال العوافي يا غاممين ، قالوا حيا الله الغانم . ثم جلس بالقرب من الشيخ وبات عند العرب أياماً طوالاً لا يسألونه فيها جهة القصد . إلى أن حان وقت طغاه فيه الشيطان فأسقطه في زلّة كبرى : ذلك أنه رأى ابنة الشيخ فسحر بجهاها ، ولما انسدل الليل هجم على خيمتها فقتل العبد الحافظ لها وخطفها وسافر . فداع الخبر بأقل من لمح البصر ولحقه اخوتها الثلاثة . وكان كلما تقدم اليه أحد يضربه برمح فيرميه مجدلاً على الأرض . أخيراً لحقه الفرسان فانهزم إلى أن لقي خربوشاً (والخربوش هي الخيمة الصغيرة لها عمود واحد ، وكان على باب هذا الخربوش شاب في مقتبل العمر فصاح به وقال : يا أبا رشيدة أنا في وجهك وفي مرقد عيالك . قال : لقيت خيراً ومرعى وأماناً . ولما أقبلت العشيرة تطلب الابنة وحق الدم أرجعها الشاب وقال : « هو البيت يحمي الطريد والشريد ، وهو الوجه يدفع صدمات العدو » . فرجع القوم صامتين . وسأل الخاطف الابنة عن صاحب البيت فقالت : « سوّد الله وجهك هذا ابن عمي وخطيبي قد طلبني فوعد بما طلب ، وقد مهد الصعاب كي يتزوجني ، إذ قاتل اولاد عمه »

فامتقع لونه وتغيرت هيأته . على أن صاحب الحربوش أكرم مشواه في تلك الليلة ، وأعد له خيمة العرس وزوجه بالفنأة ، ثم صالح العرب مع الشاب وسالمهم وعاهدهم بأن لا ينزلوا به ضرراً . هذه حكاية تدل على علو نفس وشهامة قد لا يوجد مثلها بين أصحاب التمدن ، كيف لا وقد صفح هذا البدوي عن قاتل أولاد عمه وخاطف خطيبته وصالحه مع العرب . وهل دفعه إلى هذا الصفح إلا سمو النفس وحب الذكر ؟

عقوبات أهل الفوارع والشتائم

يعسر على البدوي احتمال أدنى شتيمة لأن العرب طبعوا على حب المجد والشرف ، لذلك هم يعدون الشتيمة أشد تأثيراً من حد السيف وقد نثير الشتائم الحروب في البادية وتحمل المشتوم بل وأهل المشتوم أيضاً على الانتقام . حكي عن عبد المهدي قاضي العوازم انه قال : أرباب الشتائم يعدون باقى أنواع العذاب . وروي أن رجلاً من عرب العدوان رفع يده على أبيه قائلاً « اخس يا شايب » فسمع بذلك شيخ العدوان فأمر بقطع لسانه . ويقال أن بدوياً بصق بوجه عدو له فحكم عليه أن تخلق لحيته إلى نصف الذقن فقط ويبقى النصف الآخر . ومن شتم من عرب الصخور يدفع للمشتوم فرساً أو سيفاً أو بمريراً أو ثلاثين ريالاً ، وعند بعض العشائر يضرب الشتامون بالسياط حتى يسيل منهم الدم . وبعضهم يضعون دبساً على وجه الشاتم ، ويربطونه بأوتاد فيأكله الذباب ، أو يربطونه ويوجون عينيه إلى الشمس . ويروي أن بدوياً أهان أباه اذ رفع عليه محجاة (والمحجاة عصا صغيرة) فألزمه القاضي ان يجرث أرض أبيه مدة سنتين .

ومن أحاديثهم أن قدم شيخ هرم إلى قاضي البلقاء بن قلاب وقال : « وايش بك يا عواد بن قلاب ، يا حامي النسب ، بولد لي ربيته حتى نشأ وكبر ، واليوم قد جرني بجديلتى إلى خارج الخيمة وشممني » فقال له القاضي « اذهب يا شايب ، ما صنع ابنك بك سيصنعه به أولاده في المستقبل »

وحكم على الولد بأن يبني خيمة لأبيه ويدفع له خمسين نعمة ايكرم بها الضيوف . وقد صدق كلام ابن قلاب ، فان اولاد الابن جرّوا اباهم الى خارج الخيمة ، ولما انتهوا به الى الموضع الذي اوقع اياه فيه قال لهم : « كفاكم ايها الاولاد الاشرار الى هنا فقط جررت ابي » ، وتذكر قول ابن قلاب .

ويروى أن شاعراً من بني حسن هجا ذئبة ابنة الشيخ عوده ابي تايه امير الحويطات . فلما ورد الشاعر الى مضارب الامير قال له عوده : قبحاً لهذه اللحية يا قذاف المحصنات ، لسانك يلسع كلسع الحيات ، فهرب الشاعر كئيباً ولم يذق طعاماً عند الشيخ . ولما اتمعد في البرية أمر الشيخ عوده احد عبيده فلحق به في الخلاء وقتله على هجائه .

حق البيت

بيت شعر في البادية ، وإن كان خربوشاً ، هو رفيع الشأن عظيم الاكرام عند العرب . ومن اهان بيتاً عندهم اهان اصحابه النازلين فيه ، لا بل اهان العشيرة كلها . ومن تعدى عليه نال جزاء تعديه إهانةً وعذاباً . وهم يمدون اهانةً تكسر شرف البيت تلك التي تحصل من بدويين يتخاصمان في بيت حتى يصل بها الخصام الى المسببات والشتم او رفع الاسلحة . فالبيت يطلب حقه . واذا أهين صاحب البيت في بيته ، فالبيت وصاحبه كسر شرفها ، وصار على الشاتم حقان حق البيت وحق صاحب البيت .

وبعض الاعراب يزعمون أن من ازدرى بالبيت واحتقره ، فقد صنع ذلك ليس نحو الاحياء النازلين به فحسب ، بل تعدى الالهانة الى اجدادهم وأمواتهم .

إهانة البيت يحاكم عليها امام القاضي . فينتصب المدعي وهو صاحب البيت في وسط الجماعة ويقول : « ويش بك يا قاضي العرب ، يا حامي

النسب ، بفلان إني كسر شرفي بقوله كيت وكيت ، واهانني في عشيرتي وبحضور جماعتي ، واهان ضيفي ، فودني منك ان يبيض الوجه ، ثم ترد الشهود وتشهد على صحة مدعاه . فينتصب القاضي ويقول : « انا من عندي ، ومن عند القضاة الذين قبلي ، فلان كسر شرف البيت واهان صاحبه وضيفه » ثم يحكم عليه بدفع عشرين ناقة وخمسين نعجة لصاحب البيت ، وثلاثين ريالاً لضيفه المهان . فيقول المجرم « نعم انا مستعد ، امرك يا قاضينا فوق الراس ، وبعد ذلك يقوم احد الشيوخ الحاضرين ويقول لرب البيت « حقك على الرأس والعين ، ولكن من شأن الشيخ فلان دع له خمس نياق » فيقول « من شأن خاطرك وخاطر السامعين تركت ما تريد » ثم ينتصب شيخ آخر ويقول « يا شيخ فلان اترك له من شأن الجماعة ومن شأن والديك كذا وكذا ، فيقول « تركت ما طلبت » وهكذا الى ان يصبح المطلوب سهلاً وخفيفاً . ثم يبيضون وجه رب البيت المحكوم له ، وذلك بان ينشروا له راية بيضاء يطوفون بها حول الخيام وهم يقولون « راية فلان بيض الله وجهه » .

* * *

صق الوجه

الوجه عند العرب هو الكفيل الموكل باجراء ما يتفق عليه فريقان من فعل خير او اتقاء شر . والوجه لا يخون صاحبه أبداً ولو فقد ماله وحياته . فاذا باع امرؤ ارضاً او فرساً او غيرها من الأشياء يقول البائع للشاري « ترى بعثك بوجه فلان ان طلبتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » وكذلك الشاري يقول « ترى اشتريت بوجه فلان ، ان ارجعتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » . واذا تشاجر اثنان ثم تسالما يقول الواحد لصاحبه « ترى بوجه فلان تصالحنا ومن اضر قريبه لا يلوم الا نفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاتلاف يقول المؤمن عليها « ترى فلان وجه عليك » . فمن تعدى على صاحبه في مثل هذه الأحوال يجد امامه اعداءً كثيرين بسبب الوجه ،

لأن العشيرة كلها تقوم مع الوجه يداً واحدة . والمعتدى عليه يلتجئ الى الوجه ويقول له « يا شيخ فلان ، قد صار الأمر الفلاني بوجهك ، وخصمي فلان تعدى عليّ وكسر وجهك ، فبيض وجهك ووجهي » فيجمع الوجه مجلساً مؤلفاً من القاضي البدوي والامراء المعروفين ويُرسل رسلاً ليأتوا بالمعتدي . فيقصّ الوجه قصته على الحاضرين ، والمعتدي في اثناء ذلك راكع والمقال في رقبته دلالة على التذلل . ثم يحكم القاضي على المعتدي بدفع ما عليه ويعاقبه بدفع عشرة خرفان للوجه .

حق الرخيل

الدخيل عند العرب هو الرجل المستجير الخائف من امر دهمه او سيدهمه ، فيعمد الى شيخ كبير قوي يستغيث به ويطلب حماه ، ويقول له « انا دخيلك احمني وارحمي » . ورب مستجير يأتي في الليل ويرتمي على فراش الاولاد في خيمة الشيخ ويقول بصوت متقطع حزين « انا بحضارك وموقد نارك ، انا داخل عليك من السيف والحيف ومن فلان صاحب الحق الردي » ثم يبسط له سبب اعتصامه به . فيقول له الشيخ « ابشر بالعز والهناء وعش في ديارنا فرحبا بك » ثم ينزع كوفيته من على رأسه ويضعها على رأس الدخيل ويقول « الله ورسول الله لا احد ينزع من رأسك شعرة » .

وحينا يقبل الشيخ الدخيل في منزله يرسل رسلاً الى عدو الدخيل وطالبه يقولون له « ترى فلان دخيل في بيتي احذر ان تصيبه باذى » فيجيبه الرجل « اطلب خصمي الى القضاء » فيقول صاحب الدخلة « أعطه عطوة » والعطوة في البادية هي هدنة من الزمان يمنع فيها العدو عن الانتقام الى ما بعد المحاكمة ، وهذه الهدنة تكون عند بعض العشائر اسبوعين ، وقد تمتد عند غيرها الى اكثر من ذلك ، ومعظمها شهران . وفي اثناء المهادنة يبعث صاحب الدخلة وفوداً الى عدو دخيله ثلاث دفعات متوالية ، مستخدماً الوعد تارة والوعيد أخرى حتى يرعوي وينتهي للحق الذي يحكم به الاجاويد او القاضي ، وان ابى الا الانتقام وأخذ

الثار بيده ، يجمع الشيخ فرسانه الشجعان ويقودهم الى منزل العدو فيسلبون ما يجدونه هناك من المواشي ويقودونها الى أرض قاحلة لا مرعى فيها فيضطرون حينئذ الى المصالحة . وان أصر على عناده تموت اغنامه ويصبح فقيراً ولا يحق له ان يطالب صاحب الدخلة بشيء لأنها تحسب عقاباً له وهي حق الدخيل .

* * *

حق الدم

السنة عند العرب هي « الدم يطلب الدم » على ان من لا يقدر على أخذ ثأره يطلب الدية ، وتدعى عند الأعراب « العقلة » وقدرها ٣٣٣٣٣ قرشاً . وقاتل المرأة وخصوصاً العذراء يدفع اربعة اضعاف الدية ، لأن المرأة انسان ضعيف وقتلها جرم كبير على الرجل وإهانة مذلة له . فاذا ذبح أعرابي عدوه يسعى حالاً في طلب امير كبير يحتمي في ظله ويعتصم بمعقله هو وماشيته خوفاً من ان يقتل وفاقاً لسنة الانتقام العاجل التي تعطي اهل القتيل حقاً مدة ثلاثة ايام ان يأخذوا ثأرم بذبح القاتل واهله وهدم بيته وسلب ماشيته . فالامير المجير يلتزم أن يبذل جهده طاقته لتخليص المجرم من طائلة هذا الانتقام ، ولو كان القاتل المستجير من اعداء العشيرة ، او عدوه ، او قاتل ابنه او احد اقربائه ، لان الشهامة العربية تحتم عليه ان يحامي عن الضعيف المستجير .

اذا وصل المستجير امام الخيمة وقال لصاحبها « انا دخيلك » او تمسك باطناب الخيمة او وقف امام الخيمة فقط فقد « عد دخيلاً » . وان قتله احد خارج الخيمة قبل ان يبلغها وكان المدى بين مكان وقوعه قتيلاً وبين الخيمة التي أتى ليستجير بصاحبها لا يتجاوز رمية عصا ، فقاتله يضطر الى دفع دية الدم وحق الدخلة .

وعندما ينزل القاتل عن فرسه يذهب توتاً إلى فراش الأمير فيجلس عليه ويقول « أنا دخيلك بمالك وحلاك ، من الحظ المنكود ، والسيف

المجرود ، والظالم الحقود ، والكاذب ماله مولود « فيجيبه الأمير « يا هلا
ابشر بالعز وطيب المنزل ، عند ذلك لا يهتم القاتل بشيء بل يعيش بصفاء ،
والسبي كله يعود على الحجير . فيرسل بعثات متتالية الى أهل القتييل كي
يقبلوا المصالحة ويأخذوا دية الدم . على انهم يرفضون الصلح دائماً
في أول مرة ، ويطلبون الدم بالدم ، ويذكرون الدم المهدور ، الصارخ
إلى السماء ، الطالب الانتقام . فيعود الوفد الاول خائباً . على أن الحجير
لا ييأس من هذا الجواب المؤلم لأن هذه هي العادة عندهم ، فيعيد الكرة
بعد أيام مرسلًا اليهم وفداً أكبر كي يصلحوا ذات البين ويأخذوا الدية
فيرجع أيضاً الوفد الثاني مكسور النفس . وفي غالب الأحيان يصير
الصلح بعد المرة الثالثة لأن العزب ترتفع بهم العواطف النبيلة إذا شاهدوا
كبراء البيداء متذللين أمامهم . ولكن ان أبي أهل القتييل المصالحة بعد
المرة الثالثة ، فتلك دلالة على أنهم لا يريدون إلا الانتقام ، ويجب على
القاتل حينئذ أن يهرب في ظلمات الليل الى بلاد بعيدة ويعتصم
بقبيلة شهيرة .

والذين تصيبهم سهام الانتقام هم أهل القاتل وأقرباؤه إلى الدرجة
الخامسة أي أبو القاتل وجدّه وأولاده وأولاد أولاده وأعمامه وأبناء
أعمامه . أما الأباعد من الأسرة كابن العمّة وابن الخالة ونحوها فلا يؤذي
بضرر بل يقدم لأهل القاتل بعيراً يسمى عندهم « بعير النوم » ويبقى
في خيمته غير خاشٍ صولة الأعداء .

حق الطنّيب

ويدعى أيضاً حق القصير ، والطنّيب تصغير الطنّيب وهو جبل الخيمة .
وعند العرب الطنّيب هو الجار المستجير ، ويعتبر طنّيباً إذا علق بعض آلات
صناعته على طنّيب من أطناب الخيمة ، ومنهم من يكتبني بالكلام فقط فيقول :
« يا شيخ فلان يا أبا فلانة أنا طنّيبك » فيقول له « يا هلا بك » .

فمن الأعراب من يترك عشيرته وبيت أبيه فيحمل خيمته ويرفعها إلى جانب شيخ عظيم ، ويكون ذلك إذا خشي عدوا لا يقدر على مقاومته أو وجد ضده عدداً وافراً من الأعداء لا يستطيع منازلهم أو قدّم طلباً للرزق والشغل عنده في حرّاة أرضه . فما من أحد إذا يضطر إلى مجاورة أمير غريب عن عشيرته ووطنه إلا أن يكون ضعيفاً أو فقيراً . ويقول العارفون بعادات العرب أن الضيف يسمى عندهم ضيفاً مدة ثلاثة أيام وإن طال مكثه عدّ طنبياً . وكم من قاتل مثلاً نزل بالقرب من أمير كبير في بلاد بعيدة عن وطنه فسمي باسمه وتطبع بطباع عشيرته وقد نسي أصله ونسبه بعد طول الزمان .

ومن غريب ما يجري في هذا الحق إن بعضاً من التجار ينزلون في خيام العرب أو عند الشيخ لبيعوا بضاعتهم من ملبوس وما كول في حماه ، فيصبح شأنهم شأن طنب هذا الشيخ أو قصيره . ويلتزم الشيخ أن يجمع لهم ديونهم من المديونين ، وإذا تعصّب المديون وامتنع عن الدفع يضطر الشيخ نفسه إلى الدفع كي يبيض وجهه أمام القصير . وإذا سُرق شيء من القصير ، فعلى الشيخ أن يسعى باسترداده له .

* * *

حق العرض

البادية بلاد تنحت عن المنكرات ، وهي في هذا الباب أشرف من المدن المتمصرة حيث يظهر المنكر ظهوراً جلياً على حد ما قال الشاعر الشعبي : « ما في شي اسمه عيب » . فالنساء في القفر على الجملة عفيفات يتجنبن الطرق السافلة وأبواب المحرمات . وقد تسير المرأة البدوية وحدها في البادية ترعى الأبل والنعاج ، ولا يعارضها أحد أو يتعدى عليها .

على أن جرماً من هذا النوع كثير الحدوث في البيداء ، ألا وهو الخطف . وكَم من شيخ بكى على ابنة له كانت سعادته في هذه الدنيا ، فغابت عن أنظاره في ليلة دامسة ، وبات هو يطوي الأيام والأوقات بالحزن والبكاء وهم يقولون فلانة خطفت فلاناً . ولا يقولون فلان خطف فلانة . إذا رام الشاب البدوي أن يتزوج بابنةٍ على غير إرادة أبيها واتفق معها على خطفها يتواعدان إلى زمان ومكان محدودين ، فإذا ستر الليل الأرض يأتي إلى الابنة ويردفيها وراءه على فرسه ويهرب بها إلى بلد بعيدة وربما وجدها واردة على عين ماء أو في حقل فخطفها بعد أن يكونا قد اتفقا . ولا بد للخاطف من عقاب شديد إذا وقع .

قلتُ إن الخطف كثير في عرب البادية . وقد لا يمر شهر إلا ويسمع فيه خبر كهذا بين الأعراب ، والحق في ذلك في غالب الأحيان على أهل البنت الذين يطعمون ببيع بناتهم بأثمان باهظة حين زواجهن ، فإن البنت عند العرب تكون لمن يقدم مالاً وحلالاً أكثر من سواء ، لذلك يصير الزواج عندهم على غير حب ووداد .

فإذا خطفت ابنةٌ وكان خاطفها من قبيلة قريبة ، ركب أهلها وأقاربها ليرجعوا الشرف المفقود والابنة الهاربة ، ولهم الحق بأن يصنعوا ما يشاؤون في مدة أيام ثلاثة فقط يسوخ لهم فيها أن يقتلوا الخاطف ويهلكوا غنمه ، ويهدموا خيمته ، ويذبحوا فرسه ، وهم يسرفون بما تصل إليه أيديهم إسرافاً لا يستبقون لانفسهم منه شيئاً وإن هم استبقوا رذلوا وأهينوا ، وإذا مضت الأيام الثلاثة ولم يظفروا بالخاطف ولم يستطيعوا فيها إرجاع شرفهم المفقود ، حل بهم العار والحجل ، فيرحلون وبنزلون وخدمهم مؤثرين العزلة والغربة . والخاطف يتزوج بالفتاة التي خطفها آمناً لا حرج عليه .

وفيا خلا الخطف ، فمن أقدم من البدو على الفواحش بنفس راضية ،
يردعه الشيخ مع وجوه العشيرة مرات عديدة ، وان هو لم يرتدع يحكمون
عليه بالنفي ، ويكون دمه مطولاً لا يطالب به وهي عادة محمودة تحمل
العرب على تجنب المنكر خوفاً من العقوبات الصارمة .
ومما يخفف وطأة الفواحش في البادية خوفهم من العار والهوان ،
لان البيداء لها آذان تسمع وعيون تنظر ، فلا يخفي فيها خاف ، ولا
يوجد فيها سرٌّ مكتوم . قال أحدهم إن أهل البادية كالمشرفين على رأس
الجبل ، يراقبون الحركات والاشارات الخفية ، ومن وُجد جرم فظيع
في بيته قد تحرق خيمته ويُنشر رمادها في الهواء .

دمشق : سنة ١٩٣٢

القسم الثاني

في أربع عشرة محاضرة

عدي بن الرقاع العاملي

الأستاذ خليل مردم بك

حياته

هو أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي من بني عاملة . وهم من عرب اليمن ينتهي نسبهم إلى كهلان ثم إلى قحطان نزحوا عن اليمن إلى الشام مع من نزح من اليمانيين قبل الإسلام . يقول الهمداني في صفة جزيرة العرب : « ديار عاملة مجاورة للاردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الأردن » . ويقول أيضاً « وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر » . ويقول ابن خلدون في كتاب العبر : « إن بني عاملة بطن متسع ومواطنهم بيرية الشام » ويقول القلقشندي في صبح الأعشى : « إن بجبال عاملة من بلاد الشام الجم الغفير من بني عاملة » . ونسب الناس عدياً إلى الرقاع وهو جد جده لشهرته .

وقد زعم بعض النساب أن عاملة من معد بن عدنان وليست من قحطان ، ولكن عدياً نفسه يتولى الرد عليهم بقوله :

قحطان والدنا الذي ندعي له وأبو خزيمة خندق بن نزار

وفي لغة عدي أيضاً ما يصحح دعواه قال :

فانك والشعر ذو تزجي قوافيه كمتبغني الصيد في عريسة الاسد

يريد « الشعر الذي تزجي قوافيه » وذو بمعنى الذي في لغة طيبي ،

وطيبي من قحطان .

نحن لا نعلم على التحقيق في أي سنة ولد عدي ، ولكن يغلب على

الظن أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الاول، لان من أول ما روي عنه من الشعر أبياتا قالها في زمن يزيد بن معاوية وأنشده اياها . ويزيد بويح بالخلافة سنة ستين وتوفي سنة أربع وستين . فلا نكون مخطئين إذا قدرنا أن عديا كان وقتئذ شاباً .

اما منزله فقد كان بدمشق كما نص على ذلك صاحب الاغانى . وقال أيضا « هو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم » واقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام . وعده محمد بن سلام الجمحي في الطبقة السابعة من شعراء الاسلام .

نشأ عدي في دمشق عاصمة الدولة الاموية ، وكان هواه مع بني أمية « يمدح أحياءهم ويرثي أمواتهم » كما قال الوليد بن عبد الملك ، ولا يقف عند هذا الحد ، بل يرى رأيهم ويقول بقولهم ، ويؤيد سياستهم ويتحمس لهم ، وهو سلم لمن أطاعهم وحرب على من عصاهم ، ينصرهم بلسانه وبسيفه لا عن رغبة بل عن رأي وعقيدة . قال يمدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظفر في الوقعة التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير ، وانتهت بمقتل مصعب بدير الجائلين .

لعمري لقد اصحرت خيلنا	بأكناف دجلة للمصعب
فقد منا واضح وجهه	كريم الضرائب والمنصب
أعين بنا ونصرنا به	ومن ينصر الله لم يغلب
فداؤك أحي وأبناؤها	وان شئت زدت عليها أبي
وما قلتها رهبة إنما	يحل العقاب على المذنب
إذا شئت نازلت مستقتلاً	أزاحم كالجلج الجرب
فمن يك منا يت آمنا	ومن يك من غيرنا يهرب

أفلا ترى صدق اللمجة في قوله « وما قلتها رهبة » فضلاً عن بقية الابيات التي تنبئ بان الشاعر حارب في جيش عبد الملك .

فلما توفي عبد الملك وخلفه ابنه الوليد اختص عدي به ومدحه بقصائد من حر الشعر بقي منها قصيدتان مطلع الاولى :
عرف الديار توهاً فاعتادها من بعد ما شمل البلي ابلادها
ومطلع الثانية :

طار الكرى وألمّ الهم فاكتمنا وحيل بيني وبين النوم فامتنا

وغيرها من بقايا القصائد التي خلد بها مآثره واشاد باعماله العظيمة ، كما مدح ابنه عمر بن الوليد فقربه الوليد وقدمه وكان يدعو « شاعرنا » . وابن أحب عدي بني أمية عامة ، فلقد آثر الوليد منهم خاصة وأخلص في حبه كثيراً حتى تمنى أن يموت بحياته ، فقال من قصيدة يمدحه بها :

عدنا بذى العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراعٍ بعده تبعاً

ولكن هذه الامنية لم تتحقق ، فقد توفي الوليد وبويغ بعده أخوه سليمان ابن عبد الملك ، فاستقدم عديا وعانبه على قوله هذا ووصله ، واجتمع مرة عنده مع الفرزدق وجرير وكثير . وتوفي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وعدي حي وقد ذكره بشعره إذ يقول :

لولا اختياري أبا حفص وطاعته كاد الهوى من غداة البين يعتزم

ولم يذكر صاحب الاغانى ولا ابن عساكر في التاريخ الكبير ولا ابن سلام الجحفي في طبقات الشعراء ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء خبراً لعدي بعد عمر بن عبد العزيز الذي بويغ بالخلافة سنة تسع وتسعين وتوفي سنة احدى ومائة ، فلا يبعد أن يكون عدي توفي في خلافته .

وكأن تقدمه عند بني أمية أثار حسد الشعراء له ، فقد تعرض له جرير في مجلس الوليد بن عبد الملك فناقضه عدي ثم لم تتم بينهما مهاجاة لان الوليد منع جريراً من هجائه ، فهجاه جرير تعريضاً ولم يصرح باسمه خوفاً من الوليد . وهجاه الراعي فرد عليه عدي . وكان كثير يبغضه لانه كان يبلغه عن عدي أنه يطعن على شعره .

وكان له بنت شاعرة اسمها سلمى ، فاتاه ناس من الشعراء لياتنوه وكان غائباً ، فسمعت بنته وهي صغيرة فخرجت اليهم وقالت :
تجمعتم من كل أوبٍ وبلدةٍ على واحدٍ لا زلتم قيرن واحدٍ
فالختمهم . ويستدل من كنيته على أنه كان له ابن اسمه داود وسماه بعضهم دواداً ولا نعرف من خبره شيئاً . كما أن قوله :
« فداؤك أمي وأبناؤها »

ينبيء بان له اخوة خفيت علينا اسمائهم .

وله ديوان شعر ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست . وذكر عبد القادر البغدادي في خزنة الادب ج ١ ص ١٠ أنه اطلع على ديوان عدي بن الرقاع وعده في جملة الدواوين التي اعتمد عليها في تأليف الخزنة . ولكن لا يعلم الآن مكان ذلك الديوان .

صفة وأخلاقه

لم ينص أحد ممن ذكر ابن الرقاع على شيء من صفته غير ابن عساكر ، فقد ذكر أنه كان أبرص . ويصفه لنا عبيد الراعي الشاعر بأنه قصير أوقص إذ يهجوهم ويقول :
جنادفٌ لاحقٌ بالرأس منكبه كأنه كودنٌ يوشى بكلابٍ (١)
من مشرٍ كحلت باللؤم اعينهم فققد الالكف لئام غير ضيآب
والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة . على أن بعض أخباره التي أوردها صاحب الاغانى وابن عساكر مع البقية الباقية من شعره يمكن ان تصف لنا شيئاً من نفسه واخلاقه .

كان عدي يفخر بما يفخر به فتیان العرب : الحب والشجاعة والفصاحة وفي ذلك يقول :

(١) جنادف : قصير أراد أنه أوقص ، والكودن : البرذون ، ويوشى : يستحث ، والكلاب للمهاز ، وأفقد الكف : ماثلها ، والضيآب : السادة .

فلقد ثنيت يد الفتاة وسادةً لي جاعلاً يسري يدي وسادها
وأصاحب الجيش العرمم فارساً في الخيل أشهد كرها وطرادها
وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
وكان وافياً لأصحابه في سرايمهم وضرائهم لا ينحرف عنهم بالبحراف
الزمان والسلطان ، عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن عن
الاردن وضربه وحلقه وأقامه للناس ، وقال للمتوكلين به من أنه متوجماً
وإني عليه فائتوني به ، فأنى عدي بن الرقاع وكان عبيدة اليه محسناً فوقف
عليه وأنشأ يقول :

فما عزائك مسبوقاً ولكن الى الخيرات سباقاً جوادا
وكنت اخي وما ولدتك امي وصولاً باذلاً لي مستزادا
وقد هيمضت لنكبتك القدامى كذلك الله يفعل ما أرادا

فوثب المتوكلون به اليه فأدخلوه الى الوليد واخبروه بما جرى ، فتنغيظ
عليه الوليد وقال له أتمدح رجلاً فعلت به ما فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين
انه كان الي محسناً ولي مؤثراً وبني برأ في أي وقت كنت أكافئه بعد
هذا اليوم ؟ فقال صدقت وكرمت فقد عفوت عنك وعنه لك غفده
وانصرف ، وانصرف به الى منزله .

وكان شديد العارضة حاضر الجواب ، دخل جرير على الوليد بن
عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع ، فقال الوليد اتعرف هذا ؟ فقال لا
يا امير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال هذا عدي بن الرقاع . فقال جرير : فشر
التياب الرقاع ، فمن هو ؟ قال من عاملة . قال جرير : أمن التي قال
الله تعالى فيها « عاملة ناصبة » ، تصلى ناراً حامية ، ثم قال :

يقصير باع العاملي عن الندى ولكن = العاملي طويل
فقال له عدي :

أممك كانت اخبرتك بطوله أمانت امرؤ لم تدر كيف تقول
فقال جرير : لا بل أدري كيف أقول . فقال الوليد والله ايركبتك

شاعرنا ومادحنا والرائي لأمواتنا ، تقول هذه المقالة ؟ والله اثن هجوته
لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجائه وعرض فقال قصيدته التي أولها :
حي الهدملة من ذات المواعيس

وقال فيها يعرض به :

أقصر فان نزاراً لن يفاخرهم فرعٌ لئيمٌ وأصلٌ غير مغروسٍ
وابن اللبون اذا ما لزي في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك غلب الاسود فما بال الضغابيس

وكان عدي مدح الوليد بن عبد الملك بقوله :

عدنا بذى العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراع بعده تبعاً
فلما توفي الوليد وبويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك ، استدعى عدياً ، فلما
دخل عليه قال : ان كنت لكارهاً لخلافتي . قال وكيف ذاك يا أمير
المؤمنين ؟ قال حين تقول في مدحة الوليد :

عدنا بذى العرش ان نبقى ونفقده وان نكون لراع بعده تبعاً
قال ابن الرقاع والله ما هكذا قلت يا امير المؤمنين ولكني قلت :
عدنا بذى العرش ان نبقى ونفقدهم وان نكون لراع بعدهم تبعاً
قال او كذلك ؟ قال نعم . فوصله واذن له بالانصراف .

ومن شعره ما يدل على انه كان تيساً كثيراً كثير الاعجاب والذهاب بنفسه ،
قال من قصيدة :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحدةٍ لكي ازدادها
واتفق ان عدياً لما انشد الوليد بن عبد الملك القصيدة التي منها هذا
البيت ، كان عنده كثير ، فلما انشد هذا البيت قال كثير كذبت ورب البيت
الحرام ، فليمتحنك امير المؤمنين بان يسألك عن صفار الامور دون كبارها
حتى يتبين جهلك وما كنت قط أحق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك .
فضحك الوليد ومن حضر .

وروي عن محمد بن المنجم أنه قال : ما احد ذكر لي فأجبت ان

اراه فاذا رأته امرت بصفه الا عدي بن الرقاع قيل : ولم ذلك ؟ قال لقوله :
وعلمت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحدة لكي ازدادها
فكنت اعرض عليه اصناف العلوم فكلها مر به شيء ولا يحسنه
امرته بصفه .

وقد سمي جرير عدياً الشاعر المغرور حين عرض به فقال :
اني اذا الشاعر المغرور جريري جارٍ لقبر علي مران مرموس
ولكنه مع هذا الاعجاب بنفسه لم يقو على مصاولة جرير بل خافه ، فقد
روي أنه لما اجتمع بجرير عند الوليد بن عبد الملك وهدده جرير بالهجاء
وثب عدي إلى رجل الوليد فقبلها وقال اجرني منه .

وإذا صح أن تكون الصفات التي ينعت بها الشاعر نفسه دليلاً على
أخلاقه جاز لنا أن نقول إن عدياً كان جلدأ لا يتضعضع لريب الدهر لقوله :
ونكبة لورمي الرامي بها حجراً أصم من يابس الصوان لانصدنا
أتت علي فلم أنزع لها سلمي ولا استكنت لها شكوي ولا جزعا
وإنه كان حمولاً على نفسه غير سؤال لقوله :

فسترت عيب معيشتي بتكريم وأتيت في سعة النعيم سداده
ومها يكن من مبالغة في هذه الصفات فانها تضرب بعرق إلى الحقيقة
في نفس الشاعر ، أما هواه السياسي فقد كان مع بني أمية كما تقدم ذكر
ذلك في حياته .

شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية ، وكان مقدماً عندهم
لأن مذهبه السياسي أموي ، ولا عمل له غير الشعر ، وقد حدث في زمانهم
من الاحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي ، فمن المفروض أن يكون قال
كثيراً من الشعر . وقد ذكر له ابن النديم في كتاب الفهرست ديواناً ،
ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتتاً في كتب اللغة

والأدب والتاريخ وتقويم البلدان ، من ذلك أبيات قالها في الوقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزبير ، وقصيدتان مدح بها الوليد بن عبد الملك سبقت الإشارة إليهما ، وأبيات مدح بها عمر بن الوليد ، ومقطوعات في معانٍ مختلفة كالوصف والغزل والأدب والفخر والمدح والمهجاء والتهنئة ، وكلها لا تبلغ أربعائة بيت ، وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ، ولكننا نحاول أن ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجود الزمان بشيء مما ضن به علينا .

* * *

عدي بن الرقاع شاعر إسلامي ، والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق وجريير والأخطل وكثير وجميل والراعي ونصيب والقطامي ، - وعدي واحد منهم - أعذب لغة وأحسن ديباجة وأكثر طلاوة من شعراء الجاهلية ، وذلك لتأثرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسمو أسلوبه ، دع ما انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين ومملك لم يكونا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وثقيفاً لشعره وتهديباً لقوافيه وهو الذي يخبرنا كيف كان يجبر قصائده ويصقلها ويعود عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كموب قناته حتى يقيم ثقافه منادها

وهو في فنه صانع ماهر لا يكره الشعر إكراهاً ولا يقتسر القوافي غصباً ولقد أتبع له من بارع الأبيات في انسجامها ما ذهب مثلاً كقوله :

صلى الإله على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

فلقد صار عجز هذا البيت رسماً من رسوم الكتاب في ، رسائلهم ، قال
أبو هلال العسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكاتبه : « فاما قولهم
وآتم نعمته عليه وزاد في إحسانه إليه » فهو من قول عدي بن الرقاع :
صلى الاله ... الخ

وكقوله :

فلو قبل مبكها بكيت صبايةً بسعدي شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فييج لي البكا بكها فقلت الفضل للمتقدم
وكم تمثل الناس بهذين البيتين

* * *

قلوا إن عدياً من حضرة الشعراء لا من باديتهم ، وانه كان أثيراً
مقدماً عند بني أمية ، ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين
يبيعون الشعر بيعاً . فهل لذلك أثر في شعره ؟ نعم ان اطراد شعره
وتساوق أبياته وتلاحمها وتهذيب قوافيه وحسن صياغته وما في تشبيهاته من
معان حضرية وفي قصائده من ماء وظل ونعيم كقوله :

فقد أبيت أراعي الخود راقدةً على الوسائد مسروراً بها ولما
وقوله :

ومما شجاني أتني كنت نائماً أعلل من برد الكرى بالتنم
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة تردد مبكها بحسن الترنم

أثر من آثار نعيم العيش ورفاهته ، فان شعراء البادية يتوسدون في
باديتهم أعضاء المطايا ، وعدي يراعي الخود على الوسائد ، ويعمل في ظلال الأيك
بدمشق بنوم هنيء تترنم من فوقه الحمام .

على أن حسن تأتبه في مدحه لبني أمية خلفائهم وأمرائهم أدل على
لباقته وتحضره ، فهو شاعر مجيد من شعراء القصور يحسن القيام برسوم

الخلفاء والأمراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ، ويمدحهم بما هو أشبه
بالدعاية السياسية ، ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة ، فاسمعه يقول في مدح
الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له
على الذي سبق الأقبام ضاحيةً
هو الذي جمع الرحمن أمته
عذنا بذى العرش أن نحيا ونفقده
إن الوليد أمير المؤمنين له
ويقول في مدحه أيضاً :

صلى الاله على امرئ ودعته
أو لا ترى أن البرية كلها
واقدر أراد الله إذ ولا كلها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت
وأصبت في أرض العدو مصيبةً
ظفراً ونصراً ما تناول مثله
فاذا نثرت له الثناء وجدته
تأبته أسلاب الأعزة عنوةً

فهل ترى نمطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط ؟ تحية الخليفة
بالصلاة عليه ، وتعظيم للأمر المضطلع به ، وإشادة بعظائم أعماله في سبيل
الامة ، وإخلاص في محبته وتأيد للسكة وعرشه . بل كيف ترى الفرق بين
هذا الأسلوب الحضري وبين أسلوب بعض بادية الشعراء الذين اعتادوا
أن يصفوا الممدوح بالحية الذكر ، ويمدحوه بتأريث النيران وعظم القدور
ونحر الجزور ودعوة الجفلى والنداء على الطعام وكثرة الهبات . أو أن
يصفوا عناء سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق وما هم عليه وعيالهم

الذين خلفوهم وراءهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم . هذا جرير
أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الأسلوب
الذي استقام لعدي ، فانه في مدحه لعمر بن عبدالعزيز أشبه بالمستجدي
منه بالشاعر قال :

إنا لترجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
أذ كر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني الذي بلغت من خبري
كم بالمواسم من شعناء أرملة ومن يقيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به مساً من الجن أو خبلاً من البشر
ممن يعذك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا في دار منتظر
لتنعش اليوم ريشي ثم تنهضي وتنزل اليسر مني موضع العسر
وما ذلك إلا لبداوة جرير وبعده عن حياة الحاضرة ، على أنه بحر
لا ساحل له .

ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بني أمية وهو عمر بن الوليد
ابن عبد الملك ، تدل على لباقة وحسن تأت لو قالها أحد شعراء القصور
في هذه الأيام لا تأت إعجاب الناس لما فيها من حذق ولباقة وهي :

وإذا نظرت إلى أميري زادني ضناً به نظري إلى الأمراء
تسمو العيون إليه حين يرونه كالسدر فرج بهمة الظلماء
والقوم أشباه وبين حلومهم بون كذاك تفاضل الأشياء
كالبرق منه وابل متتابع جود وآخر ما يجود بماء
والأصل ينبت فرعه متأثلاً والكف ليس بنانها بسواء
بل ما رأيت جبال أرض تستوي فيما غشيت ولا نجوم سماء
والمرء يورث مجده أبناءه ويموت آخر وهو في الأحياء

وفي شعر عدي عدا النعومة الحضرية مفردات ومعان تدل على الحضارة
كذكر الكتاب والقلم والدواة والبريد والتجار كقوله :

تزجي أغن كأن ابرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
وكقوله :

لمن رسم دارٍ كالكتاب المنعم بمنعرج الوادي فويق المهزَّم
وقوله :

ونحن بأرض قلماً ما يحشم السرى بها العربيات الحسان الحرائرُ
كثيرٌ بها الأعداء يحسر دونها يريد الإمام المستحث المثار
وقوله :

مستطيرٌ كأنه سابريُّ عند تاجر منشئٍ وملاء

على أن أثر البادية ظاهر جلي في شعره أيضاً ، فأنت تدرك به روح
البادية كما تبصر أفياء الحاضرة ، فنراه يصف المطايا وصفاً يكاد ينفرد
به من حيث الدقة والاستقصاء ، كما يصف المفاوز وما فيها من أعلام
طامسة وأطلال دارسة ووحوش راتمة ، ولكنه يتنزع لها تشبيهات مما
شاهده في الحاضرة ، بمثانة رصف وقوة أسر وجزالة تركيب ، ولعل عدم
انقطاعه عن البادية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعتري كثيراً من
شعراء الحواضر ويسميه النقاد باللين ، ويعنون به الرقة التي تفضي إلى الإسفاف ،
ونجد هذا اللين أحياناً في شعر عدي بن زيد العبادي ، وأميرة بن أبي الصلت ،
وابن قيس الرقيات ، والوليد بن يزيد ، وكلهم حضريون .

وهكذا فشعر عدي بما فيه من روح البادية ورونق الحضارة عربي
في جزالته ورصفه وخياله ومعانيه وتفكيره ونظراته ، لا تجد فيه أثراً من
ثقافة أجنبية شأن جميع الشعراء الاسلاميين ، لأن الحياة بجميع مظاهرها
أيام بني أمية كانت عربية إسلامية .

لقد أحسن عدي في الوصف فانه وصف الطيف والغيث والبرق والليل

والحر والمطايا والظباء والوحوش في حركاتها وما تثيره من الغبار في عدوها .
قال صاحب الاغانى ، قال عبدالله بن مسلم : « وما ينفرد به (عدي) ويقدم
فيه وصف المطية فإنه كان من أوصف الشعراء لها »
قال في الخيل :

يخرجن من فرجات النقع داميةً كأن آذانها أطراف أقلام

وقال ابن قتيبة : عدي أحسن من وصف الظبية وولدها .

وقال جرير : سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك
قصيدته التي أولها :

عرف الديار توهاً فاعتادها

ففسدته على أبيات منها ، حتى أنشد في صفة الظبية والغزال :

تزجي أغنً كأن إبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه ، وقلت بأي شيء يشبه ترى ؟ فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .

وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني « وأما قول عدي في صفة
قرن الظبي فليس له شبيهه »

ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حماري الوحش في عدوها وما
يثيرانه من الغبار :

يتاوران من الغبار ملاءةً غبراء محكمةً هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً وإذا السنابك أسهلت نشرها

وإلى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :

تثير عجاوجةً في كل أرضٍ يهيم بها عدي بن الرقاع

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني بمد أن أورد بيتي عدي :
 « لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا »
 وعدي في غزله محسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في
 المعاني الغزلية ، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله . قال
 نوح بن جرير يا أبت من أنسب الشعراء ؟ قال ألغني ما قلت ؟ قال إني
 لست أريد من شعرك إنما أريد من شعر غيرك ، قال ابن الرقاع في قوله :
 لولا الحياء وإن رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم
 وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
 وسنان أقصده النعاس فرثقت في عينه سِنَّةٌ وليس بناثم
 ثم قال لي ما كان يبالي إن لم يقل بعدها شيئاً .

وهذه الأبيات مما يتغنى به . قال محمد بن عباد كنت عند أبي عمرو
 وعنده رجل اعرابي كأنه مدني فقرأت عليه أبيات عدي : « لولا الحياء
 وإن رأسي قد عسا » فقال أبو عمرو أحسن والله ، فقال الاعرابي أما
 والله لو رأيته مشبوحاً بين أربعة وقضبان الدفلى تأخذه لكنت له أشد
 استحساناً يعني إذا كان يغني على العود .

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة :
 « وأما قول عدي « وسنان . . . » فقد زاد به على كل من تقدم
 وسبق بفضله جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر
 على الشعراء ادعاء الشرك فيه لما أراني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق »
 وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني : قال أبو عمرو لأصحابه
 ما أحسن ما قيل في العيون ؟ قال بعضهم قول جرير

إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يحين قتلانا
 يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاناً
 وقال آخر قول ذي الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا
وقال آخر بل قوله
فمولان بالالباب ما تفعل الحجر

يدكرني ميا من الظبي عينه
فقال أبو عمرو أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع العاملي :
وكانها بين النساء أعارها
وسنان أقصده الناس فرثقت
مراراً وفاها الأخوان المنور
عينيه أحور من جاذر جاسم
في عينه منة وليس بنائم
ومن غزله العذب قوله :

صادتك أخت بني لؤي إذ رمت
وأعير غيرك ودها وهوها
بيضاء تستلب الرجال عقولهم
يا مشوق ما بك يوم بان حدوجهم
وأصاب سهمك إذ رمت سواها
عظمت روادفها ودق حشاها
من ذي المويقع غدوة فرآها
وقواه :

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً
بكت شجوها عند الضحى فتساجت
فلو قبل بكها بكيت صباة
ولكن بكت قبلي فبيج لي البكا
هتوف الدجى مشغوفة بالترنم
إياها دموع العين من كل مسجم
بسمدي شفيت النفس قبل التندم
بكها فقلت الفضل للمتقدم
وله نظرات في الأدب والحكمة تغلب عليها السذاجة العربية ، زين بها
بعض قصائده في مناسبات شتى كالأبيات التي مدح بها عمر بن الوليد
ابن عبد الملك وقد سبق إيرادها وغيرها كقوله :

أخبر النفس انما الناس كالعبيد — دان من بين نابت وهشيم
وقوله :

والدهر يفرق بين كل جماعة
ويلف بين تباعد وتناء
وقوله :

والمرء ليس وان طالت مميسته
يرى الذي هو لاق قبل أن يقما

وقواه :

إني إذا ما لم تصاني خلتي وتباعدت عني اغتفرت بعادها
ومن المعاني التي نظم بها عدي التهنئة حين هنأ عبد العزيز بن الوليد
ابن عبد الملك بزواجه قال :

قمر السماء وشمسها اجتماعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الأستار مثلها فيمن رأيناه ومن سما
دام السرور له بها ولها وتهنأ طول الحياة معا
وهو معنى لم تقل الجاهلية فيه .

* * *

أثر الشام في شعر عدي

الشعر العربي ابن البادية ، تعبق منه رائحة الشيخ والقيصوم في بوادي
الحجاز ونجد وهضاب اليمن وظلال الشام وشواطئ دجلة وسقي الفرات ،
والشاعر العربي لعهد عدي يعتمد روح البادية عمود الشعر وقوامه ، ولكن
بالرغم من ذلك فإن أثر الشام واضح جلي في شعر عدي ، فلقد ذكر مدنها
وحواضرها وقراها وربوعها ورياضها وظلالها وأنهارها ومياهها وجبالها
وباديتها ، كما ذكر آرامها ووحوشها وطيورها ، مثل حمص وخنصرة والاحص
وجاسم والمرج والمناظر والأزرق واعامق وفلسطين وبيت رأس والاردن
والغريفة وغيرها ، وطبيعة الشام المنسجمة الساحرة في أرضها وسماؤها ، وما
في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمة الملك ، أوحى إلى عدي كثيراً
من ذلك الانسجام واللباقة والتتيف في شعره ، حتى صار يعتمد ذلك فناً
خاصاً بالشاميين لا يحيدونه غيرهم ، ولذلك كان عدي ينتقد كثيراً عزة ويفمزه
ويطعن على شعره ويقول « هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قر الشام
جمد وهلك » وهكذا فعدي فخور بعربيته وشاميته معترف بما توجيهه
طبيعة الشام الساحرة الى الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العربية .

ولقد وجد عدي في بادية الشام مجالاً لرياضة الشعر على النحو الجاهلي في بوادي نجد والحجاز ، فاعتسف مفاوزها ووقف على الرسوم وبكى الاطلاق ووصف الآل وحن إلى آكامها وداراتها وربوعها وشبب بغزلاتها واهتاج للمع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

منعوا الثغرة التي بين حمص والكهاتين ليس فيها عريبٌ

* * *

وإذا الربيع تناهت أنواؤه فسقى خناصرة الأحص بخادها

* * *

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جسم

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد ، أساء فهم هذا البيت ، فظن أن ذكر جسم من حشو الكلام لا فائدة في ذكره ، فقال بعد أن قرظ البيت : « وقد رأيت ظباء جسم فلم أرها الا كغيرها من الظباء ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرع ، وأما العيون فقل أن تختلف لذلك » وفاته أن عدياً شامي ، وجسم من قري الشام ، فلجأ ذرها منزل في قلبه لا يحتله غيرها .

ومن شعره المطبوع بالطابع الشامي :

فكأنني من ذكر كم خالطتي من فلسطين جئسٌ خمر عفارٌ

عسقت في الدنان من بيت راس سنوات وما سبها التجار

وقوله :

حتى وردن من الأزارق منهلًا وله على آثارهن سحيلٌ

وقوله :

فذر ذاولكن هل ترى ضوء بارق وميضاً ترى منه على بعده لعا

تصعد في ذات الارانب موهناً اذا هز رعداً خلت في ودقه شفعا

الى ما يشابه هذه الأبيات في شعره . وهناك أبيات يلم فيها بالأحداث

حما (١٩)

السياسية التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان
ابن الحكم والضحاك بن قيس سنة أربع وستين وما كان من بلاء أهل
الأردن الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال :
لولا الأئله وأهل الاردن اقتُسمت نار الجماعة يوم المرج نيرانا
وكانتصار مسلة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند
طوانة قال :

وكان أمرك من أهل الطوانة من نصر الذي فوقنا والله أعطانا
أمراً شددت بأذن الله عقده فزاد في ديننا خيراً ودينانا

مُخَارَات من شعره

ديوان عدي بن الرقاع مفقود، ولم يبق من شعره إلا القليل، وهذا
القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع إليه، بل هو مبثوث في
بطون الكتب، لذلك فقد انصرفت مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه
من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان، فقد
أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنة متعددة فأضم بعضها إلى بعض،
وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة منثورة على سبيل الاستشهاد
في كتب اللغة وتقويم البلدان كلسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان
لياقوت فأجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التحري والروية .
ولم أجد من شعره قصيدة كاملة في مكان واحد إلا قصيدته الدالية التي
مدح بها الوليد بن عبد الملك وأولها :

عرف الديار توهاً فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها

فقد وردت برمتها في نهاية الأرب للنويري ج ٤ ص ٢٤٧ وشرح
الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٤٨ ومجلة الآثار ج ٢ ص ٤٤٤ .

وهاك طائفة مختارة مما جمعته من شعره :

قال :

لو نوى لا يرعها الف حول
أهواها يشفه أم أعيرت
لم يطل عندها عليه الثواء
منظراً غير ما أعير النساء

وقال :

وناعمة نجلو بعود أراكه
كأن بها خيراً بماء غمامة
مؤشرة يسبي المعانق طيها
إذا ارتشفت بعد الرقادغروبها
أراك إلى نجد تحن وإنما

وقال يحيب الراعي لما هجاه :

حدثت ان رويعي الابل يشتمني
فانك والشعر ذو تزجي قوافيه
والله يصرف أقواماً عن الرشـد
كمتعني الصيد في عريسة الأسد

وقال :

صادتك اخت بني لوئي إذ رمت
وأعراها الحدثان منك مودة
وأصاب سهمك إذ رमित سواها
وأعير غيرك ودها وهواها
بيضاء تستلب الرجال عقولهم
وكأن طعم الزنجبيل ولذة
عظمت روادفها ودق حشاها
صهباء ساك بها المسحر فها
شرق الجفون بمبرة تشجها
من ذي المويقع غدوة فرآها
فاذا تجلجل في الفؤاد خيالها
ياشوق ما بك يوم بان حدوجها

ومنها يقول في صفة حماري وحش :

يتماوران من الغبار ملاءة
تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً
بيضاء محكمة هما نسجها
وإذا السنابك أسهلت نشرها

وقال :

وفي الخدور مهاباً حور مصورة
إذا كررن حديثاً قلن أحسنه
خلقن أحسن مما قال من يصف
وهن من غير سوء يتق صدف

وقال يصف غيباً :

مزنٌ ترفع في ريح شامية
تربص الليل حتى قل سائمه
القى على ذات أجفار كلاكه
نارٌ تعاود منها العود جدته
فما به بطن واد غب نضحته
وان تراغب إلا مسفه تمق

وقال في طول الليل :

وكان ليلى حين تغرب شمسه
أرعى النجوم إذا تغور كوكبٌ

بسواد آخر مثله موصولٌ
أبصرت آخر كالسراج يجول

وقال يمدح عمر بن هبيرة :

إذا شئت ان تلقى في البأس والندى
فكن عمراً تأتي ولا تعدونه
فتى عزلت عنه الفواحش كلها
كان زرور القبطرية علقت
عملس أسفار إذا استقبلت له
يكافح لوحات الهواجر بالضحي
إذا ما رمى أصحابه بجبينه

وذا الحسب الزاكي التليد المقدم
الى غيره واستخبر الناس وافهم
فلم تختلط منه بلحم ولا دم
علائقها منه بجذع مقوم
سموم كحجر النار لم يتلم
مكافئة لهنخرين ولقلم
سرى الليلة الظلماء لم يتهم

وقال يفتخر :

نسيتم مساعينا الصوايح فيكم
فان تعدونا الجاهلية اننا
بلا ذاك منا ابن المعدل مرة
يقود الينا ابني نزار من الملا
فلما ظننا انه نازل بنا
ونحن فككنا عن عدي بن حاتم

وما تذكرون الفضل إلا توها
لنحدث في الأقوام بؤساً وأنما
وعمر وبن هند عام اصدموسما
واهل العراق سامياً متعظلاً
ضربنا وولينا جمعاً عرمرما
اخي طيب الا جبال قدأ محرما

وقال يمدح عمر بن عبد العزيز :

جمعت اللواتي يحمد الله عبده
فأولهن البر والبر غالبٌ
وثانيةٌ كانت من الله نعمةً
وثالثةٌ أن ليس فيك هواةٌ
ورابعةٌ أن لا تزال مع التقي
 وخامسةٌ في الحكم أنك تنصف الضـ
وسادسةٌ أن الذي هو ربنا اصـ
وسابعةٌ أن المسكارم كلها
وثامنةٌ في منصب الناس أنه
وتاسعةٌ أن البرية كلها
وعاشرةٌ أن الخلوم توابع

عليهن فليهنئ لك الخير واسلم
وما بك من غيب السرائر يعلم
على المسلمين إذ ولي خير منعم
لمن رام ظملاً أو سعى سمي مجرم
تخب بيمينون من الامر مبرم
ميف وما من علم الله كالعمي
طفلك فمن يتبعك لا يتقدم
سبقت اليها كل ساعٍ وملجم
سما بك منهم معظم فوق معظم
يعدون سيئاً من أمام متمم
لحلك في فصل من القول محكم

وقال في الخمر :

فكأنني من ذكركم خالطني
عتقت في الدنان من بيت راس
فهي صهباء تترك المرء أعشى

من فلسطين جالسٌ خمرٍ عقارٌ
سنوات وما سبها التجار
في بياض العينين منها احمرار

وقال :

عرفت بمفرى أو برجلتها ربعا
فما رمتها حتى غدا اليوم نصفه
أسرهم ما لو تغلغل بعضها
أميد كآني شارب لعبت به
مقدية صهباء تشخف شرها
عصارة كرم من حديجاء لم تكن
فذر ذا ولكن هل ترى ضوء بارق

رماداً وأحجاراً بقين بها سفعا
وحتى سرت عيناى كلتاها دما
الى حجر صلد تركن به صدعا
عقار ثوت في دنها حججاً سبعا
اذا ما أرادوا ان يراحوها صرعى
منابتها مستحدثات ولا قرعا
وميضاً ترى منه على بعده لما

تصعد في ذات الارانب موهناً
فما تركت أركانه من سواده
وقال :

لولا الحياء وان رأسي قد عسا
يصطاد يقظان الرجال حديثها
وكانها بين النساء أعارها
وسنان أقصده النعاس فرنّمت

هذه طائفة مختارة مما جمعه من شعر عدي بن الرقاع العاملي إذا أضيفت
الى ما ورد منه على سبيل الاستشهاد ، صورت للقاريء شاعراً خلاً من شعراء
بني امية الذين يمثلون الشعر العربي الخالص .

دمشق : سنة ١٩٣٦ .

سياسة تمخضت بلغة

للأستاذ عبدالقادر المغربي

وهو ما وقع أيها السادة : فإن مشروعاً جغرافياً في أوله ، دولياً سياسياً في آخره تمخض عن بحث لغوي ، جمالته موضوع حديثي اليكم .

عدت إلى طرابلس الشام سنة ١٩٠٩ م . بعد إقامتي في مصر بضع سنوات محرراً في جريدتي الظاهر والمؤيد ، وفي السنة التالية أي في سنة ١٩١٠ م أخبرت وأنا في طرابلس بأن سياحاً من الانجليز يسألون عني ، ولما اجتمعت بهم ، إذا هما انجليزيان ، ونالتهما عرابي عراقى ، وقد ذكروا أن غرضهم من مجيئهم سورية البحث عن المخطوطات القديمة . وبلغهم أن لديّ منها ، فهم يريدونني لذلك .

والثلاثة في حدود الأربعين من أعمارهم ، وأحد الانجليزيين من سكان لندن المقيمين فيها : وهو ربة ، ممتلىء الجسم ، حنطى اللون ، وقور ، تلوح عليه مخايل الاصاله ، وفيه حياء يتراعى من تحته قلق فكر ، واضطراب بال ، يعرف كلمات قليلة من العربية ، واسمه (السيد بكستون) ، وأخبرت أنه من أشرف الانجليز . ومن كبار أغنيائهم .

أما رفيقه الانجليزى الآخر فسمى لي نفسه (الحاج عبد الله الزنجبارى) والملاح الانجليزية ظاهرة في لونه وسحنتيه وزرقة عينيه - أكثر من ظهورها في رفيقه « باكستون » ، وقال إنه من أصل انجليزى ولكنه مولود في زنجبار ، ولذا يتكلم العربية . وهو ضابط في الجيش الانجليزى وكان قبل بضع سنوات قام بسياحة من زنجبار إلى أواسط أفريقيا ، وله اكتشافات جغرافية : منها العثور على طريق جديد من زنجبار إلى بحيرة

فكتوريا نيازا . وقد ألف في اكتشافه هذا كتابا طبع ونشر وانتفع به
المعنيون بقارة افريقية من رجال السياسة . وانه هو ورفيقه « باكستون »
مسلمان . لكنه لما ذكر اسلامية (باكستون) جميع فليلا : لا أن
جهل باكستون للغة العربية يجعله عاجزاً عن فهم شرائع الاسلام . ومن
أجل هذا اصطحب معلما يعلمه العربية . وأشار إلى ثالثهم العربي العراقي .
وقد لحتُ من خلال كلام الحاج عبد الله أن « بكستون » هو
رئيس الثلاثة . والمتكفل بنفقات السفر . وأن الحاج عبد الله كولو لبهم
أو موتيرم المحرك . أما ثالثهم العراقي فاسمه الاستاذ او الحاج (عبد المجيد)
وهو من مواليد بغداد ومقيم في لندن يعلم العربية وآدابها في احدى
معاهدها ، وقد كتب على بطاقته مع اسمه هذه الكلمات (رقم ٢٣ شارع
فيرهولم حي ويست كنزكتن) .

ولما علموا أي رجعت حديثا من مصر ، وكنت محررا في المؤيد
ازدادوا اهتماماً بي . ورغبةً في إطالة مجالستي ومحادثتي .

هذا ما كان بيننا من الحديث في المرحلة الأولى من التعارف . أما
المرحلة الثانية فكانت أكثر تفتقاً بالكلام . واشد صراحةً بالأسرار
فقد قالوا : إن غرض الانجليز من رحلتهم إنما هو تعلم اللغة العربية .
لفرط حاجتهم إليها في الشرق . وأنهم لذلك يقصدوني . ثم طلبا مني أن
أهيء لهم دراسة في اللغة العربية تقرب اليهم الشققة اليها . فسألتهم وماذا
تريدون أن يكون موضوع الدراسة ؟ فقال الحاج عبد الله : فيما له علاقة
بالطعام والشراب ، لأن ألفاظها أكثر دوراناً على الألسنة ، واستعمالاً
بين الناس .

وجاء الوقت المعين للدرس اللغوي فألقيته عليهم . وكان موضوعه طائفة
من فصيح كلمات اللغة تتعلق بالطعام والشراب وخاصة الكلمات الدائنة على
وجبات الطعام اليومية عند العرب ، ومقارنتها بوجبات الطعام
عند الأفرنج .

وأعترف لكم أيها السادة بأنني لم أكن موقفاً في هذا الدرس ولا مقارناً ، وذلك لأنني عرضت عليهم من ألفاظ اللغة غير المألوفة فوق طاقتهم ، وما لا حاجة لهم به في هذا الطور من تعلمهم . نعم إن (الحاج عبد الله) قد يستفيد بعض الشيء أما السيد (بكستون) فلا يمكن أن يستفيد من درسي ولا قلامه ظفر . وقد ظلمته يعلم الله كما ظلم ذلك الشيخ الأزهري مستشرقاً من الأوربيين من أصدقاء الشيخ محمد عبده : فقد سأله هذا المستشرق بعد أن أسلم - الشيخ عبده أن يدلّه على شيخ يعلمه كيف يصلي الصلاة الإسلامية ، فسأله إلى شيخ (أظن أن اسمه الشيخ عبد المعطي) وقضيا أياماً ، سأله بعدها الشيخ عبده صديقه المستشرق عما إذا كان يبدأ يصلي ؟ قال لا يا سيدي ، قال : وله ؟ ، قال لأنني الآن في صدد تعلم الأقسام السبعة الماء الطاهر ، وبعد ذلك أتعلم الوضوء ثم الصلاة . فطار صوابُ الشيخ عبده غيظاً ، وكان حريصاً على تثبيت إسلامية هذا المؤمن الجديد . ونادي الشيخ (عبد المعطي) فوبّخه على هذا المطل ، الناشئ عن جهل ، فقال عبد المعطي وكيف أصنع ؟ أتكون صلاةً من دون معرفة أقسام المياه ؟ فيعرف المرء ما يجوز منها وما لا يجوز ، فقال له الإمام : وبحك !! ومن قال لك إن هذا يحتاج إلى طول مُدة ، ودروسٍ عدّة ؟ : - قل له (توضاً من الماء الذي تستطيبه لشربك)

وهكذا أيها الاخوان ، كان أمرني مع الانجليزي النبيل « بكستون » فبدل أن أعطيه عن الطعام والشراب تعابير بسيطة تفيده في لغة التخاطب حشوتُ أذنه بمسائل تصلح للاذكاء من أبناء اللغة العربية ، وهذه المسائل هي التي جعلتها موضوع محاضراتي وشجّعني بجمعنا العلمي على أن ألقيا عليكم ، ومن مواضع العجب أنني ما كنت أجد من الانجليزيين ، وأنا ألقى الدرس الغوي عليها تبرماً بدرسي ، ولا مللاً من تشدّتي بكلمات

اللغة الحوثية احياناً بل كانا على العكس يظهران الارتياح ، وصرحا بأن البحث مفيد جداً ونافع جداً .

وقد رايت هذا يعلم الله منهم ، وأوقع في نفسي أن في الأمر سرّاً سوف يظهر ، نعم ظهر في المرحلة الرابعة التي كادت تورطني في أهوال : أهونها ركوب أسفار ، ومفارقة صغار ، وبعث عن الديار .

فقد صرح لي (الحاج عبد الله) أخيراً أنه هو ورفيقه « بكستون » مهتمان في تهيئة الوسائل إلى اكتشاف منطقة مجهولة في أقصى الجنوب من ليبيا . قلت فزّان . قال لا ، فقلت جعيبوب ؟ قال أبعد منها ، قلت واداي وبورنو ؟ قال في شمالها . قلت ما اسمها ؟ قال (تيبستي) والقبائل الضاربة فيها تسمى (التيبو) قلت لم أسمع بهذا الاسم قط . قال هي جبال محاطة بقفار وسكانها منعزلون عن العالم تقريبا ، وقد أعدنا حملة في لندن لأجل الوصول إليها ، وسوف أعلن اكتشافها ، كما أعلنت اكتشافني الطريق إلى بحيرة فكتوريا .

فأطرقت قليلاً كأنني تذكرت شيئاً ، ثم قلت : كنت كتبت في المؤيد وأنا في مصر مقالا أعلنت فيه أمر النزاع القائم في (واداي) بين أميرها صالح العباسي وبين بعض بني عمه بشأن ميل بعضهم إلى فرنسا التي تحاول نشر نفوذها في تلك الأضقاع وميل البعض الآخر إلى الدولة العثمانية صاحبة البلاد الشرعية . فذلك الصقع هناك كان يتنازعه النفوذ الفرنسي والتركي والسنوسي بل والمصري ومن وراءهم ايطاليا تتجرع الغصص ، وتترقب الفرص .

فقال لي الحاج عبد الله متفرباً في وجهي : ومن استوحيت هذه المعلومات التي كتبتها في مقالك عن تلك البلاد؟ فقلت أخذتها من صديقي (السيد عبد الله الكحل) التاجر الدمشقي في خان الخليلي بالقاهرة : فان له تجارة واسعة وعملاء في واداي ، وكان يرسل إليهم البضاعة ، ويدس فيها أعداداً من جريدة المؤيد التي أحرر فيها ، وقد أطلعني على

جوابتهم إليه . فكنت أقرأ فيها نتفاً من حوادث تلك البلاد وأودعها مقالاتي في المؤيد . فأطرق الحاج عبد الله قليلاً وكأنه اكتشف سراً . وقال أطلغني على مقالك عن واداي واسمح لي أن آخذ صورة عنه ، ثم قطع الحديث معي إلى ما بعد قراءة المقال . وبعد أن أخذ عنه نسخة عاد ثاني يوم اليّ وقال : إن ميلي للاكتشافات وولع ريفي « بكستون » بالسياحات جعلنا نهيئُ حملة ، أو بعثة علمية ستقوم من طرابلس الغرب في الصيف الآتي إلى بلاد (التيبو) المجهولة . والحملة مؤلفة من كذا وكذا بغلا وبقالا وخيمة ومؤونة وسلاخا ، وقد وجدوا أنفسهم في حاجة إلى رفيق من علماء الاسلام يستأنسون به في سلوك تلك البلاد الاسلامية البحتة ، وإهم وجدوا في تلك الشرائط التي يحسن أن تتوقّر في ذلك الرفيق . واتفق أن كنت يومئذ أعالج سياسة حزبية وكنت منحازا إلى حزب الاتحاد والترقي الذي كانت يسيده السلطة في ذلك الحين ولم يكن انحيازي هذا تهاونا بقوميتي العربية يعلم الله بل استمساكا باسلاميتي . لا جرم أن قيام حملة انجليزية من طرابلس الغرب الى جنجوب ثم واداي مقرّ أناس متعصبين لدينهم ودولة خلافتهم - حملة مثل هذه من مصلحتها أن يكون برقيتها شيخ مسلم متعمم عرف شيئا من أحوال تلك البلاد وعرفه أهلها مما كان يكتب في المؤيد ، وهو مغربي الأصل ومنسوب إلى أسرة مشهورة في تونس الى اليوم ، وفوق ذلك كله حزبيته التي تساعده على التفاهم مع (رجب باشا) والي طرابلس الغرب يومئذ ، وتدرأ عن الحملة تهمة خدمة الاستعمار أو التجسس والمعمل على الإخلال بمصالح الخلافة الاسلامية . كل ذلك كان يجول في نفس الحاج عبد الله الانجليزي . ثم قال لي : ولك الحق اذا رضيت ان ترافقنا في أن نتملّي علينا الشروط التي تراها في مصلحتك .

عندها رأيتي واقفا في مفترق الطرق حائرا مترددا بين السلب والايجاب ، بين الاقدام والاحجام ، وكان لي عم شيخ كبير فقيه شديد

المحافظة على التقاليد. فارتاح لهذا النبأ، وعارضني في الرحلة أشد معارضة، وكنت أقول له إن سفري فيه خدمة* لدولة الخلافة، وسيكون وسيلة لمعرفة اسرار تلك الأصقاع الاسلامية النائبة ومقدار منعتها ومناعة سكانها فأقدم بها تقريراً إلى الدولة، أو أكتب سياحتي في كتاب أنشره، فيستفيد منه المسلمون السياسيون وغيرهم.

ثم عرضت عليهم شروطي فقالوا إن ميزانية الحملة تضيق عنها، وأنهم أصبحوا بعد أن ذكرت ما ذكرت عن التاجر الدمشقي المقيم في مصر أعني السيد عبد الله الكحال - مضطربين أن يسافروا إلى مصر فلندن فليبيا، ومن هناك يكتبون إليّ رأيهم في تسوية الشروط بيني وبينهم وسيدالون كل عقة في هذا السبيل ثم إنني بعد ذلك أوافيهم في طرابلس الغرب. وطلبوا مني كتاباً إلى صديقي التاجر الدمشقي في خان الخليلي. فأعطيتهم الكتاب وبعد سفرهم بأيام جاءني كتابان من السيد الكحال: الأول في (١ : نيسان) والثاني في (٢٤ أيار) من سنة ١٩١٠ قال فيها ما خلاصته: إنه اجتمع بأصدقائي أعضاء البعثة ونصح لهم بالعدول عن مشروعهم لوعورة الطريق وتعصب السكان ضد الدسائس الأجنبية، وخصوصاً بعدما احتلت فرنسا (واداي) فانها سدّت الطريق بمرّة واحدة. ومما قاله الكحال في كتابه: واليوم كانت جلسة الورداني قاتل بطرس باشا غالي ولا بد انكم تظلمون عليها من الجرائد وقال في كتابه الثاني « وأفهمنا الحاج عبد الله الزنجياري بخصوصه أن لا يسافر: لأن شبهه شبه الانجليز تماماً بخلاف الحاج عبد المجيد رفيقهم العراقي، فظاهره شرقي مسلم، قال الكحال: لكن وجدنا رغبتهم في السفر مع بعضهم فأوعدناهم عندما يفتح الطريق نعرفكم في طرابلس الشام فتعرفوهم في لندن، ثم قال وقد مكثوا في مصر ثلاثة أيام. ثم سافروا إلى لوندرة.»

هذه خلاصة ما جاء في كتب السيد عبد الله الدمشقي. أما الحاج عبد الله الانكليزي أو الزنجياري فأرسل إليّ كتاباً أيضاً من مصر.

وخلاصة ما قاله فيه : (إنهم اجتمعوا بالكحل فأكرمهم ونصح لهم بأن السفر في مثل هذه الأوقات مستحيل ، قال ولكن داعيكم ما زلت عازماً على هذا السفر مها كلف الأمر ، وإن شاء الله أطلع من طرابلس الغرب في آخر هذا الصيف وصمأ كتب اليكم من لندن . والخواجه بكستون يسلم عليكم)

ثم طرأ امها الاخوان ما لم يكن في الحسبان : ذلك ما كان من غارة إيطاليا على طرابلس الغرب قبل أن يأتي آخر صيف سنة ١٩١٠ م . وانقطعت عني أخبار أبطال قصتي هذه إلى اليوم .

ثم إنني ما كنت أدري أكانت الحملة على نفقة رفيقهم (بكستون) كما أوهموني أو على نفقة الحكومة الانجليزية نفسها ، أما إسلام بكستون والحاج عبد الله فهو من نوع الاسلام السياسي المصطنع الذي أصبح أمره معروفاً ، والغرض منه مكشوفاً ، وأذكر أن مسألة (الحجاب والسفور) كانت على أشدها يوم مجيء هذه البعثة الى سورية وجاء ذكرها أمام (الحاج عبد الله الانجليزي) فقال . إنه يرى وجوب الحجاب على المرأة فلا تخرج من بيتها ولا تختلط بالرجال وكل ما عليها أن تلد وتخدم زوجها وتربي أولادها . وربما كان قوله هذا بمثابة حجة شرعية على صحة اسلامه . هذه هي أمها السادة الواقعة السياسية التي تمخضت بمسائل لغوية اقترحها علي أولئك الانجليز . وقد قلت لكم آنفاً إنني لم أكن موقفاً فيها وأرجو أن أكون موقفاً ولو بعض التوفيق في إقائها عليكم وضم نعمتها الى نعمة أناشيد حركة (التحرير) التي تسمعون اهازيجها حواليكم (١٢ نيسان سنة ١٩٤٦)

أشرت آنفاً إلى أن موضوع الدرس اللغوي الذي ألقيته على أصحابنا الانكليز هو وجبات الطعام عند العرب ومقارنتها بوجبات الطعام عند الافرنج .

وقد رأيت أن أمهد إلى غرضي بذكر شيء له علاقة بالطعام والشراب فأقول : الذي يدعو إلى الشراب هو العطش . والعطش اسم عام لكل

ما اعتلج في النفس من شهوة إلى الشرب . فإذا صاحبَ هذه الشهوة ضجيج
وشكوى وقلة صبر سمي العطش اذ ذاك (أواما) وإذا صاحبَه دوران
حول موارد الماء ، وفقد أسباب الوصول إليه سمي (ثوابا) . وإذا
صاحبه صرير الصاخين وتصويتهما سمي (تصرير الصماخ) . ومن عوارضه
انسداد السمع . وإذا صاحب العطش جفاف ريق ، سمي (طلّي) .
ويقال منه (طليّ فيه) . وإذا صاحبه اضطراب وقلق سمي (تلعلعا)
يقال مرّة فلان يتلعلع من العطش .

أما الجوع فإن صاحبه تعب سمي (سغبا) وإن قام الجائع يسعى
هنا وهناك في طلب ما يأكل ، سمي جوعه (علّها) . وإن صاحب
جوعه غضب ، سمي الجوع اذ ذاك (ضرّما) . وإن صاحبه برد سمي
(خترّصا) . وإن صاحبه ضمور بطن سمي (خويّ وطوي) . وإذا
صاحبه جزع وشكوى ، سمي (قصفًا) . وفي هذه الحالة يسترخي
البطن ويفتر ، فيُوصف بالقصيف . ويقال (بطن قصيف) . والجوع
الذي يصاحبه لين وتكسر ، يسمي (جخرًا) . وإن صاحبه ضعف
صوت سمي (خفوتا) . وإن صاحبه انحناء ظهر وقرقرة بطن ، سمي
(أطيّطا) . وإن اضطّر الجائع إلى عصب بطنه ، سمي جوعه اذ
ذاك (العصب) .

فإذا بادر الطهاة والنُدُل إلى إغائته بالطعام بلإنا يسع ما فيه كفاية
رجل واحد ، سمي الإناء اذ ذاك (صحيّفة) . وإن وسع ما فيه كفاية
اثنين أو ثلاثة ، سمي (مئكلة) . وكفاية خمسة (صحفة) . وكفاية
عشرة (قصعة) . وكفاية ما فوق ذلك (جفنة) .

فإذا قدّم النُدُل إلى الجائع الشواء أو الشاة المصلية من دون تقديم
ما يؤكل معها عادةً من خبز ومقبلات صرخ في وجوه النُدُل : قائلاً
(وأين مادّتها) ، أو (وأين أشماتها) ؟ فإذا عجبوا بذلك له ، قيل :

أَكَلَ فلان الشاة المصلية بمآدمها أو بأشماطها . وأَكَلَ الشِواءَ بمآدمه أو بأشماطه .

وهذه المقبيلات والمشيات على اختلاف أنواعها تسمى (الأَبْزار) . وتجمع على (أَبْزير) ويظهر أن الأَبْزار في الأصل جمع للبذر وهو الحب الذي يبذر في الأرض للاستنبات ، ثم تصرفوا فيه ونقلوه إلى المشيات التي تكون بذور النبات مما يُستعمل فيها أحيانا . ويرادف الأَبْزار (الأَفْوايه) ، وأصلها الرياحين التي تبتس ، ثم تسحق وتدخر للتطيب بها . والمشية إذا كان أخضر سمي في الغالب (تَابِلا) كالترخون مثلا . وإذا كان يابساً سُمِّيَ (حِفا) ، ولعله إذا كان مسحوقاً سمي (دَقَّة) وإذا كان يلوّن الطعام سمي (صباغا) . وكانوا يتخذون من بذور البصل أو صغاره تَابِلا ولذا كان (القَزْح) من أسماء التوابل .

هذا هو الأصل في وضع تلك الكلمات ، لكننا نراهم أحيانا ينقلون الكلمة من معناها الأصلي أو يعمونها بعد أن كانت خاصة أو يخصصونها بعد أن كانت عامة ، شأنهم في معظم كلمات لغتهم .

وهناك كلمات يحسن اطراحها لهجنتها وكراهتها في السمع ، مثل (الجَحْر) وهو اسم لبعض أنواع الجوع كما مر ، ومثل (السكامخ) وجمعه كوامخ وهو اسم للمقبيلات . قيل لأعرابي وقد حضر مائدة لأهل الحضر : هذا هو السكامخ ، كل منه . قال : وأبيكم كَمَخَ فيه . ومن أسماء المقبيلات ما ابتدل لكثرة استعمال العامة له فينبغي أن يستعاض عنه بما مر من الفصيح وهذا كالخلل والطرشى .

وننتقل إلى هدف البحث أو موضوع الدرس وهو وجبات الطعام عند العرب والأفرنج فأقول : تختلف المرات التي يتناول فيها الطعام

باختلاف طباع الأمم واقليمية بلادها وثقافة الاشخاص وتurf معيشتهم .
والعادة الغالبة على طوائف البشر ، أن تكون مرات الطعام اليومية فيهم ثلاثاً :
صباحاً وظهراً ومساء .

ولكن من الاشخاص من يأكل مرة واحدة في اليوم كالسيد جمال
الدين الأفغاني ، فقد قالوا في ترجمته إنه كان يأكل الوجبة أي الأكلة
الواحدة في الاربع والعشرين ساعة .

ومن الأمم من يأكل خمس مرات أو أكثر كالشعب البريطاني :
بل قالوا إن بعض مترفيهم قد تبلغ وجبات طعامه اليومية نحو الثمان .
والوجبة اسم للأكل مرة واحدة في اليوم والليله . ويقال وجَّب
عياله : اذا جعل قوتهم كل يوم وجبة . ويقولون في كتب التراجم :
فلان من أصحاب الوجبات يعنون أنه يأكل في اليوم مرة واحدة

أقول : وإذا ضم الى الوجبة أكلة ثانية أو ثالثة في اليوم الواحد
هل يصح أن يطلق على هذه الأكلة المقرونة بأكلة اخرى اسم الوجبة
والوجبتين والثلاث وجبات ؟ لم أظفر بنص على ذلك : والظاهر عدم
الجواز بدليل اشتقاق فعل (وجَّب عياله) من مادة الوجبة ليدلوا به
على وقوع الأكل مرة واحدة ، ولو كانت الوجبة بمعنى المرة الواحدة
من الأكل لا الأكل مرة واحدة لكان معنى (وجَّب عياله) حدُّد
لهم مرات الأكل : مرة أو مرتين أو ثلاثاً مع أن معنى (وجَّب)
ليس كذلك . ومهما يكن فقد جوزته واستعملته في بحثي هذا تسامحاً أو
استنتاجاً من حديث خالد بن معدان (من أجاب وجبة الختان فقد غفر
له) ولا جرم أن من يجيب وجبة الختان لا يجب عليه أن يكتبها بها
وحدها سبحانه نهاره ، فهو يأكل في بيته مرة ثانية ويبقى اسم الوجبة
على وجبة الختان بالطبع . وأيضا في حديث الحسن في كفارة اليمين
(يُطعم عشرة مساكين وجبة واحدة) فالتنصيص بذكر (الواحدة)
يجوز لنا ان نقول (لا وجبتين) فنكون بذلك قد سميّا الأكلتين في

النهار وجبتين ، واذا لم يسلم لي هذا الاستنتاج فلا مقدوحة لي عن الاعتذار بالتسامح في هذا الاستعمال وهو تسامح له نظائر في كلام البلغاء ، ولا سيما اذا كانت هناك قرينة تدل عليه وهي قولي هنا (الوجبات اليومية) فان كلمة اليومية تشعر بأن مرادي بالوجبات المرات وقد يقال أن التعبير بمواقيت الطعام يعني عن الوجبات . نعم ولكن ليس المواقيت مفرد مستعمل في معنى المرة الواحدة من الطعام .

والوجبة في معناها أخوات وهن : (الوزمة) و (الوزبة) و (الوقعة) . وقد اشتهر استعمال الوقعة في معنى مرات الأكل اليومية أكثر من استعمال (الوجبة) اذ يقولون فلان يأكل أربع وقعات أو خمس وقعات أو وقعة واحدة . على أن الوقعة في كلام البلغاء أكثر ما تستعمل في معنى أن يحدث المرء مرة واحدة في اليوم والليلة : ففي (الحديث) (كنت آكل الوجبة وأنجو الوقعة) . وسئل أعرابي : كيف كان سيرك في سفرك ؟ فقال : (كنت آكل الوجبة وأنجو الوقعة وأسير الخبب الى آخر ما قال) .

ويظهر من تتبع كلمات اللغة أن لكل مرة من أكالات الطعام يأكلها الانسان في اليوم اسماً خاصاً بها عند العرب ، وهذه الاسماء قد تبلغ الخمسة أو الستة فتكون وجبات طعامهم خمساً أو ستاً .

* * *

الوجبة العربية الاولى

العُلقة (بضم العين) وقد قالوا في تفسيرها انها الطعام الذي فيه بلغة أي كفاية الى وقت الغداء . فقولهم : الى وقت الغداء يشعر بأن طعام العُلقة يؤكل قبل ارتفاع النهار وهو الوقت الذي يقع فيه الغداء كما يأتي ، فطعام العُلقة اذاً هو اسم الوجبة الاولى لمن يعتادها : إذ هي ليست عامة كالوجبات التي بعدها . وللعُلقة معنى آخر في اللغة ، وهو ما تقع به الكفاية في تخفيف ألم الجوع الطارئ في أي وقت كان لا وقت الصباح وحده . وهذا المعنى لا علاقة له بالوجبات

الموقوتة التي نحن في صدد بيانها . ومثل العُلقة في هذا المعنى (البُلغَة) و (العُقَّة) و (الرِمَاق) وهو قدر ما يمسك الرمق من الطعام . ويقابل العُلقة والرماق عند الأفرنج ما يسمونه كاس كروت (Casse Croûte) أي قشر الرغيف . وأصبحوا يريدون به ما يكسر ألم الجوع من الطعام القليل ولو قشرة رغيف أو الأكلة الصغيرة المختصرة (Petit repas Sommaire) .

والعُلقة بمعنى طعام أول النهار له في اللهجات الدارجة تمايز تختلف باختلاف الأقطار العربية وأشهرها في بلادنا (فطور — صبحية — كسر صفرا — ترويقة) ويتداعى أهل دمشق إلى الاجتماع على الصبحية في بيوتهم كما يتداعون إلى الغداء والعشاء .

ويقابل الوجبة العربية الأولى أعني العُلقة الوجبة الأفرنجية الأولى ، وهذه المقابلات التي نعدها بين وجباتنا ووجباتهم ، إنما هي من حيث العدد والترتيب في الخارج ، لا من حيث المواقيت ، لأن المواقيت تختلف باختلاف الأشخاص أحياناً فضلاً عن الأمم .

فوجبة الأفرنج الأولى يسمونها Pétit déjeuner ويسميها الإنكليز (بريك فاست Breckfast) ومعناها فسح الصوم أو كسر الجوع ، وهذا كما تقول كسر الصفرة .

الوجبة العربية الثانية

الغداء . وهو طعام الغدوة عند العرب . وربما كان هذا الاسم مأخوذاً في الأصل من وقت إطعام الأبل ، ففي (المخصص) (رَعِيُّ الأبل في أول النهار غداء ، وقد تغدَّت ، وغدَّها راعيها) ونحن اليوم نتناول الطعام نصف النهار وبعده ونسميه غداء ، مع أن الغداء والغدوة عند العرب هما أول النهار لا نصفه . فوقت الغداء عند العرب الأقدمين ، الذي هو الوجبة الثانية تشغله نحن اليوم بطعام الوجبة الأولى أعني العُلقة التي نسميها فطوراً .

ويقابل الوجبة العربية الثانية الوجبة الافرنجية الثانية واسمها عندهم (Déjeuner) ويسميا الانكليز (لانش Lunch) هذا ما درجوا عليه اليوم ، والا فان ترجمة « Déjeuner » طعام الصباح ، أما طعام الغداء فاسمه في الاصل Diner .

وزى المترجمين مضطربين في ترجمة اللفظين : Déjeuner و Diner واضطرابهم ظاهر في معاجمهم نفسها : فهم تارة يترجمونها بالغداء . وطوراً بالعشاء ، وذلك لأسباب أو اعتبارات يعلمها أهلها : ففي القاموس العصري مثلا تجده يقول في ترجمة Diner (عشاء : أكل المساء - غداء : أكل الظهر) . ولذا اكتفينا في تسمية الوجبات بما اشتهر على الالسنة وتداوله الناس من أعاجم ومستعجمين فانهم يسمون طعام الظهر أو بعده Déjeuner ولانش (Lunch) ، وبقيت كلمة (Diner) تطلق على طعام المساء لمن يتناول فيه طعاماً : لأن وجبة الغداء عند الاعاجم والمستعجمين أصبحت المعول عليها في قيام الجسم مدة الـ ٢٤ ساعة .

الوجبة العربية الثالثة

الضحاء وقالوا في تفسيره هو طعام الضحوة الكبرى ، واسم الضحاء هذا مأخوذ أيضاً من اطعام الابل ، ففي المخصص (رعني الابل في متوع النهار ضحاء) ومتوع النهار بلوغه غاية ارتفاعه . قال : وقد تضحّت الابل وضحائها راعيها .

وهذه الوجبة هي التي نسميا اليوم (غداء) . وكان الاشبّه باصطلاح العرب أن نسميا (ضحاء) . وزى العرب قاربوا بين وجباتهم الثلاث التي تقع في النصف الأول من النهار ، على فرض أنهم يأكلونها كلها ، فلا يأتي نصف النهار حتى يكونوا فرغوا منها .

على أن هناك كلمة الدلالة على طعام نصف النهار ، حكاه الليث وهي (الكرزمة) وقال (هي الأكل في نصف النهار) . فاذا أردنا أن نسمي

طعام نصف النهار بكلمة غير كلمة (الغداء) فليس أمامنا سوى (الضحَاء) و (الكرزمة) غير أن المدول عن كلمة (الغداء) إلى كلمة (الكرزمة) ليس بالأمر السهل .

ويقابل وجبة (الضحَاء) العربية الثالثة وجبة الافرنج الثالثة ويسمونها (goûter) وهي وجبة اختيارية تكون عند طبقة من الناس دون طبقة وقلدانهم معشر العرب فيها ، وسميها في لهجتنا الشامية (عسرونية) تسمية غير قياسية نسبة إلى وقتها الذي تقع فيه وهو عصر النهار . واشتهر اسم العسرونية على الاكثر بين تلاميذ المدارس الداخلية ، فان ادارة المدرسة تقدم اليهم بين وجبتي الغداء والعشاء كعكاً ونحوه . ولا أعلم إن كانت وجبة (العسرونية) مازالت إلى اليوم حية في المدارس الداخلية أو لا .

هذه عسرونية التلاميذ في المدارس والصغار في المنازل ، أما عسرونية الاغنياء في المقاصف فتكون على نمط أنظم ، ويتداعون اليها باسم أنخم ، ذلك قولهم (حفلة شاي) و (حفلة كوكتيل) . وقد قلدنا الافرنج في هذه الوجبة ، وقيمها في الاغلب احتفالاً بضيف كريم أو تكريماً لصديق عزيز . ويُبسط على موائدها مع الشاي أكواب اللبن وأقراص الحلوى وغيرها مما يسمونه (كاتو) وهو على أشكال شتى .

ويؤخرون وقتها عن العصر إلى الغروب أو الساعة الخامسة مساءً محاكاةً للانكليز ، الذين هم أصحاب هذه الوجبة ، وأبناء بجدتها ، واسمها في لغتهم (فايف أو كلك تي - Five o'clock tea) . ويختصرون أحياناً فيقولون Five o'clock أي شاي الساعة الخامسة .

ولا أذكر أن للعرب في جاهليتهم وجبة تقع في العصر : بين وجبتي الظهر والمساء .

الوجبة العربية الرابعة

العشاء (بفتح العين) وهو الطعام الذي يقع في العشاء (بكسر العين) أي في المساء وهو أول الليل أو بُعَيْدُ أوله .
قال في المخصص (ورعنيُّ الابل في العشيِّ وأول الليل عشاء .
وقد تمسَّت الابل وعشَّها راعيها) . وقال ابن السكيت : (عشوتُ الابل عشيتها وكذلك الرجل) . فابن السكيت نص على أن التسمية بالعشاء تكون للبشر كما تكون للابل . أما صاحب المخصص فلم يذكر البشر ، فرمما اتخذ قوله دليلاً على أن الأصل في العشاء أن يُستعمل في الابل ثم نقل إلى الناس توسعاً أو تسامحاً . وفي هذا رمز إلى ما في نفوس العرب للابل من التعظيم والتكريم والتأسي بها حتى في تكاليف حياتها .

ووجبة العشاء قل استعمالها أو الاحتفال بها اليوم بيننا معشر سكان الأماص العربية الكبرى بعد أن كانت أكبر وجبات الطعام وأشدّها عناية عند أجدادنا ، فنحن اليوم ولا سيما المترفين منا نحفل لوجبة الغداء التي تقع بعد الظهر ، ونُصيب من أطايبها . ويختلف ألوانها ، لنستغني بها عن طعام العشاء ، وإذا أصبنا منه كان لإلانة خفيفة على حد قول الافرنج (Casse - Croûte) لكنّ ظروفناً استثنائية أو تقليدية قد تدعونا إلى الاحتفال للعشاء . وتعدد ألوانه كما يحتفل للغداء .

ويقابل وجبة العشاء العربية الرابعة وجبة الافرنج الرابعة التي يسمونها Dîner والتي كانت قديماً وجبة الظهر عندهم ، خلفتها الوجبة المسماة Déjeuner وقامت مقامها وأرجمت هي إلى المساء وأصبحت اختيارية ، وهذا كما وقع في الوجبتين العربيتين : الغداء والعشاء . فان الغداء قام مقام العشاء وسلبه ميقاته . والاحتفال له .

الوجبة العربية الخامسة

« الفُحَيَّيَاء » : قال ابن سيده في المخصص (جزء ١٦ ص ٧٠)
 (الفحيماء طعام الليل) واسمه هذا مأخوذ من قول العرب فَحَمَةُ الليل
 يريدون ظلمته ، والراجح أن هذه الوجبة العربية اختيارية كانوا يفعلونها
 حين الحاجة إليها لقلّة ما نسمع ذكرها في أخبار العرب وكتب الأدب .
 ويقابل هذه الوجبة العربية الخامسة وجبة الافرنج الخامسة ويسمونها
 سوپه (Soupé - Souper) .

ووجبة الـ (Souper) مثل وجبة الـ (Dîner) في أن إحداها كانت
 تُطلق على طعام نصف النهار والآخرى على طعام المساء ، غير أن
 احتفالهم للغداء ولو وجبة الشاي (فايف اوكلوك) أحياناً — جعل هذه
 الوجبة الخامسة (أعني الـ Soupé) اختيارية لمن اضطره إليها الجوع
 أو السهر في مشاغل العمل ، أو شهود الحفلات والمراقص ودور التمثيل
 والسبنا وسائر ضروب اللهو — فإن هؤلاء يرجعون إلى بيوتهم فيصيبون
 من الطعام ما يسمونه Soupé وتسميه العرب (فُحَيَّيَاء) .

على أن هذه (الفحيماء) تحولت في المدن الكبرى إلى ما يصح أن
 نسميه (نويراء) اشتقاقاً من النور : ذلك أن الطعام في آخر الليل
 قد لا يتيسر في المنازل . فأعدت المدينة الحديثة لمدمني السهر خارجها
 مقاصف خاصة وهي المسماة (بارات) و (بوفيهات) (Buffet) تكون
 مفتحة الأبواب على الشوارع الكبرى تحت مواقع الأَبصار . منارة بأسطع
 الأنوار . وعلى موائدها صفت الصحف والسكرجات وفيها الضروب
 المختلفة من خفيف الطعام وشهي الشراب ، فترى القوم حوالها ، متهافتين
 على ما عليها ، وقوفاً على أمشاط أرجلهم أو جلوساً على الكراسي الخاصة
 بتلك الموايد . وأمثال هذا الأكل العَجَل كما هو الحال في هذه المقاصف
 يُعَبَّر عنه الافرنج بقولهم (رستوران آلامينوت Restaurant à la minute

أي طعام بمقدار الدقيقة أو على مقدار ما تسع الدقيقة ، نظير ما نقول في لهجتنا الدارجة : على الماشي أو على الواقف ، وربما كان بمعناها قول المصريين « على الحركرك » .

ويسمي بعضهم هذه المقاصف الليلية (البارات الأمريكية) لأنها من جلبب الأمريكيين ومحصول مدينتهم ، وهي تمتاز بأشكال مناضدها وارتفاع مقاعدها ، وصنوف أطعمتها ونفيلها ، وازياء سققاتها وئد لها .

* *

و خلاصة ما مر :

(١) أن العُلقة العربية يقابلها Petit déjeuner الافرنجية

(٢) والغداء العربي يقابله Déjeuner الافرنجي

و Lunch الانكليزي

(٣) والضحاء العربي يقابله goûter الافرنسي

وأشهر منه Five o'clock الانكليزي

(٤) والعشاء العربي يقابله Dîner الفرنجي

(٥) والفُحجاء العربية يقابلها Soupé الفرنجي

وقد تبين مما مر أن الوجبات عندنا خمس كما هي عند الافرنج ، اللهم إلا إذا اعتبرنا (الكرزمة) العربية وجبة مستقلة استناداً الى قول الامام الغوي (الليث) الذي قال انها طعام نصف النهار ، فتكون وجبات الطعام عند العرب ستاً لا خمساً .

ونكرر ما قلناه سابقاً من أن المقارنة بين وجباتنا العربية والوجبات الافرنجية انما هي من حيث العدد والترتيب والوقوع في الخارج ، لا من حيث الزمن . فان ايقاع الوجبات في الازمان يختلف ولا يطرد حتى بالنسبة الى الشخص الواحد ، فان في الأشخاص من اذا جاع أكل ولا يتقيد بزمن .

وهذه الوجبات الخمس منها ما هو أصلي راتب أو نقول أساسي ،

ومنها ما هو فرعي يرجع فعله الى اختيار الشخص : ان جاع لَقَمْتَم .
والا اَزَم .

* * *

وهناك ما كل خفيفة ومعظمها من ضروب الحساء الذي يشرب شرباً ،
وهي ليست ذات وجبات موقوتة ، وانما هي مقدمات للوجبات الراقية
تتناول قبلها بسُوَيْعَمَة ، وهي مما سنه المترفون لانفسهم في حياتهم اليومية ،
أو في مادبهم الخاصة . حتى أن المترف من الانكليز يتناول وهو مستلق
في فراشه قبل القيام إلى طعام الصباح المسمى بريك فاست (Break fast)
- ما يلذله أو يفيد صحته من الأشرطة وضروب الحساء (١) ، وكذلك يفعل
قبل أن ينام .

أما ما يُقَدِّم عادة أمام الوجبات الكبرى : فيكاد يكون وجبة
سادسة لكثرة ما يهين على مائدتها من لذيذ الأشرطة ، وخفيف الأطعمة ،
وضروب المازة (المزة - أو - المماظة) لمن يتعاطى الشراب من الآكلين .
والذي يجعل هذه المائدة في عداد الوجبات أن فيها مطاعم تؤكل أكلا
وأن لها اسماً خاصاً وهو (هورديشر Hôr - d'oeuvre) أي خارج الطعام ،
بمعنى أنه مقدم قبل وقته .

وأجدادنا العرب كانوا يعرفون هذه (الوجيبَة) (بالتصغير) ولها
في لغتهم عدة أسماء (مُلْجَة - مُلْهَنَة - سُلْفَة) بضم أوائلها ، وفسروها
بالطعام يُتعمل به قبل الغداء . وقولهم يُتعمل به يشعر بأنه إنما قُدِّم
ليكسر سَخْفَة الجوع (رِقَّتَه) ربّما يتهيأ للغداء وينضج .

(١) الدقيق الذي يعالج بالسمن عند العرب ان كان مرةً يشرب هي حساء
وان كان جامداً فيه رخاوة سمي عصيدة . وان كان بين بين بحيث لا يشرب
شرباً هي سخينة .

أما أبناء هذا الزمن ، فيقصدون من تناول سُلقتهم (الموردية) (Horo d'oeuvre) إثارة شهوة الطعام بمسكراتها . وضروب مازاتها لمن يسكر ، وبمصير الطاطم (البندورة) أو الليمون لمن لا يسكر . ومهما يكن من أمر فلا ينبغي أن تعد السُلقة الـ (Horo d'oeuvre) طعاماً موقوتاً وإنما هي من طلائمه ومقدماته .

ثم إن قول علماء اللغة في تفسير (السلفة) إنها تكون قبل الغداء أرادوا بذلك الغداء مجرد التمثيل لا التخصيص في الغالب ولنا نحن اليوم أن نتوسع في استعمال السُلقة أي الموردية (Hors doeuve) فنطلقها على ما يقدم بين يدي كل الوجبات الراقية غداء أو عشاء .

* * *

ومن لطيف بحوث الطعام وجبة* سلبية يعتذر عنها البخلاء المشحاء ، ويتبرم بها حتى الأجواد الأشخياء ، وهي التي تَفَجَّأُ رَبُّ المَثْوَى في غير أوقات الوجبات المعتادة ، وكما أن شاعر العرب قال :

طرقنك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة ، فارجمي بسلام
كذلك مضيافهم وأحد ساداتهم قال لصديق له : (أكره أن تزورني في المثلّيساء) : فهو لا يقول له ارجع بسلام ، كما قال ذلك العاشق البغيض ، وإنما قال له أكره تلك الزيارة منك في المثلّيساء ، لئلا أعجز عن القيام بحق ضيافتك .

(والمثلّيساء) أيها السادة هو الوقت الواقع بين المغرب والعتمة أي بين وجبتي (العشاء) و(الفحشاء) ففي ذلك الوقت لا يكون الطعام مهيناً عادة : فالطارق من الضيفان يُجْجَل المضيف ويوقعه في الحيرة ، ولذا قال قائل الكرام (أكره أن تزورني في المثلّيساء) . ويشبه هذا قول العامة معتذرين أو مفاكحين (ضيف المساماة عشا) . وتطلق « المثلّيساء » أيضاً لفة على نصف النهار ، إذ لا وجبة للطعام فيه

لأن العربي يكون أكل وجبة الضحاء ، ولا يكون هياً طعاماً لوجبة العشاء ، فنصف النهار عند العرب ليس وقت وجبة ، وهذا ما أراده (ابن سيده) في مخصّصه حينما قال : (لأنه في ذلك الوقت — أي نصف النهار — يفوت الغداء ، ولم يُهَيَأ العشاء) .

ويكون ابن سيده في قوله هذا قد أنكر وجبة (الكرزومة) التي قال الليث عنها إنها طعام نصف النهار .

والمليساء في اللغة معنى ثالث ، وهو الشهر الذي تنقطع فيه الميرة ، أي تنفذ فيه الأقوات . وترتفع الغلال من البيادر والأسواق ، وهذا الوقت يعبر عنه أهل دمشق بقولهم « عصة المنجل » أي لا منجل يحصد ، ولا محصود يُمَوَّن . فقول الأعرابي : « أكره أن تزورني في المليساء » يصح أن يراد به أيضاً هذا الزمن الكرز ، الثقيل على الأجواد .

* * *

وما يحسن التنبيه إليه ، قبل إنهاء الكلام في موضوع الوجبات ، ما فسروا به كلمة (الثميلة) مما يشبه أن تكون اسماً لوجبة أول النهار ، مرادفة للعُلقة ، مع أن الأمر ليس كذلك . وهذه عبارتهم : « يقال : ما ثَمَلْتُ شَرَابِي بِشَيْءٍ مِنْ طَعَامٍ » معناه ، ما أكلت طعاماً قبل أن أشرب ، وذلك يسمى (الثميلة) . وربما كان مرادهم بالشراب هنا الخمر . فالثميلة إذن هي الطعام الذي يؤكل فيُشرب فوقه ، تقول لآخر : لِمِثْلٍ شَرَابِكَ ، أي كل قبله ولو قليلاً ، ويكون هذا بالطبع في أي وقت من أوقات الليل والنهار ، فلا ينبغي أن تُمدَّ (الثميلة) بين أسماء الوجبات الصباحية ،

وما ينبغي التنبيه إليه أيضاً أن استعمال الفطور بمعنى العُلقة التي هي طعام أول النهار غير صحيح لغة ، وبيانه أن الفِطْر والافطار معناهما في اللغة أن يأكل الصائم بعد إمساك عن الطعام ، والطعام الذي يُفطر عليه

يسمى (فطوراً) (بفتح الفاء) فالفطور إذن شيءٌ والعُدَّة التي يأكلها الانسان بعد أن يَهَبُّ من منامه شيءٌ آخر . وكان أصحاب هذا الاستعمال في زماننا يلاحظون أن الذي يصحو من نومه كان ممسكاً عن الطعام طول ليله ، فإذا أكل في ذلك الحين كان كأنه أفطر بعد صوم ، وأشبه أكله الفطور ، فسموا أكله فطوراً ، لكنهم يضمنون أوله خطأ ، ومع هذا فالأصح أن لا يقال لطعام الصباح فطوراً بل عُدَّة حسياً ذكرنا في أول هذا البحث الفضفاض الساحب الأذيل الذي أردت بالقائه عليكم أيها السادة تذكيركم أو أقول أردت إثارة عاطفة الاشفاق والحنان في نفوسكم ، على هذه الكلمات اللغوية الفصيحة المجفوفة التي يمكن إحيائها ، والتمهيد لاستعمالها في لغة الصحافة والكتابة ، قبل أن تطاردها الكلمات الاعجمية فنصل السنة السوء اليها ، وتقضي بالموت عليها .

*
*
*

ونحتم هذا البحث بما تضمنه من ألفاظ زارها صالحة للاستعمال
في موضوع الطعام

٢٦ التابل	١ الاثوام
٢٧ الفجاء	٢ اللواب
٢٨ الدقة	٣ تصرير الصياخ
٢٩ الصياخ	٤ الطلتي (طلي فمه)
٣٠ الكامخ	٥ التلمع (جاء يتلمع من العطش)
٣١ الوجبة	٦ السغب
٣٢ الوزمة	٧ العلة
٣٣ الوزبة	٨ الضرم
٣٤ الوقعة	٩ الخرص
٣٥ العلقة	١٠ الخوى
٣٦ البلغة	١١ الطوى
٣٧ الغفة	١٢ القصف (بطن قصف)
٣٨ الرماق	١٣ الجخر
٣٩ متوع النهار	١٤ الخفوت
٤٠ الضحاء	١٥ الاطيط
٤١ الكرزمة	١٦ العصب
٤٢ الفحياء	١٧ الطهاة
٤٣ فحمة الليل	١٨ النذل
٤٤ السمجة	١٩ المتكلة
٤٥ الشنة	٢٠ الجفنة
٤٦ السلفة	٢١ الشاة المصلية
٤٧ سخفة الجوع	٢٢ أكل الشواء بمآدمه
٤٨ المليساء	٢٣ أكل الشواء بأشماطه
٤٩ الشميلة	٢٤ الأبرار
٥٠ الفصفاض	٢٥ الأفاويه

أثر الرحلة

في الحياة العلمية والأدبية

للأستاذ محمد المقرصين

يكثر الراحلون من بلاد إلى أخرى ، والغاية من هذه المحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والأدب لتعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والآداب ، وتهذيب النفوس وإصلاح حال الاجتماع . ولعل قائلاً يقول : إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعية على ظاهر اليد ، والحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى فأقول : إني في شك من هذا ، فإن كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهياً لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرفهم عن الأشياء التي يرونها خالية من كل فائدة .

على أنني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لا تضعها أمام نسيئنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر إلى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتاعب وتذهب في جانب هذه الآثار هباءً .

الرحلة في نظر الإسلام

لم يدع الإسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يمد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو

والبلاغة ، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يكسب الأمة قوة ويكون له أثر في نجاحها ، والاحتفاظ بعزتها كفن صناعة الغواصات والطائرات . ومن هذه الأغراض ، أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، ويلحق بأحوال الأمم الماضية ، أحوال الأمم الحاضرة ، متى كان في النظر إليها عبرة ينتفع بها في الوصول الى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض ، الرحلة من دار الضلال والبعثي إلى دار الهداية والعدل ، قال تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » . هذه الآية وردت في قوم كانوا يقيمون في دار عسف وغواية فحرضهم على الرحلة إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في صفوفهم ويكثر عددهم ، واذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعلى العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة إلى الحق والإصلاح بقدر ما يجد في حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الاسلام ما لا يؤدي إلا بوسيلة الرحلة وهو حج البيت الحرام ، وفي الرحلة إلى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفه ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من أمم مختلفة الأجناس متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عناية علمائنا بالرحلة لأمثال هذه الأغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر ابن عبدالله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن أنيس بالشام يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار إلى الشام فسمع الحديث من عبدالله وقفل راجعاً إلى المدينة .

المثبطات عن الرحلة وعلاجها

لا أريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها ، كفراغ يده من نفقات السفر وكقيامه على أسرة اذا فارقتها وقعت في حاجة ونكد من العيش ، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها ، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل مثل استعظام مفارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء ، سئل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب ؟ فقال : لان فيه فراق الأحبة .

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها ، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط أو تلك الذين ينشأون في ترف وانحلال عزيمة فيخشون أن يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زمناً قليلاً ، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواله ، عزم الحافظ أبو الوليد هشام الوثنبي على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك فقال :

لا أركب البحر ولو أتني ضربت فيه بالعصا فانطلق
ما إن رأيت عيني أمواجه في فرق إلا تنهت الفرق

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلحق من مرافقتهم أو معاشرتهم ما لا يلبق بمنزلته ويرتاح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض للرجل من هذه الآلام النفسية الرحالة ابن جبیر إذ قال :

لا تغترب عن وطني واذا كرت تصاريف النوى

أما ترى الغصن إذا ما فارق الأصل ذوى

وأشار يحيى بن حكيم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب

من العزة . فقال :

فصمصام عمرٍ وحين فارق كفه رموه ولا ذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام إلا عرينه ومن مكة سادت لؤي بن غالب
وتألم الرحالة ابن سعيد الأندلسي حين نزل ببعض بلاد الشرق وناداه
بعضهم باسم المغربي فقال :

وأنادى مغربياً ليتني لم أكن للغرب يوماً أنسبُ
نسب يشرك فيه خامل ونبيه أين منه المهرب
أتراني ليس لي جـد له شهرة أو ليس يدري لي أب

وعلاج أمثال هذه المشبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها على
احتمال المسكاره أن يذكر الرجل ما تأتي به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية
عامة أو خاصة ، فاذا وثقت نفسه بنبل غايتها وحسن عاقبتها سهل عليها
كل صعب واستهانت بكل خطر ، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه
علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق :

وكل ما كابدته في النوى إياك أن يكسر من همتك
وعزم المأمون الخروج إلى بعض الحروب فوقفت له جارية ممن شغف
بهن ورغبت إليه ألا يخرج فقال لولا قول جرير :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهارٍ

لما خرجت .

وأذكر أن أبا بكر بن العربي الأندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية
أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في
العراق وقال : لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني ، على أن
ابن العربي قد لقي في رحلته نصيباً في البحر ومخاوف في البر^(١)
ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة لذيدة باقية ، وأن تلك الآلام

(١) انظر كتاب القواصم والمواصم له .

النفسية والمتاعب البدنية زائلة ، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الرحلة
من الاندلس إلى الشرق بعد أوبته :

كأن لم يكن بين* ولم تك فرقة* إذا كان من بعد الفراق تلاق
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي ولم تمر كف الشوق ماء آماقي
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبغ بالبيد من قهوة الندى وكأس سقاها في الأزهرساق
وجاء في كتب الأدب أشعار يرد ناظموها على من يحاول تشيبتهم
عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمان لو أقمّت بأرضنا فقلت إلى ذاك المقام أطوف
وقال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبور*
وربما كان المثبط عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يحظر له أنه
لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر
ابن هشام :

يا من يزين لي الترحال عن بلدي كم ذا تحاول نسلاً عند عيني
وأين يعدل عن عرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده أنه أجمع لمطالب الحياة قد يمنعه
من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن يمنعه من الرحلات المحدودة بزمان .
وترى من الأدباء من يمتليء قلبه حباً لوطنه ولكنه يتغلب على هذه
العاطفة ويذكر الداعي إلى الرحلة فتطمئن إليها نفسه كما قال ابن سعيد
لما خرج من حدود إفريقية :

رفيقي جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقاً محياها
وما إن تركناها لجهل بقدرها ولكن ننت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحت السير عنها لغيرها إلى أن يمن الله يوماً ببقياها

فوائد الرحلة

إذا درسنا تاريخ العلماء والادباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا النظر الى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على الأوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الأهمية بمكان يدعو الى أن تعد في مقدمة وسائل الرقي والتهديب .

ماذا يستفيد الرجل من الرحلة

من أنفس ما يكسب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ، كم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار اليه بالبنان الا بالرحلة ، والباحث في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ، وانما بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم ولاقوا بها كثيراً من أكبر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ ابن عساكر وأبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولاين خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : ان الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم، وختمه بقوله فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والسكال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال .

وللرحلة أثر في سمو الفكر اذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لا يأخذه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الأمور ، وانظر الى بديع الزمان الهمذاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم العرجي : « فاني وان كنت في مستقبل السن والعمر ، قد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر » .

والرحلة أثر في تهذيب الطباع وورقي الآداب ذلك أن كثرة ما يلاقه الرجل في السفر من المشاق يقوي في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال بعض الحكماء للغريب :

إن ترمك الغربية في معشرٍ تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم
ولا يخلو الراحل متى كان بصيراً بمواقع العبرة أن يلاقي رجلاً ذوي
آداب سامية فيقتبس من آدابهم ما يزداد به أدباً على أدبه ، وهذا ابن
وهب رحل من مصر وتلقن العلم بالمدينة عن الامام مالك ، وقال : « تعلمت
من أدب مالك أفضل من علمه » ، واقام يحيى بن يحيى بن بكير عند مالك
بعد أن فرغ من سماع الحديث عنه وقال : « إنما أفتت لأستفيد
من شمائله » .

وقد ينشأ الفتى في نبوغ ويضيق بلده عن أنظاره الواسعة فيرحل الى
مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء الخطيرة فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع
بحكيمته ، ولو لا الرحلة لما عظم شأنه ، ولما كثرت ثمرات نبوغه ، أذكر
أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك
فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده ، فقال له الشيخ بلدك صغير عن علمي
وتوجه الى القاهرة . وأسوق شاهداً على هذا أن القاضي يوسف بن أحمد
ابن كج بلغ في العلم مرتبة كبيرة ، قال له بعض من لقيه : يا أستاذ
الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك ، فقال القاضي : ذاك رفعته بغداد
وأنا حطتي الدينور .

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه
وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر الماروف بابن بقي :
ولي هممٌ ستقذف بي بلاداً نأت إما العراق أو الشاماً

لكيما تحمل الركبان شعري بوادي الطلح أو وادي الخزامي
وكيما تعلم الفصحاء أنني خطيب علم السجع الجماما
وقد أطلعتهم بكل أرضٍ بدوراً لا يفارقن التماما
وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يموقه عن الازدياد
من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث يلقى
كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة :
رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب
رحلته فقال :

سلام على بغداد في كل موطنٍ وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قبلي لها واني بشطي جانبها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكذلك قال أبو سعد النيرماني :

فقد سرت في شرق البلاد وغربها وطوفت خيلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهلها أرق شمائلاً وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقاً لبغداد لم ترحل فكان جوايا
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل
بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم ، والصداقة الخالصة من ألد ما يتمتع الانسان
به في هذه الحياة ، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت
بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة
الرحلة ، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد
كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك ، وجرت بينه وبينهم مراسلات ،
وأذكر من قصيدة بعث بها إليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

بميشك خبرني ولا زلت مفضلاً أعندك من شوق كمثل الذي عندي
ومثل الحافظ ابن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب وأذكر
من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله :
أنسيت ثدي مودة يد — في وبينك وارتضاعه

سازا يستفیر قوم الرجل من رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها ، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها ،
والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم ، ثم
يعودون وقد امتلأوا بما اغترفوه من العلوم والفنون ، وقد بلغت الحالة
العالمية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته الشرقية منزلة
أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود ، وارتحل أبو القاسم بن زيتون
التونسي في أواسط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في العقليات والنقليات
ورجع إلى تونس فأتمتها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً ويتحلى
بأدب سني وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة فيرويه مثلاً لأهل العلم
والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم ، هذا إلى ما يصفه لهم
من محاسن قومه أو ينقله إليهم من ثمرات أفكارهم .

سازا تستفیر البلد ممن يرحلون إليها

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل ببلد ، فيبذر بها متى كانت في حاجة
إلى أمثاله — علماً أو أدباً ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت
من العلماء الذين رحلوا إليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن حمويه
السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك
وابن السبكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة فقال :

والمالكي بن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تحدث أحياً مالكاً جديلاً وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البربر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابيين بعشهم عمر
ابن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم كانوا يلقون في
البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض
أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه
أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرحلة في تنمية العلوم

الرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب يعد
في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أن أسد بن الفرات
الراجل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز
والعراق ، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى
مذهب الامام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى
الأسدية ، ثم رحل سحنون من القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ،
وعرضها عليه ، وهذبها ، وأضاف إليها مسائل أخرى وصارت تسمى
المدونة ، وهي المشار إليها بقول بعض أهل العلم :

أصبحت فيمن له علم بلا أدب ومن له أدب عار عن الدين
أصبحت فيهم فقيده الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سحنون
وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة غيره من الشعر قوله :
وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن جبير ورحلة خالد بن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرحلة في ثراء الأدب

للرحلة أثر في ثراء الأدب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لالقاءها بين يدي ملك أو وزير أو وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منجاتها درسا
فان صاحبها أبا عبدالله بن الأبرار الراحل من الأندلس قد نظمها
استنجاجاً لأمير تونس وألقاها بين يديه .

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد في التشوق إلى الوطن أو الأهل والاقوان ، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق إلى دمشق وهو ببلاد الروم :

بماد يزيد الجوى والحنيينا وبين يعلم قلبي الأئينا
فراق أذاب الحشا أدمعاً فأجرى بصافي الدماء العيونا

إلى أن قال :

وجاد الحيا أربعاً بالشأم وسلم صحباً بها قاطنينا
رحلنا فما تابعتنا القلوب وسرنا فظلت لديمكم رهونا

واذكر بهذه المناسبة أن أستاذنا المرحوم الشيخ سالم أبا حاجب كان قد سافر إلى إيطاليا وبعث برسمه إلى بعض أصدقائه في تونس وكتب عليه البيتين :

لما شكت شط النوى روي التي أبقيتها عند الأجابة بالوطن
أرسلت تمثالي لها بوا (١) عسى تسلو فلا تبني التحاقاً بالبدن

أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لا يزن الرجل الفاضل بوطن إلا التقي بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا عاد إلى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى . وقد نبهنا على أن الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء وهذه الصداقات تمد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والأدباء ، يشير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، فعلى المستطيعين منا أن يخصصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة إلى البلاد الأجنبية .

أدب الرحلة

الأدب السنية كمال الانسانية ، فيجب على الانسان الاحتفاظ بها في وطنه ، كما يحتفظ بها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون إلى الغريب أو من رام الغربية عناية خاصة ، فيؤكد عليه في الاحتفاظ بالأدب الشريف ، فقال بعضهم : يا غريباً كن أدبياً ، ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الأندلسي لابنه علي عند عزمه على الرحلة إلى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

أودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل جبل النوى إنني والله أشواق إلى طلمتك

(١) أبو : جلد الحوار يحشى تماماً أو تبناً فيقرب من أم الفصيل فتعطف عليه ، فتدره .

وقال :

فليس يدري أصل ذي غربة
ونبهه لآداب سامية فقال :

وامش الهويننا مظهرأ عفة
وكل ما يفضي لعذر فلا
ولا تجادل حاسداً أبداً

وإنما تعرف من شيمتك
وابغ رضا الاعين عن هيئتك
تجعله في الغربة من إربتك
فانه أدعى إلى هيئتك

وقال :

وانطق بـحيث المي مستقبح
واصمت بـحيث الخير في سكتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها ،
ويعتبط بما يلاقه بها أهلها من احتفاء ومؤانسة . ورد تاج الدين ابن
حمويه السرخسي بلاد المغرب ، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف
ابن عبد المؤمن قائلاً : أين هذه البلاد من بلادك الشامية ؟ فقال
السرخسي : « بلادكم حسنة أئيفة ، وفيها عيب واحد ، فقال السلطان :
ما هو ؟ قال : إنها تنسي الأوطان » .

ومن قاموا على هذا الأدب الجميل العلامة المقري صاحب كتاب نفع
الطيب ، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً ، وتمثل فيها بأشعار ،
وتما أنشده قول شمس الدين الأسدي :

إذا ذكرت بقاع الأرض يوماً فقل سقيماً لخلق ثم رعيًا
وقل في وصفها لا في سواها بها ما شئت من دين ودنيا
وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيها عندما نزلت دمشق ،
واني لست بشاعر ولكني درست علم العروض ، فأستطيع أن أقول كلاماً
موزوناً ، وإلى حضراتكم هذه الأبيات :

زارها بعد نوي طال مداها فشفأ قلباً مجداً في هواها
راح نشوان ولا راح سوى أن رأى الشام وحياء شذاها
نظرة في ساحها تذكره كيف كان العيش يحلو في رباها
ما شكا فيها اغتراباً وإذا حدثته النفس بالشكوى نهاها

* * *

من يحث العيس في البيد إلى
فهنأ قامت نوادي فتية
أدبٌ يزهو كزهر بهج
خلقٌ لو نصح الخود به
ملاؤا جلق أنساً فأرى
شدٌ ما لاقوا خطوباً فانتصوا

بردى محمد للعيس سراها
تبلغ النفس بلبياهم منهاها
أرشفته السحب من خمر نداها
ناصحٌ لا تخذت منه حلاها
ليلها طلق الحيا كضحأها
مرهفات العزم طعنأ في لهاها

* * *

عزة الأمة في نشء إذا
وجناحاً فوزها استمسأ كها
هي عينٌ والهدى إنسانها

نشبت في خطر كانوا فداها
بهدي الله وإرهاف قناها
فاذا ما فسقت لآقت عمأها

* * *

رتل الذكر ملياً تره
أطلق الأفكار من أصفأها
خض علوم الكون أحقاباً وسر
لا ترى في الدين إلا مغرباً

يفرس الحكمة أو يدني جناها
فمضت ترعى الثريا وسهاها
في سماها إن تشأ أو في ثراها
بجلاها أو مزجأ لقذاها

* * *

ذكرونا سلفاً قاموا على
أمةٌ يذكي التقى غيرتها
شرفٌ لو آنسته الشمس في

سيرة غراء والدهر طواها
مثما يذكي الندى نار قراها
أفقه الأعلى لظنته أبأها

* * *

أو يجدي مجد أسلاف إذا
أمةٌ تلهو بذكرى تالد

غرقت أجفان خلف في كراها
عن طريق لم ترم عهدصباها

* * *

فابعثوا همأ تسمو كما
ما الفخار الحق إلا نهضة

سمت الجوزاء تزهو في سناها
أحكم الإيمان والعلم عراها

دمشق: آب سنة ١٩٣٦

رحلة إلى العراق

للأبصر مصطفى الشرايبي

ذكريات وفواطر :

في أصيل يوم من أيام الخريف سنة ١٩٤٠ انطلقت بنا السيارة الجبارة من دمشق ، تخترق شارع بغداد ، وسط حدائقه وقصوره ، وتنساب مع قنوات بردى وجداوله ، بين بساتين الغوطة الغناء ، وتحت أدواحها الباسقة ، وخلال المروج السندسية ، وخضرة البقول على أنواعها . وكانت صفرة الشمس قبيل الغروب تحاكي أوراق الشجر في هذه الأيام الذهبية التي يخلع فيها الشجر حلته المذهبة الجاسئة ليكتسي في الربيع حلة غضراء من الخضرة الحائثة .

ولم يغب عن أعيننا زيتون دومة وكرومها حتى بدت لنا ثنية العقاب حيث وقف خالد بن الوليد ناشراً راية العقاب في وجه ذلك السهل الأفيح ، فودعت هنالك دمشق والغوطة وأنا أترنم بأبيات حسان بن ثابت التي مطلعها :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
وأعدت الى الذاكرة أبيات حسان بن نمير ولا سيما الآيات الآتية :
ويا بردى لا زال مأوئك بارداً وماء الحيا من ساحتيك نمير
ولا زال ظل النيريين فانه طويل ويوم المرء فيه قصير
أبي العيش لا يبين أكناف جلق وقد لاح فيها أشمس وبدور

وما كدنا نتيامن في « خان عيَّاش » على بعد ٢٦ كيلو مترا ونصفاً من دمشق ، ونجتاز قبيل الغروب قرية ضمير ومعبدها القديم « ٤٠ كم من دمشق » و« خان أبي الشامات » ٥٦ كم من دمشق وفيه مخفر

ومكس ، ، حتى احتوتنا الصحراء ، وحتى دخلنا في غمرتين من ليل
دجوجي وبيداء مترامية الآفاق . وربما كان من أشق الأمور على المسافر
أن يكون في سيارة تنهب به الأرض نهياً ، فلا الظلام الدامس يتيح له
أن يرى شيئاً خارج السيارة ، ولا اهتزازها يمكنه من القراءة أو النوم .
والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يأتيه ، هو أن يتوسد وسادة وثيرة ،
ويطلق العنان لأفكاره ، ويفرق في خضم من الأخيصة الشعرية ، ومن
التصورات التي تحس أو لا تحس ، والتي لها ظل من الحقيقة أو لا .

وهكذا انقضت ليلتنا في بادية الشام . فلقد كنت فيها رفيق أقدم
مدنيات عرفها التاريخ على هذه الكرة الأرضية . وإذا بي أتصور في
الخيال ما كانت عليه أجيال السومريين ذوي الحروف المسبارية ، الذين
عاشوا في أسفل سقي الفرات منذ اربعمائة قرناً قبل الميلاد في أريدو ولكاش
وأور « المقير » واوروك « الوركاء » وغيرها ، وما خلفوه من نقوش
وتماثيل وهياكل ومعابد ، وما أتقنوه من علوم الحساب والهندسة والفلك ،
وما سنوه من الشرائع المعقولة في تلك الحقب الخوالي .

وتخيلت موجات الساميين ، أي العرب الأقدمين ، من قلب جزيرة
العرب ، كموجة الأكديين إلى الفرات الأوسط ، في أوائل الألف
الرابع قبل الميلاد ، ومدنيتهم الساطعة في كيش « الأحييمير » وبابل
وبورسبيا « برص نمرود » ، قبل أقدم مدينة مصرية . وكموجة العموريين
في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . وأشهرهم حمورابي صاحب الشرائع
المعروفة . وموجة الآراميين إلى الشام والعراق في فاتحة القرن الثالث
عشر قبل الميلاد . وتذكرت تقاتل بابل وآشور ، ومظالم الآشوريين ،
وسقوط دولتهم ، وقيام دولة بابل الكلدانية الجديدة ، ومنها يختصر صاحب
الحدائق المعلقة الشهيرة . وأعدت إلى الخاطر استيلاء الفرس على بابل ،
وفتوحات الاسكندر الكبير ، ودولة السلوقيين ، ودولة البرثيين ، وتسلمت

الروم ، وقيام الدولة الساسانية ، وانقسام العرب في أطراف العراق والشام
قسمين قسماً مع الروم وآخر مع الفرس .

ثم رأيتني ابقتم ، وشعرت بفؤادي يهفو لاشراق الكون بمولد النبي
العربي ، واتطهير الجزيرة من رجس الأصنام ، ولاجتماع العرب على عقيدة
واحدة وفكرة واحدة ، ولتكوين قوة عظيمة من قوى العرب المبعثرة ،
ولتولد روح الطموح في نفوسهم ، ولإجماعهم على ضرورة إعادة الهلال
الخصيب « الى أمه الجزيرة ، ولجهادهم في سبيل الله ، وفي بث كلمة الله
العليا في مشارق الأرض ومغاربها .

واشدت السيارة في عدوها ، وهي تطارد الظلام في ذلك السهل
الأبيض . وصحوت قليلاً من غفوتي على ذكريات تاريخنا العذاب ، فاذا بي
أرى جيش سعد بن أبي وقاص وقد كتب له النصر في القادسية ، وأرى
المثنى بن حارثة الشيباني يستولي على السواد كفراً كفراً ، وألمح عياض
ابن غنم يفتح الجزيرة أي ديار ربيعة بلداً بلداً . وهو ذا الصحابي عبدة
ابن غزوان قائماً يخطب البصرة ويمصرها . وهو ذا سعد فارس الاسلام
وفاتح مدائن كسرى وأحد العشرة المبشرين بالجنة قائماً في الكوفة يعلم
على مواقعها ويجعلها خططاً لقبائل العرب .

وتمثلت في الخاطر قيام أسواق العلم والادب واللغة في هاتين المدينتين
وتسابقهما في هذا المضمار ، وكيف وضع ابو الأسود الدؤلي أسس علم
النحو ، وكيف نقل أهل البصرة والكوفة اللغة وأساليبها عن أعرق
القبائل العربية وأبعدها عن الأعاجم والعجمة ، ثم كيف لبث هذان
المصران كعبة اللغة والادب حتى بناء بغداد وانتقال العلوم والعلماء اليها .

وبينا أنا غارق في لجة هذه التأملات ، وقد برد الهواء وكاد الليل
ينتصف ، واذا بزمر السيارة يدوي طويلاً ، واذا بنا نقف أمام باب
عظيم ، وعلى جانبيه سور شاهق ، والعلم العراقي المربع الألوان يرفرف
فوق الرؤوس ، والشرطي العراقي يهدي الناس الى غرفة المكس مترقفاً

مبتسماً . وسألت خادماً للسيارة أين نحن ؟ فقال في « الرطبة » . وهي واحة صغيرة ، بل محطة قائمة في وسط الصحراء ، في منتصف الطريق ، بين دمشق وبغداد ، على بعد ٢٠ كيلومتراً من دمشق ، فيها فندق ومطعم ومكتب للبريد والبرق والهاتف ، وآخر للمكس وجواز السفر ، وفيها مدير ناحية ينظر في شؤون الإدارة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالأمن العام .

وما إن ولجنا مقهى الفندق النظيف ، حيث وسائل الراحة موفورة ، حتى برزت لآعيننا صورة الملك غازي رحمه الله يحيط بها العلم العراقي . وقد استوقف نظرنا فيما بعد أن صور فيصل الأول وغاري و فيصل الثاني وعبد الاله مجدها المرء لا في دوائر العراق الحكومية وحدها بل في معظم الأبنية العامة كالقنادق والمقاهي ودور السينما والنوادي وأبنية السبق والفتوة والالعب الرياضية وغيرها . وما دخلت داراً من دور رجال الدولة وأرباب الوجاهة والزعامة في بغداد إلا وجدت في بهوها تماثلاً او صورة لفيلس الأول فتيان العرب وباعث بقظة العراق الحديثة .

ولم نكد نستريح ساعة في فندق الرطبة حتى دعينا إلى استئناف المسير ، فعادت السيارة تطوي بنا الارض في الليل البهيم ، وعاد السفر إلى تخيلاتهم وأحلامهم . وألفيتني أشاهد زوال دولة الامويين ، وانتقال الخلافة الى العباسيين وعلى رأسهم أبو العباس السفاح ، وكأني أرى أبا جعفر المنصور يخطط مدينة الزوراء ، وأرى بغداد في عصر الرشيد وعصر المأمون ، وقد صارت حاضرة العلم والأدب والشعر والفلسفة ، وارى المعتصم يخطط الخطط في مدينة سامرا فتصبح عاصمة الدولة الثانية .

ثم ما عتمت النفس أن انقبضت مذ تذكرت أفاعيل الشعوبية والحمراء والترك الممالك ، وتذكرت نشوء الدول الفارسية والتركية كالبويهية والطولونية والأخشيديية والغزنوية والسلجوقية ودول الاتابكة وغيرها ، وكيف اضمحلت مدينة العرب الزاهرة في العراق ، وأسرع إليها الهرم ،

ولا سيما بعد ان اتقض عليها من الشرق برابرة المغول والتتر ، وعلى رأسهم مدمرو المدينة والعمرات ، أمثال جنكيز وهولاكو وتيمور ، وكيف استولى الترك العثمانيون على البلاد العربية ، وتحكموا فيها بضعة قرون ، ثم خرجوا منها بمركبات البقر ، كما دخلوا اليها بمركبات البقر ، على حد قول أحد المؤرخين الأوربيين ، فلا هم احتفظوا بمدينة العرب ولغتهم ، ولا أوجدوا مدينة خاصة بهم ، ولا اقتبسوا شيئاً يذكر من مدينة الغرب ، وكل ما عملوه أنهم ناموا هادئين على ما فات المغول والتتر من بقايا المدينة العربية ، ثم غطوا في سباتهم ، بينما كان العالم الأوربي يصعد في مراقب العلوم والعمران بخطى الجبارة .

وأعدت على الببال وقائع الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨ م) وذهاب الاتحاديين إلى انها فرصة يجب اهتباؤها للقضاء على الروح الوطنية في غير الترك من أقوام الدولة ، ومظالم الاتحاديين الفاشمة لا سيما في ديار الشام ، وقيام الثورة العربية في الحجاز ، والتحاق نفر كريم من الضباط العرب بها ، وخروج فيصل بن الحسين من الشام واعتلاءه عرش العراق ، وانتهاء الانتداب في العراق ، وبلوغه في مراحل المعاهدات درجة الاستقلال . ورأيتني ابتم لهذه اللفظة الأخيرة ، وإذا بالصبح آذن بالسفور ، وإذا بنا نترسم معالم الصحراء في غبش الليل ، حتى إذا برز الصبح لذي عينين ، وامتد النظر إلى الآفاق ، لاحت لنا عن بعد أشجار وبساتين ، فسألت خادم السيارة عنها ، فقال هذه هي الرمامدي .

والرمامدي بلدة على الفرات بين هيت شمالاً والفلوجة جنوباً ، تبعد ٧٣٨ كيلومتراً عن دمشق بطريق الصحراء . وهي اليوم قاعدة متصرفية الدليم . رأيت فيها شارعاً عريضاً نظيفاً مزفتاً ، وحديقة بلدية غناء . وهي مركز مهم للمكوس تمر بها قوافل السيارات بين العراق والشام مخترقةً البادية . ولم نمكث فيها إلا ريثما فحص عامل المكس بعض حقائب المسافرين برفق وأناة ، ثم استأنفنا السير إلى الجنوب ، ووجهتنا الفلوجة ،

ونحن تارة نقرب من الفرات وطوراً نبتعد . ولاحت على يسارنا سقائف المطار الانكليزي في سن الذبان ، وهو ما لبث لانكثرة في العراق بموجب معاهدة التحالف بين الدولتين . وفي سن الذبان أو الجبانية تقيم حكومة العراق اليوم سداً عظيماً على الفرات لخزن الماء وصد عاديته عن المدن والقرى أيام الفيضان . وسيكون هذا السد صالحاً أيضاً لاسقاء مساحات واسعة من الأرض بين الفلوجة وكوت الامارة .

السواد وبغداد :

ولم يطل بنا المسير حتى بلغنا الفلوجة (١) . وهي بلدة جميلة على الفرات قبالة بغداد . وقد أقيم حديثاً عندها جسر من حديد عظيم متين تعبر عليه السيارات من الشامية إلى السواد . والسواد هو تلك البقاع والكور التي تقع بين دجلة والفرات من الجزيرة شمالاً إلى شط العرب فعبادان جنوباً . فهو إذن معظم سهول العراق وأجودها . وقد سماه أجدادنا العرب سواداً لخضرته بالزروع والاشجار . وكانت معظم أراضيه تسقى سيحاً بالانهار والجداول العديدة التي تتفرع من دجلة والفرات والخابور عند السدود التي كانت تقام على تلك الانهار العظام . وكان السواد عامراً عند الفتح الاسلامي ، فأقر المسلمون فلاحيه على أرضهم ، وجبوا خراجها برفق ، وسدوا البثوق في السدود ، وكروا ما رُدم من الانهار . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقلموا سدوداً جديدة ، وحفروا آلاف مؤلفة من الانهار والجداول ، ولا سيما حول المدن التي مصروها كالبصرة والكوفة وبغداد وسامراء وغيرها

وقد وصف الاصطخري ألوف الانهار التي حفروها في كورة البصرة وصفاً يكاد لا يصدقه العقل الا أنه حقيقة . ومما قاله انه كان يرى أحياناً

(١) الفلوجة في اللغة : القرية والارض المصلحة للزرع ، والجمع الفلليج . ومنها فلليج السواد .

في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار الصغار تجري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفروه ، أو إلى الناحية التي يصب فيها . وجوز عندئذ أن تكون أنهار كورة البصرة قد عدت أيام بلال بن أبي بردة بمائة وعشرين الف نهر وجدول كبار وصغار .

أما بين بغداد والكوفة فقد وصفه الأستخري بقوله انه سواد مشتبك غير متميز تسقيه أنهار تمتد من الفرات الى دجلة . ويتضح من ذلك أن معظم سهول العراق والجزيرة وأخصبها كانت تسقى سيحاً أيام الامويين وفي صدر خلافة العباسيين . وقد تبعت مواقع السدود التي كانت على الخابور مثلاً « في القسم السوري من الجزيرة » ، ورأيت الأنهار المردومة التي كانت تشق منه . ولم استغرب بعدئذ قول أحد مؤرخي العرب بأن جميع مياه الخابور كانت تسقى الأرضين في الصيف فلا ينصب منها شيء في الفرات في قرقيسيا « البصرة » وأتبع لي في رحلتي الى بغداد أن أرى عشرات الأنهار المردومة بين الفلوجة وبغداد وسامرا ، وبين بغداد والنجف . وفي الحقيقة أينما سار المرء في السواد فهو يسير بين الأنهار القديمة التي جعلت العراق أيام الرشيد والمأمون جنات من الزرع والشجر . ولا غرابة بعد هذا أن يقدر سكان العراق في تلك الأيام بعشرين مليون نسمة ، وأن يبلغ خراج السواد ثمانية ملايين دينار (١) .

ويقول المتعصبون من الكتاب الأوربيين ان ازدهار السواد أيام البابليين والساسانيين أخذ يزول أيام العرب الى أن أصبح معظم السواد خراباً في أيام الناس هذه . والحقيقة أن السواد لبث على حاله ، بل ازداد ازدهاراً وتوسعاً ، طيلة القرنين الأولين اللذين كان فيها الحكم الصحيح

(١) الدينار القديم يساوي نصف دينار ذهبي من دنانير هذه الأيام أي نصف جنيه انكليزي ذهبي تقريباً .

للعرب . والبثوق التي حصلت في حروب الامويين والخوارج مُسدت في صدر الدولة العباسية ، ولم يبدأ خراب السواد الا بعد أن أخذ الاعاجم ينتقضون على العرب ، ولم يعم الا بعد هجوم المغول والتر وانتقال الحكم الى الدولة العثمانية .

اعدت الى الخاطر هذه الذكريات والسيارة تنهب الارض بين الفرات ودجلة . والارض معظمها براح . وفي كل بضع دقائق نجتاز نهراً أو جدولاً قديماً مردوماً . وما ان اقتربنا من بغداد « وهي على بعد ٨٥٠ كيلو متراً من دمشق » حتى أشار أحد المسافرين الى شيء يلعب عن بعد في الجهة الشمالية من الطريق ، فتناولنا عسانا نحزرها ما يكون . واذا بالخادم يقول لنا انها قبة جامع السكاظية شمالي بغداد ، وانها مصفحة بصفائح الذهب ، ولهذا يكون لها في الشمس ذلك البريق . ولقد أتيت لي بعدئذ أن اشاهد هذا المنظر قبيل الغروب من المسكان نفسه ، فاذا به منظر فريد لا شبيه له على الكرة الارضية . فهناك قبتان عظيمتان ومآذن شاهقة في صفرة الذهب الابرز ، تتلألأ وتلمع ، وتكسر أشعة الشمس ، وتنتثرها على شجر النخيل قلائد من العقيان . وكلما مشيت السيارة خطوة تبدل شكل ذلك المثير من الأشعة الذهبية ، وتراقص بين حوص النخيل ، وانتثر في الفضاء انتشار الدر من العقد ، أو انتشار حباب الماء من فوارة اضيئت بالكهرباء في الليل البهيم .

ولم نسر قليلاً حتى بدت بغداد ودورها وقصورها ، ثم دخلنا في شارع عريض مزفت غرس جانبه بأنواع الشجر ، ووقفنا في محطة شركة السيارات « زن » وهي أمام بناء مطار الكرخ المدني ، على بضعة كيلومترات من قلب المدينة . ووجدنا في المحطة لفيماً من الأصدقاء ، ومرافق العميد الركن السيد طه الهاشمي وزير الدفاع ، وتمثلاً لوزير المعارف السيد صادق البصام ، والمربي الكبير العلامة ساطع الحصري مدير الآثار ، وجمهوراً من الادباء والوجهاء والاساتذة غمرونا بأنسهم وأدبهم العميم .

وكان شارع الملك فيصل أول شارع مأهول مررنا به من شوارع الكرخ (١) وهو مزدوج زرعت الأزهار وبسط الخضير في وسطه . وقام في ساحته بين الزهر والريحان تمثال فيصل بن الحسين في بزته العربية تمتطياً جواداً عربياً ووجهه يستقبل الآتين من الشام . وبعد التمثال جسر الملك فيصل على دجلة طوله ٢٥٠ متراً ، وهو من أعظم الجسور الحديدية ، لا يقل رونقاً وعظمة عن أجمل جسور القاهرة . وبعد الجسر يمتد شارع الرشيد من الشمال الى الجنوب موازياً لدجلة . وهو شارع الفنادق والمتاجر الكبرى ودور السينما والملاهي ، وفيه حركة مستديمة من السيارات والعجلات

عمران بغداد :

قال لي أحد الوزراء في بغداد : يا ليتك عرفت هذه المدينة قبل عشر سنين أو قبل عشرين سنة ، إذا لأمكنتك ان تتبع حركة عمرانها خطوة خطوة ، فلقد كانت بغداد أيام الترك العثمانيين « كسائر المدن في تلك الدولة » مجموعة دور متلاصقة مكتنزة يبلغها سكانها في ازقة ضيقة معوجة قلما يتجاوز عرض الواحد منها ثلاثة أمتار أو أربعة . وكان الجسر الذي يصل أحد قسمي المدينة بالتاني ألواحاً من الخشب ومدت على عدد من الزوارق . وربما طغى النهر في الشتاء ، جرف هذا الجسر ، فلبث جزءا المدينة أي الرصافة والكرخ منفصلين أياماً عديدة . وكل ما عمله الاثراك انهم فتحوا شارع الرشيد خلال الحرب الكبرى ، فأكمل فتحه وبعده عقب انسحابهم ، وقامت الفنادق والمتاجر في جانبه ، لانه كان الشارع الوحيد الذي يبلغ عرضه خمسة عشر متراً .

اما اليوم فقد شملت الشوارع العريضة معظم بساتين الكرادة جنوبي بغداد القديمة ، وكثيراً من بساتين الأعظمية شمالها ، وأصبحت الشوارع

(١) الكرخ جزء بغداد الواقع غربي دجلة أي في جهة السواد او جهة الجزيرة . اما الطرف الثاني ففيه الرصافة وهي معظم بغداد .

التي عرضها ١٥ متراً الى أربعين متراً تعدد بالعشرات ، كما بلغ ما بين طرفي المدينة ، من الكرازة على مقربة من المدرسة العسكرية جنوباً ، الى المعظم قبالة الكاظمية شمالاً ، نحو خمسة عشر كيلو متراً ، أي كما بين الربوة ودومة . لكن عمران بغداد يمتد مع النهر ، ولا يمتد كثيراً الى سائر الجهات .

ومما استوقف نظرنا في بغداد كون عدد كبير من الشوارع الجديدة قد فُتحت وعبدت وزفتت وأنيرت قبل أن يُبنى كثير من الابنية في جوانبها ، أي أن فتح الشوارع سبق البناء ، وهذا دليل على حيوية أمانة العاصمة . ومما يستوقف النظر أيضاً كون جميع الدور تبنى بالآجر لفقدان الحجر ، وكونها مها تعظم فهي قلما تزيد على طبقة واحدة تعلو الطبقة الارضية . وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي ان حر الصيف (١) الشديد يضطر السكان الى ان يلجأوا الى الاقباء في النهار ، والى السطوح في الليل ، وكلاهما لا يتيسر في الابنية الكثيرة الطبقات ، عدا ان التربة حول دجلة لا تتحمل ثقيلات الابنية .

ومما يثلج صدر العربي ان الشوارع سميت بأسماء عربية ، وان بعض الاسماء انما وضعت تنويهاً بذكر رجالات العرب في القديم والحديث كالرشيد والمأمون وفيصل وغازي والسعدون والبحثري وابي العتاهية وأبي تمام وغيرهم ممن لهم فضل على هذه الامة في السياسة والعلم والأدب : وقد حُظر على أصحاب المؤسسات العامة كالقنادق ودور السينما والمقاهي وأضرابها أن يسموها بأسماء أعجمية ، كما حُظر عليهم اعلانها بلغة أجنبية دون العربية .

(١) تزيد حرارة بغداد في الصيف على حرارة القاهرة ، وتنقص عنها في الشتاء وتتراوح اعلى درجة للحرارة في أشهر الصيف بين ٤٠ و ٤٩ درجة . وتهبط الحرارة في بعض ليالي الشتاء الى ما دون الصفر . ومتوسط الحرارة السنوي في بغداد ٨ ، ٢٢ درجة أي فوق متوسط القاهرة .

وشكل الدور الخارجي لا يظهر جلياً في المدينة القديمة لضيق الأرزقة واكتظاظ الدور . ومن المعروف ان أصحاب الدور القديمة ما كانوا يهتمون لشكلها الخارجي ؛ أما في الداخل فمعظم تلك الدور تتألف من فناء مكشوف مربع او مستطيل تحيط به الغرف من جهاته الأربع . ويكون وسط الفناء حديقة للزهر والشجر وحوض فيه ماء او لا ماء فيه . وهذا الوضع الداخلي هو ما نراه في الدور القديمة بدمشق وحلب وسائر المدن الشامية ، وهو أصلح ما يكون للعادات الاسلامية والبلاد الحارة .

أما الأبنية التي تبنى اليوم في بغداد على أطراف الشوارع الجديدة فلا يعرف لها طراز داخلي أو خارجي . واذا استثنينا بناء وزارة الدفاع العربي الجميل ، وبناء وزارة الخارجية ، وبعض القصور والدور المائلة او المقاربة ، أمكننا القول بان الفوضى ضاربة أطنابها في انماط البناء في بغداد الجديدة . ولعل اشع الأبنية تلك التي على جانبي شارع الرشيد . فقد قامت فوق رصيفي الشارع على أعمدة لا يدري المرء أي رومانية او يونانية . واذا أنعمت النظر في جهة بعض دور السينما أو في نقوشها الداخلية صعب عليك أن تحكم هل أنت في الهند أو في إيران أو أنت تحلم في أخيلة ألف ليلة وليلة . ولا شك أن فوضى البناء موجودة في الشام وجودها في العراق . وهي في البلدين تحتاج الى ضابط .

ويربو سكان مدينة السلام اليوم (١) على أربعمائة ألف نسمة . وكانوا أيام الدولة العثمانية دون نصف هذا العدد . أما في إبان مجد هذه المدينة أيام الرشيد والمأمون فكان سكانها مليوناً ونصفاً أو مليونين ، كما أن مساحة أبنيتها وحدائقها بلغت في تلك الأيام نحو خمسين كيلومتراً مربعاً ، نصفها في الرصافة ونصفها في الكرخ . ووسائل أيامنا هذه لا تجعل مجالاً لبناء مثل القصور التي كانت في بغداد في صدر الدولة العباسية كالثقبة

(١) من المعلوم ان ذلك كان يوم الغاء المحاضرة اي في اوائل سنة ١٩٤١ م .

الخضراء وقصر الخلد وقصر الذهب التي شاهدها المنصور ، وكدار القرار لزبيدة زوج الرشيد ، وكقصر الأمين وقصور البرامكة وقصر التاج للمعتضد ، وقصور الأمراء والوزراء مما أنفق عليه ملايين من الدنانير . ومن المؤسف أن الأيام قد طمست معالم هذه الأبنية العظيمة ، وذهبت بما كانت تحتويه من نقوش وزخارف وآثار نفيسة .

التعليم في العراق

كان في بغداد أيام الدولة العثمانية مدرسة حقوق فتحت في أواخر أيام تلك الدولة ، ومدرسة إعدادية ومدرسة عسكرية متوسطة وبضع مدارس ابتدائية . وكل هذه المدارس الحكومية كانت تدرس بالتركية ، ولم يكن للأجانب ولا للشعب العراقي مدارس خصوصية تذكر . وكان التعليم في مدارس الحكومة المذكورة موجهاً الى إعداد ناشئة تتقن التركية وتدين بالجامعة العثمانية ، وتخدم إما في الجيش العثماني أو في وظائف الحكومة الثانوية . وكانت اللغة العربية لغة ثانوية تدرس بالتركية ، كما كانت القومية العربية تحارب من قبل المعلمين الأتراك والمتركين . وقد شملت هذه الاوضاع يومئذ سائر البلاد العربية . لكن المدارس الأجنبية والمدارس الأهلية كانت منتشرة في ديار الشام منذ أواخر القرن الماضي . ولذلك لم يكن لمدارس الحكومة العثمانية كبير تأثير في تلك الديار ، كما أن الأهلية فيها لم تكن منتشرة انتشارها في العراق .

ويتضح من ذلك أن العراق عندما بدأ يمارس استقلاله وجد نفسه في حاجة قصوى إلى نشر التعليم على أنواعه ، وإلى توجيهه وجهة القومية العربية الصحيحة . ولم يقصر القائمون على شؤون العراق في الناحيتين المذكورتين ففتحوا حتى سنة ١٩٣٥ (١) من المدارس الابتدائية

(١) عن كراس ثمين عنوانه (وجهة التربية والتعليم في العالم العربي وخاصة في العراق) للدكتور فاضل الجمالي مدير التدريس والتربية العام بوزارة المعارف العراقية . وللموماً اليه اختصاصي بشؤون التعليم معروف بسعة الاطلاع والخبرة .

٧٤٧ مدرسة مجموع تلامذتها ٨٦٠٠٠ « وقد بلغ عددهم ٩٠٠٠٠ في سنة ١٩٣٧ ، ولعلمهم بلغوا اليوم مائة الف » ، و ٤٧ مدرسة متوسطة « الصفوف الاولى من الدراسة الثانوية » مجموع تلامذتها ٩٠٣٩ ، و ١٤ مدرسة ثانوية « الصفوف العليا من الدراسة الثانوية » فيها ١٣٤٦ تلميذاً ، وأربع دور معلمين منها اثنتان للذكور واثنتان للإناث ، وكان فيها سنة ١٩٣٥ نحو الف تلميذ وتلميذة ؛ أما اليوم فدار المعلمين في الرستمية وحدها فيها الف تلميذ تقريباً . ودور المعلمين هذه على قسمين قسم لاجراج معلمين يدرسون في مدارس المدن الابتدائية وقسم لاجراج معلمين يدرسون في مدارس الريف الاولى .

وفتح أيضاً في بغداد مدرسة للبنات تدرس الفنون المنزلية والأشغال اليدوية ، وفتح في الموصل مدرسة مثلها . أما التعليم العالي فقد فتح له معهد للحقوق ، ودار معلمين عليا تخرج أساتذة للمدارس المتوسطة ، ومعهد للطب والصيدلة . وأعتقد انه صار بإمكان وزارة المعارف اليوم أن تجمعها في جامعة تمنح استقلالاً إدارياً ومالياً .

وأما المدارس الفنية فقد أسس منها مدرسة عسكرية ومدرسة للهندسة ومدرسة للشرطة وأخرى لضباط الشرطة وواحدة للطيران . وأوجدت في معهد الطب مدرسة للممرضات والقابلات وأخرى لموظفي الصحة ، كما أوجدت صفوف تجارية في بعض المدارس التجهيزية . وفتحت مدرسة صناعية في بغداد ومدرسة في الموصل . وكانت فتحت مدرسة زراعية في الرستمية ثم أغلقت على أن ترسل بعثات مدرسية تتعلم الفنون الزراعية في مصر وكليفتونية وغيرها من البلاد التي تشبه العراق بجوياتها .

ويتضح من هذه الخلاصة الموجزة أن هناك جهداً عظيماً بذل في سبيل التمايم في السنوات القليلة التي مارس فيها العراق استقلاله . ولا شك أن مجال العمل ما برح واسعاً . ولكنه ما دام العزم موجوداً والتوجيه حسناً والمال متيسراً فلن يمر بضع سنوات حتى يصبح العراق في مستوى مصر

والشام بل حتى يفوقها في بعض نواحي التعليم . ومما يستوقف النظر كون وزارة المعارف العراقية لم تأنف من استدعاء معلمين شاميين ومصريين وبريطانيين للتدريس في مدارسها المختلفة ، وهذا ما يفعله كل شعب ناهض في بدء نهضته . وسيستغني العراق عن هؤلاء المعلمين رويداً رويداً بازدياد المتخرجين من دور المعلمين والمعلمات العراقية وازدياد العراقيين الذين يتخرجون في كل سنة من جامعات ديار الشام وديار الغرب .

ولقد زرت عدة مدارس في بغداد ، ودخلت الصفوف ، واستمعت إلى إلقاء الأساتيد والمعلمين ، وسألت بعض التلاميذ أسئلة في علوم مختلفة ، وخرجت واثقاً بأن التعليم في العراق على أنواعه سائر سيراً يدعو إلى اغتباط القائمين عليه . ولقد استوقف نظري كون التعليم مشتركاً بين الذكور والاناث في بعض المدارس العليا كالطب والحقوق ودار المعلمين العليا ، وكون عدد الطالبات ليس قليلاً في المدارس المذكورة . واذا جوزت لنفسي الانتقاد قلت إن بناء مدرسة الحقوق وأبنية المدرسة العسكرية لا تمان على ما لهاتين المدرستين من شأن . فمن المفيد أن يوسع عليها في تشييد الأبنية المناسبة كما توسع على مدرسة الطب ومدرسة الهندسة ودور المعلمين وغيرها من المدارس التي شيد لها أبنية حسنة .

والعربية هي لغة التعليم في مدارس الحكومة العراقية ، عدا مدرستي الطب والهندسة ، فإن معظم الدروس فيها تلقى باللغة الانجليزية . وهذه اللغة تدرس تدریساً حسناً في مدارس العراق . ويلاحظ أن عدد المثقفين ثقافة انكليزية يفوق كثيراً عدد المثقفين ثقافة لاتينية . والمدارس الأهلية قليلة في العراق ، لا تزيد على سبعين مدرسة فيها نحو عشرين ألف تلميذ . أما المدارس الاجنبية فهي اثنتا عشرة مدرسة تضم ألف تلميذ . ويدل ذلك على أن الدولة هي التي تسيطر في مدارسها على تعليم الأحداث وعلى تربيتهم وعلى توجيههم وجهة واحدة . وهذه الوجهة تستهدف الاحتفاظ بتراث العرب الادبي والروحي ، واقتباس المفيد من علوم الغربيين وأساليبهم

العلمية ووسائلهم المادية . أما المبادئ القومية فهي تبت في جميع مدارس الدولة على شكل يدعو إلى الارتياح .

وحكومة العراق مهتمة كل الاهتمام بنشر المعارف في جميع أنحاء القطر ، ولا سيما التعليم الابتدائي ، حتى ان ميزانية وزارة المعارف تربو اليوم على ثمانمائة ألف دينار ، وهو مبلغ لا يستهان به في قطر لا يزيد سكانه على أربعة ملايين نسمة ونيف . ومع هذا ما برح أمام الحكومة مجال واسع لنشر التعليم الابتدائي خاصة لأن تلامذة المدارس الابتدائية وتلميذاتها لا يبلغون جميعاً ربع الاولاد الذين هم في سن التحصيل الابتدائي . وثلاثة أرباع الأحداث أو اكثر يلبثون أميين . لكنه يلاحظ كون نشر التعليم ربما أدى إلى ازدياد البطالة والشكوى إذا لم يكن مقروناً بمجهود كبير يبذل في سبيل إيجاد عمل للمتعلمين على مختلف درجاتهم . فخرىجو المدارس العليا والمدارس الثانوية يجدون اليوم عملاً في الحكومة والجيش والاعمال الحرة كالتطبيب والمحاماة . لكن خريجي المدارس المتوسطة وخريجي المدارس الابتدائية من أبناء القصباء والقرى لا يجدون أمامهم متسعاً من المتاجر والمعامل والأرض . فالتجارة معظمها بيد اليهود (١) . والأرض الزراعية يملكها أفراد معدودون . والمعامل الصناعية قليلة . فالنهضة الثقافية في العراق يجب إذن ان تقترن بنهضة اقتصادية قوامها الري وإيجاد الملكية الصغيرة في الأرض الزراعية وتأسيس المعامل الصناعية ونقل المتاجر الى مختلف طبقات الشعب فلا نظل محبوسة على اليهود . وهكذا يجد المتعلمون أبواب الرزق مفتوحة فيستفيدون ويفيدون بما قرأوه في المدارس من مبادئ العلوم .

(١) لقد سهلت حكومات العراق اخيراً هجرة يهود القطر ، فهاجر معظمهم الى فلسطين ، على ما هو معروف .

نظرة اقتصادية

من المفيد ان نذكر كلمة موجزة عن الحياة الاقتصادية في العراق تأييداً لرأينا في ضرورة جعل النهضة الاقتصادية تسير مع النهضة الثقافية جنباً الى جنب . فمساحة العراق ٥٦٥٠٠٠ كيلو متر مربع (١) وسكانه اربعة ملايين نسمة ونيف ، فيصيب الكيلو متر المربع الواحد سبعة أشخاص وهو قليل ؛ واذا قايستنا بين العراق والشام نجد أن مساحة الاول تكاد تبلغ ضعف مساحة الثاني ، أي ضعف مساحة سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن جميعاً . وبينما في العراق أربعة ملايين نسمة ففي الشام خمسة ملايين عربي ونحو نصف مليون يهودي وأجنبي ولكن شتان ما بين قابلية العراق وقابلية الشام للاسكان . فالعراق كما هو معروف مؤلف من جزأين ، جزء في الشمال أراضيها الزراعية أعداء ، أي تزرع على المطر ، كألوية الموصل وكركوت وأربيل والسليمانية ، وجزء في الوسط والجنوب لا يمكن زرع أراضيها إلا بالاستقاء اقلية الامطار . وهو يمتد من جنوبي الموصل حتى البصرة ، أي يتناول معظم الوية العراق . ففي هذا الجزء الثاني الصحراوي أنهار تخترق أراضيها وهي دجلة والفرات والزاب الاكبر والزاب الأصغر وديالة وغيرها من الأنهار الكبار والمتوسطة . والأرض الزراعية تسقى هنالك على شكلين اما برفع الماء بالمحركات والنواعير والمنزقات « كرده » وأمثالها من الوسائل ، وإما باقامة سدود في وجه الماء وفتح أنهار وجداول للاستقاء . فوسائل الرفع تسقى اليوم مليوناً ومائة الف هكتار تقريباً (٢)

(١) عن الكتاب الفرنسي « جغرافية سورية ولبنان والشرق الادنى » المطبوع سنة ١٩٤٠ لمؤلفيه دو برتره Dubertret وفولرس Weulersse اما في كتاب « الجغرافية العراقية » فقد جاء ان مساحة العراق ٤٥٣٥٠٠٠ كيلو متر مربع .
(٢) من اراد الحصول على معلومات واسعة ومضبوطة في هذا الباب عليه بمراجعة كتاب « جغرافية العراق » المطبوع سنة ١٩٣٧ لرحل الدولة العالم والعميد الركن طه الهاشمي رئيس الوزارة ووزير الدفاع في العراق .

أما جداول الاسقاء سيحاً فهي تكفي لاسقاء نحو ثلاثة ملايين وسبعمئة ألف هكتار . وأهم هذه الأراضي تروى أولاً بسبب إقامة سد الهندية على الفرات في أواخر أيام الدولة العثمانية على يد المهندس المائي الشهير ويلكوكس الانكليزي . وقد أمكن بهذا السد إرواء أرضين واسعة في الوية الحلة وكربلاء والديوانية . ثانياً بسبب إقامة سد الكوت « مشروع المراف » على دجلة من قبل حكومة العراق أخيراً . وهذا السد يضمن إسقاء سبعمئة وخمسين ألف هكتار في لواء الكوت ولواء العمارة . ثالثاً بسبب إقامة سد على نهر ديالة . وبهذا السد أمكن تنظيم توزيع الماء في جداول النهر القديمة . رابعاً بسبب المد والجزر في شط العرب . فكما حصل مد يرتفع الماء وينساب في جداول إسقاء النخيل بلا مشقة . وهذه الجداول أو الأنهار معظمها قديمة . وقد فتح أجدادنا العرب مئات منها . ونخيل جنوبي العراق يشرب بهذه الطريقة السهلة خامساً بسبب كربي أنهار قديمة في لواءي بغداد والديلم تأخذ الماء أيام الفيضان من الفرات وتسير به في اتجاه دجلة أي الى الشرق وقد فتحت الحكومة حديثاً بمض الأنهار القديمة في تلك البقعة كنهر اللطيف ونهر أبي غريب وغيرها .

ومما يمكن من أمر الاسقاء في العراق فهناك حقيقتان يجب ذكرهما الأولى انه لا يزال في العراق متسع لاعمال الاسقاء ، ولا يزال قسم كبير من السواد غير مسقي . وأهم المشاريع التي تستوقف النظر مشروع الحبانية الذي أشرت اليه ومشروع نهر الاسحاق ودجيل على دجلة ، ومشروع الحويجة بين الزاب الأسفل ودجلة ، ومشروع النهروان الخ . وكل هذه الأنهار والجداول القديمة معروفة في تاريخ العرب . والحقيقة الثانية أنه لا يزرع سنوياً في العراق سوى قسم من الأراضي التي تسقى سيحاً أو بالمطر . والسبب قلة السكان وقلة رؤوس المال . ولو أنجزت الحكومة شيئاً من المشاريع التي ذكرتها لما وجدت عراقين يستثمرونها . ويتضح

من ذلك أن في العراق مجالاً لهجرة الفلاحين والأموال العربية بغية استغلال الأرض ، وان في ذلك القطر متسعاً لخمسة عشر مليون نسمة في المستقبل القريب اذا سير في شؤون الهجرة والصحة والاقتصاد على سياسة محكمة .

وليس الري ثروة العراق الوحيدة بل فيه النفط والقار وهما من أعظم الثروات ومن أدعاها الى انتشار مختلف الصناعات . وقد زاد في أيامنا هذه ما يستخرج من النفط سنوياً على أربعة ملايين طن . ولئن كانت الزراعة أهم ركن من أركان الحياة الاقتصادية في العراق ، لأن ثلاثة أرباع سكانه يشتغلون في الزراعة ، فللصناعة فيه مستقبل لا يستهان به بسبب وفرة النفط ومشتقاته خاصة . وقد أسس حديثاً معمل للغزل والنسيج في بغداد ، وآخر في الموصل ، ومعمل لحلج الأقطان ، وآخر لتقطير الكحول ، ومعامل للدباغة وتصليح الاسلحة والطائرات وصنع الكبريت والآجر وتوليد الكهرباء وتصليح السيارات الخ . وذلك عدا المصنوعات اليدوية الكثيرة من نسيج وصياغة ونجارة وغيرها مما عُرف القطر به . وقد أثبتت الاحصاءات الاخيرة ولا سيما احصاءات سنة ١٩٣٧ ، أن العراق استورد ما قيمته تسعة ملايين دينار ، وأصدر ما قيمته خمسة ملايين دينار وثلاث . أما اليوم فالفرق بين ثمن الوارد وثمان الصادر قد قلَّ ولا يبعد أن يحصل التوازن عما قريب .

أماكن العراق المقدسة

لا شيء أَدعى إلى التأمل والاعتبار والخشوع من زيارة أضرحة سيدنا علي كرم الله وجهه وبعض أنساله الأئمة رضوان الله عليهم ، وزيارة بعض الجوامع القديمة التي تثير في النفس ذكريات كثيرة من تاريخنا المجيد . ولقد تفضل العلامة السيد ساطع الحصري فكان خير مرشد لنا في التبرك بزيارة النجف حيث مقام الامام علي ، وكر بلاء حيث مقام

الحسين السبط ومرقد أخيه العباس ، وسامراء وفيها الجامع الذي يضم ضريح الهادي علي بن محمد الجواد « أبي الحسن العسكري » عاشر الأئمة وضريح ابنه الحسن الخالص وهو الامام الحادي عشر . وفي جانب هذا البناء الجامع المحتوي على سرداب الغيبة أي غيبة المهدي محمد بن الحسن الخالص وهو آخر الأئمة الاثني عشر . وفي هذا السرداب باب خشبي جميل جداً صنع بأمر الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٠٦ من الهجرة . وبما زرناه مسجد الكوفة وهو من أقدم المساجد في الاسلام اختطه سعد ابن أبي وقاص أثناء تمصير الكوفة . وكان الامام علي يصلي فيه ، وقد تجدد في خلافة الأمويين ، وظل عامراً قروناً .

وأقرب الأضرحة إلى بغداد مما تبركنا بزيارته مقام الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ، وهو في ضاحية بغداد على نحو ثمانية كيلو مترات شمالي قلب المدينة . وقبالته في جهة الرصافة مقام الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت أحد الأئمة الأربعة .

والجوامع التي فيها مقامات سيدنا علي وآله في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء كلها حديثة ومبنية على طراز واحد . فالزائر يرى صحناً عظيماً مربعاً أو مستطيلاً أحيط بجدران شاهقة كسيت داخلياً بالقاشاني . وفي وسط الصحن مسجد تعلوه قبة أو أكثر ، وفي أركانه المآذن ، ومقامات الأئمة تحت القباب . وبما لا مرية فيه أن هذه المقامات المقدسة قد اشتملت على كنوز عظيمة ، فالقباب مثلاً وبعض المآذن مكسوة خارجياً بصفائح رفاق من الذهب ثمن كل واحدة منها بقدر الكف ليرة ذهبية عثمانية . وشاهدنا بعض جدران المساجد أيضاً مصفحة بالذهب . أما الاقفاص التي تحيط بالأضرحة فمعظمها من فضة وبعضها مطلي بالذهب . وكثير من اثريات والقناديل والسلاسل إما من فضة أو من ذهب خالص أو مطلية بالذهب . وفوق ضريح الامام علي ثريا فيها درة ثمينة .

وأرانا شيخ المقام الكريم في النجف عدداً من السجادات والستائر

وقناديل الذهب معظمها هدايا من أبناء الملوك الفاجريين او بناتهم . وبمض السجادات مرصعة بلآليء منها الصحيحة ومنها الكاذبة . وأشار الشيخ الى احد جدران المسجد وذكر أنه يشتمل في داخله على كنز من الجواهر الثمينة يقدرون ثمنها بما لا يقل عن مليون ليرة ذهبية . وقال ان الجدار لا يفتح اليوم إلا بارادة ملوكية ، وأنه فتح مرة أيام الوالي العثماني الشير مدحة باشا ، ومرة أيام الملك فيصل بن الحسين طيب الله ثراه .

وداخل المساجد والقباب مكسو بالقاشاني وقطع البلور والمرايا . وقد كتبت آيات قرآنية على عدد كبير من قطع القاشاني ، ورسم على بعضها رسوم مختلفة . ومن أغرب ما استوقف نظرنا في مدخل الجامع الذي يشتمل على ضريح العباس في كربلاء أن الرسوم التي على بعض قطع القاشاني هي رسوم أوربية ، مما يدل على أن تلك القطع قد شريت من معامل للخزف في اوربة ، على حين أن معظم القطع الاخرى هي من صنع فارس وغيرها من الديار الاسلامية . ومهما يكن من أمر القاشاني فلا شك أن معظمه حديث لا يتجاوز عهد الصفويين والفاجريين ، ولهذا ليس له رونق القاشاني القديم .

وروعة هذه الأماكن ليست في أبنيتها ولا في كنوزها ولا في أوقافها الفنية بل فيما ضمته من رفات أئمة هداة أتقياء صلحاء لهم في تاريخ العرب والاسلام وفي قلوب المسلمين جميعاً مقام أي مقام . ومن المعروف أنه يحج اليها عشرات الالوف من المسلمين في كل سنة . لكن عدد الحجاج الايرانيين قد قل في السنوات الأخيرة كما قلت الأموال التي كانت تخصصها بها الدولة الايرانية . ولعله من المفيد ذكر ملاحظتين تترددان على السنة كل من يغار على الأماكن المشار اليها ، أولاهما ضرورة منع الأكل والتدخين في صحون الجوامع ، وإخراج الذين لا عمل لهم منها ، ولا سيما الأولاد والأطفال ، وثانيتهما تأسيس متحف خصوصي ملاصق لجامع النجف تحفظ فيه النفائس والكنوز الموضوعة في بعض الغرف وفي أحد

الجدران ، فان هذه المواضع تجعلها عرضة لعيث الحشرات ولتأثير العوامل الطبيعية فيها ، على حين أن المتحف يجعلها في مأمن من التلف ، ويضمن المقام الشريف مورداً لا يستهان به .

أما مسجد الكوفة فلم يبق منه إلا صحنه العظيم تحيط به جدرانه الشاهقة وأمامها أروقة بسيطة حديثة . وفي أحد الأروقة عند المحراب قاشاني حديث يستوقف النظر . وهذا المكان هو الذي طعن فيه الامام علي بيد ابن ملجم لعنه الله . وفي أحد جوانب المسجد أقيم مصلى جديد صغير رأينا الناس يتبركون به ويصلون فيه . ولا شك ان مسجد الكوفة ، على سعة صحنه وبساطة ما تبقى منه ، يثير في نفس المسلم ذكريات تاريخية مشجبة . وعندما يبلغ الزائر هذا المسجد قبيل الغروب ، وهي الساعة التي بلغناه فيها ، ويدخل صحنه العظيم الذي كان يتسع لآلاف المصلين ، يشعر بخشوع زائد امام روعة هذه البقعة القدسية ، ولا سيما إذا كان ملماً بتاريخ صدر الاسلام .

الآثار في العراق

من المعروف في التاريخ أن أقدم حضارة بشرية كانت في موضعين متجاورين : الأول سقي الفرات الأسفل والأوسط حيث كان السومريون والاكديون ، والثاني غربي إيران حيث كان العيلاميون . وترجع حضارة هذه الاقوام الى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أي انها قامت قبل حضارة الفراعنة الأول ببضعة قرون (١) ، ولم يكن السومريون ساميين . أما الاكديون فقد كانوا ساميين من جزيرة العرب ، وكذا سائر الاقوام الذين قذفت بهم تلك الجزيرة الاءم إلى الهلال الخصيب في موجات

(١) من أراد الاطلاع على مجل ثمين من حضارات البشر الاولى عليه بمطالعة كتاب « التاريخ والحضارة في الايام الغابرة » تأليف العميد الركن السيد طه الهاشمي . وهو مطبوع في بغداد .

متعاقبة ، كالمغوريين الذين سكنوا بادية الشام وجنوبي فلسطين ، ثم دخلوا العراق واستولوا على بلاد السومريين والاكديين ، وأسسوا دولة بابل ، واشتهر فيهم حمورابي صاحب الشرائع المدونة على مسلته المعروفة . وكالآشوريين أبناء عم البابليين ، وقد عرفوا بالحروب والفتوح والقسوة ، ولم يؤسسوا مدينة خاصة بهم . وكالآراميين الذين سكنوا على ضفاف الفرات والخابور ، وأسسوا دويلات في دمشق وحلب وحران وحماة . وكان الكلدانيين الذين حكموا بلاد بابل بعد زوال دولة الآشوريين وكان منهم بختنصر « نبوخذ نصر » صاحب الحدائق المعلقة في بابل . وكالفينيقيين الذين توطنوا سواحل الشام الشمالية ؛ والكنعانيين الذين سكنوا سواحلها الجنوبية ؛ والاسماعيليين الذين أسسوا دولاً في مشارف الشام ولا سيما دولة سلدغ « البطرا » في وادي موسى ومدائن صالح ، دع الملك الذي كان للعرب قبيل الاسلام في الحيرة « جنوبي النجف » ، وفي حوران وغيرها من أصقاع الهلال الخصيب .

ومما لا مرية فيه أن أعظم موجة قذفتها جزيرة العرب هي الموجة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن . فقد خلص الهلال الخصيب للعرب عقب تلك الموجة المباركة . وقامت في أيام الأمويين والعباسيين خاصة حضارة عربية زاهرة لا تزال آثارها تشهد بعظمتها في جميع الاقطار العربية .

وأهم الآثار العربية التي شاهدناها في العراق آثار مدينة سامراء « سر » من رأى « على بعد ١٢٠ كيلومتراً شمالي بغداد (١) وهي المدينة التي بناها الخليفة المعتصم أحد أبناء هرون الرشيد سنة ٢٢١ من الهجرة ليجعلها عاصمة للملكة ، ثم وسعها ابنه الواثق ، ثم ابلغها أوج عظمتها جعفر

(١) لقد كان للعلامة السيد ساطع المصري مدير الآثار القديمة في العراق فضل اطلعنا على ام الآثار والمتاحف وتزويدنا بما طبعه فيها من كتب وكراريس مصورة ثمينة .

المتوكل . ولم تدم هذه المدينة السحرية إلا نصف قرن أو أقل لأن مقر الخلافة أعيد إلى بغداد فدرست سامراء بسرعة كما أوجدت بسرعة . وبعد أن كان الناس يسمونها « سر من رأى » صاروا يسمونها « ساء من رأى » . ولكي تعرفوا عظمة الأجداد إبان مدينتهم الزاهرة ، تصوروا مدينة طول أطالها الحاضرة ٤٣ كيلو متراً ، ينصفها شارع عرضه مائة متر ، يظل مستقيماً على طول سبعة كيلو مترات ، وتتفرع منه شوارع عرضانية مستقيمة عديدة يبلغ عرض كثير منها ٥٠ متراً . وقد قامت الدور والقصور على خطوط مستقيمة حول هذه الشوارع ، حتى أن الناظر إليها من طائرة يظن أنه فوق أطلال احدث مدينة أوربية أو أميركية . والذي ينعم النظر في الآثار الباقية من تلك المدينة كالمسجد الجامع والمئذنة الملوية وجامع أبي دلف وقصر بلكوارا ودار الخليفة وباب العامة وقصر المشوق وغيرها كثير ، لا يستغرب الوصف الذي وصفها به اليعقوبي في كتاب البلدان ، ولا تتعاضمه ملايين الدنانير التي انفقها الخلفاء المشار إليهم ووزراؤهم وقوادم في جلب الماء من دجلة الى المدينة الجديدة وفي تشييد القصور التي وصف علي ابن الجهم أحدها بقوله :

بدائع لم ترها فارس^{*} ولا الروم في طول أعمارها
صحون تسافر فيها العيون وتحسّر^{*} عن بُعد أقطارها
وقبة ملك كان النجوى م تفضي إليها بأسرارها (١)

وقد شاهدنا آثار البركة العظيمة أمام باب العامة من القصر المسمى « دار الخلافة » ، وهي البركة التي وصفها البحري في إحدى قصائده التي يمدح بها جعفر المتوكل . وما جاء في تلك القصيدة قوله :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها

(١) صفة رواية الأبيات من ديوان علي بن الجهم بتحقيق العلامة خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي .

تنصب فيها وفود الماء معجلة
 كأنما الفضة البيضاء سائلة
 اذا علتها الصببا أيدت لها حبسكا
 فحاجب الشمس أحيانا أيضا حكا
 إذا النجوم تراءت في جوانبها
 لا يبلغ السمك المحصور غايتها
 كالحيل خارجة من جبل مجريها
 من السبائك تجري في مجاريها
 مثل الجواشن مصقولا حواشيها
 وريق الغيث أحيانا يباكيها
 ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
 لبعث ما بين قاصيها ودانيها

والقصيدة طويلة فيها أجمل وصف لتلك البركة التي يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها الأربعة ١٢٥ متراً . وشاهدنا أيضاً مضماراً لسباق الخيل على شكل مستطوي وهو اجتماع أربع حلقات أو دوائر متقابلة حول مربع مركزي . فالخليفة ورجاله كانوا يجلسون في ذلك المربع ، والخيل تجري في الحلقات فتبعد عن المركز ستائة متر ثم تقرب منه وهكذا أربع مرات دون أن تغيب عن النظر . وطول المضمار الذي تقطعه خمسة كيلو مترات تقريباً .

ومما استوقف نظرنا في دار الخليفة حفرة كبيرة مربعة الشكل منقورة في الحجر في عمق عشرة أمتار وفي وسطها حوض للسباحة ، وفي كل جانب من جوانبها الأربعة ثلاثة إيوانات لا تزال زخارف الجص على بعضها ، ولا شك أن هذه الحفرة التي تقدينا فيها مع عدد من أصحاب (١) كانت معدة للتبرد أيام الحر شأنها شأن السرايب التي تكثر في العراق ولا سيما في النجف .

ومن دواعي الأسف أنه بعد انتقال دار الخلافة إلى بغداد تحطفت الناس ما حوته سامراء من رخام ومرمر وآجر وفسيفساء . لكنه لبث فيها كثير من زخارف الجص الذي كان يلصق على جدران البيوت . وهذه الزخارف وما فيها من تزاويق وتمازيم وتمازيج بعضها هندي وبعضها نباتي

(١) م السادة سعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، وساطم المصري .

الشكل هي من أسطح الادلة على عظمة تلك المدينة . وقد ملأت جانباً كبيراً من متحف الآثار العربية في بغداد . وهي أجمل من زخارف قصر الحير التي نقلت الى دمشق لكنها أحدث منها . وبين قصر الحير وسامراء قرن ونيف .

ولم تبق الأيام في بغداد على قصور العباسيين التي طالما قرأنا عن سعتها وعظمتها ونقوشها وزخارفها في كتبنا التاريخية . والقصر الوحيد الذي لبث جزء صغير منه قائماً بناء تسميه العامة « قصر المأمون » ، وهو في الحقيقة يرجع الى أواخر عهد العباسيين . وفي هذا القصر زخارف بديمة جداً من قطع الآجر المحفور والمنقوش على أشكال هندسية او نباتية . وقد اتخذ قسم منه متحفاً لذكرى فيصل الأول ، وقسم اتخذ معرضاً لصور الآثار العربية في أنحاء الأرض بغية تنمية ذوق الرياضة « فن البناء » على الطراز العربي الجميل .

ومن الآثار العربية التي زرناها في بغداد ، بدلالة الاستاذ الأثري السيد عبد الرزاق أمين المتحف العراقي ، المدرسة المستنصرية الشهيرة التي بناها المستنصر بالله العباسي في أوائل القرن السابع من الهجرة . وهي متخذة دائرة لمكوس بغداد منذ أيام الدولة العثمانية . وقد بنى السكان أبنية ودكاكين كثيرة على قسم من بقاياها . وأجمل ما تبقى من زخارفها يراه المرء على طاق ايوان كان أحد السوقه جاعلاً اياه فرناً للخبز و « الكعك » الى عهد قريب .

ومن آثار العباسيين باب خراسان ، والبرج الذي يسمى « البرج الوسطاني » ، وقد اتخذ اليوم متحفاً للأسلحة . وهو من أبواب سور بغداد . ولا بد لمن يرحل إلى عاصمة العراق من مشاهدة مأذنة سوق الغزل لقدمها « القرن السابع من الهجرة » وارتفاعها ، والجامع الذي يرقد فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وجامع الحيدر خانة حيث كان

يجتمع الشعب في الحوادث السياسية الهامة . وقباب معظم جوامع بغداد مكسوة بالقاشاني البديع .

ومن الابنية القديمة في بغداد خان مرجان وهو بناء عربي جميل بني في القرن الثامن من الهجرة وأصلح حديثاً واتخذ متحفاً للآثار العربية . وأهم محتوياته الخزاف الجصية الفتانة التي نقلت من سامراء . وقد علق على جدران بهوه صور وخرائط عديدة مفيدة ، كما أن بمض غرفه قد اشتملت على أضرحة ومحاريب وأبواب خشبية وأوان من فخار وأوان من نحاس ومقدار من النقود القديمة .

ولم نتمكن من زيارة الآثار التي بقيت من مدينة سومر وأكد وآشور ، لكننا زرنا بابل الشهيرة وهي تقع على ٩٥ كيلو متراً جنوبي بغداد . وأطلالها الباقية لا ترجع إلى أيام الأكديين ، ولا إلى عهد العموريين الذين منهم حمورابي ، بل ترجع الى أحدث من أيام تلك الدول ، أي الى أيام الدولة الكلدانية التي عاشت في الألف الأول قبل الميلاد . وكان منها نيوبولاسر وبختنصر الثاني (٦٠٤ - ٥٦١ ق . م .) . ولم تبق حوادث الدهر الا دمناً من قصور بابل وأسوارها وبرجها وحدائقها المعلقة وأهم ما فيها الأسد البابلي ، وهو تمثال أسد قائم فوق رجل ممدد ، وكلاهما من صخر أصم ، ومما فيها أيضاً باب اشترار وما على جدرانه من أسود وثيران وتنانين مغطاة بالميناء . وقد بنت مديرية الآثار متحفاً صغيراً في خرائب بابل حوى مصورات جميلة لما كانت عليه تلك المدينة في أيامها السالفة .

ولا بد لمن ينبغي الاطلاع على آثار أقدم مدينة عرفها البشر ، من زيارة المتحف العراقي في بغداد . ففي هذا المتحف من نفائس مدنيات سومر وأكد وبابل ما يبهر النظر . فكثير منها يرجع عهده الى الألف الرابع والألف الثالث قبل الميلاد . وقد كانوا في تلك الأيام السحيقة ينقشون في الحجر والنحاس ، ويصنعون التماثيل والفسيفساء ، ويصوغون

الذهب والفضة حلياً وتماثيل جميلة ، وينزلون فيها حجارة كريمة . وكان النساء يتزينن ويتبرجن كما في أيام الناس هذه . ومما استوقف نظرنا معزف خشبي محلي بالذهب والصدف واللازورد وجد في المقبرة الملكية في أور ، وخوذة من الذهب الخالص عليها نقوش تحيط بالشعر ، وعدد كبير من الحلي على أشكال شتى كالاقراط والخواتم والقلائد كلها من ذهب ، وكثير منها مرصع بالأحجار الكريمة ، ومجموعة من الاختام ومن الخناجر الذهبية ، وأحد الخناجر له غمد من ذهب مزخرف الخ . وفي الحقيقة أن نفائس المتحف العراقي شيء كثير . ومن الصعب تصوير صورة لهذه النفائس في محاضرتنا هذه . وحسبنا أننا ألمنا بها إلاما .

* * *

نهضة العراق الحديثة

لعل أهم ما في العراق استقلاله وخلوه من جيش أجنبي إلا في مطارين . فقد قضت معاهدته الأخيرة مع انكلترا ، وهي المؤرخة في ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠ ، بأن لا يكون لها فيه سوى مطارين بعيدين عن المدن ، الواحد في سن الذبان ، بين الرمادة والفلوجة غربي الفرات والثاني في إحدى جهات البصرة . ومما يلهمه الانسان في الوزارات وفي الجيش العراقي وفي القوة الجوية الملكية وفي الشرطة وفي المدارس وفي سائر دوائر الحكومة أن السلطة فيها لا يبناء العراق دون سواهم ، ولهذا يستطيع المرء أن يجزم أن العراق يمارس السيادة الداخلية والخارجية شأنه في ذلك شأن البلاد المستقلة . والمستشارون البريطانيون ، على ما قيل لي معلمون يرشدون إذا استشيروا ولا سلطة تنفيذية لهم ، ولهذا يطابق اسمهم المسمى ، والقضاة الانكليز الذين قضت المعاهدة بوجودهم يتقنون العربية ، ولذلك تكون المرافعة امامهم بلسان الضاد . والسفارة الانكليزية في بغداد لا تهتم بغير ما ورد في المعاهدة

من مصالح بريطانيا الجوهريّة . ولو أرادت التدخل في شؤون العراق الداخلية لثنتها عن ذلك قوة شكيمّة العراقيين . ومن المعروف ان الانكليزي متى قبّع في برجه العاجي فهو لا يزعج نفسه إلا إذا مُست مصالح امبراطوريته الحيوية بسوء وفي هذه الحال يكون له تدخلات وتتمرات عجيبة . وممارسة الاستقلال أوجدت في العراق رهطاً من رجال السياسة ورجال الدولة ومديري الدوائر الحكومية ممن تمرسوا بالأعمال الداخلية والخارجية وتعلّموا تحمل تبعات الأمور الجسام . وقد كانت الأعمال الحكومية في بادئ الأمر تقع على عاتق الضباط الأشاوس الذين اشتركوا في الثورة العربية في الحرب الماضية . وما برح الأحياء من هؤلاء السادة يعدون في طليعة رجال الدولة العراقية . لكنه نشأ اليوم عدد من الشبان والكهول الخالصين ممن برهنوا على ذكاء وكفاية في تصريف شؤون الحكومة . وأعتقد أن العراق يبني للمستقبل في هذه الناحية الهامة من نواحي النهضة ، ويتخذ الوسائل التي تهيء للقطر في مستقبله البعيد رجال دولة قديرين مخلصين .

وقد استقرت الأوضاع السياسية في العراق منذ أيام الملك فيصل على شكل دولة ملكية دستورية ثابتة الأركان . والتف الجميع حول فيصل وذريته ، وهم فوق التحزبات السياسية وفوق الغايات الفردية ، كما أنهم رمز استقلال البلاد ورمز مجدها وعظمتها . وهذا ما يجب ان يكون في كل شعب يشعر بواجبه تجاه رئيس دولته المستقلة .

ولئن سمعنا من حين إلى آخر بمحوادث سياسية داخلية فهي لا تتجاوز أبواب الأحزاب ، ولا تتناول الأسس التي يقوم عليها استقلال العراق . وجميع من عرفت من رجال الدولة وأركان الجيش ، أيّاً كانت آراؤهم الفردية ، يلتقون دائماً عند تلك الأسس ، ويدافعون عنها بالنفس والنفيس وتقوم الفكرة العربية في العراق على أساس قويم : وهو من حيث السياسة التمسك بالقومية العربية ، والعمل على تساند بلاد العرب اقتصادياً

وثقافياً ودفاعياً ، على شكل عصبة دول عربية متآزرة ريثما يتاح اتحادها .
 أما من حيث الثقافة فلا أساس الذي تقوم عليه الفكرة العربية هو أولاً
 التمسك باللغة الضادية وتراثها الأدبي والروحي ، ثانياً اقتباس المفيد من
 علوم الغربيين الحديثة ووسائلهم المادية وأساليبهم في العلم والتفكير . ثانياً
 الاحتفاظ بالسليم من عادات العرب وأخلاقهم ، كالاحتفاظ بالأسرة ،
 واحترام الصغير للكبير ، والدفاع عن العرض ، والشتم وإيذاء الضيم والكرم
 والنجدة وأمثالها من الصفات الحميدة .

ومما يدعو الى الارتياح كون مبادئ الفكرة العربية تبث في أنحاء
 العراق على شكل منتظم سواء في مدارس الحكومة ، أم في نوادي الجمعيات
 القومية كنادي المثنى ونادي الجوال ، أم في الجمعيات الرياضية كالكشافة
 وأمثالها ، أم في جمعية الشبان المسلمين حيث اتساع أفق العمل لا يحول
 دون بث المبادئ القومية الصحيحة . ولا يوجد في العراق قوة داخلية
 أو خارجية تستطيع التأثير في اتجاه الحركة القومية أو تستطيع عرقلة
 سيرها المستمر . فالشيعة والسنة العرب « وهما الأكثرية الكبرى » سواسية
 بالوطنية العربية الراسخة . وأكراد شمالي العراق « وهم سبعمائة الف ونيّف »
 يشعرون بأن ما يلقونه في العراق لا يجدونه في بلاد أخرى . فكيانهم
 ولسانهم وعاداتهم كلها محترمة . وهم يعدون مع سائر العراقيين أبناء وطن
 واحد في الحقوق والواجبات . ومن أسهل الامور عندهم وأدعاها إلى
 اغتباطهم تثقفهم بالثقافة العربية ومشاركتهم العرب في خدمة وطن هو
 وطن الفريقين . وقد ألف الكرد الثقافة العربية منذ قرون . وخدمها
 بعضهم خدمات معروفة في التاريخ . أما المسيحيون في العراق فمددهم اليوم
 نحو مائة الف نسمة ، ومعظمهم ساميون استعربوا منذ القديم ، وشاركوا
 المسلمين في اتجاهاتهم القومية سياسياً وثقافياً . وأما يهود العراق فعددهم
 ثمانون ألفاً تقريباً وهم يسكنون العراق منذ زمن طويل ، وليس لهم فيه
 مطامع سياسية على ما يقولون . وهمهم الأكبر أن يظلوا محتفظين بمركزهم

المالي والتجاري ، وهو حال أو هو احتكار لا يجوز بقاؤه . وخمسة
أسداس سكان العراق عرب والسدس أكراد وأتراك . ولا يزيد الاتراك
على ٦٥٠٠٠ نسمة أي على واحد ونصف في المئة من مجموع السكان . ويتضح
من ذلك أنه لا يوجد داخل العراق عناصر ذات شأن تجسد الفكرة
العربية أو تكيد لها . ويشعر كل عربي يحل العراق بأنه في بلده .
وقد ذكرت أن الحكومة العراقية هي التي تهيمن في مدارسها على
ثقافة الأحداث ، وهي التي تطعمهم بطابع الثقافة العربية الشاملة . أما
الجيش العراقي فهو يبيت فيهم بعدئذ فكرة الايثار والتضحية والعمل
جماعات منظمة مطيعة في سبيل الأمة والوطن . ويكون عمل الجيش
إما في الثكنات ، وإما في المدرسة العسكرية ، وإما في جماعات الفتوة في
مدارس التجهيز حيث شاهدنا ضابطا يدرّس في أحد الصفوف ، وشاهدنا
مستودعا فيه لكل تلميذ بندقية وحرية ومجموعة من الأدوات العسكرية .
وهكذا يخرج كل تلميذ من مدارس التجهيز « أو من المدارس العليا »
وهو ضابط احتياطي في الجيش العراقي الباسل . ومتى علمنا أن العراقيين
شجعان أشداء الشكيمة لم تخشهم رذائل المدينة الحديثة ، وعلمنا أن في
أعمال الري وفي تأسيس المعامل الصناعية متسماً لأن يزداد سكان العراق
أضعافاً ، أدركنا على الفور ما سيكون للعراق من شأن عظيم في
العالم العربي .

وفي العراق نهضة أدبية لمسناها في اجتماعنا إلى أعضاء نادي القلم ،
وهم عصبة فيهم السكاتب والشاعر واللايدب والعالم . ولا شك أنهم يمثلون
ناحية بارزة من نواحي الثقافة العامة في العراق . أما الصحافة فقد تقدمت
تقدماً محسوساً ، سواء من حيث المادة العلمية في الموضوعات التي تطرقها ،
أم من حيث لغة الكتابة . ومن الصحفيين نواب وأدباء ووطنيون صادقوا
الوطنية . لكن في العراق كما في الشام إقبالا على اتخاذ الصحافة مهنة
سهلة . ولهذا صار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر

وهو عدد كبير إذا قيس بعدد قراء الصحف في العاصمة العراقية وفي الأطراف . ومن المجلات العراقية التي أطلعنا عليها مجلة « المعلم الجديد » تصدرها وزارة المعارف ، ومجلة « العالم الاسلامي » تصدرها جمعية الشبان المسلمين . وأسفنا لاحتجاب مجلة « لغة العرب » لأسباب مالية . وهي المجلة العربية اللغوية المفيدة التي كان يصدرها العلامة الأب انستاس ماري الكرملي . ويقرأ العراقيون كثيراً بعض المجلات التي تصدر في مصر كالقطف والهلال والرسالة والثقافة .

وتجلى النهضة الرياضية في النادي الأولي العراقي وبنائه الكبير وملاعبه الحسنة ، وفي بناء السباق الفخم ومضماره الواسع ، وفي جماعة الكشافة والالعاب على أنواعها ولا سيما الكرة والتنس . وللرياضة شأن في مدارس العراق ، لكننا لاحظنا أن بنية عدد من تلميذات المدارس التي زرناها ضعيفة تدل على أنهن في حاجة إلى مزيد ساعات الرياضة البدنية . ولم أتمكن من درس النهضة النسائية وأهدافها وتقديمها ، إلا أنني لاحظت كون تعليم البنات ينتشر بسرعة ، وشاهدت عدة تلميذات يدرسن في دار المعلمين العليا ومعهد الطب والحقوق . ووقفت في قاعة التشرييح بمعهد الطب أمام طالبة عاكفة على رأس ميت تنكت أجزاءه بمشط في يدها . خدقت في وجه الطالبة أترسم الخوف أو الاشمئزاز في ملاحظيها ، وإذا بها باسمه كأنها تقشر تفاحة ! ولعلها خشيت أن أكون أنا المصاب بالخوف أو الاشمئزاز ! .

وذكر لي من ثقتهم أن المرأة العراقية تقدمت كثيراً في تفكيرها وثقافتها ، منذ أخذت مدارس البنات تنتشر ، ومنذ سهلت وسائل الانتقال في السنين الأخيرة . والحجاب في العراق كالحجاب في الشام لا يوجد إلا في المدن . ومع هذا فقد كنت أرى عدداً من النساء يستمعن إلى كل محاضرة من المحاضرات الأربعة التي ألقيتها في ردهة المحاضرات التابعة لمعهد الحقوق ببغداد ، كما أنني كنت أرى عدداً كبيراً من النساء غير

المحجبات في الشوارع ودور السينما ، ولاحظت أن عددن هنالك يفوق كثيراً عدد المتحجبات . ولا يمكنني أن أتبين دينهن لأن كل النساء يرتدين فوق ثيابهن عباءات سوداً جميلة على نسق واحد معظمها من حرير . ولا تقتصر النهضة العمرانية على العاصمة وحدها بل تعم سائر مدن العراق . ولقد شاهدت شوارع واسعة نظيفة وحدائق بلدية ودوراً جميلة في المدن الصغيرة التي زرتها أو مررت بها كالنجف و كربلاء والحلة والرمادة وغيرها . وقيل لي إن في الموصل حديقة بلدية من أجمل الحدائق ، وان فيها شوارع نظيفة عريضة مزفتة .

وبعد ، إن العراق ابن عشر سنين أو عشرين سنة في الفرط ، ولهذا لم يبلغ إلى اليوم أشده ، ولا يزال أمامه متسع للعمل في نواحي الحياة العامة ولا سيما فيما أشرت إليه من أعمال الاسقاء ورفع مستوى الفلاح « بإيجاد الملكية الزراعية الصغيرة وتحسين وسائله الصحية » والعمل في تجارة البلاد وسائر اقتصادياتها . لكن العراق عرف الطريق القويم فبدأ يسلكه . وهو اليوم يسير إلى الأمام بخطى واسعة مردداً قول القائل :

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

دمشق : شباط سنة ١٩٤١ .

الأندلس

«عبرة وذكري»

لدأستاذ عارف النكدي

ما ذكرت الاندلس مرة إلا امتلكت نفسي بهجة وخبعة ، ما تزالان
بي تتجاذبان دمة من عيني حتى أرسلها ، وأنا بعد لا أدري أجذلاً
أرسلتها أم جزوا .

وكيف لا أجتدل وذكري الاندلس تعود بصاحبها الى السنة الثانية
والتسعين للهجرة ، إذ نحن والامر أمرنا ، وإذا الوليد ، وقد ربض
في هذه العاصمة : دمشق ، ربضة الأسد ، وانتشرت ولاته فيما فتحه
العرب من البلاد شرقاً وغرباً ، فكان منهم على افريقية (١) موسى بن نصير ،
وتأبى على موسى همته أن يقف دون الفتح بحر ، فيغزي مولاه طريفاً
اسبانيا فيلم بها إماماً ليناً لا يتعدى ما يعرف الى اليوم بمدينة طريف
أو طريفة كما يقول الاسبان . فبيعت موسى ثانية جيشاً أكبر ، يعقد
لواءه لمولاه طارق بن زياد ، فيكون طارق فوق ظن مولاه به ، يواقع
الجزيرة ويظهر على صاحبها ، ويهزم جيشه الضخم ، ويتبع فلوله حتى
يقضي عليها ويتوغل في البلاد غازياً فاتحاً ، فتعنو له مستسلمة صاغرة ،
ويحتاج هذا الفتح طامعية موسى فيأمر طارقاً بالوقوف ، حيث انتهى به
الفتوح ، ويمتاز بنفسه البحر في جيش لب ، فيمضي في الفتح ، وقد
جعل هدفه القسطنطينية يقطع اليها البلاد فاتحاً حتى يعود الى المشرق
عن طريقها .

(١) افريقية لفظ أطلقه العرب على المغرب الانهوى عامة وتونس منه خاصة لا كما
يطلق اليوم على القارة بجملةا .

وتنتهي الولاية في هذه الجزيرة الى عبد الرحمن الغافقي فيجتاز جبال البرانة أو الثنايا ويصل إلى تور^(١) وهي في قلب مملكة شارلمان .
أيلام العربي مع هذه الذكري ، إن هو أخذته عظمة الماضي فنتسي
لمحة من اللحاح انه ابن هذه الائمة العربية المستضعفة اليوم لكل جيل ،
المستعمرة في كل قطر ، فذهب به التيه بهذا المجد الغابر ، حتى خيل اليه
انه يسير في جيش الفتح ، يسمع قمقمة السيوف ، وجرجرة الرماح ،
وعجاجة المجاهدين .

* * *

ثم كيف لا يتقطع القلب حزازة ، متى رجعت الذكري الى ما
كان من فشل هذه الغزوة ، وكيف ملأ قومنا أيديهم بالغنائم فشغلتهم
عن الحرب ، وعن كل تفكير إلا فيها ، فأصيب صاحبنا الغافقي إصابة كانت
فيها روحه .

ثم كيف تفرق العرب في الاندلس نفسها وتنازعوا الرئاسة فانشق
الاخ عن أخيه ، وثار الابن على أبيه ، ففشلوا وذهبت ريحهم . استسلموا
لعدوهم فراراً من الموت ، فوقعوا في العار وفي الموت .
ماترك الاسبانيول حيلة في الظلم والتفطيع الا أوقفها بهم . حرّقوا ،
وغرقوا ، وبقرت بطونهم ، وسملت عيونهم ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ،
واستعبدوا وأذلوا ودجنوا . ثم انهم أزعجوا عن ديارهم - إلا من
بدل دينه تبديلاً صحيحاً - فخرجوا خروج الغريب عن البلد الغريب .
أذكر هذا فأحس في قلبي وقع هذه المظالم ، وأسمع بأذني
أبا البقاء يقول :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وانهد شهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطار وبلدان

(١) عاصمة مقاطعة تورنيا على ٢٣٦ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من باريس .

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
 وأين قرطبة دار العلوم فكم
 وأين حمص وما تحويه من زه
 قواعدكن أركان البلاد فما
 وأين شاطبة أم أين جيان
 من عالم قد سما فيها له شان
 ونهرها العذب فياض وملاّن
 عسى البقاء إذا لم تبق أركان

* * *

يا من لذّة قوم بعد عزهم
 بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
 ولو رأيت بكاهم عند بيهم
 يارب أم وطفل حيل بينها
 وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت
 يقودها العليج المكروه مكرهه
 لمثل هذا يذوب القلب من كدر
 أحال حالهم جور وطغيان
 واليوم هم في بلاد الضد عبدان
 عليهم من ثياب الذل ألوان
 لهالك الامر واستهوتك أحزان
 كما تفرق أرواح وأبدان
 كأنما هي ياقوت ومرجان
 والعين باكية والقلب حيران
 إن كان في القلب اسلام وإيمان

الأممي أنت بعد ، إذا أنا لم أدر أدمعة الجزل أرسلت أم دفعة الجزل ؟
 بلى لقد صدق أبو البقاء ، فما لمصاب العرب بالاندلس عزاء ، ولا لجرحهم
 فيها شفاء ، وأنى يكون ذلك والخطب منقطع النظير ، خص العرب وعم
 الانسانية جماء .

وإذا كان العرب قد تركوا التفجع والتوجع فما فعلوا ذلك لبعده
 الصقع ، والعربي الحق يرى في كل بلد عربي موطناً له ، ولا لبعده
 العهد ، وأربع مئة سنة ليست في التاريخ شيئاً ، فتنبى بلداً كالاندلس
 عمره أجدادنا ثمانية قرون كاملة فأنشأوا فيه حضارة عزّ مثلها ، فكانت
 إحدى مفاخر العالم على وجه الدهر .

كلا لا هو بعد الشقة ، ولا هو بعد العهد ، أنسي العرب ذلك العهد ،
 ولكنها المصائب ترى آخذاً بعضها برقاب بعض ، الهت كل قطر عن غير

نفسه . فأبي بلد عربي وليس فيه جراحة ما تأتي تمض أحشائه ،
وتنتقص أجزاءه ، حتى شغلته عن البكاء على أمسه بالبكاء على نفسه .
« يبكي ومن شر السلاح الأدمع »

واسننا من المبالغة في شيءٍ إن نحن فلنا ان حضارة العرب في الاندلس
كانت إحدى مفاخر العالم وان مصاب العرب بها عم الانسانية جمعاء .
فمن كان قد علق بذهنه شيء مما تمليه ارساليات الغرب في تصغير
شأننا ، وتهوين أمرنا فداخله شك في كلمتنا ، فليرجع الى ما وصف به
المؤرخ الافرنسي « لافاله Lavallée » مدينة الاسلام باسبانية وما أتى به
من بيان مزايا العرب هناك في الصناعة والزراعة والغراس والبناء ، ووصف
قصر اشبيلية ، وحمراء غرناطة ، وجامع قرطبة ، وخصائص الهندسة
العربية ، والزخرف الشرقي ، وأسلحة الاندلسيين . وقد قرر أن العرب
هم أول من استعمل المدافع النارية في اوربا ، وانهم هم الذين هدوا
الاوربيين إلى صناعة البارود ، وعرفوهم بصناعة أخرى أشد تأثيراً في
الاجتماع الانساني وهي عمل الورق .

قال : « وانهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين وبلغوا الدرجة القصوى
من الحضارة ، حينما كان أقرانهم ملفوفين في حنادس الجهالة والبربرية ،
فكانوا فوقهم في العلم ، ومثلهم بالبأس ، وكانوا حكاماً في المجالس ، أشداء
في المآزق ، (١) .

ثم ألق بسمعك الى ما يقوله « كولوود فرّار Claude farrère » عن
هذه الحضارة ، في مقدمة العباسية أخت الرشيد نقله كلمة كلمة :

« أناخت على الانسانية في السنة الثانية والثلاثين بعد السبعمئة الميلاد
كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ، تجبّط من جرائمها العالم

(١) خلاصة تاريخ الاندلس الامير شكيب ارسلان ص ٣٦٥ .

الغربي سبعة قرون أو ثمانية قرون بل تزيد ، في لجة من الهمجية ، بدأت « النهضة » تقشع ظلماتها ، فعادت حركة « الإصلاح » تزيد فيها من جديد . هذه السكارثة التي أريد أن أحتقر ذكرها ، هي ذلك النصر الهائل الذي أحرزته غير بعيد عن « بواتيا » جماعات « الهركاس » المتوحشين من مقاتلة « الفرنك » يقودها شارل مارتال الكولونجيماني على فريق من العرب والبربر فشلت لأن الخليفة عبد الرحمن ؟! أخطأ فلم يحشدها أكثر مما كانت عدداً . في هذا اليوم المشؤوم تهقرت الحضارة ثماني مائة سنة . وحسب الانسان أن يكون قد تنزه في جنائن الأندلس ، أو خطر بين أطلال لاتزال بعد تبهر الابصار ، من عواصم السحر والخيال التي كانت عليها اشبيلية وغرناطة وطليطلة ، ليتراءى له في شيء من الدوار المعجب ما كان يمكن أن تصل اليه فرنسا ، لو أن الاسلام الصناعي الحكيم الرصين المتسامح — إذ الاسلام هو كل هذا — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا تجد لها اسماً اجتاحت بعد ذلك الغول القديمة : استعبدها باديء الامر « الاوسترازيان Austrasiens » اوائك السلابون الضواري ثم اقتطع القرصان النورماند « Normandes » أول قسم منها . تم تجزأت وتمزقت وغرقت في بحور من الدماء والدموع ، وأخلتها الحروب الصليبية من السكان ، وملاؤها الحروب الخارجية والاهلية جثثاً ، كان ذلك يوم كان العالم الاسلامي يتمتع بلذة السلم من نهر وادي الكبير الى نهر الهندوس ، في كنف الخلافت الاسلامية الاربع : الأموية والعباسية والسلجوقية والعمانية .

وإذا كان « فرّار » ختم مقالته ذاهباً مذهب الخيال والاعتراف ، في السلم الذي وصفه في ظل الخلافة ، فلقد كان مؤرخاً حقاً وهو يتغنى بمحضارة الأندلس ، وكان مخلصاً صادقاً وهو ينعي على قومه أن يفخروا

بيوم « بواتيا » اليوم الذي تراجعت فيه جيوش العرب مندحرة ، فصدمت الحضارة العربية صدمة لم يكن من مصلحة العالم المتمدن أن تكون .
بل مالنا ولما قاله « لافاله » المؤرخ الفرنسي الخطير ، وما كتبه « فرار » الكاتب الفرنسي الكبير ، ولنعود الى ما كان من الاسبان أنفسهم في الفترة الأخيرة .

فالاسبان وهم الذين لا يفتأون يحتفلون باليوم الثاني من شهر كانون الثاني ، وهو اليوم الذي في مثله من سنة ١٤٩٢ خرج أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر من عاصمة الاندلس ، ذلك الاحتفال الفخم ، فتقرع فيه أجراس كنيسة الحمراء أربعاً وعشرين ساعة قرعاً متواصلاً .

هؤلاء الاسبان أنفسهم قام منهم نفر من علماء المستشرقين ، تحلوا من قيود التعصب ، فزغوا ما ألقاه على أعينهم من غشاوة ، فاذا هم يبصرون تلك الحضارة العربية الفتانة ، وما فيها من عظمة وفن وجلال ، فتعجبهم صباة منها ، أبقت عليها نزعات الجهل القديم ، والتعصب اللزيم ، فاذا بها الى اليوم مفخرة اسبانيا الكبرى ، ومورد من موارد الرزق فيها .

وبينا الاسبانيون يحتفلون بذكري جلاء العرب عن بلادهم ، شفاهاً لنزعة التدين ، وقضاءً لحق الوطنية ، ينهض هذا النفر فيحتفل بذكري قيام الخلافة الأموية بالاندلس تقديراً للجهود الانسانية ، وإعجاباً بالحضارة العربية .

أليس حقيقياً أن نتحدث إليكم على ذكر هذه الحفلة يقوم بها أعداء تاريخنا بالامس ، وأصدقاء حضارتنا اليوم ؟ بكلمة عن هذا البلد الطيب تكون كالعبرة والذكري ليس إلا . أقول عبرة وذكري ، ذلك اني لا أطمع أن أقف فيكم موقف المؤرخ ، والكلام عن الاندلس حديثه وقديمه ، عربيه وغربيه ، ملء الكتب وملء دورها ، فهل من سبيل الى غير مكرر ملول ؟ واذا كان من حاجة لمزيد في ناحية من نواحي تاريخ هذا

القطر ، أو في ما كان فيه من علم وأدب ، وصناعة وزراعة ، وسائر مقومات العمران ، أو كان في رجال هذا القطر ودولاته وسياسته ماتقضي غوامضه شيئاً من النور يكشف عن أسراره ، فهذا ما لا تتسع له المحاضرة والمحاضرتان ومن حق رجال التاريخ أن يفرّدوا لكل فرع من هذه الفروع التي أشرنا إليها كتاباً قائماً برأسه ، بل في رجال الاندلس من يستحق أن يؤلف فيه الكتاب المستقل .

أما أنا ، فأكتفي بالعبارة أبسط فيها دخولنا الاندلس وخروجنا منه ، وقد توافقت فيها الأسباب ، واتحدت العلل في القبيلين العرب والاسبان ، وبالذكري أعيد عليكم فيها لمحة موجزة عن هذا التاريخ تكون كالفدلكة لهذه القرون الثمانية التي عمرنا فيها هذا القطر . نسرّد فيها الأحداث الخطيرة ، ونسلسل أدوار الحكم ، بما يمكن حفظه .

ولعل الموضوع يكون أقرب تناولاً ان نحن قسمناه الى خمسة أدوار ، نهد له بمجمل تاريخي جغرافي عن الاندلس العربية وتاريخها القديم ، أما الأدوار الخمسة فهي :

- ١ - الفتح وأسبابه .
- ٢ - الحكم الأموي .
- ٣ - ملوك الطوائف .
- ٤ - حكم أمراء المغرب المرابطين والموحدين .
- ٥ - الجلاء وأثر العرب في الاندلس وعاداتهم وأخلاقهم .

لمحة جغرافية

الاندلس أو فندالوسيا اسم مقاطعة من شبه جزيرة « الپيرانه » سميت فندالوسيا أو فندالوشيا باسم الفندال « Vandales » وهي أمة نزلت شبه هذه الجزيرة في أوائل القرن الخامس . مح (٢٤)

وقديماً عرفت هذه المقاطعة بـ « بتيكيا » « Bétique » باسم هر « Bétis » الذي رويها وهو وادي الكبير اليوم .

مساحتها ومسورها :

طول هذه الجزيرة من رأس بنياس في استورياس « اشتوريش » شمالاً الى رأس طريف في بوغاز جبل طارق جنوباً ٥٤٠ ميلاً ، ومعظم عرضها من رأس كروس في قطلونية شرقاً إلى قرب رأس فينستر في جليقية غرباً نحو ٦٣٠ ميلاً .

ويحدها من الشمال سلسلة جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا وهي بمثابة برزخ عرضه ٢٤٠ ميلاً وبمجر بسكي المسمى ببحر فرنسا ومن الغرب الاوقيانوس الاطلنطيكي ومن الشرق والجنوب البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين أفريقيا .

وتقدر مساحة هذه البلاد وما يتبعها من جزر متممة لها بنحو ستمائة الف كيلومتر مربع « ٦٠٠٠٠٠ » منها اليوم لاسبانيا « ٥٠٤٥٢٠ » كيلومتراً و « ٩٢١٥٧ » للبرتغال .
ويقول جغرافيوننا أن مسيرة دورها أكثر من ثلاثة أشهر ليس فيها ما يتصل بالبر الى مقدار يومين .

معادنها :

وأرضها غنية بالمعادن ، منها : الرصاص ، والزنبق ، والتنك ، والحديد ، والفضة ، والنحاس ، والملح ، والفحم ، والرغام ، وحجر الدم . وقديماً استخراجها منها الذهب .

هوائها :

يختلف باختلاف أقاليمها فمنه الحار والمعتدل والبارد .

لمحة تاريخية

دخل الفينيقيون هذا القطر سنة ١٠٠٠ قبل المسيح ، فأنشأوا في سواحلها مستعمرات عديدة منها : طرطوشة « Trtessus » وقادس . ثم تبعهم اليونان فبنوا أيضاً عدة مستعمرات منها : أمبورية على ساحل قطلونية ، وساغونتم « مربيدرو » في بلنسية . وظل داخل البلاد مجهولاً لم يعرفه الرومان الا في الحرب البوثيقية الثانية .

وأطلق اليونان على الساحل الشرقي اسم ايبيريا ، وسموا القسم الغربي من شبه الجزيرة ترشيش وأوسطها كلتيكا ثم توسعوا بعد ذلك فأطلقوا لفظ أيبيريا على البلاد كلها ثم سماها الرومان اسبانيا^(١) .

ومن أمم اسبانيا القديمة الاستوريون « Asturiens » كانت مواطنهم في أستورياس « Asturie » والقسم الشمالي من مملكة لاون ، وكانت قاعدة بلادهم « أستوريكاوغسظا » وهم آخر من خضع للرومان .

أما أول من عرف من سكان هذه الجزيرة فهم القلطبريون « Celtiberiens » وهم خليط من القلط « Celtes » والايبر « Ybéres » ثم أنشأ الفينيقيون واليونان على ما قدمنا مستعمرات وأسواقاً تجارية « وكالات تجارية » على شواطئ هذه الجزيرة . وفي القرن الخامس امتدت إليها سيادة قرطاجة « Carthage » الى أن تغلب عليها الرومان وظلوا أصحاب السلطان فيها الى أن غزاهم الهيلانيون « Alains » والسواف « Suaves » والفندال « Vandales » سنة ٤٠٩ ، وفي ذلك العصر أيضاً أنشأ فيها

(١) قيل اخذ هذا الاسم من لفظة « شافان » السامية ومعناها الارنب لكثرة ما وجد الفينيقيون منه في هذه البلاد . وقيل من لفظة « ازبانيا » البسكية ومعناها شاطي .

الفيزيقيوط « Wisigoths » دولة عظيمة ما زالت قائمة إلى أن قضى عليها العرب يوم استولوا على الاندلس في تموز من سنة ٧١١ بعد معركة شريش أو شدش « Xérés » كساريس .

ملك العرب :

دخل العرب اسبانيا فأطلقوا عليها اسم الاندلس ، إذ كانت هذه المقاطعة أول ما استولوا عليه من شبه هذه الجزيرة ، وغلبوا عليها اسم الجزيرة على اتصالها بالبر - كما سميت شبه جزيرة العرب أيضاً جزيرة . وبسط العرب ملكهم على هذه الجزيرة جزرها ويابستها ، ساحلها وداخلها ، شرقها وغربها ، إلا جزءاً يسيراً من الغرب الشمالي قرب خليج غاسقونيا في ولايات جميلة يسميها الاسبان استورياس ، وسموها العرب اشتورش والصخرة .

عمر السطان :

ليس عندنا ما نعول عليه في عدد سكان الاندلس أيام العرب فقد أوصله بعضهم إلى العشرين مليوناً وهذا عدد نشك في صحته وان قيل « انه بلغ من عمران الاندلس ان كان على وادي الكبير أربعة عشر الف قرية حتى كان المسافر لا يكاد ينقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحاري معدومة » .

الفتح :

قلنا : ان موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على افريقية ، أغزى مولاة طريفاً الاندلس ، فسار في اربعة مراكز فيها اربعمائة رجل

ومئة فارس ، فنزل في موضع سمي به (١) على المضيق الذي عرف بعد ذلك بمضيق جبل طارق فأغار وأصاب شيئاً ثم رجع وذلك سنة ٩١ هـ .
وفي سنة ال ٩٢ بعث موسى مولاة طارقاً في سبعة آلاف (٢) جهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا القليل . فنزل طارق جيلاً منيعاً على شاطئ البحر يعرف إلى اليوم به . وجعلت السفن تختلف بالرجال والحيل حتى توافى إليه جميع أصحابه .
قبل وكان في جيش طارق بوليانوس أحد رجالات اسبانيا (٣)

- (١) طريف او طريفة ثغر اسباني حصين على مضيق جبل طارق سكانه اليوم ١٢٥٠٠ فيه حصن منيع بناه العرب تسكنه الاسوار المنيعة والاراج . وفي البلدة داخل السور ثغر مغربي اتخذوه الآن سجناً . وظلت طريف في حوزة العرب الى سنة ٦٩١ — ١٢٩٢ . وفي ايام العرب كانت السفن التي تجتاز مضيق جبل طارق تقف في طريف وتدفع رحماً ولهذا زعم بعض كتبة الفرنجة ان لفظة « Tarif » بمعنى التعرف بالفرنسية والانكليزية وما اشبهها في اللغات الاوربية مأخوذ من لفظة طريف لتقاضي رسم السفن فيها . وكانت طريف من اعظم ثغور العرب شأناً في تلك الانحاء بل كانت أم تلك الثغور وربيتها لمن تولاها على بحر الزرقاء اه « لاروس ودائرة المعارف العربية » .
- (٢) في دائرة المعارف العربية : ان طارقاً جاز في نحو ثلاثمائة فارس من العرب احتشد معهم من البربر نحو عشرة آلاف صيرهما عسكريين احدهما على نفسه ؟ ونزل به جبل الفتح وهو جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل به بمكان مدينة طريف ثم اداروا الاسوار على انفسهم لتحصن وبلغ الخبر رودويك فنقض اليهم بجيش يبلغ الاربعمين الفا فلقبهم في فحس شرير فهزمه طارق وطريف .
- (٣) في صيغ الاعنى الجزء ال ٥ س ٢٤٢ وبعض الكتب العربية : كان من سير الاعاجم ان يبعث اكبرم باولادهم ذكوراً كانوا او اناساً إلى ملك ليتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا انكح بعضهم بعضاً استتلافاً لأبائهم . وكان الذريق عامل على سبته من بر المدونة يسمى يليان ، وله ابنة فاتقة الجمال ، فوجه بها الى دار لذريق على طاعتهم في ذلك فوقع نظر لذريق عليها فأعجبته ، فاستكرهها على نفسها ، فاحتات حتى اعلمت اباه بذلك سراً . فشق ذلك عليه وحلف ليزيلن سلطان لذريق ، ثم تنطف حتى اقتلع بفته من بيت لذريق ، ثم لم يلبث يليان ان كتب الى موسى ابن نصير امير افريقية من جهة الوايدي بن عبد الملك يحرضه على غزو الأندلس وحثه على ذلك ووصف له حسناتها وفوائدها ما دعاه الى ذلك وهو من عليه امر فتحها ، فتوثق منه موسى ودعا مولى له كان على مقدمته يقال له « طارق ابن زياد » فمقدله وبعثه اليها في سبعة آلاف ، وهياً له يليان المراكب ...

في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ويتجسس لهم الأخبار .
 وبلغ الأمر رودريك « لذريق أو رزريق » ملك طليطلة فجمع
 جموعه والتقى بطارق في موضع يقال له البحيرة ، فانهزم رودريك . وسار
 طارق متبعاً لأصحابه الى مضيق الجزيرة فمدينة إستجة فلقية أهلها ومعهم
 من المهزمين خلق كثير ، فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزموا . ونزل طارق
 على عين بينها وبين مدينة إستجة أربعة أميال فسحيت عين طارق ، ومن
 إستجة فرق جيوشه على مدن الاندلس ، فوجه فرقة الى قرطبة ، وأخرى
 إلى رية ، وثالثة إلى غرناطة ، وسار هو في عظم الجيش يريد طليطلة
 ففتحت كلها وكذلك تدمير . وخلي طارق رجالاً من أصحابه وسلك الى
 وادي الحجارة واستقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق . فكان
 فتح الاندلس يوم الاحد في الخامس من شوال سنة اثنين وتسعين .
 وكتب طارق الى موسى بالفتح والغنائم ، فركته الغيرة وكتب الى
 طارق يأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يصل اليه .

استخلف موسى على القيروان — عاصمة ولايته المغربية — ولده
 عبدالله ونهض سنة ثلاث وتسعين ومعه حبيب بن منده الفهري في جيش
 غفير من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، قيل انه ١٨ ألفاً فآتم
 موسى الفتح متوغلاً الى برشلونة في المشرق وأربونة في الجوف ، وصنم
 قانس في الغرب ، ثم أجمع أن يأتي الى المشرق من ناحية القسطنطينية
 ويتجاوز الى الشام ويخوض ما بينها من أمم الأعاجم مجاهداً إلى أن
 يلحق بدمشق دار الخلافة .

وبلغ ذلك الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأي أن
 ما هم به موسى غرر بالمسلمين ، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسر إلى
 سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع موسى عن عزمه ، فقفل لذلك موسى

عن الانداس وولى عليها ابنه عبد العزيز وانزله بمدينة قرطبة وأتى القيروان سنة ٩٥ وارتحل الى الشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه

أصبحت الجزيرة كلها في يد العرب إلا ولايات جبلية أهمها اشتوريش وقنطيرية ونوارة التي لقبها العرب بالصخرة فانها دافعت عن استقلالها ولم يهزم العرب أمرها غفلوا عنها . فجعلت بلاجيوس ملكاً عليها ثم الفونس الاول الكاثوليكي من بعده فكانت هذه الصخرة الأساس الذي بنى الاسبان عليه ملكهم القومي أول فأول .

لقد أجمعنا حكاية هذا الفتح فبقي علينا أن نذكر علله وأسبابه ، وفي رأينا أنها تنحصر في عوامل اربعة :

(١) العوامل الطبيعية . (٢) العوامل السياسية . (٣) العوامل الاقتصادية (٤) العوامل الدينية . ونحن مجملون هذه العوامل من وجهتيها :
الاجابية والسلبية .

العوامل الطبيعية :

مجاورة الجزيرة الاندلسية لملك العرب في الغرب فلقد كان بين العدوتين مضيق لا يتجاوز عرضه في بعض المواضع اثني عشر ميلا « نحو ١٢ كيلومتراً » بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضاً ويتبينون زروعهم ويأدرهم . انكشاف البلاد للعرب وسهولة اجتيازها . هذا ما سهل الفتح ويسر نقل المقاتلة من العدو الى الجزيرة .

العوامل السياسية :

توحيد أمر العرب ، وتنظيم القيادة ، واعتيادهم على الجهاد ، وعدل أمراءهم ، واشتهارهم بذلك . ومن الجهة الاخرى تضعف حالة الاسبان

لانقسامهم بعضهم على بعض ، مقاطعة وقومية ، وتشتت آرائهم في انتخاب ملوكهم ، وقيام بعضهم من جزاء ذلك على البعض الآخر ، وخراب البلاد بالحروب الأهلية وظلم أولي الأمر فيهم ، وسوء ادارتهم ، وإسرافهم في سفك الدماء ، واضطهاد اليهود واستباحة أموالهم وأرواحهم .

ظهر أثر هذه العوامل في تحريض نفر منهم العرب على فتح البلاد وفي ضعفهم عن مقاتلة العرب وفي التحاق قسم منهم بالفاتحين يدلونهم على عورات البلاد ، وعود القسم الآخر عن مقاومة تذكر .

العوامل الاقتصادية :

جهل الأسباب استثمار أرضهم ، والمجاعة التي وقعت قبيل الفتح ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك الوباء الذي أصاب هذه الجزيرة في ذلك العهد فذهب بعدد عظيم من السكان قدره بالنصف .

ثم رغبة العرب والبربر بما يجره الفتح من الكسب والغنائم .

العوامل الدينية :

انشقاق الأسباب بعضهم على بعض دينياً .

ثم رغبة المسلمين في نشر دينهم وما نفثه هذا الدين في صدورهم من الإيمان بالقضاء والقدر .

هذا كله ساعد العرب على الفتح ، دع ما كان في صدور القواد من حب الشهرة . وهل وقف موسى طارقاً عن الفتح ، وعزمه على التوغل في بلاد الاعاجم الى القسطنطينية الا دليل على ذلك ؟

الحكم الأموي

يقسم الحكم الأموي في الأندلس الى ثلاثة عهود : الولاية - الامارة - الخلافة .

الولاية الاموية :

بدأت بالفتح سنة ٩٢ - ٩٣ وانتهت بامارة عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ . وأول وال عليها عبد العزيز ، ولها لأبيه موسى بن نصير على ما تقدم ذكره ، فثار به المسكر وقتلوه لسنتين من ولايته . وتتابعت ولاية الأمويين عليها تارة من قبل الخليفة بدمشق ، وطوراً من قبل عامله على القيروان . وكان مقتل الوالي الاول فتح باب اللدد على مصراعيه ، فظلت هذه الولاية ومدتها ست واربعون سنة وبضعة أيام ، مضطرباً للنزاع والصدام ، قل ان استقام لوال أمر ، أو طال له حكم ، حتى نيف عدد الولاية في هذه الفترة من الزمن على بضعة وعشرين والياً (١) .

(١) وهذه احماؤم مم اختلاف يسير في ترتيبهم :

من سنة الى سنة مدة ولايته

٩٥	٩٧	سنتان	عبد العزيز بن موسى
٩٧	سنة اشهر		ايوب بن حبيب اللخمي
١٠٠	سنتان وثمانية اشهر		الحر بن عبد الرحمن بن عثمان
١٠٠	١٠٢		السمح بن مالك الحولاني
		من قبل اهلها	الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله؟
			عبد الرحمن بن عبد الله الفافقي
١٠٣	١٠٧	اربع سنين واربعة اشهر « من قبل يزيد ابن ابي مسلم عامل افريقية »	عيسى بن سحيم
			عدرة بن عبد الله الفهري
١٠٧	١١٠	سنتان وستة اشهر « من قبل بشر بن صفوان السكبي عامل افريقية »	يحيى بن سلمة السكبي
١١٠	١١٠	خمس اشهر « من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية »	عثمان بن ابي نسة الخثعمي اللخمي
١١٠	١١١	سنة « من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية »	حذيفة بن الاخوص القيسي
١١١	١١٣	سنتان « من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية »	الميثم بن عبيد الكلابي
		—	

والسبب في ذلك مطامع الرؤساء ، وتضارب الأهواء ، ونزعة العرب إلى العصبية الجاهلية الاولى . فقامت القيسية واليمينية تتنازعان السلطان — والقيسية واليمينية حزبان كان لهما في تاريخنا الى أجل غير بعيد شأن خطير . كان عامل الاندلس منقطعاً به في أقصى ثغور المسلمين ، بعيداً عن قلب الدولة ومادتها ، فكان لا بد له من عصبية تؤيده في ولايته ، وتحتفظ له بها ، ولا تكون هذه العصبية مخلصه ثابتة ، الا اذا كانت منه ، وكان منها في عصبية واحدة . ففزع كل والٍ من ولاية هذا العهد إلى عصبية القيسي إلى المضرية ، واليمني إلى اليمينية . والعصبية تقتضي الرجل أن ينصر أخاه ظالماً ومظلوماً ، فخرج الوالي عن أن يكون حاكماً عاماً ، وأصبح

من سنة الى سنة مدة ولايته

محمد بن عبد الله الأشجعي	١١٣	١١٣	شهران
عبد الرحمن بن عبد الله العافقي	١١٣	١١٤	سنة وثمانية اشهر « من قبل عبيد الله بن الحجاب صاحب افريقية »
عبد الملك بن قطن للفهري	١١٤	١١٦	سنتان « من قبل عبيد الله بن الحجاب صاحب افريقية »
عقبة بن الحجاج السلولي	١١٦	١٢١	خمس سنين « من قبل عبد الله بن الحجاب صاحب افريقية »
عبد الملك بن قطن الفهري	١٢١	١٢٤	« من قبل نفسه ثأراً »
بلج بن بشر	١٢٤	١٢٥	سنة
ثعلبة بن سلامة الجذامي ؟			سنتان
ابو الخطام حمام بن ضرار السكابي	١٢٥	١٢٩	اربع سنين وتسعة اشهر « من قبل حنظلة ابن صفوان صاحب افريقية »
ثوابة بن سلامة	١٢٩		سنة « من قبل عبد الرحمن بن جبيب صاحب افريقية »
عبد الرحمن بن كثير			« من قبل اهلها »
يوسف بن عبد الرحمن الفهري			« من قبل اهلها »

زعيم عصبية ، يتصحب لذويه ، ويتحامل على أعدائهم . فكان من جراء ذلك أن انشقت الجماعة ، وهاجت الأحقاد ، وتقدمت الناس بأحزابها ، لا على أقدارها .

ومن طبيعة السياسة الحزبية أن تشتد معها العداوة ، وتستحكم البغضاء ، وأن يترصد كل فريق بصاحبه لوثبة يهتبلها منه ، فيُسدال له عليه ، القيسي من اليمني ، واليميني من القيسي ، وكان الأمر بينهما دواليك . وهزل الأمر حتى بلغ أن لا يكون للوالي حكم نافذ إلا على قومه ، الوالي القيسي يطبعه القيسيون ، وينحاز عنه اليمانيون ، واليماني يخضع له اليمينيون ، ويعصيه القيسيون . وزاد هذا الخلاف التيات أمر أمية بالشرق ، وتضعض أحوالهم فشغلوا عن قاصية الثغور ، بكثرة الخوارج . فبقي أهل الأندلس فوضى : فتن دائمة ، وولاية متداولة ، وحال لا تستقر من القلق . واتفق جنود الأندلس آخر الأمر أن يجعلوا الولاية في القيسية واليمانية مداولة بين الجندين ، سنة لكل دولة . فقدم المضرية على أنفسهم سنة ١٢٩ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، فاستتم ولايته بقرطبة . ثم وافته اليمانية لميعاد ادائهم ، واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفقهم ، فبيتهم يوسف في قرى قرطبة بممالة القيسية وسائر المضرية فاستلحموم ، وتمت الغلبة للقيسية في معظم أنحاء الجزيرة ، إلى أن كان من أمر عبد الرحمن ما نحن ذا كروه ، لهذا ، ولما انبعث عن ذلك من تبدل الولاية ، ظلت الولاية الأموية في الأندلس متناقلة ، غير متوارثة بين الآباء والأبناء ، على ما وقع من ذلك في كثير من الولايات الأموية ، ولا سيما ما بعدت الشقة بينه وبين دار الخلافة كالأندلس .

شغلت هذه الفتن ولاة الأمويين عن الفتح فلم تنهض بهم همة إليه ، إلا ما كان من فتوح عبد العزيز بن موسى . ثم عقبه بن الحجاج السلوي

الذي جاهد مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين في أيامه أربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة . والهيثم بن عبيد الكلابي غزا مقوشة فافتتحها .
والسمح بن مالك الخولاني نهض بالفتح إلى جنوبي فرنسا . وعنبسة بن سحيم مات — وقيل قتل — وهو على حصار تولوثة « تولوز » .
وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فتح قرقشونة ، ونيم ، وغيرها من جنوبي فرنسا ، واستولى على أرل ، وليون ، وزانسون وانتهى إلى تور .
وعبد الملك بن قطن الفهري غزا البشنكش « البسكة » .

وأكثر هؤلاء كان جهادهم في العدو أقرب بنتيجته إلى الغزو منه إلى الفتح . ومن بقي من هؤلاء الولاة لم يذكروا لهم غزو ولا فتح بل انشغلوا في أنفسهم ، وفي عصبياتهم ، وفي المجاحشة عن كراسيهم أو صحونهم عن لغة السياسة اليوم — عن الماضي فيما كان يريد موسى بن نصير أو في بعضه .

ونحن وإن لم نكن ممن يستهوننا تبسط ذلك الفتح إلى أبعد مما وصل إليه ، بعد أن ضاع الفتح كله ثمرة ونواته .
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر وبعد أن انتهت تلك الأقطار التي كانت تمتد تلك الجزيرة إلى ما انتهت إليه . غير أنا نود لو هذبت حواشي ذلك الفتح بتطهير مخارمه ومفازعه ، فلعل ذلك كان يكون أحفظ الملك ، وأبقى عليه ، وهو ما نشير في موضعه إليه .

موقف الاسبان :

ويتساءل الانسان بعد أن صورنا له هذا العهد ، عما كان من أمر الاسبان أصحاب البلاد الاصليين ، وقد رأوا هؤلاء الذين سلبوهم ملكهم منشقة كلهم ، منقسمين أحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً .

لقد كان فتح الاندلس أمراً خطيراً كان له دوي كبير ، فأصبح اسم العرب ملء الأسماع والأبصار ، فانصدت من جراء ذلك قلوب الاسبان ، وصغرت نفوسهم عن مقاومة العرب أول الأمر ، فلم يشجعهم هذا الخلاف الذي نجم بين العرب عن منازلهم وعهدهم بالفتح وبيأس العرب قريب . وأخرى هي أن العرب كانوا في حكمهم أعدل من الاسبان ، فلم يكن ينال الاسبان الذين تقيأوا ظل الحكم الاسلامي وبقوا على نصرانيتهم ، شيء من الظلم الذي كان ينالهم أيام حكم امراءهم المسيحيين ، وللعدل روعة في النفوس وجلال ، حمل اولئك الاسبان الجليلين الذين اعتصموا بتلك الولايات الجبلية أن يتربصوا الى حين .

فلما كثرت بين العرب الخلاف واستحکم أمره ، وكان قد مضى على الفتح ربح من الزمن ، أخذ الاسبان يتحيفون أطراف الملك العربي فتغلبوا على جزء من بلاد برشلونة ثم على برشلونة . وهذا الذي استخلصوه من العرب ان لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الجزيرة ، فهو شيء كبير بنفسه . وأخرى أنه فتح على العرب باباً من مطامع الاسبان يدخلون منه إلى سائر أنحاء الجزيرة ، فيعيدونها إلى حيازتهم وهو ما قد كان .

الحضارة والعمران :

شجع عبد العزيز بن موسى الهجرة إلى الاندلس ، فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها ، فأقطع كل قبيلة ناحية . وازدحمت الاندلس بالعرب ، وكثر أهل الشام في قرطبة عند أبي الخطار حسام ابن ضرار السكلي الوالي اليمني ، حتى لم تحملهم دار الولاية ففرقهم في البلاد . أنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنيسرين وأهل الاردن رية وماتقة

وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسماها فلسطين ،
وأزل أهل مصر تدمير وسماها مصر .

وانتشرت اللغة العربية في الجزيرة بانتشار العرب أنفسهم فيها أولاً ،
وبتغلبها على لغة البلاد بقوة الفتح ثانياً ، وأنشأ عبد العزيز بن موسى
ديواناً للتوفيق بين الشريعة الإسلامية السمحة ، وقوانين أهل البلاد المفتوحة
وعاداتهم ، رعاية للمصالح . ووضع السمع بن مالك الخولاني بأمر عمر ابن
عبد العزيز نظاماً للأرض ، وبني قنطرة قرطبة الشهيرة .

الإمارة الأموية :

مدتها مئة وسبع وسبعون سنة ، بدأت في العاشر من ذي الحجة من
سنة ثمانين وثلاثين بعد المئة « ٧٥٦ » بصقر قریش - عبد الرحمن الملقب
بالداخل . وانتهت سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، في عهد عبد الرحمن الناصر .
فتعاقب على هذه الإمارة بعد عبد الرحمن الداخل ، ابنه هشام الرضي -
فابنه الحكم بن هشام - فابنه عبد الاوسط بن الحكم - فابنه محمد بن
عبد الرحمن - فابنه المقتدر بن محمد - فأخوه عبد الله بن محمد - ثم
حفيدته عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله وهو ثامن الأمراء الأمويين وبه
ختمت الإمارة . فهو لما بلغه أن يؤنساً الخادم قتل المقتدر بالله العباسي بالمشرق ،
أعلن خلافته وتسمى بأمير المؤمنين وضربت السكة باسمه .

عهد الإمارة :

هذا العهد هو خير العهود التي عرفتها الاندلس العربية فقد كان فاتحته
عبد الرحمن الداخل ، وواسطته عبد الرحمن الاوسط ، وخاتمته عبد الرحمن
الناصر : ثلاثة لا تدري أيهم أفضل من صاحبيه ، فكانوا رجال أمية
بالغرب غير منازعين ولا مدافين ، بل كانوا عرانيين أمية عامة في المشرق
والمغرب ، ومن رجال الدهاء والحزم والسياسة في العرب .

عبد الرحمن الداهل

لما انقرضت الدولة الأموية بالشام ، وصار الأمر إلى بني العباس ،
تبعوا بقايا بني أمية ، ووضعوا فيهم السيف ، وفر من نجا منهم واستخفى .
وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إذ ذاك بذات الزيتون (١) ففر منها
إلى فلسطين ، وأقام هو ومولاه بدر يتجسس الأخبار ، ويتنقل من موضع
إلى موضع ، إلى أن دخل بلاد الأندلس . وإليكم حديث خروجه من الشام
يقصه بنفسه على مثال المذكرات السياسية اليوم . قال :

« لما أعطينا الأمان ثم نكس بنا بنهر أبي فطرس ، وأبيحت دماؤنا ،
أنا الخبير ، وكنت منتبذاً من الناس فرجعت إلى منزلي آيساً ، ونظرت
فيما يصلحني وأهلي ، وخرجت خائفاً حتى صرت إلى قرية على الفرات
ذات شجر وغياض ، فبينما أنا ذات يوم وولدي سليمان يلعب بين يدي
وهو يومئذ ابن أربع سنوات ، فخرجتني ثم دخلت إلى باب البيت فرعاً
باكياً فتملق بي ، فجعلت أدفعه وهو يتعلق بي ، فخرجت لآنظر ، وإذا
بالخوف قد نزل بالقرية ، وإذا الرايات السود منحطة عليها ، وأخ لي حديث
السن يقول : النجاء فهذه رايات المسودة . فأخذت دنانير ممي ، ونجوت
بنفسي وأخي ، وأعلمت أخواتي بمتوجهي فأمرتهن أن يلحقني مولاي بدرأ .

(١) لم أجد فيما عندي من الكتب ما يعرف منه موضع ذات الزيتون . وفي
معجم البلدان الزيتون موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام
فلما عمر الرصافة انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات ، فهل الزيتون هي
ذات الزيتون ؟ إن عبد الرحمن مات أبوه وهو صغير فكذلك جده هشام
صاحب الزيتون ، فلعل للموضعين واحد ، فيكون عبد الرحمن قد لجأ إلى
موضع له سابق عهد فيه والله أعلم . أو إن ذات الزيتون في جبل حوران
المعروف اليوم بجبل الدرور .

وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي أثراً ، فأنتيت رجلاً من معارفي ، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني ، فدلّ عليّ عبد له العامل فأقبل في خيله يطلبني ، فخرجنا على أرجلنا هراباً والخيل تبصرنا ، فدخلنا في بساتين على الفرات فسبقنا الخيل الى الفرات فسبحنا ، فأما انا فنجوت والخيل ينادوننا بالامان ولا أرجع ، واما اخي فانه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجع اليهم بالامان واخذوه فقتلوه ، وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة . فاحتملت فيه ثكلاً ومضيت لوجهي فتواريت في غيضة أشبة ، حتى انقطع الطلب عني وخرجت فقصدت المغرب فبلغت افريقية ، ثم ان اخته ام الاصبغ الحقته بدرأ مولاه ومعه نفقة له وجوهر ، فلما علم به عامل افريقية وهو يومئذ عبد الرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة الفهري ، لج في طلبه ، واشتد عليه ، فهرب منه فأتى مكناسة — وهم قبيل من البربر — فلقني عندهم شدة يطول ذكرها ، ثم هرب من عندهم فأتى نزاوة — وهم اخواله — وبدر معه . قيل وخلص عبد الرحمن الى المغرب يحاول فيه ملكاً فلما أعياه الامر ورأى شدة عامله عبد الرحمن بن حبيب ، وما كان من فتكه بالعاص وعبد المؤمن ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، رأى الاندلس أوسع عمله ميداناً ، وأضمن مثلاً لبعد الشقة ما بينها وبين بغداد : دار الخلافة العباسية ، ولما بين اهلها من تنافس وشقاق . فرمى بهمة اليها .

وجه عبد الرحمن مولاه بدرأ الى من في الاندلس من موالي المروانيين وأتباعهم يدعوه الى نفسه ، فاجتمع بهم ، وبشوا له في الاندلس دعوة ، ونشروا له ذكراً ، ووجهوا اليه مركباً مع وفد منهم وأبلغوه طاعتهم له ، ورجعوا به الى الاندلس .

جاز صقر قریش — وهو اللقب الذي أطلقه عليه عدوه وابن عمه المنصور العباسي — البحر الى الاندلس . وما لبث ان سار الى قرطبة فاتخذها له عاصمة ، وجعل يقاتل من نازعه ، ويقضي على من خلفه ،

وبعد قتال شديد ، وقتن متطاولة ، تمت له الغلبة على جميع من ناواه :
من عرب وإسبان ، وظهر على جيشي المغرب والفرنجة الذين قاتلاه نصرة
للعباسيين ، او بحجة النصر لهم .

وناجته نفسه حيناً من الزمن بالزحف على بغداد ، وانتزاع الخلافة
من العباسيين ، كما انتزعوها من قومه ، وهم بذلك لولا ان شغله الاسبان
والفرنجة ، والخارجون عليه ، يدمم العباسيون بالمال والرجال .

والذي ساعد عبد الرحمن على أمره ، وأعانه على ما كان فيه من خلق
الرئاسة الموروثة ، وأسبابها المكتسبة عوامل اربعة :

الاول : ما أنفذته اليه اخته من المال .

الثاني : أتباع الأمويين ومواليهم ، الذين كان يؤلمهم ان يذهب الملك
من أصحابهم بني أمية ، لهوى لهم معهم ، او لعصبية كانت لهم فيهم .

الثالث : الهانية المغاضبة التي تغلبت عليها القيسية فسلبتها حقها من
الولاية ووترتها وترأ مضافاً .

الرابع : استعانته بالموالي والبربر الناقمين لاستئثار العرب دونهم
بالحكم والرئاسة .

جمع عبد الرحمن هذه القوى اليه ، بدهائه ومضاء عزمه ، حتى تم
أمره ، وانقادت اليه الاندلس قاصيها ودانيها ، على شررتها وعرامها . وليس
من شيء يدلك على اناة الرجل وسعة حيلته ، وصبره على ما يكره ،
مثل ان يدعو للعباسيين على منابر بلاد غلب ولانهم عليها ، بعد حروب
حمي وطيسها ، وبعد ان كان من أفاعيل العباسيين بقومه ما يضيق عنه
حلم الحليم . لم يقطع لبني العباس خطبة الا بعد ان تم له الاستقلال .

ولي عبد الرحمن الحكم ٣٢ سنة وكان فصيحاً لساناً ، عالماً شاعراً ،
حليماً حازماً ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، لا يتخذ الى راحة ،
ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الامور الى غيره . شجاعاً مقداماً ، بعد
العور ، شديد الحذر ، سخياً جواداً .

ومن شعره وقد نظر الى نخلة منفردة بالرصافة وقيل انه هو
زارعها فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهي في التغرب والنوى وطول التناهي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبة فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواذي المزن من صوبها الذي يسبح ويستمرى السماكين بالوبل
ومن قوله يتشوق الى معاهده بالشام :

ايها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بارض وفؤادي ومالكه بارض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فمضى باجتماعنا سوف يقضي

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام بمهد منه اليه ، وكان هشام ذا رأي
وشجاعة عادلاً ممدوحاً يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز - ويث
عيونه يتسقطون له شكاوى الناس ومظالمهم فيُشكِّمهم ، غير ان اخويه
سليمان وعبد الله شاقاه وخرجا عليه فقاتلها حتى تغلب عليها .

وشق عليه عصا الطاعة غيرها ، منهم سعيد بن حسين الانصاري بطرطوشة ،
ومطروح بن سليمان بن قيطان بيرشلونة ، وغيرها في غيرها ، فغلبهم كلهم . وجاء
بعد هشام ابنه الحكم سنة ١٨٠ فكانت مدة ولايته ستاً وعشرين سنة تعاطمت
فيه الفتن وقام عليه ايضاً عماء ، سليمان وعبد الله ، صاحبا الفتنة ايام ابيه ، واستنصر
عبد الله شارلمان ملك الفرنجة فكان اليه سريعاً . وهو الذي كان لابني
يعمل على ايقاد النار في بلاد المسلمين . وانتهى الامر بان تغلب الحكم على
معظم المصاعب التي واجهته ، أوقع بأهل قرطبة ، وبأهل طليطلة ، وبأهل
ماردة ، ورد غارات الفرنجة عن بلاده ، واعتدى عليهم بأشد مما اعتدوا
عليه ، وفتك بهم فتك عزيز مقتدر . فعاد الامن الى نصابه .

وأحاديثه بالفتك وسفك الدماء طويلة مستفيضة . ومما يدل على نجده وبطشه ، انه لما كثرت عليه الفتن الداخلية ، واشتغل بعصيان اهل ماردة طمع الفرنج في تغور المسلمين فقصدها بالغارة والقتل والنهب والسبي . فأتاه الخبر بشدة وطأتهم . وقيل ان العباس الشاعر كان قد مر بوادي الحجارة فسمع امرأة تقول : وا غوثاه بك يا حكم ! لقد أهملتنا على كلب العدو علينا ، فأبمنا وأبتمنا . فسألها عن شأنها فقالت : كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت . فنظم العباس قصيدة يعرض فيها بذلك وأنشدها الحكم وأخبره بأمر المرأة . فجز الجيوش وخرج غازياً ، وقصد الناحية التي أقبلت منها تلك الخيل ، واتي بالأسرى فذبجهم بمحضرة تلك المرأة وأهل بلدها . وقال للعباس قل لها : هل أغائها الحكم ؟ فقالت لقد شفى الصدور ، ونكى العدو ، وأغاث الملهوف . فأغاثه الله ، واعز نصره . فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه وأنشد :

الم تر يا عباس اني أجبتها على البعد أقتاد الخيس المظفرا
فأدر كت او طاراً وبردت غملة ونفست مكروباً واغنيت معسرا

وعلى الجملة فقد كان عهد الحكم عهد فن متصل ، وفي ايامه كانت وقعة الربض فنسب اليها ، ووقعة الحفرة . وكان على صرامته وبطشه مستهتراً يميل الى اللهو والصيد ، ويؤثر مجالس المغنين والشعراء ، على مجالس العلماء والفقهاء ، وهو اول من استكثر من المماليك بالاندلس وأظهر نخامة الملك وأسرف في تأييد هيئته . ارتبط الخيل على شاطيء النهر قبلي قصره ، أني فرس . وبلغت مماليكه خمسة آلاف ، وكان يسميهم الخرس لمجمتهم . وتشبه بالجبارة ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، فأنكر عليه الفقهاء استهتاره وهاجوا العامة عليه ، فشدد هو عليهم ومنعهم ان يداخلوه في اموره ، ونكبهم وأجلى جمهوراً منهم عن الجزيرة .
وكان الحكم مع هذا عادلاً جواداً ، فصيحاً شاعراً ، يقرب اهل

الفضل ، ويؤاسي اهل الحاجات ، ويشبهه بأبي منصور في شدة الملك ، وتوطيد الدولة وقمع الاعداء . ثم ولي الامر عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠٦ فكانت مدته ثلاثين سنة . ولم تكن ولايته أقل اضطراباً وفتناً من ولاية ابيه الحكم . وكان هو لا يقل عنه بأساً وسطوة . صرف همه لاختداد الفتن داخل بلاده ، ورد غزوات الافرنج ، فكان منصوراً في أكثر الحروب التي كانت بينه وبين العرب ، وعماله ، والاسبان ، والافرنسيس ، والترمنديين المعروفة غزواتهم عند العرب بغزوات الجوس . فتغلب على اعدائه كافة بعد جهد جاهد وقتال متطاوول .

وكان عبد الرحمن أديباً شاعراً عالماً بالشريعة ، وغيرها من علوم الفلاسفة . وكثرت عنده الأموال فصرفها في العمارة .

واخذت الأمور بعد عبد الرحمن بالضعف ، فاضطرب الأمن ، ونجحت قرون الفتن في ثغور الاندلس ، واشتعلت الثورات في جوانبها ، حتى كادت تتمها فتلتهمها بجملتها ، لولا ان قبض الله لهذه الجزيرة عبد الرحمن الناصر ، ففقاً عين الثورة ، ونظم عقد الدولة ، وأعاد الجزيرة سيرتها الأولى ، أيام جديده : وسمييه عبد الرحمن الاوسط ، وعبد الرحمن الداخل .

موقف الاسبان :

قوت هذه الفتن من عزائم الاسبان ، وزاد في الأمر نصرة الافرنج لهم ، واستنصار بعض الامراء بهم ، فكثرت اعتداؤهم على الاندلس العربية وعملوا على التدخل في سياستها الداخلية ، ينصرون الأمير الأموي على اخيه الأموي ، والعامل على أميره . وعلى الجملة فقد كانت نصرتهم للثورة على السلم ، وللفضى على النظام .

فاسترجعوا من جراء ذلك قسماً كبيراً من ولاية قطلونية .

الحضارة والعمران :

لم يصرف عبد الرحمن ما عاناه من الفتن والحروب ، وتأسيس الملك ، عن اعمال الحضارة والعمران . فلقد أنشأ المدارس ، ودور الكتب ، شحنها بالمؤلفات النفيسة . وبنى الحدائق الغناء ، منها الرصافة تشبهاً بجده هشام الذي بنى الرصافة بالشام . وبنى مسجد قرطبة الاعظم « وكان معبداً للفيزقوط ملكه المسيحيون واخذ المسلمون نصفه . ولما شرع عبد الرحمن في بنائه ابتاع النصف الآخر » (١) فعاجله الموت عن إتمامه . وأطلق الحرية للنصارى بدينهم ، وكتب لهم عهداً بذلك . . . وأما هشام بن عبد الرحمن فقد أتم مسجد قرطبة الذي شرع فيه ابوه ، وبنى عدة مساجد غيره ، وجدد قنطرة قرطبة التي كان عقدها السمع الخولاني .

وجند الحكم الأجناد ، وجمع الاسلحة ، واستكثر من الحشم والحواشي . واما عبد الرحمن الأوسط فقد كان عصره عصراً زاهياً زاهراً بالحضارة والعلم ، وبكل فن من فنون الأدب . وأحدث أشياء لم يكن للبلاد سابق عهد بها . شاد القصور الفخمة والمتنزهات ، وجاء اليها بالماء العذب من الجبال ، وبنى المدارس والجوامع الكثيرة ، ومهد الطرق ، ونظم الشوارع ، وأقام بها الجسور ، وجمع اليه ذوي الشهرة من شعراء العرب وذوي الفضل منهم .

واليه وفد زرآب المفتي معلم ابراهيم الموصلبي فأورث صناعة الغناء بالأندلس . ويعترف الاوربيون انه لم يكن في زمانه دار ملك كدار ملكه أبهةً ومجداً (٢) .

دمشق : سنة ١٩٢٩ .



(١) غرائب العرب للاستاذ محمد كرد علي .
(٢) دائرة المعارف العربية للبستاني .

ثقافة المتنبي ومصاويرها^(١)

للأستاذ محمد سليم الجدي

في فاتحة القرن الرابع للهجرة ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي في الكوفة وفيها نشأ وترعرع وشب ، وفيها تعلم وثقف ، وفيها انبجست قريحته بالشعر ، فجوده وأحكمه ، وفيها بلغ درجة الشعراء المفلحين .
ثم شاء القدر أن تنبو به وأن يجتوبها ، فأجمع أمره على مفارقتها وضم جراميزه إليه ، ثم سار منها الى بلاد الشام ، فوضع فيها عصي الحاضر المتخيم ، وفيها غزر أدبه وحصف عقله ، وظهرت مقلدات شعره ، فسطع نجمه ، وذاع صيته ، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس .

وقد رزق أبو الطيب السعادة التامة في شعره ، وكتب له من الرواج في أبهاء الملوك والأمراء والوزراء وأعيان الأمة ورجلات العلم والأدب ما لم يكتب لغيره ، ونال شعره من سرعة الشيوخ والانتشار في القاصية والدانية ما لم ينله شعر آخر ، حتى سارت به الركبان ، وأنتت به الشمار ، وعمرت مجالس العلم والأدب .

وطمع كثير من الطامعين في الشهرة الطامحين الى الخلود أن يخلد ذكرهم في شعره الخالد ، واستدعوه الى قصورهم ومقارر عظمتهم وسلطانهم ، وبذلوا له في سبيل ذلك أموالاً عظيمة ، ومنهم من وعده أن يشاطره ماله ويفعمه بالهبات والاعطيات ، فلبى فريقاً وترفع عن إجابة آخرين .
وحسده الناس على فضله وأدبه ورفيسوا على ممدوحيه مدحه وكثر

(١) ألقبت في مهرجان المتنبي الذي اقامه المجمع العلمي العربي في تموز سنة ١٩٣٦ .

منتقدوه وعائبوه من حساده وممن ترفع عن مدحهم ومن أشياعهم ، وفي مقدمة هؤلاء الصاحب بن عباد في فارس والوزير المهلب في بغداد وأبو الفضل بن خنزابة في مصر ، فإن هؤلاء لم يدخروا وسعاً في الكيد له ، وإثارة الشعراء والعلماء والملوك عليه ، والبحث والتنقيب عن مساوئه هم وأشياعهم .

وتوفر العلماء والأدباء على دراسة شعره ، ورأى فريق منهم الحق في جانبه فتولى الانتصار له والرد على خصومه الذين أرادوا أن يطمسوا نجوم السماء بكفهم ويطفئوا نور الله بأفواههم ، فظهر من هذا وذاك ما كان في كلامه من الآيات المعجزة والروائع الباهرة ، واطلع عليها من قصر فهمه عن إدراكها ، فازدادوا إعجاباً بأدبه وحسداً لفضله وتنقيباً عن مساوئه ومثابه ، وازداد الآخرون إظهاراً لمحاسنه ومناقبه .

وقلما وجد الباحث ناحية من نواحي هذا الشاعر الفذ ، إلا وقد قتلها العلماء بحثاً وأشبعوها تمحيصاً وتحقيقاً ، ما خلا ثقافته ومصادرها فإن حظها من ذلك قليل عند المتقدمين وأقل من القليل عند المتأخرين ، لا ينقع غلة ولا يشفي علة ، وهو على قلته محفوف من الغموض والشكوك بحجب مصممة لا تنفذ منها أشعة البحث ، محاط بمواجز من التناقض في الأقوال والتضارب في الآراء التي نقلها المتأخر عن المتقدم وطبع فيها الآخر على غرار الأول من غير تمحيص ولا تدبر ، فكانت الحقيقة فيها أخفى من السهي وأغمض من السر في الضمير .

ثقافة المتنبي

مبدؤها ، منتهاها ، مكان كل منها

لقد تصدى كثير من العلماء والأدباء لذكر المتنبي وأطالوا القول في تنبئه ومدحه بجودة شعره ، وانتشاره واطلاعه على غير العربية وما شاكل ذلك

ولم يكن منهم من أعرض عن التصدي لثقافته ، ومنهم من أوجز فيها بالمجازاً مختلاً .

ومن ذكره من هؤلاء ابن الأثيري في نزهة الألباء في طبقات الأديباء ، والبديعي في الصبح المنبي ، والأصفهاني في إيضاح المشكل ، والثعالبي في يتيمة الدهر في نحو تسعين صفحة ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، وابن العماد في شذرات الذهب ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، والعماني في معاهد التنصيص ، وابن نباتة في سرح العيون ، والبلغدادي في خزانة الأدب ، وأبو الفداء وابن الوردي في تاريخيها ، وابن حجر في لسان الميزان ، والخطيب في تاريخ بغداد ، والمعكبري في شرح ديوانه ، والواحدي كذلك .

وليس في كلام هؤلاء الاعلام ما ينير السبيل للباحث عن ثقافة المتنبي إلا وميض يسير نسير على ضوءه الضئيل في هذا المجال القاتم ، وإن كان أجمع بين ما فيه من التناقض أشق من عقد شعيرة على الاجدم ، وأصعب من الجمع بين الماء والنار .

ويمكن أن يلخص كلام هؤلاء القوم ومن احتذى على مثالهم من بعدهم ، بأن فريقاً منهم زعم أن أبا الطيب وُلد في الكوفة وفيها ترعرع ، واختلف الى كتّاب فيه أولاد أشرف الكوفة ، فتعلم دروس العربية لغة شعراً وإعراباً ، وخرج الى البادية ، فصحب الاعراب ، وعاد بعد سنين بدويًا قحاً ، ونظر في أيام الناس ، وأكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دقاتهم ، وقال الشعر صبيًا ، ووقع في صغره الى رجل بالكوفة من المتفلسفة يكنى أبا الفضل فهوَّسه وأضله كما ضلَّ .

وزعم فريق آخر أنه ، وإن كان كوفيًا المولد ، شاميًا المنشأ سافر به أبوه الى بلاد الشام وهو صبي ، فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وهرها ، ويسلمه الى المكاتب ، ويردّده في القبائل ،

ويشتغل فيها في فنون الادب حتى مهر فيها وتضلع من علم اللغة ؛ وأنه تخرج بها ومنها خرج نادرة الفلك .

ومنهم من جمع بين الامرين : تعلمه بالكوفة وتعلمه بالشام .
وفي هذه الاقوال على تباينها شيء من الحقيقة ، ولكنه منتشر في تضاعيف الكلمات انتشار ذرات الذهب في معدنه بين التراب والصخر ، لا يتسنى أن يصاغ منها شيء من الحلي ، حتى ينخلها المعدن ، ثم يحصلها وينقبها ، ثم يؤلف بينها ، ثم يصهرها ، ثم يفرغها بعد ذلك في القالب الذي يريده .

وهذا ما نريد معالجته في هذه الكلمة الموجزة في الوقت الموجز .
قد رأينا هؤلاء العلماء اتفقت كلمتهم على أنه ولد في الكوفة واختلفت في المسكان الذي نتقف فيه ، وليس في أفواهم ما يكشف القناع عن وجه الحقيقة الناصعة ، إذ لم يبين فيها ما درسه في الكتاب من اللغة والشعر وغيرها ، ولا ما هوّسه به أبو الفضل الضال المضل ، كما لم يبين من هم الاعراب الذين صحبهم ، والوراقون الذين لازمهم ، والعلماء الذين لزمهم في الكوفة أو في الشام ، ولا ما هو الذي أخذه عن كل منهم ، ولا ما تعلمه في مكاتب الشام ، ولا ، ولا .

وكل ما ذكره مما أسلفنا ذكره وأمثاله مما ضربنا عنه الذكر صفحاً كلمات بجملة يقول مثلها المادح أو القادح ليقضي منها حاجة في نفسه ، ولكن الباحث الذي يتوخى البسط والإبانة والتفصيل لا يستطيع أن يتخذها أساساً يقيم عليها صروح بحثه .

وقد يخيل إليّ أن أقرب شيء تسكن اليه النفس في هذا أن يقال : إن المتنبي درس في الكوفة اللغة ، وفيها نتقف وقال الشعر الجيد ، ولكن لم يشتهر كثيراً ، ثم خرج الى الشام سنة ٣٢١ ، وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة ، فاطلع على ثقافة أهلها ، واجتمع بطائفة من علمائها

وأدبائها ، وتابع الدراسة ، فازدادت ثقافته وغزرت مادته واستحصده شعره
وحصف عقله وشاع ذكره ونضج أدبه .
والدليل على هذا أمران ، الاول : أن المؤرخين رووا له أبياتاً قالها
في صباه في المكتب وهي :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردّد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم بين
كفى بجسمي نحولاً اني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترني
ورووا له قصيدة مدح بها رجلاً يقال له أبو الفضل ، وقد أراد
أن يستكشفه عن مذهبه ، ولا أعلم إن كان أبو الفضل هذا هو لذي
هوّسه وأضله أم غيره ، يقول فيها متغزلاً :

غصن على تقوى فلاة نابتٌ شمس النهار تقل ليلاً مظلماً
لم تجمع الاضداد في متشابهٍ إلا لتجملني لغرمي مغنماً
ويقول مادحاً :

يا أيها الملك المصفي جوهراً من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نورٌ تظاهر فيك لاهوتيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما
كبر العيان علي حتى إنه صار اليقين من العيان توها
يا من لجود يديه في أمواله نغم تعود على اليتامى أنما

وذكروا له قصيدة قالها في صباه حين اجتاز برأس عين سنة ٣٢١ ،
وذلك أن سيف الدولة أوقع بعمرو بن حابس من بني أسد وبني ضبة
ورباح من تميم ، فمدحه بها ولم ينشده إياها ، فلما لقيه دخلت في جملة
المدح ، مطلعها :

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل يوم حمامي
دمن تكاثرت الموم علي في عرصاتها كتكاثر اللوام

وفيها يقول متغزلاً :

فكان كل سحابة وكفت بها
 ليس القباب على الركاب وإنما
 ليت الذي خلق النوى جعل الحصى
 ويتخلص الى المدح فيقول :
 لم يتركوا لي صاحباً إلا الأسي
 وتعذر الاحرار صير ظهرها
 أنت الغربية في زمان أهله
 ملك زهت بمكانه أيامه
 وتخاله سلب الورى أحلامهم
 ويقول فيمن عصوا الامير :
 فتركتهم خذل البيوت كأنما
 أحجار ناس فوق أرض من دم
 ورووا له شعراً كثيراً قاله في صباه فيه من عيون الكلام وروائع
 الشعر ما ينذر مثله في غير كلام الفحول .

وهذا الشعر المذكور وأمثاله شعر محكم التأليف مصقول الديباجة
 صحيح المعنى مشتمل على شيء من مصطلحات العلوم كجمع الأضداد في
 متشابه والغرم والمغنم والجوهر واللاهوتية والعيان واليقين والتوهم ونحوها ،
 وعلى الاشارة إلى رجل اشتهر في التاريخ بحبه وهو عروة بن حزام ،
 وعلى كثير من الطباق والجناس وغيره من صناعة البديع كالهوى والنوى
 والغرم والمغنم والنقم والانعم ونحوها ، وعلى ضروب من المجاز اللطيف
 والتشبيه الرائع والكنائيات الجميلة وما شاكل ذلك مما لا يتسنى لشاعر أن
 يأتي بمثله إلا بعد أن يمر في الشعر ويحتنك .

ولئن كان فيما قاله المتنبي من الشعر بعد هذا ما هو أجود منه وأعلى
 فان كل شاعر لا يكون شعره في أول عهده بالشعر أعلى من شعره بعد
 أن يتمرس به عهداً طويلاً ولا تبلغ باكورة شعره في قريحة شبابه

ما يبلغه شعره بعد أن يزاول الشعر ويعالجه بعد أن ينضج أدبه ويستحصف عقله وتكامل ثقافته .

وبهذا يتضح لنا أن قول الثعالي وابن خلكان ومن تتبع خطاهما أنه قدم الشام صبياً وجال في أقطارها ودخل المسكاتب وتخرج بها الخ . قول لا يؤيده الواقع ولا تقره الحقيقة .

الامر الثاني : ما رواه المؤرخون من أنه كان يصحب ديواني أبي تمام والبحثري حتى إنه لما قتل وجداً معه بمخبطه وعلى الحواشي علامة كل بيت أخدمناه وسلخه ، وأنه كان له دفاتر كان يصحبها حينما رحل وكان كثير الإشفاق عليها لأنه انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً ، وأنها وجدت معه حين قتل . وهذا دليل صريح على أنه ما فارق الدراسة والمطالعة حتى فارق الحياة وكان فوق هذا يخاطب جماعة من الشعراء والأدباء والعلماء في بلاط سيف الدولة وغيره .

وهذا القدر كاف في الدلالة على أن المتنبي ابتداءً تثقفه وقوله الشعر الجيد في الكوفة وأتم الأمرين معاً في بلاد الشام ، ومنه يتبين لنا المكان الذي ابتدأت فيه ثقافته والمكان الذي تمت فيه .

تقسيم ثقافته ومصادرها

ومن المفيد أن نقسم ثقافة المتنبي إلى أقسام يتميز كل واحد منها من الآخر ليسهل ضبطه وتفرقة من غيره وإن كان بعضها مشتركاً مع غيره في بعض الوجوه ، ثم نبين مصدر كل منها بقدر ما سمحت لنا النصوص فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام لغوية وأدبية وعلمية ولكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة مصدر مجهول ومصدر معلوم ؛ أما المصدر المجهول فتشترك فيه الأقسام الثلاثة على السواء ، وهذا المصدر لم يسعف البحث بمعرفته معرفة تكشف النقاب عن حقيقته ، وذلك ما تقدم ذكره من مثل دخوله الكتاب في الكوفة والمسكاتب في الشام « إذا صح ذلك » . وخروجه إلى

البادية وصحبته الأعراب وملازمته الوراقين ودقائره ولزومه العلماء وبما
شاكل هذا من المصادر المهمة المجهولة التي لم يبين ما تعلمه وما أخذه من
كل منها .

ولكل قسم مصدر آخر معلوم تحته أنواع متعددة أو مصادر أخرى
معلومة يتميز بها من الاقسام الاخرى وقد يشارك غيره في بعضها .

ثقافته المعرفية :

من مصادرها كلام الشعراء الذين زعموا أنه أخذ معانيه منهم كما روى
القيس والناطقة وزهير وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في ثقافته الأدبية .
ومنها أنه وجد في أشعاره وأخباره ما يدل على تضامه باللغة واطلاعه
على أسرارها ودقائقها وغريبها اطلاعاً حمله على الإعجاب بنفسه والتمرد
على بعض مذاهب النحاة ، واحتقاره مثل ابن خالويه في مجلس سيف الدولة ،
وأبي الفرج الأصفهاني وغيره من الأُدباء والعلماء في مجلس الوزير المهلب ،
وأبي علي الآمدي شيخ الجماعة في حضرة الوزير أبي الفضل بن خزابة
في مصر .

فما ورد في شعره قوله :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ
وقوله :

أمضى إرادته فسوف له قدُ واستقرب الأقصى فثم له هُنا
وقوله :

وكان ابنا عدوٍ كائراه له ياءى حروف أنيسيان
وقوله :

حولي بكل مكان منهم خلقُ تخطي إذا جئت باستفهامها بمن
ومما روي في أخباره : أن أبا علي الفارسي قال له يوماً : كم من
المجوع على فعلى ، فقال في الحال : حجلى وظربى . « حجلى جمع حجلة

أو اسم جمع لها لنوع من الطير وِظْرَبِي جمعِ ظَرْبَان ، وهو دويبة شبيه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم أسود السراة أبيض الظهر كثير الفسو متن الرائحة . قال أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثانياً فلم أجد . وقال في المتنبي : ما رأيت رجلاً مثله في معناه .

وأن الحاتمي لما ناظر المتنبي في بغداد ، سأله : ما الفرق بين التقديس والقُدَّاس والقادس ، فقال له المتنبي : أي شيء غرضك في هذه المذاكرة بل المهارة ، ثم قال له : التقديس التطهير ولذلك سمي القدس قدساً لاشتراكه على الذي يكون فيه الطهور وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقال الحاتمي : ما أحسبك أمعنت النظر في كتب اللغة وعلوم العرب ولو تقدم منك مطالعة لها ما جمعت بين معاني هذه الكلمات مع تباينها لأن القُدَّاس حجر يلقى في البئر ليعلم غزارة ما فيه من قلته ، والقُدَّاس يشبه الجمان يعمل من الفضة ، والقادس السفينة .

وإذا تأملنا جواب المتنبي على إيجازه وعلى أنه جواب على سؤال متعنت فوجيء به . تبين لنا أنه جواب عالم باللغة مطلع على أسرار وضعها واشتقاقها ، فإن علماء اللغة قالوا : القُدَّاس الطهر والبيت المقدس لأنه يتطهر فيه من الذنوب ، والتقديس التطهير ، والقُدوس الطاهر ، وقُدَّس لك تطهر أنفسنا لك ، والأرض المقدسة المطهرة ، وروح القدس روح الطهارة أي خلق من طهارة ، ولا قدَّست أمة لا طهرت ، والقُدَّاس والقدس قدح يتطهر به ، والقدس السطل لأنه يتطهر به ، ومن أسماء مكة قادس والمقدسة لأنها تقديس من الذنوب أي تطهر ونحو ذلك ، ولا يضير المتنبي أن لا يعرف معنى القادس والقُدَّاس والقُدَّاس ، فإن كثيراً من أئمة اللغة توقفوا على معان لا يعرفونها وما عرف التاريخ رجلاً وعى صدره معاني اللغة كلها حتى العرب أنفسهم ، فإن قرشياً قال له ملك حمير « ثَبَّ » فلم يفهم معناه بلغة حمير فوثب فبات ، وإن عمر بن الخطاب توقف في معنى الأب ؛ وإن كثيراً من

أئمة اللغة جهلوا معاني بعض الكلمات وأخطأوا في تفسير بعض آخر .
فالكسائي لم يفرق بين معنى عييت وأعييت حتى نُبِّهه الى ذلك ،
عبيدة سئل عن أسماء أعضاء الفرس فتوقف وقال لست بديطار . وكفى
المتنبي فضيلة أنه لم يهرف بما لم يعرف ولم يجب بغير ما يثق بعلمه ، على أن
ما ذكره الخاتمي في تفسير القداس لم أر من ذكره من أئمة اللغة ،
ولمّا قالوا : هو حجر يوضع في حوض الابل أو وسطه اذا غمره الماء
رويت الابل ، أو يطرح فيه يقدر عليه الماء يقتسمونه بينهم ، أو حصة
يقسم بها الماء في المغاوز .

والخاتمي إنما تطوع بمناظرة المتنبي ليظهر على أكتافه ، ويتحدث الناس
أنه ظهر عليه وأخمه ، ولينقع من ذلك غلة معز الدولة ووزيره المهلبى
الذين توقعا من المتنبي أن يمدحها فترفع عن ذلك ، والخاتمي على صلفه
وتعنته لم يستطع أن يمجّد فضل أبي الطيب وتوقه وتفردّه ، فقد قال في
رسالته التي ضمنها مناظرة المتنبي : فلما علوته بالكلام قال : يا هذا اللغة
مسلمة لك ، فقلت : كيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها
وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن
غريبها منك ؟ ثم قال في موضع آخر منها : ورأيت له حق التقديم في
صنمته فطأطأت له كتفي .

هذه شهادة خصم لدود وعدو شديد للمتنبي « والفضل ما شهدت به
الأعداء » .

وقال ابن خلسكان فيه : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على
غريبها وحوشيا ، وإنه لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب .
وقال الاصبهاني في إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه كان من حفاظ
اللغة ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب المصنف سوى حرف
واحد هو في كتاب الجهرة وهو قوله : « ... تطوى المجلحة العقد » ،
وهذا من بيت وهو :

وأَمْضِي كما يمضي السنان لطيفي وأطوي كما تطوي المجلحة المقد
يريد بالمجلحة الذئب الجريمة الشديدة الماضية ، وأطوي من الطوي
وهو الجوع ، والعقد جمع أعقد وهو الذي في ذنبه تعقد أي التواء ،
وذئب أعقد معوج .

وقال أيضاً : كان المتنبي يعني أبا الفضل بن العميد كل يوم ، وكان
أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتمجب من حفظه
وغزارة علمه .

وديوانه طافح بالآيات والكلمات الدالة على غزارة مادته وسعة اطلاعه
وأخباره مكتظة بالادلة على هذا .

وكان أبو الطيب فوق هذا صنماً ماهراً في صوغ الكلمات وتأليفها ،
لبقاً بارعاً في تخير ما يلائم منها كل غرض ، حاذقاً في وضع كل كلمة
في موضعها .

قال ابن فورجة أو فوزجة : قرأت على أبي العلاء المعري ، ومنزلته
في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له : ما ضرَّ أبا الطيب
لو كان قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها ، فأبان لي عوار (١)
الكلمة التي ظننتها ، ثم قال : لا تظن انك تقدر على إبدال كلمة واحدة
من شعره بما هو خير منها فحرب إن كنت مرتاباً ، وها أنا ذا أجرب
هذا العهد فلم أقدر ، وليجرب من لم يصدق يجد الأمر كما قلت . وشهادة
أبي العلاء هذه تعدل شهادة أمة بأسرها أو تزيد ، وإنما يقدرها حق
قدرها من عرف من هو أبو العلاء ، وما هو في اللغة والأدب والشعر ،
وإن كانت لا تخلو من شيء من المبالغة التي سببها حب أبي العلاء
المتنبي وتواضعه .

(١) العوار بالفتح الميب وقد يضم .

ثقافة الأودية :

ولثقافته الادبية غير ما سبق ذكره من المصادر مصادر أخرى منها اقوال الشعراء الذين زعم حساده انه اغار على معانيهم وسلخها ، ثم تصرف فيها بما شاء من زيادة ونقص وتوليد ونقض وقلب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون منهم : امرؤ القيس ، والافوه الاودي ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحسين بن الحنم المري ، وعنترة ، وذو الاصبغ المدواني ، والاعشى الاكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وربيعه بن مرداس ، وابو صخر الهذلي ، والمثقب ، وعروة بن عتبة ، والعوام بن عمرو ، واوس بن حجر ، وابو جويرية العبدي ، وخفاف بن غصن البرجمي ، وحطاب بن يعفر ، والحزبن الدؤلي ، وقيس بن الخطيم ، وقبصر الاسد ، وعين بن مالك ، وعلاقة بن عربي ، وليبد ، وإياس السكلابي ، ومعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وذؤيب بن كعب التميمي ، وعبد يغوث ، ومضرس بن رابي ، والحادرة ، وجابر بن حباب ، وتأبط شرأ ، وسويد ابن ابي كاهل ، وأميه بن ابي الصلت ، وخداس بن زهير ، وعنترة بن الاخرس ، وزباد العبدي ، وطرفة ، والنابغة الجعدي ، وحسان بن ثابت ، وعمرو بن معد يكرب ، والعباس بن مرداس ، والاهم بن سنان ، وعلقمة بن اسوى ، وأحيحة بن الجلاح ، والفرزدق ، وجري ، والاخلط ، وكثير ، والطرماح ، وعمر بن ابي ربيعة ، والراعي ، وذو الرمة ، وقيس ابن ذريح ، ويزيد بن الطائرية ، وعقيل بن غفلة ، والكميت ، والجلاح ، واعشى باهلة ، ونصر بن سيار ، وسالم بن ابصة ، ومتمم بن نويرة ، والبعيث ، والاعور الشني ، وعدي بن الرقاع ، والمؤرج بن عمر ، وابو العميث ، والخطيئة ، وزباد الاعجم ، وعمران بن حطان ، وعبد الرحمن ابن دارة ، وعميرة بن جميل ، وعمر بن الهم ، ورؤبة ، وعبد الله ابن الزبير الاسدي ، وثابت بن قطنه العتكي ، وعبد الله بن معاوية ، وابن الرقيات ، وهدي بن الخشرم ، وزفر بن الحارث ، وابن هرمة ،

وبشار ، وحماد ، والعتابي ، وأبو العتاهية ، ومروان بن أبي حفصة ،
 وأبو الشيص ، وأبو نزاس ، وأبو تمام ، والبحثري ، وابن الرومي ،
 والعباس بن الأحنف وابن المعتز ، وأبو هفان ، وابن الخياط ،
 وعبد الله بن طاهر ، وأشجع السلمي ، وعلي بن جبلة ، وبكر بن النطاح ،
 والناشيء الأكبر ، وعبد الله بن محمد المهلب ، وموسى بن جابر الحنفي ،
 وأبو دلف ، ومسلم بن الوليد ، وديك الجن ، ودعبل ، ومحمود الوراق ،
 وعلي بن الجهم ، ويعقوب بن الربيع ، ومحمد بن وهيب ، ومنصور التمري ،
 وأبو سعيد الخزومي ، وأبو عطاء السندي ، وأحمد بن أبي فنن ، والعتبي ،
 ومنصور الفقيه ، وابن المعذل ، والخليع ، وعلي بن الخليل ، والخبز أرزي ،
 والحدوني ، وابن الناصر ، وخالد السكاتب ، والخزيمي ، وأحمد بن طاهر ،
 وسعيد بن حميد ، وأبو طاهر ، وإبراهيم بن المهدي ، ويزيد المهلب ،
 ويحيى بن زياد ، والسيد ، والخيم الراسبي ، وصالح بن عبد القدوس ،
 وسلم الخاسر ، وحمزة بن بيض ، والطرمي ، وأبو حفص الشطرنجي ،
 وإسحاق بن خلف ، والناجم ، ومنصور بن بسام .

وكثير من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ممن
 سموا وممن لم يُسموا .

زعموا أن أبا الطيب أثار على معانيهم فانتزعها ، أو أثار على من أثار
 عليها فانتزعها منه .

ومن مصادر ثقافته الأدبية أقوال الحكماء ، فقد زعم فريق من
 المولعين بالآغراب من شراح ديوانه وغيرهم ، أنه أخذ كثيراً من معاني
 الحكماء وجعلها في شعره ، وذلك مثل قوله :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

قالوا : إنه أخذ من كلام أرسطاطاليس : إذا كانت الشهوة فوق
 القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة . وقوله :

أرى أناساً ومحصولي على غنمٍ وذكر جودٍ ومحصولي على الكلمِ

من قول الحكيم : من كانت همته الأكل والشرب والنكاح فهو بطبع البهائم ، لأننا نعلم أنها متى خلى بينها وبين ما تريده لم تفعل شيئاً غير ذلك . وقوله :

وربَّ مالٍ فقيراً من مروته لم يثر منها كما أثرى من العدم
من قول الحكيم : من أثرى من العدم افتقر من الكرم ، وقوله :
وشبه الشيء منجذبٌ إليه وأشبهنا بدنابنا الطعامُ
من كلام الحكيم : الأشكال لاحقة بأشكالها ، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها . وقوله :

ذلٌّ من يغبط الدليل بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخف منه الحماؤُ
من كلام الحكيم : إذا لم تنصرف النفوس في شهواتها : فحياتها موت ووجودها عدم . وقوله :

كل حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ حجةٌ لا جىء إليها اللثامُ
من كلام الحكيم : الفرق بين الحلم والمعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والمعجز لا يكون إلا عن ضعف . وقوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ
من كلام الحكيم : العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها ، والجاهل يظن أنها خالدة وهو باقٍ عليها ، فهذا يشقى بعلمه وهذا ينعم بجهله . وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ
من كلام الحكيم : الصبر على مضض الرياسة ينال به شرف النفاسة . وقوله
الظلم من شيم النفوس فإن تجدد ذا عفة فلعله لا يظلمُ
من كلام الحكيم : الظلم من طبع النفس ، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين : إما علة دينية أو علة سياسية كخوف الانتقام . وقوله :
هونٌ على بصرٍ ماشقٍ منظره فانما يقظات العين كالحلم
من كلام الحكيم : كرور الأيام أحلام ، وغداؤها أسقام وآلام . وقوله :

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم
من قول الحكيم : النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركها أما كن
البقاء ، وهذه حاله تمجز الخلق عن ركوبها . وقوله :
كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وبقي عمره مثل ذاهب
من قول الحكيم : آخر حركات الفلك كأوائها ، وناشيء العالم
كلاشيه في الحقيقة لا في الحس . وقوله :
فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجساد من ترابه
من قول الحكيم : اللطائف سماوية والكثائف أرضية ، وكل عنصر
عائد الى عنصره . وقوله :
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هنّ من كسبه
من قول الحكيم : إذا كان تناسؤ الأرواح من كرور الأيام فمالنا
نعاف رجوعها الى أماكنها . وقوله :
وغاية المفرط في سلته كغاية المفرط في حربته
من قول الحكيم : آخر إفراط التوقي أول موارد الخوف . وقوله :
أرى كلنا يبني الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهماً بها صباً
فجبال النفس أوردته البقا وحب الشجاع النفس أوردته الحربا
من قول الحكيم : النفس المتجوهره تأتي مقارنة الذل جداً وتري
فناءها في طلب العز حياتها ، والنفس الدنية بضد ذلك . وقوله :
إلف هذا الهواء أوقع في الأئفس أن الحمام مرّ المذاق
من قول الحكيم : النفوس البهيمية تألف مساكنة الأجساد الترابية ،
فلذلك تصعب عليها مفارقة أجسامها ، والنفوس الصافية بضد ذلك .
وأمثال هذا كثير في شعره ، مما زعموا أنه اقتبسه من كلام الحكماء
بين حكيم معلوم سمي وبين حكيم مجهول لم يسم .
ولو استطاع خصومه لنسبوا كل جيد من معانيه الى غيره من الشعراء
والحكماء ، وإذا صحّ كل ما قيل فأبو الطيب أوسع الشعراء اطلاعاً على

كلام الفحول من حكاء وشعراء ، وأبصرهم بالمعاني الجيدة ، وأبرعهم في انتقائها ، وأقدرهم على التصرف بها زيادة ونقصاً وتوليداً وقلباً ، وأحذقهم صوغاً وتأليفاً .

وقد شهد له فريق كبير من خصومه بتفوقه في مواطن كثيرة على من زعموا أنه أخذ منه في قوة السبك ، وروعة الألفاظ ، وجمال المعاني . ولو ادعى مدح أن هذا الحكيم المعلوم أو المجهول خلقه حساد المتنبي ونسبوا إليه تلك الأقوال ليسلبوه محاسنه ، لكان ذلك غير بعيد ، ولشهد له ما في أقوال أوثك الحكاء من الركافة في التأليف ، والتقصير عن الإحاطة بالمعنى ، وإن جاء بعضها مسجماً .

ومن أمعن النظر في كلام أبي الطيب ، وكلام ذلك الحكيم يتضح له في مواضع متعددة أن لا علاقة بين الكلامين إلا من حيث اشتراكها ببعض الألفاظ أو بطرف من المعنى ، وأن المعنى في شعر أبي الطيب أجل وأتم منه في كلام الحكيم ، والشواهد على هذا كثيرة ، منها قوله :

كلما أنبت الزمان قناةً ركب المرء في القناة سنانا

قالوا : إنه من قول الحكيم : من صحة السياسة أن يكون الانسان كلما ظهرت سنة عمل بها بحسب السياسة . وعند التأمل لا يجد الباحث بين الكلامين رشحاً واشجةً ، ولا نسباً جامعاً ، ولا رابطةً بينها إلا تعلق كل منهما بعمل الانسان ، ولكن هذا العمل مختلف في كليهما جداً الاختلاف من حيث الغاية والقصد والسبب والعلّة . وكذلك قوله :

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر
قالوا : إنه منقول من قول الحكيم : من قصر عن أخذ لذاته عدمها وعدم صحة جسمه .

والفرق بين المعنيين من حيث الصحة والجمال كما فرّق بين اللفظين من حيث البلاغة وقوة الأثر ، وصفاء الديباجة ؛ فإن المتنبي يقول : أعط

نفسك حظها قبل أن تموت ، فان الحياة لا تدوم . والحكيم يقول :
لا تقصر عن أخذ لذتك فانك تعدم تلك اللذة وتعدم صحة جسمك .
ولا علاقة لأحد هذين المعنيين بالآخر إلا من جهة الحض على التمتع باللذة ،
ولكن علة ذلك مختلفة في كليهما ، والأمر المترتب على المخالفة مختلف
فيهما أيضاً .

وهذا شأن أكثر الأبيات التي زعموا أنه أخذها من قول الحكماء ،
وكثير من الأبيات التي ادعوا أنه سلخها من معاني الشعراء ، كقوله :
حسان الثني ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم

قالوا إنه من كلام امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول* من الذر* فوق الأرب منها لا ترا
وقد رأيت نحواً من ثلاثين شاعراً بين امرئ القيس والمنتبي أخذوا
هذا المعنى ولم يستطع أحد أن يجد فيه بعد صاحبه مثل المتنبي ،
وكذلك قوله :

له عسكريا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى بها عسكرياً لم يبق إلا جماجمه*
سحابٌ من العقبان يزحف تحتها سحابٌ إذا استسقت سقنتها صوارمه
وقوله في وصف جيش :

تمرٌ عليه الشمس وهي ضعيفة* تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدرهم
قالوا إنه من قول أبي تمام :

وقد ظلمت عقبان راياته ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقايل

وأصل هذا المعنى للأفوه الأودي أخذه منه التابغة الذبياني فزاد فيه
زيادة حسنة ثم تتابع عليه شعراء كثيرون مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد
وغيرهما ثم جاء أبو تمام فزاد فيه ما زاده حسناً وجاء المتنبي فزاد فيه
زيادة حسنة ولم يأخذ معنى أبي تمام كله بل وافقه في أصل المعنى المأخوذ

عن النابغة والأفوه ثم فارقه في بقية المعنى وهو على غاية من الجودة ،
ورحمة الله التي وسعت طائفة كبيرة من الشعراء الذين ألموا بهذا المعنى
ولم يؤاخذوا به لا تضيق عن أبي الطيب .

وكان أبو الطيب سئل مرة عن اتفاق الخواطر فقال : الشعر ميدان
والشعراء فرسان فر بما اتفق توارد الخاطر كما يقع الحافر على الحافر .
وهذا مما لا ريب فيه فانا قد نرى شاعراً وافق غيره في معنى من غير
أن يطلع على شعره ، ونرى أيضاً شاعراً أعجبياً قد يوافق شاعراً عربياً
وبالعكس من غير أن يعلم أحدهما لغة الآخر فضلاً عن أن يطلع على
شعره ويقتبس من معناه .

وايس المقصد من كلامنا هذا أن نبريء المتنبي من السرقة المعاني ،
وانما يريد أن نبين أن كل ما نسب اليه من ذلك غير صحيح ، وأن
دعوى خصومه مبالغ فيها ، وأن غيره شاركه في مثل هذا ولكن لم
يكن له من الخصوم والمنتقدين ما كان للمتنبي .

وبعد كل ما تقدم فانتا لا ننكر أن المتنبي كان كما قال الخالديان
كثير الرواية جيد النقد ، وقد أسلفنا قول ابن خلكان : إنه كان من
المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وأنه لا يسأل عن شيء إلا
استشهد فيه بكلام العرب ؛ ولكننا ننكر أن يكون كل معانيه أو جملها
مأخوذاً من غيره .

وأغرب من كل ما سبق ذكره ما ذكره بعض خصومه المتعنتين
المنقبين عن سرقاته : وهو أن قصاراً كان يعمل على شاطئ النهر وكان
يرى كل يوم كركياً يجيء فيلتقط من الحماة دوداً ويقتصر في القوت
عليه ، ثم رأى الكركي يوماً صقراً ارتفع في الجو وانقض على حمامة
فاصطادها وأكلها ، فقال الكركي : مالي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا
الصقر وأنا أكبر منه جسماً ثم ارتفع في الجو وانقض على حمامة
فأخطأها وسقط في الحماة فتلطخ رأسه وتلطخ ريشه ، ولم يمكنه أن يطير

فأخذه الصياد ورجع إلى منزله فاستقبله رجل فقال ما هذا فقال : كركي يتصقر ، فسمع المتنبي هذه الحكاية فأخذ منها معنى قوله :
ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى
وهذا البيت من قصيدة قالها حين هرب من مصر ووصل إلى الكوفة مطلعها :

الا كل ماشية الخيزلي فدا كل ماشية الهيدبي

يصف فيها رحلته ما بينها ولا نعلم في أي موضع سمع هذه الحكاية ، وقد كان فاراً من كافور يخبئ في مكان بعد آخر وليس يصحبه غير غلمانة ، فمن قص عليه ذلك ومن رواه عنه ؟ .
وهذا يؤيد ما قلناه أن خصومه لو استطاعوا لنسبوا كل معنى جيد في شعره إلى غيره ، ولذلك قال ابن نباتة في سرح العيون : وهذا من نواذر المنقبين على سرقات المتنبي ، ومن نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

ثقافة العلميين ومصادرها :

وأما ثقافته العلمية فهي أشد غموضاً من سابقها وأخفى طريقاً وأقل عناية في كلام المتقدمين .
وقد كان أبو الطيب في عصر زخرت فيه بحور العلم وانتشرت كتب الفلسفة وفشت فيه آراء الحكماء والفلاسفة والزنادقة ، وأصحاب الأهواء والنحل بين طبقات العامة والخاصة .
ومن استقرى كلامه ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية والاملايح إلى بعض المذاهب ، وما يعتقده بعض الفرق في الأفلاك العلوية ونحو ذلك كقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب وإخلف في الشجب
فقل تلخص نفس المرء سائلة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب
فان فيه إشارة إلى اختلاف الكلمة في فناء الجسم والروح معاً ، أو
في فناء الجسم وحده ، وكلاهما قول لبعض الحكماء ، وأبو الطيب وقف
بين العجز والتعب ولم يصرح بما ارتضاه من القولين على ما في كلامه
من احتمال وقبول للتأويل .

وقوله من قصيدة يعزي بها عضد الدولة بعمته :

نحن بنو الموتى فما بالناس نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأقسام من تربه

فان فيه إشارة إلى مذهب القائلين ان الروح جوهر لطيف يصعد إلى
الجو بعد مفارقة الجسم ، وإن الجسم جوهر كثيف يعود إلى عنصره
الأول ، ويصلح أن يكون فيه إشارة إلى مذهب القائلين أن المادة
تبقى ولا تفنى .

وقوله في هجو كافر :

ألا فتى يورد الهندي هامته كما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة* يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم
فإن فيه إشارة إلى مذهب الدهرية القائلين إن العالم موجود أولاً
وأبداً لا صانع له ، والمعطلة القائلين إن العالم فارغ عن صانع أبقنه وزينه .
وقوله في مدح كافر :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب
فان فيه إشارة إلى مذهب المانوية القائلين إن مبدأ هذا العالم كونان
أحدهما نور والآخر ظلمة ، وإن الخير من النور والشر من الظلمة .

وقوله من قصيدة يمدح بها طاهر العلوي :

إذا علوي لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة* للنواصب

فان فيه إشارة إلى فرقة يقال لها الناصبية وهي تدين ببغضة علي بن أبي طالب .
وقوله :

هون على بصر ما شق منظره فانما يقضات العين كالحلم
فان فيه إشارة إلى مذهب السوفسطائية المنكرين لحقائق الأشياء ،
وقد استدل فريق بهذا البيت على أن المتني كان يعتقد هذا المذهب كما
استدل آخرون بقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام
على أنه كان يدين بالتناسخ الذي يقول أصحابه إن الروح تنتقل من
جسم إلى آخر مكافأة لصاحبه على خير قدمه ، أو مجازاة على شر
اجترمه . وقوله :

يقولون تأثير الكواكب في الورى فما باله تأثيره في الكواكب
وقوله :

وقد زعموا أن النجوم خوالده ولو حاربته ناح فيها الثواكل
وقوله :

فتباً لدين عبيد النجوم ومن يدعي أنها تعقل
فان في هذه الأبيات الثلاثة إشارة إلى مذاهب بعض الحكماء وما
يعتقدونه في الكواكب العلوية من تأثير في عالم الأرض ، وقد يستلزم
الخلود لها ، وإثبات العقل لها وإشارة إلى أن كلمة القوم لم تتفق على
ذلك ، وان لكل معتقد من يخالفه ، ولهذا عبر بكلمات : يقولون وزعموا ،
ومن يدعي ، ولم يبين رأيه في ذلك ، ولكن التعبير بالكلمات السابقة
يدل على أنه لا يشايح هذه الفرق في اعتقادها هذا .

ووقع في شعره ذكر رجال من الحكماء المشهورين في مثل قوله :
يموت راعي الضأن في جهله ميتة جاينوس في طبه

وقوله :

من مخبر الأعراب أني بعدهم
وشمت بطليموس دارس كتبه
شاهدت رسطاليس والاسكندرا
متملكاً متبدياً متحضراً

وقوله :

إذا داء هفا بقراط عنه
وربما جرى على طريقة الحكماء في الاستدلال والتعليل كقوله :
إذا غمرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطم الموت في أمرٍ حقير
كطم الموت في أمرٍ عظيم

وقوله :

وإذا لم يكن من الموت بدء
فمن العجز أن تكون جباناً

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه
وما لجرحٍ بميتٍ إيلام
ومن تتبع كلام أبي الطيب بامعان ، وجد فيه كثيراً من الآراء
والمنازع الفلسفية ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على شيء من هذا العلم
عارفاً بأخبار رجاله ، وما اشتهر به كل منهم من الخصائص ، عارفاً
بمذاهبهم واختلافهم في فناء الروح والجسم وبقائها وبما يعتقدده فريق منهم
في النجوم وما شا كل ذلك .

ولكنه لا يجد فيه كل نوع من أنواع الفلسفة العلمية والعملية ،
بل لا يكاد يجد للفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية إلا أثراً ضئيلاً يترأى
في الآيات المتقدمة وأشباهاها . ومثل هذا القدر يجوز أن يكون شائع
فيه الحكماء بعد أن اطلع على أقوالهم أو سمعها ، ولكنه لا يدل على أنه
درس هذا العلم درساً وافياً واتخذ لنفسه فيه طريقاً اختص به كما يفعله
الراسخون في هذا العلم .

فلم يبق من الأقسام التي برع فيها براعة فائقة إلا طرف من
الفلسفة العملية وأكثره مما يتصل بالأخلاق ، وائس اه فيه نظريات يثبتها

بالبراهين وآراء يدعمها بالأدلة وإنما هي جملة محكمة رائعة بليغة ينطق
بعملها الحكماء إذا تصدوا للبحث في الأخلاق وإن كان كلامهم أدنى في
باب البلاغة من كلامه .

وايست حكمته كلها مقتبسة من كلام الحكماء ولا كلها خطرات نفسية ،
وإنما هي مزيج مما اقتبس من غيره ومما هدته إليه فطرته وأرشدته
إليه تجاربه .

ولعل أعظم مصدر لحكمته هذه هو حياته لأنه تعاقبت عليه أطوار
من الحياة مختلفة الأشكال من سعادة وشقاء وفاقة ورخاء وروعة وأمن
وقد جرب الناس وذاقهم وأكلهم ، ودرس الحياة درساً دقيقاً وافية واستقصى
كثيراً من سجايا الناس وطباعهم ونعى عليهم كثيراً منها ، وقد كان جيد
النقد دقيق الحس شديد الطموح إلى الامارة شديد الاعتداد بنفسه
عظيم الاعجاب بشعره محباً للمال حباً جماً متبدلاً في سبيله مفتوناً بالقوة
منذ الحداثة كثير التغيي بها فأثرت هذه العوامل المختلفة في نفسه وكان
من أثرها ما تمثله أبياته في الحكمة كقوله :

أذم إلى أهل الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عمم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد
وقوله :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقة بد
وقوله :

وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
وقوله :

إنما أنفوس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتبالا
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتسه سؤالا
كل غادٍ لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرقبالا
وقوله :

كل حلم أنى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وقوله :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
 فرؤوس الرماح أذهب للغيظ وأشفي لغيل صدر الحسود
 فاطلب العز في لظى وذو العذل وإن كان في جنان الخلود
 يقتل الماجز الجبان وقد يعجز عن قطع بخنق المولود
 ويوقى الفتى الخش وقد خوض في ماء لبة الصنديد
 وقد يجد الباحث في شعره غير ما تقدم كثيراً من الاشارات إلى
 المصطلحات الفقهية كقوله :

وأخ لنا بعث الطلاق ألية لا أعلن بهذه الخراطوم
 فجعلت ردي عرسه كفارة في شربها وشربت غير أئيم
 وقوله :

إذا ما فارقتي غسلتني كأننا عاكفان على حرام
 وقوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم
 وقوله :

وزارك بي دون الملوك تخرجي إذا عن بحر لم يحز لي التيمم
 وكذلك يجد كثيراً من أسماء الأمم والقبائل والرجال الذين اشتهروا
 في التاريخ بحوادث معروفة كقوله :

فكان كل سحابة وكفت بها تبكي بعيني عروة بن حزام
 وقوله :

لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
 ويجد كثيراً من أسماء الأماكن من أودية وجبال وهضبات وأنهار
 ومياه وقرى وأمصار كما يتمثل ذلك في قصيدة قالها عند رجوعه من
 مصر ووصوله إلى الكوفة وغيرها .

ويجد كثيراً من أسماء الكواكب وما يتعلق بطولوعها وغروبها من الحوادث المزعومة كقوله :

وتسكرو موتهم وأنا سهيل* طلعت بموت أولاد الزناء

وقوله :

أحبك يا بدر الزمان وشمسه وإن لامني فيك الشهي والفراقد*

وهذا وأمثاله يدل على أن أبا الطيب كان عارفاً بعلوم الدين عالماً بأيام الناس وأخبارهم واسع الاطلاع على التاريخ وعلى تقويم البلدان عالماً بكبير من الأمكنة وما يتصل بها من حوادث ملماً بمعرفة الافلاك وما يرتبط بها مما كان يعتقد أهله عصره .

ولولا خشية الاطالة لاؤردنا أمثلةً متعددة تدل على علو كعبه في

كل ما تقدم .

ولعل في هذا القدر ما يبين أن المتنبي ولد ونشأ وشب ودرس وقال الشعر الجيد في الكوفة وأنه استمد ثقافته اللغوية والأدبية من الكتاب والاعراب وكتب الوراقين وأقوال الشعراء والحكماء المعلومين والمجهولين ، وثقافته العالمية من مصادر سبق ذكرها ومن مصادر أخرى لم يسمح الزمن بكشف النقاب عنها بعد ، ومن العلوم اللسانية والشرعية ، وأن فلسفته تكاد تنحصر فيما يتصل بالأخلاق ، وأنه استمدتها من حياته وفطرته وتجاربه وأمدتها بما اطلع عليه من كلام الحكماء ، وإن ثقافته على علاتها عالية جداً لا سيما الأدبية وقد ظهرت آثارها في أبيات من شعره بلغت الغاية القصوى في طلاوة التركيب ونبالة المقصد والاعجاز في الإيجاز وقد قدرها أهل الفضل حق قدرها منها قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم*

قال أبو الفتح بن جني : أشهد بأنه لو لم يقل إلاّ هذا لكان أشعر

المجيدين ولـكان له أن يتقدم عليهم . وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بعيت إبلام*

حسان التثني ينقش الوشي مثله
ويبسم عن در تقلد مثله
وله في المدح أبيات منقطعة القرين كقوله في مدح علي بن ابراهيم التنوخي :
كأن الهام في الهيجا عيون*
وقد صفت الأسنه من هموم
وقوله في مدح عضد الدولة :
حمى أطراف فارس شمري*
بضرب هاج أطراب المنايا
فلو طرحت قلوب العشق فيها
وقوله في مدح سيف الدولة :
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى
إذا زلقت مشيتها ببطونها
وله في باب الوصف ما يقصر عن إدراكه المتناول إليه كقوله في
وصف خيمة كان تحتها سيف الدولة :

عليها رياض* لم تحكها سحابة
وفوق حواشي كل ثوب موجّه
ترى حيوان البر مصطلحاً بها
إذا ضربته الريح ماج كأنه
وقوله في وصف أغصان شعب بوان :

غدونا تنفض الأغصان فيها
فسيرت وقد جبن الشمس عني
وألقي الشرق منها في ثيابي
لها ثمر* تشير إليك منه
وله كثير* من الوصف الرائع في وصف الأسد والصيد والخيل
والحرب وغيرها .

إذا مسن في أجسامهن النواعم

كأن التراقي وشحت بالباسم

وقد طبعت سيوفك من رقاد

فما يخطرن إلا في فؤاد

يحض على التباقي بالتفاني

سوى ضرب المئات والمثاني

لما خافت من الحدق الحسان

وقد كثرت حول الوكور المطاعم

كما تنمشي في الصعيد الأراقم

وأغصان دوح لم تغن حماعه

من الدر سمط لم يشقه ناظمه

محارب ضد ضده ويسالنه

تجول مذا كيه وتداى ضراغمه

على أعرافها مثل الجمان

وجثن من الضياء بما كفاني

دنانيراً تفر من البنات

بأشربة وقفن بلا أوان

الخلاصة :

صفوة القول أن أبا الطيب أمةٌ وحده في شعره وأدبه وحكمته وان محاسنه لا تكاد تحصى وطرائفه لا تستقصى .

وان هذا الموضوع على قلة مظانه مترامي الأطراف صعب المراس يفتقر إلى معارضة الآبيات التي قالها بالآبيات التي زعموا أنه أخذ معانيه منها وبيان ما بينها من الفروق وإيراد الشواهد من كلامه لتأييد ما أسلفنا ذكره .

وهذا كله يستدعي زمناً طويلاً ، ولكن ضيق الوقت المحدود تجبر واسماً ، واضطررنا إلى أن نبلغ بالإنجاز درجة الإلغاز ، وان نحشر المباحث الواسعة في عناوين ضيقة ، وندمج نوعاً من ثقافته في آخر ، وان نضرب صفحاً عن إيراد آبيات آخر من شعره هن المثل الأعلى في ثقافته الأدبية والعلمية ، حتى جاءت كلمتنا هذه كقائمة التجار يسرد فيها أعداد الثياب ولكن لا يبين فيها ما لسكل واحد منها من الخصائص والمميزات ولا ما في كل منها من روعة في الوشي ودقّة في الصنعة وجمال في الهيئة والشارة . وعسى أن تسامح الأيام بوقت يتسع لتوفية هذا الموضوع حقه والسلام عليكم .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

شيء عن أناتول فرانس

للأستاذ شفيق جبري

سبر العلم • القديم والحديث • السلام على أناتول فرانس •
تراجم الكتاب • مذهب أناتول في السك • التفاؤل • الحزن
وأبوابه • المسامحة • الحب • الأسلوب المدرسي • الأسلوب
الوجداني • طراز أناتول في النقد • لغة لافونتين • ميل
أناتول الى لغة • حرصنا على اللغة .

قال الأستاذ شارل ريشه أحد أعضاء معهد باريز في كتابه « العالم » :
« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الأُنظار في سرعته ، على
أن العلم لا يزال في عنفوان أمره وريضان عمره ، فالعالم « أرخميدس »
على نبوغ فضله وبراعته كان يجهد ما يملكه المعلمون اليوم في المدارس
الابتدائية ، وأجهل تليذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم
أموراً يجهد العالم « غليله » نفسه ، ما بين العالم « فرانكلان » وبين العالم
« أنشتين » مائة وخمسون سنة ، فتصور مسير العلم في مائة وخمسين سنة !
ما أعظم انقلاب الأفكار ! لم يكن من قبل علم الأَحافير ولا علم الجراثيم ،
ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حلّ الطيف الشمسي ،
فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن وما هو قرن ونصف قرن .
المشي غير وثيد ، اننا نسير إلى معرفة الأشياء على سلسلة هندسية
متزايدة ، وفي يوم من الأيام سيكون الرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم
سلطان عظيم على المادة منها اختلفت أشكالها .

هذا ما قاله الاستاذ « ريشه » فلم يتجنب نهج الصواب في وجيز كلامه ، لقد ظهرت علوم في أيامنا لم تظهر من قبل ، فانبسط آفاق العقول فتبدل بانبساطها طراز التفكير وأغير نمط النقد ، وطفق الكتاب يتغلغلون في حقائق الأمور ، فظهرت على كتاباتهم آثار هذا الانقلاب واختلفت أصولهم في التفكير عن الأصول التي كانوا يبنون عليها من الف سنة ، لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، واستفحل العمران واستفاضت مذاهب الحضارة فأصبح الجمود على القديم متلفة للقرائح ، إلا أنه ما كل قديم فاسد ولا كل حديث صالح ، وإذا جاز لنا أن نستعجن البكاء على الاطلال أو وصف مراتب الغم ومعاطن الابل في عصر طارت فيه الطيارات ودبت فيه الدبابات ، وإذا جاز لنا أن نستشنع الكلام على قبة من آدم أو مظلة من شعر أو خباء من صوف أو مجاد من وبر أو خيمة من شجر أو قنة من حجر في دهر ذهب فيه القصور في السماء فلا يجوز لنا أن نشذ عن لغة نسجت أفوافها الليالي وطرزت أبرادها الأيام فوسعت ما في السموات والأرض .

لقد انقلبت العقول والافكار فنشأ النمط الحديث في الادب وايس في هذه الثورة الفكرية شيء يستكره إذا لم يكن معها ثورة تذهب بمحاسن اللغة والاسلوب فان الحياة تستلزم الحركة ولا ريب ، قال أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا المقيم :

« ومن ذا حذر على المتأخر مضادة المتقدم ، وله تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول الاخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الأول للاخر ، وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ، ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، وله لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ، ويرى في

كل ذلك مثل رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نواذر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، أو ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، وله حجرت واسعاً وحظرت مباحاً ، وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير ولضلت أفهام ثاقبة ، ولكادت ألسن لسنة وما توشى أحد لخطابه ، ولا سلك شعباً من شعوب البلاغة ولحجت الاسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ .

أبو الحسين هذا حفظه الله من المجددين أو المتجددين على ما يستنبط من كلامه ، إلا أنه نشأ في عصر انتهت فيه اللغة إلى أبعاد غايات الحسن وبلغت أقصى نهايات الجودة والظرف ، فكانوا إذا نزعوا عن اللغة برداً قشيباً خلعوا عليها برداً أقشب ، وإذا جرّوها من ديباجة طريفة ألبسوها ديباجة أطرف ، وحسي أن أذكر من أئمة ذلك العصر ابن العميد والخوارزمي والصابي والصاحب والبديع والثعالبي وأمثالهم من الذين حسنت بهم صناعة الانشاء ، وما بينهم وبين الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الافئدة من الدهر ، فكانت اللغة في حصن حصين وركن ركين فلم يكن في تجديدهم خوف عليها ، وما انحطت اللغة عن طبقتها إلا لما ذهبوا بين سمع الارض وبصرها . أما المجددون في هذا العصر فقد بالغت طائفة منهم في الامر حتى أصبح جديدهم خلتقاً رثيئاً . فذهبوا إلى اطراح كل قديم ومحدث ، وجاهلي ومخضرم ، واعرابي ومولّد ، فلم يستملح ذوقهم كلام الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد وأشباههم من أمراء البيان . وزعموا أن أساليب المتقدمين لا تسع علوم هذا العصر ولا تستوعب طرائف الحضارة وبدائمها فاذا بدّلوا أنماط التفكير لزمهم أن يبدلوا أساليب الكلام ، وهذا موطن الغلو في آرائهم . لئن ارتقى الفكر البشري في هذا العصر فان

كلام العرب منحط عن طبقتة في الجاهلية والاسلام . فاذا لم يبلغ كلامنا اليوم مبالغ كلام المتقدمين فأبي عذر لنا في الشذوذ عن أساليبهم ، وكيف نزعم أن لغتنا أعلى من لغة القرآن والمنسحجين على أذيال القرآن .

ترجم الدكتور ماردوس القرآن إلى لغته الفرنسية بعد أن استعد لهذا الامر عشرين سنة وقد كتب عن هذه الترجمة الاستاذ بولوسكي في مجلة (Les Annales) جاء في خاتمها ما يلي :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً أجمع معه المبشرون على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم . واستنتج الدكتور من ذلك أن الكلمة إذا وضعت مواضعها وأنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً . »

فمن الذي يتبجح اليوم بأن يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرى . فاللغة التي تخرج عليها طائفة المجددين هي لغة جمهور من الكتاب والخطباء والشعراء تدارسوا كلام القرآن حيناً من الدهر طويلاً حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه من شعاب البلاغة ، تزعم هذه الطائفة أنها تذهب مذاهب الغربيين في كتابتها فكأنما خيل اليها أن أدباء الغرب لا يبالون بقدماهم وشعراهم .

هذا أناتول فرانس باقعة دهره !

تحدثت اليه بلاغة المتقدمين فحل في الانشاء المحل الارفع حتى أطبق أدباء وطنه وفيهم عدوه وصديقه على الاعتراف بأن أناتول حفظ اللغة في القرن العشرين ، فلم يتطرق اليها الفساد ، فلولا حرص أناتول على اللغة القديمة وتعلقه بأهدابها لم يكن له المنزلة الرفيعة في الأدب .

وما اللغة القديمة التي يحرص عليها أناتول إلا لغة المدرسين أي لغة القرن السابع عشر ، والقرن السابع عشر أطيب عصور الأدب الفرنسي ،

فقد بلغت فيه اللغة المبالغ وبينها وبين لغة كتابنا البلغاء أمثال ابن المقفع شبه عظيم وان رجلاً حفظ لغة قومه لجدير بأن نعرف سيرته ، وتنقيل طريقته .

الكلام على « أناتول فرانس » بعيد الشقة ، مترامي الأطراف ، فلا يأمن الغائص على هذا اللؤلؤ المكنون أن يغرق في لجة خضم ملتطم الأمواج . واني أخاف إذا حاولت أن أقول فيه كل شيء أن لا أقول شيئاً . واني لا أخشى إذا أردت أن أعرض على الجمهور كل طرائفه أن لا أعرض طريفة . فأثرت أن ألمّ بأناتول إماماً دون الافاضة في مطولات أخباره وآرائه . ولو أردت أن أشبع القول في عمقريته لعمدت إلى كتب ومجلات وصحف شتى توغل أصحابها في هذا الافق المنبسط كل متوغل . بيد أنني أحببت أن أبرز آثاراً بقيت في نفسي ورسوماً رسخت في ذهني من مطالعة بعض كتب ألفها أناتول فرانس . واني أرى أن الباحث عن أديب من الأدباء إذا اجتمعت له عناصر البحث وتوفرت لديه مواد التنقيب لزمه أن يكون مستقلاً في حكمه ، حتى يكون هذا الحكم صادقاً ، ولكنه إذا نقل ما قاله الناس دون إعمال فكره كانت الصورة التي يعرضها مزورة مرقشة .

ولد أناتول فرانس في باريس سنة ١٨٤٤ فكان لمشاهد جوادّ باريس الجميلة تأثير كبير في ذهنه فقد كانت هذه الجواد يومئذ هادئة مخضلة فكان أناتول يسرّح الطرف في قصر « اللوفر » ويصوب النظر ويصعده في قصر « مازاران » فملاّت هذه المباني عينه ، وغمرت قلبه فتمتع خلقه برونقها ومزج قريحته برقتها ، ولم يصدق أنها من آثار البشر . فكان الشك يحتلج في صدره ، وقد بعثه تأمله هذا على الشغف بالفنون والحنين الى الماضي وكان أبوه كتبياً فأيقظت فيه هذه الحرفة ولماً بالأدب القديم وبالكتابة .

من محاسن أدب الافرنجة انك إذا تفرغت للكلام على أديب من أدبائهم أو شاعر من شعرائهم أو خطيب من خطبائهم إلى غير هذه الطبقات من الناس الذين يقبلون العالم بنسج طبائعهم وسبك أفهامهم وصوغ أذهانهم وجدت في بعض الاثمين مجال القول ذا سعة ، فانك لا تشاء أن تعرف شيئاً عن أخلاق هذه الطبقات وآرائهم وعاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم ونشأتهم ومسحنتهم وهياتهم إلا عرفتته وقد بالغوا في ذلك فوصفوا في كتبهم كيف ولدوا وكيف عاشوا وكيف رباهم أهلهم . ووصفوا أخلاق آبائهم وأمهاتهم فيقيدون كل شاردة ويذنون كل نادرة وقد يتولى أدباؤهم وصف حياتهم بأقلامهم ، والمرء أعرف ببواطنه وكوامنه من غيره ، وهذا النمط قليل في أدب العرب . من هؤلاء الكتاب الذين وصفوا في كتبهم بداية حياتهم وميعة شبابهم أناتول فرانس فهو يرى أن اتقان الكتاب لهذا الطراز أشد من إقائهم لغيره فانهم يجدون لذة في هذا الوصف فيحملون القراء على مشاركتهم في اللذة وقلما ينزل الوحي على كاتب مثلما ينزل عليه وهو يكتب عن خواجه ولواعجه ، فأجمل كتب روسو « اعترافاته » وأجمل كتب شاتوبريان « مذكرات ما وراء القبر » .

ألف أناتول فرانس أربعة كتب رائعة تصرف به الكلام في تصوير حياته كل متصرف ، وأناتول فرانس كلف بالاستطراد في كتاباته فهو يخرج من الجدل إلى الهزل ، ومن الحزن إلى السهل نقياً للكمل وبعداً من الملل فكثيراً ما يجب أن يلهو في سبيله ، فاذا مضى لطيته ولم يلو على شيء وصل الى غرضه في طرفة عين وهذا ما لا يريد ، فانه يرى اللذة في الجيئة والذهوب لأن التنقل في الكلام مدرجة إلى اللهو وهذا هو طراز الجاحظ في الكتابة والتأليف .

كان والد أناتول يرى في أول نشأة ولده أن عقل كلبه ينمو أكثر من عقل ابنه ، فلم يقع في خلده أنه يأتي يوم يصبح فيه أناتول مفرداً علماً يملأ الدنيا ويشغل الناس .

وقد كان بين أناتول وبين أبيه اختلاف في المعتقد والذوق فكان والد أناتول يؤمن بالله يختلف عن هذا العالم ، وبروح تختلف عن هذا الجسم ، أما أناتول فإنه لم يعم بما وراء الطبيعة ولم يصدق كل ما يقال له . وقد شرع وهو طفل صغير في تعلم الكتابة فحاول أن يكتب في اللاهوت والأخلاق فافتتح كتابته بهذا الكلام « ما هو الله » وعرض العبارة على أمه فأوعزت إليه في وضع علامة الاستفهام بعد كلمة « الله » إشارة إلى أنه يسأل عن أمر مجهول ، فاستعصى وقال : اني أعرف الله ولا أستفهم وطال الجدل بينهما وامتنع عن وضع العلامة .

قال أناتول : وقد تغير طبعي من ذلك الحين فاني لا أمتنع عن وضع علامة الاستفهام في كل مقام مناسب وقد ألتعرض لوضع هذه العلامة في كل ما أكتب وأقول وفي كل ما أفكر فيه . ولو تراخى أجل أمي لقلت لي « لقد تجاوزت الحد يا أناتول » وفي هذا الكلام إشارة إلى أن أناتول يشك في كل شيء في العالم . فان فلسفته الشك ، ووضع علامة الاستفهام بعد الكلمة إلماع إلى الشك ، على أنه يقول مها كان شكنا الفلسفي فاننا مضطرون إلى أن نعمل في الحياة كأننا لم نشك في شيء . فلم يكن مذهب أناتول الشك المطلق فهو يخشى هاتين الكلمتين الجافتين « أنا أشك » لأن المرء إذا كان شك في الامور وجب عليه أن يسكت فالكلام إثبات وأناتول لم يجزأ على السكوت والاعتزال فقد شاء أن يؤمن فأمن الا انه آمن بأن الامور نسبية في هذه الدنيا .

كان أناتول يرى أن ايمان أبيه بالله هو الذي جعله متفائلاً بالحياة ، إلا أن هذا الوالد كان مع تفاؤله سويداويًا قليل الضحك قليل الميل الى المهزأة ، أما أناتول فقد أخذ عن أبيه مذهب التفاؤل إلا أنه كان فرحاً في حياته على خلاف أبيه ، فقد نظر إلى الحياة من وجهها الصحيح فلم

تغلب عليه السويداء التي غلبت على أبيه ، ولا مثلت له الا وهام أموراً
 لاحقيقة لها ، فليس للدنيا على ما يقول حياة حسنة ولا حياة سيئة ،
 لاشيء شريف أو معيب في ذاته ولا شيء عادل أو غير عادل ، لذيد أو
 أليم ، صالح أو فاسد . وانما الرجل هو الذي يجعل صفات الاشياء كما
 يجعل الملح طعماً للمآكل . هذا هو رأي أناتول في الحياة وهو يقول : من
 عاش طمحت نفسه فطلب المطالب وبقدر ما يحسب المرء أن مطلبه حلو
 أو مرّ تكون الحياة في نظره حسنة أو سيئة . يألم الرجال لأنهم ليس
 في أيديهم ما يظنون أنه خير أو إذا صار اليهم هذا الخير خافوا ضياعه ،
 ويألمون أيضاً لأنهم يكابدون ما يظنون انه شر من الشرور فاذا بطلت هذه
 المعتقدات ذهبت آلامهم ، والناس سواء في عجزهم عن عمل الخير والشر
 فان الخير والشر لا أثر لهما الا في الرأي . والعامل من الناس يرى العادة
 والمصطلح أصل كل شيء . هذا هو معنى كلامه : الامور نسبية في هذه
 الدنيا . وقد قذف أبو الطيب المتني هذه الفلسفة في بيت فقال :

راعتك رائحة البياض بفرقي ولو انها الاولى لراع الاسحهم

البشر في نظر أناتول هم الذين يستجلبون العذاب إلى قلوبهم ويدخلون
 الآلام على نفوسهم فاسمع ما قاله في الحزن وكيف علمه :

« أشد ما يكون حذقنا باستجلاب العذاب إلى قلوبنا ، وأعظم ما
 تكون مهارتنا في جر الآلم الى نفوسنا ، لقد ضاعفنا آلامنا وتممنا نقصها
 لما زينا اللذة لحواسنا . لقد ظهرت منذ بدء الخليفة ونشوء العالم امرأة
 مقنعة اسمها « السويداء » ولكن فلنعدل دون شيء من الاشتطاط فقد
 أضفنا ولا ريب بعض الشيء الى أحزان النفس ولكل منا نصيب في إنشاء
 هذه الآلام ، آلام الروح .

العلم لا ينثني شيئاً من السعادة ، فقد قطفنا ثمر شجرة العلم وأكلناه ،
 ولم يبق منه في الافواه إلا طعم الرماد . لقد مشينا في مناكب الأرض

وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفرة ، وبأن لنا اختلاف البشرية ، ورأينا أن هذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره ، ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أجانب لا تشابه أرواحهم أرواحنا الا بقدر ما تشابهها أرواح الحيوانات ، ثم جلما في الفكر كل مجال فقلنا ما هذه البشرية التي تتغير سحنها وأرواحها وآلهتها بتغير مباتها ، كنا لا نعرف من الارض إلا حقولها التي كانت تخرج لنا الخيرات وكانت هذه الارض كبيرة في أعيننا فلما عرفنا مقامها في العالم تصور لنا صغرها ، فقد علمنا انها ما كانت الا قطرة طين ، فوضع هذا العلم منا ، وكنا محمولين على الظن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تمثل لنا ، وأن في الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير . ان الحياة في ذاتها لاهي طويلة ولاهي قصيرة . والأغرار الذين يقيسونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى يقولون والحق يقولون أن المرء إذا مات بعد أن يخطه الشيب فقد قضى لبانته من الحياة ، أما نحن فماذا صنعنا ؟ فقد شئنا أن نحزر عمر الارض القديم وعمر الشمس وهما نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار طبقات الارض وعلى أعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة ، غرقنا في بحر الزمن والمسافة فتبين لنا أننا لم نك شيئاً فثقل علينا هذا الأمر ولم نشأ أن نقول شيئاً بسبب كبريائنا فخجلنا واصفرت وجوهنا والخطب الجلل ان إيماننا ذهب بذهاب جهالتنا الحسنة ذهب رجائنا واضمحل أملنا فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاء لآبائنا وهذا شديد علينا ، فقد كان الايمان بجهم نفسها يطيب ويعذب .

ومما زاد في بؤسنا أن تكاليف الحياة المادية أصبحت أثقل من قبل ، فان الجماعات الحديثة قد جوّزت ضروب الايماني فاستثارت بذلك كل مجهود . وأصبح النزاحم على الحياة والتنازع فيها أشد من كل دهر وصار الظافرون أحمق ، والمنكسرون أعظم انكساراً ، لقد أضعنا حب الخير بضياح الايمان

والرجاء وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر بجزء العالم ، فمن الذي يأتينا اليوم بالإيمان والرجاء وحب الخير ! .

* * *

كان أناتول سعيداً في حداثة سنه ولكنه يقول : السعداء لا يعرفون أموراً كثيرة عن الحياة فالإنسان هو مهذب الرجال الأكبر والآنم هو الذي علمهم الفنون والشعر والاخلاق وهو الذي أوحى اليهم البطولة والشفقة وهو الذي جعل قيمة للحياة عندما يقامر الناس في حياتهم .
ومن كان متفائلاً بالحياة فأخلق به أن يكره الموت ، ويخاف شدته ، وأناتول من الذين يكرهون الموت قال :

كان الموت في كل دهر من الدهور مخوفاً عظيماً ، ومهما قالوا لك لا ينبغي للمرء أن تأخذه المخافة من ظلمة اللحد وضيق الارماس فما الموت الا العدم فالرجل يجيب عن مقالهم هذا بأن الساعة الاخيرة تملأ القلوب خوفاً ورعباً . كان الاغريق يرهبون غم الضريح ويخشون هول الموت الا أنهم لم يقبحوه ولا شنعوه ، فان مخيلاتهم قد زينت كل أمر من أمور الدنيا وجعلت لقلع الحياة بهجة ورونقاً أما القرون الوسطى فقد هولت علينا بنار جهنم وخوفتنا بخيالات كئيبة مستكرهة فصورت لنا شياطين تمر بنا فتنتزع من بين جوانب المذنبين أرواحهم ورعبتنا بصور المقابر المحزنة وأشكال الهياكل العظمية والديدان التي تأكل لحم الاجسام الفاسد وعلى هذا كان الموت شديداً .

ولم يذهب هول المقابر الا في القرن الثامن عشر فقد كانوا يحملون في أعالي القبور الاواني المستظرفة والرياحين والازهار فكانت هذه القبور زينة بساتين الانكليز وحدائفهم .

لم تفجع باريز وحدها بأناتول فرانس وانما فجعت به البشرية برمتها ، لان أناتول رجل الانسانية وليس حظ وطنه منه بأوفر من حظ العالم بأسره . يقول أناتول : لا يكون الواحد منا انساناً الا اذا أشفق على أخيه ، فلا يليق بنا أن نستحيل جلود صخر فلنشفق على الضعفاء لانهم يألمون من الاقوياء ولترأف بالسعداء في هذا العالم فقد جاء في الكتاب « ويل للذين يضحكون » .

كان أناتول شقيقاً على الضعفاء وقد بلغت به شففته المبالغ فكان عطفه على الضعفاء الذين يألمون من الضهد مثل عطفه على الضعفاء الذين ينشأ ضعفهم عن أعصابهم فيذهبون في الحب كل مذهب . ألف الكساندر دوماس رواية بحث فيها عن مقتل رجل لزوجته لخروجها عن العفاف . قال أناتول : لو كنت قاضياً لما برأت القاتل من جنائته اللهم الا أن يطبق أطباء الشرع على أنه مصاب بفالج في جملة أعضائه ، ولا عجب في ذلك ، فان قتل المرأة لامر عجاب وهيات ما يطاق الذين يجترؤون على أشباه هذه المذابح . لا ريب في أن زوجة هذا القاتل كانت فاسدة الخلق ، ذات غرائز سيئة ، ولكن هل نسأل عن غرائزنا ، ألم يك للتربية والميراث تأثير في أعمالنا . فمن موجب الأسف اننا نولد معوجين لا سبيل إلى تقويم اعوجاجنا ، اننا نولد شيباً لا شباناً . لو فكر القاتل في العناصر التي تؤلف جسم زوجته اللطيف لما حطم هذه الآلة الدقيقة ، وكان غفر لهذه الروح المظلمة جنابة أعصابها . ودمها . اسمع ما تقوله الفلسفة الطبيعية في شعرها : ان لأمور الحب أسراراً غامضة ، ان غرائز المتقدمين التي كانت في الاصل تجمع في بطون الغاب بين أطراف الأبدان المعراة هي نفسها التي تقلق اليوم المرأة تحت ثيابها النفيسة . ما فتئت المرأة تحفظ دم حواء الغابات الكبيرة على علمها بالخفر ، وحرصها على القوانين .

يعرف أناتول كل ما يستوجبه الأديب ومعاذ الله أن يذهل عنه ، ولكنه يرى أن الرأفة هي أحسن الفضائل وأن الفلسفة الطبيعية تعلم المساحة وفضلاً عن ذلك فإذا جاء أمر الحب فلا تجرد الى التمييز سبيلاً : « حبك الشيء يعمي ويصم »

الحب في رأي أناتول فرانس هو اللذة التي تحمل الأنواع الحيوانية على التزاوج والتناسل ، فهو عنده بمنزلة بقاء النوع عند علماء التاريخ الطبيعي ، وقد ألتهم في كتاباته فهو في نظره أقدم الآلهة .

لما ولد هذا الاله لم يكن في العالم أثر من آثار العدل والعقل فلم يجد هذا الاله التعس شيئاً يخلق به دماغاً وعيوناً وآذاناً . ولد أعمى فهو الآن على الصورة التي ولد عليها وسيبقى على هذا الشكل في كل دهر ، يعمل فيخبط في أعماله خبطاً دون شيء من الروية ، ألق نظرة على أعماله انها عظيمة ! لقد خلق كل شيء ولكنه خلق بغير عقل ولا فهم ، لقد برأ في أول الأمر حيوانات لله درها من حيوانات ! انه خلق أصدافاً وأسماكاً وزواحف ، وقد كان هذا الاله يومئذ يعيش في الماء ثم حسن على سبيل الانفاق والتدريج طرائقه فخلق الحيوانات اللبونة ، التي ألتعبته وأجهدته ثم خلق القردة فبقيت القردة زمناً طويلاً آياته الرائعة ، وقد خلق الانسان بعد القردة فلم يغير هذا الاله من طبيعته ، ولم يبدل من طريقته ، فبقي أعمى كما كان ولم يستعن بالعقل ولان يستعين به سجيس الياالي وهو محق في ذلك لأن الحياة سرعان ما تنتهي إذا كانت نشرها معقوداً بالعقل .

ان هذا الاله أعمى ولكنه يقودنا والشر كل الشر في ذلك ولكنه شر أبدي ، لأن الحب يدوم ما دامت العوالم ، اننا نقاومه ونستولي عليه اذا كان أضعف منا ، ولكنه اذا اشتد استولى علينا وهذا ما يسمونه :

منازعة الهوى ومثل الارادة والغريزة كمثل كفتي ميزان فالكفة الثقيلة هي التي ترجح وتميل .
 هذا هو الحب في نظر أناتول فرانس فقد كان سبب حياة الحيوانات من أدناها إلى أرقاها ، وهو غريزي في البشر من مبدأ الخليقة الى منتهائها . وهذا ما حمل أناتول على الرأفة بالفاجرة التي خرجت عن العفاف لانها لم تخرج عنه الا بعوامل غريزية متمكنة من لحمها ودمها وأعصابها فلا سبيل لها الى التخلص منها . . .

قلت في صدر المحاضرة كان بين أناتول وبين أبيه اختلاف في المعتقد وقد امتد هذا الاختلاف الى الذوق فقد كان أناتول يميل الى النمط المدرسي ، ما هو النمط المدرسي ؟ بعد أن هجمت شآبيب الثورة الفرنسية ولعت عوارضها انفجرت ثورة أدبية خَلقية قلبت طرائق التفكير والحس واسمها النمط الوجداني بدأ بها مدام ستال وشانوبريان وتجسمت في أربعة شعراء كبار وهم : لامارتين وموسه وفيني وهوغو كان المدرسيون أمثال الشعارين بوالو وراسين يرون أن يمثلوا في فنهم جمال الحياة ويعتبرون العقل في الشعر الملكة الغالبة ويقبسون عن التاريخ القديم نماذج فنهم ويستزلون وحيهم من سماء الأئمة المتقدمة فخرج الوجدانيون على هذه القواعد بحذافيرها وهدموا بناء المدرسيين ، فرأوا أن يمثلوا في فنهم كل ما هو شنيع ومضحك في الحياة ، وأن يكون الخيال الملكة الغالبة ، وأن يستزلوا وحيهم من أدب الأئمة العصرية فيأخذوا عن غبتي وشلر وبارون وشكسبير ، فبدلاً من أن يكتبوا عن أساطير الاولين كتبوا عن الفن النصراني في القرون الوسطى .

فأناتول فرانس كان يميل الى الفن المدرسي أي انه كان على النمط القديم ، وله في النقد اسلوب خاص فهو من فرقة النقد الذاتي فانه يفتنم فرصة ظهور كتاب من الكتب فيفصح عن خوالج نفسه ، ويعرب عن

رأي يخامر ضميره وقد جمع رسائل نقده في أربعة كتب سماها « الحياة الابدية » تكاد هذه الكتب تكون معلمة يرى أناتول أن النقد إنما هو ضرب من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تستعمله العقول الفطنة الطلعة وكل رواية إذا فهمناها كل الفهم إنما هي ترجمة المؤلف بقلمه ، فالناقد الحاذق هو الذي يروي خواجج نفسه في أثناء روائع المؤلفات وهذا الطراز في النقد يسمى النقد الذاتي ، قال أناتول : « لا يوجد نقد موضوعي أكثر مما يوجد فن موضوعي ، وكل الذين يتبجحون بأنهم يضعون في مؤلفاتهم شيئاً غير لواعج أنفسهم فهم واهمون ، فالحقيقة ان المرء لا يخرج من نفسه أبداً وهذا من أكبر شقاء الانسانية .

اننا محبوسون في أنفسنا فكأننا في حبس أبدي ، فالذي يليق بنا أن نعمله هو أن نعتز بحالتنا الفظيعة ونقر بأننا نتكلم على أنفسنا كل ما عجزنا عن السكوت فاذا كان الناقد حراً وجب عليه أن يقول : « سادتي اني أريد أن أتكلم عليّ في أثناء كلامي على شكسبير أو باسيل أو باسكال أو غيتي فان في ذلك فرصة جميلة .

قال أناتول : تعرفت إلى السيد كوفيليه فلوري وقد كان ناقداً قديماً ، وفي ذات يوم انطلقت نحوه وهو في داره الصغيرة فأراني مكتبته الحظيرة التي كان يفتخر بها وقال :

« سيدي انك لتجد كل الانواع ممثلة في هذه المكتبة كالبلاغة والآداب الرفيعة والفلسفة والتاريخ ما خلا النقد فانه يحيط بكل الانواع ، نعم يا سيدي فالناقد يكون تارة خطيباً ، وتارة فيلسوفاً ، وتارة مؤرخاً . »
لقد أصاب السيد كوفيليه فلوري في كلامه فالناقد يجمع كل هذه الصفات أو انه قد يمكنه جمعها فاذا أراد أن يبرز أندر القوى العقلية وأشدّها نوعاً واختلافاً أمكنته مناhez الفرص ، وهو يعمل تاريخ البشر العقلي

من دون أن يخرج من نفسه ، فالنقد من حيث التاريخ هو آخر صيغة من الصيغ الأدبية كلها وربما وصل الى استغراق هذه الصيغ كلها فانه يليق كل اللياقة بالجماعة المعدنة التي تكون ذكورها كثيرة وتقاليدها طويلة وعلى الخصوص فانه مناسب للجماعات الطليعة ، المتعلمة ، المصقولة ، وتقدم النقد يستلزم ثقافة اكثر مما تستلزمه كل الصيغ الأدبية الباقية . ابتدع النقد مونتان وسانتبوف وبييل ومونتسكيو فانه يتحدر من الفلسفة والتاريخ وقد استوجب انتشاره وترقيه جيلا أطلقت فيه الحرية العقلية . هذا هو نظر أناتول فرانس في النقد وقد كان نقده أشبه شيء بأحاديث يظارحها أهله وخلطاءه وكان يسير فيه سير المتنزه . فيقف حيث يطيب له الوقوف ويسترسل الى أذواقه وخيالاته على شرط أن يكون في هذا كله صادقا ، أميناً ، رؤوفاً فلا يريد أن يعرف كل شيء ولا يشاء أن يفسر كل شيء ويعتقد باختلاف الآراء وتباين العواطف ويتكلم على ما يجب أن يجب .

شغف أناتول فرانس بالنمط القديم شغفاً عظيماً ، فانظر الى رأيه في هوغو وهو من أكبر الشعراء المجددين :

« لا جرم أن علاج هوغو للكلمات كان أكثر من علاجه للأفكار فقد ظهر أنه أدمج في اسمي الفلسفات طائفة من الخيالات والاحلام متقطعة مبتذلة ، والذي يؤلمنا ويفزعنا أننا لا نرى في تأليفه الكبيرة بين الكثير من أشخاصه الفظيعة صورة بشرية . قال الاغريق : الرجل مقياس كل شيء إلا أن فيكتور هوغو جاوز كل قياس لأنه غير انساني ولم ينكشف له قط سر النفوس . لم يخلق هوغو ليفهم وليجب ، وقد شعر بذلك من غريزته ولهذا فقد أراد أن يدهش الناس وقدر على ذلك حيناً من الدهر طويلاً ، ولكن هل يستطيع المرء أن يدهش غيره في كل وقت ، عاش

فيكتور هوغو مثلاً تسكره الالوان ورنات الاصوات وقد أسكر العالم بذلك . هذه هي عبقريته كلها ، انه ذو أفكار غريبة وانه متفان منقطع النظر وهذا شيء كثير ولكنه ليس بكل شيء .

هذا هو رأي أناتول في هوغو فان أناتول شغف بلغته القديمة ، وذهب في الحرص عليها كل مذهب ، وولع بمفردات اللغة لانه يرى في اللغة صورة وطنه وقومه من قديم الدهر وحديثه ، ومرآة تنعكس فيها حضارة أمته ، فاللغة ملكت عليه عتله ولبه فهو يحب معجزات اللغة لانها تحتوي على شيء جميل نفهم فقد قال :

« انظر الى معجم غازيه أو غيره من المعجمات ، وتصور انك ترى روح وطننا في هذا المعجم ليتصور ذهنك أن في هذه الصفحات عبقرية فرنسة وطبيعتها . ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار أجدادنا ، وأفراحنا وأفراحهم ، وأعمالنا وأعمالهم ، وآلامنا وآلامهم . ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم الرقيق الذي نشمه اليوم . ليخطر ببالك أن كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عديدهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليهجس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشرية ودمها وروحها » .

بحث أناتول فرانس في كتابه « العبقرية اللاتينية » عن لغة الشاعر لافونتين فقال :

كان لافونتين يواع بالكلمات ويعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً إلا إذا حسن اختياره للالفاظ . فالكلمات هي أفكار ، ولا سبيل إلى الاصابة في الحكم إلا باتمكن من النحو والمفردات الصحيحة . وأظن أن الشعب الاول في العالم انما هو الشعب الذي يملك أحسن الاصول

محا (٢٨)

في النحو وتنسيق اللفظ . قد يقع في اغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا . ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم بصيء ظلمة كل شيء .

اني لا أجد عناءً في بيان المآخذ التي أخذ عنها لا فونتين أسلوبه ، لقد أخذ عن المتقدمين من الشعراء والقصاص ، يحب لافونتين العبارات القديمة فاذا وقع نظره على كلمة قديمة جزلة المعنى استخرجها من موضعها واستعملها في شعره في المقام المناسب وقد استعمل أيضاً في أشعاره عدداً كبيراً من التعابير التي استعملت في عصر غير عصره ، ولكنه أعاد إلى هذه التعابير شبابها .

فلا ينبغي لنا أن نضيع شيئاً مما يمكن أن ننفعا ، وهذه حكمة اقتصادية تنطبق على كل الخيرات ، فهي تنطبق على خيرات اللغة كما تنطبق على غيرها فاذا أضاعت كلمة طيبة الاصل معناها الاًول وأصبحت لا تستعمل إلا في معناها الخاص أو في معناها المحرف ، فجدير بالكاتب الحكيم أن يعيد إلى هذه الكلمة سعة معناها الاًول وفسحته وعلى هذا مشى راسين ولافونتين . ثم قال :

يتبين لنا أن لافونتين الذي استعمل هذه الكلمات كلها لم يخترع شيئاً منها ولبعلم الانسان أن حذاق الكتاب هم في الاًعمم من الاًحوال قليلو الميل الى توليد الالفاظ ، فان كنز اللغة المشترك كاف وهذا الكنز لا ينقب فيه الذين يكتبون على السواء ، فكثير منهم لا يجدون فيه ما يحتاجون اليه اما لكسلهم واما لفقدان عبقريتهم . أما لافونتين فقد استخرج منه كنوزاً .

وبعد أن أشبع أناتول الكلام على لغة لافونتين قال :
« أتمنى لو أن آرائي هذه تقوي في بعض العقول محبة لغتنا ، لقد تغيرت هذه اللغة مرات كثيرة ، ولكن لم تتغير الاً محاسنها . لقد قوي أسرها ، وانبسط أفقها وأغناها كل نشء من عنده بكلمات تدل على

أفكار وعواطف وأفراح وآلام وعلى مجهود ملايين من الناس ، لقد جاءت
الينا على هذا النحو مترعة الجوانب من قرن إلى قرن ، وهذا الميراث
الوطني عزيز على كل النفوس التي تحب وطنها .

* * *

هذا بعض مما تمثله الخاطر وتصوره البال من آيات اناتول فرانس ،
وما ذكرته انما هو غيبض من فيض . واثن فاتي كثير من صوب عقله ،
ونسج طبعه فلا يفوتي حفظه لغة قومه في القرن العشرين ، ودعوته
شباب وطنه الى محبة لغتهم . فقد ملكت عليه لغته مشاعره ، أحسن اليها
ولم يسيء ، وبرّها ولم يعق ، وأشفق عليها ولم يك جباراً عنيداً ، ولم
ير فيها رأي طائفة من ادبائنا في هذا العصر رغبوا عن لغتنا القديمة كل
مرغب ، وانقبضوا عنها كل منقبض على انه ما ادخرت الآباء للأبناء ،
ولا أبتت الموتى للاحياء شيئاً أفضل من هذه اللغة . واثن عبثت الايام
بمديد ملكنا فانها عجزت عن العبث بميراثنا الوطني وهو اللغة . صارت
لغتنا لغات شتى تعاقبت في آفاق الشام من قديم الدهر (١) فصرعت هذه
اللغات بحذافيرها ، بعد أن سلبت حضارات أهلها أجمل جمالها وأحسن
حسنها وتمكنت في ربوع الشام وكثير من بقاع الارض تمكن الاحياء
الذين صارعتهم الطبيعة وصارعوها ومارستهم ومارسوها فعجزت عنهم فقركتهم
وشأنهم يستضيئون بضياؤها ويستنشقون من نسيمها ، اشتعلت لغتنا على بدواة
الجاهلية وحضارة الاسلام . واستوعبت شدة بني أمية ورخاوة بني العباس .
واثن درست رسومنا وطمست آثارنا فأضعنا ما أضعنا فقد بقي لنا رسم حفظ
لنا ما قذفت به الخواطر وجاشت به الصدور . فرحم الله امرءاً تعهد هذا
الرسم وتفقدته ، فزاد في محاسنه ونقص من مقابحه !

دمشق : كانون الثاني ١٩٢٧

—••••—

(١) القى نظرة على الجزء الاول من خطط الشام للاستاذ العلامة محمد كرد علي
رئيس مجعنا العلمي ، وتدبر فيه فصل « لغات الشام » البارح .

أفليدة وليدة

«تاريخ حياتها»

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يخطو الدهر دائماً في وناءٍ وكبرياءٍ وصمت ، فيعفو الاثر ، ويفري الحجر ، ويبري الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حياة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئاً واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر في قراره ويمكن كمن السر في دخيلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبي ، واحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يتخونه البلى ، ثابتة والعيش نزعزه الاحداث ، ناضرة والمنى يصوحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهم ظلام وسحب ، فمن منكم يا سادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه الوجود ، وأول ملعب عرف فيه الرفيق ، وأول مكتب رأى فيه المعلم ، وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، في غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدّة الحنون ، أو الأم الرؤم ، أو الظئر الحانية ، فينصتون في سكون وشوق إلى ما قصه عليهم من روائع الأسمار ، وبدائع الأفاصيص ، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدث في حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن يخدر الأعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى ، وتسمع بقيه الحديث الشهي في الحلم !

هذه الأفاصيص الشائقة التي كانت لعقولنا الصغيرة سحراً ، ولعواطفنا المشبوبة سكرًا ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والاماني تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت

من عهد إلى عهد ، ومن مهد إلى مهد ، ومن بلد إلى بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالغناء والشعر والرقص فلا تعرف لها أولية ، ولا تحدّد في الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الأساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها إلى بلاد الفرس ، ثم رحلت إلى بلاد العرب ، ثم استقرت بها النوى في أقطار الغرب ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتسم بسماة العقيدة .

وأما أبطالها الذين وجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس أولاً بما فعلوا ثم سرّجوا حول أسمائهم وأنبيائهم الاكاذيب والاعاجيب حتى أصبحوا أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم : كدعد ويلبي في الشعر . وأبي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الأبطال فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً المثل الأعلى ، أو القدر العايب أو الجد العائر ، أو السلطان الجائر ، أو الهوى المتساط ، أو الأمل الآبي ، أو الحظ السعيد .

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الأمومة أراكم ولا ريب تركتموني أتكلّم وعدمتم بالذاكرة إلى تلك المهود الحبيبة تتخيّلون سحرها ، وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون إلى ذلك الصوت الحنون ، ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أولئك الأبطال الذين طالما اكتبتم لاكتئابهم ، وتألّمتم لمصائبهم ، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب ، وبأساء الحرب ، ولأواء الخطب : من أمثال حسن البصري ، ونور الدين المصري . والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر ما سجلته الذاكرة ...

أنا كذلك يا سادتي ذكرت حين كتبت هذه السطور — هاتيك

القبور التي ضمت هواي ، ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه . . . ثم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت مجلى من مجالي الأانس في القاهرة كان جمعة القلوب ، وألفة النفوس ، ومستجماً الخواطر ، فمصفت به روح المدينة الحديثة ، ذلك منظر المحدث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر في مقهى الحى وهو في حلته الشرقية المفوَّفة الضافية ، فوق صفته الخشبية البالية العالية ، وقد تجمع بين يديه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، أوزاع العامة ، وشيوخ المحلة يستجمون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية ، وتدخين النرجيلة العجمية ، وتبادل العواطف الأخوية ، ثم الاصغاء المشترك إلى « أبي درويش » وهو يقص بصوته العريض المتند ، وجرسه الهادي المتزن — حروب « عنتره » أو وقائع « أبي زيد » أو مخاطر « ابن ذي زنب » فينقلهم بقوة تمثيله أو بحسن ترتيبه ، على جناح الخيال — إلى عصور هؤلاء الأبطال ، فيشهدهم مجد البطولة وسُلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الخبيث أن فورة الحماسة أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أسر أو شدة ، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار فلا يجد هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو إلى إطلاق البطل من إيساره ، وإنقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره . . .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة يجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب ، والصمت الحالم ، والمنظر الكئيب — قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلايلات في سمائها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين ، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج إلى القوم يتهدى في عمته المكورة وجبته المصفرة وقفطانه الأنيق الأصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلال تنوس على بطنه المنتفخ الضخم . فاذا استوى على عرشه المنجد — توهج البخور من جانب

وتضوعت العطور من جانب ، ثم خشعت الأصوات ورنّت إليه العيون وأنشأ يحدث .
 فإذا بدا لأحمد أن يسأل بمض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب أولاً من
 أنه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه ليلة زفاف عبلة إلى عنتره . . .
 فإذا كانت القصة قصة بني هلال - وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال إلى
 عصبية شنيعة . ورأيتم إخوان الأئمس قد أصبحوا أعداء اليوم : فطائفة
 تعصب لبني هلال . وطائفة تعصب لبني زنانة . وهؤلاء يريدون الشاعر
 على أن يقص واقعة . وأوائك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر لا يجب
 إلا من يجزل له العطاء . فإذا رجحت كفة وشأت كفة أخذ يروي من
 ذاكرته وغيبه - على هوى الفئة الغالبة ما لم يسجله تاريخ . ولم يدونه
 كتاب . فيزورّ الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمش بما خزنه في حافظته
 - من مختلف الأسرار ورقائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلّة تميز العجب
 في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فأما نفحة أخرى
 تميل به إلى الجهة الثانية ، وإما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .
 هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل
 الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل
 الفكاهة اللبق الحافظ الواعظ - هو الأثر التاريخي والنموذج الحقيقي ،
 لذلك القصاص البارع الذي خلّف لنا كتابنا العالمي الخالد « ألف ليلة وليلة »
 يرجع تاريخ هذا القصاص يا سادة إلى صدر الإسلام ، والفضل في
 وجوده كان أيضاً للقرآن الكريم . فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من
 أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها -
 من أسلم من أهل الكتاب كتميم الداري ورهب بن منبه وكعب الأخبار
 وعبد الله بن سلام : فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون إلى الناس في
 المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء ، ويسرفون في تهويل
 هذه الأنبياء ، ابتغاءً للعبرة ، واتماساً للموعظة ، ووافق هذا الضرب من
 الوعظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر القصاص الإفك فيه ،

حتى طردهم أمير المؤمنين علي من المساجد ، ما خلا الحسن البصري .
ولكن دهاء السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول وقوة أثره
في توجيه الميول — فاتخذوه لساناً المدعية وسبيلاً لافتعال الأحداث .
واختلاق الأقاصيص في الأغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى
رجلاً على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم
دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحزبه . وكان هو إذا
انفتل من صلاة الفجر جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه ، وكان
ولائه وقواده يقدمون القصص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار
الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ،
وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الأثير في
حوادث سنة « ٧٧ » أن عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة
يخرضهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال : أين القصص ؟ فلم يجبه أحد .
فقال : أين من يروي شعر عنتره ؟ فلم يجبه أحد .

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً إلى جنب يشبهان على
الناس وجوه الرشد ، ويموهان على العقول صور الباطل ، والقصص كانوا
في ذلك أشد وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفترون إلى التاريخ أو
إلى الدين . فلما هدأت نائرة الأحزاب ، وسكنت طائفة الفتن ، ونضجت
العقول ، عاد القصص إلى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ،
والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمانه ،
فانقلب إلى العامة يسامرهم في أمثالهم وأعراسهم بما أثر من أيام العرب
ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .

وانتشر القصص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر
اجتماعها ، وحاجة من حاجت عامتها ورعاها ، واشتدت هذه الحاجة حين
انفجرت الدواهي على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده :
من عنف المتسلطين من السلاجقة ، وعسف المتغلبين من المغول ، وغزو

المتعصبين من الفرنك ، فطلبهم العامة تفرجاً للكرب ، والخاصة تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أربع صناعة ، وأنفق بضاعة ، وأرفع مكانة ، لأن طبيعة إقليمها ، ونظام اجتماعها ، وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي ملموم الرقعة ، متصل العمارة ، يوجد بالخير الكثير ، على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلي الأسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة يميلون إلى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين يسرٍ متدفق طلق - إذا عم الفيضان ، وعدل السلطان ، واقتصاد الموت - وعسر متجهم كرز - إذا فحش الغلاء ، وألح الوباء ، وبغى الحاكم - . وعلى الحالين كان السامر أو المسامر عنصرين من عناصر الحياة ينضران بهجة العيش في الرخاء ، ويسريان كربة النفس في الشدة .

وكان أول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتر التجيبي سنة ٣٨ تولاه مع القضاء ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداءً للمعيدة ، وأبواقاً للسياسة ، تسمع منهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سنداً وحبّة . وترون ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان « يعقوب ابن كلّس » وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الامام « علي » ومأساة الامام « الحسين » موضوع المنابر والسوامر في شهري رمضان والمحرم . وقيل ان ربيعة حدثت في قصر « العزيز بالله » فتناقلتها الاقواء ورددتها الاندية فطلب إلى شيخ القصص يومئذ « يوسف بن اسماعيل (١) » أن يلهي الناس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنتر ونشرها تبعاً في اثنين وسبعين جزءاً سمعت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين إلى

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري . ومن قال هذا الرأي الاستاذ كوسين برسيفال الذي طبع لهذه السيرة ملخصاً في باريس .

اليوم وهي الإيافة العرب لا يتازعها هذا الشرف إلى الآن عمل في آخر .
وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد
والقاهرة . في عهدي « المقندر بالله المباسي » و « العزيز بالله الفاطمي »
كان القصص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الأخبار ، ويتنافسون
في جمع الأسماء ، من الوراقين والرحالين والعامية .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه
أنبئ عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وخطورا
في مجالس الخلفاء ، وسوامر الملوك ، فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع
ونبالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتنزع بها
إلى السليقة العربية المجدولة على الإيجاز والقصد في الشعر والخطب
والرسائل والقصص .

فما جمعه ووضع « الجهشباري » و « ابن دلان » و « ابن العطار »
في القرن الرابع من الأفاضل في الحب الطروب ، والترف المسرف ،
وما وضعه من قبل هؤلاء « سهل بن هرون » و « علي بن داود »
و « أبان بن عبد الحميد » من الاسماء في الأمثال الرمزية والحكمة العالية
والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء « عيسى بن داب » و « هشام
الكلبي » و « الهيثم بن عدي » من الأخبار في الهوى العذري والسخاء
العربي في الاسلام والجاهلية — كل أولئك موسوم بسمة العقلية العربية
الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

أما القصص في مصر فكان غالباً من عمل القصاصين والمسامرين ،
يلقونه من الكتب ، ويلقونه من الأفواه ، ويحدثون به الدهاء في المجالس
العامية . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ما عندهم من القصص . فإذا
ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم
لذلك مضطرون إلى تطويل الموضوع بالاستطراد . وبسط الحادث بالتزيد ،
وجذب القلوب بالاغراب والمبالغة .

ومن ثم اتخذ الأدب القصصي في مصر شكلاً لا عهد للأدب العربي به ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة رومان « Roman » في اصطلاح الفرنك ، فان المعروف الشائع من قبل — إنما كان المثل « Fable » والأقصوصة « Conte » والحكاية « Nouvelle » وهذه الأنواع قد تولد بعضها من بعض على نحو ما يرى الاستاذ « برونير » الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب « دارون » على الأنواع الأدبية ، فالأقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الأقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية ، باتساع الخيال ، وفعل المبالغة ، وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوءها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لأن عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب ، والعرب في عهودهم الأولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الأمور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا أدب الحديث فلا يفرقون في الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ، ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ، أما القصص المصري فقد تهيأت له الأسباب اللازمة لخلق القصة : كان سمير الأوزاع والعامية فلم يتقيد معهم بقوانين الخلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الألفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق ، قصداً إلى الاغراب والتشويق ، ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ، ويستطرد كثيراً إلى الحوادث العرضية ، ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لأنه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعه لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الأجداث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعامية مصدر ثقافة .

كان القصص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الاقاصيص الموضوعة والمنقولة ، والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ،

ثم يضيف إلى ذلك ما تنوقل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ما رأوا من الأعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضال ويزرك بن شهر يار مثلاً ، إذ يحدثون بها الناس كأن يقولوا لهم ما حكاه ابن خرداذبة من أن في بعض الأمم رجالاً عراض الوجوه ، سود الجلود ، لا تزيد قامة أطولهم على أربعة أشبار ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وإن فيهم من له أجنحة يطير بها . ومن رأسه كرأس الكلب ، وجسمه كجسم الثور أو الأسد ، وما جاء في كتاب « المستطرف » من أن في « البلغار » من طوله أكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه ، كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل . وما رأى الرحالون بالطبع هذه الأشياء ، وإنما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول ، تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد إلى حوادث شتى ، لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة « عنتره » : بناها على حادثة أصلية صحيحة هي « حرب داحس والغبراء » التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام . ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو « عنتره بن شداد » العبسي ، فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجوانته وبطولته وفصاحته ووجهه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر ، ولكن حروب عبس وذبيان مها هول فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلاً ، ولا تدر عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنتره وبين فرسان العرب فيقاتلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصص في أثناء ذلك ينقلنا في السهول والأودية ، ويقلبنا بين المضارب والأخبية ، حتى جلا

لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطر كم من طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك أن الشوق شديد ، وإن الأمد الذي يريده بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ويقدم به إلى مصر بلد الفصاص فيقود عنتره بها حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه ، ثم يذهب إلى القسطنطينية ويواجه من امرأة رومية . حتى إذا ظفرت المنون أخيراً بالشجاعة الخارقة عاد ابنه من « بيزنطة » إلى الحجاز فطالب بعرش أبيه وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميثة التي اختارها الفصاص لعنتره تدل على قدرة فنية عجيبة ، وكان « لامرتين » لا ينفك بها معجباً ، ومنها طروباً ، فقد ذكر أن « الأسد الرهيص » أحد خصوم « عنتره » المقهورين الموتورين رماه غيلةً بسهم مريش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق خشي على قومه من بعده شره الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطياً جواده ، متكئاً على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة . فارتد الجيش وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنتره حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، فلما طال وقوفه ، وجارز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر الحيلة لكشف الأمر فأرسلوا إلى جواده حجراً تهيجه ، فلم يكذبها الفرس حتى وثب وثبةً خراً لها فارسه على الأرض صريعاً .

والغالب فيما أظن أن الفصاص الماهر قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع « سليمان بن داود » أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منبع

الحوزة ، باهر الجلالة ، صافي المورد ، لا يكدره وانغ ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة ، وعرويته توحى الشهامة . فلما هبت الاغصير الهوج بالبربرية الجامحة ، فأطفأت منائر بغداد ، وزعزعت عرش الخلافة ، وعبئت المعجمة الجاهلة بتراث العرب : من علم وأدب ، وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر ، تنبح الهلال الآفل ، وتنهش المجد الطريد ، رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصص قد اتسع خياله ، بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة عُقلاً من أسماء مؤلفيها : لان القصص المحترفين إما كتبوها لانفسهم فيما أرجح ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنشرت على شكلها ، دون اسم ولا رسم ولا تعريف . وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي يزن ، والاميرة ذات الهمة ، وفيروز شاه ، فأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك واضح لاذنى نظر من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور ، وأما أنها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائمه ، وأسماء أشخاصها ، فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر ، حتى الذين لم يروها أقدموهم إليها . . .

فالمهل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع إلى فرعي رشيد ودمياط : لان الملك « سيفاً » وهو قادم به من السودان وقف يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قد عب عبا به وطفحت أواذيه فاندفق شطر منه إلى الشمال . واتجه الملك بالشرط الآخر إلى اليمين .

ومدينة « سمنود » أصلها سماء نود لأن الحكيم « نودا » صاحبها قد عقد عليها سماءً بالسحر توقفاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل إلى مصبه . ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم ، وقال أن قبره هو الذي يعرف الآن بالجيوشي .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فإن العواطف الدينية والحماسة القومية التي ألهمت في قلوب المسلمين هذه الغارات حملت القصص على أن يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الأشعار والاختبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر .

فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً يقتحم المعارك والارصاد على الوثنية والشرك في معالم الأرض ومجاهلها ، وهو يقول : « لا اله الا الله إبراهيم خليل الله » . وكذلك سائر الأبطال في سائر القصص ، الا أنهم كانوا بعد الاسلام لا قبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المايك بفساده ، وحكم الأتراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من أركان الاجتماع ، وحللا أواصر الاخلاق والطباع ، ومثي الناس بالخلاص الأوباء ، وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخذوا إلى التصوف أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالسطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخدعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة في مصر إلى مناسر من اللصوص والعيارين ، يقطعون متون السبل ، ويمشون بالأمن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم إجلال الزعماء ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة فظهر حينئذ ذلك القصص الوضع الذي يمثل هذه الحال بمقارنتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهانتها ، كالقصص الذي يدور على « علي الزبيق » و « أحمد الدنف » و « حسن شومان » و « دليلة المحتالة » أو « دالة

المحتالة « كما يسميها « المسعودي » . وأصبح أسلوب القصص في هذا الدور دأراً بين الجمالة والقحة . فهو يستعمل في قصصه لغةً مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملاً محفوظة ووقائع واحدة يرددها في كل قصة . ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتماد الناس في جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر . فتكدسوا في السواحل حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الأساطير والأشعار . فبهوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل . فكان مما دون في تلك الحقبة الغربية كتابنا وموضوع محاضرتنا « ألف ليلة وليلة » .

« ألف ليلة وليلة » يا سادة كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراعت من خلاله ميوله وزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب . قد لقي من جفوة الخاصة وترفع العلية أذىً طويلاً ، أغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الأدياء فلم يمحشوا فيه ، وراه « محمد بن اسحق المعروف بابن النديم » فقال إنه غث بارد ، لأنه نظر إليه نظره إلى الأدب الارستقراطي الذي يصور ترف الخيال وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلب الديمقراطية وسيادة الشعوب ، واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي « الرومانتيكيين » في الغرب بحياة السوق والدهاء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء ، وهب رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن « فولكلور » (١) الشرق أخذ أدبنا بحكم التقليد والعدوى — يعطفون على أدب السواد ، فدونوا اللغة العامية ، وجمعوا الاغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش — إلى قول الأوربيين : ان في أدبنا الموروث

(١) فولكلور « Folklore » كلمة انكليزية يراد بها في الأدب الأوربي - مجموع التقاليد والأساطير والأشعار الشعبية لأمة من الأمم .

كنزاً دفيناً — من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم يخلدوا بدياً إلى هذا القول بثقة . واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي أن يذكر في الكتب ويوضع في المكاتب وينبه الناس إلى فضله ويهنأ العرب بانتاجه حتى رأينا بعيوننا أنه تقل منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى كل لغة . وحلّ الموقع الأول من كل أدب ، وظفر باعجاب النوايخ من كل أمة . حتى قال « فواتير » انه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة ، وتمنى القصصي الفرنسي « استندال » أن يحو الله من ذاكرته « ألف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في أصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وان دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطريف الممتع من فصولها . وان الأستاذ « فكتور شوفان » أفرد له في كتابه « تاريخ المؤلفات العربية » جزئين سرد فيها مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين لخص فيها طائفة كبيرة من حكاياته ، وان الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح فاستخرجوا للأول رواية « لص بغداد » وللثاني « قسمت » أو « القضاء والقدر » ، وان رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا — قد اقتبسوا منه أدباً للأطفال فاختصروه وصوروه ، ولقيت أنا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر أميركياً قد أرسلت الأول جامعه ، والثاني جميعته ، لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات « ألف ليلة وليلة » .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرأه وتسمعه ، ومطابعتنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون إليه في تاريخ الأدب . ولكنهم إلى اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه ، قد سجل على توالي القرون

أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مخلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب الذي احتقر العامة . فكان منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ الفيلسوف والأديب الباحث والكاتب القصصي منهل ثرّ ينبوع ، صافي المورد . وهو — فضلاً عن ذلك — كان للشعب العربي في زمن انحلاله ، وضياح استقلاله ، وصعوبة اتصاله قبساً يبعث الحرارة في النفوس الخاملة ، وذكرى تلوع القلوب أسمى على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أدلّ عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة ، ومكانها البارز في التاريخ : ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محوها . أما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخب ، وصداها داوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في « بغداد » متحف زاخر بالأعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث إلى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ « بغداد » في جميع اللغات مرادفاً للعمران الزاهر ، والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزاً للعدل الشامل والزمن الخصب . ذكر أحد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : كان ذلك في العصر الذهبي إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد .

ذلك بمض فضل الكتاب على « بغداد » . وقد ذكرت من قبل أنه لم يُؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بنيها ، وإنما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة

وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة بالقاهرة . ثم كان حظ القاهرة من كتاب « ألف ليلة وليلة » أن صورها للناس مثابةً للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل بينما يصور « بغداد » مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ومظهراً للترف ، حتى كان من جراء ذلك أن أهل « بغداد » لا يزالون يقولون « عياق مصر وحيال مصر » ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان إذا أظهر البغددة . وهي كلمة مشتقة من « بغداد » تدل على السرف والترف والبطر والنبل !

وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب أن القصاص المصري إذا تحدث عن مصر - وهو منها وفيها - يتحدث عما يرى ، وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فإثما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وُضع من الإقاصيص الجميلة في بغداد ، ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة ، ويتأثر بما ركَّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي ، وتمظيم البعيد ، ويتأثر بجبهه أحداث التاريخ وتطور الأمم ، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة ان يعترف بموت « الرشيد » ، ومصرع « بغداد » ونكبة المجد الأئيل .

أما بعد فإني أحاول الآن يا سادتي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بمقدار ما تهيأت لي المراجع في « بغداد » ، بعد أن توفرت على قراءته ودراسته في مختلف الطبعات ، ووقفت على ما نشر عنه من الأبحاث في بعض اللغات . وما أريد بالطبع أن أدفع السأم في نفوسكم بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وإنما أجتزئ بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من أمر هذا الكتاب .

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كالف ليلة وليلة أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبّه ، لأننا إذا فرغنا إلى التاريخ نسألّه قال : إن ما يتصل بالأفانيس والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الأديب ومنهاج المؤرخ ، وإذا رجعنا إلى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله ، نصيب كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجّة خادع الرأي قليل الغناء ، لأن كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه تتفقان لا في الترتيب ولا في النص ، ففي حكاية البنات مع الجمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع ، وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالألفية في علم النحو ، وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ويكتفي بذكر الروايات السبع . فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمتنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرقمين نتمتع في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما بقي في الكتاب من صور الأساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ، ولم يعف عليها الزمن .

كان أول من ذكر الف ليلة وليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب ، فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد : « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمتها من تقرب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا

والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية « - وفي رواية أخرى الفلهوية بدل الهندية - مثل كتاب هزارأفسانه ، وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة واسم الخرافة بالفارسية « أفسانه » . والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة . وهو خبرالملك والوزير وابنته وجاريتهما شهرزاد ودينازاد « ثم جاء بعده محمد ابن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الاول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشفانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه الف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة . . . رُرت في أثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانه يقال لها دينازاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن « .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « والصحيح ان شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزارافسانه ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لائن السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيت به تمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث « .

فالرجلان كما ترون متفقان علي أن الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي، وانه موضوع في خبر الملك والجاريتين شهرزاد ودينازاد، وان اسمه في عصرها كان الف ليلة لا الف ليلة وليلة « ولا عبرة بمجىء اسم الكتاب كاملا في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب فان ذلك من زيادة المصحح ». ويختلفان في نسب البنت والجارية، فيقول المسعودي ان شهرزاد بنت الوزير ودينازاد جاريتها وهو الصحيح، ويقول ابن النديم ان شهرزاد من اولاد الملوك وان دينازاد قهرمانه الملك، ويزيد أن الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر وانه ألف لخميا أو هميا أو حماني أو حمانة أو حمانه أو خماني على اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرها فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء، اللهم إلا إشارة إلى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقرئ في الخطط والمقري في نفح الطيب وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطي الف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي، ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على ان الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين، وان اسمه كان اذ ذاك الف ليلة وليلة، وان عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ أدباؤنا ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره، ولم يسجلوا نموه وتطوره، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سلتستر دسايي، فبدأ البحث العلمي في أصله بمقالين نشرهما في جريدة العلماء Journal de s savants أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده بإحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد

وأنه مؤلف في العهد الأخير، وأنه عربي الوضع من فاتحته إلى خاتمته ،
 ودفع قول المسعودي أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية .
 فناقش أدبته قوم آخرون وأشهرهم الاستاذ « يوسف فون هامر » الألماني
 فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في إحدى المجلات الألمانية ، وفي سنة
 ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الآسيوية أيد فيها رأي المسعودي تأييداً لا سبيل
 عليه لأخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ « وليم لين » الإنكليزي قسماً
 من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول أن يثبت فيها أن الكتاب تأليف
 رجل واحد وأنه ألف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد . ثم
 استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من ثقات العلماء أشهرهم :
 كوجي ومولر ونولدي واوستروب وكريمسكي وشوفان وكارادفو ،
 فاستجلوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح
 من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه أن ثبت في هذا
 الأصل رأياً يقارب الصواب ان لم يكنه .

أصل الكتاب وطبقاته

أصل هذا الكتاب نواة من الإقاصيص الهندية والفارسية تسمى
 هزارافسانه ترجم إلى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة
 بعنوان « الف ليلة » وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم
 تجمع حول هذه النواة في الأزمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن
 العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة ، وطبقة مصرية كبيرة .
 فأما النواة أو الأصل أو الاطار كما يسميه الباحثون فتؤلف من الحكايات
 الباقية الآتية : حكاية الملك شهریار وأخيه شاه زمان ، وهي مقدمة الكتاب ،
 وحكاية الناجر والجني ، وحكاية الصياد والجني ، وحكاية حسن البصري ،

وحكاية الحصان الآبنوس ، وحكاية الامير باسم وجوهر السمنديلية ،
وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان
والاميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديمة الجمال .

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الاصل كما ألعننا الى ذلك
من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح أن المقدمة وبعض حكايات الاصل
هندية ويبنى هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ،
فأما المشابهة والموضوع فإن في حكاية الملك شهريار وأخيه مشابه من
« كاتاسارت ساجارا » الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فإن إدماج حكاية
في حكاية وتوليد قصة من أخرى احدى خصائص الأدب القصصي الهندي
وهي ملحوظة في قصة « مهاباراته » و « بنجه تنرتي » أصل كليلة ودمنة ،
لان الباعث الاول على القصص في أدب الهند كان ابناء الفرصة واكتساب
الوقت حتى يؤفك المتهور عن عزمه ، ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما
فعل اليبغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية « سوكاسباتاتي » فقد كان
يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو الحديث عن زيارة خليلها
في غيبة خليلها ويقطع حديثها دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً اذا
بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات
الف ليلة وليلة فلا نزاع اذن في انها هندية . وأما المشابهة في الأسلوب
فان من لوازم القاص الهندي أن يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك
ما أصاب فلاناً ، فيسأله السامع وكيف ذلك ؟ فيجيب القاص على هذا السؤال
برواية القصة . وهذا الاسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من
الف ليلة ، وقولهم فيها وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة
السنسكريتية « كاتام إتات » ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على
بعض الحكايات ، وينتهي إلى أن هناك طائفة من الاقاصيص لا شك في أنها

فارسية، وهي حكاية الحصان الآبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال وحكاية قمر الزمان والاميرة بدور وحكاية الامير باسم والاميرة جوهر السمنداية وحكاية أردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى أن الاصل كله فارسي تأثر بالعقائد اليهودية والايغريقية والاسلامية، ويريد أحدم وهو الاستاذ كوجي أن يجعل بين هيكل الف ليلة وليلة وبين قصة استر اليهودية صلة ونسبة . ذلك لأن ابن النديم في الفهرست يقول ان هزارافسانه ألف لجميا بنت بهمن ، والطبري يقول ان استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسميا دنازاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد أيضاً على أم حميا بنت بهمن أي على زوجة بهمن وهي التي سماها الطبري استر . ويقول المسعودي أيضاً في موضع آخر أن أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الاولين . أما وجه الشبه بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة الف ليلة فهو أن الملك أسريوس كان كالملك شهريار لا يرى المرأة الا ليلة واحدة ، فتزف اليه البكر مساء ليطردها من قصره صباحاً دون أن يقتلها كما يفعل شهريار ، واستر كانت كشهريار تستهوي الملك وتخلب له فيستبقها ، وهي بنت الوزير وشهرزاد بنت الوزير ، وهي تقرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدراً عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الاصل غربياً بحتاً أو فارسياً بحتاً أو هندياً مشوباً ، فهي ان القصص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً فبدلوا أسماءه وغيروا أسلوبه وموهوا لونه واخترعوا بهضه وطبعوه بطابع اسلامي محض ، ثم بثروه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقاييس الفنية فرزه وتحديدته .

وأما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف . تمثل حياة الطبقة الوسطى بأسلوب صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في أيام العروس (١) بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغني في الأسواق ، وضجة الغلمان في الأفنية ، وقصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق الالهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية يحمي متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثروة المحروم والعدل المظلوم والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعله رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي بن أديم ومنهلة ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ، وقصة أبي العناهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوحه ، وقصة ريحانة وقرنفل ، وقصة سكينه والرباب الخ . . .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقه الاثني على جدها العائر ونهايتها المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة وهو الرسائل الغرامية

(١) أيام العروس اسم كان يطلقه البغداديون على عصر الرشيد . (للسعودي)

التي تجري بين العاشقين إذا عز اللقاء وعيل الصبر . ثم حكاية أنس
الوجود وورد الأكام ، وهي قطعة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها :
أما محباً أو حبيباً أو واصلاً بينها ، والشعر الذي تضمنته إنما أنشئ لها
خاصة فهو مطابق لمقتضى أحوالها ، مشتمل على أسماء أبطالها ، وذلك قليل
في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود يا جامعاً ما بين أنس وجود
يا طلعة البدر الذي وجهه قد نور الدنيا وعم الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة . ثم حكاية
النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليج ، ثم حكاية بدور وجبير بن عمير
الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري ،
ثم حكاية المعتضد مع أبي الحسن الخراساني ، وهي تدور على السرف والترف
والحب وتقص علينا مصرع المتوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادي مع
جاريته . ثم حكاية الجواري الضرائر . ثم حكايات السندباد البحري ، وهي
وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخاطر في مياه الهند والصين قام
بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في
العمران والعظمة .

ومما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقية شوهاها الناس
بالمبالغة ، وزيفها القصاص بالافتعال والتزويد ، وأهل صاحبها هو الذي نحا
بها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب
الهند . فلو صفيناها من سخف الاساطير وصرف الحديث كالسمكة
العملاق التي يظنها الملاحون جريزة ، وبيضة الرخ التي يحسبها الراؤن قبة ،
إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا
الموضوع كوصف جزر المهرجا أو المهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث

عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وما ذكر عن الفيل والكركدن
وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ . . .

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها انفسية الرحالة الذي يشغف
قلبه حب الاسفار ومصارعة الاخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة
يمخوض غمرات الهول ويكابد غصص الفرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ
الا يزعم رحلة بعد هذه المرة . فاذا ما عاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعم
حيناً بالعيش الرخي بين ندماه وسماره ، عاد الوله الشديد الى البحر
الغادر ، ونازعته نفسه الطلعة الى الافق البعيد ، فيجتوي الراحة ،
ويعاف النعيم ، ويبتاع البضائع ، ويكتري السفينة ، ثم يقطع من البصرة !!
وأما الطبقة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمعها وأصلحها للبحث
وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين
القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية
والسير اليهودية والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حملتها الى
طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة
القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة
والحرب ، وتعارض الاخلاق وتضارب المواطف ، وتعتمد على الطلامس
والارصاد والجن والسحر والقدر ، كحكاية جودر التاجر وإخوته ، وحكاية
الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مسرور وزيرين المواصف ، وحكاية
قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والاحدب ، وحكاية مزين بغداد ،
وهي قطعة فنية قوية رائمة ، ثم حكاية علي شار أو بشار مع زمرد .
والطبقة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الاسلوب جريئة العبارة تدور
تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على
تصوير الاخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالمعبر . وظهر القصص المحتمل

الداعر ، بجانب القصص المنصوف الزاهد في هذه الطبقة ، إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن أن تبدو هذه الظاهرة أيضاً في قصص بغداد لولا أن مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القاصيين على كل شيء ، وهم الى ذلك كتاب يتأهبون عن حياة العامة . فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته أبو الباز شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر « انه برز في مكائده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة .

وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام « التوايين » وهم اللصوص الذين اذا أقدمهم الكبر عن السرقة تابوا ورسمهم الخليفة شيوخاً لأصناف اللصوص فاذا حدثت حادثة عرفوا فعل من هي . ذكر ذلك المسعودي أيضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء والشيوخ كما يقصه علينا الف ليلة وليلة .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الجبل إذن بطبيعة العمران ، فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الاسنة من أساطير اليهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الاربعين مثلاً تشبه قصة وردت في « كتاب الاقاصيص الشعبية في مصر القديمة » لكبير الاثريين الاستاذ « ماسبيرو » . ثم تأثروا في أقاصيص العبر والمغزات بالاسرائيليات ، كحكاية مدينة النحاس ، وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك مادعا الاستاذ « فكتورشوفان » الى أن يقول أن القصص المصرية الاخيرة إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الأستاذ لان علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهر الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها .

وأشهر أفاصيص هذه الطبقة حكاية علي بابا واللصوص الأربعة ،
وحكاية علاء الدين أبي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها
أص بغداد للسينا ، ثم حكاية معروف الاسكاف ، وحكاية أبي قير وأبي
صير ، وقصة حاسب كريم الدين ومملكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ،
وحكايات أحمد الدنف وحسن شومان وعلي زبيق ودليلة المحتالة وزينب
النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولاء الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي
وامراته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الأربعة تراكم في العصور الحديثة
عدد من القصص الكبيرة والأفاصيص الصغيرة ليلغ الكتاب الغاية التي
حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من
تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب
وسهم الليل ، وهي من قصص البطولة والحرب تستعر وقائما في العراق
بين العرب والمعجم أو بين دين الحنيفة والمجوسية ، وتستعير صورها من
قصة عنتره وسيرة ابن ذي زن ، ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي
مضروبة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والأميرة
دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد
سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي
ملفقة من أمثال كليله ودمنة .

وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم ،
وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد ، وهي حكاية ثقافية تعليمية
كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ،
وقيام المناظرة برئاسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فإن الجارية كانت
تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتذكر في
التقويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك وبرمودة وبشنس ومسرى وأمشير ،

ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب أن الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان « لادون زلاتيودور » أو تودور . ويظن أن تودد تصحيف تودور . ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لأرى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة .

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والاجواد ونوادير الاولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته

ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لان هزار افسانه نقل إلى العربية غفلاً لم يدم واضعه ، ثم غشيتاه الطبقتان البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الاقلام دون أن يسندها إلى راو أو يعزوها إلى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقص لا أن يروي وينشر ! فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته قبض الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدثها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي المجهول أن يمي اسمي على الخلود ، إما اتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما اتواطو من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته ، ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة في العهد الذي دون فيه الف ليلة وليلة قد سحج النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً فان الكتاب تكوّن على اليقين من أعمال مستقلة ثم نما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الاعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذي قرأ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و ٩٣٣ وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ وليم لين الانكليزي بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٣٥ للميلاد أي في مدى خمسين سنة فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وانما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي وهو أن الاستاذ الفرنسي « جلان » قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر غفلاً من التاريخ ، ولكن الذي نقلها إلى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من يده إلى يد آخر من حلب فكتب عليها أيضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب اذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزمن تقدره كما تقدره « لين » بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الاعلى أما من جهة الطرف الادنى فانا نجد ذكر القهوة المعروفة يتردد في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً وذلك لا يكون قبل العقد الاول من القرن العاشر لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالي وبعض النظم العثمانية تذكر من حكايات أخرى

حكاية معروف الاسكاف وهي مصرية قطعاً والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعذر في أخرى ، وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الامريكى فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الآسيوية جزم فيه بان حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ويرجح انها كتبت سنة ٧٠٦ وان قصة الخياط والاحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الاخرى كميزن بغداد قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا إلى التفصيل الذي يمكّن في الروح ويحمد نشاط الحديث .

سمى العرب هزار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافة أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق : وابتدأ ابو عبدالله الجهمشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويمسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه . . . فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من
(ع) (٣٠)

تتميمه الف سمر . . . ، وإما أن يكون عدد الألف في الأصل إنما أريد له التكاثر لا التحديد على حد قوله تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وأحر به أن يكون كذلك فإن ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً وقال ان فيه دون المائتي سمر وهو الوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٤ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة فإن شهرزاد يدركها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم الا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

اما زيادة الليلة على الالف فمن عمل القرن السادس لان النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة . ويقول « جيلدمستر » في تلميل زيادة الليلة ان العرب يطّيرون بالاعداد الزوجية وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهشيارى يريد أن يسمي كتابه الف سمر وعندنا الفية ابن معطي والفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم أن يؤيده اوستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً على هذه التسمية ؛ وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاجية . والغالب في رأيي أن الليلة إنما زيدت فوق الالف لافادة الكمال كطفحة الاناء ورجحة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً . والكمال درجة فوق التمام ، وان في لغة التخاطب ما يشبه ذلك فقد يقال في المنّ قضيت لك الف حاجة وحاجة وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة وهلم جرّاً .

طريقة الكتاب وأساليب

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الأسماء والاحاديث على نمط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما يسبقها ولا بما يلحقها علاقة . وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر فلما نقلت الأفاصيص الهندية إلى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ادخلت في أدبنا القصصي طريقة طريفة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة الخطوات متتابعة النسق ، وذلك على ضربين : الأول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها وسبباً لروايتها ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل ، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة وكتاب كليلة ودمنة وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامه وقصة جهار درويش وقصة نوروز شاه وكتاب طوطي نامه وأنوار سبيلي مثلاً . والضرب الثاني أن تروى الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه . ومن هذا الضرب في أدبنا كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥ ، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لاحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ ، وفي أدب الفرس كتاب مرزبان نامه لمرزبان بن رستم بن شروين ، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه ، ذلك فضلاً عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الأفاصيص الغرامية المطولة . فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق : يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة كحكايات الأصل وحكايات البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة وحكاية الخياط والأحذب والطبيب وحكاية جان شاه وحكاية وردخان . . . الخ .

ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة كحكايات العشاق في بعض أفاصيص الأصل وما جرى مجراها من حكايات الطبقة

البغدادية فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الطريق ، أو حكاية تلقى في المجلس . ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الأفاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائي وحكاية معن بن زائدة وحكاية ابراهيم بن المهدي وحكاية خالد بن عبد الله القسري مثلاً ، أما أسلوبه فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فاذا حكنا عليه فانما نحكم على جملته لا تفصيله وتتوخى الصفات العامة في تقده وتحليله ، فهو في عمومه أسلوب سهل المأخذ مضطرب السياق ، سوقي اللفظ مبسوط العبارة كثير الفضول كثير التضمين جريء الاشارة لا يعرف الكناية ولا يقنى الحياء ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة فهو يسيرهم في ثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك . يسير سير الأعرج المقلوج وراء المذهبين الكتائبين الذين راجا على التعاقب في عهده وهما مذهب ابن العميد في العراق ومذهب القاضي الفاضل في مصر . فهو يسرف في السجع ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمين الملح ، ويتطرق أحياناً بذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه أو التورية كقوله في قصة قمر الزمان الثانية : « باتا على ضم وعناق ، وإعمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنون الاضافة معزول » وهو يغالي في تضمين الأبيات في خلال الحكايات ويمعن في ذلك غالباً حتى يمل . وترصيع النثر بالشعر أسلوب لا يألفه الأدب العربي ولا الأدب الفارسي ، وإنما هو ميزة من مزايا الأدب الهندي أيضاً . . اقتبس القرس ثم نقله كتابهم إلينا في منتصف العصر العباسي وروجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كان العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن رسم خطاهم أو سار على هدهم . وموضع هذه الأشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثورات العواطف .

ولكن القصص يسيء في الغالب استعمال التضمين فيخطيء مواضع الأسماء ، أو يجهل محل المناسبة ، أو يردد الأبيات نفسها في كل موقف . وقد تدفعه السهاحة إلى الاستطراد الغث فيقول : « وقال الشاعر أيضاً في المعنى » ثم يورد أبياتاً لا يصلها بالموضوع سبب ، كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، فانه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب !

إن خير ما يمتاز به أسلوب ألف ليلة وليلة هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الألفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف إلى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع أو القاريء بموضوع القصة . على أن القصص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فاذا سما إلى مقام الملوك والخاصة خانت قدرته وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصبغة المحلية ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل . فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصص الإسلامية كحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان ، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية كحكاية أبي الحسن الخليلع ، ثم زراه يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكأله أن يقوله ويجعله يفعل ما لا يجوز في العقل أن يفعله ، كأن ينادي وزيره جعفرأ بقوله : يا كلب الوزراء وبكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعشور على القاتل في مدى ثلاثة أيام وإلا شنقه هو وأربعين من بني برمك . وكان يخلع في حكاية علي نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قدرة لكريم الصياد فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قدرها على منكبيه وأعطافه ، ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا له مساعداً من الفن . ولكنه جشمه ما جشمه ليتسنى للخليفة أن يسمع غناه

انيس الجليس وهي في قصر من قصوره وفي ضيافة خادم من خدمه !
فهو يدخله في هذا الزي الزري على الحبيبين والبستاني ليقدم إليهم ما معه
من السمك فيكفوه شيه في المطبخ فيشويه !!

وكثيراً ما تدفع القصص شهوة الاغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة
فتفوته من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية
ثوب الحقيقة فيقرّب ما بينها من الظروف ويمهد لها أسباب الوقوع حتى
لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد . والامثلة على هذا العيب
مستفيضة في كل قصة . وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت
شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني وقصة مزين بغداد ومقدمة
حكايات السندباد وقصة علي بن بكر وشمس النهار .

هذا إذا نظرنا إلى الاسلوب في جملة وعمومه ، أما إذا تتبعناه بالمح
الخاطف في نواحي الكتاب وجدناه فيما بقي من الاقاصيص الهندية والفارسية
وما جرى مجراها من الحكايات الحديثة المقلدة بين السذاجة أبله الاشارة
لانها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريرة ، ولا تظفر إلا
بتصديق العقل البسيط ، فهو جار مع طبيعتها متفق اللون مع صورتها ،
وفي الطبقة البغدادية تراه متين العبارة عفيف اللفظ حسن السبك دقيق
الوصف كثير السجع قليل الفضول لانه في الغالب مكتوب يحذى على المثل
العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الاقاصيص
اسفافاً قبيحاً فيثقل بسخفه على الطبع ويمتدي بضعفه على الذوق ، كما نراه
في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلاً .

أما الاسلوب في الطبقة المصرية فهو في قسمها الأول وخاصة الاقاصيص المكتوبة
منه أشبه شيء بللوب الطبقة البغدادية مع اتساع في السجع وجرأه على الحشمة ،
والغالب عليه التقليد ، فتارةً يجري على منهاج الطريقة الهندية كما نرى في حكاية
وردخان والملك جليعاد ، وتارةً ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في
قصة قمر الزمان الثانية وحكاية مسرور وزين المواصف ، وقد يجري في مجراه

الخاص من التهمك الساخر والمزاح المضحك فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الأحدث وخاصة في مزين بغداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الاتقائية التي ألفها القصاص ليلقوها في السوامر مهلهل النسيج عامي اللفظ مرذول المبالغة سيء التلفيق شديد الوطأة على الحياء والمروءة لصدوره عن قصاصين محترفين جهلاء يتملقون فيه شهوات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة فيقال دائماً في وصف القينة العازفة : « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب الحجر الجمود وصاح العود في الحضرة يا داود » وفي إثارة البعد : « بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن . عين لا تنظر وقلب لا يحزن » وفي غرابة الحادثة « لو كتبت بالابر على آماق البصر لسكانت عبرة لمن يعتبر » وفي وصف الشيخ الفاني « قد أبقى ما أبقى وعركه الدهر فما استبقى ، كأنه مُفْتَنٌ مُلْتَقٍ ، في خِرْقَةٍ زَرْقًا ، تَمُرُّ بِهَا الْأَرْيَاحُ غَرْبًا وَشَرْقًا » كما قال فيه الشاعر :

أرعشني الدهرُ أي رعشِ والدهرُ ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعيأ واليوم أعيأ ولست أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأئس ورياض الأرض وأثاث البيت لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاضاع ومقطوعات الشعر . ذلك يا سادتي ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الاثرية في الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصص والمصنفين والمصححين في مصر قد أخضعوه اخضاعاً شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم ، حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ إليه وسيلة .

فلسفته ومراميه

سيداتي وسادتي : إن من يطلب من ألف ايلة وإيلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة كان كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة وطبيعة

ثابتة وأغراضاً متفككة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ومراميه تتعارض وآراءه تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك .

ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى تتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو إلا صدى يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقليته وعاداته ، ففي الفلسفة نراه يتأثر بالأفلاطونية الحديثة والاخلاق الإسلامية فيدعو إلى الفئاعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر والتفويض المطلق للقدر ، فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صورته البراقة ووسائله الطاحنة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة زين الانانية ، ويرتضي القسوة ، ويتشوف إلى المكاسب الدنيئة ، ويشره إلى اللذة الخسيسة ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة . وقد يصور المتاع الحسي واللهو الجموح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل الخيال كالذي يحكيه عن فتى من أبناء الملوك رسا إلى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون فقضى بينهم في هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو فتخرج إليه من الأصداف خريذة من بنات الجنان كأنها حورية من حور الجنان الخ . . فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكياً يقيم في كل مدينة عرشاً وينصب على كل مجمع من الأحياء ملكاً حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والصلوك في تمتع الحياة ومجالي الأئس عائلياً يبنى نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد . لذلك تجذونه يستهل معظم أقاصيصه يحنين الوالدين إلى النسل ، وفزعها إلى الله أو إلى المنجم من داء العقم . وقد يسمو مغزاه إلى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والحمال . فالجمال يؤوده الجمال الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقي حمله

على مصطبة أمام بيت من بيوت التجار يتردد إليه النسيم الرطيب ، وتفوح منه روائح العطر والطيب ، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وغلمانه ، ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه . ويصغي إلى رنين أوتاره وغناء قيانه ، وينشق أفوايه الطعام الشهي من صحافه وأوانه ، فيرفع طرفه الحائر إلى السماء ويقول سبحانك يا رب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك ! أين حالي من حال هذا التاجر ؟؟

أنا مثله وهو مثلي ، ولكن حمله غير حملي !!

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة ، فان حظها منه منكود وصورتها فيه بشعة ، وكيف نتنظر من كتاب نبي على خيانة المرأة أن ينصف المرأة ؟ ان شهرزاد المسكينة انما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهریار أعجب القصص ابتغاء الحظوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها ، ومن الخطل الأليم أن يسند القصص كل هذه النقائص إلى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن ، وان يجري على فمها في حضرة الملك تلك الكلمات الجريئة المخزية في وصف بهيمية الرجل !!

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة خائنة تبيع عرض الملك للعبد في قصة شهریار وأخيه ، لجوجة جموحة أنانية في قصة الحمار والثور تصر على أن ييوح لها زوجها بسره ، وهي تعلم أن في افشائه ضياع عمره ، حاقدة كائنة منتقمة في قصة الوزراء السبعة ، قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الأولى ، وهي في بغداد سجيننة في قصرها ، مغلوبة على أمرها قد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجوارى والقيان ، وعلى كلتا الحاتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة ، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم ، لا تسمع لها صوتاً في بيت ولا ترى لها أثراً في سوق ، فاذا خرجت من

ظلام الستار إلى ضوء النهار كانت طاغية جاهلة كزوجة معروف الاسكاف ،
أو لصة حيالة كدليلة وبنها زينب ، أو قوادة مرتادة كأولئك العجائز
اللاتي ينقلن الفتنة من مكان إلى مكان ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطة من
العادات والاخلاق والمراسم في السوامر والولائم والأعراس والمآتم
والأسواق والمحاكم فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبقة المصرية
في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع لأن القصاص وهم مصريون تكلموا
عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فاذا قرأتم مثلاً حكاية نور الدين
وشمس الدين وجدتم المصريين كانوا في حفلة العقد يطلقون البخور
ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفاف العروس
ينقطنون المواشط والقيان بالقاء النقود في الدف أو الاطار كما يسميه ألف
ليلة أو الطار كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوتها على المنصة يجلسونها
بين صفين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمعة موقدة ، ثم يلبسونها
حلة بعد حلة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلل ، ومع كل سيدة من
المدعوات إلى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ،
فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة إلى تمام السبع ،
ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبي الشامات وجدتمهم كانوا يستعملون
الحشيش قوة للزوج ويتخذون الحلل خلاصاً من الطالقة الثالثة وهما خلتان
شائمتان اليوم في الطبقة الدنيا ، اقرأوا حكاية معروف الاسكاف تجدوه
مثالاً صادقاً لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب
الأبهة وتبذير ما في الجيب اتسكلاً على الغيب واهتضاماً للحق ، وتجدوا
زوجه فاطمة العرة التي فرّ من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها إلى
أقصى مجاهل الأرض فتبعته ، لا يزال لها شبه في الباقيات الصالحات بمصر
من عهد الجهالة .

أما الطبقة البغدادية فقد عبث بها القصاص وشالوها بلهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حرية بثقة الباحث إذا استطاع تنقيتها من شوائب البهرج والدخيل .

بقي علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القاريء العادي أن يتبين تلك الوجهة فان في كل صفحة من صفحاته دليلاً على أنه مسلم صادق الايمان قوي العقيدة يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العاصي الوائق المطمئن فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق حتى في مقام الحكمة والموعظة ، لا يكاد يذكر حديثاً أو آية وإنما يستند في ذلك إلى مأثور الشعر ومثور الحكم ، فسبيله في الدين إذن أن يدعو إليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لا يتحدث إلا عن المسلمين ، ولا يتخذ أشخاصاً لقصصه حتى الأجنبيّة منها إلا من المسلمين ، فاذا كان أحد اللجنة أو الناس غير مسلم واضطر إلى الحديث عنه ، انتهى به إلى الاسلام أودبر له عقبى سيئة وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين المواصف وزوجها اليهوديين ، فالجيب والحبيبة أسلمتا فورفت عليهما ظلال النعيم والحب وظل الزوج يهودياً فدفتته امرأته حياً . وألف ليلة وليلة بعد ذلك سني لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الاسلام حتى الشيعة ، وكان لهم على عهده في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين وهي مكتوبة بمصر على عهد المماليك ، ولقد دلّ حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضع منها إلى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثان أن أهل بغداد كانوا يفلقون الأبواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث : ان الرشيد سأل الرجل الذي همّ باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فنجاه أصلاً بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال كلا وإنما أنا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته ورسوماته

صنف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات ألف ليلة وليلة فسكان ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية ومجموعتين مصريتين ، فأما المجموعة الآسيوية وهي أقدمهن فلا تشمل إلا على القسم الأول من الكتاب واحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكتوتا وهي تحتوي على مائتي ليلة وقد شرع بطبعها الشيخ اليمني في جزين بمدينة كلكتوتا سنة ١٨١٤ م وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب . ثم نسخة « رسلو » وهي التي طبعتها الاستاذ « هبكت » في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الأول في سنة ١٨٢٥ والاخير سنة ١٨٤٣ .

وأما المجموعتان المصريتان : فهما أحدث من الأولى وبين نسخها اختلاف شديد في الأسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكتوتا الثانية التي جمعها وطبعها الاستاذ « ماك نوكتن » في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة ١٨٣٥ في مجلدين وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها وعتها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، وتقلت جميع الترجمات إلى جميع اللغات ما عدا ترجمة « جلان » . فأما الطبعات : فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية لصدورهن عن أرباب المكاتب وأصحاب المطابع وهؤلاء يتفنون أوفر ربح في أيسر كلفة . على أن أديباً من الآباء اليسوعيين قد طبعه ببيروت طبعاً جميلاً في أربعة مجلدات بعد أن قص من قصصه واقتضب من جملة وهذب من عبارته ، ثم جاء منشيء الهلال فأربنى عليه في الحذف والبتر والاختصار وطبعه بمصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ولا سيما الأولى أليق الطبعات بأخلاق الفقى وحياء الفتاة ولكنها لا تنفعان غلة الأديب الباحث .

وأما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الاستاذ جلان وهي أنيقة الأسلوب رائعة السبك إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية ، على أن

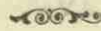
لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف به والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة بباريس في اثني عشر مجلداً ابتداءً من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة بورتن بالانجليزية ، وترجمة ماردروس بالفرنسية ، وترجمة هبكت بالالمانية .

* * *

ذلكم يا سادتي ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وانكم لترون من هذا الاحمال فعل القريحة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحيوية القاهرة والشخصية الآمرة في آباتنا ، والآء فهاذا نفس هذا ؟ لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ، وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ، وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعدل في عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الآدب فأخضعوا ألسنتهم وأفئدتهم لآدب القرآن ، وخلفوا الهنود على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة الإلهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأئم العظمى على أكثر الأرض فأوشكوا أن يعرّبوا العالم ؛ فليت شعري أغيرت الصحراء ، أم فسدت الدماء ، أم ضويت الأبناء ، أم هي ربضة الأسد واستجمامة المنعب واستجماعة الواهب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع الأول في الحياة .

لقد اعتقكم طويلاً وأتعبتكم كثيراً وكدت أخرج من المحاضرة إلى الخطابة فعذراً يا سادتي وشكراً .

دمشق : شباط سنة ١٩٣٥ .



الأدب العربي في بلاد فارس

واللغة العربية في البلاد الإسلامية غير العربية

للككتور عبد الوهاب عزام

الساميون والابرايينون قبل الاسلام

ليس من قصدي أن أتكلم في الصلات اللغوية والأدبية التي كانت بين الساميين عامة والعرب خاصة وبين الإيرانيين قبل الاسلام . فأجزئي . بأن أقول ان الآشوريين والبابليين كان لهم سلطان سياسي ، وسيطرة أدبية على إيران ، ولا سيما غربها منذ الف سنة قبل الميلاد ويتبين هذا في الامور الآتية :

١ - ان آثار الدولة الفارسية الاولى التي تسميها الآثار الفارسية هخامنشي ، ويسميا الاوربيون الاكمنين ، وتسمى بأسماء أخرى في أساطير الفرس ، آثار هذه الدولة كتبت بلغات احداها سامية وكتبت بخط مسباري مشتق منه الخط الآشوري .

٢ - وان لغة إيران أيام الساسانيين اللغة التي تسمى الفهلوية ، كتبت بخط مأخوذ من الخط الآرامي ، واشتملت على كثير من الالفاظ السامية ولا سيما الأرامية منها .

وكان من أثر هذا الاختلاط هذا الخط العجيب الذي سماه ابن النديم هزدارش . وهو خط تكثر فيه الكلمات الأرامية بل تجد فيه ما لا يستعار من لغة الى أخرى من الضمائر وأسماء الاشارة والاستفهام والموصولات وحروف العطف والجر ، وعلامات الجمع والاعداد .

وقد فسر هذا تفسيراً عجيباً ذلكم ان الكتّاب بالخط الفهلوي الغامض كان اذا خشي أن تتبهم الكلمة إذا كتبها باللغة الفارسية وضع مكانها كلمة آرامية تتضح في هذا الخط ، فاذا أراد أن يكتب « كوشت » مثلاً وهو اللحم بالفهلوية كتب « بسرا » بالارامية وقرأها « كوشت » وان أراد أن يكتب « نان » وهو الخبز بالفهلوية كتب « نجا » بالارامية وقرأها « نان » وهكذا . . .

ومعنى هذا أن الكتّاب الفهلوي على هذه الطريقة كان يعرف الارامية فيستعين بها في مواضع اللبس .

*
*

وأما العرب فقد جاؤوا الفرس وخالطوهم وكان بين القبائل العربية والدولة الفارسية احداث وغير من سلم وحرب وموادّة ومعاداة ، وسيطر الفرس على أقاليم عربية . وقد روي أن سابور الملك الساساني صالح العرب وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوج والاهواز .

وقد ذكر مؤرخو الفرس أن بهرام كور الملك الساساني نشأ في الحيرة في كفالة المنذر أحد أمراءها ، وتأدب بآداب العرب وعرف لغتهم ونظم بها الشعر وكان اول من نظم الشعر الفارسي ، وقد أنكره عليه الموأبذة ونهوه عنه .

وكذلك دخلت الفاظ فارسية في العربية وعرف بمض العرب الفارسية ، وكان عدي بن زيد ، وابنه زيد بن عدي يكتبان لكسرى بالعربية والفارسية .

وفي أساطير الفرس صلات كثيرة بين العرب والفرس لها دلالتها .

في العصور الإسلامية

فتح العرب إيران لنشر الدعوة الإسلامية وشمل الفرس عدل المسلمين وإحسانهم ، وسارعوا إلى الدخول في الإسلام فعمتهم الأخوة الإسلامية . قال الطبري : « فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم » . فاغتبطوا وغبطوا بل أسلم بمض الإيرانيين ونصروا العرب في وقائع الفتح . أسلم الديلم بعد القادسية وشاركوا في فتح جلولاء ونزلوا الكوفة ، وشارك أحد أعيان الفرس في فتح الري وتولاها بعد الفتح ، وطلب سياه أحد زعمائهم أن يفرض له كأكثر ما يأخذ عربي ليشترك في الفتح .

وقد انساح العرب في أرجاء إيران منذ عهد عمر ، أذن لهم الخليفة في الانسياح حين ثار أهل فارس والجبال . وقد روى الطبري قول عمر : « ألا وإن المصريين - البصرة والكوفة ، من مسالحها اليوم كآتم والمصريين فيما مضى من البعد . وقد وغلوا في البلاد والله بانع أمره .

وبالفتح صارت لغة القرآن لغة الدولة ولغة العلم والأدب في إيران ، يستعملها العربي والعجمي في علوم الدين وغيرها . وبقيت زهاء مائتين وخمسين عاماً منفردة بالعلوم والآداب لا تشاركها لغة أخرى إلا كتب دينية قليلة كتبها المجوس بالفهلوية تبيناً لدينهم ودفاعاً عنه . وصارت العربية كذلك لغة الخطاب بين المثقفين ، وفي الأمصار الكبيرة ولا سيما في خراسان وغربي إيران .

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري شرع الفرس يستقلون عن الخلافة في أرجاء من إيران ، وكانت دولهم تعظم على مقدار تأخرها زماناً وبعدها عن دار الخلافة مكاناً .

نشأت امارة الصفاريين في سجستان شرقي ايران وامتدت شطر المغرب حتى قاربت العراق وبدأت عهدها باثورة على الخلافة . وقد قرنت الاساطير الفارسية نشوء هذه الدولة بنشوء أبيات من الشعر الفارسي . ثم قامت فيما وراء النهر وشمالى ايران الدولة السامانية وقد انتقل مؤسسوها من ولاة للعباسيين الى ملوك مسلطين بقرون بالطاعة للعباسيين قولاً .

وفي رعاية هذه الدولة التي نشأت في إقليم قصي نشأ الأدب الفارسي وحولت الفارسية أن تشارك العربية في العلوم والآداب . فشرع الفرس يترجمون الكتب العربية الى لغتهم ، كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية الى العربية ، فترجم تاريخ الطبري وتفسيره مختصرين . وشرع الفرس يؤلفون بالفارسية ابتداء ، ككتاب أبي منصور الهروي في الطب .

وشرع الشعراء ينظمون بالفارسية ونبع الرودي السمرقندي اول شعراء الفرس الكبار أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، وقد ذكرت كتب الأدب الفارسي ثلاثين شاعراً في عهد بني سامان .

وأما الدولة البويهية التي قامت في غربى ايران سنة ٣٢٠ هـ واستولت على بغداد بعد أربعة عشر عاماً ودام لها السلطان على دار الخلافة أكثر من مائة سنة ، فكانت في سلطان الادب العربي ونظم معظم أمراءها بالعربية ، وكان من كتبهم أئمة في الكتابة العربية وحسبكم ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والوزير المهلبى ، وأبو اسحق الصابى .

ومما يصح به القياس بين اللغتين في دولة البويهيين أن الصاحب مدحه بالعربية خمسون شاعراً ولم يمدحه بالفارسية إلا شاعران : المنطقي والخسروي .

والدولة الزيارية التي سيطرت على الاقليم الذي بين جبال البرز وبحر قزوين ، وهو الاقليم الذي احتجز عن سائر أقاليم ايران واستعصى على العرب سنين طويلاً بعد أن فتحوا ايران - أعني اقليم طبرستان - فقد تسمى ملوكها وتلقبوا بالأسماء والألقاب الفارسية مثل : قابوس وكيكاوس .

وقد مدح قابوس صاحب الرسائل العربية المعروفة باسم كمال البلاغة شاعران من شعراء الفارسية : الخسروي والسرخسي ، وألف كيكاوس حفيد قابوس كتاب « قابوس نامه » بالفارسية .

وأما الدولة الغزنوية فهي دولة تركية النسب وقد امتد سلطانها على ايران الشرقية والشمالية وبلغت من السطوة ما لم تبلغه دولة قبلها في ايران في العصور الاسلامية . وكان الادب الفارسي قد ازدهر فاجتمع حول السلطان محمود بن سبكتكين كثير من شعراء الفارسية ، والى محمود أهدى الفردوس الطوسي كتاب - الشاهنامه - المنظومة التي تضمنت أساطير الفرس وتاريخهم منذ العصور الخرافية الى الفتح الاسلامي . وكتبت بالفارسية كتب قليلة : كتب اليميني الشاعر تاريخ السلطان محمود ، وكتب البيروني كتاب التفهيم في التنجيم بالفارسية والعربية ، وترجم نصر الله بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة الى الفارسية .

وحيثما امتد سلطان السلاجقة على ايران في القرن الخامس والسادس ، وكانوا تركاً بداءة ، كان الادب الفارسي استحكماً ووضيحاً ، وقد عدّ عوفي مؤلف لباب الالئاباب في تاريخ شعراء الفرس أكثر من مائة شاعر عاشوا في ظلال هذه الدولة .

٥٥

نشأ الادب الفارسي الحديث في أواخر القرن الثالث الهجري ونما وترعرع على مر الزمان ، ونبغ الشعراء والكتاب باللغة الفارسية . فكيف

كانت مكانة العربية في العلم والادب بعد أن نشأ ليران لغة علمية أدبية .

تختلف أحوال اللغتين في الشعر ، وفي النثر ، وفي كتابة التأليف ، أعني في البيان الذي يغلب فيه العاطفة والخيال ، والبيان في الحقائق التي لاشية فيها من العاطفة والتخيل ، وما هو وسط بين هذا وذاك .

فأما الشعر فقد أوع به الفرس منذ نشأت لغتهم ، وكثر الشعراء على مر العصور ، ونبغ عظماء الشعراء فيستطيع مؤرخ الادب أن يعد منذ القرن الرابع الهجري من أئمة الشعر الفارسي من لا يجد نظيرهم كثرة ومكانة من شعراء العربية في ايران ، ولقي هؤلاء الشعراء من الملوك تأييداً وتشجيعاً فالتفوا حولهم ونظموا لهم القصائد والقصص المطولة .

ولكن الشعر العربي لم يضمحل بظهور الشعر الفارسي ، بل بقي مزدهراً شائعاً في أرجاء ايران . عدّ الثعالي في الجزأين الثالث والرابع من كتاب اليتيمة مائة وواحداً وخمسين شاعراً نظموا بالعربية في عصره . وهؤلاء أكثر من كل من ذكرهم محمد عوفي في لباب الالباب من شعراء الفارسية منذ نشأ الشعر الفارسي الى حين تأليف الكتاب .

وقد ألف في أوائل القرن السابع الهجري وعدد صاحب دمية القصر ثلاثمائة شاعر بالعربية وسنين بعد أثر الشعر العربي في هذا الشعر الفارسي الذي زاحمه منذ القرن الرابع كما قدمت .

ويدل على أن ايران بقيت إلى غارات التتر على الاقل ، موطناً رحيباً للشعر العربي ، أن ثلاثة من كبار شعراء العرب عاشوا فيها ووجدوا مجالاً ومستقراً ، وحسبنا أن ينشأ في ايران في القرن الخامس الشاعر القرشي الاعموي ، الذي أشاد بمجد العرب وأخلاقهم وأدبهم ، ومثل في شعره طموحهم وإباءهم ، وصور مواطنهم وعاداتهم وبيئاتهم وهو أبو المظفر الايبوردي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ فقد نشأ في أيبورد من خراسان ، ونبغ في

الشعر هناك ، وتردد من بعد بين العراق وايران ، ومدح خلفاء العباسيين
وأمرء العرب من بني صدقة أمرء الحمة وغيرهم ، ومدح ملوك الدول
الاعجمية كذلك ؛ وما يخرج شاعراً كلابيوردي إلا موطن للأدب العربي
خصيب ، وجناب للغة العرب رحيب .

والشاعر الثاني الفاضي ناصح الدين الأترجاني ، ينتسب إلى أرجان في
إقليم فارس وهو الصقع الجنوبي الغربي من ايران ، وهو شاعر أنصاري
يُعدُّ من كبار شعراء العربية ولد سنة ٤٦٠ و توفي سنة ٥٤٤

وأدل من هذا على تمكن الأدب العربي في ايران حتى القرن السادس
الهجري أن أباسحق الغزي السكلي هاجر من بلاد العرب إلى ايران ،
فأمضى النصف الثاني من عمره فيها ومات بها ومدح كثيراً من ملوكها
ورؤسائها . ولد الغزي سنة ٤٤١ و توفي سنة ٥٢٤ .

*
**

والنثر يخالف الشعر وقد بقي السبق فيه للعربية إلى غارات التتر ، سواء
في هذه الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة المعروفة بالاخوانيات ، وقد
حاكى الفرس كتاب العرب ولم يدركوا شأوم .

ولسنا في حاجة إلى بيان مكانة الكتابة العربية في دولة بني بويه ،
وحسبنا ان نذكر من وزراء هذه الدولة أبا الفضل بن العميد
والصاحب بن عباد .

ولم تكن العربية دون الفارسية فيما وراء النهر في دولة السامانيين ،
ونجد نتفاً من الاخبار تدل على أن كبار كتاب الدولة كانوا يكتبون
بالعربية : مثلاً الاسكافي كاتب نوح بن منصور الساماني كتب حينما
هزمت الجيوش السامانية ما كان بن كالي : « وأما ما كان فقد صار
كاسمه والسلام » .

وأحمد بن حسن اليمندي ، وزير للسلطان محمود الغزنوي ولايته مسعود عشرين سنة ، وكان يكتب بالعربية في هذه البقعة النائية ، ومن توقيعاته المأثورة ما كتبه لجماعة طلبوا أن يحط الخراج عنهم : « الخراج خراج ، دواؤه أدأؤه » .

ومن الدلائل على أن العربية كانت ذات المكانة الاولى في دواوين هذه الاصقاع وان كانت لغة العامة أعجمية ، أن أحد وزراء الغزنويين اتخذت الفارسية لغة الدواوين ، ولو أن العربية كانت غريبة في تلك الاقطار لوجد هذا قبولاً ، واستمرت الدواوين بالفارسية لغة البلاد ، ولكن الوزير أحمد بن حسن اليمندي ردّ الدواوين الى العربية . ومن الممتع في هذا أن نقرأ ما كتبه في هذا الصدد العتي الذي كتب تاريخ محمود بالعربية مسجوعاً كله ، قال في كتابه :

« وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة في الصناعة لم يعتن بها في سالف الايام ، ولم يرض بنانه بخدمة الاقلام ، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية الى الفارسية ، حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الاجادة والاحسان ، واستوت درجات العجزة والكفاة ، والتقى الفاضل والمفضول على خطي الموازاة .

ولما سعدت الوزارة بالشيوخ الجليل . . . فجزم على أوشحة ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه . وعجزه عن فهم ما يتعرب به عليه » .

فهذه حال العربية في أفغانستان في القرن الخامس الهجري .
وأما الرسائل الاخوانية فلم تبلغ الفارسية فيها هذه القرون مبلغ العربية ، ولم تنشئ الفارسية كاتباً كبديع الزمان والحوارزمي وابن العميد وأبيه والصاحب ورشيد الدين الوطواط .

وكان البديع والخوارزمي يكتبان بالعربية إلى أمراء البلاد وأعيانها شرقاً وغرباً كأنهم في بلاد العرب، ولولا معرفة المكتوب اليهم العربية وتقبلهم هذا الرسائل بقبول حسن ما كتب كتابها بالعربية .

✱
✱

ومما يبين ما بين اللغتين من صلات في تلك العصور الترجمة من العربية إلى الفارسية ، والانشاء باللغتين .

ولم تقتصر الترجمة على الكتب التي ألقت بالعربية قبل أن تكون الفارسية لغة كتابة كالطبري وكنيلة ودمنة ، بل ترجمت كتب وضعت بالعربية بعد أن صارت الفارسية لغة تأليف: كتاريخ بخاري للنرشخي . كتب لنوح بن نصر الساماني سنة ٣٣٢ وترجم إلى الفارسية ٥٢٢ . وكتاب اليميني الذي ألفه العتي للسلطان محمود بالعربية ترجم من بعد إلى الفارسية . وكتب كثير من الادباء باللغتين شعراً ونثراً وسمي كل منهم ذا اللسانين « دوزبار » وعطاء بن يعقوب له ديوانان عربي وأعجمي . وللبستي والباخرزي شعر فارسي ولابن سينا والشيخ سعدي الشيرازي ، بل بديع الزمان الهمداني نظم بالفارسية قليلاً .

ويقول صاحب المعجم في معابير أشعار المعجم وقد ألفه في أوائل القرن السابع ان شعراء زمانه يعرفون اللغتين ، والحق أن معظم شعراء الفرس كانوا يعرفون العربية على اختلاف حظهم منها ، وكثير منهم أنشأ بها كثيراً أو قليلاً .

على أن أمر العربية كان يضعف على مر الزمان شيئاً فشيئاً ، فمؤلف كتاب راحة الصدور في تاريخ السلاجقة يروي شعراً عربياً ، ويقول أن قليلاً في زماننا من يفهم مثل هذا الشعر .

ويقول عوفي في أوائل القرن السابع : إن كل مستعرب يعرف الفارسية ،
وليس كل فارسي يعرف العربية . وقد ألف كتابه في العروض بالعربية ، فقم
عليه أدباء زمنه ، فكتب ما يتعلق بأشعار العجم بالفارسية ،

وأما اللغة العلمية لغة التأليف فقد كانت العربية مهيمنة عليها إلى
غرات انتار ، ثم شاركت فيها بعد التتار ، وما زال التأليف بها يقل على
مر الزمان ولكنه لم ينقطع حتى عصرنا هذا .

وقد قال أبو الريحان البيروني : إن الكتاب إذا ألف بالفارسية ذهب
بهاؤه ، وقال إن لغته الخوارزمية ، وإن الفارسية والعربية سواء لديه ليست
أحدهما لغته ، ولكنه يرى الفارسية لا تصلح للتأليف .

قال : « وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت
وحلت في الأفتدة ، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة » .

وقال : « والمهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية ، وسيعرف
مصدق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسي كيف ذهب
رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح
هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأشمار الليلية » .

وقال أبو هلال العسكري في القرن الرابع :

ولا نعرف اليوم علماً جاهلياً ولا إسلامياً إلا وأهله عربيون ومتعربون
يكتبون باللفظ العربي والخط العربي .

وإذا نظرنا إلى جماعة من كبار المؤلفين كابن سينا ، وأبي الريحان
البيروني ، والغزالي ، والرازي ، والزوزني ، والبيضاوي ، ونصر الدين الطوسي ،
وهم من مؤلفي القرون الرابع والخامس والسادس والسابع ، وجدنا
لغة التأليف عندهم العربية ، لم يكتبوا بالفارسية إلا كتباً صغيرة لا تقاس
بما كتبوا بالعربية .

فابن سينا وتأليفه بالعربية لا يحتاج الى بيان ، كتب بالفارسية دانش
نامه علائق لعلاء الدولة كاكربه أمير أصفهان .
والبيروني كتب بالعربية كتبه الخالدة ، وكتب بالفارسية كتيباً في
التنجيم وكتبه بالعربية أيضاً .

والغزالي لا يعرف له بالفارسية إلا كيمياء السعادة ، وقد كتبها بالفارسية
لا يفهم العامة كما يقول ، وكتاب آخر يسمى نصيحة الملوك ، كتب
بالفارسية كذلك .

والرازي له ثلاثة وثلاثون كتاباً منها واحد بالفارسية .
والبيضاوي له كتاب بالفارسية صغير اسمه نظام التواريخ ، وسائر
مؤلفاته بالعربية .

والطوسي ، وهو من علماء القرن السابع وقد صحب هولاء ، له
زهاء خمسين كتاباً قليل منها فارسي .
وقد استمرت العربية لغة للتأليف في إيران بعد غارات التتار على
على قلب الغير بها وتحيف الزمان إياها . ولم يخل عصر من التأليف
بها الى عصرنا هذا ، وحسبنا أمثال صدر الدين الشيرازي والسيد الشريف
الجرجاني وسعد الدين التفتازاني .

أثر العربية في الفارسية

وهذه اللغة الفارسية التي نشأت وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها
هي اللغة الفهلوية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ، ولكن
كتبت بالخط العربي واشتملت على الفاظ عربية كثيرة . وقد أمدت
العربية الفارسية غير ضئيلة ، والألفاظ العربية في الفارسية تختلف كثرة
وقلة باختلاف الموضوع ، فهي في الشعر أقل منها في النثر ، وهي في النثر الأدبي
أقل منها في لغة التأليف ، ويوجد قاريء النثر الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية

متوالية ليست للفارسية فيها إلا التراكيب والصلات . وقد استمر هذا إلى يومنا ولا تزال العربية في هذا المصر تمد الفارسية بألفاظ جديدة ، إلى الألفاظ التي أمدتها بها في العصور الخالية .

وكذلك استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ، ولكن تصرفوا بها بعض التصرف فزادوا في البحور وفي التفعيلات ، والزحافات والعلل ، وأفتنوا في نظام التقفية .

وبقيت الأوزان العربية في معظم أشعارهم وبقيت اصطلاحات العروض والقافية كلها . ومن العجيب أن شعراء الفرس هجروا الأوزان الشائعة في الشعر العربي ، وأكثروا من أوزان لم يكثر النظم فيها شعراء العرب . هجروا أوزان الدائرة الأولى كلها فلم ينظموا في الطويل والمديد والبسيط ، إلا محاولة بعضهم أن يستكمل الأوزان العربية ، وبين عن قدرته على استيعابها .

وعمدوا إلى أبحر الدائرة الرابعة التي فيها المقتضب والمجثم والمضارع ، الأبحر التي يندر فيها النظم العربي فأكثروا النظم فيها وتفننوا ، وشاركوا العرب في الأبحر الأخرى .

وفي هذا برهان على اختلاف مزاج الامتين ، وتباين أذواقهما في توالي الحركات والسكنات في الأوزان . وعلم البلاغة العربي يسيطر على الفارسية بقواعده وألفاظه ، وكتاب حدائق السمر لرشيد الدين الوطواط لا يختلف عن الكتب العربية إلا بأمثلة فارسية معها أمثلة عربية .

وأخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك ، فهو يستمد من الاسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ، ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويمتاز من الأدب العربي امتيازاً واضحاً في موضوعين :

الأول : الشعر الصوفي : فقد ذهب فيه شعراء الفرس مذاهب عجيبة ، وأبانوا عن دقائق النفس الانسانية ، ونظموا المنظومات المطولة كحديقة الحقائق لمجد الدين سنائي ، ومنطق الطير لفريد الدين العطار ، والمثنوي لجلال الدين الرومي ، ومنظومات أخرى يضيق بها العد .

وما أحسب أدباً يجاري الأدب الفارسي في هذا الصدد .

والموضوع الثاني القصص : فقد اثن فيه شعراء الفرس بين قصص حماسي مستمد من أساطير الفرس وتاريخهم كالشاهنامه ، وقصص غرامي كقصة ليلى والمجنون ، وخسرو وشيرين ، ويوسف وزليخا ، وهم في هذا لا يملون الاطالة وقل أن تنقص القصة عن خمسة آلاف بيت وكثيراً ما تجاوز عشرة آلاف . وقد نظم القصة الواحدة شعراء عدة في عصور مختلفة .

*
*
*

في بلاد الترك والهند

أسلفتُ القول في مكانة اللغة العربية في إيران قبل أن تصير الفارسية الحديثة لغة علم ، ثم بينت كيف سارت العربية الفارسية بمد استعمالها ، في الشعر والكتابة وكيف بقيت غالبية في التأليف .

وأبين اليوم حال اللغة العربية في بلاد الترك والهند ، وليس غريباً أن يتناول الكلام بلاد الترك والهند في بحث واحد ، فكلاهما تجاوز إيران ، وكلاهما أثرت فيها العربية مباشرة وبتوسط الفارسية ، ثم العربية أثرت في الفارسية ، وهذه أثرت في التركية ، وثلاث اللغات أثرت في الأردية . فكان القول في بلاد الترك والهند متشابهاً متشابكاً .

بلاد الترك

أعني تركستان الشرقية والغربية وموطن الترك العثمانيين .

فأما تركستان الغربية فهي التي سماها جغرافيو العرب ما وراء النهر وتسمى اليوم تركستان الروسية لاستيلاء الروس عليها . وكان نهر جيحون في العصور المختلفة يمدّ حدّاً بينها وبين إيران . وأما تركستان الشرقية فتسمى كاشغر وتسمى اليوم تركستان الصينية .

وفي الاقليمين زهاء ستة ملايين يعيشون في أكثر من مليونين من الكيلاط المربعة . ونهر جيحون قد عدّ في أساطير الفرس وتاريخهم حدّاً بين إيران وتوران ، ودارت على ضفافه المعارك المتبادلة بين الإيرانيين والتورانيين ، المارك الهائلة التي صورتها الشاهنامة . ولكنه لم يكن في الحق فاصلاً بين الأمتين اللتين تعيشان شماليه وجنوبيه على مرّ الزمان . فقد عاش الفرس شماليّ النهر منذ عصور بعيدة ، وعبر الترك النهر ، ولا سيما في العصور الاملامية ، وانتشروا في إيران . وفيما وراء النهر اليوم قرى كثيرة لغتها الفارسية ، ومعظم القرى التي لغتها التركية تعرف الفارسية .

ومن اللهجات الفارسية اللهجة الصغدية وهي لهجة الصغد في تركستان . وقد قامت الدولة السامانية فيما وراء النهر وكانت حاضرتها بخارى فنشأت في عهدها الفارسية الحديثة وترعرعت في ظلالها فصارت لغة كتابة وعلم .

ولو كانت هذه البلاد خالصة للغة التركية ما كانت لغة الدولة السامانية ولغة شعرائها الفارسية دون التركية .

وأول شاعر فارسي كبير هو أبو جعفر الرودكي السمرقندي ، فقد ترعرع الشعر الفارسي أول ما ترعرع شمالي نهر جيحون .

وقد ألف جار الله الزمخشري مقدمة الأدب ليعلم أهل تركستان الأدب العربي ، فجعلها معجماً من العربية إلى الفارسية ، ولم يحاول تعليم أهل البلاد باللغة التركية وإنما صارت التركية لغة أدبية في بعض أقطارها في عصور متأخرة .

فإذا تعرفنا حال العربية في تركستان ومكائنها في العلم والأدب ،
وقسنا إليها لغة البلاد الأدبية ، وجدنا أحوالاً تشابه ما بيننا في إيران ،
من أحوال العربية والفارسية .

فحال الشعر الفارسي في تركستان كحالته في إيران ، ومسايرة العربية
للفارسية في الشعر هنا كمسايرتها إياها هناك فلا نحتاج إلى إعادة القول ، وغلبة
النثر العربي في إيران تقاس بها غلبته فيما وراء النهر أيضاً . وقد نشأ
هناك من كتاب العربية أبو بكر الخوارزمي الكاتب المعروف « توفي
سنة ٣٨٢ » والعميد والد أبي الفضل ابن العميد ، والزخشي « توفي سنة
٥٣٨ » ورشيد الدين الطواط العمري « توفي سنة ٥٧٣ » .

وأما لغة التأليف في العلم والأدب فكانت العربية إلا قليلاً . وحسبنا
أن نذكر اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح ، وخاله اسحق
ابن ابراهيم ، والفارابي ، والقفال الشاشي « توفي سنة ٣٦٦ » والخوارزمي
سنة ٣١٥ ، وأبا الريحان البيروني .

ولا بد من وقفة عند الزخشي لنستدل على مكانة العربية ، بما ألف
فيها وبما بين من مكائنها في مقدمة كتابه المفصل ومقدمة الأدب .
فالزخشي قد عاش بين منتصف القرن الخامس الهجري ومنتصف القرن
السادس في تلك البلاد ، وكان من أئمة العربية في اللغة والنحو والأدب
ولم يؤثر عنه أنه كتب بالفارسية أو التركية .

وقال في مقدمة المفصل :

« ولعل الذين يفضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون
أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة
كتبه في عجم خلقه ولكن في عربيه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق
الابلاج ، وزيفاً عن سواء المنهج » .

ويظهر من تضاعيف كلام الزخشي أن هؤلاء الذين يفضون من

العربية كانت كراهيتهم في صميمها للنحو لا للغة العربية نفسها . ثم قال الزمخشري عن هؤلاء :

« وبهذا اللسان » يعني العربية « مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقطر في القراطيس أقلامهم ، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكماهم . فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا ، غير منفكين عنها أينما وجهوا ، كلُّ عليها حينما سيروا . ثم انهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلها ، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزقون أديمها ، ويمعضون لحمها . فهم في ذلك على المثل السائر « الشعير يؤكل ويندم » ويدعون الاستغناء عنها وأنهم ليسوا في شيء منها ، فان صح ذلك فما بلهم لا يطلقون اللغة رأساً والأعراب ، ولا يقطعون بينها وبينهم الأسباب ، فيطمسوا من تفسير القرآن آثارها ، وينفضوا من أصول الفقه غبارها » إلى أن يقول :

« وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحاتق المناظرة ، ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأبهة ، وهل أصبحت الخاصة بالعامه مشبهة وهل اقلبوا هزأةً للساخرين وضحكةً للناظرين » .

أبان الزمخشري في هذه الكلمات عن تبرم قوم بالعربية وبيّن أنها ، على هذا ، لغة العلم ولغة القضاء ولغة التعليم والمناظرة ولغة الأدب وان التدريس بغيرها يذهب بجبال العلم ، ويجعل الخاصة كالعامه . فلغة الخاصة العربية ، ولغة العامه الرطانة العجمية .

وألف الزمخشري مقدمة الأدب ، وضعه على نسق كتاب الثعالبي ، فنه اللغة ، وجعله عُدّة لطالب الأدب العربي ، وفسر الكلمات العربية بالفارسية فقلقه الناس بالقبول كما قال :

« لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولا من القلوب ، وهب في البلاد مهب الصبا والجنوب » وقال المؤلف في فاتحة الكتاب عن اللغة العربية :

« ولجلالة هذا اللسان ، وما جعل الله له من نباهة الشأن ، وأن الحاجة إليه سائحة في الملة الإسلامية في أنواع علومها وفنون آدابها ، كان المتعاطون لاتقانه والتبحر فيه معدودين في علماء هذه الأمة ، المذكورين في طبقات الأئمة ، ومن صنع الله لهذه الطبقة ، أن الملوك لم تعطرسحائبهم ولا قاض عطياتهم ومواهبهم ، على أحد فيضنها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ومرسلتهم وشعرائهم . ولم يخل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويكفلهم ويكفيهم ، ويتمصب لصناعتهم ويحرص على تنفيق بضاعتهم . وأما الذي اصطفاه الله في زماننا لنصرة الأدب ، وقذف في قلبه الرغبة في كلام العرب فلائير الأجل الأسفهارالبهاء الدين علاء الدولة الأئير أبو المظفر آئسز ابن خوازمشاه ، اه .

وآئسز هذا أحد ملوك خوارزم تولى الملك من سنة ٥٢٢ إلى سنة ٥٥١ هـ وقد تولى رشيد الدين الوطواط العمري السكاتب المعروف ديوان الرسائل لهذا الملك ثلاثين سنة وله رسائل عربية ذائعة تدل على متانة أسلوب العربية في ذلك العصر .

وقد عرفت محاولات للكتابة بالتركية بلهجات مختلفة منذ القرن الخامس الهجري فنظم يوسف خاص حاجب في بلاساغون وكشفر منظومة باللهجة الأيفورية اسمها قوداتفوييليك . ونظم أديب أحمد ربايات سماها « عيبة الحقائق » في القرن السادس الهجري ، وفي هذا القرن نظم الصوفي الكبير أحمد يسوى ديوان الحكمة .

وكذلك نظم بعض الأديباء من بعد غارات التتار في صحراء القفجاق وغيرها ، فنظم الشاعر قطب قصة خسرو وشيرين في القرن الثامن الهجري . ونظم في هذا القرن أيضاً الخوارزمي منظومته المسماة « محبت نامه »

وأنشئت منظومات وكتب قليلة بلهجات مختلفة ولكنها لم تبلغ ، قبل نشوء الأدب العثماني في رعاية الدولة العثمانية ، أن تنافس العربية أو الفارسية في النظم أو النثر أو التأليف .

وأعظم ما وعته اللغة التركية الشرقية « لغة چغتاي » منظومات علي شيرنوائي وبارنامه وهي سيرة السلطان بابر التي كتبها بنفسه . فأما علي شيرنوائي فكان وزيراً أو مشيراً للسلطان حسين بيقر أحد الملوك من سلالة تيمورلنك وله في العدل والبر أيد بيضاء ، وله في الآداب العربية والفارسية والتركية مكانة ، وقد حاول أن يذلل التركية للنظم الأدبي فنظم قصصاً خمساً من القصص المعروفة في الأدب الفارسي ، وتبع سنة نظامي الشاعر في خسته . وكتب في القياس بين التركية والفارسية كتاباً سماه « محاكمة اللغتين » يبين فيه فضل التركية على الفارسية في بعض الخصائص . وكتب في اللغة العربية معجماً جمع فيه بين سبعة من معاجم العربية وسماه « سبعة أبحر » .

ولكن هذا الشاعر القدير سلك طريقاً وعرأ كان فيها فريداً لم يسبقه مثله ولم يلحقه ، وبقيت منظوماته منقطعة النظير في لغة چغتاي .

وعلي شير توفي سنة ٩٠٦ هـ فتاريخه يرجع إلى عصر متأخر ولكن اللغة التركية الشرقية لم تكن قدمهدت للأدب فلم تجد عليها عبقرية هذا الشاعر الكبير كثيراً .

وكتب محمد ظهير الدين بابر كتابه « بابر نامه » في العصر الذي أنشأ فيه نوائي منظوماته ؛ كتبه في لغة طبيعية خالصة لا تكلف فيها ولا زينة لكنها كانت كمنظومات علي شير ، مثلاً فريداً في لغة چغتاي .

التركية العثمانية

لم تتخذ التركية الغربية لسان أدب وعلم قبل قيام الدولة العثمانية

إلا في الندرة . اتخذها أمراء قرمان لغة ديوان في ثورتهم القصيرة
الامد ، قبيل نهاية الدولة السلجوقية ، وأثر فيها ، نظم لجلال الدين الرومي
المتوفى سنة ٦٧٢ وولابنه سلطان ولد .

وكان سلاجقة الروم — أي سلاجقة آسيا الصغرى — يلقبون بالانقاب
الفارسية ويزينون قصورهم بأبيات من الشاهنامه ، وهي منظومة الفرس
التي تروي جلاد إيران وتوران وتنتصر للإيرانيين على التورانيين أي الترك .
وكانت العربية والفارسية لغتي العلم والادب في تلك الاقطار أيام
السلاجقة .

ولما قامت الدولة العثمانية شرعت تستعمل التركية في رسائلها مع
استعمال الفارسية والعربية .

وفي منشآت السلاطين — وهي الرسائل التي جمعها في القرن الحادي
عشر الهجري أحمد فريدون بك — نماذج من رسائل السلاطين العثمانيين
باللغات الثلاث . ثم نظم شعراء باللغة التركية وكتب فيها كتاب . وتطورت
الصناعتان تطورهما . فنبغ شعراء كثيرون وكتاب قليلون محاكاة للأدب
الفارسي . وصيغت أوزان الشعر وقوافيه على غرار الشعر الفارسي ، وقد
أسلفنا القول فيه ، واتخذ شعراء الترك موضوعات الشعر الفارسي وطرائقه ،
واكثروا من استعمال الألفاظ الفارسية والتركيبات والألفاظ العربية ،
حتى ليمرّ قارئ الشعر التركي بأبيات فارسية ليس فيها من التركية إلا
حرف أو فعل ، وبقي تسلط الفارسية واضحاً حتى عصر عبد الحق حامد
وأضرابه ، وقد توفي عبد الحق منذ بضعة عشر عاماً .

ويمكن أن يقال في صلة الادب التركي بالادب العربي ، ما قيل من قبل
في الصلات بين الاديان العربي والفارسي . إذ كان الشعر التركي ، كما
قلت ، محاكاة للشعر الفارسي في ألفاظه ومعانيه وموضوعاته .

وأكثرَ التركُ من تسجيل تاريخهم بلغتهم ، فغشيت اللغة التركية
بسلسلة من كتب التاريخ قيمة ، والأسلوب القديم في النثر ينوء به
التكلف والزينة اللفظية .

وأما التأليف في العلوم العقلية والشرعية واللغوية فقد غلبت عليه اللغة العربية شأنها في إيران وتركستان . وحسبنا أن نذكر من المؤلفين صدر الدين القونوي « توفي سنة ٦٧١ هـ » والكامل بن الهمام السيواسي « توفي سنة ٨٦١ » ولطف الله بن حسن التوقائي الذي ألف في موضوعات العلوم للسلطان بايزيد الثاني « توفي سنة ٩٠٠ » . وأحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا وهو من أكثر المؤلفين في العلوم الشرعية واللغوية . وعصام الدين أحمد بن مصطفى المعروف باسم طاشكبري زاده وهو مؤلف الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وله مؤلفات بالعربية تزيد على الثلاثين اجلها كتاب موضوعات العلوم المسمى مفتاح السعادة « توفي سنة ٩٦٨ » ومحيي الدين القونوي « المتوفى سنة ٩٥١ » ومصطفى بن شعبان صاحب الحاشية على تفسير البيضاوي « توفي سنة ٩٦٩ » وحامد القونوي صاحب الفتاوى « توفي سنة ٩٨٥ » والانقروبي صاحب الفتاوى « المتوفى سنة ٩٩٨ » والحاج خليفة صاحب كشف الظنون « المتوفى سنة ١٠٦٧ » . ولم يخل عصر من التأليف بالعربية في بلاد الترك العثمانيين على اختلاف أطوار العربية والتركية في التأليف على مر العصور . ولم يخل أديب أو شاعر من معرفة العربية قليلاً أو كثيراً حتى عصرنا هذا .

اللغة العربية في الهند

- ١ -

لما امتد الفتح بالعرب شطر المشرق حتى جاوزوا أفغانستان ، هبطوا لإقليم المثلتان من الهند ولكنهم لم يستقروا فيه . ثم حاولوا فتح الهند من جهة الساحل حيث يصب نهر السند في البحر المحيط فغزوا غزوات هناك . فلما كان زمان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سير الحجاج ابن يوسف الثقفي جيشاً لفتح الهند وجعل إمرته لابن أخيه محمد بن القاسم ، ففتح العرب إقليم السند حتى المثلتان ولم يتوغلوا في الهند .

عجا (٣٢)

ودام لهم سلطان فيما فتحوه زهاء مائتي سنة وبنوا هناك المدن وعمروا الأرض .

وفي القرن الرابع الهجري اتخذ المسلمون لفتح الهند طريقاً آخر وتولى الفتح السلطان محمود الغزنوي أحد ملوك الدولة الغزنوية « ٣٥١ - ٥٧٩ هـ » وقد أعد العدة وحشد الجيوش واحتفل للغزو وهبط سهول الهند بجيوشه أكثر من خمس عشرة مرة ما بين سنة ٣٩١ وسنة ٤١٧ فدان له بنجاب وكشمير وكجرات واستقر سلطان الغزنويين في بنجاب .
ولما غلبوا على غزنة دار ملكهم - غلبتهم عليها الدولة الغورية - اتخذوا لاهور حاضرة الملك سنة ٥٥٣ . فكانت لاهور أول حاضرة في الهند لدولة اسلامية .

ومهد فتح الغزنويين طريق الدول الإسلامية إلى الهند ، وهيئاً البلاد لنشوء دول اسلامية فيها ، ففتح الغوريون طرفاً من البلاد ، ونشأت في داخلها دول كثيرة منها دول سلاطين دهلي التي سيطرت على دهلي وما يتصل بها من سنة ٦٠٣ إلى سنة ٩٣٢ . وقد فتحت الدول الإسلامية شمالي الهند حتى خليج بنغالة وبسطت سلطان الاسلام وحضارته هناك .

وفي القرن العاشر الهجري توجه إلى الهند داهية عبقرى لا تنسىء الاجيال مثله إلا قليلاً ، فأقام فيها أعظم الدول الإسلامية الهندية . ذلكم محمد ظهير الدين بابر من حقه الفاتح الجبار تيمورلنك . ورث هذا الأمير من أبيه إمارة فرغانة وسمرقند سنة ٨٩٩ وهو في سن الثانية عشرة وتقلبت به غير ، وتداولته خطوط حتى غلب على إمارته الموروثة بعد سبع سنوات . ولكن هذا الشاب العبقرى كان أجراً وأصبر من أن يستكين للحادثات ، فبقي ثلاث سنين شريداً ليس في يده من الملك شيء ، ولكن كان في ضمان عزمه وهمة أن يكون ملكاً في بلاد أوسع من فرغانة وسمرقند . فتوجه تلقاء كابل ففتحها سنة ٩١٠ . وتمكن ملكه من كابل واتجه طامحه وهمه إلى الأرض الواسعة الغنية ، عزم

على فتح الهند . فأخذ يغير على أطرافها منذ سنة ٩٢٥ حتى مكنته شجاعته وهمته ودهاؤه أن يهزم السلطان إبراهيم اللودي سنة ٩٣٢ في موقعة يانديت التي سقط فيها السلطان بين خمسين ألفاً من جنده . وبعد هذه الموقعة بستة أيام خطب لظهير الدين بابر في دهلي يوم الجمعة الرابع عشر من رجب سنة ٩٣٢ هـ .

ولم يثبت له جيش بعد ذلك حتى الجيوش التي حشدتها أمراء الهند وحشروا فيها من الجند والفيلة جموعاً يقودها مائة وعشرون قائداً على رأسهم سانجا زعيم أمراء راجبوت . فلقى بابر بعد سنتين من موقعة يانديت ظفراً أعظم من ظفرها في موقعة كندها . لم يثبت أحد من بعد لسطوة بابر ، فأقام دولة في الهند دام سلطانها ثلاثة قرون ونصف على اختلاف الغير وتبدل الحالات .

توالى على عرش الهند ملوك عظام مدوا سلطانهم على أرجاء الهند ، وأقروا فيها القانون ، والعدل ، وأشاعوا فيها الحضارة والثقافة ، ولا سيما الستة الأولون من ملوك هذه الدولة من بابر إلى أورنگ زيب ، فقد تداولوا السلطان مائتي عام ، وبلغت الدولة في سلطانهم أوجها . وقد شرعوا شرائع عادلة ، وسننوا سنناً حسنة ، وجمعوا حولهم العلماء والفلاسفة والأطباء والأدباء والصناع من أقطار الأرض ، وشادوا من الأبنية ما لا يزال يحدث بقوتهم وحضارتهم . وقد بقيت هذه الدولة إلى سنة ١٢٧٤ هـ حين أزالتها الانكليز بعد أن نقصوا أطرافها وزلزلوا أركانها .

- ٢ -

هذه الدول الإسلامية التي توالى على الهند منذ الفتح العربي الأول عملت في نشر الحضارة الإسلامية واللغة العربية . نشر العرب لغتهم هناك ، واتخذ مسلمو الهند ، كسائر مسلمي العالم اللغة العربية لغة علم وأدب على مرّ العصور . وكان دخول العربية إلى الهند على طريقتين : الأولى : في ثنايا اللغة والآداب الفارسية . فالفارسية قد أخذت من

العربية على النحو الذي بينت من قبل ، ثم صارت لغة الدولة ولغة التدوين في الهند منذ عهد الغزنويين . لا سيما في عهد الدولة المغولية التي ذكرتها آنفاً . وقد عدّ الشيخ شبلي النعماني في كتابه « شعراء المعجم » واحداً وخمسين شاعراً فارسياً جاءوا إلى الهند في عهد السلطان جلال الدين أكبر « ٩٦٣ - ١٠١٤ هـ » وعد المداوني أكثر من هؤلاء ومعظمهم فارسي الأصل ، منهم من نشأ في الهند ، ومنهم من طرأ عليها . كما عدّ من العلماء والفلاسفة والأطباء الذين عاشوا في كنف هذه الدولة أكثر من مائة وخمسين .

ثم نشأت اللغة الأردية في كنف اللغة العربية والفارسية ، فكان أثر العربية فيها كأثر العربية في الفارسية :

شرح أدباء الهند يدخلون في الأدب ألفاظاً وجملات من الهندية في القرن السابع الهجري إذ استعمل الشاعر الكبير الأمير خسرو الدهلوي « ٦٥٣ - ٧٢٥ » كثيراً من هذه الألفاظ ، ونظم شعراً ملتمساً من الفارسية والهندية . ثم كتب بعض الصوفية في القرن التاسع الهجري بالهندية ليقتربوا إلى العامة آراءهم ومواعظهم ، ولم يكن لهم بدٌّ من استعمال كثير من الألفاظ العربية والفارسية ، إذ كانتا لغتي العلم والأدب حينئذ . وكتبوا هذه الهندية المشوبة بالعربية والفارسية بالخط العربي فنشأت اللغة التي عرفت من بعد باسم الأردية . ولم ينبغ شعراء الأردية العظام إلا منذ القرن الثاني عشر الهجري .

فهذا دخول العربية إلى الهند في ثنايا الفارسية والعربية .

وأما استعمال العربية لغة مستقلة فقد عرف في عصور الهند كلها منذ الفتح العربي الأول ، ولا سيما بعد أن توغل المسلمون في أرجاء الهند ونشروا لغة القرآن ، فكتب فيها مؤلفون على مرّ الزمان .

ومن المؤلفين بالعربية فيضي المتوفى سنة ١٠٠٤ ، وهو صاحب التفسير المسمى « سواطع الالهام » وقد التزم أن يخلي تفسيره من الحروف المعجمة كلها . وهذا ، على قلة جدواه ، لا يتاح إلا لمتكلم في العربية

واسع العلم بها . ومن كبار المؤلفين عبد الحليم السيالكوتي المتوفى سنة ١٠٦٧ ، ومؤلفاته في علم الكلام معروفة . ومن الفقهاء محب الله البهاري ، له مؤلفات في الفقه والمنطق . ومنهم الشيخ نظام الذي أشرف على جمع الفتاوى الهندية في عصر السلطان اورنك زيب « ١٠٦٩ - ١١١٨ هـ » . وفي مقدمة هذه الفتاوى ما يدل على التأنيق في العربية والادلال بمعرفة غريبها ، جاء فيها :

« وبعد فإن الفقه حاجز بين الهداية والضلال ، وقسطاس مستقيم لمعرفة مقادير الأعمال ، وعيائمه الزاخره لا يوجد لها قرار ، وأطواده الشاخحة لا يدرك قنونها بالأبصار . . . فمن الله عليهم باستنارة صديق سلطنة الملك الصليهام ، وانفلاق صبح دولة السلطان الهميميسع القمقام ، القرم المقرم ، والقيدم الفليهدم ، رزم آجام الوغى ، وقفصل غياض المزدحم المطيم على العدل والشجاعة والندى ، والمفطور تقنه من الزهد والورع والتقوى أمير المؤمنين ورئيس المسلمين ، إمام الغزاة ورأس المجاهدين ، أبو المظفر أورنك محيي الدين محمد زيب بهادر عالم كبير يادشاه غازي أيّد الله تعالى سلطانه ، وعمّم على البرية كافة احسانه » .
ومن المؤلفين بالعربية الشيخ ولي الله الدهلوي مؤلف « حجة الله البالغة » ، وكتب أخرى .

ولا يزال علماء المسلمين وأدباؤهم في الهند يؤلفون بالعربية وينشرون القيم من كتبها ، ويشرحونه أحياناً ، ولا تزال الهند موطناً من مواطن لغة القرآن .

ومن المؤلفين بالعربية في عصرنا الشيخ شبلي النعماني وأصحابه من رجال ندوة العلماء ، والسيد صديق حسن خان مؤلف كتاب حقوق النسوة وكتب أخرى قيمة ، وكرامت حسين مؤلف فقه اللسان في اللغة ، والشيخ عبد العزيز الميجني ، له كتب قيمة في الأدب منها كتابه عن أبي العلاء و « زيادات شعر المتنبي » وقد نشر في القاهرة كتاب سمط

الآلي في شرح الامالي للزبيدي ، ومنهم زاهد علي ناشر ديوان ابن هانيء ، وكثيرون غير هؤلاء . وقد نشروا من كتب العربية القيمة كتباً كثيرة منها الجهرة لابن دريد ، ولزوميات المعري .

وقل أن اقيت في مصر من مسلمي الهند عالماً أو متعلماً إلا يعرف العربية ويتكلم بها على حداثة عهده بالبلاد العربية ، ولولا عنايتهم بتعلمها والتكلم بها في ديارهم ما تيسر لهم كتابتها والتحدث بها في بلاد العرب بعد إقامة قصيرة . وكثيراً ما أتلقي رسائل عربية من علماء في الهند لم يقيموا بالبلاد العربية ، وهي تشهد بتمكنهم من العربية ، ومسايرتهم تطورها في هذا العصر .

دمشق : ايلول سنة ١٩٤٦ .

الديمقراطية وأهدافها في التعليم والتنمية

للكنور عبد الرحمن الكبيسي

١ - ما هي الغاية من الاستقلال ؟

ان الحصول على الاستقلال التام الناجز لا يعد الغاية من جهادنا الذي استدام خمسة قرون . فما هي غايتنا ؟ لماذا نشككي ونشتكي ونتسأل ونصيح وقد أصبحنا سادة بلادنا أحراراً فيما نريد وما لا نريد ؟ هل يعوزنا المال والزمن والرجال ، أم تعوزنا الارادة والعمل والثبات حتى يجيب أملنا ولا نكاد نلص فرقا بين الامس الغابر واليوم الحاضر ؟ هل مبعث شكوانا حيويتنا الوثابة ، وطبيعتنا الحساسة أم أهدافنا السامية وآمالنا العديدة ؟ كيف نمالج بلوانا وتحرر من القبود التي غلت أيدينا ؟ وما هي الوسائل التي تنقذنا من أخطاء الجهل ومساوي الاستكانة ، وأسباب التذمر وتنهض بنا بسرعة وحماس كما نهض غيرنا وتدفعنا للأمام كما دفعت من سبقنا فارتقى وتقدم ؟ هل تنقصنا المواهب والاستعداد الفطري أم ينقصنا شيء آخر بدونه لا نستطيع ادراك ما يلزمنا ، وتدارك ما يحوجنا ؟ وإذا سعينا نكون من الناجحين في علومهم ، وتجارهم وصناعاتهم وتجارهم وآدابهم وأخلاقهم وزراعاتهم وشركاتهم فما هو العامل لبلوغ النجاح ؟ وما هي أدلة النجاح ومقياس الرقي ؟

٢ - ما نطلبه الديمقراطية :

لاشك أن هذه المسائل وأمثالها وما لها من أهداف ووسائل مما يجب معالجته بعلم ، وتمحيص ، وإخلاص ، فيجاب عليها وتشر ويشر

بها ، ويعلمها طلاب العلم ورجال الدولة وأصحاب العمل وكل مؤمن بالديمقراطية وساع لمزة قومه وكرامة وطنه .

وما دام الاستقلال كما يقول علماء الاجتماع هو وسيلة لا غاية فكل استقلال لا يؤدي الى طمأنينة النفوس ، ورفاهية الشعب ، ولا يهيء الاجيال للبقاء والتقدم ولا يضمن للأفراد والجماعات حرياتهم التي هي من حقهم المقدس ، ولا يصون الحقوق ، ويحمي المصالح والعلاقات التي تربط الأفراد والجماعات والدولة ، ولا يعرئ ارادة الأمة ورفاهيتها باستتباب الأمن وفرض النظام وادارة الأمور بعدل وتجرد ونزاهة ، يورث الاضطراب وينشر الفوضى ، ويعرض كيان الوطن إلى أخطر العواقب . وإذا كانت المدنيات قد اختلفت أنواعها وأنظمة الحكم قد تعددت أشكالها ما بين ، استبدادية ، ومطلقة ، واقطاعية ، وملكية ، واشتراكية ، ونازية ، وفاشيستي ، وديكتاتورية ، وديمقراطية ، وجمهورية ، فان خيرها وأبها ما كانت مبادئها مستقرة في روح الشعب ، ونظامها صادراً عن ارادة الشعب ، وغاياتها خير الشعب ولها دستورها وممثلوها المنتخبون ، وحكومتها ، ومؤسساتها ، ومجالسها ، وجمعياتها ، وشركاتها ، ومعاهدها تدين بعقيدة وطنية موحدة وتتبع غاية واحدة وتخضع لنظام عام واحد .

٣ - ما هي الديمقراطية ؟

تعرف الفلسفة السياسية الديمقراطية بأنها « نظام موضوع للحصول على قرارات تشريعية تحقق الصالح العام يجعل الشعب تصدر عنه تلك القرارات بواسطة انتخابه أفراداً يمثلون ارادته ، ويجتمعون لهذه الغاية ، ومعناه أن هنالك صالحاً عاماً هو منار السياسة التي هي بسيطة بحد ذاتها يستطيع كل عاقل أن يراها ويناقشها ولذا لا يعذر من لا يقررها ولا يراها ولا معنى لوجود شعب لا يفهمها ولا يرى الا الجهالة والبلادة

وعدم الاجتماعية « الاجتماعية » ومعناه أن هذا الصالح العام يدل على جميع المسائل التي بطبيعتها إما ان تكون خيراً للشعب أو شراً له ويدل على ضرورة اتفاق الأفراد على وجود الإرادة العامة أو وجود مبدئها على الأقل .

٤ - ما يقوله ادوار بنفى عن الديمقراطية :

وتأييداً للتعريف المذكور يقول رئيس جمهورية تشكوسلافيا في كتابه الديمقراطية « ان الديمقراطية لا تزال في نظري تمثل أرفع درجة في سلم البناء الاجتماعي ، لأنها تدعو الى تشييد البناء على أساس احترام القيم المعنوية للفرد ، ولذلك لم يكن نضالنا ضد النازية والفاشية حرباً على أحلام الجرمانيين الطامحين إلى السيطرة على العالم فحسب ، بل كان جهاداً في سبيل هذه الدعوة الديمقراطية أيضاً ، وفي سبيل إخراجها إلى حيز التطبيق » ويختم كلامه بقوله : « وما غاية الحرب التي خاضتها الأمم المتحدة الا تحرير الانسان وصون كرامته ، وأن تصبح حقوقه الأساسية الى جانب الحرمات الاربع - حرية القول والعقيدة ، حرية الرأي والعبادة ، التحرر من العوز والفاقة ، التحرر من الظلم والاستعباد - محور الوجود الانساني في العالم كله . فملى ديمقراطية المستقبل ان شاءت بلوغ هذه الغاية أن تؤمن المساواة الفكرية والاقتصادية مع المساواة السياسية التي حملتها في الماضي الى أبناء الأمة الواحدة ، وعليها أن تدرك جيداً أن المبادئ الديمقراطية يجب أن تتعدى حياة الأمة الداخلية ، لتصبح شريعة سياستها الخارجية . وها هي عبر الحرب تعلم الدول الكبيرة والصغيرة ان المجتمع البشري لن يتقدم ما لم تقم فيه سلطة سياسية عالمية تحل النظام والقانون المقام الأول حتى في العلاقات بين الدول »

٥ - صباري، الديمقراطية

ويستنتج من كل ما تقدم أن الديمقراطية سواء أكانت عامة أم خاصة ، اجتماعية أم اقتصادية ، سياسية أم ثقافية تنطوي على مبادئ « ارادة الشعب ، والصالح العام » . وهي خلافاً لبقية المذاهب الاجتماعية واللائظمة الحكومية التي منها من اعتبر الفرد الدولة وحداً من حريته وتصرفاته لسلامة الدولة ، فانها أخذت بمبدأ العدل الاجتماعي والتعاون الاجتماعي لسلامة المجموع وجعلت الدول الظاهرة التي أراقت دماء الملايين من أبنائها للقضاء على السيطرة الديكتاتورية وعلى فكرة التصرف بمقول الشعب وحرياته وجهوده لحساب طبقة مستأثرة تحكم تحت ستار مصلحة الدولة ، تعدل قوانينها ونظمتها لتمكين السواد الأعظم من اقتسام ثمرات الظفر و ثروات الدولة لتأمين حياته ومستقبل أبنائه وترفيه أفراداه .

ونحن الذين قبلوا النظام الديمقراطي كما تجلّى في ماضينا العظيم وفي دستورنا الحكيم وأسلوب حكمنا الحاضر وفي تشريعنا الصادر عن ممثلينا لهذه الغاية يجدر بنا أن لا نفصل عن تيارات المدنية وتطورات الدول وأن لا نهين حق الشعب وآماله فنسعى الى تحقيقها . والعرب أحق الاثم وأولاهم بفهم الديمقراطية التي لم تتجل في أي عصر من عصور تجارات في عصر الرسول وخلفائه الراشدين .

وعلينا أن نربي أولادنا وأنفسنا على تأدية ما تفرضه علينا من واجبات وتضحيات فنعمد الى محاربة الأمية ، والقضاء على الجهل بنشر التعليم الصحيح بين جميع الأفراد وإلى احترام الرأي وصيانة الحقوق ، والطاعة للنظام ، وتكون الأحزاب لا المنافسات وخدمة الأشخاص ولكن لتنفيذ برامج معالجة قضايا البلاد ؛ وإلى حسن انتخاب النواب بوعي ، وإدراك للمسؤولية ، وإلى العمل التعاوني المشترك .

٦ - أهداف الديمقراطية في التعليم والتربية :

ولما كانت الديمقراطية لا تقوم على أساس الجهل بل لا بد لها من وعي قومي ومن تطور اجتماعي في الأفكار والاخلاق فان أهم ما يتبدأ به هو التعليم والتربية . ولماذا ؟ لان المواهب القومية تحتاج لنمو وتربية وتغذية ، والاذهان تنطلب تنويراً وارشاداً لا حسن الطرق والوسائل وفقاً لاستعدادها حتى تتبع الافراد والجماعات أهدافها ومثلها العليا في الحياة والتنظيم والانشاء واذا صح أن المرقي مقياس وللديمقراطية أدلة فأعتقد أن أصحابها معاهد العلم والتربية ، ومخابر الدرس والتجربة . ولكن ما هو الرقي وأي تعليم يبعث النهوض والتقدم ؟

٧ - أدلة الرقي والنهوض

أجيبكم وتسلمون مي بأن الرقي ليس في الزينة وجمالها ، ولا في الملابس وأناقته ولا في المأكول ونفاسته . والمدنية ليست في كثرة الطرق والبنيان ، والنهضة ليست بانساع العمران وجمال المنشآت . إنما في أمور أخرى في الانسان هي مصدر الحركة والنمو ، وباعثة التجدد والتطور وسبب الازدهار والتقدم . في الفرد « الوراثة » ، والفعالية ، والاستعداد ، والمقاومة ، وقابلية التكيف والائتلاف والملائمة مع المحيط ، ومقدار النمو ، ونسبة نتاج العمل ، وفي المجموع « سيادة الامة على قوى الطبيعة وخيراتها والمقدرة على استخدامها واستثمارها ، ونمو الاخلاق ، وحسن العلاقة ، والادب الفكري ، ورفاهية العموم ، ورضائه في الحياة » .
ومما لا جدال فيه أن السيادة على قوى الطبيعة لا تتم بدون العلم ، واستثمارها لا يكون بغير العلم وتعاليمه في كل وجوه الحياة ومراقبتها إذ كيف نسخر قوى الطبيعة ومعظم أفراد الامة مجهلون نواميسها ، وخواص جواهرها وفوائدها وموادها . وهل من يجهد الكيمياء

وطبقات الأرض والمعادن ، ووظائف الجسم ومنافع الصحة وخواص النباتات والحيوانات وفوائد العقاقير والادوية وما يمتري الجسم من أمراض وأوباء وكيف تقاوم وتعالج الجراثيم الفتاكة وغيرها من العلوم والفنون يستطيع مقاومة المحيط ومؤثراته وسد احتياجاته ؟ وهل ينمو العقل البشري وتتسع المدارك ويقوى الانسان على الاختراع والاكتشاف وهو بعيد عن العلم ، مقيد بقيود الاهمال والجهالة ؟ وهل تؤسس المعامل وتنشأ الصناعات ، وتنجح الشركات بدون معرفة علمية ؟ وهل يستتب الامن والنظام وتمارس السيادة وتتمتع بالحرية دون حكومة ديمقراطية ، ودستور محترم ، وجيش مدرب منظم ومعدات كاملة ؟

وأما سمو الاخلاق المنطوية على الصدق ، والتبذل ، وحب الخير وأداء الامانة وتهذيب المعاشرة وحسن الطبع ، ورقة الشعور وصفاء القلب وحدة الخيال ، ولا نهائية التصور بما وراء الكون ، فزايا وصفات لا تتأتى إلا عن العلم والتربية .

٨ - أي تعليم ينفعنا ؟

وبما أن الاهداف المذكورة غاية ما تتطلبه الديمقراطية وهي أساس الرقي ، وما دام التعليم والتربية والاداة الصالحة لها ، وما دام واجبنا في عهدنا الاستقلالي التأسيس والانشاء ليكون وطننا حراً كامل السيادة ، كافل العيش الهني ، وما دمنا نعشق مجد الآباء ونعمل لاستعادة مجدهم وأداء رسالتهم فيا ترى أي تعليم ينفعنا وأي المدارس تحسن تربية أولادنا وأي منهج من مناهج التربية والتنشيف خير لنا ؟ هل نعلم أولادنا ليكونوا لنا أم لذويهم أم لبلدهم أم لأممهم ، أم لطائفتهم ، أم لحكومتهم ؟ وهل تربيتهم ليكونوا أصحاب إرادة وعزم ، وثبت ، أقوياء الجسم ، أصدقاء الفكر يتمدون على أنفسهم واثقين من نجاحهم يعرفون متاع الحياة

وقضايا الحياة ؟ أم زبدهم تبعاً لنا مستسلمين لارادتنا ، متكلين على مواردنا مرتزقين من الوظائف مسيرين بتيارات المحيط وتقاليد المجتمع ، أسيرين الاهواء والمطامع ؟ وأي سياسة تعليمية نتبعها ؟ سياسة التعليم الحر النظري ، أم التعليم المهني العملي ، أم التعليم الزراعي الصناعي ، أم التعليم العالي الجامعي ؟ أسئلة هي من صميم الحياة ومن ضروريات المستقبل ، ولا بد لذوي الامر من آباء ، وحكومة ، ومجلس أن يفكروا بها ويقروها ، ويهيئوا الجيل لما يجدونه خيراً لهم وله في تطبيقها .

٩ - صلاح التعليم وشروطه :

على أننا لن نتأكد من صلاح التعليم وملائمة التربية لأهدافنا وحاجتنا ما لم يقم أساسها على الثقافة القومية ، والتفكير العلمي ، والوحدة الوطنية والتعاون الاجتماعي ، والمساواة في الفرص .

ولن تفيدنا التربية المدرسية في جميع أنواع العلم ومختلف المدارس ان لم نعمل لانماء الشخصية ، وتقوية الخلق الأدبي وتنوير الذهن بالحقائق الواقعية والمعارف العملية ، والانقياد إلى المثل العليا في المعاملات والسياسة والاقتصاد وما لم تمكن الطالب بعد الانتهاء من تحصيله أن يفهم غيره وينقل إليه أفكاره بلفظة فصيحة ومنطق سليم وما لم يكن له المثل الصالحة مستمدة من أسفار التاريخ والأدب والاجتماع والأخلاق ومن السير التي تعلمها وقرأ عنها ، وما لم يكن له العزم والارادة والرغبة لتطبيقها في أعماله وعلاقاته ، وما لم يدم نشاطه متأجلاً ، وفعاليته متزايدة بحيث يتسع عنه وتسمو مداركه كلما تقدم في التجارب ، وما لم يوفق نفسه بأي عمل وفي أي محيط وفناً ما يريد بثبات ونجاح .

١٠ - كيف يؤري رجال التعليم هذه المهمة

والذي أعتقده أن رجال التعليم ان يوفقوا في أداء مهمتهم إن لم يقفوا على هذه المبادئ ويعملوا بموجبها ، ويملموا حاجات الوطن وطبيعة المحيط وتاريخه ، وموارد الثروة فيه وموقعها ، ويبحثوا عن قوى الطبيعة واستثمارها وعليهم أن يفهموا تكوين الامة الاجتماعي وأحوالها الروحية والسياسية والأدبية ومن الضروري لنجاحهم أن يحيطوا بالنظم القائمة والعادات الجارية والتقاليد السائدة . وأعتقد أنهم لن ينالوا ثمرة أتعابهم وعلمهم ما لم يعرفوا نفسية الطفل وذهنيته والادوار التكوينية التي يمر بها دماغه وجسمه وما يطرأ عليها من علل وتحولات وما لم يدركوا كيف تنمو قواه البدنية والفكرية والروحية وأعتقد أنه من الضرر الفادح تسليم أولادنا وهم ثمرة حياتنا وسبب وجودنا إلى مربين لا يعرفون الغرائز وتأثيرها على العقل الباطن وتحكمها في الطباع والأعمال الاشعورية ومن الويل ان تناسوا ما جهزتنا به الطبيعة من وراثه ، وأفعال منعكسة ، وعادات ومحيط ، وجهد ذهني واستعداد لحل قضايانا الحياتية .

١١ - حاجاتنا الحاضرة

أجل ! لقد بينا الغاية من الاستقلال ، وعرفنا معنى الديمقراطية ، وذكرنا مبادئها وأهدافها ، وشرحنا ضرورة التعليم والتربية ، وفصلنا مقاييس الرقي وأدلة التمدن ؛ وبخنتنا أهداف التربية والثقافة ؛ وعددنا مطالب الحياة وما أعدته الطبيعة لنا وما هي أدلة النجاح وأنواع المدارس وما يتحتم على الآباء اختياره ، وشرحنا ما يجب على رجال العلم والتعليم معرفته وكيف تؤدي هذه المهمة وبقي علينا كنتيجة لما تقدم أن نبين ما هي حاجاتنا الحاضرة من التعليم والتربية وأي المدارس والمعاهد أفيد لنا في عهدنا الاستقلالي الديمقراطي .

ان حاجتنا منها اختلفنا في تمدادها وبحثها تبدو صريحة إذا أخذنا بعين الاعتبار أولاً : ان بلادنا زراعية ونحن أمة تعيش من موارد الزراعة ومن خيرات الأرض وموقعنا يقع في ملتقى موصلات الشرق والغرب وبمحكم الطبيعة ورثنا الميل للتجارة والصناعة . ثانياً : ان الأمية لا تزال متفشية بيننا في المدن والقرى وهي علة التأخر . ثالثاً : ان ما مر بنا من أدوار الحكيم وأنواعه وما خلفته السنون في نفوسنا ومجتمعنا وأخلاقنا من أسوء ، وعادات ، وما أبقته بيننا من مقوضات تحتاج إلى معالجة قاطعة . رابعاً : ان أمر المرأة والعائلة أساسي في تكوين المجتمع وله التأثير الأكبر في كل اصلاح ونهضة . أقول إذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار وقدرنا ما للنظام والتنظيم والدفاع ، من ضرورة استطعنا أن نوجه تعليمنا وتربيتنا كما تفرضه الحاجة ويفرضه نظامنا الديمقراطي ويقول به العلم . ونظرة إلى ما بلغته المدارس الرسمية في سوريا من حيث العدد والنوع تربينا أن التعليم الاولي والابتدائي والثانوي وإن ازداد اتساعاً وتناول البنين والبنات وفاق ما كان عليه أيام العثمانيين والافرنسيين فانه من حيث الحاجة الملحة ، والضرورات التربوية المهمة لا يزال دون الغاية .

فالمدارس الابتدائية بلغ عددها « ٨٥٥ » مدرسة رسمية تحوي « ١١٢٠٣٥ » تلميذاً والمدارس الثانوية بلغ عددها « ٣٠ » مدرسة تحوي « ١٤٣٢١ » تلميذاً والمدارس المهنية بلغت « ٦٠ » مدرسة تحوي « ٩٦٢ » تلميذاً . وهناك « ٩ » معاهد أهلية تحوي « ١٧٢٢ » تلميذاً فهل يكفي هذا المقدار للقضاء على الامية ؟ ولو فرضنا أن ربع السكان يحتاجون الى العلم ويجب أن يكونوا في المدارس كما دلت عليه احصائيات الامم الراقية ، واذا فرضنا أن نفوس سوريا ثلاثة ملايين فالواجب أن

يكون هنالك « ٧٥٠,٠٠٠ » طالب وطالبة ، وإذا كانت النفوس بسد الإحصاء الفني الدقيق تبلغ أربعة ملايين لكان الذين يجب أن يكونوا في المدارس مليون شخص ، فكيف يقتضي لهؤلاء من المدارس ، ومن المعلمين ومن الأبنية ومن الزمن ؟

وإذا نظرنا إلى الكليات الثانوية وإلى عدد المتخرجين منها بالاعتبار الحاضر لهالنا عددهم ولوجدنا أن لا مخرج نهائياً لهم سوى التحصيل الجامعي وهو غير كاف لتأمين مستقبلهم ولتأمين حاجة البلاد . ألا يقعون حيارى مزودين بنظريات العلم ومحرومين من تطبيقاته العملية ؟ ألا ينتقصهم أدلة النجاح ، وينقصهم التوجيه المفيد ؟ ان التعليم الجامعي مفيد ولكن البناء يبدأ من الأساس لا من الرأس .

أين التعليم الزراعي ؟ والتوجيه الزراعي ؟ وأين المدارس الصناعية الزراعية ؟ وأين كليات الهندسة الزراعية ؟ وأين الخباز والحقول الزراعية الفنية ؟ ان هذه غير موجودة والموجود هزيل وناقص . والبلاد بلاد زراعية وخمسة وسبعون من في المائة سكانها يتعاطون الزراعة ؟ فكيف تزد البلاد وتتلافى أخطار الثقافة الناقصة ، وكيف يزيد انتاجنا وتزداد ثروتنا وصادراتنا والمزارعون يزرعون ويحصدون وهم على ما هم عليه منذ القرون الوسطى لم يتقدموا إلا قليلاً ؟ هذه بعثاتنا العلمية تذهب إلى الغرب فكيف عددها وكم خصص منها للزراعة وفروعها والدراسات الزراعية وهندستها . كان الواجب أن نوجه تعليمنا لهذه الغاية منذ الابتداء وأن نرسل البعثات من شبابنا للتزود بما في الغرب من رقي زراعي وعلم زراعي حتى اذا عادوا تولوا التعليم ، والتطبيق والارشاد .

ان لكل تعليم فوائده ومحسناته وزيادة المدارس وكثرة انتشارها وانتشار التعليم مفيد ولكن حاجتنا إلى المدارس العلمية العملية الزراعية والصناعية أهم من كل شيء ، ويجب أن نتداركها قبل استفحال داء الحيرة

والتوظيف . اننا بحاجة إلى مدارس لكل منها طابعها الخاص واختصاصها العلمي فبعضها للأثمار وبعضها للحبوب ، وبعضها للابلان والمواشي واللحوم والمراعي وبعضها للمروج والغابات ، وبعضها للاغنام والدواجن والصوف ، وبعضها للزهور والطور والنحالة ، وبعضها للكيمياء الزراعية ودراسة التربة والأسمدة ، وبعضها للقطن والري ، وبعضها للصناعات الزراعية التي لا تعد .

ولترقية الصناعات نحتاج إلى مدارس مهنية ترفع مستوى الصناعة ومستوى الحياة وتستخدم العلم والفن وتخدم الشعب والحكومة والجيش وحسب علاقاتها تضم الى مهن ميكانيكية ، ومهن يدوية . فالإيكانيكية تتناول مهنة المحركات ، والسواقة ، والسيارات ، والمطاحن ، وتركيب المعامل والآلات ، والكهرباء وما يشق منها كالبرق اللاسلكي ، والراديو ، والتمديدات ، والتنويرات وغيرها ، والسكك الحديدية والمباني والنسيج ، والانوال . والمهن اليدوية تتناول شتى الصناعات كالخزف ، والبللور ، والقزاز ، والنجارة ، والنحت ، والحداة ، والخياطة ، والنحاسية ، والزخرفة ، والدهان ، والحياكة وغيرها مما يدخل في حاجات الانسان وال عمران .

ولجعلها تتفق والنظريات العلمية والترقي العلمي يجب تعليمها في المدارس تعليمًا علميًا وعمليًا . ونظراً لأهميتها فان البلاد الاميركية ، والانكليزية ، والسوفياتية عممتها وزادتها بصورة لم يسبق لها نظير . لان المدارس العالية والجامعية لا يستطيع معظم الطلاب الوصول اليها واتمامها لاسباب عديدة ولذا كي يتبع كل ما يستطيعه وحتى لا يبقى عالة على المجتمع يعيش بوجي التقليد والامتثال احداثت هذه المدارس ، ونظمت ، واعتني بها حتى غدت محببة الى النفوس وضامنة للنجاح .

أما ما يخص المرأة وحاجتها فلاختلاف حالة البلاد عن غيرها وضرورة فتح المجال لها كي تكون عضواً صالحاً يؤدي وظيفته ويتبوأ مكائده فيجب أن يكون لها مدارس مهنية خاصة تتلائم مع حاجتها وطبيعتها . ومع أنها تؤم اليوم دور المعلمات ، والحقوق والطب والآداب والحقوق لائنها لا تجد سواها فهي في حاجة لمؤسسات أخرى تكفي للعدد الوافر من الطالبات تعلم فيها ما يضمن لها حسن الأمومة ، وبناء العائلة ، وكسب الرزق وخدمة الصناعة النسائية اليدوية والفنية .

والمدارس المهنية الموجودة والمدارس الثانوية والكليات الجامعية لا تستطيع بعلمها وتأسيساتها أن تمد الطلاب لمكافئة الحياة وتأمين حاجات الوطن وصيانة العقيدة والضمير ما لم تكن نموذجاً صالحاً للعائلة والحكومة والمعمل ، والشركة ، والقرية يخضع فيها الطلاب الى القانون لانه من منفعتهم ، ويقومون بالواجب لانه واجب وأداؤه فضيلة ، ويمرنون أبدانهم لأن التمرين يكسبهم النمو والصحة ويمبدون ربهم لأن العبادة غذاء روحهم ويحترمون الحرية لانها حقهم والاساءة لها إساءة لانفسهم ، ويفكرون بما يعملون لأن العمل بدون تفكير ضياع للعمر ، ويشعرون بالثقة لأن شعور الثقة يقوي ارادتهم ويبعد عنهم مركب النقص ، ولتكون المدرسة العالم المحب اليهم يجب معرفة رغائبهم وفهم مسائلهم ومعالجة مشاكلهم بروح العطف والتقدير ويجب أن تكون صلة المعلم والمعلمات مع الطلاب صلة الوالدين مع اولادهم والصديق مع أصدقائه . والمدرسة لا تكون محببة إلا إذا وجد الطلاب فيها ما يريح روحهم ويهدب عواطفهم بإنشاء النوادي المختلفة والجمعيات المفيدة الجديدة . وما هو ضروري أن تكون المدرسة نظيفة ومرتبة ومنسقة وأن تكون عناية النوادي والجمعيات التوجيهية في مختلف الشؤون حتى يتعاون الطلاب على الأعمال الخيرية ويتعودوا عملها برغبة وتقدير . وللتخفيف من متاعب الفكر يجب أن تقام في المدارس

الالعاب الرياضية وتمارس التسلية البرئية ويجب أن يكون نظام الادارة والاشراف يشابه نظام الحكم القائم على المبادي الديمقراطية فيكون بجانب جهاز الادارة والتعليم هيئات للطلاب ينتخبون من قبلهم يمثلون مصالحهم ومصالح المدرسة ويشرفون على المنظمات المدرسية والجمعيات كما يشرف النواب على جهاز الحكومة ويشرعون لصالح الطلاب والمدرسة .

ومن المفيد تعويدهم كيفية الانتخاب وممارسته والبحث والمناقشة وتقديم الاقتراحات وتقد الآراء ووضع القرارات في المسائل التي سيواجهونها يوماً ما في مستقبلهم . ومن الواجب ايقاظ شعور الاحترام والحفاظة على موجودات المدرسة وكتبها وأدواتها وجمالها ولكي لا تنقطع صلة المدرسة بمن انجبتهم من طلابها ولمعرفة ما يؤول أمر كل منهم بعد خروجه يتخذ سجل خاص لتاريخ حياتهم وأعمالهم ويسعى لادامة العلاقة معهم والاتصال بهم وبيان مراجعاتهم ومشاكلهم واتباعاً لروح التربية الحديثة يجب أن يكون للرياضة جمعية وناد وللمطالعة مكتبة وناد وجمعية ، والمباحث العلمية ناد وجمعية ، وهكذا لكل عمل تعاوني ولكل عمل علمي ناد وجمعية وقانون ويجب أن تمتزج النزعات البسيكولوجية والعلمية مع النزعات الاجتماعية لجعل التربية العمل الانهائي المقصود منه تكيف الفرد جسماً وروحاً و عقلاً مع محيطه العلمي ، والعاظمي ، والارادي . وإلا كان من الضرر جعل المدارس قاعات للعقل ، ومكابس للعواطف ، وزرايب لقتل النفوس ومراتع لافساد الفرائز ، وسجوناً لقيد الحريات . ولا أدل على هذا من قول اللورد بيفردج الذي ينادي « ان قيام الديمقراطية دون تعليم الشعب وثقافته لا بد أن يؤدي الى جعلها ستاراً خداعاً لطغيان جبار لا خلاص منه ، واذا كانت الديمقراطية هي الغاية التي تستهدف اليها الشعوب صوناً لحريتها وكرامتها ، فلنعمل جادة مخلصنة لنشر التعليم وتذيع الثقافة بين أفرادها وطبقاتها جميعاً لتصبح ديمقراطية صحيحة ،

لا زائفة خادعة « وبؤيد هذا القول الحكيم بيان امبراطور اليابان « هيروهيديو » لشعبه ، بعد ما استسلمت بلاده الى الحلفاء فقال لهم « لقد غلبنا لاننا لم نتعلم » ومعنى أننا لم نتعلم أن تربية الشعب وعلومه ومعارفه بالنسبة إلى الحلفاء كانت ناقصة فلم نعد العيدة ، ولم نفهم مطالب الحياة . . . ليس في قول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا تربوا أولادكم لزمانكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » ما يؤيد هذه الحقيقة ويحذرنا من الوقوع بما وقعت فيه اليابان .

يقول المرابي « جاكوب فام » وهو من علماء أمريكا في بحثه عن التعليم وأهدافه « ان التعليم في كل زمن ومكان عملية يقوم بها جيل بعد جيل قصد اعداد الجيل الآتي للحياة والاضطلاع بمسؤولية الحياة ولا يخرج التعليم عن كونه تجربة قد تصيب وقد تخطيء وقد تنفع وقد لا تنفع شأنه في هذا شأن جميع التجارب التي يقوم بها الناس » .

١٢ - الخاتمة

وأخيراً ان محاضرتي ليست برنامجاً للديمقراطية والتعليم ولكنها ، فكرة توجيهية قصدت منها تنبيه المسؤولين املها تفتح امامهم مجالاً للبحث والتنقيب والنقد وتنير لهم طريق الاصلاح بأفضل الوسائل فيختارون ، للأجيال تملياً صحيحاً مفيداً ينقذهم من الحيرة ويمكنهم من العمل ويجعل ديمقراطيتنا لصالح الشعب وإرادته وهذا ما نبتغيه وإياكم والسلام .

دمشق : كانون الثاني سنة ١٩٤٧

المبادي أو الأخلاق العامة

في تكوين وتطور الأمم

للكونتور أسعد الحكيم

أيها السادة :

أقربت الساعة وانشق القمر ، وأن للليل الثمل وقد أوشك النصل
أن يصل إلى قلبه ، أن يصحو من سكره ، وينتبه من رقاده ، فينظر
إلى حقه وقد اغتصب ، وإلى مورد رزقه وقد نضب ، وإلى جسمه وقد
هزل ، وإلى شبابه وقد هرم ، وإلى ثيابه وقد خلقت ، وإلى حاله وقد
رثت وإلى أهله وقد تفرقوا ، وإلى بنيه وقد استعبدوا ، عله يذكر ،
وعسى أن تنفع الذكرى ، ذكرى عز وسلطان ، وقصور وجنان ، وحول
وطول وعلوم وفنون ، وحضارة ومدنية ، فيأسف ويتلهف ، ثم يعقل ثم
يتبصر . فيعلم أن مرض الوالد ينتقل إلى الولد ، وأن سبب شقائه خطيئات
الآباء والاجداد . وعله شقاء بنيه ما جنته وما تجنيه يده . فيكفر
بنفسه عن الأولى ، ويخفف بحكمته وجهاده من وطأة الأخرى .

خطأ إداري في صدر الاسلام شق عصا المسلمين إلى شطرين . وخطأ
آخر في عهد الدولة الأموية ، تداعت لهول انفجاره أركان تلك المملكة
العربية الفتية . وخطأ ثالث في ذمة الدولة العباسية ، أودى بالائمة العربية
وسلطانها إلى هذا اليوم . وجود يستمر فينا إلى الغد سيقضي عليها إذا
لم ينتزع إلى الأبد .

وما هي إلا نظرة في نظام هذا الكون العظيم حتى يدرك أن هذا

العالم لم يخلق سدى ، ولم يترك أمره فوضى . بل قدر تقديراً ، وأحكم صنفاً . فلاكل شيء سبب . ولكل أجل كتاب ، وان العلة لازمة لمعلولها . والقضاء مرهون بأسبابه . والقدر مرتبط بأحكامه . فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الأرض لله يورثها عباده الصالحين لحكمها ، المصلحين لأمرها . سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

فالزلازل في زلزالها ، والبراكين في انفجارها ، والزوابع في عصفها ، لا تختلف في قانون نشوئها ، عن الأئم في تطورها ، والمالك في تقبلها . بل كل يخضع لقانون طبيعي واحد : قانون الحركة الدائمة والقوى المتنازعة . فالنار والهواء والماء والتراب ، والنبات والحيوان ، ما هي إلا مظاهر للقدرة كيفتها الحركة الدائمة وميزتها القوى المتباينة . فاختلفت في طباعها وتباينت في أشكالها وكذلك الأئم من حيث النشوء والتطور فهي واحدة في جوهرها ، متباينة في حركتها ، وبقدر اختلاف تلك الحركة . تختلف عناصرها ، وتتكيف أحوالها ومقياس القوى الفعالة هي الأعمال . ومعيار القوى الاجتماعية : هي الأخلاق .

جيشان متساويان بالعدد والعُدء، والدربة والنظام ، والقوة والمناعة ، فالظفر لا عظمها خلقاً .

وآخران متفاوتان بالعدد والعُدء . هذا صغير منظم وذلك عظيم أمره فوضى فالغلبة للنظام على الفوضى .

وأمتان متساويتان بصلابة الأخلاق ، فالظفر بجانب العالة على الجاهلة والكثيرة العدد والعُدء على قليلتها .

وأمة مجتمعة على ضلالة أوفر حظاً في الحياة من أخرى متفرقة على حق سنة الطبيعة في أبنائها .

دعا موسى قومه يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم

ولا ترتدوا على أديباركم . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، فتاهوا في الأرض أربعين سنة ، ثم عادوا فتغلبوا على تلك الأرض المقدسة ، وذلوا أولئك القوم الجبارين ، وظفروا بما تقاعدوا عنه بالأمس ، فما السر في هذا الانقلاب العظيم وما علة هذا الاقدام بعد ذلك الاحجام ؟ تلك الاخلاق وركب البحر طارق بن زياد بأثني عشر ألف مقاتل من عناصر شتى ، مختلفي الوجوه ممتزجي الأرواح ، حصونهم سيوفهم ، وقوتهم زاد عدوهم ، فنزل الاندلس غريباً وفيها من العمد والجيوش ، والقلاع والحصون ، ما لا يقع عليه حصر ، فشئت جموعها ، ودك حصونها ، وفتح بلادها وأخضع رجالها ، وأسر ملوكها وامتلكت كنوزها ، ثم وقفت ملوك الطوائف ومعها الجيوش الجرارة ، والفرسان الكرارة ، ومن خلفها الحصون والقلاع ، والذخائر والعتاد . والعلوم والفنون والحضارة والمدنية . فلم يغن العلم المتخاذل من صولة الجهل المتكاتف شيئاً . ولم تدفع المدينة المتفرقة من الصعجية المتحدة شراً . وما هو إلا حين من الدهر آتى ، حتى باتت تلك المملكة العربية العظيمة كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . فليت شعري . ما علة هذا الاندحار ، وما كان السبب في هذا الانتصار ؟ : تلك الاخلاق . وانفجرت قنبلتان في عام واحد ، إحداهما تركية والاخرى عربية فتداعت لهول صدئ الاولى حصون اليونان وقلاعها وتغير نظام العالم ومحت لوزان من صيثر عهدها . ولم تهتز لصوت الثانية ذرة النسيم وباه بالخسران رماها ، فما علة هذا التباين الفاضح يا ترى وهما سهان راشتها قوس واحدة وإلى هدف واحد ؟ تلك الاخلاق ، تلك الاخلاق .

فالاخلاق أيها السادة - وأريد بها الاخلاق الاجتماعية العامة - هي الروح الحيوية التي تتجلى بها الامم في كل طور من أطوار حياتها ، قوية أو ضعيفة ، سالحة أو فاسدة ، هي الجملة العصبية التي تربط الفرد بالمجموع

بكثير منها فيما قبل . فقد كان في آخر عهد المملكة الرومانية والعربية فيها من عوامل الحضارة والمدنية . ورجال العلم والادب والذكاء والدهاء ما يربو كثيراً على ما كان إبان نشوئها . فلم يغن ذلك عنها من أمر الاضمحلال شيئاً . لأن نسبة الرابطة ما بين الفرد والمجموع كانت ضعيفة لا تكفي لقوام ذلك الجسم العظيم . فانتثر عقده وتساقطت جدرانه وبات أراً بعد عين .

ولا غرو فالامة من حيث كيانها كالبنيان الحجري لا تقاس متانته أو قوة مقاومته العمومية بصلاية كل حجر من أحجاره فحسب . بل بقوة تلاصق تلك الاحجار بعضها ببعض . فاذا كانت الاحجار صلبة وليس فيما بينها ارتباط تام يتداعى ذلك البناء لاقل زلزال يحصل . وهكذا حال الامم فانها لا تكون حية ذات كيان قوي مهبا توفر فيها من أفراد تضارع تلك الاحجار صلابة بعلومها ومزاياها الخاصة إذا لم يكن في نفوس تلك الافراد أخلاق شريفة تربطهم ومباديء سامية تجمعهم .

تلك ماهية الاخلاق . ومنها يتضح لنا أن الامة هي الاخلاق تحيا بقوتها وتتلشى بضعفها . ترقى بصلاحها وتنحط بفسادها . فهي لحمة الامة والافراد سداها وهل يقوم سدى بلا لحمة وهل يقف بنيان بلا أوصال .

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

وقد ذهب بمض علماء الاجتماع إلى أن الخلق هو الطبع . بينما الفرق بين الاثنين كبير . فالخلق مظهر من مظاهر النفس يبعثه الفكر وتبديه الحوادث فيظهر عفواً لمجرد ارتياح النفس واطمئنانها . فهو معنوي بالدرجة الاولى لا عمل للوراثة فيه . انما العمل للتربية والبيئة . أما الطبع فهو ينبعث عن الجبلة وتتجلى به المشاعر . فهو مادي في خاصيته تعمل فيه الوراثة ويؤثر اختلاط الدم .

فالانكليزي لا يستطيع أن ينقلب فرنسياً . ولا الهندي اميركيا من

حيث الطبائع ولكن بوسع جميع الشعوب أن يباري بعضها بعضاً بالأخلاق فالوطنية والقومية والعصبية والشجاعة والإباء ، كالعلم والادب ليست ملك أمة دون سواها إنما هي مشاع . لكل من الشعوب نصيب منه قدر سعيه وجهاده .

وإذا كان للطبائع تأثير في تباين الأمم واختلافها فلا أخلاق القول الفصل في تطورها وكيانها . وإلا لاندثرت الشعوب الضعيفة . وتلاشت الأمم الهينة الطبائع ولما ضاهى الياباني الأميركي والجرماني ووقف التركي امام الفرنسي والبريطاني .

فبلا أخلاق بلغت رومة قبل أوج العظمة والمجد ، وبالأخلاق حطم العرب عروش القيصرية والا كاسرة وبالأخلاق يحكم المستعمرون اليوم أضعاف أضعاف عددهم من الأمم المتقطعة الاوصال وفيها من ذوي العقول والسجايا الحميدة ما لا يرجح عليه عقل الاوروبي ، ولا تقاس به أخلاقه الفردية . ومها تضاربت الآراء في كنهه الاخلاق فالحقيقة التي لا يشوبها ريب هي أن الاخلاق العامة معيار قوى الأمم الحيوية . وان نصيب كل أمة من الحياة بقدر ما عندها من الاخلاق . وان الأمم ذات الاخلاق الصلبة لا تغلب على أخلاقها إنما تستعبد الأمم بالاسلح الذي لا يجرح مبادئها . وقد أدرك الفاتحون والمستعمرون ولا سيما في العصر الحاضر هذه الحقيقة الراهنة . فهم لا يوجهون قواهم إلى مراكز الانفعال في نفوس الأمم التي يطمعون بها ، إنما يعمدون إلى هذه المراكز الحساسة فيخدرونها بكل ما اوتوه من حكمة ودهاء . يملونها بما تصبو إليه من ألفاظ الانسانية والمدنية وخدمة البشرية وحرمة ما هو مقدس في عرفها إلى غير ذلك من الخدرات المعنوية التي لا تضارعها فعلاً أشد الخدرات المادية ، حتى إذا فلج بها خلق الائمة العام الذي به قوام كيانها ينتثر عقدها وتفرق كلمتها ويغلب فيها الشقاق والنفاق والفساد وتروج في سوقها الدسائس والفتن ويسهل على الفاتح أخذها وعلى المستعمر حكمها .

ولعمري إن من الانسانية والمدنية وما رادفها من الالفاظ التي في
 ظاهرها الرحمة ما هو أشد فعلاً في استعباد الامة وتذليلها من قنابل المدافع
 وحراب الأستنة . وما من خطر أشد على حياة الامة من قتل خلقها العام
 على مذبح خيال خلب تنصبه الامة القوية شركاً في سبيل مطامعها
 يسمونه : الانسانية .

وخلاصة القول الاخلاق قوى نفسانية كامنة تثيرها مؤثرات خاصة
 كما يشتعل البارود لاقل شرارة ، وهي كما قدمنا معيار قوى الامة الحيوية
 تعرب عن شدتها وضعفها وصلاحتها وفسادها كما تعرب الاعراض عن حالة
 الجسم من حيث الصحة والمرض . وقد يتوصل الحكيم الاجتماعي إلى تعيين
 أحوال الامة بالنظر إلى أخلاقها ، كما يشخص الطبيب المرض الملم بالجسم
 بالنظر إلى أعراضه ، وكما أن الاعراض الصحية والمرضية ليست عللاً بل
 مسببات حادثة تعرب عن حدوث انفعال بالجسم تتكيف بحسبه ، كذلك
 الاخلاق فانها حالات روحية تعرب عن انفعالات في النفوس تثيرها
 مؤثرات معنوية مختلفة من أهمها فيما يتعلق بهذا الموضوع : الدين .
 والوطنية والقومية .

الخلق الديني

فالخلق الديني هو الحالة الروحية التي تتجلى بها النفوس عندما يمتلك
 الايمان جميع قواها ومشاعرها فتتقاد لسلطانه عفواً بلا تردد ولا تفكير .
 فقد تكون الامة متدينة عالمة وليس عندها خلق ديني شأن العرب في
 هذا العصر . كما أنها تكون ذات خلق ديني متين وإمامتها باحكام دينها
 ضعيف شأنهم في بدء الاسلام . والخلق الديني أقوى العوامل الفعالة في
 حياة الامة وتطورها . وأشد الروابط التي تجمع ما بين أفراد الشعوب

المختلفة العناصر والمواطن . فالحوادث الدينية أعظم حوادث التاريخ وأجل أعمال الأمم ما جاء في عصر تدينها وما من مؤثر ذي سلطان على النفوس كالدين لأن فيه السعادة المثلى التي تصبو إليها النفوس البشرية وتسكن طبيعة الانسان الميالة إلى البقاء الواجفة من الفناء المفادية بالعرض في طلب الجوهر . فهو خير عامل تتوحد به مشاعر الأمة ومنافعها وأفكارها . وسيظل الدين حياً لا يقنى ما بقي في العالم أسرار وغوامض لا يقوى العلم على حلها والعقل على إدراك كنهها : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إنما الاخلاق الدينية تضعف وتقوى وتموت وتحيا وحسب تطورها هذا تتطور حال الأمة التي قامت عليها وتكونت بها . والامم التي يسود فيها الخلق الديني أمنع الأمم وأشدها بأساً وقوة وتحملاً للمشاق وصبراً على المكروه وتضحية بالنفس والنفس . ولم يذكر التاريخ أمة تسامى فيها الخلق الديني غلبت على مبدئها اللهم إلا إذا كان الغالب اسمي منها اعتقاداً وأمن ايماناً . والامم التي يسود فيها الخلق الديني تسير في منهجها الاجتماعي اما إلى اسمي منازل الرقي أو إلى أدنى درجات الانحطاط المدني وفقاً لمرمى تعاليمها الدينية ولكنها تحتفظ بكيانها وحياتها .

وفي تاريخ العرب في الجاهلية وفي صدر الاسلام وبعده أجلى مثال لتطور الخلق الديني في الأمم وتطورها بحسبه . فالعرب في الجاهلية لم يكونوا أقل منهم في صدر الاسلام أخلاقاً . فقد كانوا على جانب عظيم من الكرم والاياء والشهامة والشجاعة والعصبية والفروسية والنجدة والوفاء بيد أنهم لم يكونوا أمة ذات كيان اجتماعي انما كانوا قبائل وشعوباً لا حضارة لهم تذكر ولا مدينة تخلد لا يعبأ بهم الجار ، ولا يُرعى لهم جوار وذلك لفقدها رابطة تجمعهم وخلق عام يوحدهم . فلما جاء الاسلام بدعوته وألف ما بين قلوبهم بمكته وصار لهم خاقاً تلاشت فيهم نفوسهم وانقادت لسلطانه مشاعرهم ، تدفقوا ولا السيل في طغيانه من أقصى صحاري

البداءة إلى اسمى انحاء العالم المتمدن جرفوا . عروش الأكاكسة ونكسوا
 ئيجان القياصرة ورووا غليل الارض عدلاً وكرماً فأثبتت من الحضارة
 أكملها ومن المدنية أجمها . ثم لما تغيرت الحال ، وتمردت النفوس على
 سلطان الايمان ، واستولت المشاعر على الدين فاصبح خليفة لا خلقاً ونسبة
 لا نسباً ، وعلماً لا عملاً . ومذاهب لا مذهباً ، تغيرت الأرض غير
 الأرض وتبدل العرب غير العرب فباتوا كالغرباب لا عصبية ولا سجايا
 جاهلية تجمعهم ولا أخلاق اسلامية تنهض بهم فحق القول عليهم « وما كان
 ربك ليملك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد أتى بعض الناس تبعة هذا المسيح على الاسلام لقوله باقضاء
 والقدر تارة واخماده روح العصبية والشعوبية ونشره مبدأ الاخاء والمساواة
 بين جميع العناصر البشرية التي تدين به تارة أخرى ، فالتجوا باللائمة عليه
 كأنه لم يأمر بالعدل والاحسان والعلم والعمل والسمي والجهاد والحزم
 والشورى والنضامن والعزم قبل التوكل والحذر والاستعداد للطوارئ ، إلى
 غير ذلك من دعائم الملك ومناهج الرقي والحضارة ، أو كأنه خفي عليهم
 أن العرب لولا الاسلام لما كانوا أمة تعرف وان العربية لولا القرآن لما
 استطاعت أن تنتشر في سائر الممالك الاسلامية المختلفة اللغات . ولولا
 كتاب تركه الاسلام حرزاً واقياً على صدورهم لاندجوا بغيرهم من الأمم
 الحاكمة من عهد بيميد ولباتت العربية طلاس لا تحمل رموزها مصير الأمم
 الغارة واللغات المتينة .

أما العوامل الحقيقية التي قذفت بالعرب إلى أقصى درجات الانحطاط
 فهي معقدة كثيرة لا يسمح مقتضى الحال بطرق بابها أهمها ضعف الخلق
 الديني القويم في نفوسهم .

وخلاصة القول : لم يتمسك العرب بخلقهم الديني القويم فضلوا السبيل
 وتفرقوا شيعاً . ضعف الجسم وتشوه الرسم فمن العبث والحالة هذه يحاولون
 النهوض والرقي قبل أن ينبعث في نفوسهم خلق عام جديد يحييها . خلق

يجمع أعضاء هذا الجسم الكبير المبعثرة في جميع أنحاء الأرض بمدشنتها وهذا الخلق هو الوطنية ، هو القومية .

الوطنية

خلق الانسان حرّاً ، وخلق الزمان له عبداً ، وأعطى الأرض مُلكاً يغدو من مشرقها فيروح إلى مغربها ، ويفادر شمالها فيأويه جنوبها . لا حاجز يمنع ولا حد يردع ، انما الأرض لله أورثها الناس جميعاً ، ملكاً مشاعاً للانسان متاعاً ، يأكل ثمارها ويشرب ماءها وينشق هواها ويفترش أديمها ويلتحف سماءها ، فأقام من الدهر رديماً يمرح فيها مرحاً . مزاجه مزاجها وطبائمه طباعها . لا يلفحه حرها ولا يؤذيه قراها . ثم لما تبدلت منه الحال وآثر الحل على الترحال أو العبودية على الاستقلال ، نحت من الجبال بيوتاً . كانت لسعادته الطبيعية لحوذا . ثم حرث الأرض وحرسها فكانت لحرثه الأولى قيوداً . وكان كلما ازداد ثراءً . يزداد شقاءً . وحساداً واعداءً . فيعتصم بالجار ، وحق الجوار يشد به ازره ويرهب عدوه ، فنشأ البيت ثم القرية ثم المدينة ثم المملكة . وكانت الأرض كلها طال بالانسان عهداً تصبغه بصباغها وتفرغه بقالها وتكيفه وفقاً لطبائنها وعناصرها فتعارف من البشر من ائتلف ، وتناكر منهم من افترق فكانت القبائل والاقوام والشعوب والأمم . ولا غرو فالمرء من حيث الطبع ابن الارض التي جبل من تربتها ومن حيث الخلق ابن الأمة التي نشأ في حجرتها من ماء الاولى ونارها وتربها وهوائها فطرت حجيرات جسمه ، ومن روح الاخرى بعثت قوى نفسه ، فهو لا يسكن الا فيها ولا يرتاح الا اليها . فلكليةا عليه حق وفي ذمته عهد . وحق الارض حب الوطن . وعهد الأمة الوطنية .

تفاوتت الحدود في تعريف الوطن ، فهو في معناه الحقيقي البيت أو القرية

أو المدينة التي نشأ الانسان فيها وترعرع بين جدرانها وشب تحت سماءها وشاخ على مودتها وعهودها . فكانت له أمأ في طفولته ، وأبا في شببته ، ومسرح سمي وجهاد في كهولته ، وجنة خلد يسكن اليها في شيخوخته .
الفها فأحبها والاياف مدعاة للحب . فكان لذلك حب الوطن أي المكان والسكان غريزة تنشأ مع المرء ولا تولد ، وتموت ولا تورث . فهو حس طبيعي كامن في نفوس الناس جميعاً . يهيجه البعد ويسكنه القرب كالصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه إلا المرضى . وهل من غريب لا يحن إلى أهله ومبعده لا يشوقه ذكرى وطنه . وفي دواوين الادب وبين أوتار ربات الطرب من الاشعار والالخان في وصف هذا الحب الطبيعي ما لا يسعه حصر .

وفي عرف السياسة والاجتماع الوطن حيث يخفق اللواء ويرتفع العلم ويتجلى سلطان الأمة ، أو هو حيث يرقد الاجداد وينبض عرق الأمة ، ذلك هو الوطن الصحيح الذي قامت عليه حضارة الأمم الحية وسياستها لا تبغي به بدلاً ولا تخشى به تضليلاً .

أما الوطنية فهي غير حب الوطن والمكان . هي خلق تبعته التربية في النفوس الحرة فترى في معنى الوطن حياة تبغيها وديناً قوياً تجاهد في سبيله بالنفس والنفيس . هي ايمان بمعبود معنوي لا تدركه الابصار إنما تخنلج لذكره القلوب التي في الصدور ، هي خلق نفساني ، بينا حب المكان غريزة حيوانية ، فكل امرئ يحب وطنه بالطبع وايس كل امرئ وطنياً .

والوطنية خير خلق عام الممالك المختلفة العناصر والاديان تحفظ به كيانها وتستجمع قواها وتؤيد وحدتها اللهم اذا قام على أسس العدالة العامة أي الحرية والرفق . وذلك لان الوطنية لا تنبت إلا في ظل الحرية والعدالة . فهي متاع الأمم الراقية الحرة وضالة الأمم المغلوبة على أمرها تنشد لها ولا تجدها وانى يجدها وليس هنالك وطن تأويه ولا سلطان تحميه . قال الغازي دي جو كور :

« حيث لا توجد الحرية هنالك قطيع من الرقيق وليس هنالك شعب ذو وطن . لان الوطن من خصائص الرجال الاحرار ، ولا غرو فان الهياة الاجتماعية لم تنشأ وتنمو الا لغرض واحد هو المحافظة على حرية أعضائها وسائر حقوقهم المتبادلة . فاذا فقدت تلك الامنية فسد المتن الذي بني عليه معنى الوطن . فيتعذر اذ ذاك نمو الفكرة الوطنية في نفوس تلك الجماعة . »

واذا استقرأنا روح الوطنية في حياة الامم في مختلف أدوارها نجد أنها لم تك شيئاً في عهد الانسان الاول حينما كان منفرداً مستقلاً في حياته بدوياً رحلاً بطبيعته . لانها بنت الاجتماع وريذة الحضارة والمدنية . أما في القرون الاولى والوسطى فقد كان للوطنية فيها عند سكان بعض المدن كاثينة ورومية وقرطاجنة وغيرها حظ عظيم ، لكنه غير تام من الوجهة السياسية ، وذلك لآن فكرة الوطن كانت محدودة في تلك العصور لا تتجاوز أسوار . فهي لم تتعد عند الاغريق دائرة المدينة . فكانت مدنهم في حرب مستمر فيما بينها تنظر كل واحدة منها اشقيقتها بعين ملؤها العدا والازدراء . وعاشت الهند من ذلك العهد إلى ما يقرب من هذا اليوم وهي لا تعرف غير وحدة القرية . فظلت اسيرة الفتح ورهينة الاستعمار ومسرح أطماع الطامعين . ولم تتجل الوطنية في نفوس الامم بمظهرها الحالي الا من عهد قريب .

أما العرب فانه لم يكن للوطنية حظ عندهم بالرغم من شدة محبتهم لأوطانهم حتى عدوا حبها من الايمان ، وذلك لآن نفوسهم كانت مشبعة بكليتها بفكرة العصبية في الجاهلية وبفكرة الاسلامية في صدر الاسلام . أما بعد ذلك حينما بات الاسلام مجماً لا جامعاً والاسلامية مذهباً لا خلقاً . ظهر في نفوسهم شعور جديد ليس هو من العصبية الجاهلية في شيء ولا من الوطنية والاسلامية في شيء ، بل هو مسيخ من كل ذلك دعوه العصبية الطائفية كان من عواقبه اضمحلال دولهم وفقد مجدهم وضياع سلطنتهم .

ومما تقدم يتضح لنا أن الوطنية لا تكون عاملاً صالحاً في حياة الأمم الا إذا كانت خلقاً عاماً تتأثر به نفوس جميع أفرادها . أما الوطنية المنجزاة الخاصة فهي كاطائفية الدينية أشد خطراً على حياة الأمم من أشد أعدائها . فهي رهن على انحلالها وهلاكها . لأن العهد متى طال على المدن والاقاليم الصغيرة ذات العنصر الواحد وبعضها مستقل عن البعض الآخر تتولد في كل منها روح اقليمية ثابتة خاصة يتعذر معها تأليف جسم واحد من مجموع تلك الاعضاء المتفرقة فتتلاشى وحدة الامة وتضعف قواها ويتقلص رويداً رويداً ظلها من عالم الأمم الحية ، شأن العرب في الماضي وشأنهم في الحاضر ، فان فكرة الوطن بمعنى القطعة الحفيرة المجردة من ذلك البيت الكبير وفكرة الوطنية بمعنى الطائفية الصغيرة المتبورة من جسم تلك الامة العظيمة مضر باستقلالهم باعث على ضعفهم وانحلالهم

فعبثاً تحاول الأمم المشتتة أن تنهض وتحيا قبل أن تنتزع من صدورهما ما فسد فيها ، قبل أن تغير ما بأنفسها ، قبل أن تتخلق بخلق عام يدين به جميع أبنائها على السواء تصبح به بلادها من أقصاها الى أقصاها هيكلاً لعبادة يتراصون في صفوفه جنباً لجنب وكتفاً لكتف لا نفرق بين أحد منهم يتقربون جميعهم الى جامعة واحدة هي القومية .

* * *

القومية

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . حكمة اجتماعية ، وحقيقة علمية ، آمن بها السلف . واختلف في حكمها الخلف . فتفرقوا شيعاً ، وذهبوا في أمرها مذاهب شتى . فمن مؤمن بخاصية الاصل الانساني ووحدة

جنسه . ومن معتقد بوحدة الاصل ونشوء الجنس وتطوره ، ومن قائل بتعدد الاصل والجنس معاً . ولكل من أئمة هذه المذاهب العلمية أدلة على تأييد دعواه وبراهين أقرها علم الانس وأخذ ينقض دعائمها علم اليوم ، وذلك لأنها لم تتقيد بقيوده ، ولما تقف في دائرة حدوده . ولعمري إن في تعدد المذاهب العلمية واختلافها دليلاً على غموض الحقيقة وضاعها . فالعلم الطبيعي لم يهتد بعد إلى مصدر الحياة . ومعرفة أصل الاجسام الحية وادراك كنه تلك النفس التي خلق الناس منها . وصدروا عنها . كما أن التاريخ وعلم الآثار لم يتوصلا إلى تعليل تطور البشر ونشئه تعليلاً علمياً يتفق مع الطبيعة وعلم النفس . وآخر كلمة فاه بها عالم القرن العشرين حتى سنتنا هذه على لسان أجل أعلامه الاستاذ فيثالتون في كتابه « أطراف ونطق ذوات الفقرات الرباعية الأرجل » الذي تقد فيه مذهب النشوء والتطور نقداً علمياً أباط الغطاء عن وهن الاسس التي ارتكز اليها ، وخطأ الادلة التي قام بها . وأهمها ناشيء عن عدم ادراكه ان استحالة الاجهزة الى غير أشكالها بعد تكاملها مستحيل الوقوع . لأنها تستلزم انتقال بعض الاقسام وتقطع أوصالها مما لا يلتئم مع الحياة . ومنها تصنيفه الأعضاء حسب مظاهرها الخارجية بصرف النظر عن ارتباطاتها . إلى غير ذلك من الاخطاء العلمية . وتلك الكلمة هي قوله : « إن النشوء لم يحدث قط ولما يقع طبق النظريات الموضوعية ، وان الادلة الرشيحية والتشريحية المقامة على تأييد هذا المذهب ليس لها القيمة العلمية التي صبغت بها . وانه من الواجب أن نعترف ونقر بأننا لا نعلم شيئاً من أصل الحياة ومن مصدر الموجودات الحية . وانه قد يسهل علينا هذا الاعتراف بجهدنا فيما إذا فكرنا أننا لا نعلم أيضاً من أصل الأجسام الجامدة شيئاً ، وفي ذلك بيان عن وهن الدعائم التي أقيم عليها بناء فكرة النشوء والتطور .

تلك كلمة العلم الأخيرة في هذا الموضوع . ومنها يتضح لنا أن ما قيل فيه ونسب إلى العلم الصحيح المجرد عن الأهواء والأغراض لا يقره العلم . إنما هنالك نظريات تحتل الخطأ والصواب لم يتوصل العلم بعد إلى درجة الحكم فيها . تنازعتها الأهواء . وعضدتها المنافع الخاصة ، وروجت سوقها سياسة العصر الماضي والحاضر للأمتها روح الأمم المستعمرة ومواقفها مطامع الدول العظمى أهمها نظريات النشوء الفجائي الموضوعي التي أيدها مكتب الاجتماع البريطاني الفرنسي ونظريات مذهب اختلاف العناصر البشرية التي نشرته المكاب الجرمانية . وأجل أئمته الكونت دي غويينو وجميعها يرمي إلى القول بتعدد الجنس البشري واختلاف أصوله وإلى أن الأقوام البشرية لم تنشأ من أصل واحد إنما لكل منها جوهر وأصل خاص . ونشوء تاريخي محدود بنسبة ذلك الجوهر . وان الأمم مسيرة . منها ما تؤهلها قابليتها الخاصة إلى الرقي المتواصل ومنها ما تقضي عليها طبيعتها بالانحطاط الدائم . وان ذلك الرقي وهذا الانحطاط مقدران وواقعان حتماً بعامل القوى الحيوية . وان العنصر الآري أشرف العناصر البشرية وأفضلها . فهو الشعب المصطفى الذي لا نهاية لمعراج رقيه . حبه الطبيعة بأكرم مواهبها . فاليه تنتهي سيادة العالم وقيادة الأمم . وما الشعوب الباقية إلا أنواع بشرية متفاوتة في المواهب إلا أنها محدودة الرقي . تقضي عليها طباعتها الخاصة بالخضوع الدائم لسلطان القوى المطلقة . وقد كان لانتشار هذه المذاهب في أوربة سرعة البرق . ولا عجب فانها خير مؤيد لسياسة حكوماتها الاستعمارية . وأعظم مبرر لما ترتكبه في معاملة الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها من ضروب المظالم والقساوة .

وقد كاد سبات الشرق العميق يُلبس هذه النظريات ثوب الحقيقة الراهنة لو لم تزل النهضة اليابانية دعائمها وتقوض الحرب العالمية الأخيرة

مبانيها . فأسفر الصبح لذي عينين وانكشف الغطاء عن فساد المبادئ التي قامت بها وأخذت الابصار العامة تتراجع نحو نظرية النشوء التاريخية القائلة بوحدة الجنس البشري . وبأن الناس يمتون جميعاً الى أصل واحد أو نفس واحدة . وبأن ما يشاهد بينهم من الفروق إن هي إلا صفات حديثة وبأن البشر لم يبعث وهلة في جميع أنحاء البسيطة انما ظهر للمرة الاولى في بقعة من الارض محدودة ومنها انتشر كالموج المتتابع في سائر أنحاء الارض المختلفة الاقاليم والطبائع والعناصر ، فاختلفت طباعه وتباينت أشكاله . ولا غرو فالجسم المقيم في القطبين يخضع لنواميس وقوى فعالة طبيعية تختلف كل الاختلاف عن المؤثرات التي تعمل في الجسم المقيم في خط الاستواء والعكس بالعكس . فكان الانسان يتكيف في هجرته حسب الاقليم الذي يستقر فيه . فنشأ اختلاف العروق البشرية . وكانت الاقوام الثابتة والفروق المشاهدة بين جميع الادم التي حافظت على دمها وموطنها . وقد أيد هذا المذهب اكتشافات علم نشوء البشر الحديثة . فان اليوسميت Elliot Smith في كتابه : تأثير المدنية المصرية في جزر الهند وأمريكا . المطبوع عام ١٩١٦ لم يهرب الاقدام على استقراء الحضارة المصرية في أمريكا والجزر الهندية . وكذلك استقرآت علم اللغات ومقارنة الالسنه فانها تؤيد نظرية الهجرة البشرية بكل جلاء . فقد أثبتت تتبعات فرانسز بوب . عام ١٨٣٦ فكرة تقارب اللغات الاوروبية من اللغات المقدسة الهندية التي ألمع اليها وليم جون والاخوان شليف عام ١٧٨٦ فأحدث هذا الاكتشاف دويماً عظيماً في العالم المتمدن وفسح مجالاً للاعتقاد بان أصل الشعوب الاوروبية يمت إلى الهند ومنها تقدم رويداً رويداً من الشرق إلى الغرب .

هكذا نشأت الشعوب في البدء حسب النظرية التاريخية . فهي واحدة

في جوهرها متباينة في طباعها وأمزجتها وأشكالها تباين القوى الطبيعية المختلفة الدائمة المحيطة بها منذ الازل ، فهي صنعة الاقليم ووليدة الوراثة . ثم ان الهجرة والفتوحات والحروب العظيمة التي قام بها البشر منذ بدء التاريخ أحدثت اختلاطاً عظيماً بين الشعوب المختلفة اللغات والطبائع والعروق فامتزج بعضها ببعض وتولد منها مع الزمن شعوب جديدة عظيمة ذات صبغة جنسية واحدة هي الشعوب التاريخية ، ولا يكاد يوجد اليوم في العالم شعب خاص خالص حافظ على نقاوة دمه منذ القدم اللهم إلا الشعب الياباني . فانه لم يتبين انه اختلط بغير دمه حتى الآن ، سنة (١٩٢٤) وما الأمم الأوروبية العظيمة التي نشاهدها تفاخر العالم بقومياتها إلا أمم تاريخية ولدتها عوامل شتى ذات هدف واحد ، فهي مزيج من عناصر مختلفة منها من ثبت اتحاده بمرور الايام كالأمّة الانكليزية ومنها ما هو في دور الاتحاد كالأمّة الفرنسية ومنها ما هو في دور الاختلاط كالأمّة الايطالية .

ولم يكن اتحاد هذه العناصر ببعضها وتأليفها أمماً ذات كيان واحد نتيجة الاتفاق أو بسائق الطبيعة . انما كان بعامل قوى فعالة وحروب وضغط شديد ، فاتحاد فرنسا الجنوبية بفرنسا الشمالية ، كان نتيجة مذابح واضطهاد وضغط وإرهاب دامت ما يقرب من قرن . وهذا ما حمل أرنست رينان على القول : « إن النسيان والخطأ التاريخي عاملان أساسيان في تكوين الأئمة . وان رقي الدروس التاريخية خطر على القومية لأن التبعات والاستقرارات التاريخية تحيى ذكر الفظائع وأعمال البأس والشدة التي حصلت في بدء كل التشكيلات السياسية حتى التي كانت نتائجها حسنة للغاية . إذ الوحدة لا تحصل إلا بالضغط الشديد . وما اتحاد فرنسا الشمالية بفرنسا الجنوبية إلا نتيجة مذابح وإرهاب دام ما يقرب

من قرن . إلى أن قال : وقد كان لتفريق الجماعات حسب المعتقدات الدينية التي اتبعتها تركية أسوأ عاقبة عليها . فهي سبب خراب الشرق . اليكم مدينتي سلانيك وازمير تجدوا فيها خمس أو ست جماعات لكل منها خاطراتها الخاصة . وقد لا يوجد بينها جامعة البتة . بينا روح القومية تتطلب أن يكون ما بين جميع الأفراد جوامع كثيرة وأن يتناسوا أشياء كثيرة . فما من وطني فرنسي يدري إذا كان بورغونيا أو أليانافالينيا أو فيزيغوتيا كل فرنسي نسي سانت برتلي ومذابح فرانسة الجنوبية في القرن الثامن عشر .

هكذا تتألف الأمة أيها السادة . فهي صنعة التسامح والنسيان ، والتحاب والاتحاد . وإذا لم ينس العرب أو يتناسوا كثيراً من حوادث تاريخهم المؤلمة التي كانت السبب الاقوى في تفرق كلمتهم ويحيوا في أذهانهم كثيراً من محاسن ماضيهم الحيد التي أنستهم ايها الضغائن والاحقاد فمن العتب أن يؤلفوا أمة ذات كيان واحد يعود اليهم فيها سالف مجدهم وغابر حضارتهم .

وقد كان الدين أو العصبية المذهبية حتى أوائل القرن التاسع عشر أشد العوامل فعلاً في تأليف الاءم ومزج الشعوب المختلفة ببعضها . أما مبدأ القوميات فانه لم ينشأ إلا من عهد ليس منا يبعيد ، فهو وليد القرن الماضي وريب الجيل الحاضر ، نفخته من روحها في نفوس الاءم الأوروبية العظامية أو حق الدم وفكرة الفتح والاستعمار والفلسفة الاجتماعية الحديثة فملقت به قلوبها وحملته كرهاً في سويدائها ردهاً من الزمن غير قليل إلى أن تمخضت به اثورة الفرنسية بأشد الآلام وأعظم الاضاحي فقبلته الحرب الايتالية بالظفر والنصر . فبدأ عام ١٨٥٩ في عالم حقوق الدول غضاً نضيراً يدعو الناس في المهدي وهو صبي إلى دين

جديد أو جامعة واحدة . دين فيه الحق لجسم الامة أن يطالب ولو بالسلاح بضم جميع أعضائه المبعثرة في سائر الاقطار اليه . جامعة لكل جماعة فيها الحق أن تنفصل ولو بالقوة عن الحكومة المنتسبة اليها سياسياً بصورة مشروعة أو غير مشروعة لتنضم الى الامة أو الحكومة التي تربطها بها صلات وجوامع قومية . دين وجامعة أضرت وستضرم في سبيلها حروب هائلة ما الحرب العالمية الاخيرة إلا شرارة من شرارها . ألا وهما دين الحرية . وجامعة القومية . قال جون ستوارميل « حيث يوجد شعور القومية فهناك حق قاهر لتوحيد جميع أعضاء الامة تحت حكم واحد خاص منهم ولهم » .

وقد كان لانتشار هذا المبدأ في اوروبا سرعة هائلة . فانه لم يبدؤ حتى اعتنقته جميع شعوبها . فكانت من معجزاته الوحدة الايتالية والالمانية والدول البلقانية وبولونيا والتشكوسلوفاكيا وتركيا الجديدة والنهضة المصرية الحديثة . أما بقية الامم الشرقية والافريقية فانها لم تنل من جنات هذا الدين الجديد حظاً . ولا عجب فهي لم تؤمن بعد بقرآنه ولما تجاهد بالنفس والنفيس في سبيل أحكامه .

وقد ذهب علماء الاجتماع في تعريف القومية وتعيين الشروط التي تقوم بها مذاهب شتى . فقال قوم انها جامعة الاصل والعرق . وقال آخرون انها جامعة اللغة لانها مرآة العادات والاخلاق والافكار العامة وعنوان الامتزاج القديم والاتحاد الشديد . وذهب فريق إلى أنها جامعة الدين والمنافع العامة والتاريخ والحدود الجغرافية . إلى غير ذلك من الجوامع العامة . ولكل من هذه الآراء حجج لها وعليها . أما الحقيقة الناصعة فهي أن الامة تتألف من كل ما ذكر ، قال توبينارد Topinard الامة أو القومية هي اجتماع سياسي ولدته الظروف وساعدت نموه التشكيلات الارضية ووحدة اللسان والدين وأحكمت بنيانه العادات وذكرى السعادة والشقاء العام . أما المنفعة فانها منه بدرجة ثانية .

تلك ماهية الأمة من حيث التاريخ والنشوء البشري . أما من الوجهة الاجتماعية في عصرنا الحاضر فالأمة جسم معنوي قوامه شعور القومية . فهي لا تختلف في قانون تكوينها عن الاجسام الحية الفردية . تتألف من عنصرين مختلفين أحدهما مادي والآخر معنوي . أو بكلمة أوضح من جسد وروح خيماً توجد جماعات ينتعشون بمخلق عام واحد فهناك أمة حية مها اختلفت لغاتها وتباينت عناصرها . وحيثما لا يوجد خلق عام فهناك قبائل وطوائف ، هنالك أجسام بلا روح لا كيان لها في الحياة الاجتماعية مها توفرت فيها جوامع العرق واللغة والاقليم . أجسام تقضي عليها الطبيعة بالاستخذاء لغيرها من الأمم الحية . كما أنها تدفع هذه للاستيلاء عليها واستخدامها في سبيل منافعها . وذلك الخلق العام قوام الأمم وروحها فقد كان الدين في العصور السالفة أما في هذا الجيل فهو الشعور القومي .

فسويسرة وبلجيكة أمتان حيتان بالرغم من اختلاف اللسنة والعناصر والمعتقدات المذهبية فيها . وجل الأمم الآسيوية والافريقية لا تعد أماً حية على ما فيها من وحدة العرق والاقليم وذلك لعدم نمو أو تكامل شعور القومية فيها . وكذلك العرب أيها السادة من حيث مجموعهم ، أقول ذلك والحزن ملء القلب والوجه يصبغه الحجل . فانهم بعد أن كانوا خير أمة أخرجت للناس . بعد أن كانوا أفضل الأمم كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً خلقتهم العام الدين وجامعتهم اللغة باتوا على الرغم من توفر جميع الجوامع الطبيعية والحيوية التي يقوم عليها بناء الأمة والقومية الطبيعي فيهم مما يندر اجتماعه في أمة سواهم ، باتوا على الرغم من ذلك لا يطلق عليهم في عرف السياسة الاجتماعية الحاضرة لقب أمة . إنما يدعون شعوباً وقبائل . لانهلال رابطتهم وتشقت أهوائهم وعدم وجود خلق عام يتخلفون به على اختلاف مللهم ومواطنهم .

قال جون ستوارميل « ليست الأمة جسماً أو وحدة طبيعية متحد
 بإشارات وأوصاف خاصة . وإنما هي جسم معنوي قوامه الشعور . وما
 أدراك ما هذا الشعور . هو شعور القوميه . ذلك الخلق العام أو الروح
 المليية العامة التي تبعثها الجوامع الطبيعية الحيوية والتاريخية المشتركة في
 نفوس أفراد الجماعات المتحدة . فيرى كل منهم في معنى الأمة جسماً
 حيويًا مستقلاً هو عضو عامل من أعضائه . لا يعيش الا فيه ويموت
 اذا بتر عنه . فيعمل فيه وإليه » قال موريس بارس « شخص فصل عن
 قومه ووطنه أشبه بغصن انتزع من أصله لا يلبث أن يذبل ويموت » .
 وقد ظل هذا الشعور الطبيعي كامناً في نفوس البشر حتى أوائل
 القرن المنصرم حيث تزلزلات دعائم السلطة الدينية في اوروبة . وبات
 الدين لله كله وقامت السلطة الزمنية المؤسسة على مبادئ الفلسفة الحيوية
 القائلة بتنازع البقاء وحق القوة ، وطما في نفوس الدول العظمى شره
 الفتح والاستيلاء والاستعمار فاصبحت اوروبة ميدان حروب هائلة خشي
 الناس فيها الناس وخافت الشعوب منها الشعوب وشعر كل قوم بوحشة
 العزلة وضرورة التعارف والانضمام إلى أشد الناس بهم صلة وأقربهم رحماً
 وأقدمهم عهداً اتقاء الفاتح أو طمعاً بالفتح . ولما كانت المعتقدات الدينية
 لا تصلح أن تكون أساساً لهذا الاتحاد لشدة اختلافها بين أبناء البلد الواحد
 نشأت في النفوس عاطفة العصبية القومية فكان لظهورها في اوروبة أعظم
 مؤثر على تكوين ممالكها وعلى حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة .
 وما زال الشعور القومي حكر الأمم الاوروبية ومثار عظمتهم وافتخارهم
 إلى أن أضرمت فيما بينهم نيران الحرب العالمية الأخيرة التي زلزلت كما
 قال سيرفالانتين شيروول : ايمان آسية القديم بسر التفوق الاوروبي المادي
 والأدبي فكان للشعوب الشرقية والافريقية في ميادينها مواقف عظمى
 وضحايا كبرى ملأت نفوسهم عصبية قومية أورت آيات الرئيس ولسن
 الاربعة عشر زنادها فاستعرت على ما يواربها من رماد الجهل وانقاض

العبودية . امتعلت ولا بد لاشتغالها من ضرام يلتهم أفئدة الاستثمار
ويذيب قيود الظلم والعبودية .

ففي مصر لهيب ، وفي السودان أجيج وفي مراكش استعار وفي
الهند شرار وفي نيجرية دخان وفي البلاد العربية زفير يستمد جميعه من
بركان واحد حتى اذا انفجر تتغير الارض غير الأرض ويتبدل العالم
غير العالم .

وقد أهاب هذا المنظر الرهيب عقلاء الأمم المستعمرة فأخذوا يصيحون
بأمهم يحذرونهم من هول ذلك اليوم العصيب . ولكن أنى للشمل أن
يعي وللطامع الشره أن يعوي . قال الدكتور دي بوا في مقدمة كتابه
Daker Water : « اذا لم يقعد العالم الابيض عن ظم العنصر الاسود والاحمر
والاصفر وعن احتقارهم واذلالهم فان أهوال الحرب الاخيرة سوف لا تكون
شيئاً مذكوراً أمام تلك الحرب الطاحنة التي سوف تضررها الشعوب
المستعمرة لنيل حريتها » .

وقال ماركس غارفي Marcus garvey : « كما يتطلب الانكليز انكسرة
والفرنسيس فرنسة والايطاليون اي탈يا وطناً لهم كذلك تتطلب الأمم
الافريقية افريقية وسيريون دماءهم في سبيل خلاصها . وان أشد الحروب
الدموية هي الحرب التي ستظهر في المستقبل حينما توجه اوروبا قواها على
آسيا فيستل الافريقيون سيوفهم لتحرير بلادهم » .

وقال تيوفيل سيمار في كتابه الذي نقد فيه مذاهب العناصر البشرية :
« أخذت الأمم المستعبدة تطالب بمساواتها بمستعمرها باسم المباديء التي
أعلنتها شعوب الحلفاء أثناء الحرب الكبرى . وإن مذاهب الفوبينيين
والنيليشيين والسمترلانيين قد فسحت للغرب مجالاً واسعاً للاستعمار تغفل في
أحشائه بيد أننا أخذنا نبصر اليوم ظهر الحين ونتساءل مع الدكتور
لجاندر الى أين انت ذاهبة يا أوروبا . فلنتراجع بكل جرأة ولنعترف

بخطئنا بلا تردد . ولنعلم أن تلك الألفاظ الخلابة كالعنصر وشرف الدم والنجابة القومية لا تحمل لنا ذلك المشكل المعقد الخطير الذي يبدو اليوم لآعيننا بكل جلاء ألا وهو مصير علائقنا في المستقبل مع الآسيويين والافريقيين ، هكذا دبت روح القومية في نفوس الشعوب الشرقية والافريقية فأخذوا يبصرون مواقع الضعف فيهم ومواطن القوة في مستعمرهم . ولعمري أن في معرفة الداء وصف الدواء ونيل الشفاء .

وباعتبار القومية شعوراً قد تكمن وقد تبدو وقد تسكن وقد تثور وقد تظهر في طبقة من الناس دون سواها كما انها قد تم جميع أفراد الامة وذلك بتأثير عوامل مختلفة أهمها ماهية العناصر التي تتألف منها الامة ودرجة امتزاج بعضها ببعض . ففي الامة المؤلفة من قومية واحدة كاليابان أو من عناصر مختلفة تلاشت اصولهم في قومية واحدة كفرنسة ، أو من شعوب مختلفة اللغات تربطهم علاقات تاريخية ودية كسويسرة وبلجيكا لا يكون شعور القومية نائراً هائجاً انما يكون ساكناً ويختلط بشعور الوطنية .

أما في أعضاء الامم المبتورة من أجسامها الخاضعة لغير سلطانها كالأرمن واليونان العثمانيين قبل الحرب الاخيرة وفي الحكومات المؤلفة من عناصر مختلفة متوازنة القوى كاوستريا قبل الحرب أو متباينتها كالدولة العثمانية سابقاً فان شعور القومية في هذه المواطن يكون شديداً متهيجاً بهامل الانفعال المنبعث عن تنازع السلطة والبقاء . خلافاً لشعور الوطنية فانه يكون ضعيفاً ضئيلاً في هذه الاحوال .

وإذا نظرنا إلى العرب قبل الحرب وبعدها نجد أن روح القومية كانت أشد في نفوسهم قبل الحرب منها في هذا العهد ، وذلك لأن الانفعال الذي كانت تحده القومية التركية المتأججة في نفوسهم خمد بجلاء الازراك عن البلاد العربية ، لعدم قيام مؤثر عام يهدد العنصرية العربية مباشرة بدلاً منه . ولما ولدته التشكيلات الادارية بينهم من عدم الاعتماد على النفس

ومن النعرة الافليمية والطائفية التي هي أشد خطراً على وحدتهم واستقلالهم من قيود الإستعمار وبرائن الظلم والاستبداد. على اننا إذا استقرأنا تاريخ نشوء هذه الروح فيهم نجدها ترجع إلى ما قبل الحرب الكبرى بسنين، وان سوريا كانت أسبق البلاد العربية إلى اعتناق المذهب القومي والجهاد في سبيله. ففي البؤرة التي اتقدت فيها تلك الروح الشريفة ومنها انتشرت في جميع البلاد العربية، وما الإخاء العربي والمنتدى الادبي والفتاة والجمعية القحطانية والعهد والثورة والنهضة والاصلاح واللامركزية والاستقلال الا فيالق تولى السوريون قيادتها وتراص في صفوفها أبناء الامة العربية البررة للجهاد في سبيل الدعوة القومية العربية واحياء مجد العرب، وما النفوس الزكية التي زهقت على أعواد المشانق والدماء الشريفة التي اهرقت على الربوع والطلول إلا شهداء الإخاء العربي وضحايا سورية المحبوبة على مذبح القومية العربية

تلك ماهية الاخلاق أيها السادة وتلك الاخلاق العامة التي تكيفت بحسبها أحوال الامم منذ بدء التاريخ إلى يومنا هذا اللهم بصورة عامة لا تتجرد عن الشاذ والغريب. أما كيفية نشوء الاخلاق في الامم وأسباب فسادها فليس لي أن اخوض في البحث عنها الآن لأن المقام والحال لا يساعدان على ذلك.

ومما تقدم يتضح لنا ما عرضته في صدر محاضرتي من أن الامم هي الاخلاق تصلح بصلاحتها وتفسد بفسادها لانها روح اجتماعها وقوام اتحادها. وأس بنائها وان الامة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ما اتحدت أحجاره اما إذا تخلخلت فلا يلبث أن يندك وينهار. وانه يتعذر على الامة العربية المتفرقة المتمزقة المتفسخة أن تستجمع قواها وتوحد كيانها وتبرز للعالم بمظهر الامم المستقلة الحية قبل أن تتخلق بخلق عام واحد يكون لها روحا تنتعش بها وجامعة تتوحد فيها. وليت شعري أي المبادي أو الاخلاق تألفه أمرجتها وتتحد به عناصرها؟ هل الدين؟ وهو كما

جعله فريق مثار عصبيتها ومصدر اختلافاتها ومنبع تفرقها لتعدد اسمائه وتشوه محاسنه ولما أصيب به من كثرة المذاهب ووفرة الطرق ولما دخل عليه من البدع وتطرق اليه من العلل بما هو براء منه وبما لا سبيل الى اصلاحه الا بصلاح الأمة نفسها هل الوطنية ؟ وأنى للوطنية أن توجد وليس هنالك وطن . وأنى للروح أن تتجلى وليس هنالك جسد . وهل ينمو الحب قبل أن يخلق المحبوب ، وينبت الحب قبل أن ترضعه الارض ؟ فالوطنية بنت الحرية وريبة الاستقلال ومتاع الأمة الحرة . تنشدها الامم المستعبدة ولا تجدها ولن تجدها ما دامت ايديها مغולה ورقابها مرهونة .

هل القومية ؟ بلى أيها السادة إن القومية خير جامعة تجمع شتات الأمة العربية على اختلاف اديانها ومذاهبها ومواطنها يدين بها المسلم والنصراني عراقياً أو سورياً ، مصرياً أو حجازياً ، نجدياً أو يمنياً . هي الجامعة الطبيعية التي تجمع الابن بأبيه والايخ بأخيه . هي البقية الباقية من ذلك الارث التاريخي العظيم الذي لم تقو الايام بمد على اختلاسها ، ولا جرائم السياسة على افسادها . هي الغيث الوابل الذي ينهمر على الارض الجافة فيجيبها حتى إذا رويت يتدفق سيلاً يجرف الحدود الصناعية ولا يتعدى الحواجز الطبيعية .

هذا هو الدواء الناجح لذلك الداء العضال ينظر اليه العليل وقد أضناه المرض فهو لا يقوى على أخذه . فليت شعري هل يهب الله له من نفسه قوة تحمله اليه فيشربه أو يقيض له ممرضاً حكيماً مخلصاً يحقن به قلبه فينتعش به . هذا سؤال سيجيب عليه الغد وان غداً لناظره قريب .

دمشق : تشرين الاول سنة ١٩٢٤ .

قوة الإرادة

للدكتور جميل صليبا

شروط الإرادة الصحيحة:

لم يعن الفلاسفة الأولون بالإرادة عنايتهم بملكات النفس الأخرى . فكان أفلاطون يقول : ان النفس ثلاث نفوس : نفس عاقلة ، ونفس غضبية ، ونفس شهوانية . فالنفس العاقلة مبدأ الحكمة . والنفس الغضبية مصدر الشجاعه . والنفس الشهوانية منبع الرغائب . ولم يزد أرسطو على تصنيف أفلاطون شيئاً ، يدل على اهتمامه بقوة الإرادة . كما أن فلاسفة العرب ، لم يشيروا إلى قوة الإرادة ، إلا عند كلامهم عن الصفات الالهية ، والعناية الربانية ، ومقامات العارفين ، والتكليف والاستطاعة ، وحرية الاختيار . ثم جاء « ديكارت » أبو الفلسفة الحديثة ، فأعطى الإرادة المحل الارفع ، وازداد اهتمام المتأخرين بقوة الإرادة حتى جعلها « شوبنهاور » أساس مذهبه في كتابه : « العالم ارادة وتصور » . ولم يزل علماء العصر الحاضر يهتمون بالإرادة حتى جعلوها أساس الحياة . فكان الإنسان في زعمهم ارادة قبل كل شيء . وكان الحكم والاعتقاد ، وكل ملكة من ملكات النفس ، وكل فعل من أفعال الإنسان ، وكل عاطفة من عواطفه ، ونزعة من نزعاته ، نتيجة لوجي الإرادة وهداياها .

ويظهر أن اهتمام المعاصرين بالإرادة ، إنما كان نتيجة طبيعية لما شاهدوه في أيامنا هذه من ضعف إرادة الشبان ، وتشتت عزائمهم ، ونقص ثباتهم ، وعجزهم عن الافدام والشجاعة والصبر . حتى لقد انتشرت الروح الرومانتيكية في جميع نواحي الحياة ، وعمت نفوس انشبان والشابات ،

وكثر أعداء الارادة ، وقل حلفاؤها . وأصبح الانسان كريشة في مهب الريح . ومتى ضعفت ارادة الانسان عَجَزَ عن الاقدام والمشقة ، وأصبحت الامة ضعيفةً خاملة . فمن واجب المرابي ، والمصلح الاجتماعي أن يُعنى بتربية الارادة ، وأن يبحث عن أسباب ضعفها ، ويبين طرق الوقاية وأساليب العلاج .

* * *

ولنبحث أولاً في الارادة الصحيحة والارادة القوية .

لا يمكننا الاطلاع على صفات الارادة الصحيحة إلا إذا حللنا الفعل الارادي وأحطنا بشرائطه . ولكن المجال لا يتسع الآن للقيام بهذا التحليل ، فلنقتصر إذن على الاشارة دون الابانة وعلى الاقتصار دون الاسهاب . لنبين أن الفعل الارادي يشتمل على عدة مراحل : أولها التصور ، وثانيها المذاكرة ، وثالثها العزم ، ورابعها التنفيذ . فاذا أردت المجيء إلى هذا النادي مثلاً تصورت الاسباب الباعثة على ذلك ، والعوامل الدافعة اليه . ثم قايست بين هذه البواعث والعوامل ، فوجدت بعضها يدفعني إلى المجيء وبعضها الآخر يمنعني .

فمن العوامل التي تدفعني إلى المجيء اليكم أنني أحب رؤية اخوان كرام تعودت ألفتهم والاستئناس بهم ، واني أحب السمر في أيام الصيف ، والتحدث إليكم في موضوع فلسفي ، واني أحب أن أترك أثراً طيباً في نفوسكم ، إلى غير ذلك من البواعث القلبية والاسباب العقلية . ومن العوامل التي تمنعني من المجيء كثيرة أعمالية في أيام الامتحانات ومرض أحد أفراد أسرتي ، وخوفي من التعب ، وميلى الطبيعي إلى الكسل ، فتتجاذبني كما قلت قوى مختلفة ، وتصبح نفسي في وقت واحد مسرحاً للمذاكرة والمقارنة والمقايسة والمناقشة ، حتى اتخذ قراراً ، فاذا اتخذته نفذته ، وحظيت برؤيتكم . وليس التصور في الحقيقة بمتقدم على المذاكرة ،

كما ان المذاكرة ليست بمقدمة على العزم ، بل الإرادة كلها فعل واحد مشتمل على التصور والمذاكرة والعزم والتنفيذ .

ان هذا التحليل البسيط يدلنا على شرائط الإرادة الصحيحة والإرادة القوية . فالإرادة الصحيحة هي الإرادة التي تستطيع أن تدبر أفعالنا وتوجهها توجيهاً منظماً . لا يكون الانسان صحيح الإرادة الا اذا تصور لفعله غاية . وفكر في الأسباب التي تجبب هذه الغاية اليه . وهذا يدلنا على أن الإرادة الصحيحة تخضع لشرطين أساسيين هما : تصور المثل الأعلى ، والإيمان بالنفس .

أما تصور المثل الأعلى فهو ضروري لكل انسان . وهو يختلف باختلاف الناس ، ويتبدل بتبدل ظروفهم المادية والنفسية والاجتماعية . فالمثل الأعلى عند الشاعر هو التعبير عن الجمال . والمثل الأعلى عند العالم هو الكشف عن الحقيقة ، والمثل الأعلى عند القائد هو الانتصار في المعركة ، والمثل الأعلى عند الطالب هو النجاح في الامتحان ، والمثل الأعلى عند الفاتنة الحسنة هو أن تحظى بفتى جميل غني حلو الحديث ، يحبها وتحبه . ولهذا المثل الأعلى سلطان قوي على النفس . ان التلميذ الذي يدرك ان نجاحه في الحياة متوقف على اجتياز امتحان ما ، يزدري مباحج الحياة كلها ، ويصطنع لنفسه حياة كادحة ناصبة . ان مثله الأعلى هو الذي يوجه أعماله ويحشد قواه النفسية في خدمة غاية واحدة . وكلما كان هذا المثل الأعلى أسمى وأرفع ، كانت القوى التي يستدعيها لتحقيقه أكثر وأغزر . هناك من يتطلع إلى اللذة وهناك من يتطلع إلى المال ، وهناك من يتطلع إلى المجد والشرف والشهرة والجمال . واتساع مدى التطلع هو الذي يخلق الرجل الناضج . واذا فقد المثل الأعلى خمدت جذوة الحياة ، لان الطبيعة تمنحنا من القوة مقادير تفوق حاجتنا . فاذا كنا نحيا في سبيل غايات صغيرة وأباطيل حقيرة حرمتنا الطبيعة هباتها السخية .

وهكذا ، فالهدف العظيم يخلق الرجل العظيم . ونحن جميعاً نعيش في عالم أوسع من العالم الذي يشير اليه عنواننا البريدي ، لأن دموعنا — كما يقولون — أكثر مما تحتاج اليه آلامنا ، كما أن ابتساماتنا أكثر مما تحتاج اليه أفراحنا .

وأما الشرط الثاني في قوة الارادة فهو الايمان بالنفس . إذا لم يؤمن الانسان بنفسه خسر معركة الحياة . وإذا لم يحارب شعوره بالنقص هبط إلى الهاوية . إن الشاب الضعيف الارادة يقول في نفسه : أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل ، وإذن أنا لا أصلح لشيء . أما القوي الارادة فيجد نفسه قادراً على القيام بكل عمل . ولكن لما كانت الحياة لا تتسع للقيام بجميع الاعمال التي يتصورها الانسان في ريعان الحداثة ، كان لا بد له من الاقتصار على عمل واحد معين موافق لمواهبه ومنسجم مع ميوله . فعلى المرء أن يبحث إذن عن العمل الذي يستطيع أن يقوم به ، وأن يقبض عليه بقوة ، وأن يؤمن بكفاءته ويثق بنفسه ، ويقدم عليه بحماسة . فان من فساد المنطق أن نستنتج اننا لا نصلح لشيء لمجرد أننا لا نقدر على كل شيء ، كما أنه من السخف أن نبدد قوانا في أعمال ليس في ميولنا الطبيعية ما يساعدنا على النجاح فيها .

فأنت ترى أن قوة الارادة تستلزم تصور مثل أعلى قابل للتحقيق ، كما أنها تقتضي الايمان بالنفس . وإذا فقد أحد هذين الشرطين اضطربت حياة الانسان وكان نصيبه الفشل والاختفاق .

وفي الارادة الصحيحة تنظيم للأفكار والعواطف ، وسيطرة على النفس . إن أعظم الرجال أكثر الناس سيطرة على عواطفهم وأهوائهم وإدارة أنفسهم بأنفسهم . لأنهم يريدون ما يفعلون ، ويفعلون ما يريدون ، والناس يختلفون في قوة الارادة كما يختلفون في قوة العقل ، فهناك ارادات قوية و ارادات متوسطة و ارادات ضعيفة ، إلا أن صحة الارادة

شيء ، وقوتها شيء آخر . لا تكون الإرادة قوية إلا إذا كانت الأفكار والنزعات المقومة لها قوية أيضاً ، كما أن الجسم الصحيح لا يكون قوياً إلا إذا كان قوي الوظائف والأعضاء ، ان الحصان الجريح يحتاج إلى سائس قوي ، والملكات القوية لا ينتظم أمرها ، ولا ينسجم فعلها إلا إذا دبرتها إرادة قوية .

أعداء الإرادة

وهذا البحث في شرائط الإرادة الصحيحة والإرادة القوية يكشف لنا في الوقت نفسه عن أسباب ضعف الإرادة ، ويرشدنا إلى معرفة أمراضها . لا تضعف الإرادة إلا إذا أضاعت سيطرتها على الأفكار والعواطف . ومتى أضاعت سيطرتها هذه اختل توازن الوظائف النفسية المختلفة وخسر المرء وحدته .

وقد بين العلماء أن للإرادة أعداء ، تضعف سيطرتها ، وتخل بتوازن الوظائف النفسية المقومة لها ولندكر الآن بعض أعداء الإرادة . فمن أعداء الإرادة العواطف الغامضة ، والخيال الوهمي ، والأحلام . والرفيق السوء ، والاهواء الخسيسة ، والميل الطبيعي إلى الكسل .

أما العواطف الغامضة فتستولي على الشبان في نهاية الدراسة الثانوية أو عند دخولهم معترك الحياة . إن حياة الطالب في المدرسة الثانوية مقيّدة على الأغلّب بنظام ثابت . فلا تترك له مشاغله الدراسية وقتاً للابتعاد عن الواقع . ولكنه إذا ما أدرك سن البلوغ وقرأ الروايات الغرامية ، وشاهد الافلام السينمائية ابتعد بخياله عن الواقع وعاش في عالم مفعم بالعواطف الغامضة . عرفت شاباً نشيطاً من طلاب المدارس الثانوية . كان لا يهمل درساً من دروسه ، ولا يتقاعس عن القيام بواجباته . فلما قرأ رواية « ماجدولين » التي ترجمها مصطفى لطفى المنفلوطي تغيرت حاله تماماً . فانقلب نشاطه إلى يأس ، واقدمه إلى فتور ، وسروره إلى حزن

حتى أهمل دروسه كلها ، وعاش في عالم من الوسوس والاحلام . وأصبح ضيق الصدر كثيراً ، سيء الخلق ، ضائق الذرع بنفسه ، ومن عجب أمره أنه أراد أن يقلد بطل الرواية في عواطفه وميوله ، فأصبح عاشقاً ولكن من غير أن يكون له معشوق ، ومحباً للحب نفسه ، يمشق آلهة خيالية ، لا وجود لها في الواقع . ولم يكن تأثير رواية آلام « فرتر » التي ترجمها الاستاذ أحمد حسن الزيات في نفوس شبابتنا أقل من تأثير رواية « ماجدولين » . فقد كادت تودي بحياة أحد الشبان لو لم أطلعهم على أن « غوته » صاحب الرواية لم ينتحر كما انتحر « فرتر » ، وأن الفرق بينه وبين بطل روايته انه كان قوي الإرادة ، فأنقذته إرادته من الانتحار . أما « فرتر » فقد كان ضعيف الإرادة ، فأظلمت الحياة في وجهه وقضى عليه الحب .

وأما الخيال الوهمي فيرفع الشاب الى عالم مغمم بالاحلام اللذيذة . فيرى نفسه في هذا العالم مجرداً من قيود الواقع ، ومن قيود الزمان والمكان . وينسى ما هو فيه من الألم والحُرمان . يحب هذا العالم الخيالي ، ويفضله على العالم الحقيقي لما يجده فيه من السهولة في ارضاء رغائبه وميوله . فالفقير يصبح فيه غنياً ، والضعيف قوياً . ولا يحتاج الانسان في الوصول اليه إلا إلى قليل من الخيال ، فالخيال الوهمي عدو من أعداء الإرادة لأنه يبعدها عن الواقع ، وينسها ما يجب عليها اتخاذه من الوسائل للوصول إلى ما تصبو إليه من الخير المتوهم والنفع المؤمل .

نعم ان قليلاً من الخيال ضروري للنجاح في العمل ، وتخيل النجاح في العمل هو في الحقيقة ، بدء له . والمرء انما يقطع أول مرحلة من مراحل النصر ساعة يفكر في النصر ويتخيل نتائجه . ولكن ما نعزم عليه يجب أن يجد طريقه الإيجابية في العمل والجهد المستمر . فإذا أفسحنا المجال للخيال الوهمي انتصب خيالنا لمقاتلة الإرادة وخسرنا المعركة .

وأما الرفيق السوء فيسرق الوقت ويلهي عن العمل المنظم ، ويشتت الذهن ويبعثر الشخصية ، فهو يعود صاحبه ارتياد المقاهي والحانات والمطاعم والنوادي وحفلات الرقص والملاعب وأما كمن الهوى ، فيمسي عبد شهواته ، وأسير عاداته المألوفة . تصوروا شاباً قضى ليلته في حفلة راقصة بين ضجيج الآلات واختلاف الصور والأشكال والحركات ، في جو محموم من الهيجان والهوى : هل يستطيع في غده أن يبكر إلى عمله ويترد من ذهنه تلك الصور ، ويسيطر برادته على عواطفه وغرائزه . وتصوروا شاباً آخر قضى ليلته في أحد النوادي على مائدة الميسر الخضراء تتقاذفه آمال الربح ومخاوف الخسارة ، وتمتجاذبه شتى العواطف والأفكار ، هل يستطيع أن ينظم أعماله ويوجه أفكاره ، ويكون سيد نفسه في الحكم على الأشياء بهدوء واعتدال . لا لعمرى إن شر الأهواء الأهواء الخسيسة ، لأنها تنتج من الأخلاق قبائحها ، وتظهر من الأفعال فضايحها ، وتجعل ستر المروءة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكاً . وقد قيل في منشور الحكم : « من أطاع هواه أعطى عدوه مناه . »

ومما يضعف الإرادة أيضاً الميل الطبيعي إلى الكسل . إن الكسل يمنعنا من القيام بواجبنا ويحول بيننا وبين العمل المثمر والسعي المتصل . والكسلان يشغل الفكر في تمييز ما اشتبهه من الأمور فيطلب الراحة في اتباع ما استسهل . وأكثر الناس يفضلون العمل السهل على العمل الصعب ، ويتبعون في أعمالهم طريق الانحدار دون طريق الصعود ، وفقاً لقانون الجهد الأقل . فإذا جلسوا المطالمة مثلاً استلقوا على ظهورهم في أسررتهم حتى يغلبهم النوم ، وإذا قرأوا كتاباً قلبوا صفحاته بعقول شاردة ، فلا يفقهون ما يقرأون ولا يعرضونه على ميزان الروية والفكر ، وترى انتباههم العقوي أقوى من انتباههم الإرادي ، وإذا كرتهم أكثر إحاطة بالأشياء من عقولهم .

وجائز أن يكون ضعف الارادة راجعاً إلى أن جزءاً هاماً من شخصيتنا يخضع لنوع من الكبح والكبت . وقد يرغب الانسان في شيء ويكون في الوقت نفسه منجذباً بفطرته وغريزته الى أمور أخرى . مثال ذلك : قد تقرأ كتاباً وتنصرف اليه بارادتك انصرف المصمم العازم ، ولكنك تجد نفسك عاجزاً عن تركيز أفكارك وجمعها حول موضوع الكتاب لانشغال عقلك الباطني في نزعات مخالفة لرغبتك الواعية . وقد تحاول بارادتك التغلب على هذه النزعات فيأخذك صداع ويصيبك سهاد وأرق . وكلما حاولت تركيز انتباهك حول موضوع الكتاب هام عقلك في أودية من الاحلام . ان موضوع الكتاب يبقى على سطح الشعور . ولكن ميولك المكبوتة تعمل في الخفاء ، وتسعى لتأكيد ذاتها وتمنعك من النجاح في العمل . مثال آخر : قد يتلقى الشاب أو الشابة صدمة من فسخ عقد الزواج فيحاول كل منهما أن يلفظ من خاطرتها فيقول في نفسه : ان هذا الزواج غير موافق لي ، ومع ذلك فيها يكبتان أبدأ هذه الصدمة التي أصابت كبرياء الذات والغريزة الجنسية . والمصدوم لا يستطيع أن يواجه الحياة بابتهاج وقوة . إن عقله منقسم ، فنصفه يصلح للعمل اليومي في حين ان نصفه الباقي يقف حارساً على ذلك الجزء من الشخصية ويصرخ بأعلى صوته مطالباً بحقه ، ولا يستطيع الانسان أن يتغلب على هذه الحالة إلا إذا حوّل ميوله الغريزية وصعدها ، حتى تصبح منسجمة مع المثل الاعلى الذي يصبو إليه .

والفعل الارادي أعلى من الفعل الغريزي والفعل المنعكس . فاذا اتبع الانسان غرائزه وغلبت شهوته عقله ، ضعفت ارادته ، وقاده الهوى إلى كل ما فيه لوم عليه ، فلا وجود للارادة عند أسير الهوى ، ولا عند الثائر الذي يعيش على هامش الحياة الاجتماعية ، ولا عند الفوضوي الذي لا يحب النظام ولا يقيد نفسه بعمل دائم ، والارادة ضعيفة أيضاً عند الذين

لا يستطيعون أن ينضموا إلى جماعة من الجماعات ، قال « بلوندل » :
 « من ضعفاء الإرادة الظرفاء الذين يميلون إلى جميع الأعمال للتلذذ بها
 بدون نظام ، ومنهم أيضاً المقلدون الذين يشبهون خراف « بانورج » في
 أعمالهم ، فيتبعون عاداتهم أو عادات غيرهم كآلات المتحركة ، ويدورون
 في دائرة واحدة من غير أن يخرجوا منها ، ويكررون أعمالهم بدون
 تفكير ، لعجزهم عن تفهم الأشياء الجديدة .

والإرادة الصحيحة تقتضي أن يكون الفكر ذا مرونة ، إلا أن
 ضعفاء الإرادة لا يستحسنون من الآراء إلا ما أفوه ، فإذا جاءت الأشياء
 موافقة لتقاليدهم تعصبوا لها ، وإذا خالفها أنكروها . لأن تقاليدهم
 تلقي على أعينهم حجاباً يمنعهم من ادراك الحق فيحكمون المادة في معارفهم
 وأفكارهم ، ويسيطر الجمود على عقولهم ، حتى تصبح إرادتهم عمياء وإذا
 ما أصبحت الإرادة عمياء صعب عليها الخروج على العادات المألوفة ،
 حتى لقد تسمي أشبه شيء بالآله تكرر الحركات المرسومة أو تعيد
 الحركات الجديدة سيرتها الأولى ، فإذا أطلعتها على الامثلة الجديدة
 المقتبسة من التجربة والحياة ردتك إلى التاريخ والماضي ، والماضي عندها
 أصدق من الحاضر ، والعادة أقوى من العقل ، والغريزة أكمل من
 الفكر . دع أن العادة تقلب مرونة العقل إلى جمود وحرية إلى
 اضطرار ، ونوره إلى ظلمة دامسة . ومتى أضاعت العقول مرونتها
 ضاق أرقها وصغرت أحلامها . لا يبلغ العقل هذه الحالة الآلية الجامدة
 إلا إذا أهمل الرياضة الفكرية واكتفى بالتقليد وهبط من فضاء الحرية
 إلى حضيض المادة . إن شر القيود لقيود الفكر ، فقد يفقد الإنسان
 حريته المادية فيعتقل وينقي ويسجن ويقيد بالسلاسل . وقد يجاري
 عادات بلاده ويداري زمانه ويحامل الناس ، ويتقيد بكثير من الاعتبارات

السياسية والاجتماعية ، ولكن هذه القيود لا تقضي على ارادته إلا إذا أفقدته حرية فكره .

ما أكثر الذين لا يستطيعون أن يتحرروا من تقاليد المجتمع الضيقة ! إنك إذا طلبت اليهم أن يطلقوا نفوسهم من عقالها لقيت عجباً عجاباً . فهي لا تنطلق من أسرها مرة حتى تقع في الحيرة والارتباب ، ولا تنجو من حيرتها وارتبابها حتى تقع في الاسر مرة ثانية . فكل من تعود السير متكللاً على غيره يعجز عن السير وحده في فضاء الفكر لعجزه عن التحرر من العادات المألوفة وخوفه من التبعة وضعف ارادته وكسله عن الابتكار .

وهذا كله يدلنا على أن ضعف الارادة في زماننا هذا كثيرون : فمنهم السلفي الجامد الذي لا يستطيع أن يعيش إلا بالتقليد ومنهم المجدد الاهوج الذي لا يتبع إلا قلبه ، ومنهم الظالم الذي يجب أن يستخّر الناس لارادته العمياء ، ومنهم الحاكم السخيف الذي لا يستطيع أن يبدل أحكامه بحسب الزمان والمكان ، ومنهم صاحب العواطف الغامضة والخيال الوهمي الذي لا يعرف ما يريد ، ومنهم رجال الاعمال الذين ليس لهم مثل أعلى ، ومنهم الموظف الذي لا يحترم نفسه ولا يؤمن بكفائته ولا يشعر بكرامته ، ومنهم المرأة العصبية التي تظلم زوجها وأولادها ، ومنهم الصحفي أو المحامي أو السياسي الذي يبدل الحقائق ويجعلها خاضعة لمصالحه ، والمتقلب الذي لا ثبات عنده ولا قدرة على الجهاد ، ومنهم أسير الهوى الذي كبت ميوله وعجز عن تصعيدها وتحويلها ، وفقد بذلك اتزانه العقلي والعاطفي . فهم ضعفاء الارادة لتشتت ميولهم وعدم انسجام أفكارهم وسرعة انقيادهم لغرائزهم ، وقد يبلغ فقدان التوازن بين الأفكار والعواطف حدّاً يتقلب فيه الضعف الى مرض ، والاضطراب إلى علة مزمنة .

امراض الإرادة

ان أمراض الإرادة كثيرة والمصابون بها كثيرون . ولو استقصينا الآن اعراضها وعرضناها على الناس لوجد الناس في نفوسهم كثيراً منها . ولكن المجال لا يتسع للاحاطة بجميع الامراض . فلنقتصر إذن على الإشارة إلى المسائل الرئيسية منها .

لقد قسم « ريبو » أمراض الإرادة إلى ثلاثة أنواع وهي فقد الاندفاع ، وفطرت الاندفاع ، وفناء الإرادة . ولنبحث الآن في كل من هذه الأمراض على حدة .

١ - فقد الاندفاع — يكون المصاب بهذا المرض ضعيف الحس ، قليل التأثير ، وتكون فاعلية الحياة عنده بطيئة ، والزغزغات راکدة . وأكثر المصابين بهذا المرض النفسي يشبهون المصابين بمرض الارتخاء العصبي . فهم لا يستطيعون أن يتحركوا بانفسهم ، بل يحتاجون إلى إرادة أخرى تحركهم . وقد وصف « غيزلان » هذا المرض فقال : ان المريض يريد ولكن بإرادة داخلية ، ويجب أن يفعل ولكنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً . حتى ان بعض المرضى ليتحجرون من عجزهم ، فاذا بقي أحدهم وحده أقام في داره ولزم سريره أو جلس على كرسیه عدة أيام . وذكر « بنيت » رجلاً لا يستطيع أن ينجز ما يرغب فيه ، فاذا أحب أن ينزع ثيابه مثلاً فكر في ذلك عدة ساعات دون أن يقترن تفكيره بالتنفيذ . لقد كانت ملكاته العقلية صحيحة ، ولم ينقصه إلا الاقدام على الفعل . طلب مرة قدح ماء فقدم له على طبق فلم يستطع أن يتناوله رغم رغبته فيه . وكان يقول عن نفسه يظهر لي أن شخصاً آخر قد سلبنى ارادتي .

والسبب في فقد الاندفاع ضعف قابلية الحس . وبيان ذلك أن المريض نفسه يمان بعد شفائه أنه كان لا يشعر في داخله بقوة تدفعه إلى الفعل . فهو لم يفقد وظائف الحياة العادية ، ولكنه فقد الاحساس بها واللذة التي

كان يجدها فيها . ومما يؤيد ذلك أن فتاة ايطالية مهذبة تهذيباً عالياً عشقت رجلاً . فلما هجرها حزنت حزناً عميقاً أدى بها إلى الجنون ، فلما شفيت من مرضها هذا أصيبت بحالة الركود الانفعالي ، وأصبحت لا يؤثر فيها شيء ولا يهيجها أمر ، ولا تشعر بحب ولا بغضاء . وكانت لا تعرف هل هي في قيد الحياة أم ميتة ، أم هي في سبات عميق ، حتى لقد كان العالم الخارجي محجوباً عنها برداء من سحب ، وكان الاشخاص ، المحيطون بها أشبه شيء بالظلال . وكان يخيل اليها أن أصواتهم ضعيفة كأنها دوي خفيف منعكس من عالم بعيد .

والضعف في قابلية الحس ينشأ عن انحطاط عام في وظائف الحياة وقد يبلغ هذا الانحطاط درجة يشعر بها المريض أنه أصبح جماداً ، أو حطباً يابساً ، كما في حالات المليخوليا ، فتبطئ دورته الدموية ، وتهدأ حرارته وتضعف حركات جسده .

وشبيهه بفقد الاندفاع مرض التردد . وهو لا ينشأ عن ضعف الانفعال بل ينشأ عن فرط التفكير وكثرة التصور ، وقد يتولد من فقدان الاتزان في الحياة الانفعالية ، مثال ذلك أن امرأة ذكية فطنة كانت لا تخرج من بيتها الا بعد أن تحاور نفسها قائلة : إذا سرت في الطريق فربما وقع علي جسم من احدى الشرف . وقد يكون هذا الجسم رجلاً أو امرأة . وقد يموت أو يجرح . فاذا جرح فربما كان جرحه في رأسه أو في احدى ساقيه . وقد يجري دمه على الطريق . فاذا مات ذعرت واستغنت بأحد الناس أو هربت أو تلوت بعض الصلوات . وقد يتهمني الناس بقتله فأساق إلى المحاكم ، وقد يحكم علي بالسجن وقد تظهر براءتي . فالتردد كثير التصور . ومن أجل ذلك يستقضي جميع الوجوه . فيمنعه فرط التفكير من الفعل . فاذا كتب كتاباً قرأه عدة مرات ، ثم وضعه في الملف ، ثم فتح الملف لاعادة قراءته . عرفت رجلاً بخيلاً كان

لا يخرج من بيته الا إذا فحص صندوقه عدة مرات . وقد ذكر لي بعضهم أن أحد المصلين كان لا ينهي وضوءه الا بعد مسح رأسه عشر مرات . وان بعض علماء اللغة كان يحتاج عند الكتابة الى مراجعة كل لفظة في القاموس لعدم اعتماده على ذاكرته وتردده وشكته في علمه .

والمصابون بفقد الاندفاع أكثر الناس خيالاً . فهم يدعون أنهم أقوياء الإرادة ، وانهم قادرون على جلائل الاعمال ، وانهم سيطلقون على الناس بكتاب جديد أو رسالة جديدة أو اختراع عظيم . فعقولهم مفعمة بالمشاريع الجميلة والنيات الطيبة والاحلام اللذيذة ، ولكن هذه المشاريع لا تقترن أبداً بالتنفيذ .

٢ — فرط الاندفاع — ان أعراض هذا المرض تختلف عن أعراض فقد الاندفاع تماماً . لان الملكات العقلية انما تكون فيه أضعف من الدوافع الحسية والانفعالية . ومقى ضعف العقل أمست الإرادة آلة في يد الغرائز والنزعات فتسير على غير هدى . وقد تكون الدوافع المحركة شعورية ، وقد تكون لا شعورية . ولكنها في كلا الحالين مقرونة بالتنفيذ السريع . والفعل الذي يتلوها شبيه بالفعل المنعكس . مثال ذلك ان امرأة قعدت على ضفة غدير وهي في حزن عميق ، فلما وقعت عينها على الماء ألقت نفسها فيه كمن يريد أن ينتحر . ثم انقذت من الفرق فلما عاد اليها رشدها أعلنت أنها لم تفكر في الانتحار قط . وشبيه بذلك أيضاً مرض الفكرة الثابتة وجنون السرقة والميل إلى القتل . قال الدكتور « بيرجانه » اجتمعت إلى خمس أمهات يوم ألقى محاضرة عن هذا الموضوع في مستشفى « سالبيرير » ، فقالت لي كل واحدة منهن وهي باكية ان شيئاً أقوى منها كان يدفعها إلى طعن أولادها الصغار بموسى حادة . وقال « مارك » عرفت امرأة كانت تضرب أولادها بالرغم منها وتطلب إلى الناس أن يقيدوها ويمنعوها من ضربهم . وذكر أن أحد المصابين بمرض الميخوليا استيقظ

من نومه ذات ليلة وقرع باب أخيه وهو يصرخ تعال الي بسرعة انقذني .
ان فكرة الاتجار قد ملكت علي مشاعري . وذكروا أيضاً طفلاً فقد
أباه فهدبته أمه تهديباً حسناً فلما بلغ السادسة عشرة من سنه تغيرت حاله
تماماً فأصبح سيء الخلق سريع الغضب . ولما سألته والدته عن سبب حزنه قال
لها انه يحبها حباً عميقاً ولكن فكرة قتلها قد اقضت عليه مضجعه وشوشته
عليه عقله . ثم طلب اليها أن تتقي شره ثم تركها وانخرط في الجيش .
وذكر « تولستوي » أن أحد الأبطال أضرم النار في بيت أبيه وهو
يبتسم مع أن أباه وأمه واخوته كانوا نائمين فيه . وأن أحد القرويين نظر
إلى حد الفأس المسنونة فأمسك بها وضرب أباه وهو نائم ، ثم نظر إلى
الدم الجاري على الارض نظرة الفضولي البليد .

كلكم تعلمون أن الانسان لا يستطيع في الغضب الشديد أن يملك
نفسه . ففرط الزهيج يؤدي إلى فرط الاندفاع ، كما أن فقدان الفكر في حالات
الطيش وارتباك النفس يؤدي إلى فقدان الارادة . ومتى كانت الاهواء
شديدة والتبهجات عظيمة ملكت على الانسان عقله . وقادته إلى الفعل
كأنه آلة عمياء ، أو كأن هناك قوة داخلية تسيره أو قوة خارجية تدفعه
إلى الشيء وهو لا يريد .

٣ — فناء الارادة — وقد تنحل الارادة انحلالاً تاماً كما في حالات

التشويش الذهني وفقدان التوازن والفضى النفسية ، والخبيل . فلا يستطيع
المريض كبح جماح نفسه ولا السيطرة على حركاته ، ولا مقاومة الدوافع
التي تختلج في صدره . وقد يؤدي تشويش الذهن وفقدان التوازن
وارتباك النزعات إلى محو الارادة وفنائها ، كما في حالات المستريا
والوجد النفسي .

وربما كان مرض المستريا أحسن مثال يدل على انحلال الارادة . ان
إرادة الانسان تشتمل في الحالة الطبيعية على ثلاث مراتب . فالاولى هي

مرتبة الأفعال الإرادية من أفعال منعكسة وعادات . والمرتبة الثانية هي مرتبة الأفعال الصادرة عن العواطف والتهيجات والاهواء . والمرتبة الثالثة هي مرتبة الأفعال الصادرة عن العقل . أما في حالة المستريا فإن فاعلية الإنسان تقتصر على المرتبة الأولى والثانية فقط ، إذ تنحل ضوابطه العقلية ، ويفقد توازنه العاطفي لفقد توازنه العضوي ويجمع بين المتناقضات وينتقل من حالة إلى ضدها من غير نظام ولا وحدة .

ومن الأحوال التي تفتى فيها الإرادة حالة الوجد . للوجد أنواع مختلفة فمنها ما هو صوفي ومنها ما هو مرضي ، ومنها ما هو طبيعي ومنها ما هو كسبي . ولفقراء الهند أساليب مختلفة في الوصول إلى الوجد منها السكون التام والتحديد في السماء أو في جسم مضيء . وتكرار صوت واحد على نمط واحد وحبس النفس أو التنفس ببطء ونسيان الزمان والمكان ، حتى يصبح المرید كما يقولون أشبه شيء بمصباح ساكن وضع في مشكاة لا تهب عليها الريح . وقد ذكرت القديسة « تريز » الوجد أربع مراحل : فالمرحلة الأولى هي مرحلة العناء ومثلها كإنسان يسقي حديقة بدلوا يغرف به الماء من الجب . ومثل المرحلة الثانية كإنسان يسقي حديقة بماء الناعورة . ومثل المرحلة الثالثة كإنسان يسقي حديقة بماء الجدول . ومثل المرحلة الرابعة كإنسان يسقي حديقة بماء الغيث العميم . فالله في هذه المرحلة الرابعة يرسل غماماً يسقي به قلوبنا اليابسة من غير تعب ولا جهد ارادي . وفي هذه المرحلة الأخيرة تفتى الإرادة ويتحد الإنسان بالله .

ووصف ابن سينا في كتاب الاشارات مقامات العارفين وفناء ارادتهم فقال إن أدنى درجات السلوك درجة الإرادة .

ثم تأتي درجة الرياضة وهي نهى النفس عن هواها وأمرها بطاعة مولاه ومنعها من الالتفات إلى سوى الحق . وقد يرتقى المرید أكثر من ذلك فيرى الحق في كل شيء . ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً يصير به المخطوف مألوفاً والوميض شهاباً .

ثم يعبر درجة الرياضة ويتقرب من الحق فتفيض عليه اللذات الحقيقية .
ثم انه ليغيب عن نفسه فلا يرى الا المعبود المبدع ، ولا يلحظ الا الجمال
المطلق وينسى ذاته وارادته . وهذه الدرجة هي أعلى درجات السلوك .
وبليها درجات الوصول . وهي تنتهي عند بعض المتصوفين الى المحو والفناء
فالمريد اذا بلغ درجة الوصول غابت ذاته وفنيت ارادته في ارادة الله .
وربما خلع بدنه وخرج عن العالم كما قال « افلوطن » فصار جوهرأ
مجردأ بلا جسم .

فهذه الاحوال الصوفية تدل على أن الارادة قد تفتى بالرياضة وتقتل
نفسها بنفسها كما تفتى ارادة النائم في نومه نومأ مغنطيسياً وتصبح تابعة
لارادة المنوم ، وكما تفتى ارادة المصاب بمرض الجمود « كالتالبي » . وهو
مرض عصبي يفقد المصاب به الاحساس والحركة جميعاً ولا يختلف عن
الموت الا بعدم فساد الجسد وانحلاله . وفي الامراض العصبية الناتجة عن
خلل دماغي أحوال أخرى تنحل فيها الارادة انحلالاً تاماً لا يتسع المجال
لذكرها الآن .

هذه لمحة بسيطة عن أمراض الارادة وفي وسعنا الآن بعد أن
ذكرنا أسباب ضعف الارادة وأشرنا إلى أمراضها أن ننبه إلى بعض طرق
الوقاية وأساليب العلاج .

طرق الوقاية

ان خير طريقة للوقاية من أمراض الارادة هي في محاربة أسبابها .
وقد ذكرنا جملة من هذه الاسباب كفقْد المثل الاعلى وعدم الايمان بالنفس
والمواطف الفامضة والخيال الوهمي وتأثير الرفيق السوء والهوى والميل
الطبيعي إلى الكسل . والارادة مثل الضرع تنمو بالامتراء . وكلما مرن
الانسان نفسه على الجهد الارادي اكسبه التمرين عادات نافعة . والمرء

لا يولد قوي الارادة كما أنه لا يولد كامل العقل فيجب عليه أن يمرن نفسه في كل وقت وان يتعود حرية الاختيار . وكثيراً ما يكون ضعف الارادة ناشئاً عن مرض الجسم والتعب والشيخوخة والكسل . ولكن تربية الارادة ممكنة في كل سن فلا يظن الشيخ أن زمن تربية ارادته قد انقضى ، بل التربية لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة .
ولنذكر الآن بعض طرق الوقاية .

١ - صحة الجسد - ان الارادة القوية لا تكون الا في الجسم السليم . وصحة الجسد هي القاعدة الاساسية في امتلاك النفس . فلا بد إذن في تربية الارادة ووقايتها من الاخذ بقواعد الصحة الموافقة كالغذاء والراحة والتمرين الرياضي . لا يكون الانسان قوي الارادة الا إذا كان ذا جملة عصبية صحيحة . ولا تكون جملة العصبية نشيطة الا اذا اعتنى بغذائه وتنفسه وراحته . ان الاطعمة الثقيلة تتعب الجملة العصبية وتضعف الارادة . فلنأكل قليلاً ولنهضم جيداً . ان رأس الحكمة هضم الطعام . وأول الجنون النوم وإتباع المعدة والاعصاب . والتنفس الجيد لا يقل خطورة في وقاية الارادة عن الغذاء الجيد ، ويشترط فيه أن يكون عميقاً وان يكون الهواء نقياً مطهراً للدم . ولا بد في ذلك كله من ممارسة الرياضة . وأعني بالرياضة التمارين البدنية المعقولة المبنية على الاعمال الطبيعية لا تمارين البطولة التي تؤدي في أكثر الاحيان إلى انماء عضو من الاعضاء على حساب الآخر . ومما يلحق بالتمارين الرياضية المشي في الهواء الطلق والرحلات العلمية والكشفية وتمارين الفتوة وتعاطي بعض الاعمال اليدوية في أوقات الراحة . والراحة المنظمة تختلف عن الكسل . ان تنظيم أوقات الراحة يقوي الارادة . أما الكسل فهو عدو الارادة اللدود . وقصاري القول ان التمارين الرياضية هي مدرسة الارادة الابتدائية . والجهد العضلي هو الصورة الاولى للجهد الارادي .

٢ - روح النظام - ومن شرائط تربية الارادة محبة النظام والميل إلى التعاون والعمل المشترك . ان ضعف الارادة لا يجبون النظام ولا يميلون إلى العمل الدائم والجهد المستمر ، ولا يطيعون رؤساءهم ولا يصغون إلى حاكم العقل ، بل يعيشون في قلق نفسي شديد ، ويفقدون توازنهم العقلي والعاطفي ، ويفضلون الفوضى على الحرية المعقولة ، والتقليد الاعمى على الابداع المنظم . لذلك كان لا بد في تربية الارادة من تعويد الاطفال الطاعة والنظام ، لان ذلك يعلمهم قهر النفس والتغلب عليها ، ويهيء لهم أسباب النجاح في الحياة . ومن تعلم الطاعة عرف كيف ينظم أعماله ويدبر نفسه ، وكيف يسوس غيره من أبناء جنسه . وللأسرة والمدرسة أثر عميق في خلق روح النظام . وكما نمت مدارك الطفل اتبع النظام عن ارادة ورضى ، لا عن قسر وقوة وقهر . وارادة النظام تقتضى الاعتماد على النفس ، وتستلزم الثبات والشعور بالتعاون الاجتماعي .

٣ - تثقيف الذهن - ثم ان للارادة حليفاً قوياً وهو العقل . لا تنمو ارادة الانسان الا إذا تعلم التفكير وتعود الانتباه الارادي . وكثيراً ما يبسّن العلماء اضرار الطيش والذهول وتشتت الافكار . اننا لا نزيد فعلاً من الافعال ارادة صادقة الا إذا فكرنا فيه تفكيراً واضحاً وتصورنا غايته تصوراً بيناً . قال « ويليم جيمس » : ان الرجل القوي الارادة يصيح بسمعه من غير تردد إلى صوت العقل مها يكن ضعيفاً ، ويصغي من غير خوف إلى فكرة الموت . فيرحب بها ويصدقها ويحارب اعدائها ، هكذا تتغلب الفكرة الجديدة على أعدائها . مستعينة بالانتباه الارادي والجهد والحزم . فتجمع حولها اصدقاءها وتميز في النهاية مجري المواظف . ومتى أصبحت الفكرة الجديدة سيدة الموقف سيطرت على الافعال والحركات ، فالصعوبة كل الصعوبة هي في ابقائها في النفس . والانسان انما يعود الانتباه الارادي شيئاً فشيئاً . اطلبوا إلى الطفل ان

يحصر انتباهه في شيء من الأشياء مدة دقيقة واحدة . ليفكر في لونه وشكله وفائدته والمادة التي صنع منها . انكم إذا فعلتم ذلك عدة مرات استطعتم أن تعودوه الانتباه الارادي . ان جهد الانتباه هو العامل الأساسي في بناء الإرادة . ولئن كان التفكير لحظة الإرادة فالانتباه سداها . وقوة الإرادة انما تقوم على جهد الانتباه كما تقوم على وضوح الفكر .

٤ - تهذيب العواطف - ومن حلفاء الإرادة أيضاً العواطف المنظمة التي تجب إلى الانسان ادراك المثل الاعلى . لا يستطيع الانسان أن ينجز امراً من الامور الا إذا رغب فيه رغبة شديدة وتحمس له واراده بكل نفسه ونظم عواطفه . فينبغي له اذن أن يصقل عاطفته ، وان ينظمها ، وان يتحمس للامر الذي يريد ان يروي أفعاله بماء العواطف الشديدة وان يتعود تحمل الالم . فالالم أشبه شيء بأنون يصهر النفس ويولد فيها العزم والقوة .

٥ - تنظيم العادات - ولا بد في تربية الإرادة من استخدام العادات الصالحة وتجنب العادات السيئة ، وتنظيم الحركات الارادية والعادات الآلية وإخضاعها للإرادة الواعية . اننا لا نستطيع أن نفكر في كل حركة من حركاتنا . ومتى انصرف العقل الى أجزاء هذه الحركات ضاعت عليه المقاصد . وينبغي أن تكون حركاتنا متصفة بشيء من المرونة . إذا تحكمت الآلية المطلقة في حركاتنا عجزنا عن تبديل اتجاهها وانقلبت حياتنا الواعية إلى آلة عمياء . لا تتم تربية الإرادة الا إذا أطلع الانسان عن عاداته السيئة وتجنب نتائجها المخلة بصحة النفس والجسد . لان العادات السيئة تقيد النفس بسلاسل من حديد وتمنعها من بلوغ غايتها . قال « وليم جيمس » : « يجب على المرء أن يغتنم كل فرصة لتحقيق كل رغبة من رغائبه . فالرغبات لا تبدل الجملة العصبية الا إذا انتقلت من القوة الى الفعل . وعلى المرء أن يجي في نفسه قوة الجهد بالتمرن عليها

كل يوم ، وان يتعود التقشف والبطولة المنظمة ، وان يرغم نفسه كل يوم مرة واحدة على القيام بأمر لا تميل اليها . فاذا دقت ساعة الشدائد وجد نفسه قادراً على الصبر والمشقة والمقاومة . تلك هي ضمانة الحياة . وقال أيضاً : لو عرف الشبان أنهم سيصبحون يوماً كنلة متحركة من العادات لا تنتبهوا الى سلوكهم وهم لا يزالون في نضارة الحياة . فالمرء ينسج مصيره بيديه وسواء أكان ذلك خيراً أم شراً فإن خيطه المنسوج لن يحل . » .

هذه بمض القواعد التي يجب على الانسان أن يعمل بها لاجياء إرادته وانماها ووقايتها والمحافظة على صحتها . فاذا عملنا بها عشنا في أمن وسلام وأدركنا السعادة بالارادة . فان الارادة الصالحة تسعدنا ، والارادة الفاسدة تشقينا . وربما كانت الارادة أدل على حقيقة الانسان من العقل . ومتى فقد الانسان ارادته الصالحة أمسى كالحيوان لا بل أضل سبيلا . والمرء يحتاج الى قوة الارادة في السلامة ونعمى العيش أكثر مما يحتاج اليها في الشدائد . وحاجة الامم اليها في زمن السلم أكثر من حاجتها اليها في الحرب . ولنحن اليوم أحوج الامم الى تقوية اراداتنا الشخصية وتوحيدها وجعلها منسجمة مع الخير العام . وكما أن ارادة الفرد الشخصية لا تكون صحيحة الا اذا اتحدت نزعاته وتوازنت قواه الفكرية والانفعالية فكذلك ارادة الامة لا تكون قوية الا اذا انتظمت أعمالها واتحدت ارادات جميع افرادها واتجهت الى غاية واحدة . ولا كمال لارادة الفردية الا اذا خضعت للعقل ، واستقلت عن الاهواء ، كما أنه لا كمال لارادة الامة الا في ترفعها عن الانانية الفردية ، وتطلعها الى المثل الأعلى ، واستقلالها ، وإيمانها بمستقبلها ، وابتعادها عن الأحلام والتقاليد البالية ، واعتمادها على العلم ، وتفضيلها المصلحة العامة الواسعة على المصلحة الشخصية الضيقة .

دمشق : كانون الأول سنة ١٩٤٤ .

شعوب سورية

وأثارها القديمة

للأستاذ جعفر الحسني

عنيت الأمم منذ القديم بالهنون الجميلة وخاصة منها الصنائع وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها وكان الملوك والعظماء يجمعون آثار مشاهير فناني العالم ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر ودام هذا حالهم حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلاد لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه « Winckelmann » الألماني وهو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث علم الآثار القديمة ومنذ ذلك اليوم أصبحت المجموعات الأثرية مكتبة يرجع إليها بعد ما كانت من جملة المتاع تزين بها القصور .

لم يقتصر التجدد في عصرنا هذا على العلوم والفنون فقط بل تعداه إلى التاريخ ونهج المشتغلون به نهجاً جديداً . فقد كان التاريخ فيما مضى كتاب أدب يجمع بين الأخبار والفكاهات ويدس فيه حوادث ما أنزل الله بها من سلطان رغبةً في تأييد مبدأ أو خدمة حاكم حتى أصبح الكثيرون يشكّون بصحة ما ورد في أكثر هذه الكتب واطالما قرأنا روايتين أو أكثر لحادث واحد تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً حتى أصبح التاريخ القديم في ارتباك عظيم .

إن مؤرخي العرب هم أول من أدرك وبال هذا المنهج العقيم لما عانوه من المشاق في استنتاج الحقائق من المصادر التي دوتها الأقدمون

وحضوا الكتاب على أمانة النقل حرصاً على الفائدة ولا يدرك الغاية التي وضع التاريخ من أجلها ، فليس هو مضماراً تتبارى فيه قرائح الشعراء أو تخدم بواسطته الأهواء . ولذلك نرى مؤرخي العرب مثل الطبري وأبي الفرج وابن الأثير وابن خلدون وابن عساكر وغيرهم قد نهجوا منهجاً جديداً في تدوين الحوادث والأخبار حتى أصبحت مصنفاتهم من مفاخر الحضارة العربية لما امتازوا به من الضبط والدقة والصدق في إيراد الأخبار وإيجازها . لو اتصلت سلسلة تلك التواريخ العربية حتى يومنا هذا . وقد توسع علماء الغرب بالضبط والدقة منذ ظهور الطباعة وانتشارها في العالم حتى أنه لا يقدم أحدهم على سرد حدث دون أن يؤيده بأدلة راهنة أو الإشارة إلى المصادر والمآخذ مع تعيين الصفحة والسطر وإذا لم يتوصل إلى معرفة أمر أقر بعجزه بكل صراحة دون أن يرى بذلك ما يحيط من قدره ولا يستنكره عليه أحد . ولما لم يجد علماء التاريخ في التأليف القديمة ما يفي بحاجتهم وضائق بهم سبل الهداية لمعرفة الماضي عمد بعضهم إلى بطن الأرض يستنطقون دفائنهم ويستضيئون بقبس كنوزها . وأطلق على هذه الفئة اسم علماء الآثار لأنهم يعتمدون على الآثار دون سواها .

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ومن أصعبها مراساً إذ يحتاج صاحبه إلى انتباه قوي وذوق سليم فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها بل الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها واستجواب تلك الشهود الصامتة واستنتاج الحقائق منها وقد قال « Volney » ما ترجمته : « إن مهمتنا أصعب من مهمة علماء الطبيعيات لأننا لا نشغل مثلهم بأجرام ملموسة أو بحوادث واضحة للحواس بل نعمل كهيئة تحقيق لديها حوادث أدبية غائبة وربما

كانت مختلفة نقلها اليها بعض شهود عيان أو اتصلت بهم أخبارها من الرواة ويتكلم هؤلاء المحدثون لغات مختلفة قد تلاشت فيتطلب منا تعلمها وهي العثرة الاولى في بدء الامر وقد نخطيء بترجمتها . ثم يجب علينا البحث عن الحوادث أو الوقائع المبعثرة التي تؤيدها وتكون هذه غالباً محرقة بتناقضها من فم إلى فم ويتطلب منا بعده مقابلة هذه الروايات والتثبت من أخلاق محدثيها وصدق تحقيقهم ويكون التناقض في بعض الحوادث واضحاً فينشأ عنه صعوبات لا مخرج منها . ا ه .

وقد أصبح النظر اليوم في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق كما يستنير بها كل لغوي ومفسر . فكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم . وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها وشك بعضهم في صحتها ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام وأظهرها للعيان ملامسة محسوسة لقالوا عنها أساطير الاولين . أليس آشور والكلدان ومصر وفارس ويونان شهود عدل على جهود الذين اكتشفوا آثار تلك البلاد وبعثوا ذكرهم بعد أن كانوا نسياً منسياً أوفياً من السنين .

لم يدون الأقدمون غير النذر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة وأغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارهم بزوال أصحابها ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف . وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أكثر أخبار هذه الأمم كما نعرف حوادث الأمم في القرون الوسطى . وقد توصلوا الى معرفة ما كان عليه الانسان قبل عشرات الألوف من السنين يوم كانت الارض وطاءه وأديم السماء غطاءه يقتات بالنبات ويفترس الوحوش مع اننا نجهد اليوم ونجهد في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب المعاصرة وعاداتها ممن تقطن مجاهل إفريقيا

وسواها من القارات الخمس، ومن الانصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا إلينا أخبار السلف لأن هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع فدفعهم في هذا السبيل . وكانت هذه النصوص على علاقتها نوراً يستضاء به ومرجماً يستأنس به ، وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات وان كان لا ينكرون وقوعها فهم لا يجزمون بصحتها الا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها . ولا تبحث علماء الآثار ميزة جديدة بالاعتبار فهي في أكثر الاحايين تكون منزهة عن الاغراض والغايات والأهواء . وقد يخطيء الاثري في استنتاجه ولكنه لا يعتمد تشويه الحقائق لان همه الوحيد أن يحمي الماضي البعيد ويجعل المعاصرين كأنهم يعيشون في ذلك العصر وذلك المحيط . ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفاً أو معبداً أو أطلاقاً قديمة . وكيف يمكنه أن ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الأمم البائدة تقول :

إن آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

لتي هذا العلم الحديث اقبالاً عظيماً في بلاد الغرب فعنيت حكوماتها به وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة ، وأنشأت له المدارس والجامع العلمية أسوة ببقية العلوم وقد أبدت هذه الفئة فئة الاثريين رغم قلة عددها نشاطاً عظيماً ووضعت في مدة قصيرة كثيراً من المؤلفات القيمة المفيدة وأحيت كثيراً من اللغات القديمة المدرسة وحلت رموزها . وقد نال الشام قسطاً وافراً من هذه الابحاث فهي أول بقعة اتجهت نحوها الانظار وخصوصاً فلسطين لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الاطول وأهمها الشعب الاسرائيلي وعلاقة الامم الغربية بكتابهم المقدس . فقد أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار سورية وأول بعثة رسمية وطئت بلاد الشام هي البعثة الافرنسية التي رافقت الحملة الافرنسية في سنة ١٨٦٠ .

يقسم التاريخ القديم في سورية كما في غيرها من البلدان إلى عهدين واضحين الاول عهد ما قبل التاريخ والثاني العهد التاريخي .

فالعصر الاول هو عصر الظران أو الطور الحجري ويقسم الى قسمين أحدهما حقبة الحجر المنحوت « Paléolithique » والآخر حقبة الحجر المصقول « Néolithique » وهو أحدث من القسم الاول وتختلف مدة هذا العهد بحسب الامكنة . وايس هذا العهد تاريخ حياة البشرية بل هي مرحلة من تقدم الجماعات الفكرية والمادي وقد اختلف العلماء بتحديد أقدم تاريخ لهذا العهد فمنهم من يقول من « ١٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠٠ » سنة ومنهم من يقول من « ٦ الى ٨٠٠٠ » سنة . تعتمد الفئة الاولى على تكوين طبقات الارض والهواء وتعتمد الثانية على نظريات دينية تأييداً لما جاء في التوراة عن تاريخ الخليقة فلا يمكننا أن نهمل نظريات علم طبقات الارض وقد ثبت أن طبقة الأرض كانت منذ مئات آلاف من السنين صالحة لحياة البشر كما أنه لا يمكننا إلا التسليم بما جاء في الكتب المنزلة « وهنا يبدأ دور علم الآثار عسى أن يوفق بين النظريتين والعلم لا يتأفي الدين » .

لقد ثبت حتى الآن ان الانسان لم يكن منتشرأ في أكثر أنحاء الأرض كما هو اليوم لأنها لم تكن جميعها صالحة لسكنى الانسان الاول فكان يكسو الجليد المرتفعات وتغمر المياه السهول ما خلا بمض السواحل والهضاب في القارات الخمس حيث أوى اليها الانسان . منها سيبيريا والقفقاس وجزيرة العرب فكانت تمتاز هذه الاصقاع عن غيرها باعتدال هوائها وخصب أرضها ووفرة دواجنها وكانت سيبيريا والقفقاس مأهولتين بجماعات الآريين وجزيرة العرب بجماعة الساميين ودام هذا الحال حتى طرأ على الأرض بعض الطواريء الجوية فتقدم الجليد من شمال اوروبا

حتى جنوبها فاشتد البرد وكثرت الأمطار وارتفعت المياه فغمر الطوفان معظم السهول فهلك خلق كثير من البشر فتنفرق من بقي من هذه الجماعات فراراً من الموت تلتمس أرضاً تقيها من الخطر فنزح قسم من سكان سيبيريا والقفقاس نحو الجنوب فوصل جماعات منهم إلى سورية وكانت سهول سورية يومئذ مغمورة بالماء الا قليلاً منها وبقيت سورية زمناً طويلاً مأهولة بجماعات الآريين ثم حدث في أثناء إقامتهم بعض الزلازل وتقلصت في القشرة الأرضية . فجاءت هذه النعمة نعمة على سورية اذ انشقت الجبال وانفتحت الوديان فتسربت منها المياه للمحار واتخذت الأنهر لها مجاري ثابتة فجفت الأرض وأصبحت سورية قابلة للسكنى .

وقد وصلتنا أخبار هؤلاء القوم من آثارهم التي خلفوها لنا في الكهوف التي سكنوها وما أودعوه من مصنوعاتهم قبور موتاهم . وثبت أن أشكال ذلك الانسان الصياد لا تختلف عن انسان اليوم وهذا يبطل ما علق في بعض الاذهان من أن الانسان القديم يفوقنا بكبر جسده مع أنه كان معتدل القامة يسكن الكهوف الطبيعية ولبس الجلود ويقنت من النبات والصيد فبقى زمناً طويلاً يجمل المعادن . واحتياجاته محدودة جداً لا تتعدى قطع الظنجان والصوان التي تشبه رؤوس الحراب والسكاكين والمناشير والفؤوس كان يستعملها للدفاع عن نفسه وللصيد ثم تدرج في الرقي فتغلب على الحجر فصار يصقله ثم استخدم العظم فنقشه ثم اكتشف صنع الخزف وهو أول ابتكار صناعي عرفه الانسان . وتشبه قبور هؤلاء القوم وصناعاتهم صناعات معاصريهم أو أسلافهم في غيرها من البلدان في القارات الخمس وهذا ما يؤيد هجرة الانسان وتنقل هؤلاء الجماعات عقب الطواريء التي فاجأت الارض وغيرت أوضاعها الجغرافية . وقد حلت في جزيرة العرب طواريء طبيعية عقب التي

حلت في سورية بزمن طويل قاسى أهلها الشدائد من جذب الأرض وقلة الامطار فنزحت جماعات الساميين نحو الشمال لأنه المنفذ الوحيد لهم إذ البحار تكتنفها من جهاتها الثلاث فسلكوا سواحل خليج فارس حتى نزلوا العراق . ثم توغلوا في شمال سورية ثم في جنوبها حتى وصلوا الى بلاد الحبشة . وقد تغلبت جماعات الساميين في برهة أفي سنة على جميع سكان تلك البلاد حتى أصبحت سامية اللغة كما عرفها التاريخ . ونشأ من مزيج هذين العنصرين عهد جديد يمتاز برقيه ومدنيته . وتفرق هذا المزيج بطول الزمن الى شيع وشعوب عرفنا منهم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد الآشوريين والبابليين في العراق والكنعانيين في فلسطين والآراميين في سورية الداخلية والفينيقيين في سواحل لبنان والعرب في جزيرة العرب فأصبح لكل منهم حضارة ولغة يتنازعون بينهم السيادة رغم انهم يمتون جميعاً إلى أرومة وأصل واحد .

وما هجرة بني اسرائيل من صحراء اتيه إلى فلسطين وغزوات العرب في صدر الاسلام للبلاد الدانية والقاصية سوى مثال قريب العهد لتلك الموجات البشرية التي غشيت البلاد . ولم ينس هؤلاء الشعوب رغم تقادم العهد على استيطانهم هذه البلاد انهم دخلاء فيؤكد المؤرخون الاقدمون أن الفينيقيين جاؤا من جزيرة العرب وروى هرودوتس « Herodote » المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد أنهم انحدروا اليها من سواحل البحر الأحمر ويقول استرابون « Strabon » إن أصلهم من خليج فارس كما كانوا يدعون . وكذلك يتذكر الكنعانيون نزوحهم من مدينة اور من بلاد آشور في سني الألفين قبل الميلاد . وان تكن هذه الشواهد حديثة العهد بالنسبة للحوادث التي سردناها غير أنها تشير بوضوح إلى اتصال أخبار السلف بالخلف والشعوب السامية أكثر الشعوب تمسكاً بأنسائها وحفظ أخبارها ، وقد برهن العلم الحديث على فائدة هذه الروايات لاستنتاج الحقائق منها وهكذا وصل اليها غيرها من الأخبار .

أذكر منها روايتي الطوفان وسيل العرم . فقد عثروا في خرائب نيبور من بلاد آشور على وثيقة تاريخها من نحو « ٢٢٠٠ » سنة قبل الميلاد أي قبل هجرة إبراهيم عليه السلام بمئتي سنة وفيها وصف لطوفان اتصل بهم خبره وخلاصته : انه كان انكي « Enki » اله الماء وزوجته نينلا « Ninella » يحكمان البشر والسعادة سائدة في العالم والانسان يأمن من الموت والأمراض والآفات فنقم انكي « Enki » على عباده لخالفتهم تعاليمه وعزم على إبادتهم بطوفان فدعى أحد عباده الصالحين واسمه أوتو « Uttu » وأسرَّ اليه بالأمر وطلب منه أن ينجو بنفسه على سفينة وهكذا كان الأمر فهلك جميع البشر الا صاحبه أوتو « Uttu » فتنازل منه البشر ثانية ولكنه حرم البشر السعادة التي كانوا يتمتعون بها من قبل وقدر على الانسان أن يسعى ليعيش وعرضه للأمراض وأخطار الفناء . وهكذا خرج الانسان بذنبه من النعيم الى الجحيم ، وما أشبه هذه الرواية بطوفان سيدنا نوح . وقد اتصل بسكان جزيرة العرب حادث آخر وهو سيل العرم وليس هذا السيل الا إحدى الكوارث الآتية الذكر لأنه لا يُعقل أن يكون في بلاد سبأ سدٌّ يجمع هذا المقدار من الماء وخصوصاً مياه جزيرة العرب قليلة شحيحة . والأرجح أن العوامل التي دحرت الانسان القديم من الشمال الى الجنوب هي نفسها التي أرغمت جماعات جزيرة العرب على أن يهجروا بلادهم الى الشمال . وما سيل العرم إلا طوفان حصل لما اشتدت حرارة الهواء في العصور القديمة فأذابت الثلوج المتركمة منذ ألوف السنين في قمم جبال جزيرة العرب ومرتفعاتها فهكذا كان سيل العرم في بلاد سبأ فتفرق سكانها في كل البلاد أيدي سبأ .

وقد دامت هذه الحوادث التي استعرضناها في أسطر عشرات الألوف من السنين كان يتدرج الانسان خلالها نحو الرقي وساعده على ذلك استقرار حالة الأرض الطبيعية في الألف العاشرة فتأثر على خطة الابتكار

والعمل اتباعاً لسنة تنازع البقاء فتوفرت لديه المعدات وجعل لنفسه مسكناً ونسج ملابسه واستخدم الحيوان واستثمر الأرض فأصبح صانعاً وفناناً وفلاحاً بعد أن كان أوفياً من السنين متشرداً صياداً فانتقل في آخر العهد الحجري من البداوة الى الحضارة فصار قسم منهم يقعد الأرض وقسم يعتني بتربية المواشي وهكذا تكون صنفان من البشر بدو وحضر . رعاة ينتقلون بمواشيهم من بقعة الى بقعة ارتياداً للماء وانتجاعاً للكلاء وفلاحون يقيمون بمزارعهم يعملون في الارض ويستغلونها .

وقد أقيمت لنا جماعات عصور قبل التاريخ كثيراً من آثارهم في سورية وجدت في الكهوف التي كانوا يأوون اليها أو في قبور موتاهم ويمكن منها تتبع رقي الانسان وتدرجه في الحضارة وليست هذه الآثار تماثيل ونقوشاً أو أواني نفيسة . بل هي شظايا من الطران والصوان المنحوت والمصقول أو عظام حيوانات زينتها أيدي الصانع أو خزف بسيط وقبور تلك الشعوب البائدة وهذه الآثار كانت صنعتها وتحسن كلما اقترب الانسان من العهد التاريخي . ورغم قلة المشتغلين من العلماء بعصر قبل التاريخ في سورية فقد اهتموا الى أماكن عديدة وجد فيها من آثار ذلك الانسان في عدلون . ونهر ابراهيم . وانطلياس . ونهر بيروت . وطرابلس . ونبع نهر الكلب والماملتين . وتبنة . والبقعة . وتعاك . ومجدو . والكرمل . واذرعات . وجرش وعمان . والكرك . ووادي موسى . والقدس . وفي الفلاة الممتدة من جبرود حتى دير الزور وفي كثير من الاماكن في سورية الشمالية .

وطال أمد العهد الحجري في سورية أكثر منه في مصر والعراق ولهذين القطرين فضل كبير في تحضير جماعات سورية والعالم أجمع . فقد شيدا بين سنة « ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ » قبل الميلاد عمراناً عظيم الشأن بينما كانت سورية وبقية العالم تتخبط في ظلمات الجهل والامية وقد ارتقت سورية الى مصافها في الالف الثالثة قبل الميلاد لما تقوى عليها العراق وحمل اليها معارفه ومكتشفاته وأهمها المعادن والكتابة . والعصر التاريخي

ينتهي في كل أمة من يوم وقوف أهلها على الكتابة لتسجيل أخبارهم وتدوين وقائع عصرهم . وقد دفعت سورية ثمناً باهظاً لحصولها على حضارة مجاورها وهذا الثمن هو حرمانها استقلال جماعاتها . فمنذ ذلك التاريخ وسورية تنتقل من يد مسيطر الى آخر حتى يومنا هذا . وكأن موقع سورية الجغرافي وخصب أرضها وكثرة غاباتها هو سبب بلائها فهي حلقة الاتصال بين الغرب والشرق ومنفذ لكليهما . فمنها كانت تستورد مصر والعراق ما يعوزها من الخشب لبناء دورهم وصنع عمارتهم البحرية .

وكانت سورية في أكثر أدوارها التاريخية ساحة حرب يتنازعها العراق ومصر ويطمع بها الحثيون واليونان والفرس والرومان كما جاءها العرب والترک من بعد . وقد ترك كل من هذه الشعوب أثراً من حضارتهم وعوائدهم . ولا يمكن معرفة تاريخ سورية الا بالرجوع الى وثائق تلك الشعوب ورقمها وقد امتزج تاريخ سورية بتاريخ هذه الشعوب ولا يمكن عزله عنه لعلاقته بمحادث الامم التي كانت تدين لسلطانها . ولذلك نرى في سورية مدنية ظاهرها مزيج من مجموع حضارات مختلفة يتعذر لأول وهلة تمييز بعضها عن بعض وتتبع سير تطورها . ومع أن هذا الدور يدعى بالعهد التاريخي فهو بالحقيقة اعقد مما سبقه من الادوار على كثرة المصادر والوثائق . وقد أصبح في سورية من جراء هذه التجزئة والمنازعات السياسية دويلات مختلفة بلغاتها وعوائدها وعقائدها أهمهم الكنعانيون والآراميون والعموريون والفينيقيون وكثير غيرهم من طوائف حدود سورية الشرقية والجنوبية . وقد خضعت هذه الدويلات لسلطة الآشوريين والبابليين والمصريين والحثيين وبارس واليونان والرومان . وكانت دمشق أقوى ممالك الآراميين . ويتعذر على المؤرخ أن يسرد حوادث كل من هذه الادوار لو لم يسعفه الاثري ويرشده في هذا المسلك الوعر .

وحوالي سنة « ٣٠٠٠ ق . م . » كان هؤلاء الساميون بلغوا درجة من الحضارة لا يستهان بها . معظمها مستمد من مصر وبابل . وقد شغف

الفينيقيون بحب البحر ومهروا بعلم الملاحة حتى سيطروا على البحار والأسواق التجارية في جميع سواحل البحر المتوسط فحملوا سلمهم وتعاليم الحضارة الشرقية الى أقصى بلاد أفريقيا الشمالية واسبانيا وجنوبي فرنسا وجزر صقلية وقبرص وكريت وقد استوطن هذه البلاد جماعات من الفينيقيين وأسسوا فيها حكومات كان لها شأن عظيم في التاريخ .

ولم يبق لنا الزمن الا النذر اليسير من آثار شعوب سورية السامية في العصور القديمة لأن أسلافنا كانوا يبنون بيوتهم وهياكلهم من الطوب الجفف بالشمس كما هو الحال حتى اليوم في بعض المدن والقرى السورية ولا يخفى أن هذا النوع من البناء لا يعمر طويلاً فتنهار البيوت برمتها فيعمد أصحابها الى بناء غيرها على أنقاضها وجرى الناس على هذا الأسلوب من البناء قروناً متوالية تكونت منها تلال اصطناعية وهذه التلال تعد بالآلاف في سورية : كتل أربحا في فلسطين وتل الصالحية في الغوطة وتل الدرخبية في وادي العجم وتل النبي مندو وتل المشرفة بجوار حمص وتل جرابلس على الفرات وقد حفظت لنا الأيام في بطن هذه التلال والقبور كثيراً من الآثار التاريخية المهمة ، وقد عثر المنقبون على كثير من تواريخ الأسر والرسائل والصكوك والحسابات والمذكرات وغيرها من الرقم ووجدوا أيضاً كثيراً من الأثاث والأواني الجميلة المزخرفة والزسوم المنقوشة . وأما البنايات الاثرية القديمة مثل بعلبك وجرش وتدمر وغيرها فهي من العهد الروماني فقط ولكنها شيدت على أنقاض هياكل ومدن أقدم منها عهداً .

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في سورية ومن الآثار التي اكتشفت فيها — ان آثارها تختلف عما وجد في البلاد المجاورة لها ولا يرجى أن نعثر في هذه البلاد على آثار تثير إعجاب العامة قبل الخاصة كما هو شأن آثار مصر وأشور والفرس . والسذاجة في الصناعات تغلب على السوريين منذ القديم وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم

فالسوري في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج وهذا يظهر في
صناعته وفلسفته الدينية وتتجلى في هذه البساطة مواهب السوري الفنية
فقد جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع . ونقل الآثار المنقولة
النفيسة التي اكتشفت في سورية بالنسبة إلى ما وجد في غيرها من البلدان
المتجاورة . وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع السوري وذوقه السليم وهو
ذو مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب . وليس معنى قلة العاديات
عدم انتشارها في البلاد بل لأنها لم تصل إلينا لأسباب وعوامل شتى .
أولاً : لأن أكثر تربة سورية رطبة لا تحفظ ما يودع فيها . وثانياً :
لأن السوريين قلما يودعون مدافن موتاهم نفائسهم كما هو شأن المصريين
وغيرهم من الأمم القديمة بل يكتفون بالأشياء البسيطة كقوارير الشبه
أو الخزف وشيء من أدوات الزينة من الفضة أو النحاس أو الذهب أو
قطع سلاح وإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأعلاق ما قد كتبه اشمو نزار
ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نباشي القبور ناصحاً لهم بأن لا يهتكوا
حرمة مؤكداً أن لا ذهب في قبره ولا فضة — تدركون سرّ ندرتها
بين أيدينا فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالكم بالرعية . وخالو القبور
منها هو حجة لسورية لا عليها ودليل على سمو عقيدة سكانها ونضج فكرتهم
منذ القديم . لأن السوري كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد
بان الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالاكرام الذي يبالغ به
غيرهم من الشعوب ومع هذا فقد انتشرت في سورية عادة وضع بعض
الأشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية واقتباس عادات الغالب لأن
سورية كانت في أكثر أدوار تاريخها خاضعة لسلطان أجنبي كما ذكرنا آنفاً .
سورية مهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر وهذه الديانات
لم تكن ابنة ساعتها بل هنالك عوامل مهدت لها السبل مدة قرون عديدة
قبل ظهورها وبهم العالم أن يعرف تطورها قبل نشوئها وهذا ما يزيد في
مكانة آثار سورية ويجعل اقبال العلماء عليها أكثر من سواها لملاقتها

الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر . وقد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة أو استثمار دولة بهذه الآثار دون سواها . ولذلك اشترطت في المادة الرابعة عشرة من صك الانتداب أن يكون النظام الذي سيوضع لحماية العاديات مستمداً روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه إلى التثبيط كما أنها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا تتصرف بشكل يرمي إلى حرمان علماء أي شعب كان من تلك الاجازات دون أسباب موجبة .

آثار سورية

إن معظم البنايات الأثرية التي نعرفها أنيوم ويؤمها الزائرون من جميع أنحاء العالم مثل بعلبك وتدمر وجرش وبصرى الشام ومادبا هي حديثة العهد بالنسبة لقدم حضارة سورية ويفلب عليها تأثير الفن اليوناني والروماني والبيزنطي وقد ثبتت هذه البنايات على طواريء الأيام لان بناءها من الحجر الصاب المنحوت بخلاف البنايات التي قبلها فقد درست لانها كانت من الطوب المحفف وهذه البنايات هي معابد وهياكل ومدن لها شهرة عالمية لانها بالحقيقة احدى معجزات الفن المعماري وهي في غنى عن كل وصف وقد برع السوريون بالبناء وكانت روما تستدعيهم لتشييد بناياتها العامة . وفي سورية بقايا بنايات أثرية لها أهمية تاريخية عظيمة منها منبج من أفضية حلب وقد أطلق عليها اليونان اسم « Hierapolis » نسبة لآراء « Aera » المعبود الآشوري وجاء اسمها « Mappigu » في الوثائق الآشورية وفي هذه البلدة أقدم معبد سوري وكانت هذه المدينة مقدسة يقصدها الحجاج من جميع أنحاء سورية وقد كتب لوسيانوس المؤرخ الآشوري الاصل كتاباً في هذا المعبد وطقوسه الدينية وشعائره وحكاية بنائه وأسبابها ونسب بناءه إلى « Stratonice » زوج ملك آشور . كما انه عقد في

كتابه فصلاً في قدم مدينة جبيل الواقعة على طريق بيروت - طرابلس ووصف عبادة أهلها لأدونيس الآلاتج وقد أيدت الحفريات الأخرية قدم هذه المدينة فقد عثروا فيها على معبد قديم وجدوا تحت بلاطه عدداً من الاواني والادوات زبر على بعضها اسم الفرعون « Mycerenus » من السلالة الرابعة وباني احد اهرام مصر الكبيرة بين سنة « ٢٩٠٠ و ٢٧٥٠ » قبل الميلاد واسم الفرعون « Ounas » من السلالة الخامسة واسم « Pepi II » الثاني من السلالة السادسة ووجدوا أيضاً غيرها من الادوات المصرية أحدث عهداً من الاولى وهذا يؤيد علاقة مصر بالفينيقيين قديماً وكان المصريون يطلقون اسم « Keben » على مدينة جبيل حتى في عهد السلالة الثانية عشرة وذكرت بهذا الاسم في الرقم المصرية منذ سنة « ٣٠٠٠ » قبل الميلاد وكان المصريون يستوردون من جبيل الخشب اللبناني لصنع سفنهم وربما كانوا يصنعونها في نفس مدينة جبيل وقد أطلق المصريون اسم « Kebenit » على اسطولهم الضخم نسبةً إلى « Keben » وهي جبيل كما ذكرنا . وقد عثروا أيضاً على بعض مدافن ملوك جبيل وأمرائها منهم أحرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد نقش على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه وبعض الشعائر الدينية وهو قائم على أربعة اسود ومما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زبرت عليه وهي أقدم كتابة أبجدية عرفت حتى اليوم وهذه ترجمتها « عمد هذا الايران « أي التابوت » لإفسبعل بن أحرام ملك جبيل لابييه كي يكون مقره الأبدى فاذا ناصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت البلاط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويم الخراب جبيلاً فيما إذا محا هذه الكتابة ... » وآثار جبيل هي أهم ما عثر عليه حتى اليوم في سورية من الوجهتين الفنية والعلمية ويحق لمتحف بيروت أن يفاخر بها .

ومن أعجب ما ذكره لسيانوس المؤرخ عن عبادة أهل جبيل لأدونيس أنهم كانوا يزعمون أن أدونيس هذا خرج للصيد في جبال لبنان فوثب عليه خنزير وافترسه عند نبع نهر إبراهيم حيث نرى إلى الآن نقوشاً ورسوماً تشير إلى هذا الحادث وقد أطلقوا على هذا النهر اسم أدونيس تخليداً لذكر معبودهم . ولكن موت أدونيس لم يكن ابدياً بل كان يموت في فصل الخريف من كل سنة ويبعث في ربيعها وكانوا يقيمون في ربيع كل سنة مأتماً عليه تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باقيات يضربن صدورهن ويشقن جيوبهن حزناً عليه ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح فرحاً إذ يُبعث أدونيس ويرتفع إلى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والسرور فيحلق النساء شعور رؤوسهن ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيئتها بإباحة جمالها لكل طالب طول هذا اليوم ويخصص ربيع هذا العمل الشائن لأعمال البر والتقوى ولم يكن هذا العمل الفظيع يستنكر عندهم بل اللواتي يقدمن عليه ينلن حظوةً كبيرة لدى مواطنيهم . وكان الفينيقيون يمدون أعمال العبارة والفجور أعمال تيمن يتقربون بها إلى أربابهم . وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه الخازي في بلاد فينيقية . ومن الاعمال التي كانت تقشر لها الجلود عادة تقديم الضحايا البشرية فكان كل منهم يقدم ابنه البكر ضحية لأربابهم ليحصل على بركتهم أو دفعاً لخطر داهم وهذه العادة الفظيعة قديمة جداً في سورية وقد دامت حتى العهد الروماني . وبنو اسرائيل هم أول من استفطع هذا الامر وحرموه واستعاضوا عنه بالختان وهو فداء الكل بالجزء .

وفي دمشق أثرٌ لا يقل مكانة عن غيره وهو الهيكل بالائمس أو جامع بني أمية اليوم . ونرى كثيراً من الكنائس والجوامع شيدت على انقاض هياكل ومعابد قديمة . وتبدأ أقدم معلوماتنا عن هذا الهيكل من القرن

العاشر قبل الميلاد إلى العهد الذي تلاشت فيه الوثنية من هذه البلاد وكان يعبد فيه الآلهة « Hadad » أو « Ramman » ورفيقته « Atargatis » وحداد هذا عند الآراميين بمنزلة « Jupiter » و « Zeus » عند اليونان والرومان وقد ورد ذكر هذا المعبد مرتين في التوراة في حديثه عن شفاء نيمان وكانت شهرة هيكل دمشق عاصمة مملكة آرام عظيمة جداً حتى إن أخاز « Achaz » ملك بني إسرائيل لما جاء إلى دمشق للسلام على « Tiglathphalazar » ملك آشور دهش من معبدها وأخذ مقياس مذبحها لكي يبني مثله في بيت المقدس وهيكل دمشق هو في سورية الوحيد الذي احتفظ بهندسته القديمة رغم الطواريء التي نزلت به والأيدي التي تعاقبت عليه وتقسم جميع المعابد السامية السورية إلى قسمين : الحرم وهو مختص بالكهنة ولا يقصد الا في أيام الزيارات والقسم الخارجي وهو مباح للعوام . وزى هذين القسمين واضحين حتى اليوم في هيكل دمشق والحرم هو المسجد الآن والقسم الخارجي هو السور الذي يحيط به وزى احد أبوابه عند مدخل باب البريد واقدم آثار الهيكل جدران المسجد الخارجية الغربية والشامية وهي على طراز بناء الجدر المصرية القديمة وقد تحول هذا الهيكل إلى كنيسة في عهد « Théodose » في سنة « ٣٧٩ - ٣٩٥ » للميلاد وبقي كذلك حتى الفتح الاسلامي .

وقد كشفت الحفريات آثار قيمة في تل النبي مندو وهي قديش القديمة أحد حصون الحثيين وثبت هذا الحصن طويلاً أمام هجمات المصريين حتى استولى عليه الفرعون سيتي الاول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ودك حصونه وقد خلد انتصاره بنصب محفوظ في متحفنا نقش عليه رسم الفرعون يتناول القرابين من أربابه وأرباب الحثيين المغلوبين . وقد عثر الكونت « De Mesnil » منذ سنوات على مدينة قطننا القديمة في تل المشرفة شرقي حمص وهذه المدينة كانت زاهرة في القديم فعثر فيها على

قبور ملوكها ووجد فيها آثار لها شأن تاريخي عظيم يرجع معظمها إلى النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد . وفي شمال سورية كثير من المدن التي سكنها الحثيون زمناً طويلاً وسيكون لآثار هذا الشعب المجهول مكانة عظيمة متى حلت رموز رقه وفهمت لغته .

لا يمكننا في ساعة واحدة إلا التلميح إلى آثار سورية إذ كل أثر منها يستغرق ساعات . وقد سبقنا الغربيون وكتبوا المجلدات عنها فاليهم يرجع الفضل بكشف هذا الماضي المجيد . وآثار سورية هي أحق بعناية أبنائها فتعود علينا بفوائد مادية وأدبية لا تقدر .

دمشق : شباط سنة ١٩٢٩ .

لغتي شوقي

للأستاذ عز الدين السوزي

بلغ في القرن الماضي انحطاط البيان العربي ، شعره ونثره ، أسفل دركاته في جميع الأقطار العربية ، ولولا من تداركه من أمراء الشعر وزعماء النثر الذين تعهدوا روضه بالحرث والتشذيب والتهديب لما اكتست لغتنا حلتها العصرية الزاهية ، ولما عادت إلى مكانتها السالفة ، فعدت من اللغات الحية السامية ، ولما ظهر في مصر والشام والعراق من الشعراء المنصرفين في فنون الشعر الحلي ، والكتاب الأبياتاء من أعانوا من تقدمهم في الأخذ بناصر هذه اللغة العذبة المباركة فأعادوا إليها شبابها بما أحيوه من آدابها ، وإلا فإن سخنة عين الأدب ما كان عليه البيان منثوره ومنظومه قبل الشيخ محمد عبده وإبراهيم المويلحي والبارودي وصبري وحافظ وشوقي : تماير سوقية مبتذلة ، وكلف بالصناعة وشغف بالتصنع ، وألفاظ لا منخولة ولا معسولة ، ومعانٍ سقيمة مرددة مملولة ، والغالب مع ذلك على النثر انطباعه على سجع ليس تحته رجع ، ولنا أن نعتبر البارودي هو المهلهل الثاني ، لأن الأول قد هلهل الشعر وقصده ، والثاني قد أنعشه وجدده ، وعرض للناس أسلوبه الجزل المستقطر من أساليب البحري والمتنبي وأبي تمام والرضي وصریح الغواني وسائر من اختار لهم في مختاراته من حذاق القريض ورواض القوافي ، وقد حذا صبري حذوه في تنقيح الشعر وتنويقه ، إلا أنه قد فاهه بتقصيره وترقيقه ، وقد بارأها حافظ وأخذ إخذها في شد أسر الشعر وتجويد جبكه ، وأما راحلنا الكريم فقد كان

بادي الرأي يخشب الشعر في شببته ، بينما كان حافظ يباليغ في تنقيحه وتحكيكه ، فكان المولعون يومئذ بصناعة الشعر يفضلون في ذلك حافظاً على قريمه شوقي ، وأما المولعون بقوة الشاعرية وسمو المعنى ، وسعة الخيال وخلود الحكمة والأمثال ويبعد الشعر عن التعسف وقربه من الطبع والطلاوة فكانوا في ذلك كله يفضلون شوقي على خدينه ، وكان لسان حالهم يقول :
 إذا صح أن شوقياً يخشب الشعر وحافظاً ينقحه ، فإن خشب شوقي خير من تنقيح حافظ ، كما قيل مثل ذلك في جرير والفرزدق ؛ والحقيقة أن شوقي ما كان يخشب الشعر في شببته إلا لسرعة خاطره ، وفيض قريحته التي كانت تحمله على قول الشعر على البديهة لا يكدر فيه طبعاً ولا يسهر عليه جفنًا ، مع أنا رأينا بهمد كهولته يعني بتنقيح أغمة شعره حتى أوشك أن يجاري في ذلك أخاه حافظاً ، ذلك الذي كاد لفرط تنقيحه وتحكيكه للشعر يشبه الخطيئة الذي يقول : « خير الشعر الحولي المنقح المحكك » ، وبذلك حق لشوقي أن يقلد إمارة الشعر بمبناه ومعناه معاً ، وقد كان العرب كما ذهب إليه صاحب الوساطة « إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأعزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تبعاً بالتجنيس والمطابقة . ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . » وشوقي في الكثير من ذلك وبوفرة إنتاجه ، وازدياد شعره شباباً وفتوة بازدياده شيخوخة وضعف قوة يتفوق على سائر المعاصرين .

تخرج شوقي في اللغة على الأستاذ النابغة المرصني صاحب الوسيلة ، وكان أحب الشعراء إليه — كما أجاب به سائلاً — هو المتنبي قال ما نصه :
 « وأنا أعده أستاذي الأول ثم يلي المتنبي ابن الرومي ، وأحب شعراء العرب إليّ ثكتور هوغو ودي موسه الذي لا أمل القراءة فيه » ؛ ومن

ذلك نستنتج أن لغة أمير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة نبي الشعراء
أبي الطيب المتنبي ، الذي كان يذكره في شعره قائلاً :

ولو مشيت بي الليالي تحت كوكبه
غادرت أحمد نسياً وابن حمدانا

وتأثرت بعده بلغة ابن الرومي ، ثم بلغة من عارضهم من فحولة الشعر
وصاغة القريض كالبحثري الذي عارضه في سيدنيته ، والحصري في داليتيه
والأبوصيري في البردة والهمزية وابن زيدون في أندلسيته النونية ، وأمثالهم
ممن يمر كلامهم العذب على الآذان بحر الصبا على عذبات الأعصان ، وإنما
تأثرت لغة شوقي بمعارضة قلائدهم المشهورة لأن المعارضة تدعو إلى المضارعة ،
فإن كان المعارض جيد الحبك تقي المستشف اقتبس المعارض ذلك منه
طبعاً وارتاض على طريفته ، وإن كان المعارض رديء السبك ، ضعيف
التأليف متجافياً عن مضاجع الرقة ومتجانفاً عن مذاهب السلاسة أثرت
لغته بمقدار زمن المضارعة والتقليد ، ذلك أن العبارة السقيمة أعلقت بالنفس
كما ذهب إليه الجاحظ من العبارة القويمة ، وأسهل مراساً وأهون اقتباساً ،
والحقيقة أن المتأمل في شعر شوقي وأسلوبه وتعبيره وتركيبه ، يوقن أنه
خلاصة أساليب فحولة القريض ، هذا في الشعر ، وأما النثر فقد كان
يمجبه أسلوب ابن خلدون كما يظهر ذلك من شعره ، وتروقه لغة المبرد
في كامله ، قال في تحليته لكتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض :

لغة الكامل في استرساله
وابن خلدون إذا سح وصابا

ولغة المبرد امتازت بمئاتها وابن خلدون بطلاوتها ، فشوقي على ذلك
تعجبه لغة المجودين من أمراء الصناعتين وإن كان لا يحسن استرسالهم إلى
تكلف في سجع يرد الطبع كثيراً منه ، ولا يعجب بلغاء الكتاب المترسلين .
إن الشعر على مذهب شوقي لا يسمى شعراً ما لم يكن عاطفة وحكمة
وذكرى ، فاذا ما نحن حللنا شعر ديوانه ، وأنعمنا النظر في أسلوب
تفكيره وبيانه ، حكنا بأن ذكراه وعاطفته الذائبة في شعره الوجداني
قد قويتا فيه بتأثره بشعر أبي تمام والرضي وابن الرومي والبحثري وبشار

ومهيار وأضرابهم ، وأن حكمته التي أكثر منها في شعره ، وكثيراً من أساليب بيانه قد احتذى فيها طريقة أستاذه الأول أبي الطيب ، كما قال في حكمة الشعر :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
ومن الأمثال الدالة على تأثير المتنبي في أسلوب شوقي قوله مثلاً :
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم
وشوقي يقول محتدياً أستاذه :
ولا تبال بكنز بعد مبسمه أغلى اليواقيت ما أعطيت والدرر
والمتنبي يقول في ابن العميد :
عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده

وتلهيذه شوقي يقول في الخديوي سعيد :
عربي زمانه عمري عهده فيه رحمة ووفاء
وانظر الى قول شوقي في حور دمر والهامة :
والحور في دمر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
تجد أنه في تشبيهه الحور بالحور وقد كشفن عن ساق ينظر إلى قول
مهيار في الأشجار :

وعزت فصانت سوى ساقها وما إن أباحتها إلا اضطارارا
تشمع عنه جلايبها لعادته أن يخوض الغمارا
ثم انظر إلى تأثره بشعر المعري مثلاً :

لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إمآء
وأبو العلاء يقول من قبله :
للمليك المذكرات عبيد وكذلك المؤنثات إمآء

وكذلك يقول شوقي :
ومهد المرء في أيدي الروافي كنعش المرء بين النائمات

مثلما قال المعري من قبله :

وشبيه صوت النمي إذا قيــــــــس بصوت البشير في كل ناد
وألفت نظرك بسد ذلك كله إلى قول شوقي وهو يصف الأطلال
المندثرة والرسوم المبعثرة :

فلا تستبين سوى قرية أجده محاسنها ما اندثر

فتحسبه ينظر إلى قول أبي نؤاس في وصف الرسوم :

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم

ولا نكران أن تأثر الشاعر بمن تقدمه من خولة الشعر أمر طبيعي ،
وقلما نجا منه أحد من رواض القوافي ، بيد أن من التأثر ما يبعث إليه
التقليد والتقليد مما لا يدعو إليه مقنض حال ، ولا يولده صدق عاطفة ،
وهو ما يجب أن يتخلى منه الشعر المعبّر عن الشعور ، ولولا مثل هذا
التقليد الناشئ عن تقليده لآسأيب الجاهلية لب عن نفسه غيبة من
تهجم عليه من المجددين ، ولاضعف من حججهم عليه وإن كان فيها كثير
من روح التحامل ، فما انتقد عليه قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

قالوا : لقد كان بإمكانه أن يشبب ريم مصري يرتع بين الجزيرة وحلوان

أو النيل والأهرام فيقول مثلاً :

ريم على المرج بين النيل والمهرم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ولكنه جرى تقليداً على أسلوب من سبقه من شعراء الجاهلية الذين
كانوا يتغزلون بما يعرفون في جزيرة العرب وما يشاهدونه ويشعرون به ،
وأما من ترسم آثارهم من التابعين فأية علاقة لهم بالبان والعلم وكاظمة
وذي سلم ، والروحاء ودارة العلم ، وأي ذكرى تهيجهم لذكرها ووصفها ،
فإن قلنا لهم إن شوقي ما تشوق إلى البان والعلم — وهو في هذا الموطن
صحيح — إلا لاتصال هذين الموضعين بمدينة النبي العربي المبين ، قالوا :
فما باله إذن لا يترك مثل هذا التشبيب في قصيدة يقولها في مشروع ملنر :

اثن عنان القلب واسلم به من ررب الرمل ومن سربه
وما باله يقول في قصيدة أخرى أنشدت في حفلة تكريم المعتقلين
يخرجون من السجن :

يحدجن بالحدق الحواسد دمية كظباء وجرة مقلتين وجيدا
مقلداً في ذلك قول امرئ القيس وبينها ما بينها من القرون :
تصد وتبدي عن أسيل وتتي بناظرة من وحش وجرة مطفل

ألا سمعت ما قاله القاضي في وساطته : « ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنويون
في وجرة وجاسم ، فأما يطلب به بعضهم الأعراب على بعض ، وقد رأيت
ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وسأت من لا أحصي من
الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً عن وحش ضريبة وغزلان
بسيطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ،
وأما العميون فقل أن تختلف لذلك » .

وهذا لا يمنع أن شوقياً كان واقفاً على أسرار العربية عارفاً بفرائدها
الفصحى ، مميراً بين معسولها ومرذولها ، وأنه كان لا يستعمل الوحشي
الغريب إلا إذا عز وجود الأجنبي القريب ولم يقدّم مقامه في دقة التعبير
وفي وضوح الدلالة والإشارة ، وكثيراً ما تبيّنه للغريب المهجور ضرورة
القافية كالفنا المشتجر ، وأقام الصعر ، والحجيس الدر أو ما هو أغرب من
ذلك كجرضى وحضوضى والبوغاء بمعنى التراب والعماء بمعنى السحاب
وهلم جراً ، ولعله لولا طول نفس القافية في طويلاته التي يختلف عدد
الواحدة منهن ما بين مائة وثلاثمائة بيت تقريباً ، لولا ذلك لما اضطر إلى
استعمال غريب القوافي المهجور ، وترك القريب الحبيب المشهور ، نعم إن
من الموضوعات ما يلجئ الشاعر بطبيعته إلى الأسهاب ، وإنه ما زالت
الصلة بالشعر القديم وثيقة العرى ، غير أن الخلود في الشعر بهذا العصر
لا يكتب إلا للقصار ، التي لا يلجأ فيها الشاعر إلى التعمل والضرائر ؛
على أن له من القصائر الخالدة لامتيازها بألفاظها المتخيرة ومعانيها العلوية

وعواطفها المتأججة ما يتغنى به العاشق الشاكي والصندوق الحاكي في الشوارع والمجامع .

وفي لغة شوقي مفردات عامية كان يتجاوز في استعمالها إثارة لوضوح الدلالة ، وماذا كان عليه لو تقي لغته من أمثال طار بمعنى إطار الواردة في قوله يصف قرص الشمس طالماً :

فسمت فكانت نصف طار ما بدا حتى أناف فلاح طاراً أكبراً
إذ لم ترد طار في الفصحى بمعنى إطار الذي هو حلقة الشيء وما أحاط به ومنه إطار الدف والمنخل ، وإطار البيت كالمنطقة حوله ؛ ومنها فعل حرق بمعنى أضرمت فيه النار إذ لم يرد متعدياً إلا بالهمزة ، وأما الثلاثي فقد ورد بمعنى آخر وهو حك بعض الأسنان ببعض من الفيظ والحنق نحو حرق عليه الأرم ومنه قول الشاعر :

نبئت أحماء سليمى إنما بانوا غضاباً يجرقون الأرماء
ويقال : حرق الرجل مبنياً للمجهول فهو محروق إذا انفصلت حارقته وهي العصبية الجامعة بين رأس الفخذ والورك ؛ كما انه جاء بمعنى برد الحديد بالبرد ، فالأفصح إذن أن يقال أحرق لا حرق كما يقال أغلق لا غلق ؛ ومن هذه الألفاظ العامية لفظة دهان بمعنى نقش في قوله :

صحب الزمان دهانها حيناً عبيداً بعد حين
فالدهان جمع دهن ، وقد وردت في قوله تعالى : « فكانت وردة كالدهان » ، قال الفراء : شبهها في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ؛ ويطلق الدهان على الجلد الأحمر ، فالدهان على ذلك لم يرد بمعنى النقش والطلاء Peinture ، إلا اذا اعتبرنا الدهان من قبيل المجاز المرسل لحلول الصبغ في الدهن وهو زيت الدهانين المعروف ، ولو قال : « صحب الزمان نقوشها » لاستقام الوزن ولاصاب شاكلة الفصحى .

ومنها لفظة المعية بمعنى الحاشية والبطانة في قوله :

قامت السراة به والمعية النجيب

فإن البطانة تحل محل المعية ويستقيم الوزن معها ، والمعية من مصطلح النحو بمعنى المصاحبة ؛ وأما استعمالها بمعنى البطانة فمن المصطلحات التركية لا العربية ، وفي استعمالها التباس ينافي التخصيص ولا حاجة في التعبير إليها .

بيد أن من الألفاظ العامية ما يحتاج إليها لعروبة مادتها ورشاقة صيغتها ، ولعدم ما يقوم مقامها كلفظة مرفع بمعنى كرتال ، فقد استعملها شوقي في قوله يخاطب النفس :

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ثوب الممثل أو لباس المرفع
وإذا نحن أبينا أن نستعملها فقد حجبنا واسعاً وحملتنا الحاجة إلى
استعمال « كرتال » كما أننا لو لم نستعمل جريدة لاضطررنا إلى استعمال
« جورنال » .

هذا وقد امتاز بما وفق إليه من حسن استعمال الأعلام الأعجمية مع
المحافظة على رنة الشعر الموسيقية ، فتسمعه في مطلع قصيدة « طوكيو »
التي وصف بها نكبة اليابان بزوالها يقول :

قف بطوكيو وطف على يوكوهامه وسل القريتين كيف القيامه
ولصني إليه في قصيدة أخرى يخاطب الورد كرومر :
هل من نذاك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتوبولا
فتجد للفظه الأعجمية في هذا البيت مع بشاعتها حسن الشيء يحل
محلّه ، ثم يذكر لك وزيرين انكليزيين ومدينة انكليزية في بيت واحد وهو :
واحمل بساقك ربطة في لندن واخلف هناك غراي أو كمبيلا
ومع أن الأكثر في الشعر من الألفاظ والأعلام الأعجمية الثقيلة
كما ينافي لغة الشعر وسلاسته ، وهي أجمل حلاه ، ويجافي رنته الموسيقية
وهي نشوة طلاه ، نجد الشاعر بحسن تصرفه وتأنيبه وتلفظه يكاد يعرب لنا
تلك الطمطمانية حتى نسيها ، من ذلك التلطف قوله :

أم المالكين بني أمون ليهنك أنهم نزعوا أمونا
ولدت له المآمين الدواهي ولم تلدي له قط الأمينا
فقد أتبع البيت الأول المنتهي بأمون بالثاني المنتهي بالآمين ومن هذه القوافي
التي أحكم وضعها قوله :

لك الأصل الذي نبتت عليه فروع المجد من « كرنار فوناه »
خليلي اهبط الوادي وميلا إلى غرف الشموس الغاريدنا
وخصا بالعمار وبالتحايا رفات المجد من « توتخمينا »
وأما قوله في وصف ينبوع « كوك صو » بالاسنانة فهو من مائه أعذب
وتحينه منه أطيب :

تحية شاعر ياماه « ككسو » فليس سواك للأرواح أنس
وله من التعابير ما اختص بها ، أو أحيهاها وأذاعها بشعره كقوله في
دمشقيته المشهورة :

و « للحرية الحمراء » باب بكل يد مزرجة يدق
وأعاد « الحرية الحمراء » في قصيدة أخرى بقوله :
لا بد « للحرية الحمراء » من سلوى ترقد جرحها كالبلسم
وأورد هذا التعبير والحرية موصوفة بوصف آخر في قوله :
سلوا « الحرية الزهراء » عنا وعتكم هل أذاقتنا الوصالا
فهذا التعبير مما اقتبسه شوقي من أستاذه الأول أبي الطيب ، وله
فضل إذاعته ، فقد قال المتنبي يصف الحدث بالجرأ لانصباعها بالدماء .
هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقين الغائم
ومن تعابيره الشوقية المبتدعة قوله : « العلم بدري » فإنه نسب العلم
إلى بدر مشيراً إلى الأثر القائل : « إن أهل بدر مغفور لحم هفواتهم » :
والعلم بدري أحل لأهله ما يصنعون
ومنها كليوباترة المكابد ، وإيزيس الندي ، وعيسى الشعور ، وعمرو

الأُمور ، ونعمته لا يبي الهول بديدبان القدر أي حارسه ورقبيه ، وأمثالها كثيرة في شعره ، وآخر ما صنع من ذلك تلقيبه لصديقه حافظ بحافظ الفصحى .
ومن المفردات التي يظن أن شوقياً أول من استعملها ونشرها لفظة « مثال » أطلقها على نجمات التماثيل وصناعته « المثالة » ولم تنتشر هذه الكلمة إلا بدافع الحاجة إليها ، ولا كتب لها البقاء إلا بمقتضى ناموس بقاء الأصلح ، ونحن أحوج ما نكون في هذا العصر إلى أمثال هذه المفردات المخصصة التي تعين على التدقيق في التعبير العربي ، وقد أحيائها أو أذاعها شوقي باستعمالها ، واللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالاهمال ، ومن أحق من الشاعر النابغة أو الكاتب البليغ بالأخذ بناصر اللغة بما يحويه أو يذيعه من مفرداتها .

وهذا لا يمنع اللغوي الضليع كشوقي أن يسجد في محراب اللغة سجدة السهو كقوله في أسواق الذهب يتحدث عن التزوج بانهن : وإن التيس لو عقل ما اتخذ نمجتين ، فكيف يتزوج الفقير العاقل بانهن ، والصواب أن يقول : ما اتخذ عنزتين ، إذ التيس ذكر المعزى لا الضأن الذي يطلق الكبش على ذكره والنمجة على انثاه .
ومن أبلغ من عني بلغة شوقي ونقدها في مصر محمد المويلحي ، وفي الكثير مما نقده ما يدل على ذوق سليم وملكة في الأدب قوية مثال ذلك قول شوقي :

وقطعة خد بينما هي جنة لعينيك يارائي إذا هي نار

قال المويلحي : « لو قال صفحة خد لسكان التعبير أحسن وأجمل لأن القطعة بغير الخد أنسب » .

وتنفحت لغة شوقي ، وورقت عبارته وازداد شعره رصانة وانسجاماً ،
وأي قول له أيام كان يخشب الشعر :

كم يا جماد قساوة
نطوي إليك دجي اليا
كم هكذا أبدأ جحود
لي والدجي عنا يذود

من قوله أيام تنقيحه وتهذيبه :

الله في الخلق من صبٍ ومن عاني تفتى القلوب ويبقى قلبك الجاني
صوني جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني
ولئن قيل ان امرأ القيس قد سبق الى أشياء ابتدعها واستحسنها
العرب واتبعه عليها الشعراء ، وعدوا منها استيقافه صحبه في الديار ،
فان شوقي قد سبق معظم شعراء عصره في كثرة الاستيقاف وطلب القيام
في مطالع قصائده كقوله مستوقفاً :

قف نـاج اهرام الجـلاد وناد هل من بناتك مجلس أو ناد
قف بالملك وانظر دولة المال وأذ كر رجالاً أدالوها باجمال
قف بروما وشاهد الامر واشهد ان للملك مالـكاً سبجانـه
قف على كنز بباريس دفين من فريد في المعاني وثمان
قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا
ومما سأل به القيام وهو كالاستيقاف من أساليب تعبير شوقي ولغته الشعرية :

قم نـاج (جلق) وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان
قم ناد (أنقرة) وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك
قم في فم الدنيا وحي الأزهرا وانثر على سماع الزمان الجوهرا
قم سابق الساعة واسبق وعدها الأرض ضاقت عنك فاصدع غمدها

قم حي هذي النيرات حي الحسان الخيرات
وأما لغة مطالع قصائده فمنها الركيك بمعناه ومبناه كقوله مثلاً :
يا بـارك الله في الدنيا بعباس وبارك الله في عمات عباس
ونحن إذا جارينا في هذا البيت من انتقد مطالع شوقي ، لا نجاريه
في النقد على إطلاقه فان لشوقي من المطالع ما يعد من الروائع كقوله مثلاً :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفمي هذي المحاسن ما خلقن لبرقع !
 رمضان ولئى هاتها ياسافي . مشتاقه تسعى الى مشتاق .
 قلب يذوب ومدمع يجري يا ليل هل خبر عن الفجر ؟
 بالله يا نسفات النيل في السحر هل عندكن عن الأحاب من خبر
 يا نأح الطلح أشباه عوادينا . نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وقد يستعين الانسان لتوضيح عبارته بالتشبيه ولا يستغني عنه أحد من العامة ولا الخاصة ، والأصل الذي يعتمد عليه فيه أن يشبه المتكلم المجهول بالمعلوم لدى المخاطب ، فاذا انعكست القضية خفي المقصود وهو المشبه على المشبه له ، وبذلك يكون التشبيه ركناً خطيراً من أركان البيان ، وعوناً ملبياً للمصور الواصف ، ولكن التشبيه قد خرج في عصور انحطاط البيان العربي عن محوره ، وبعد عن غايته ، وأصبح مطمح الشاعر ومسمى خياله أن يشبه شكلاً بشكل ولوناً بلون وطولاً بطول ، وإن لم يكن وجه الشبه واضح الملامح ، لأن المشبه لم يقصد في محاكاته تصويراً ولا تبييناً ، وإنما أراد تزويقاً وتحسيناً ، وبذلك لم يصبح التشبيه من أركان البيان بل أمسى من محسنات البديع اللفظية ، وقد انتبه الشاعر إلى ذلك فأثقت كثيراً من شعره وشفاه من هذه العلة وهذا النوع من المي والحصر ، وإذا أردت مصداق ذلك فانظر مثلاً إلى ذلك التصوير البارع في التشبيه التالي :

بنّاً فلم نحل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يفادينا
 كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقينا
 ومصر كالكرم ذي الاحسان فاكهة لحاضرين وأكواب لبادينا
 ومنها :
 نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
 ولا يحول لنا صبغ ولا خلق إذا تلون كالحرباء شانينا

وأتم النظر في تشبيهه للحمام الأسود المغرّد بالراهبات المرتلات في سود
الجلابيب ، وتأمل ما في ذلك من جمال البيان ولطف المحاكاة :

بيض القلائس في سواد جلابب حلين بالأطواق والأوضح
رتلن في أوراقهن ملاحناً كالراهبات صبيحة الإفصاح !
يخطرن بين أرائك ومنابر في هيكل من سندس فياح
وإذا جردت بقوة مخيلتك ما في البيتين التاليين من صورة دقيقة واضحة ،
شهدت بما للتشبيه الصادق من قوة التصوير وبلاغة التعبير :

وترى الفضاء كحائط من مرمر نضدت عليه بدائع الألواح
القيم فيه كالنعام بدينة بركت وأخرى حلقت بجناح !
وجرت سواق كالنوادب في القرى رعن الشجي بآنة ونواح
الشاكيات وما عرفن صباية الباكيات بمدمع سجاح
من كل بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح
تبكي إذا ونيت، وتضحك إن هفت كالعيس بين تنشط ورزاح
هي في السلاسل والغول وجارها أعمر ينوء بنيره الفداح !

اللفظة المجازية في شعر سوفي

لا نكران أن لغة الحقيقة في كلام أمير الشعراء هي لغة الشعر الرقيقة
المنسجمة ، المنحلة الألفاظ ، المتقنة التركيب ، ومن أحق منه بالاهتداء
إلى كرائم الألفاظ ورفائق العبارات ، فقد آخى في شعره بين فصاحة
اللفظ وبلاغة القول في سلك بيان ناصع ، ترافقه رنة موسيقية علوية
أشبه شيء بالرنة البحرية ، وأما لغة شوقي المجازية فغالبية على بيانه ،
وقلما خلت جملة أبيات منها ، والظاهر أن الاستعارة بأنواعها متغلبة على
المجاز العقلي والكنائيات في شعره ، ولا أمر ما ولت العرب بالمجاز لما فيه
من قوة التصوير وغمامة التعبير مع الإيجاز ، ولما يحصل به للنفس من
أريحية مما يدل على ميل بالعرب إلى اتساع الكلام . وإن التنين في وجوه

التعبير نتيجة لازمة لقوة التصوير والتفكير ، وقد يما كان الانسان إذا
عجز في الكتابة عن التعبير بالرموز الحرفية يلجأ إلى رموز الصور مستعيناً
بوضوح دلالاتها ، فالتصوير الخطي والبياني من أقوى وسائل التعبير .
ومن مجازاته العقلية قوله في مطلع نهج البردة .

« ريم » على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الاثمه الحرم
رمي القضاء بعين « جوذر » « أسداً » ياساكن القاع أدرك ساكن الاجم
فالريم وهو الظبي الخالص بياضه والجوذر وهو ولد البقرة الوحشية
قد أطلقها على محبوبته مجازاً وأطلق الاسد على نفسه ، وكنى عن الغزال
بساكن القاع وعن الأسد بساكن الاجم ؛ وفي هذين البيتين من فن
البديع طباق بين قوله « أحل » وبين « الحرم » ، وهو من المحسنات التي
يزين بها شوقي لغته كثيراً ، وبعد أربعة أبيات من هذا البيت يتان
في كل منها مطابقة وهما :

لقد أثلت أذنًا غير واعية ورب « منتصت » والقلب في « صم »
باناعس الطرف لإذقت الهوى أبداً « أسهرت » مضناك في حفظ الهوى « فتم »

استعاراته

أما الاستعارة المبنية على التشبيه فكانتها ما غلبت على لغة شوقي إلا
لاعتقاده بأنها أبلغ من المجاز العقلي لما بين طرفي الاستعارة من المناسبة
القوية والمبالغة التي تميز لك أن تسمي الشيء بغير اسمه وتبلغ بها حد
الاتحاد ، ولولا القرينة الدالة على مرادك لما انتبه الخاطب إلى غير المفهوم
من العبارة ، وإنك لترى الاستعارات البليغة بأنواعها فيما سنورده على
سبيل المثال :

الفاتلات بأجفان بها سقم ولعنبة أسباب من السقم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً أشكاله وهو فرد غير منقسم

فقوله القاتلات بأجفان استعارة مكنية لحذف المشبه به وهو السيوف التي رمز اليها بشيء من لوازمها وهو القتل ، وفي قوله : الحاملات لواء الحسن استعارة مكنية أيضاً ولواء استعارة تخيلية والحمل ترشيحية ، ومع ذلك نجد في حمل لواء الحسن كناية جميلة عن نهاية الحسن فيه ، ومن الاستعارات التصريحية التبعية الكثيرة في شعره قوله :

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثواني
فقد شبه في هذا البيت الحكيم الدلالة على الشيء بالقول بجمع الايضاح ، واشتق من القول قائمة بمعنى دالة ، والقريظة نسبة القول الى الدقات ، ومن استعاراته اللطيفة قوله :

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزمأ يقطع الذنبا

• • •

يتمشى القضاء خلف نواهيــــــــــــــــك حديد الأظفار يطلب صيدا
قصد الدهر منك ركن المعالي ورعى طودها الذي كان طودا

• • •

قف نالج أهرام الجلال وناد هل من نباتك مجلس أو ناد
ففي مناجاة الأهرام استعارة وفي المجلس والنادي مجاز مرسل وبين ناد الامر ونادي الاسم جناس تام ، ووجود ذلك كله في بيت واحد دليل على ولع شوقي بالاستعارات والمحسنات .

كنايات

وقد أواع بالكناية لأنها من أبغ ضروب المجاز بقوة تأكيدها وبيان تعبیرها ، بل جعلها البيانون أبغ من المجاز لأن دعوى الكناية مؤيدة بالبرهان ، ودعوى الاستعارة لا دليل عليها ، ومن كناياته البليغة وهي كثيرة قوله :

فدع كل طاغية الزمان فان الزمان « يقيم الصعر »
 رفقاً بجفن كلاً أبكيتة سال « العقيق » به وقام الماء
 وبين الهوى والعدل للقلب موقف تكالك بين السيف « والنار » ثاويًا
 وبيان كما تجلى على الرسـم تجلى على « رعاة الضال »
 ومن جناساته التي شغف بها قوله :
 و « سلا » مصرهل « سلا » القلب عنها أو « أسا » جرحه الزمان « المؤسي »
 يا قصوراً نظرتها وهي « تقضي » فسكبت الدموع والحق « يقضى »
 « زار » والحرب بين جفني ونومي قد أعد الدجى لها « أوزارا »
 ما لرب الجمال « جار » على القـلـب ب كأن لم يكن له القلب « جارا »
 ومن المطابقة في هذه القصيدة والطباق من محسنات البديع المعنوية قوله :
 يا ليالي لم أجذك « طوالاً » بعد ليلى ولم أجذك « قصارا »
 إن من يحمل الخطوب « كباراً » لا يبالي بحملهن « صفارا »
 ومنها الشيء الكثير في شعره قوله :
 وبى رشاً قد كان دنياي « حاضراً » ففادرنى أشتاق دنياي « نائياً »
 وفي هذا البيت « إيهام المطابقة » فان النائي ليس بضد الحاضر وإنما
 يوم بلفظه أنه ضد ، ومثله قول دجبل :
 لا تمجبي يا سلم من رجل « ضحك » المشيب برأسه « فسكى »
 ومن مطابقتة الرائمة ويسمي طباق المقابلة قوله :
 ولكن بالالـحـاظ « مرضى » « كليله » فكانت « صحاحاً » في القلوب « مواضيا »
 ومن محسنات شوقي المعنوية أيضاً « الاستخدام » أي ذكر لفظ
 بمعنى وإعادة ضمير عليه بمعنى آخر كقول البحترى :
 فسقى الغضا والساكنية وإن هم شموه بين جوانح وقلوب

ومثله قول شوقي في إيزيس وهو القمر عند قدماء المصريين وإحدى
معبوداتهم سميت باسمه :

تضيء على صفحات السما ء وتشرق في الأرض منها الحُجُر

ومنها « الجمع مع التفريق » كقول البحثري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا تمجِب رأِّي الدر منا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

ومثله قوله في مخاطبة الحمام :

أراك يمانياً ومصر خميلتي كلانا غريب نازح الدار موجه

ها اثنان : دان في التغرب آمن وناء على قرب الديار مروّع

ومن محسناته « التصريع » وهو استواء آخر جزء في صدر البيت
وآخر جزء في عجزه في الوزن والروي والاعراب وهو أليق ما يكون
بمطالع القصائد ، وفي وسطه ربما يعجبه الذوق وينبو السمع عنه ، ومعظم
مطالع شوقي مصرعة وقد تجده في أوساط قصائده أيضاً مع انسجام ورنه
موسيقية يستعذبه الذوق ولا ينبو عنه السمع لأنه وليد الطبع كقوله :

لك أن تلوم ولي من الأعدار أن الهوى قدر* من الأقدار

ومن التصريع المستحسن في الوسط قوله من قصيدته الأندلسية

التي مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وفي وسطها يقول :

في ديار من الخلائف دَرَسِ ومنا من الطوائف طلس

وكل ذلك ما كان ليحظ من منزلة أمير الشعراء أو ليدق من خطره
وهو القابض على ناصية البلاغة في شعره الخالد ، والملقن ما يحاوله ،
والمحدث بما في نفسك ، وقد وقف على أسرار العربية وشغف بسواحرها

شغفًا جملة يتفنى بعربيته وعروبه ، غافلاً عن جنسيته وأرومته ، فمن
تغنيه بعروبه قوله وفيه من محسنات البديع الاكتفاء :

تسأل أتراها	مومئة بالعم
أيّ فتى ذلكن	العربي العلم ؟
قلن تجاهلته	ذاك رب القلم
شاعر مصر الذي	لو خفي النجم لم

ومن تغريده في عربيته وهيامه بمجاسنها الأدبية ومزاياها العلمية قوله :

إن للفصحى زماماً ويدا	تجنب السهل وتقتاد الصعاب ؟
لغة الذكر لسان المجتبي	كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها إن صادفت	منزلاً رجباً وأهلاً وجنابا
أنت بالعمران روضاً يانماً	وادعها تبحر ينابيع عذابا
لا تجبها بالمتاع المقتنى	سرقاً من كل قوم ونهابا
سل بها أنداساً هل قصرت	دون مضمار العلي حين أهابا
غرست في كل ترب أعجم	فزكت أصلاً كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب	غير رجليها ولم تحجل غرابا

ومنه قوله :

إن الذي ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

دمشق : تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ .

فهرس الجزء الثالث
من محاضرات المجمع العلمي العربي
القسم الأول

يحتوي على ثلاث عشرة محاضرة للمتوفين من أعضاء المجمع العلمي العربي
« رحمهم الله » هي :

	صفحة
أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية	١
للأستاذ محمد كرد علي	
نهضة العرب العلمية في القرن الأخير	٣٢
للأستاذ شكيب أرسلان	
اللغة العربية وخزائنها الأدبية	٦٢
قديمًا وحديثاً	
للأستاذ خليل مطران	
المتنبي وسيف الدولة	٧٥
للأستاذ أحمد أمين	
فلسفة القوة في شعر المتنبي	٩٢
المتنبي رسول العروبة	١٠٢
للأستاذ أمين الريحاني	
سيفيات المتنبي ، نثر الشعر ، قول في	١٢٧
أبي الطيب	
للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي	
الشعر	١٤٤
للأستاذ سعيد الكرمي	
بماذا يكون انتظام المجتمع الانساني	١٦٠
للأستاذ قسطاكي الحمصي	
إعراس الخليفة المأمون	١٧٦
للأستاذ عبد القادر المبارك	
لغة المتنبي	٢٠١
للأستاذ احمد رضا	
روح الطموح في المتنبي	٢١٢
للأستاذ سليم عنجوري	
الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع	٢٣٠
للأستاذ عبد الله رعد	
القضاء عند عرب البادية	٢٥٥

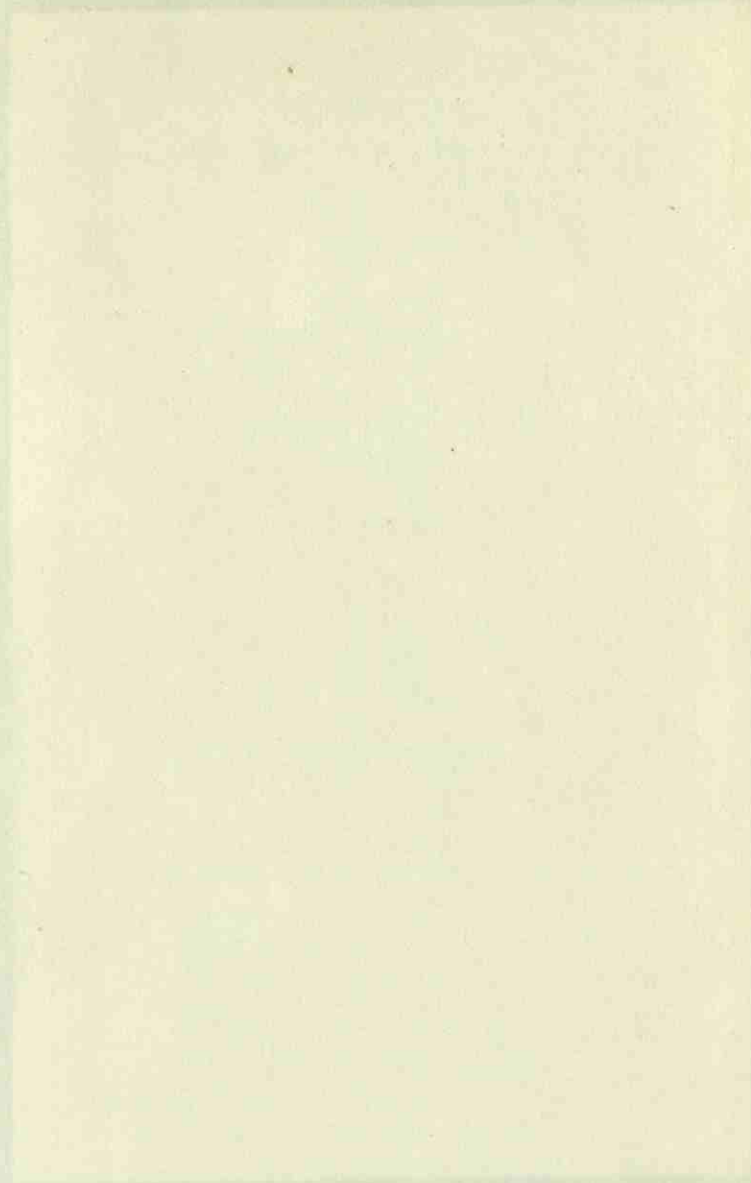
القسم الثاني

يحتوي على أربع عشرة محاضرة هي :

	<u>صفحة</u>
للاستاذ خليل مردم بك . . .	٢٧٣ عدي بن الرقاع العاملي . . .
للاستاذ عبد القادر المغربي	٢٩٥ سياسة تمخضت بلغة
للاستاذ محمد الخضر حسين	٣١٧ أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية
للاؤمير مصطفى الشهابي	٣٣١ رحلة الى العراق
للاستاذ عارف النكدي	٣٦٣ الاندلس « عبرة وذكرى »
للاستاذ محمد سليم الجندي	٣٩٠ ثقافة المتنبي ومصادرها
للاستاذ شفيق جبيري	٤١٨ شيء عن أناتول فرانس
للاستاذ أحمد حسن الزيات	٤٣٦ الف ليلة وليلة « تاريخ حياتها »
للككتور عبد الوهاب عزام	٤٧٨ { الأدب العربي في بلاد فارس واللغة العربية في البلاد الإسلامية غير العربية
للككتور عبد الرحمن الكيالي	
للككتور أسعد الحكيم	٥٠٣ الديمقراطية وأهدافها في التعليم والتربية المبائي أو الأخلاق العامة في تكوين وتطور الأمم
للككتور جميل صليبا	٥١٧
للاؤمير جعفر الحسيني	٥٤٢ قوة الإرادة
للاستاذ عز الدين التنوخي	٥٦٢ شعوب سورية وآثارها القديمة
	٥٧٩ لغة شوقي

1500

مطبعة الزمعي بدمشق



A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00490889

